

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تأليف

القاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي
المتوفى سنة ٩٨٢ هـ

تحقيق

خالد عبد الغني محفوظ

الجزء الرابع

المحتوى:

أول سورة الأنفال - آخر سورة الرعد

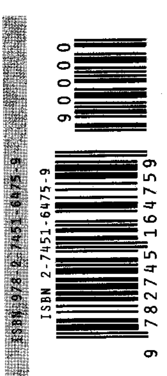


أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title :	**THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN**	تفسير أبي السعود	**الكتاب** :
Classification:	Exegesis of The Qur'an	تفسير قرآن	**التصنيف** :
Author	: Al-qādi Abu al-Suᶜūd al-ᶜImādi	أبو السعودمحمد بن محمد العمادي	**المؤلف** :
Editor	: Ḥālid Abdul-Ġani Maḥfūẓ	خالد عبد الغني محفوظ	**المحقق** :
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	دار الكتب العلميـــة - بيروت	**الناشر** :
Pages	: 4160 (8 volumes)	4160 (8 أجزاء)	**عدد الصفحات** :
Size	: 17*24	17*24	**قياس الصفحات**:
Year	: 2010	2010	**سنة الطباعة** :
Printed in	: Lebanon	لبنـــان	**بلد الطباعة** :
Edition	: 1st	الأولى (لونان)	**الطبعة** :

DKI Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنية، وهي خمس وسبعون آية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) في خ: مدنية، وسبعون وخمس.

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

﴿**يسألونك عن الأنفال**﴾ النفل الغنيمةُ سُمّيت به لأنها عطيةٌ من الله تعالى زائدة على ما هو أصلُ الأجرِ في الجهاد من الثواب الأخروي، ويطلق على ما يعطى بطريق التنفيل زيادةً على السهم من المغنم وقرئ (عَلنفال)[1] بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن في اللام. روي أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله ﷺ كيف تُقسم ولمن الحُكم فيها أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟[2] وقيل: إن الشبانَ قد أبلَوا يومئذ بلاء حسنًا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا: نحن المقاتلون ولنا الغنائم، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِدءًا[3] لكم وفئةً تنحازون إليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله ﷺ: والله ما منعنا أن نطلبَ ما طلب هؤلاء زهادةٌ في الأجر ولا جبنٌ من العدو، ولكن كرِهنا أن نعرِّيَ[4] مصافّك فيعطِفَ عليك خيلٌ من المشركين فنزلت[5].

وقيل: كان النبي ﷺ قد شرط لمن كان له بلاءٌ أن يُنَفِّله، ولذلك فعل الشبانُ ما فعلوا من القتل والأسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ما شرطه لهم فقال الشيوخُ: المغنمُ قليلٌ والناسُ كثيرٌ وإن تُعطِ هؤلاءِ ما شرطتَ لهم حرمتَ أصحابَك فنزلت[6]. والأولُ هو الظاهُر لما أن السؤالَ استعلامٌ لحكم الأنفالِ بقضية كلمةِ (عن) لا

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١١/ ١٩٣-١٩٤) رقم (٤٨٥٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٥)، وأحمد مختصرًا (٥/ ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢-٣٢٣) والبيهقي (٦/ ٢٩٢)، والطبري في تفسيره (٦/ ١٧٢) رقم (١٥٦٦٦-١٥٦٦٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٩٢).

(٣) الرِّدء: المعين والناصر. (٤) في خ: تعري.

(٥) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ٣٢٤).

(٦) أخرجه أبو داود (٣/ ٧٧): كتاب الجهاد: باب في النفل، حديث (٢٧٣٧-٢٧٣٨- ٢٧٣٩)، والنسائي في التفسير (١/ ٥١٥) حديث (٢١٧)، وابن حبان (١١/ ٤٩٠) رقم (٥٠٩٣)، والحاكم (٢/ ١٣١-١٣٢)، والطبري في تفسيره (٦/ ١٧١-١٧٢) رقم (١٥٦٦٢-١٥٦٦٣-١٥٦٦٤-١٥٦٦٥)، والبيهقي (٦/ ٢٩١-٢٩٢) وفي «دلائل النبوة» (٣/ ١٣٥)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٩٣).

استعطاءٌ لنفسها كما نطقَ به الوجهُ الأخير وادعاءُ زيادةٍ عن تعسف ظاهر، والاستدلالُ عليه بقراءة ابن مسعودٍ، وسعد بن أبي وقاص، وعليٍّ بنِ الحسين وزيدٍ، ومحمد الباقر، وجعفرِ الصادق، وعكرمةَ، وعطاءٍ، (يسألونك[١] الأنفالَ)، غيرُ منتهضٍ فإن مبناها كما قالوا على الحذف والإيصالِ كما يعرب عنه الجوابُ بقوله عز وجل: ﴿**قل الأنفال للهِ والرسول**﴾ أي حكمُها مختصٌّ به تعالى يقسمها الرسولُ عليه الصلاة والسلام كيفما أُمر به من غير أن يدخُل فيه رأيُ أحدٍ، ولو كان السؤالُ استعطاءً لما كان هذا جوابًا له، فإن اختصاصَ حكمِ ما شُرط لهم من الأنفال بالله والرسول لا ينافي إعطاءَها إياهم بل يحقّقه لأنهم إنما يسألونها بموجب شرطِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام الصادرِ عنه بإذن الله تعالى لا بحكم سبَق أيديَهم إليها ونحوِ ذلك مما[٢] يُخِلّ بالاختصاص المذكورِ، وحملُ الجوابِ على معنى أن الأنفالَ بالمعنى المذكور مختصةٌ برسول الله ﷺ لا حق فيها للمُنفَّل كائنًا من كان مما لا سبيل إليه قطعًا ضرورةَ ثبوتِ الاستحقاقِ بالتنفيل، وادعاءُ أن ثبوتَه بدليل متأخرٍ التزامٌ لتكرر النسخِ من غير علمٍ بالناسخ الأخير، ولا مساغَ للمصير إلى ما ذهب إليه مجاهدٌ وعكرمةُ والسديّ من أنَّ الأنفالَ كانت لرسول الله ﷺ خاصةً ليس لأحد فيها شيءٌ بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى: ﴿**فأن لله خُمسَه وللرسول**﴾ [الأنفال: ٤١] لما أن المرادَ بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأولُ حتمًا كما نطَق قوله تعالى: ﴿**واعلموا أنما غنتم من شيء**﴾ الآية[٣]، على أن الحقَّ أنه لا نسخَ حينئذ أيضًا حسبما قاله عبدُ الرحمٰن بنُ زيدِ بنِ أسلم[٤] بل بيّن في صدر السورة الكريمة إجمالًا أن أمرَها مفوضٌ إلى الله تعالى ورسولِهِ ثم بيّن مصاريفَها وكيفيةَ قسمتِها على التفصيل، وادعاءُ اقتصارِ هذا الحُكمِ أعني الاختصاصَ برسول

---

(١) قرأ بها: طلحة، وابن مصرف، والضحاك.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٦٤)، والبحر المحيط (٤/ ٤٥٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٨٦،٨٧)، وتفسير الطبري (١٣/ ٣٧٧، ٣٨٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٤٣).

(٢) في خ: مما لا.

(٣) هي الآية ٤١ من سورة الأنفال.

(٤) هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي المدني، روى عن أبيه وابن المنكدر وصفوان بن سليم، وروى عنه ابن وهب، وعبد الرزاق، ووكيع، وخلق كثير. قال ابن عدي: له أحاديث حسان، وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم، وهو ممن يكتب حديثه. وضعفه أبو زرعة والنسائي والبخاري وابن المديني.
ينظر: تهذيب الكمال (١٧/ ١١٤)، وتاريخ البخاري الكبير (٥/ ٢٨٤)، وتاريخه الصغير (٢/ ٢٢٧)، وعلل أحمد (١/ ٢٦٥).

الله ﷺ على الأنفال المشروطةِ يوم بدر، بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاقِ المُنفَّل في سائر الأنفالِ المشروطةِ، يأباه مقامُ بيانِ الأحكام كما ينبئ عنه إظهارُ الأنفالِ في موقع الإضمارِ على أن الجوابَ عن سؤال الموعودِ ببيان كونهِ له عليه الصلاة والسلام خاصةً مما لا يليق بشأنه الكريم أصلًا، وقد روي عن سعد بنِ أبي وقاصٍ أنه قال: قُتل أخي عميرٌ[١] يوم بدرٍ فقتلتُ به سعيدَ بنَ العاص وأخذتُ سيفَه فأعجبني فجئتُ به رسولَ الله ﷺ فقلت: إن الله تعالى قد شفى صدري من المشركين فهَبْ لي هذا السيفَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ليس هذا لي ولا لك اطرَحْه في القبض**» فطرحتُه وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذِ سلبه فما جاوزتُ إلا قليلًا حتى نزلت سورةُ الأنفال فقال لي رسولُ الله ﷺ: «**يا سعُد إنك سألتَني السيفَ وليس لي وقد صار لي فاذهبْ فخُذْه**»[٢] وهذا كما ترى يقتضي عدمَ وقوعِ التنفيلِ يومئذ، وإلا لكان سؤالُ السيفِ من سعد بموجب شرطِه ووعدِه عليه السلام لا بطريق الهِبَة المبتدأةِ، وحُمل ذلك من سعدٍ على مراعاة الأدبِ مع كون سؤالِه بموجب الشرط يرده عليه الصلاة والسلام قبل النزولِ، وتعليلُه بقوله: «**ليس هذا لي**» لاستحالة أن يعِدَ عليه الصلاة والسلام بما لا يقدِرُ على إنجازه، وإعطاؤُه ﷺ بعد النزولِ وترتيبُه على قوله: «**وقد صار لي**» ضرورةَ أن مناطَ صيرورتِه له عليه الصلاة السلام قولُه تعالى: ﴿**الأنفالُ لله والرسول**﴾ والغرضُ أنه المانعُ من إعطاء المسؤولِ ومما هو نصٌّ في الباب قوله عز وجل: ﴿**فاتقوا الله**﴾ أي إذا كان أمرُ الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجِبِ لسَخَط[٣] الله تعالى أو فاتقوه في

---

(١) هو: عمير بن أبي وقاص - واسم أبي وقاص: مالك بن أهيب - أخو سعد بن أبي وقاص الزهري، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس.
قديم الإسلام، مهاجري. شهد بدرًا مع النبي ﷺ، وقتل بها شهيدًا. واستصغره النبي ﷺ لما أراد المسير إلى بدر، فبكى، فأجازه. وكان سيفه طويلًا، فعقد عليه حمائل سيفه، وكان عمره حين قتل ست عشرة سنة قتله عمرو بن عبد ود.
ينظر: أسد الغابة (٤/ ٢٨٧) الثقات (٣/ ٢٩٨)، والإصابة ت (٦٠٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٨-١٨١-١٨٥-١٨٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٢)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٩١)، والطبري في تفسيره (٦/ ١٧٢-١٧٣) رقم (١٥٦٦٨-١٥٦٦٩-١٥٦٧٠-١٥٦٧١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٩٢).
وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٩) رقم (٤٨٩) إلى الواحدي في أسباب النزول، وإلى الحازمي في كتابه الناسخ والمنسوخ، وإلى ابن مردويه في تفسيره.

(٣) في خ: لسخطه.

كل ما تأتون وما تذرون فيدخُل فيه دخولًا أوليًا، ولو كان السؤالُ طلبًا للمشروط لما كان فيه محذورٌ يجب اتقاؤه، وإظهارُ الاسم الجليلِ لتربية المهابة وتعليلِ الحُكم **﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾** جُعل ما بينهم من الحال لملابستها التامةِ لبَيْنهم صاحبةً له كما جُعلت الأمورُ المضمرةُ في الصدور ذاتَ الصدور أي أصلِحوا ما بينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدةِ فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم. وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا معشرَ أصحابِ بدرٍ حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقُنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعةُ رسوله وإصلاحُ ذات البين[1]. وعن عطاء: كان الإصلاحُ بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمَكم بالعدل فقالوا: قد أكلْنا وأنفقْنا فقال: ليرُدَّ بعضُكم على بعض **﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾** بتسليم أمرِه ونهيه، وتوسيطُ الأمر بإصلاح ذاتِ البين بين الأمرِ بالتقوى والأمرِ بالطاعة لإظهار كمالِ العناية بالإصلاح بحسب المقام وليندرجَ الأمرُ به بعينه تحت الأمرِ بالطاعة **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** متعلقٌ بالأوامر الثلاثةِ والجوابُ محذوفٌ ثقةً بدلالة المذكورِ عليه أو هو الجوابُ على الخلاف المشهور، وأيًا ما كان فالمقصودُ تحقيقُ المعلقِ بناءً على تحقيق المعلقِ به، وفيه تنشيطٌ للمخاطَبين وحثٌّ لهم على المسارعة إلى الامتثال، والمرادُ بالإيمان كمالُه أي إن كنتم كاملي الإيمانِ فإن كمالَ الإيمان يدور على هذه الخِصالِ الثلاثِ: طاعةُ الأوامرِ واتقاءُ المعاصي وإصلاحُ ذاتِ البينِ بالعدل والإحسان.

[علامات المؤمنين]

﴿إنما المؤمنون﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مَسوقةٌ لبيان مَنْ أريد بالمؤمنين بذكر أوصافِهم الجليلةِ المستتبِعةِ لما ذكر من الخصال الثلاثِ، وفيه مزيدُ ترغيبٍ لهم في الامتثال بالأوامر المذكورةِ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلِصون فيه **﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾** أي فزعت لمجرد ذكرِه من غير أن يُذكرَ هناك ما يوجب الفزَعَ من صفاته وأفعالِه واستعظامًا لشأنه الجليلِ وتهيبًا منه وقيل: هو الرجلُ يهمّ بمعصية فيقال له: اتقِ الله فينزِعُ عنها خوفًا من عقابه، وقرئ (وجَلت)[2] بفتح الجيم وهي لغة وقرئ (فرِقَتْ)[3] أي خافت **﴿وإذا تليت عليهم آياته﴾** أيَّ آيةٍ كانت **﴿زادتهم إيمانًا﴾** أي يقينًا وطُمأنينة

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ١٣٦)، وأحمد (٥/ ٣٢٢)، والطبري في تفسيره (٦/ ١٧٢) رقم (١٥٦٦٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٥٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٣).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٥٧).

نفسٍ فإن تظاهُرَ الأدلةِ وتعاضُدَ الحُججِ والبراهينِ موجبٌ لزيادة الاطمئنانِ وقوة اليقين، وقيل: إن نفسَ الإيمانِ لا يقبلُ الزيادةَ والنقصانَ وإنما زيادتُه باعتبار زيادةِ المؤمَنِ به فإنه كلما نزلت آيةٌ صدّق بها المؤمنُ فزاد إيمانُه عددًا، وأما نفسُ الإيمان فهو بحاله وقيل: باعتبار أن الأعمالَ تُجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها، والأصوبُ أن نفسَ التصديقِ يقبل القوةَ وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق النيّر بين يقينِ الأنبياءِ وأربابِ المكاشفات ويقينِ آحادِ الأمةِ، وعليه مبنى ما قال علي رضي الله عنه: لو كُشف الغِطاءُ ما ازددتُ يقينًا، وكذا بين ما قام عليه دليلٌ واحد وما قامت عليه أدلةٌ كثيرة ﴿وعلى ربهم﴾ مالكِهم ومدبرِ أمورِهم خاصة ﴿يتوكلون﴾ يفوّضون أمورَهم لا إلى أحد سواه والجملةُ معطوفةٌ على الصلة.

وقوله تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون﴾ مرفوعٌ على أنه نعتٌ للموصول الأول أو بدلٌ منه أو بيانٌ له أو منصوبٌ على القطع المنبئ عن المدح ذَكَر أولًا من أعمالهم الحسنةِ أعمالَ القلوب من الخشية والإخلاصِ والتوكل ثم عقّب بأعمال الجوارحِ من الصلاة والصدقة.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى من ذُكرت صفاتُهم الحميدةُ من حيث إنهم متصفون بها، وفيه دلالةٌ على أنهم متميِّزون بذلك عمن عداهم أكملَ تميزٍ منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدةِ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو رتبتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الشرف ﴿هم المؤمنون حقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانَهم بأن ضمّوا إليه ما فصل من أفاضل الأعمالِ القلبيةِ والقالَبية، وحقًّا صفةٌ لمصدر محذوفٍ، أي أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقًّا، أو مصدرٌ مؤكدٌ للجملة أي حقَّ ذلك حقًّا كقولك: هو عبدُ[١] الله حقًّا ﴿لهم درجات﴾ من الكرامة والزُلفىٰ وقيل: درجاتٌ عاليةٌ في الجنة، وهو إما جملةٌ مبتدأةٌ مبنيةٌ على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل: ما لهم بمقابلة هذه الخِصالِ؟ فقيل: لهم كيت وكيت أو خبرٌ ثانٍ لـ (أولئك).

وقوله تعالى: ﴿عند ربهم﴾ إما متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لـ (درجاتٌ) مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافيةِ أي كائنةٌ عنده تعالى أو بما تعلق به الخبرُ أعني لهم من الاستقرار، وفي إضافة الظرفِ إلى الرب المضافِ إلى ضميرهم مزيدُ تشريفٍ ولطفٍ لهم وإيذانٌ بأن ما وعد لهم متيقَّنُ الثبوتِ والحصولِ مأمونُ الفواتِ ﴿ومغفرة﴾ لما فرَط منهم ﴿ورزق كريم﴾ لا ينقضي أمدُه ولا ينتهي عددُه وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة.

---

(١) في خ: عند.

[غزوة بدر]

﴿**كما أخرجك ربك من بيتك بالحق**﴾ الكافُ في محلِ الرفعِ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: هذه الحالُ كحال إخراجِك، يعني أن حالَهم في كراهتهم لِما رأيتَ مع كونه حقًّا كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حقٌّ، أو في محل النصبِ على أنه صفةٌ لمصدر مقدرٍ في قوله تعالى: ﴿**الأنفال لله**﴾ أي الأنفالُ ثبتتْ لله والرسولِ مع كراهتهم ثباتًا مثلَ ثباتِ إخراجِ ربِّك إياك من بيتك في المدينة أو من المدينة إخراجًا ملتبسًا بالحق ﴿**وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون**﴾ أي والحالُ أن فريقًا منهم كارهون للخروج إما لنفرة الطبعِ عن القتالِ أو لعدم الاستعدادِ؛ وذلك أن عِيرَ قريشٍ أقبلت من الشام وفيها تجارةٌ عظيمةٌ ومعها أربعون راكبًا منهم أبو سفيانَ، وعمرو بنُ العاص، وعمْرُو بنُ هشام، فأخبر جبريلُ رسولَ الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجَبَهم تلقِّي العِيرِ لكثرة الخيرِ وقلةِ القوم، فلما خرجوا بلغ أهلَ مكةَ خبرُ خروجِهم فنادى أبو جهلٍ فوق الكعبةِ: يا أهل مكةَ النجاءَ النجاءَ على كل صَعْب وذَلَول عِيرُكم أموالُكم إن أصابها محمدٌ لم تُفلِحوا بعدها أبدًا، وقد رأت أختُ العباسِ بنِ عبد المطلبِ رضي الله عنه رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيتُ عجبًا رأيت كأن ملَكًا نزل من السماء فأخذ صخْرةً من الجبل ثم حلّق بها فلم يبق بيتٌ من بيوت مكةَ إلا أصابه حجرٌ من تلك الصخرة فحدّث بها العباسُ رضي الله عنه فقال أبو جهل: ما يرضى رجالُهم أن يتنبّئوا حتى تتنبأَ نساؤُهم فخرج أبو جهل بجميع أهلِ مكةَ وهم النفيرُ فقيل له: إن العِيرَ أخذت طريقَ الساحلِ وبخت[1] فارجِعْ بالناس إلى مكَة فقال: لا واللاتِ[2] لا يكون ذلك أبدًا حتى ننحَرَ الجَزورَ ونشربَ الخمور ونُقيمَ القينات والمعازِفَ ببدر فيتسامع جميعُ العرب بمَخْرَجنا وأن محمدًا لم يُصِب العِيرَ وأنا قد أَعْضَضْنَاه[3] فمضى بهم إلى بدر، ماءٍ كانت العربُ تجتمع فيه لسوقهم يومًا في السنة فنزل جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمدُ إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العِيرَ وإما قريشًا فاستشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابَه فقال: «**ما تقولون؟ إن القومَ قد**

---

(١) في ط: نجحت.
(٢) في خ: الله.
(٣) في خ: أعضضناه، ومن قولهم: أعْضَضْتُه الشيء، أي جعلته يعضُّه. وفي قوله «أعناه» اجتراء على الرسول عليه الصلاة والسلام وشماتة إذ منعوه من أن يُصيب عيرهم، ومؤدَّاه أن يقولوا له: «عضَض بأيد أبيك». وفي الحديث: «من تعزَّى بعزاء الجاهلية فأعِضُّوا بهَنِ أبيه ولا تكنُوا» أي قوله له: اعضَضْ بأيد أبيك ولا تكنوا عن الأيد بالهَنِ.

خرجوا من مكةَ على كل صَعْبٍ وذَلولٍ فالعِيرُ أحبُّ إليكم أم النفيرُ؟» فقالوا: بل العيرُ أحبُّ إلينا من لقاء العدوِّ فتغير وجهُ رسول الله ﷺ ثم ردّد عليهم، فقال: «**إن العير قد مضت على ساحل البحرِ، وهذا أبو جهل قد أقبل**» فقالوا: يا رسول الله عليك بالعِير ودعِ العدوَّ فقام عندما غضِبَ النبيُّ ﷺ أبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما فأحسنا ثم قام سعدُ بن عُبادةَ فقال: انظُر أمرَك فامضِ فوالله لو سِرتَ إلى عدنِ أَبْيَنَ[١] ما تخلف عنك رجلٌ من الأنصار. ثم قال المقدادُ بنُ عمرو رضي الله عنه: يا رسولَ الله امضِ لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببْتَ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيلَ لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عينٌ منا تطرِفُ، فضحِك رسولُ الله ﷺ ثم قال: «**أشيروا علي أيها الناس**» وهو يريد الأنصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا بُرَآءُ من ذِمامِك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمامنا نمنعُك مما نمنع منه أبناءَنا ونساءَنا فكان النبي عليه الصلاة والسلام يتخوّف أن تكون[٢] [الأنصار][٣] لا ترى عليهم نُصرتَه إلا على عدو دَهِمَهُ بالمدينة فقام سعدُ بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسولَ الله قال: «**أجل**»، قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهِدنا أن ما جئت به هو الحقُّ وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السمع والطاعةِ فامضِ يا رسولَ الله لما أردتَ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضتَه لخُضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا وإنا لصُبرٌ عند الحرب صُدقٌ [عند][٤] اللقاء ولعل الله يُريك منا ما تَقَرُّ به عينُك فسِرْ بنا على بركة الله. ففرح رسولُ الله ﷺ وبسَطه قولُ سعد ثم قال: «**سيروا على بركة الله وأبشِروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظرُ إلى مصارع القوم**»[٥].

ورُوي: (أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرَغ من بدر: عليك بالعِير ليس دونها شيءٌ

---

(١) زاد في خ: جيرة، وفي العادة يضيفون عدن إلى أَبْيَن، والمراد عدن الذي من ضمن مخلاف أبين باليمن. والمخلاف بلغة أهل اليمن هو الكورة بلغة العراق والجند بلغة الشام.

(٢) في خ: ألا يكون. (٣) سقط في خ.

(٤) سقط في ط.

(٥) أخرجه ابن هشام في سيرته (٢/ ٢٧١، ٢٧٢) رقم (٧٢٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ١٨٤-١٨٥) رقم (١٥٧٣٢-١٥٧٣٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٠١، ٣٠٢).

فناداه العباس رضي الله عنه وهو في وِثاقه: لا يصلح، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لم؟**» قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك[(١)]

﴿**يجادلونك في الحق**﴾ الذي هو تلقّي النفيرِ لإيثارهم عليه تلقيَ العير، والجملةُ استئنافٌ أو حالٌ ثانية أي أخرجك في حال مجادلِتهم إياك ويجوز أن يكون حالًا من الضمير في (لَكارهون) وقوله تعالى: ﴿**بعد ما تبين**﴾ منصوبٌ بـ (يجادلونك)، و(ما) مصدرية أي بعد تبين الحقِّ لهم بإعلامك أنهم يُنصَرون أينما تواجهوا ويقولون: ما كان خروجُنا إلا للعِير، وهلا قلتَ لنا لنستعدَّ ونتأهَّبَ وكان ذلك لكراهتهم القتالَ ﴿**كأنما يساقون إلى الموت**﴾ الكافُ في محل النصبِ على الحالية من الضمير في (لَكارهون) أي مُشبّهين بالذين يُساقون بالعنف والصَّغار إلى القتل[(٢)] ﴿**وهم ينظرون**﴾ حال من ضمير (يساقون) أي والحالُ أنهم ينظرُون إلى أسباب الموتِ ويشاهدونها عِيانًا، وما كانت هذه المرتبةُ من الخوف والجزعِ إلا لقلة عددِهم وعدمِ تأهُّبِهم وكونهم رجَّالة. روي أنه لم يكن فيهم إلا فارسان.

﴿**وإذ يعدكم الله أحدى الطائفتين**﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان جميلِ صنعِ الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءةِ الهِمّةِ وقُصورِ الرأي والخوفِ والجزعِ، و(إذْ) منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوينِ والالتفات، وإحدى الطائفتين مفعولٌ ثانٍ لـ (يعدُكم) أي اذكروا وقتَ وعدِ الله إياكم إحدى الطائفتين، وتذكيرُ الوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما فيه من الحوادث لما مر مرارًا من المبالغة في إيجاب ذكرِها لِما أن إيجابَ ذكر الوقتِ إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقتَ مشتملٌ على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها، فإذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٩): كتاب تفسير القرآن: باب: ومن سورة الأنفال، حديث (٣٠٨٠)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٥٥).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٠٨).

(٢) أي حالتهم في وقت مجادلتهم إياك تشبه حالتهم لو ساقهم سائق إلى الموت، والمراد بالموت الحالة المضادة للحياة، وهو معنى تكرهه نفوس البشر، وهذا التفسير أليق بالتشبيه لتحصيل المخالفة المطلقة بين الحالة المشبهة والحالة المشبه بها، أما المفسرون فتأولوا الموت في الآية بأنه الموت المتيقن فيكون التخالف بين المشبه والمشبه به تخالفًا بالتقييد، وهو تمثيل لأنه تشبيه هيئة بهيئة.
ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ٢٦٨)، والفرق بين التشبيه والتمثيل العمدة (٣/ ١٨٧)، وأسرار البلاغة (٥٠، ٨٠، ٨٢، ٨٤)، وشروح التلخيص (٣/ ١١١) وما بعدها، ومفتاح العلوم (١٤٠ - ١٥١)، والإفصاح مع البغية (٣/ ٥٧، ٥٩).

استُحضر كان ما وقع فيه حاضرًا مفصّلًا كأنه مشاهَدٌ عيانًا، وقرئ (يَعِدْكم)[١] بسكون الدال تخفيفًا، وصيغةُ المضارعِ لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها.

وقوله تعالى: ﴿أنها لكم﴾ بدلُ اشتمالٍ من (إحدى الطائفتين) مُبينٌ لكيفية الوعدِ أي يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنةٌ لكم مختصّةٌ بكم مسخّرةٌ لكم تتسلطون عليها تسلّطَ المُلاّكِ وتتصرفون فيهم كيف شئتم ﴿وتودون﴾ عطفٌ على (يعدكم) داخلٌ تحت الأمرِ بالذكر أي تحبون ﴿أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ من الطائفتين لا ذاتَ الشوْكةِ وهي النفيرُ ورئيسُهم أبو جهلٍ وهم ألفُ مقاتلٍ، وغيرُ ذاتِ الشَّوكة هي العِيرُ إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارسًا ورأسُهم أبو سفيانَ. والتعبيرُ عنهم بهذا العنوانِ للتنبيه على سبب ودادتهم[٢] لملاقاتهم وموجبِ كراهتِهم ونفرتِهم عن موافاة النفيرِ، والشوْكةُ: العدةُ[٣]، مستعارةٌ من واحدة الشَّوْك[٤] وشوك القنا شباها[٥] ﴿ويريد الله﴾ عطفٌ على (تودّون) منتظمٌ معه في سلك التذكيرِ ليُظهِرَ لهم عظيمَ لطفِ الله بهم مع دناءة هِمَمِهم وقصور آرائِهم، أي اذكُروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين وودادتِكم لأدناهما وإرادتَه تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى: ﴿أن يحق الحق﴾ أي يُثْبِتَه ويُعلِيَه ﴿بكلماته﴾ أي بآياته المنزلةِ في هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالإمداد وبما قضَى من أسرهم وقتلهم وطرحِهم في قَليب[٦] بدر، وقرئ (بكلمته)[٧] ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي آخِرَهم ويستأصِلَهم بالمرة.

والمعنى أنتم تريدون سَفْسافَ الأمور والله عز وعلا يريد معالِيَها وما يرجِعُ إلى علو كلمةِ الحقِّ وسموِّ رتبةِ الدين، وشتان بين المُرادَين وقوله تعالى: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لبيان الحِكمةِ الداعيةِ إلى اختيار ذاتِ الشوكة[٨]

---

(١) قرأ بها: مسلمة بن محارب.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢)، والبحر المحيط (٤/ ٤٦٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٣).

(٢) في خ: ورادتهم.

(٣) في خ: الحدة.

(٤) وقد شاع استعارة الشوكة للبأس، يقال: فلان ذو شوكة، أي ذو بأس يبقى كما يستعار القرن للبأس في قولهم: أبدى قرنه، وذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس، أي تودون الطائفة التي لا يخشى بأسها تكون لكم.
ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٠)، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها، والإيضاح (٣/ ١٤٦).

(٥) الشبا من كل شيء: حدُّه.

(٦) القليب: البئر.

(٧) قرأ بها: نافع، ومسلم بن محارب، وشيبة، أبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٦).

(٨) وقد عمّم استخدام هذا التعبير للدلالة على الأمر الصعب المحفوف بالأخطار.

ونصرِهم عليها مع إرادتهم لغيرها، واللامُ متعلقةٌ بفعل مقدر مؤخر عنها، أي لهذه الغايةِ الجليلةِ فعَل ما فعَل لا لشيء آخرَ وليس فيه تكرارٌ إذ الأولُ لبيان تفاوتِ ما بين الإرادتين، وهذا لبيان الحِكمةِ الداعية إلى ما ذكر، ومعنى إحقاقِ الحقِّ إظهارُ حقّيتِه لا جعلُه حقًا بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال إبطال الباطل ﴿**ولو كره المجرمون**﴾ أي المشركون ذلك أي إحقاق الحق وإبطال الباطل ﴿**إذ تستغيثون ربكم**﴾ بدلٌ من إذ يعدكم معمولٌ لعامله، فالمراد تذكيرُ استمدادِهم منه سبحانه والتجائِهم إليه تعالى حين ضاقت عليهم الحِيلُ وعيَّتْ بهم العِللُ، وإمدادُه تعالى حينئذ وقيل: متعلقٌ بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية، وما قيل من أن قولَه تعالى ليُحِق مستقبلٌ لأنه منصوبٌ بأن فلا يمكن عملُه في (إذ) لأنه ظرف لما مضى ليس بشيء لأن كونَه مستقبَلًا إنما هو بالنسبة إلى زمان ما هو غايةٌ له في الفعل المقدرِ لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثةِ حتى لا يعملَ فيه بل هما في وقت واحدٍ وإنما عبّر عن زمانها بإذ نظرًا إلى زمان النزولِ، وصيغةُ الاستقبالِ في تستغيثون لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها العجيبة، وقيل: متعلقٌ بمضمر مستأنفٍ أي اذكروا وقت استغاثتِكم وذلك أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين: أيْ ربُّ انصُرنا على عدوك يا غياثَ المستغيثين أغِثْنا، (وعن عمرَ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألفٌ وإلى أصحابه وهو ثلثُمائة وبضعةَ عشرَ فاستقبل القِبلةَ ومد يديه يدعو: «**اللهم أنجِزْ لي ما وعدتني اللهم إنْ تهلِكْ هذه العِصابةُ لا تعبَدْ في الأرض**» فما زال كذلك حتى سقط رداؤُه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتُك ربَّك فإنه سيُنجز لك ما وعدك)[1].

﴿**فاستجاب لكم**﴾ عطفٌ على تستغيثون داخلٌ معه في حكم التذكيرِ لِما عرفت أنه ماضٍ وصيغةُ الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿**أني ممدكم**﴾ أي بأني، فحُذف الجارُّ وسُلِّط عليه الفعلُ فنصَب محلَّه، وقرئ بكسر[2] الهمزة على إرادة القولِ أو على إجراء (استجابَ) مُجرىٰ (قال) لأن الاستجابةَ من مقولة القول ﴿**بألف من الملائكة**

---

(١) أخرجه مسلم (٦/ ٣٢٧): كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث (٥٨/ ١٧٦٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنفال، حديث (٣٠٨١)، وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٨٨) رقم (١٥٧٤٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وعيسى بن عمر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٦).

مردِفين﴾ أي جاعلين غيرَهم من الملائكة رديفًا لأنفسهم فالمراد بهم رؤساؤُهم المستتبِعون لغيرهم، وقد اكتُفي هاهنا بهذا البيانِ الإجماليِّ وبيِّن في سورة آلِ عمرانَ مقدارُ عددهم[١]، وقيل: معناه مُتْبِعِين أنفسَهم ملائكةً آخرين أو متْبعين المؤمنين أو بعضَهم بعضًا، من أردفتُه إذا جئتُ بعده، أو متبعين بعضَهم بعضَ المؤمنين أو أنفسَهم المؤمنين، من أردفتُه إياه فردِفَه، وقرئ (مردَفين)[٢] بفتح الدال أي مُتْبَعين أو متَّبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقَتَهم وقرئ (مُردّفين) بكسر الراء[٣] وضمها[٤] وتشديد الدال وأصلُهما (مرتدفين) بمعنى مترادفين فأدغمت التاءُ في الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الإتباع، وقرئ (بآلاف)[٥] ليوافقَ ما في سورة آل عمران.

ووجهُ التوفيق بينه وبين المشهورِ أن المرادَ بالألفِ الذين كانوا على المقدمة أو الساقةُ أو وجوهُهم وأعيانُهم أو من قاتل منهم واختُلف في مقاتلتهم وقد روي أخبارٌ تدل على وقوعها.

﴿وما جعله الله﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان أن الأسبابَ الظاهرةَ بمعزل من التأثير وإنما التأثيُر مختصٌّ به عز وجل ليثق المؤمنون ولا يقنَطوا من النصر عند فُقدانِ أسبابِه، والجعلُ متعدٍّ إلى مفعول واحد هو الضميرُ العائد إلى مصدر فعلٍ مقدرٍ يقتضيه المقامُ اقتضاءً ظاهرًا مُغنيًا عن التصريح به، كأنه قيل: فأمدكم بهم وما جعل إمدادَكم بهم **﴿إلا بشرى﴾** وهو استثناءٌ مفرّغٌ من أعم العلل أي وما جعل إمدادَكم بإنزال الملائكة عيانًا لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون **﴿ولتطمئن به﴾** أي بالإمداد **﴿قلوبكم﴾** وتسكنَ إليه نفوسُكم كما كانت السكينةُ لبني إسرائيلَ كذلك،

---

(١) في ط: عدهم.

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، ويعقوب، وشيبة، وابن مجاهد، وقنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٦٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣)، والبحر المحيط (٤/ ٤٦٥)، والتبيان للطوسي (٥/ ٩٧)، والتيسير للداني ص (١١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٧٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٦).

(٣) ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٦٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤١٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٧٠).

(٤) قرأ بها: رواية الخليل.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٦٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٦٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٧٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٣).

(٥) قرأ بها: السدي، وعاصم الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٦).

فكلاهما مفعولٌ له للجعل، وقد نُصب الأولُ لاجتماع شرائطِه وبقي الثاني على حاله لفقدانها، وقيل: للإشارة إلى أصالته في العِلّية وأهميتِه في نفسه كما قيل في قوله تعالى: ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً﴾ [النحل: ٨] وفي قصر الإمدادِ عليهما إشعارٌ بعدم مباشرةِ الملائكةِ للقتال وإنما كان إمدادُهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثيرِ سوادِهم ونحوه كما هو رأيُ بعضِ السلف وقيل: الجعلُ متعدٍّ إلى اثنين ثانيهما إلا بشرى على أنه استثناءٌ من أعم المفاعيل، أي وما جعله الله شيئًا من الأشياء إلا بشارةً لكم فاللام في ولتطمئن متعلقةٌ بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبُكم فعَلَ ذلك لا لشيء آخَرَ ﴿وما النصر﴾ أي حقيقةُ النصر على الإطلاق ﴿إلا من عند الله﴾ أي إلا كائنٌ من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركةٌ من جهة الأسبابِ والعددِ، وإنما هي مظاهرُ له بطريق جريانِ السنةِ الإلٰهيةِ ﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالَب في حُكمه ولا يُنازَع في أقضيته[(١)] ﴿حكيم﴾ يفعل كلَّ ما يفعل حسبما تقتضيه الحِكمةُ والمصلحةُ، والجملةُ تعليلٌ لما قبلها متضمنٌ للإشعار بأن النصرَ الواقعَ على الوجه المذكورِ من مقتَضيات الحِكَم البالغةِ.

﴿إذ يغشيكم النعاس﴾ أي يجعله غاشيًا لكم ومحيطًا بكم وهو بدلٌ ثانٍ من إذ يعدكم لإظهار نعمةٍ أخرى، وصيغةُ الاستقبالِ فيه وفيما عُطف عليه لحكاية الحال الماضيةِ كما في تستغيثون، أو منصوبٌ بإضمار اذكُروا، وقيل: هو متعلقٌ بالنصر أو بما في (من عند الله) من معنى الفعلِ، أو بالجعل وليس بواضح، وقرئ (يُغْشيكم)[(٢)] من الإغشاء بمعنى التغشية، والفاعلُ في الوجهين هو الباري تعالى وقرئ (يغشاكم)[(٣)] على إسناد الفعل إلى النعاس.

وقوله تعالى: ﴿أمنةً منه﴾ على القراءتين الأُوليين منصوبٌ على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيّكم النعاسَ فتنعَسون أمنًا كائنًا من الله تعالى لا كَلالًا

---

(١) في خ: قضيته.

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، والحسن، والأعرج، وابن نصاح، وأبو حفص.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣)، والبحر المحيط (٤/ ٤٦٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٠١)، والتيسير للداني ص (١١٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٢٣).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤٦٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٠١)، والتيسير للداني ص (١١٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠٨).

وإعياءً أو على أنه مصدرٌ لفعل آخرَ كذلك أي فتأمنون أمنًا كما في قوله تعالى: ﴿وأنبتها نباتًا حسنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] على أحد الوجهين، وقيل: منصوبٌ بنفس الفعلِ المذكورِ، والأَمَنةُ بمعنى الأمان وعلى القراءة الأخيرة منصوبٌ على العِلّية بـ(يغشاكم) باعتبار المعنى فإنه في حكم تنعسون أو على أنه مصدرٌ لفعل مترتبٍ عليه كما مر، وقرئ (أمْنةً)[1] كرحمة ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تقديمُ الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارًا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقبةً له، فعند ورودِه يتمكّن عندها فضلُ تمكنٍ، وتقديمُ عليكم لما أن بيانَ كونِ التنزيلِ عليهم أهمَّ من بيان كونه من السماء وقرئ بالتخفيف[2] من الإنزال ﴿ليطهركم به﴾ أي من الحَدَث الأصغرِ والأكبر.

﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ الكلامُ في تقديم الجارّ والمجرور كما مر آنفًا، والمرادُ بـ(رجز) الشيطانِ وسوستُه وتخويفُه إياهم من العطش. (روي أنهم نزلوا في كَثيب أعفرَ تسوخُ فيه الأقدامُ على غير ماءٍ وناموا فاحتلم أكثرُهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطانُ فوسوس إليهم وقال: أنتم يا أصحابَ محمدٍ تزعُمون أنكم على الحق، وإنكم تصلّون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطِشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاءِ على الماء، وما ينتظرون بكم إلا أن يَجهدَكم العطشُ فإذا قطَع أعناقَكم مشَوا إليكم فقتلوا مَنْ أحبّوا وساقوا بقيتَكم إلى مكة فحزِنوا حُزنًا شديدًا وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطرَ فمُطِروا ليلًا حتى جرى الوادي فاغتسلوا وتوضئوا وسَقَوا الركابَ وتلبّد الرملُ الذي كان بينهم وبين العدوِّ حتى ثبتت عليه الأقدامُ وزالت وسوسةُ الشيطانِ وطابت النفوسُ وقويَت القلوبُ) وذلك قوله تعالى: ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي يقوّيها بالثقة بلُطف الله تعالى فيما بعدُ بمشاهَدة طلائعِه ﴿ويثبت به الأقدام﴾ فلا تسوخ في الرمل، فالضميرُ للماء كالأول ويجوز أن يكون للربط فإن القلبَ إذا قوِي وتمكّن فيه الصبرُ والجَراءةُ لا تكاد تزِلُّ القدمُ في معارك الحروب.

وقوله تعالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة﴾ منصوبٌ بمضمر مستأنفٍ خوطب به

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٦٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٣).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٤٣، ٢٣٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٧).

النبيُّ عليه الصلاة والسلام بطريق التجريدِ حسبما تنطِق به الكافُ لِما أن المأمورَ به مما لا يستطيعه غيرُه عليه الصلاة والسلام فإن الوحيَ المذكورَ قبل ظهورِه بالوحي المتلوِّ على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التي يقف عليها عامةُ الأمةِ كسائر النعمِ السابقة التي أُمروا بذكر وقتِها بطريق الشكرِ، وقيل: منصوب بقوله تعالى: ﴿**ويثبتَ به الأقدام**﴾ فلا بد حينئذٍ من عود الضميرِ المجرورِ في به إلى الربط على القلوب ليكون المعنى: ويثبتَ أقدامَكم بتقوية قلوبِكم وقتَ إيحائِه إلى الملائكة وأمرِه بتثبيتهم إياكم وهو وقتُ القتال، ولا يخفى أن تقييدَ التثبيتِ المذكورِ بوقت مبْهم عندهم ليس فيه مزيدُ فائدةٍ، وأما انتصابُه على أنه بدلٌ ثالثٌ من إذ يعدكم كما قيل ًفيأباه تخصيصُ الخِطاب به عليه الصلاة والسلام مع ما عرفتَ من أن المأمورَ به ليس من الوظائف العامةِ للكل كسائر أخواتِه.

وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريفِ ما لا يخفى، والمعنى اذكُر وقتَ إيحائِه تعالى إلى الملائكة ﴿**أني معكم**﴾ أي بالإمداد والتوفيقِ في أمر التثبيتِ فهو مفعولُ يوحي، وقرئ[1] بالكسر على إرادة القول أو إجراءِ الوحي مُجراه. وما يُشعِر به دخولُ كلمةِ مع من متبوعية الملائكةِ إنما هي من حيث إنهم المباشرون للتثبيت صورةً فلهم الأصالةُ من تلك الحيثيةِ كما في أمثال قولهِ تعالى: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ١٥٣] والفاءُ في قوله تعالى: ﴿**فثبتوا الذين آمنوا**﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إمدادَه تعالى إياهم من أقوى موجباتِ التثبيتِ، واختلفوا في كيفية التثبيتِ فقالت جماعةٌ: إنما أُمروا بتثبيتهم بالبِشارة وتكثيرِ السوادِ ونحوِهما مما تقوىٰ به قلوبُهم وتصِحّ عزائمهُم ونياتُهم ويتأكد جِدُّهم في القتال وهو الأنسبُ بمعنى التثبيتِ وحقيقتِه التي هي عبارةٌ عن الحمل على الثبات في موطن الحربِ والجِدّ في مقاساة شدائد القتال. وقد روي أنه كان الملَكُ يتشبّه بالرجل الذي يعرفونه بوجهه فيأتي ويقول: إني سمعتُ المشركين يقولون: والله لئن حَملوا علينا لننكَشِفنّ ويمشي بين الصفين فيقول: أبشِروا فإن الله تعالى ناصرُكم وقال آخرون: أُمروا بمحاربة أعدائِهم وجعلوا قولَه تعالى: ﴿**سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب**﴾ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿**أني معكم**﴾ وقولَه تعالى: ﴿**فاضربوا**﴾ إلخ، تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿**فثبتوا**﴾ مبينًا لكيفية التثبيت.

---

(١) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٨).

وقد روي عن أبي داود المازني رضي الله عنه وكان ممن شهد بدرًا أنه قال: اتبعتُ رجلًا من المشركين يوم بدر لأضربَه فوقعتْ رأسُه بين يديَّ قبل أن يصِلَ إليه سيفي[١]. وعن سهل بن حُنيفٍ رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدَنا يُشيرُ بسيفه إلى المشرك فتقعُ رأسُه عن جسده قبل أن يصِلَ إليه السيفُ[٢].

وأنت خبيرٌ بأن قتلَهم للكفرة، مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيتِ المؤمنين، مما لا يتوقف على الإمدادِ بإلقاء الرعبِ فلا يتجه ترتيبُ الأمر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله تعالى: ﴿**فثبتوا الذين آمنوا**﴾ تلقينًا للملائكة ما يثبّتونهم به، كأنه قيل: قولوا لهم قوْلي: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ فاضرِبوا)[٣]. . . إلخ فالضاربون هم المؤمنون، وأما ما قيل من أن ذلك خطابٌ منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوينِ فمبناه توهُّمُ ورودِه قبل القتالِ وأنّى ذلك والسورةُ الكريمة إنما نزلت بعد تمامِ الوقعة.

وقوله تعالى: ﴿**فوق الأعناق**﴾ أي أعاليَها التي هي المذابح أو الهامات ﴿**واضربوا منهم كل بنان**﴾ قيل: البنانُ أطرافُ الأصابع من اليدين والرجلين، وقيل: هي الأصابعُ من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم: البنان: المفاصلُ، وكلُّ مَفصِلٍ بنانة وقال ابن جريج والضحاك: يعني الأطرافَ أي اضرِبوهم في جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها.

وقيل: المرادُ بـ (البنان) الأداني وبـ (فوق الأعناق) الأعالي والمعنى فاضرِبوا الصناديدَ والسَّفَلَةَ، وتكريرُ الأمر بالضرب لمزيد[٤] الاعتناءِ بأمره و(منهم) متعلقٌ به أو بمحذوف وقع حالًا مما بعده.

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما أصابهم من العقاب، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتِه في الشدة والفظاعةِ، والخطابُ لرسول الله ﷺ أو لكل أحدٍ ممن يليق بالخطاب، ومحلُّه الرفعُ على الابتداء وخبرُه قوله تعالى: ﴿**بأنهم شاقوا الله ورسوله**﴾ أي ذلك العقابُ الفظيعُ واقعٌ عليهم بسبب مُشاقّتِهم ومغالبتِهم مَنْ لا سبيلَ إلى مغالبته أصلًا، واشتقاقُ المشاقةِ من الشّق لِما أن كلاًّ من المُشاقَّين في شِقّ الآخر كما أن

---

(١) أخرجه ابن هشام في سيرته (٢/ ٢٩٧). رقم (٧٦١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٥٦).
(٢) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ٢٢٨) برقم (٣٣٤).
(٣) زاد في خ: (سألقي) إلخ ليس بنصه فيما ذكر، بل يجوز أن يكون ذلك إثر.
(٤) زاد في خ: التشديد و.

اشتقاقَ المُعاداةِ والمُخاصمة من العَدْوة والخَصْم أي الجانب لأن كلاً من المتعاديَيْن والمتخاصمَين في عَدوةٍ وخصم غيرِ عدوةِ الآخر وخصمِه.

﴿ومن يشاقق الله ورسوله﴾ الإظهارُ في موضع الإضمار لتربية المهابةِ وإظهار كمالِ شناعة ما اجترأوا عليه والإشعارِ بعلة الحُكم. وقوله تعالى: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ إما نفسُ الجزاءِ قد حُذف منه العائد إلى (مَنْ) عند من يلتزمه، أي شديدُ العقاب له، أو تعليلٌ للجزاء المحذوف أي يعاقبْه الله فإن الله شديدُ العقاب، وأيًا ما كان فالشرطيةُ تكملةٌ لما قبلها وتقريرٌ لمضمونه وتحقيقٌ للسببية بالطريق البرهاني، كأنه قيل: ذلك العقابُ الشديد بسبب مشاقّتِهم لله تعالى ورسولِه وكلُّ من يشاقق الله ورسولَه كائنًا مَنْ كان فله بسبب ذلك عقابٌ شديدٌ فإذن لهم بسبب مشاقّتِهم لهما عقابٌ شديد، وأما أنه وعيدٌ لهم بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى: ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ فإنه، مع كونه هو المسوقَ للوعيد بما ذُكر، ناطقٌ بكون المرادِ بالعقاب المذكورِ ما أصابهم عاجلًا سواءٌ جُعل ذلكم إشارةً إلى نفس العقابِ أو إلى ما تفيده الشرطيةُ من ثبوت العقابِ لهم، أما على الأول فلأن الأظهرَ أن محلَّه النصبُ بمضمر يستدعيه قولُه تعالى: ﴿فذوقوه﴾، والواو في قوله تعالى: ﴿وأن للكافرين﴾ إلخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقابَ الذي أصابكم فذوقوه عاجلًا مع أن لكم عذابَ النارِ آجلًا، فوضْعُ الظاهر موضعَ الضميرِ لتوبيخهم بالكفر وتعليلِ الحُكم به، وأما على الثاني فلأن الأقربَ أن محله الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقولُه تعالى: ﴿وأن للكافرين﴾ إلخ معطوفٌ عليه، والمعنى حُكمُ الله ذلكم، أي ثبوتُ هذا العقابِ لكم عاجلًا وثبوتُ عذابِ النارِ آجلًا، وقوله تعالى: ﴿فذوقوه﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين المعطوفَيْن للتهديد، والضميرُ على الأول لنفس المشارِ إليه وعلى الثاني لما في ضمنه، وقد ذُكر في إعراب الآيةِ الكريمةِ وجوهٌ أُخَرُ، ومدارُ الكلِّ على أن المرادَ بالعقاب ما أصابهم عاجلًا والله تعالى أعلم، وقرئ بكسر[1] إن على الاستئناف.

[من القوانين الحربية]

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطابٌ للمؤمنين بحكم كليٍّ جارٍ فيما سيقع من الوقائع والحروبِ جيءَ به في تضاعيف القصةِ إظهارًا للاعتناء بشأنه ومبالغةً في حثهم على

---

(١) قرأ بها: الحسن، وزيد بن علي، وسليمان التيمي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٧٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٨).

المحافظة عليه ﴿**إذا لقِيتم الذين كفروا زحفًا**﴾ الزحفُ الدبيبُ يقال: زحَف الصبيُّ زحفًا إذا دبّ على استه قليلًا قليلًا، سُمّي به الجيشُ الداهم المتوجِّهُ إلى العدو لأنه لكثرته وتكاثفِه يُرى كأنه يزحَف وذلك لأن الكلَّ يرى كجسم واحدٍ متصلٍ فيُحَسُّ حركتُه بالقياس إليه في غاية البُطء وإن كانت في نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم: [الطويل]

وأرعنَ مثلِ الطَّوْدِ تحسَب أنهم وُقوفٌ لِحاجٌ والركابُ تُهملَج[1]

ونصبُه [إما][2] على أنه حالٌ من مفعول لقِيتم أي زاحفين نحوَكم وإما على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل مضمرٍ هو الحالُ منه أي يزحَفون زحفًا، وأما كونُه حالًا من فاعله أو منه ومن مفعوله معًا كما قيل فيأباه قوله تعالى: ﴿**فلا تولوهم الأدبار**﴾ إذ لا معنى لتقييد النهي عن الإدبار بتوجههم السابقِ إلى العدو أو بكثرتهم بل توجُّهُ العدوِّ إليهم وكثرتُهم هو الداعي إلى الإدبار عادةً والمُحوِجُ إلى النهي عنه، وحملُه على الإشعار بما سيكون منهم يومَ حُنينٍ حيث تَوَلَّوا مدْبرين وهم زحفٌ من الزحوف اثنا عشر ألفًا بعيدٌ، والمعنى إذا لقِيتموهم للقتال وهم كثيرٌ جمٌّ وأنتم قليلٌ فلا تولوهم أدبارَكم فضلًا عن الفرار بل قابلوهم وقاتِلوهم مع قلتكم فضلًا عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم.

﴿**ومن يولهم يومئذ**﴾ أي يوم اللقاء ﴿**دبره**﴾ فضلًا عن الفرار، وقرئ بسكون[3] الباء ﴿**إلا متحرفًا لقتال**﴾ إما بالتوجه إلى قتال طائفةٍ أخرى أهم من هؤلاء وإما بالفرّ للكرّ بأن يُخيِّل لعدوّه أنه منهزمٌ ليغُرَّه ويُخرِجَه من بين أعوانه ثم يعطِفَ عليه وحدَه أو مع مَنْ في الكمين من أصحابه وهو باب من خِدعِ الحربِ ومكايدِها ﴿**أو متحيزًا إلى فئة**﴾ أي منحازًا إلى جماعة أخرى من المؤمنين لينضمّ إليهم ثم يقاتلَ معهم العدو. عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: إن سريةً فرّوا وأنا معهم فلما رجعوا إلى المدينة استحيَوْا ودخلوا البيوتَ فقلت: يا رسولَ الله نحن الفرارون فقال ﷺ: «**بل أنتم**

---

(١) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ص (١٨٧)، ولسان العرب (صرد)، وتاج العروس (صرد)، والمعاني الكبير (٨٩١).
والأرعن: الجيش المضطرب لكثرته، وقد شُبّه بالطود أي الجبل. وهملجت الدابة: سارت سيراً حسناً في سرعة.

(٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤٧٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٩).

العكّارون[١] [(أي الكرارون، من عكر أي رجع)][٢]، **وأنا فئتُكم**»، وانهزم رجلٌ من القادسية فأتى المدينةَ إلى عمرَ رضي الله عنه فقال: يا أميرَ المؤمنين هلكتُ ففرَرْتُ من الزحف فقال رضي الله عنه: أنا فئتُك[٣]. ووزنُ متحيِّز متفيعل لا متفعّل وإلا لكان متحوزًا لأنه من حاز يحوز وانتصابُهما إما على الحالية وإلا لغوٌ لا عمَلَ لها وإما على الاستثناء من المُولّين أي ومن يولهم دبرَه إلا رجلًا منهم متحرفًا أو متحيزًا ﴿**فقد باء**﴾ أي رجع ﴿**بغضب**﴾ عظيم لا يقادر قدرُه و(من) في قوله تعالى: ﴿**من الله**﴾ متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لغضب مؤكدةٌ لما أفاده التنوينُ من الفخامة والهولِ بالفخامة الإضافية أي بغضب كائنٍ منه تعالى ﴿**ومأواه جهنم**﴾ أي بدلَ ما أراد بفراره أن يأويَ إليه من مأوى ينجيه من القتل ﴿**وبئس المصير**﴾ في إيقاع البَوْءِ في موقع جوابِ الشرطِ الذي هو التوليةُ، مقرونًا بذكر المأوى والمصير، من الجزالة، ما لا مزيدَ عليه. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الفرارَ من الزحف من أكبر الكبائرِ وهذا إذا لم يكن العدوُّ أكثرَ من الضِّعف[٤] لقوله تعالى: ﴿**الآن خفف الله عنكم**﴾ [الأنفال، الآية ٦٦]، وقيل: الآية مخصوصةٌ بأهل بيتِهِ والحاضرين معه في الحرب.

[عود إلى غزوة بدر]

﴿**فلم تقتلوهم**﴾ رجوعٌ إلى بقية أحكامِ الوقعةِ وأحوالِها وتقريرُ ما سبق منها والفاءُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٦): كتاب الجهاد: باب في التولي يوم الزحف (٢٦٤٧)، والترمذي (٥/ ٢١٥) كتاب الجهاد: باب ما جاء في الفرار من الزحف، حديث (١٧١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٢)، وأحمد (٢/ ٧٠-٨٦-١٠٠-١١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٧٦-٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٧) والحميدي في مسنده (٢/ ٣٠٢) حديث (٦٨٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٥)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب المفرد وأبي داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر.

(٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٥٥) برقم (٣٣٧٧٤).

(٤) والفرار من الزحف من كبائر المعاصي. وجاء التصريح بذلك في قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: اجتنبوا السبع الموبقات (المهلكات) قالوا يا رسول الله وما هن ؟. قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

قال الشافعي في (الأم: ٤/ ١٤٩): إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة. وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا. ولا يستوجبون السخط من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة.

جوابُ شرطٍ مقدر يستدعيه ما مر من ذكر إمدادِه تعالى وأمرِه بالتثبيت وغيرِ ذلك، كأنه قيل: إذا كان الأمرُ كذلك فلم تقتُلوهم أنتم بقوتكم وقدرتِكم ﴿**ولكن الله قتلهم**﴾ بنصركم وتسليطِكم عليهم وإلقاءِ الرعب في قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير: إذا علمتم ذلك فلم تقتُلوهم أي فاعلَموا، أو فأُخبركم أنكم لم تقتُلوهم، وقيل: التقديرُ إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتُلوهم على أحد التأويلين، لما (رُوي أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون: قتلتُ وأسرتُ وفعلتُ وتركتُ فنزلت)، وقد كان رسول الله ﷺ حين طلعت قريشٌ من العقنقل[1] قال: «**هذه قريشٌ جاءت بخُيلائها وفخرِها يكذّبون رسولَك، اللهم إني أسألك ما وعدتني**»[2] فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: خُذْ قبضةً من تراب فارمِهم بها فلما التقى الجمعانِ قال لعلي رضي الله تعالى عنه: «**أعطني قبضةً من حصباءِ الوادي**» فرمى بها في وجوههم وقال: «**شاهت الوجوهُ**» فلم يبْقَ مُشركٌ إلا شُغل بعينيه فانهزموا)[3].

وذلك قوله عز وجل بطريق تلوينِ الخطاب: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ تحقيقًا لكون الرمي الظاهرِ على يده عليه الصلاة والسلام حينئذٍ من أفعاله عز وجل، وتجريدُ الفعلِ عن المفعول به لما أن المقصودَ الأصليَّ بيانُ حالِ الرمي نفيًا وإثباتًا، إذ هو الذي ظهر منه ما ظهر وهو المنشأ لتغيّر المرميِّ به في نفسه وتكثّرِه إلى حيث أصاب عينَيْ كلِّ واحد من أولئك الأمةِ الجمّةِ شيءٌ من ذلك، أي وما فعلت أنت يا محمدُ تلك الرميةَ المستتبِعةَ لهذه الآثارِ العظيمةِ حقيقةً حين فعلتَها صورةً وإلا لكان أثرُها من جنس آثارِ الأفاعيلِ البشرية ولكن الله فعلَها أي خلقها حيث باشَرْتها لكن لا على نهج عادتِه تعالى في خلق أفعالِ العبادِ بل على وجه غيرِ معتادٍ ولذلك أثرت هذا التأثيرَ الخارجَ عن طوق البشرِ ودائرةِ القُوى والقدر، فمدارُ إثباتِها لله تعالى ونفِيها عنه عليه الصلاة والسلام كونُ أثرِها من أفعالِه [عليه الصلاة والسلام][4].

---

(١) العقنقل: الكثيب العظيم المتداخل الرمل.

(٢) رواية ابن هشام في السيرة النبوية: «اللهمَّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذب رسولك، اللهمَّ فنصرك الذي وعدتني، اللهمَّ أحِنْهم الغداة».

(٣) أخرجه ابن هشام في سيرته (٢/ ٢٧٨-٢٧٩-٢٨٠) رقم (٧٣٤، ٧٣٧)، والبيهقي (٣/ ١١٠) في دلائل النبوة، والطبري في تفسيره (٦/ ٢٠٣) رقم (١٥٨٣٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٩) رقم (٥٠٠) إلى الواقدي في المغازي، وإلى ابن مردويه في تفسيره.

(٤) في خ: سبحانه.

وقرئ (ولكنِ اللهُ)[1] بالتخفيف والرفع في المحلين.

واللام في قوله تعالى: ﴿**وليبلي المؤمنين منه**﴾ أي ليعطيهم من عنده تعالى ﴿**بلاءً حسنًا**﴾ أي عطاءً جميلًا غيرَ مَشوبٍ بمقاساة الشدائدِ والمكاره، واللام إما متعلقةٌ بمحذوف متأخرٍ فالواوُ اعتراضيةٌ أي وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعَلَ ما فعل، لا لشيء غيرِ ذلك مما لا يُجديهم نفعًا، وإما بـ (رَمىٰ) فالواوُ للعطف على علةٍ محذوفةٍ أي ولكن الله رمىٰ ليمحَق الكافرين وليُبلي . . . إلخ.

وقوله تعالى: ﴿**إن الله سميع**﴾ أي لدعائهم واستغاثتهم ﴿**عليم**﴾ أي بنياتهم وأحوالِهم الداعيةِ إلى الإجابة، تعليلٌ للحكم. ﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى البلاء الحسنِ ومحلُّه الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ وقوله تعالى: ﴿**وأن الله مُوهِن كيد الكافرين**﴾ بالإضافة معطوفٌ عليه أي المقصِدُ إبلاءُ المؤمنين وتوهينُ كيدِ الكافرين وإبطالُ حِيلِهم، وقيل: المشارُ إليه القتلُ والرميُ، والمبتدأ الأمر، [أي الأمر ذلكم أي][2] القتل فيكون قوله تعالى: ﴿**وأن الله**﴾ الآية، من قبيل عطفِ البيانِ، وقرئ (مُوهن) بالتنوين مخففًا[3] ومشددًا[4] ونصبِ كيد الكافرين.

﴿**إن تستفتحوا**﴾ خطابٌ لأهل مكةَ على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروجَ تعلقوا بأستار الكعبةِ وقالوا: اللهم انصُرْ أعلى الجُندَيْن وأهدي الفئتين وأكرمَ الحِزبين، أي إن تستنصروا لأعلى الجندين ﴿**فقد جاءكم الفتح**﴾ حيث نصَر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكمُ في المجيء، أو فقد جاءكم الهزيمةُ والقهرُ فالتهكم في نفس الفتحِ حيث وضع موضعَ ما يقابله ﴿**وإن تنتهوا**﴾ عما كنتم عليه من الحِراب ومعاداةِ الرسولِ ﷺ ﴿**فهو**﴾ أي الانتهاء ﴿**خير لكم**﴾ أي من الحِراب الذي ذُقتم

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١٤٤، ٢٣٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ١١٠)، والتيسير للداني (٧٥، ١٦٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١١٩).

(٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، ويعقوب، وخلف، والأعمش، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ١١٢)، والتيسير للداني ص (١١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٨٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٠٤).

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وروح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ١١٢)، والتيسير للداني ص (١١٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٨٦).

غائلته لِما فيه من السلامة من القتل والأسر، ومبنى اعتبارِ أصلِ الخيرية في المفضل عليه هو التهكم ﴿وإن تعودوا﴾ أي [إلى][1] حِرابه عليه الصلاة والسلام ﴿نعد﴾ لما شاهدتموه من الفتح ﴿ولن تغني﴾ بالتاء الفوقانية وقرئ بالياء التحتانية[2] لأن تأنيثَ الفئةِ غيرُ حقيقي وللفصل أي لن تَدفعَ أبدًا ﴿عنكم فئتكم﴾ جماعتُكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿شيئًا﴾ أي من الإغناء أو من المضاربة[3].

وقوله تعالى: ﴿ولو كثرت﴾ جملةٌ حالية وقد مر التحقيق ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ أي ولأن الله معينُ المؤمنين كان ذلك، أو والأمرُ أن الله مع المؤمنين، ويقرب منه بحسب المعنى قراءةُ الكسر[4] على الاستئناف، وقيل: الخطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصِروا فقد جاءكم النصرُ وإن تنتهوا عن التكاسل والرغبةِ عما يرغّب فيه الرسول ﷺ فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناطٌ لنيل سعادة الدارين وإن تعودوا إليه نعُدْ عليكم بالإنكار وتهييجِ العدو ولن تغنيَ حينئذٍ كثرتُكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمرُ أن الله مع الكاملين في الإيمان.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

---

(١) سقط في خ.

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٧٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٠).

(٣) في خ: المضار.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، الكسائي، وعبد الله بن مسعود. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤٧٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ١١٣)، والتيسير للداني ص (١١٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٠).

[توجيهات للمؤمنين]

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا﴾ بطرح إحدى التاءين وقرئ[(١)] بإدغامها ﴿عنه﴾ أي لا تتولوا عن الرسول، فإن المرادَ هو الأمرُ بطاعته والنهيُ عن الإعراض عنه، وذكرُ طاعتِه تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعتَه تعالى في طاعة رسولِه عليه الصلاة والسلام ﴿من يطِعِ الرسولَ فقد أطاع الله﴾ [النساء، الآية ٨٠] وقيل: الضمير للجهاد وقيل: للأمر الذي دل عليه الطاعة وقوله تعالى: ﴿وأنتم تسمعون﴾ جملةٌ حالية واردةٌ لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢٢] لا لتقييد النهي عنه بحال السماع كما في قوله تعالى: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء، الآية ٤٣] أي لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بطاعتِه والمواعظ الزاجرة عن مخالفته أي سماعَ فهمٍ وإذعان.

﴿ولا تكونوا﴾ تقريرٌ للنهي السابق وتحذيرٌ عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤديةٌ إلى انتظامهم في سلك الكفرةِ بكون سماعِهم كَلا سماعٍ أي لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهي ﴿كالذين قالوا سمعنا﴾ بمجرد الادعاءِ من غير فهمٍ وإذعانٍ كالكفرة والمنافقين الذي يدعون السماعَ ﴿وهم لا يسمعون﴾ حالٌ من ضميرٍ قالوا أي قالوا ذلك والحالُ أنهم لا يسمعون حيث لا يصدّقون ما سمعوه ولا يفهمونه حقَّ فهمِه فكأنهم لا يسمعونه رأسًا.

﴿إن شر الدواب﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان كمالِ سوءِ حالِ المشبه بهم مبالغةً في التحذير وتقريرًا للنهي إثرَ تقريرٍ، أي إن شرَّ ما يدب على الأرض أو شرَّ البهائم ﴿عند الله﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الصمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿البكم﴾ الذين لا ينطِقون به، وُصفوا بالصمم والبَكَم لأن ما خُلق له الأذنُ واللسانُ سماعُ الحق والنطق به، وحيث لم يوجد فيهم شيءٌ من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسًا، وتقديم الصمِّ على البكم لِما أن صُمَّهم متقدمٌ على بُكمهم، فإن السكوتَ عن النطق بالحق من فروع عدمِ سماعِهم له كما أن النطقَ به من فروعِ سماعِه ثم وُصفوا بعدم التعقل فقيل: ﴿الذين لا يعقلون﴾ تحقيقًا لكمال سوءِ حالِهم فإن الأصمَّ الأبكمَ إذا

---

(١) قرأ بها: البزي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٦)، والتيسير للداني ص (٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).

كان له عقلٌ ربما يفهم بعضَ الأمور ويُفهِمُه غيرُه بالإشارة ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبِه، وأما إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا فهو الغايةُ في الشرّية وسوءِ الحال، وبذلك يظهرُ كونُهم شرًا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضّلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخسّ من كل خسيس.

﴿ولو علم الله فيهم خيرًا﴾ شيئًا من جنس الخيرِ الذي من جملته صرفُ قواهم إلى تحرّي الحقِّ واتباعِ الهدى ﴿لأسمعهم﴾ سماعَ تفهمٍ وتدبر ولوقفوا على حقّية الرسولِ عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلَم فيهم شيئًا من ذلك لخلوّهم عنه بالمرة فلم يُسمِعْهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجِه عن الحكمة وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ أي لو أسمعهم سماعَ تفهّمٍ وهم على هذه الحالة العارية من الخير بالكلية لتولّوا عما سمِعوه من الحق ولم ينتفعوا به قطُّ أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلًا، وقوله تعالى: ﴿وهم معرضون﴾ إما حالٌ من ضمير تولوا أي لتولوا على أدبارهم والحالُ أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم، وإما اعتراضٌ تذييليٌّ أي وهم قومٌ عادتُهم الإعراضُ وقيل: كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أحْيِ قُصَيًّا فإنه كان شيخًا مباركًا حتى يشهدَ لك ونؤمنَ بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصيٍّ إلخ وقيل: هم بنو عبد الدار بن قصي، لم يُسلم منهم إلا مصعبُ بنُ عميرٍ وسويدُ بن حرْملة كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌ عميٌ عما جاء به محمدٌ لا نسمعه ولا نجيبه، قاتلهم الله تعالى فقُتلوا جميعًا بأحد وكانوا أصحابَ اللواءِ. وعن ابن جريج أنهم المنافقون، وعن الحسن رضي الله عنه أنهم أهلُ الكتاب.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تكريرُ النداء مع وصفهم بنعت الإيمانِ لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يردُ بعدَه من الأوامر وتنبيهِهم على أن فيهم ما يوجب ذلك ﴿استجيبوا لله وللرسول﴾ بحسن الطاعة ﴿إذا دعاكم﴾ أي الرسولُ إذ هو المباشرُ لدعوة الله تعالى ﴿لما يحييكم﴾ من العلوم الدينيةِ التي هي مناطُ الحياة الأبدية كما أن الجهَل مدارُ الموتِ الحقيقيِّ أو هي ماءُ حياةِ القلبِ كما أن الجهلَ موجبٌ موتَه، وقيل: لمجاهدة الكفارِ لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما في قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياةٌ﴾ [البقرة، الآية ١٧٩] روي أنه عليه الصلاة والسلام (مر على أُبيَّ بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجّل في صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام: «ما منعك من إجابتي؟» قال: كنت في الصلاة قال: «ألم تخبَرْ فيما أوحِيَ

إلي ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾[١] الخ). واختلف فيه فقيل: هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل: لأن إجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاةَ وقيل: كان ذلك الدعاءُ لأمر مهمٍّ لا يحتمل التأخيرَ وللمصلي أن يقطع الصلاةَ لمثله ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تمثيلٌ لغاية قربه تعالى من العبد[٢] كقوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق: ١٦] وتنبيهٌ على أنه تعالى مطلعٌ من مكنونات القلوب على ما عسى يغفُل عنه صاحبُها أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوبِ وتصفيتِها قبل إدراك المنيةِ فإنها حائلةٌ بين المرء وقلبِه أو تصويرٌ وتخييلٌ لتملّكه على العبد قلبَه بحيث يفسخ عزائمهُ ويغيّر نياتِه ومقاصدَه ويحول بينه وبين الكفر إن إراد سعادتَه ويبدله بالأمن خوفًا وبالذكر نسيانًا وما أشبه ذلك من الأمور المعترضةِ المفوتةِ للفرصة، وقرئ (بين[٣] المرِّ) بتشديد الراء على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل مجرى الوقف ﴿وأنه﴾ أي الله عز وجل أو الشأن ﴿إليه تحشرون﴾ لا إلى غيره فيجازيكم بحسب مراتبِ أعمالِكم فسارعوا إلى طاعته[٤] تعالى وطاعةِ رسولِه وبالغوا في الاستجابة لهما.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٥): كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، حديث (٢٨٧٥)، والنسائي (٢/ ١٣٩): كتاب الافتتاح: باب تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولقد ءاتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾ وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٢١) رقم (٥٠١) إلى ابن مردويه في تفسيره.

(٢) وعلى هذا يكون المعنى: أن الله يعلم عزم المرء ونيته، قبل أن تنفعل بعزمه جوارحه فشبه علم الله بذلك، بالحائل بين شيئين في كونه أشد اتصالاً بالمحول عنه من أقرب الأشياء إليه، وفي الشهاب على البيضاوي: أصل الحول كما قال المراغيني تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قبل حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل: حال بينهما، فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه أنه يفصل بينهما، وهو غير متصور في حقه، فهو مجاز عن غاية القرب من العبد؛ لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما، وهو إما استعارة تبعية، فمعنى يحول (يقرب) أو تمثيلية، وقيل: هي مجاز مرسل، وفي البيضاوي أن هذا تمثيل لغاية قربه من العبد وعبارة الزمخشري: قيل معناه أن الله قد يملك على العبد قلبه، فيفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده، ويبدله بالخوف أمنًا والراجح أن الآية من الاستعارة التمثيلية، وقد مضى الحديث عنها.
ينظر: الكشاف (٢/ ١٥٣)، والبحر المحيط (٤/ ٤٨١)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٣٧)، والتحرير والتنوير (٩/ ٣١٥)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها.

(٣) قرأ بها: الحسن، والزهري.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٦).

(٤) في خ: طاعة الله.

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي لا تختصّ إصابتُها بمن يباشر الظلمَ منكم بل يعُمه وغيرَه كإقرار المُنكَر بين أظهُرِهم والمداهنةِ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراقِ الكلمةِ وظهورِ البدع والتكاسلِ في الجهاد، على أن قوله: لا تصيبن إلخ إما جوابُ الأمر على معنى أن إصابتكم لا تصيبن إلخ وفيه [أن][1] جوابَ الشرط مترددٌ فلا يليق به النونُ المؤكدةُ لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿ادخُلوا مساكِنكم لا يحطِمَّنكم﴾ [النمل، الآية ١٨] وإما صفةٌ لفتنة ولا للنفي وفيه شذوذٌ لأن النون لا تدخُل المنفيَّ في غير القسمِ، أو للنهي على إرادة القولِ كقول من قال: [الرجز]

حتَّى إذا جَنّ الظلامُ واختلطْ جاؤوا بمذْقٍ هل رأيتَ الذئب قطْ[2]

وإما جوابُ قسم محذوفٍ كقراءة من قرأ: (لتصيبن) وإن اختلف المعنى فيهما، وقد جُوِّز أن يكون نهيًا عن التعرض للظلم بعد الأمرِ باتقاء الذنبِ فأن وبالَه يصيب الظالمَ خاصةً ويعود عليه؛ ومِنْ في منكم على الوجوه الأُوَلِ للتبعيض وعلى الأخرين للتبيين، وفائدتُه التنبيهُ على أن الظلمَ منكم أقبحُ منه من غيركم.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشِرْ سببَه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ أي وقتَ كونِكم قليلًا في العدد، وإيثارُ الجملةِ الاسمية للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف، وقوله تعالى: ﴿مستضعفون﴾ خبرٌ ثانٍ أو صفةٌ لـ (قليل) وقوله تعالى: ﴿في الأرض﴾ أي في أرض مكةَ تحت أيدى قريشٍ والخطابُ للمهاجرين، أو تحت أيدي فارسَ والروم، والخطاب للعَرَب كافةً فإنهم كانوا أذلاءَ تحت أيدي الطائفتين.

وقوله تعالى: ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ خبرٌ ثالثٌ أو صفةٌ ثانية لـ (قليلٌ) وُصِفَ بالجملة بعد ما وصف بالمُفرد، أو حالٌ من المستكنِّ في مستضعفون، والمرادُ

(١) سقط في ط.

(٢) الرجز للعجاج في ملحق ديوانه (٢/ ٣٠٤)، وخزانة الأدب (٢/ ١٠٩)، والدرر (٦/ ١٠)، وشرح التصريح (٢/ ١١٢)، والمقاصد النحوية (٤/ ٦١)، وبلا نسبة في الإنصاف (١/ ١١٥)، وأوضح المسالك (٣/ ٣١٠)، وخزانة الأدب (٣/ ٣٠، ٥/ ٢٤، ٤٦٨، ٦/ ١٣٨)، وشرح الأشموني (٢/ ٤٩٩)، وشرح ابن عقيل ص (٤٧٧)، وشرح عمدة الحافظ ص (٥٤١)، وشرح المفصل (٣/ ٥٢، ٥٣)، ولسان العرب (خضر)، (مذق)، والمحتسب (٢/ ١٦٥)، ومغني اللبيب (١/ ٢٤٦)، (٢/ ٥٨٥)، وهمع الهوامع (٢/ ١١٧)، وتهذيب اللغة (٧/ ١٠٦)، وتاج العروس (خضر)، والمخصص (١٣/ ١٧٧)، وأساس البلاغة (ضيح)، وتاج العروس (مذق).

بالناس على الأول وهو الأظهرُ إما كفارُ قريشٍ وإما كفارُ العرب لقربهم منهم وشدةِ عداوتهم لهم، وعلى الثاني فارس والروم أي واذكروا وقت قِلتِكم وذِلتكم وهَوانِكم على الناس وخوفِكم من اختطافهم ﴿فآواكم﴾ إلى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم ﴿وأيدكم بنصره﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار أو بإمداد الملائكة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعمَ الجليلة.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ أصلُ الخَوْنِ النقصُ كما أن أصلَ الوفاءِ التمام، واستعمالُهُ في ضد الأمانة لتضمنه إياه أي لا تخونوهما بتعطيل الفرائضِ والسنن أو بأن تُضمِروا خلافَ ما تظهرون، أو في الغلول في الغنائم، روي (أنه عليه الصلاة والسلام حاصَر بني قُريظةَ إحدى وعشرين ليلةً فسألوا الصُّلْحَ كما صالح بني النضيرِ على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرِعاتٍ وأريحاءَ من الشام، فأبى إلا أن ينزِلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لُبابةَ وكان مناصِحًا لهم لِما أن ماله وعيالَه كانا في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا: ما ترى هل ننزل على حُكم سعدٍ فأشار إلى حلقه إنه الذبحُ قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عملتُ أني خُنتُ الله ورسولَه فنزلت فشد نفسَه على سارية من سواري المسجدِ وقال: والله لا أذوقُ طعامًا ولا شرابًا حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليّ فمكث سبعةَ أيامٍ حتى خرَّ مغشيًا عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيبَ عليك فحُلَّ نفسَك، قال: لا والله لا أحُلّها حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحُلّني فجاءه عليه الصلاة والسلام فحلّه فقال: إن من تمام توبتي أن أهجُرَ دارَ قومي التي أصبتُ فيها الذنبَ وأن أنخلِع من مالي فقال عليه الصلاة والسلام: «**يُجزِئُك**[1] **الثلثُ أن تتصدقَ به**»[2] ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ فيما بينكم وهو مجزومٌ معطوفٌ على الأول أو منصوبٌ على الجواب بالواو ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم تخونون أو وأنتم علماءُ تميِّزون الحسنَ من القبيح ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لأنها سببُ الوقوعِ في الإثم والعقاب أو

---

(١) يجزئك: يكفيك.

(٢) أخرجه ابن هشام في سيرته (٣/ ٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦) رقم (١٣٨١-١٣٨٢-١٣٨٤-١٣٨٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٥-١٦-١٧)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٤٠٥-٤٠٦) رقم (٩٧٤٥)، وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٢٢٠)، رقم (١٥٩٣٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٢٣).

وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٢٥) إلى الثعلبي في تفسيره وإلى الواقدي في كتاب المغازي.

محنةٌ من الله عز وجل ليبلُوَكم في ذلك فلا يحمِلَنّكم حبُّهما على الخيانة كأبي لُبابة ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ لمن آثَرَ رضاه تعالى عليهما وراعىٰ حدودَه فيهما فنيطوا هِممَكم بما يؤديكم إليه.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تكريرُ الخطابِ والوصفِ بالإيمان لإظهار كمالِ العنايةِ بما بعده والإيذانِ بأنه مما يقتضي الإيمانُ مراعاتَه والمحافظةَ عليه كما في الخطابين السابقين ﴿إن تتقوا الله﴾ أي في كل ما تأتون وما تذرون ﴿يجعل لكم﴾ بسبب ذلك ﴿فُرقانًا﴾ هدايةً في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحقِّ والباطل أو نصرًا يفرّق بين المُحِقِ والمُبطل بإعزاز المؤمنين وإذلالِ الكافرين، أو مخرجًا من الشبهات أو نجاةً عما تحذرون في الدارين أو ظهورًا يشهَرُ أمرَكم وينشرُ صِيتَكم، من قولهم بتّ أفعلُ كذا حتى سطَع الفُرقانُ أي الصبح ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يسترها ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبَكم بالعفو والتجاوزِ عنها، وقيل: السيئاتُ الصغائرُ والذنوبُ الكبائرُ، وقيل: المرادُ ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرها الله تعالى لهم وقوله تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تعليلٌ لما قبله وتنبيهٌ على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضّلٌ منه وإحسانٌ لا أنه مما يوجبه التقوى كما إذا وعد السيدُ عبدَه إنعامًا على عمل.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

[نصر الله لرسوله ﷺ]

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ ﷺ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم﴾ [الأنفال، الآية ٢٦] إلخ مسوقٌ لتذكير[١] النعمةِ العامةِ للكل، أي واذكر وقتَ مكرهم بك ﴿ليثبتوك﴾ بالوَثاق، ويعضُده قراءةُ من قرأ: (ليقيدوك)، أو الإثخانِ بالجرح، من قولهم: ضربه حتى أثبته لا حَراكَ به ولا بَراح، وقرئ (ليثبّتوك)[٢] بالتشديد و(ليبيّتوك)[٣] من البيات.

﴿أو يقتلوك﴾ أي بسيوفهم ﴿أو يخرجوك﴾ أي من مكة (وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصارِ ومبايعتِهم له عليه الصلاة والسلام فرِقوا واجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره ﷺ فدخل إبليسُ عليهم في صورة شيخٍ وقال: أنا من نجد سمعتُ باجتماعكم فأردت أن أحضُركم ولن تعدَموا منى رأيًا ونُصحًا فقال أبو البَخْتري: رأيي أن تحبِسوه في بيت وتسدّوا منافذه غيرَ كوّةٍ تلقون إليه طعامَه وشرابَه منها حتى يموت فقال الشيخ: بئس الرأيُ يأتيكم من يقاتلُكم من قومه ويخلِّصه من أيديكم فقال هشامُ بنُ عمْرو: رأيي أن تحمِلوه على جمل وتُخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال: وبئس الرأي يُفسِدُ قومًا غيرَكم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخُذوا من كل بطنٍ غلامًا وتعطوه سيفًا فيضرِبوه ضربةً واحدة فيتفرقَ دمُه في القبائل فلا يقوىٰ بنو هاشم على حرب قريشٍ كلِّهم فإذا طلبوا العقلَ[٤] عقَلْناه فقال: صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه فأتى جبريلُ النبي عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيّت عليًّا رضي الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار)[٥].

﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أي يرد مكرَهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملةَ الماكرين وذلك بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حمَلوا عليهم

---

(١) زاد في خ: النعمة الخاصة.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٣).

(٣) قرأ بها: النخعي.
بحر (٤/ ٤٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٣).

(٤) العقل: الدية. أي فإذا طلبوا الدية وديناه.

(٥) أخرجه ابن هشام في سيرته (٢/ ١٠٠-١٠١) رقم (٥٠٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨٤) رقم (٩٧٤٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٢٢٦-٢٢٧) رقم (١٥٩٧٩، ١٥٩٨٢، ١٥٩٨٣)، وذكره السيوطي في تفسيره (٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

فلقُوا منهم ما لقُوا ﴿والله خير الماكرين﴾ لا يُعبأ بمكرهم عند مكرِه، وإسنادُ أمثالِ هذا إليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة[1]، ولا مساغَ له ابتداءً لما فيه من إيهام ما لا يليق به سبحانه ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التي حقها أن يخِرَّ لها صُمُّ الجبال ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قاله اللعينُ النضْرُ بنُ الحارث، وإسنادُه إلى الكل لما أنه كان رئيسَهم وقاضيَهم الذي يقولون بقوله ويأخُذون برأيه وقيل: قاله الذين ائتمروا في أمره ﷺ في دار الندوة، وهذا كما ترى غايةُ المكابرة ونهايةُ العِناد كيف لا ولو استطاعوا شيئًا من ذلك فما الذي كان يمنعهم من المشيئة وقد تُحُدّوا عشرَ سنين وقُرِعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرَّيْن ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنَفتهم وفرْطِ استنكافِهم أن يُغلَبوا لا سيما في باب البيان ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما يسطرونه من القصص.

﴿وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ هذا أيضًا من أباطيل ذلك اللعين. روي أنه لما قال: إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين قال له النبي ﷺ: «**ويلَك إنه كلامُ الله تعالى**» فقال ذلك والمعنى أن القرآن إن كان حقًّا منزلًا من عندك فأمطِرْ علينا الحجارةَ عقوبةً على إنكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمرادُ منه التهكمُ وإظهارُ اليقينِ والجزمِ التامِّ على أنه ليس كذلك وحاشاه، وقرئ الحقُّ بالرفع على أن هو مبتدأٌ لا فصلٌ، وفائدةُ التعريفِ فيه الدلالةُ على أن المعلق به كونُه حقًّا على الوجه الذي يدّعيه ﷺ وهو تنزيلُه لا الحقُّ مطلقًا لتجويزهم أن يكون مطابقًا للواقع غيرَ منزلٍ كالأساطير ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ جوابٌ لكلمتهم الشنعاءِ وبيانٌ للموجِب لإمهالهم والتوقفِ في إجابة دعائِهم واللامُ لتأكيد النفي والدِلالةِ على أن تعذيبَهم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ عليه الصلاة والسلام بين أظهرِهم خارجٌ عن عادته تعالى غيرُ مستقيمٍ في حُكمه وقضائه، والمرادُ باستغفارهم في قوله تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ إما استغفارُ مَنْ بقِيَ منهم من المؤمنين أو قولُهم: اللهم اغفِرْ أو فرضُه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى: ﴿وما كان ربُّك ليُهلِكَ القرى بظلمٍ وأهلُها مصلحون﴾ [هود: ١١٧].

---

(١) المشاكلة لون بديعي سبق البيان عنه عند قوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: ١٥].
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠)، وأسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، والإتقان (٢/ ٣٦) وما بعدها.

﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ بيانٌ لاستحقاقهم العذابَ بعد بيانِ أن المانعَ ليس من قِبَلهم، أي وما لهم مما يمنع تعذيبَهم متى زال ذلك وكيف لا يعذّبون ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي وحالُهم ذلك، ومِنْ صدّهم عنه إلجاءُ رسولِ الله ﷺ إلى الهجرة وإحصارُهم عام الحديبية ﴿وما كانوا أولياءه﴾ حالٌ من ضمير يصدون مفيدةٌ لكمال قُبحِ ما صنعوا من الصد فإن مباشرتَهم للصد عنه مع عدم استحقاقِهم لولاية أمرِه في غاية القُبح وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحنُ ولاةُ البيتِ والحرم[١] فنصد من نشاء ونُدخِل من نشاء ﴿إنْ أولياؤه إلا المتقون﴾ من الشرك الذين لا يعبُدون فيه غيرَه تعالى ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أنه لا ولايةَ لهم عليه، وفيه إشعارٌ بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند، وقيل: أريد بأكثرهم كلُّهم كما يراد بالقلة العدم ﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاةً أو ما يضعون موضعها ﴿إلا مكاءً﴾ أي صفيرًا فُعال من مكا يمكو إذا صفر وقرئ بالقصر[٢] كالبُكى ﴿وتصدية﴾ أي تصفيقًا، تفعِلةً من (الصَّدَى) أو من (الصدّ) على إبدال أحدِ حرفي التضعيف بالياء، وقرئ صلاتَهم[٣] بالنصب على أنه الخبرُ لكان، ومساقُ الكلام لتقرير استحقاقِهم العذابَ أو عدمِ ولايتِهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاتُه. رُوي أنهم كانوا يطوفون عراةً الرجالُ والنساء مشبكين بين أصابعِهم يصفرون[٤] فيها ويصفقون وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلِطون عليه ويُرَون أنهم يصلون أيضًا ﴿فذوقوا العذاب﴾ أي القتلَ والأسرَ يوم بدرٍ وقيل: عذابَ الآخرة، واللامُ يحتمل أن تكون للعهد والمعهودُ ائتنا بعذاب أليم ﴿بما كنتم تكفرون﴾ اعتقادًا وعملًا.

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالَهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ نزلت في المطعِمين يوم بدر وكانوا اثنيْ عشَرَ رجلًا من قريش يُطعم كل واحد منهم كلَّ يوم عشْرَ جُزُرٍ، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أُحُد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين

---

(١) في ط: الحرام.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٥).

(٣) قرأ بها: عاصم، وأبان بن تغلب، والأعمش، والحسين الجعفي، وأبو بكر.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٧٥)، والبحر المحيط (٤/ ٤٩٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٣٥)، والسبعة لابن مجاهد (٣٠٥، ٣٠٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٧٨).

(٤) في ط: يصفقون.

أوقيةً أو في أصحاب العِير فإنه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم: أعينوا بهذا المالِ على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرَنا منه ففعلوا والمرادُ بسبيل الله دينُه واتباعُ رسوله ﴿فسينفقونها﴾ بتمامها، ولعل الأول إخبارٌ عن إنفاقهم في تلك الحالِ وهو إنفاقُ يوم بدرٍ، والثاني إخبارٌ عن إنفاقهم فيما يُستقبل وهو إنفاقُ يوم أحدٍ، ويحتمل أن يُرادَ بهما واحدٌ على مساق الأول لبيان الغرضِ من الانفاق، ومساق الثاني لبيان عاقبتِه وأنه لم يقع بعد ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ ندمًا وغمًا لفواتها من غير حصول المقصودِ، جُعل ذاتُها حسرة وهي عاقبةُ إنفاقها مبالغةً ﴿ثم يغلبون﴾ آخرَ الأمر وإن كان الحربُ بينهم سجالًا قبل ذلك ﴿والذين كفروا﴾ أي تموا على الكفر وأصروا عليه ﴿إلى جهنم يحشرون﴾ أي يساقون لا إلى غيرها.

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفسادَ من الصلاح واللامُ متعلقةٌ بيحشرون أو بيغلبون أو ما أنفقه المشركون في عداوته ﷺ مما أنفقه المسلمون في نُصرته واللامُ متعلقةٌ بقوله: ثم تكون عليهم حسرةً وقرئ (ليُميِّز)[1] بالتشديد ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا﴾ أي يضم بعضَه إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامِهم فيجمعه أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابَه كما للكافرين ﴿فيجعله في جهنم﴾ كلَّه.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى الخبيث إذ هو عبارةٌ عن الفريق أو إلى المنفقين، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتِهم في الخبث ﴿هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسِروا أنفسَهم وأموالَهم.

﴿قل للذين كفروا﴾ هم أبو سفيانَ وأصحابُه أي قل لأجلهم ﴿إن ينتهوا﴾ عما هم فيه من معاداة النبيِّ ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ من الذنوب وقرئ (إن[2] تنتهوا يُغفرْ لكم) و(نغفِرْ لكم)[3] على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿وإن يعودوا﴾ إلى قتالهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ الذين تحزّبوا على الأنبياء عليهم

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، والأعمش، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٣٩)، والتيسير للداني (٩٢، ١١٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٠٦).

(٢) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٥، ١٢٦)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٦٧).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٤٠١).

السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثلَ ذلك ﴿وقاتلوهم﴾ عطف على قل، وقد عُمّم الخطابُ لزيادة ترغيبِ المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قولُه تعالى: ﴿فقد مضت سنةُ الأولين﴾ من الوعيد ﴿حتى لا تكون فتنه﴾ أي لا يوجَدَ منهم شركٌ ﴿ويكون الدين كله لله﴾ وتضمحِلَّ الأديانُ الباطلةُ إما بإهلاك أهلِها جميعًا أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامِهم، وقرئ بتاء[1] الخطاب أي بما تعملون من الجهاد المُخرجِ لهم إلى الإسلام، وتعليقُه بانتهائهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشِرون بالمباشرة ﴿وإن تولوا﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ ناصرُكم فثِقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿نعم المولى﴾ لا يَضيعُ مَنْ تولاه ﴿ونعم النصير﴾ لا يُغلب مَنْ نصره.

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ

---

(١) قرأ بها: رويس، والحسن، ويعقوب، وسلام بن سليمان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).

كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

[من أحكام الغنائم]

﴿**واعلموا أنما غنمتم**﴾ عن الكلبي أنها نزلت ببدر وقال الواقدي: كان الخُمسُ في غزوة بني قينُقاع بعد بدر بشهر وثلاثةِ أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة، وما موصولةٌ وعائدُها محذوفٌ أي الذي أصبتموه من الكفار عُنوةً وأصلُ الغنيمة إصابةُ الغَنَم من العدو ثم اتُسع وأُطلق على كل ما أصيب منهم كائنًا ما كان، وقوله تعالى: ﴿**من شيء**﴾ بيانٌ للموصول محلُّه النصبُ على أنه حالٌ من عائد الموصول قصد به الاعتناءُ بشأن الغنيمة وألا يشِذّ عنها شيءٌ أي ما غنِمتموه كائنًا مما يقع عليه اسمُ الشيءِ حتى الخيطُ والمَخيطُ خلا أن سلَبَ[1] المقتولِ للقاتل إذا نفّله الإمامُ وأن الأسارىٰ يُخيَّر فيها الإمامُ وكذا الأراضي المغنومةُ، وقوله تعالى: ﴿**فأن لله خُمسَه**﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي فحقٌّ أو واجب أن له تعالى خُمسَه، وهذه الجملةُ خبرٌ لأنما إلخ وقرئ (بالكسر)[2] والأولى آكَدُ وأقوى في الإيجاب لِما فيه من تكرر الإسنادِ كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخُمس ولا سبيل إلى الإخلال به، وقرئ (فلله خُمُسُه)[3] وقرئ (خمْسَه)[4] بسكون الميم والجمهورُ على أن ذكرَ الله تعالى للتعظيم

---

(١) السلب: ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه، مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة، وهو بمعنى مفعول أي مسلوب.
ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.
والسلب زيادة على سهم المقاتل مما مع القتيل إذا قتله ولا يخمس، والفيء يؤخذ من غير قتال ويخمس عند بعض الفقهاء.
ينظر: لسان العرب مادة (س ل ب)، وروضة الطالبين (٦/ ٣٧٢)، وبدائع الصنائع (٧/ ١١٥).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وهارون، والجعفي، وشعبة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٦).

(٣) قرأ بها: النخعي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٦).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، وعبد الوارث.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٦).

كما في قوله تعالى: ﴿**والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضوه**﴾ [التوبة: ٦٣] وأن المرادَ قسمةُ الخُمس على المعطوفِين عليه بقوله تعالى: ﴿**وللرسول ولذي القربي واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل**﴾ وإعادةُ اللام في ذي القربى دون غيرِهم من الأصناف الثلاثة لدفع توهُّم اشتراكِهم في سهم النبي ﷺ لمزيد اتصالِهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشمٍ وبنو المطلب دون بني عبدِ شمس وبني نَوْفل لما روي عن عثمانَ وجبير بنِ مطعم رضي الله عنهما أنهما قالا لرسول الله ﷺ: هؤلاء إخوتُك بنو هاشم لا نُنكر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم أرأيتَ إخوانَنا بني المطلب أعطيتَهم وحرمتنَا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال ﷺ: «**إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشمٍ وبنو المطلب شيءٌ واحد**» وشبّك بين أصابعِه[1]. وكيفيةُ قسمتِها عندنا أنها كانت في عهد رسولِ الله ﷺ على خمسة أسهم، سهمٌ له عليه الصلاة والسلام وسهمٌ للمذكورين من ذوي قرباه، وثلاثةُ أسهم للأصناف الثلاثة الباقية وأما بعده ﷺ فسهمُه ساقطٌ وكذا سهمُ ذوي القُربى وإنما يعطَوْن لفقرهم فهم أسوةٌ لسائر الفقراء ولا يُعطى أغنياؤهم فيقسم على الأصناف الثلاثة، ويؤيده ما رُوي عن أبي بكر رضى الله عنه أنه منع بني هاشمِ الخمسَ وقال: إنما لكم أن يُعطى فقيرُكم وتُزوَّجَ أيِّمُكم ويخدَمَ من لا خادم له منكمً. ومنِ عداهم فهو بمنزلة ابنِ السبيل الغني لا يُعطىٰ من الصدقة شيئًا وعن زيد بن علي مثلُه قال: ليس لنا أن نبنيَ منه قصورا ولا نركَب منه البراذينَ وقيل: سهمُ الرسولِ ﷺ لوليّ الأمرِ بعده، وأما عند الشافعيِّ رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهمٌ لرسول الله ﷺ يُصرف إلى ما كان يصرِفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعُدّة الغُزاة من الكُراعِ والسلاح ونحوِ ذلك، وسهمٌ لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائِهم يُقسم بينهم للذكرَ مثلُ حظ الأنثيين والباقي للفِرَق الثلاث، وعند مالك رحمه الله الأمرُ فيه مفوَّضٌ إلى اجتهاد الإمامِ إن رأى قسمَه بين هؤلاءِ وإن رأى أعطاه بعضًا منهم دون بعض وإن رأى غيرَهم أولىَ وأهمَّ فغيرُهم.

وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال: يُقسم ستةَ أسهم ويُصرف سهمُ الله تعالى إلى رتاج الكعبة لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذُ منه قبضةً فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسِمُ ما بقيَ على خمسة أسهمٍ)[2] وقيل: سهمُ الله لبيت المال

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٨١): كتاب فرض الخمس، حديث (٣١٤٠)، وطرفاه في (٣٥٠٢، ٤٢٢٩)، وأبو داود (٣/ ١٤٥): كتاب الخراج والإمارة والفيء باب في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى، حديث (٢٩٧٨، ٢٩٧٩، ٢٩٨٠)، والنسائي (٧/ ١٣٠): كتاب قسم الفيء، وابن ماجه (٢/ ٩٦١): كتاب الجهاد: باب قسمة الخمس، حديث (٢٨٨١) وأحمد (٤/ ٨١-٨٣).

(٢) أخرجه أبو عبيد القاسم في الأموال ص (٢١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٠٠) برقم (٣٣٢٩٨)، من حديث أبي العالية رضي الله عنه مرسلًا.

وقيل: هو مضمومٌ إلى سهم الرسولِ عليه الصلاة والسلام هذا شأنُ الخمسِ وأما الأخماسُ الأربعةُ فتقسم بين الغانمين للراجل سهمٌ وللفارس سهمان عند أبي حنيفة رضي الله عنه وثلاثةُ أسهم عندهما رحمهما الله. قال القرطبيُّ: لما بين الله تعالى حكمَ الخمسِ وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه المذكورُ أي إن كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمسَ من الغنيمة يجب التقربُ به إلى الله فاقطعوا أطماعَكم منه واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المرادُ به مجردَ العلم بذلك بل العلمَ المشفوعَ بالعمل والطاعةِ لأمره تعالى.

﴿وما أنزلنا﴾ عطف على الاسم الجليل أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿على عبدنا﴾ وقرئ (عُبُدِنا)[1] وهو اسمُ جمع أريد به الرسولُ عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فإن بعضَ ما نزل نازلٌ عليهم بالذات كما ستعرفه ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدرٍ سمي به لفَرْقه بين الحقِّ والباطل، وهو منصوبٌ بأنزلنا أو بآمنتم ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي الفريقان من المؤمنين والكافرين وهو بدلٌ من (يومَ الفرقان) أو منصوبٌ بالفرُقان، والمرادُ ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذٍ من الوحي والملائكةِ والفتحِ، على أن المرادَ بالإنزال مجردُ الإيصالِ والتيسير فينتظم الكلَّ انتظامًا حقيقيًا، وجعلُ الإيمانِ بإنزال هذه الأشياءِ من موجبات العلم بكون الخُمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث أن الوحيَ ناطقٌ بذلك وأن الملائكةَ والفتحَ لمّا كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفةً إلى الجهات التي عينها الله تعالى ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يقدِر على نصر القليلِ على الكثير والذليلِ على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم.

[فضل الله على المؤمنين]

﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ بدلٌ ثانٍ من (يومَ الفرقان) والعُدوةُ بالضم شطُّ الوادي وكذا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما[2] أيضًا.

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٩).

(٢) قرأ بالفتح: قتادة، وعمرو بن عبيد، والحسن، وزيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٧).
وبالكسر: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، والحسن، واليزيدي، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٧)، والبحر المحيط (٤/ ٤٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٧).

﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أي البُعدى من المدينة وهي تأنيثُ الأقصى وكان القياسُ قلبَ الواوِ ياءً كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو، لكنها جاءت على الأصل كالقود واستُصوب وهو أكثرُ استعمالًا من القُصيا ﴿والركب﴾ أي العِيرُ أو قُوّادُها ﴿أسفل منكم﴾ أي في مكانٍ أسفلَ من مكانكم يعني الساحلَ وهو نصبٌ على الظرفية واقعٌ موقعَ الخبر والجملةُ حالٌ من الظرف قبله وفائدتُها للدلالة على قوة العدو واستظهارِهم بالركب وحِرصِهم على المقاتلة عنها وتوطينِ نفوسِهم على ألا يُخْلوا مراكزَهم ويبذُلوا منتهى جهدِهم وضعفِ شأن المسلمين والتياثِ أمرِهم واستبعادِ غَلَبتِهم عادةً وكذا ذكرُ مراكزِ الفريقين، فإن العُدوةَ الدنيا كانت رِخوةً تسوخُ فيها الأرجلُ ولا يُمشىٰ فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماءٌ بخلاف العُدوة القصوى وكذا قوله تعالى: ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتالَ ثم علمتم حالَكم وحالَهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هَيْبةً منهم ويأسًا من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صُنعًا من الله عز وجل خارقًا للعادات فيزدادوا إيمانًا وشكرًا وتطمئن نفوسُهم بفرض الخُمس ﴿ولكن﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿ليقضي الله أَمرًا كان مفعولًا﴾ حقيقًا بأن يُفعلَ مِن نصْرِ أوليائِه وقهرِ أعدائِه، أو مقدرًا في الأزل وقوله تعالى: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيَّ عن بينة﴾ بدلٌ منه أو متعلقٌ بمفعولًا أي ليموتَ من يموتُ عن بينة عاينها ويعيشَ من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكونَ له حجةٌ ومعذرةٌ فإن وقعةَ بدرٍ من الآيات الواضحة أو ليصدُرَ كفرُ من كفر وإيمانُ من آمن عن وضوح بينةٍ على استعارة الهلاك والحياةِ للكفر والإيمان[١]، والمرادُ بمن هلك ومن حييَّ المشارفُ للهلاكِ والحياة أو مَنْ حالُه في علم الله تعالى الهلاكُ والحياة، وقرئ (ليهلَك)[٢] بالفتح و(حيِيَ)[٣] بفك الإدغام حملًا على المستقبل ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ أي بكفر من كفر وعقابِه وإيمانِ

---

(١) وذلك على نهج الاستعارة التبعية التصريحية على حد قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾.
ينظر: مواهب الفتاح (٤/ ٧٦، ٧٧)، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤)، والبحر المحيط (٤/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها: عاصم، والأعمش، وعصمة، وأبو بكر.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٢٨).

(٣) قرأ بها: نافع، وعاصم، وقنبل، وابن شنبوذ، وأبو بكر، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، وشبل، والبزي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٧)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٧٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٤)، والبحر المحيط (٤/ ٥٠١)، والتيسير للداني ص (١١٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٤).

من آمن وثوابه، ولعل الجمعَ بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلًا﴾ منصوبٌ بـ (اذكُرْ) أو بدلٌ آخرُ من (يومَ الفرقان) أو متعلقٌ بعليم أي يعلم المصالحَ إذ يقلّلهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبِرَ به أصحابَكم[١] فيكونَ تثبيتًا لهم وتشجيعًا على عدوهم ﴿ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم﴾ أي لجبُنتم وهِبتم الإقدام ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي أمر القتال وتفرقتْ آراؤُكم في الثبات والقرار ﴿ولكن الله سلَّم﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازعِ ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجُبن والصبر والجزَعِ ولذلك دبّر ما دبر ﴿وإذ يريكموهم إذِ التقيتم في أعينكم قليلًا﴾ منصوبٌ بمضمر خوطِب به الكلُّ بطريق التلوينِ والتعميم معطوفٌ على المضمر السابقِ، والضميرانِ مفعولا يُري وقليلًا حالٌ من الثاني وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين فقال: أراهم مائة تثبيتًا لهم وتصديقًا لرؤيا الرسولِ ﷺ[٢] ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ حتى قال أبو جهل: إنما أصحابُ محمد أكلةُ جَزور. قللهم في أعينهم قبل التحام القتالِ ليجترئوا عليهم ولا يستعدّوا لهم ثم كثّرهم حتى رأوْهم مثليهم لِتُفاجِئَهم الكثرةُ فيُبهَتوا ويهابوا، وهذه من عظائم آياتِ تلك الوقعةِ فإن البصرَ قد يرى الكثيرَ قليلًا والقليلَ كثيرًا لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الوجهِ ولا إلى هذا الحد وإنما ذلك بصد الله تعالى الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ مع التساوي في الشرائط ﴿ليقضي الله أمرًا كان مفعولا﴾ كُرر لاختلافِ الفعل المعلَّلِ به أو لأن المرادَ بالأمر، ثَمةَ، الالتقاءُ على الوجه المذكور وهاهنا إعزازُ الإسلام وأهلِه وإذلالُ الكفر وحِزبه ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ كلُّها يصرِفها كيفما يريد لا رادَّ لأمره ولا مُعقّبَ لحُكمه وهو الحكيم المجيد.

[من قوانين الحرب]

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ صُدِّر الخطابُ بحرفي النداء والتنبيه إظهارًا لكمال الاعتناءِ بمضمون ما بعده ﴿إذا لقيتم فئة﴾ أي حاربتم جماعةً من الكفرة وإنما لم يوصَفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يحارِبون إلا الكفَرة، واللقاءُ مما غلبَ في القتال

---

(١) في خ: أصحابك.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٢٥٩) رقم (١٦١٧١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٣٤٢)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٣١-٣٢) إلى إسحاق بن راهويه في مسنده، وإلى ابن مردويه في تفسيره.

﴿**فاثبتوا**﴾ أي للقائهم في مواطن الحربِ ﴿**واذكروا الله كثيرًا**﴾ أي في تضاعيف القتالِ مستمدّين منه مستعينين به مستظهِرين بذكره مترقّبين لنصره ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ أي تفوزون بمرامكم وتظفَرون بمُرادكم من النُّصرة والمَثوبةِ، وفيه تنبيهٌ على أن العبدَ ينبغي ألا يشغَلَه شيءٌ عن ذكر الله تعالى وأن يلتجِيءَ إليه عند الشدائد ويُقبلَ إليه بكليته فارغَ البال واثقًا بأن لطفَه لا ينفكّ عنه في حال من الأحوال ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ في كل ما تأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أُمروا به هاهنا اندراجًا أوليًا ﴿**ولا تنازعوا**﴾ باختلاف الآراءِ كما فعلتم ببدر أو أُحُد ﴿**فتفشلوا**﴾ جوابٌ للنهي وقيل: عطفٌ عليه ﴿**وتذهبَ ريحكم**﴾ بالنصب عطفٌ على جواب النهي وقرئ بالجزم على تقدير عطفِ (فتفشلوا) على النهي أي تذهبَ دولتُكم وشَوْكتُكم فإنها مستعارةٌ للدولة[1] من حيث إنها في تمشّي أمرِها ونفاذِه مشبهةٌ بها في هُبوبها وجَرَيانها. وقيل: المرادُ بها الحقيقةُ فإن النصرةَ لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفي الحديث (**نُصِرتُ بالصَّبا وأُهكلتْ عادٌ بالدَّبور**) ﴿**واصبروا**﴾ على شدائد الحرب ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ بالنصرة والكَلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم إنما هي من حيث إنهم المباشرون للصبر فهم متّبعون من تلك الحيثية، ومعيَّتُه تعالى إنما هي من حيث الإمدادُ والإعانة.

﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم**﴾ بعد ما أُمروا بما أُمروا به من أحاسن الأعمالِ ونُهوا عما يقابلها من قبائحها، والمرادُ بهم أهلُ مكةَ حين خرجوا لحماية العِير ﴿**بطرًا**﴾ أي فخرًا وأشَرًا ﴿**ورئاءَ الناس**﴾ ليُثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا جَحفةَ أتاهم رسولُ أبي سفيان وقال: ارجِعوا فقد سلِمت عِيرُكم فأبَوا إلا إظهارَ آثارِ الجلادة فلقُوا ما لقوا حسبما ذُكر في أوائل السورةِ الكريمة فنُهي المؤمنون أن يكونوا أمثالَهم مرائين بطِرين وأُمروا بالتقوى والإخلاص من حيث إن النهيَ عن الشيء مستلِزمٌ للأمر بضده ﴿**ويصدون عن سبيل الله**﴾ عطفٌ على بطَر إن جُعل مصدرًا في موضع الحال وكذا إن جُعل مفعولًا له لكن على تأويل المصدر ﴿**والله بما يعملون محيط**﴾ فيجازيهم عليه.

﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ منصوبٌ بمضمر خوطب به النبيُّ ﷺ بطريق التلوينِ، أي واذكُر وقتَ تزيينِ الشيطانِ أعمالَهم في معاداة المؤمنين وغيرِها بأن

---

(١) والريح حقيقتها تحرك الهواء وتموجه، واستعيرت هنا للغلبة، وأحسب أن وجه الشبه في هذه الاستعارة هو أن الريح لا يمانع جريها ولا عملها شيء فشبه بها الغلب والحكم.
ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ١٣)، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

وسوس إليهم ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ أي ألقَى في رُوعِهم وخيّل إليهم أنهم لا يُغلبون ولا يطاقون لكثرة عددِهم وعُددهم، وأوهمهم أن اتّباعَهم إياه فيما يظنون أنها قُربات مجيرٌ لهم حتى قالوا: اللهمَّ انصُرْ إحدى الفئتين وأفضلَ الدينَين، ولكم خبرُ (لا غالب) أو صفتُه وليس صلتَه، وإلا لانتصب كقولك: لا ضاربًا زيدًا عندنا.

﴿فلما تراءت الفئتان﴾ أي تلاقى الفريقان ﴿نكص على عقبيه﴾ رجَع القهقرىٰ أي بطل كيدُه وعاد ما خيَّل إليهم أنه مجيرُهم سببًا لهلاكهم ﴿وقال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم ويئِس من حالهم لما رأى إمدادَ اللهِ تعالى للمسلمين بالملائكة، وقيل: لما اجتمعت قريشٌ على المسير ذَكَرت ما بينهم وبين كِنانةَ من الإحنةِ فكاد ذلك يَثْنيهم فتمثل لهم إبليسُ في صورة سُراقةَ بنِ مالك الكِناني وقال: لا غالبَ لكم اليوم من الناس وإني مجيرُكم من كِنانةَ فلما رأى الملائكةَ تنزِل نكَص وكان يدُه في يد الحارث بن هشام فقال له: إلى أين؟ أتخذُلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون ودفع في صدر الحارثِ وانطلق فانهزموا، فلما بلغوا مكةَ قالوا: هزَم الناسَ سراقةُ، فبلغه ذلك فقال: والله ما شعَرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتُكم، فلما أسلموا علِموا أنه الشيطانُ؛ وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قولهِ: إني أخاف الله أخافه أن يُصيبَني بمكروه من الملائكة أو يُهلكَني، ويكونُ الوقتُ هو الوقتُ الموعود إذ رأى فيه ما لم يرَه قبله، والأول ما قاله الحسنُ واختاره ابن بحر ﴿والله شديد العقاب﴾ يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفًا من جهة الله عز وجل.

[أحوال المنافقين]

﴿إذ يقول المنافقون﴾ منصوبٌ بـ (زيّن) أو بـ (نكَص) أو بـ (شديد العقاب) ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي الذين لم تطمئن قلوبُهم بالإيمان بعد وبقيَ فيها نوعُ شُبهةٍ وقيل: هم المشركون وقيل: هم المنافقون في المدينة، والعطفُ لتغايُر الوصفين كما في قوله: [السريع]

يا لهفَ زيابةَ للحارث الصابحِ فالغانم فالآيبِ[1]

(١) البيت لابن زيَّابة (عمرو بن لأي) في خزانة الأدب (٥/ ١٠٧)، والدرر (٦/ ١٦)، وسمط اللآلي، ص (٥٠٤)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص (١٤٧)، وشرح شواهد المغني ص (٤٦٥)، ومعجم الشعراء، ص (٢٠٨)، وبلا نسبة في الجنى الداني، ص (٦٥)، ومغني اللبيب، ص (١٦٣)، وخزانة الأدب (١١/ ٥)، وهمع الهوامع (٢/ ١١٩).

﴿غرَّ هؤلاء﴾ يعنون المؤمنين ﴿دينهم﴾ حتى تعرّضوا لما لا طاقةَ لهم به فخرجوا وهم ثلثُمائةٍ وبضعةَ عشرَ إلى زُهاء ألف ﴿ومن يتوكل على الله﴾ جوابٌ لهم من جهته تعالى وردٌّ لمقالتهم ﴿فإن الله عزيز﴾ غالبٌ لا يذِلُّ من توكل عليه واستجار به وإن قلَّ ﴿حكيم﴾ يفعل بحكمته البالغةِ ما تستبعده العقولُ وتحار في فهمه ألبابُ الفحول، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدِلالة المذكور عليه ﴿ولو ترى﴾ أي ولو رأيتَ، فإن لو الامتناعيةَ تردّ المضارعَ ماضيًا كما أن إنْ تردّ الماضيَ مضارعًا، والخطابُ إما لرسول الله ﷺ أو لكل أحدٍ ممن له حظٌّ من الخطاب وقد مر تحقيقُه في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقِفوا على النار﴾ [الأنعام، الآية ٢٧] وكلمةُ إذ في قوله تعالى: ﴿إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكة﴾ ظرفٌ لترى والمفعولُ محذوفٌ أي ولو ترى الكفرةَ، أو حالَ الكفرةِ حين يتوفاهم الملائكةُ ببدر، وتقديمُ المفعولِ للاهتمام به، وقيل: الفاعلُ ضميرٌ عائدٌ إلى الله عز وجل، والملائكةُ مبتدأٌ وقوله تعالى: ﴿يضربون وجوههم﴾ خبرُه، والجملةُ حالٌ من الموصول قد استُغني فيها بالضمير عن الواو، وهو على الأول حالٌ منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما ﴿وأدبارهم﴾ أي واستاهَهم أو ما أَقبل منهم وما أدبر من الأعضاء ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ على إرادة القولِ معطوفًا على يضربون أو حالًا من فاعله أي ويقولون أو قائلين: ذوقوا بشارةً لهم بعذاب الآخرة وقيل: كانت معهم مقامِعُ من حديد كلما ضَربوا التهبت النارُ منها، وجوابُ لو محذوفٌ للإيذان بخروجه عن حدود البيانِ أي لرأيتَ أمرًا فظيعًا لا يكاد يوصف.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من الضرب والعذابِ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بكونهما في الغاية القاصيةِ من الهول والفظاعةِ، وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك الضربُ والعذاب واقعٌ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي، ومحلُّ أن في قوله: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي والأمُر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنبٍ من قِبَلهم والتعبيرُ عن ذلك بنفي الظلمِ مع أن تعذيبَهم بغير ذنب ليس بظلم قطعًا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا قد مر تحقيقُه في سورة آل عمران، والجملُة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها، وأما ما قيل من أنها معطوفة على ما للدِلالة على أن سببيته مقيدةٌ بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبَهم بغير ذنوبِهم فليس [ذلك][1] بسديد لما أن إمكانَ

(١) سقط في خ.

تعذيبِه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعَه لا ينافي كونَ تعذيبِ هؤلاء الكفرةِ المعينة بسبب ذنوبِهم حتى يُحتاجَ إلى اعتبار عدمِه معه، نعم لو كان المدَّعىٰ كونَ جميعِ تعذيباتِه تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج إلى ذلك.

﴿**كدأب آل فرعون**﴾ في محل الرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرِهم لا بشيء آخرَ من جهة غيرِهم بتشبيه حالِهم بحال[1] المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمِهم لزيادة تقبيحِ حالِهم وللتنبيه على أن ذلك سنةٌ مطردةٌ فيما بين الأمم المهلَكةِ أي شأنُهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفُعل بهم من الأخذ كدأب آل فرعونَ المشهورين بقباحة الأعمالِ وفظاعةِ العذابِ والنكال ﴿**والذين من قبلهم**﴾ أي من قبل آلِ فرعونَ من الأمم التي فعلوا من المعاصي ما فعلوا ولقُوا من العقاب ما لقُوا كقوم نوحٍ وعادٍ وأضرابِهم من أهل الكفر والعناد.

وقوله تعالى: ﴿**كفروا بآيات الله**﴾ تفسيرٌ لدأبهم الذي فعلوه لا لدأب آلِ فرعونَ ونحوِهم كما قيل، فإن ذلك معلومٌ منه بقضية التشبيهِ.

وقوله تعالى: ﴿**فأخذهم الله**﴾ تفسيرٌ لدأبهم الذي فُعل بهم، وإلقاءٌ لبيان كونِه من لوازم جناياتِهم وتبعاتِها المتفرِّعةِ عليها، وقوله تعالى: ﴿**بذنوبهم**﴾ لتأكيد ما أفاده الفاءُ من السببية مع الإشارةِ إلى أن لهم مع كفرهم ذنوبًا أُخَرَ لها دخلٌ في استتباع العقابِ، ويجوز أن يكون المرادُ بذنوبهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرهم فتكونُ الباءُ للملابسة أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غيرَ تائبين عنها فدأبُهم مجموعُ ما فعلوا وفُعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن آلَ فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبيُّ الله فكذّبوه، كذلك هؤلاء جاء محمدٌ ﷺ بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبتَه

---

(١) وقد ذكر العلماء أن هذه الآية ليست تكرارًا؛ لأن معنى الأول: حال هؤلاء كحال آل فرعون في الكفر، فأخذهم وأتاهم العذاب، ومعنى الثاني: حال هؤلاء كحال آل فرعون في تغييرهم النعم، وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التغيير، هو أنه أغرقهم بدليل ما قبله، وقيل: الأول لتشبيه الكفر والأخذ به، والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم.
ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء الكرماني (٩٤، ٩٥)، وبصائر ذوي التمييز (١/ ٢٢٥)، والشهاب على البيضاوي (٤/ ٢٨٤)، ودرة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإمامي (٥٩ - ٦٤)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٤٦)، وأنوار التنزيل (١/ ٣٩٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٦٤)، والجمان في تشبيهات القرآن (٧٥).

كما أنزل بآل فرعونَ.

وجعلُ العذابِ من جملة دأبِهم، مع أنه ليس مما يُتصوَّر مداومتُهم عليه واعتيادُهم إياه كما هو المعتبرُ في مدلول الدأبِ، إما لتغليب ما فعلوه على ما فُعل بهم أو لتنزيل مداومتِهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصي منزلةَ مداومتِهم عليه لما بينهما من الملابسة التامةِ.

وقوله تعالى: ﴿**إن الله قوي شديد العقاب**﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من الأخذ.

وقوله تعالى: ﴿**ذلك**﴾ إلخ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل ما يفيده النظمُ الكريمُ من كون ما حل بهم من العذاب منوطًا بأعمالهم السيئةِ غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ ما يقتضيه وهو المشارُ إليه لا نفسُ ما حل بهم من العذاب والانتقام كما قيل، فإنه مع كونه معللًا بما ذُكر من كفرهم وذنوبِهم لا يتصور تعليلُه بجريان عادتِه تعالى على عدم تغييرِ نعمتِه على قوم قبل تغييرِهم لحالهم وتوهُّمِ أن السببَ ليس ما ذكر كما هو منطوقُ النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم الغايةِ من جريان عادتِه تعالى على تغيير نعمتِهم عند تغييرِ حالِهم بناءً على تخيل أن المعللَ ترتبَ عقابِهم على كفرهم من غير تخلُّف عنه ركوبُ شططٍ هائل وإبعادٌ عن الحق بمراحلَ، وتهوينٌ لأمر الكفر بآيات الله وإسقاطٌ له عن رتبة إيجابِ العقاب في مقام تهويله والتحذيرِ منه.

فالمعنى ذلك أي ترتبُ العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداءً مع قدرته تعالى على ذلك ﴿**بأن الله**﴾ أي بسبب أنه تعالى ﴿**لم يك**﴾ في حد ذاتِه ﴿**مغيرًا نعمة أنعمها**﴾ أي لم ينْبغِ له سبحانه ولم يصِحَّ في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمةً أنعم بها ﴿**على قوم**﴾ من الأقوام أيَّ نعمةٍ كانت جلّت أو هانت ﴿**حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملابستِهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواءٌ كانت أحوالُهم السابقةُ مرضيةً صالحة أو قريبةً من الصلاحِ بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاءِ الكفرةِ حيث كانوا قبل البعثةِ كفَرةً عبدةَ أصنام مستمرِّين على حالة مصحِّحة لإفاضة نعمةِ الإمهال وسائر النعمِ الدنيوية عليهم فلمّا بُعث إليهم النبيُّ ﷺ بالبينات غيّروها إلى أسوأَ منها وأسخطَ حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبِعه من المؤمنين وتحزّبوا عليهم يبغونهم الغوائلَ فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهالِ وعاجلَهم بالعذاب والنَّكال.

وأصلُ يكُ يكن فحذُفت النونُ تخفيفًا لشبهها بالحروف اللينة ﴿**وأن الله سميع عليم**﴾ عطفٌ على أن الله إلخ داخلٌ معه في حيز التعليل أي وبسبب أنه تعالى سميع

عليم يسمع ويعلم جميعَ ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعالِ السابقةِ واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمةِ وتغييرِها.

وقرئ (وإن الله)[١] بكسر الهمزةِ فالجملةُ حينئذٍ استئنافٌ مقرر لمضمون ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ في محل النصبِ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرًا كائنًا كدأبِ آلِ فرعونَ أي كتغييرهم على أن دأبهَم عبارةٌ عما فعلوه فقط كما هو الأنسبُ بمفهوم الدأبِ وقوله تعالى: ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ تفسيرٌ بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿فأهلكناهم﴾ إخبارٌ بترتب العقوبةِ عليه لا أنه من تمام تفسيرِه، ولا ضيرَ في توسط قوله تعالى: ﴿وأن الله سميع عليم﴾ بينهما كما مر نظيرُه في سورة آل عمرانَ حيث جوّزوا انتصابَ محلِّ الكافِ بلن تغنيَ مع ما بينهما من قوله تعالى: ﴿وأولئك هم وَقود النارِ﴾ [آل عمران، الآية ١٠] وهذا على تقدير عطفِ الجملةِ على ما قبلها، وأما على تقدير كونِها اعتراضًا فلا غبارَ في توسطها قطعًا، وقيل: في محل الرفعِ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ كما قبله فالجملة حينئذٍ استئنافٌ آخَرُ مَسوقٌ لتقرير ما سبق له الاستئنافُ الأول بتشبيه دأبِهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحضِ بل بتغيير العُنوانِ، وجعل الدأبِ في الجانبين عبارةً عما يلازم معناه الأول من تغيير الحالِ وتغييرِ النعمة أخذًا مما نطق به قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة﴾ [الأنفال، الآية ٥٣] الآية، أي دأبُ هؤلاء وشأنُهم الذي هو عبارةٌ عن التغييرَيْن المذكورين كدأب أولئك حيث غيّروا حالهم فغير الله تعالى نعمتَه عليهم فقوله تعالى: ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغيير لحالهم، وقوله تعالى ﴿فأهلكناهم﴾ تفسيرٌ لدأبهم الذي فُعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته، وأما دأبُ قريشٍ فمستفادٌ منه بحكم التشبيهِ فللّه درُّ شأنِ التنزيل حيث اكتفى في كل من التشبيهين بتفسير أحدِ الطرفين.

وإضافة الآياتِ إلى الرب المضافِ إلى ضميرهم لزيادة تقبيحِ ما فعلوا بها من التكذيب، والالتفاتُ إلى نون العظمةِ في أهلكنا جريًا على سَنَنِ الكِبرياء لتهويل الخطبِ، والكلامُ في الفاء وفي قوله تعالى: ﴿بذنوبهم﴾ كالذي مر، وعطفُ قوله تعالى: ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ على أهلكنا مع اندراجه تحته للإيذان بكمال هولِ الإغراقِ وفظاعتِه كعطف جبريلَ عليه السلام على الملائكة ﴿وكل﴾ أي وكلٌّ من

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٥).

الفِرَق المذكورين أو كلٌّ من هؤلاء وأولئك أو كلٌّ من غرقى القِبط وقتلى قريشٍ ﴿كانوا ظالمين﴾ أي أنفسَهم بالكفر والمعاصي حيث عرَّضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكانَ الإيمانِ والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

﴿**إن شر الدواب**﴾ بعد ما شرَح أحوال المهلَكين من شرار الكَفَرة شرَع في بيان أحوالِ الباقين منهم وتفصيلِ أحكامِهم.

وقوله تعالى: ﴿**عند الله**﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿**الذين كفروا**﴾ أي أصروا على الكفر ولجّوا فيه، جُعلوا شرَّ الدوابِّ لا شرَّ الناسِ إيماءً إلى أنهم بمعزل من مجانستهم وإنما هم من جنس الدوابِّ ومع ذلك شرٌّ من جميع أفرادِها حسبما نطقَ به قوله تعالى: ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ**﴾ [سورة الفرقان، الآية ٤٤] وقوله تعالى: ﴿**فهم لا يؤمنون**﴾ حكمٌ مترتبٌ على تماديهم في الكفر ورسوخِهم فيه وتسجيلٌ عليهم بكونهم من أصل الطبع لا يَلْويهم صارفٌ ولا يثنيهم عاطفٌ أصلًا جيء به على وجه الاعتراضِ لا أنه عطفٌ على كفروا داخلٌ معه في حيز الصلةِ التي لا حكمَ فيها بالفعل، وقوله تعالى: ﴿**الذين عاهدتَ منهم**﴾ بدلٌ من الموصول الأولِ أو عطفُ بيانٍ له أو نصبٌ على الذم أي عاهدتَهم، ومِنْ للإيذان بأن المعاهدَة التي هي عبارةٌ عن إعطاء العهدِ وأخذه من الجانبين معتبرةٌ هاهنا من حيث أخذُه عليه الصلاة والسلام عهدَهم إذ هو المناطُ لقباحة ما نُعيَ عليهم من النقض لا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهدَه كأنه قيل: الذين أخذت منهم عهدَهم.

وقيل: هي للتبعيض لأن المباشِرَ بالذات للعهد بعضُهم لا كلُّهم ﴿**ثم ينقضون عهدهم**﴾ عطفٌ على عاهدتَ داخلٌ معه في حكم الصلةِ، وصيغة الاستقبالِ للدِلالة على تجدّد النقضِ وتعدُّدِه وكونِهم على نيته في كل حالٍ، أي ينقضون عهدَهم الذي أخذتَه منهم ﴿**في كل مرة**﴾ أي من مرات المعاهدةِ إذ هي التي يُتوقعُ فيها عدمُ النقضِ ويُستقبح وجودُه لا من مرات المحاربة كما قيل إذ لا يتوقع فيها عدمُ النقضِ بل لا يُتصور أصلًا حتى يُستقبَح فيها وجودُه لكونها مَظِنةً لعدمه، فلا فائدةَ في تقييد النقضِ بالوقوع في كل مرةٍ من مراتها بل لا صِحةَ له قطعًا لأن النقضَ لا يتحقق إلا في المرة الواردةِ على المعاهدة لا في المرات الواقعةِ بعدها بلا معاهدة، ولئن سلم أن المرادَ هي المراتُ الواقعةُ إثرَ المعاهدةِ يبقى النقضُ الواقعُ بلا محاربةٍ كبيع السلاحِ ونحوه خارجًا من البيان، ولئن عُدّ ذلك من المحاربة فلا محيصَ من لزوم خلوّ الكلام عن الفائدة بالمرة لأن المحاربةَ بهذا المعنى عينُ النقضِ فيؤولُ الأمرُ إلى أن يقال: ينقضون عهدَهم في كل مرةٍ من مرات النقض، وحملُ المحاربةِ على محاربة غيرهِم ليكونَ المعنى ينقضون عهدَهم في كل مرة من مرات محاربة الأعداءِ مع كونه في غاية البُعد والركاكة يستلزِمُ خروجَ بدئِهم بالنقض من البيان ﴿**وهم لا يتقون**﴾ حالٌ من

فاعل (ينقضون) أي يستمرون على النقض، والحالُ أنهم لا يتقون سُبَّةَ[١] الغدرِ ولا يبالون بما فيه من العار والنار.

وقوله تعالى: ﴿فإما تثقفنهم﴾ شروعٌ في بيان أحكامِهم بعد تفصيلِ أحوالِهم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي فإذا كان حالُهم كما ذكر فإمّا تصادِفَنَّهم وتظفَرَنَّ بهم ﴿في الحرب﴾ أي في تضاعيفها ﴿فشرد بهم﴾ أي ففرِّقْ عن مناصبتك تفريقًا عنيفًا موجبًا للاضطرار والاضطراب ونكِّلْ عنها بأن تفعل بهم من النِكاية والتعذيبِ ما يوجب أن تُنكِّل ﴿مَنْ خلفهم﴾ أي مَنْ وراءَهم من الكفرة، وفيه إيماءٌ إلى أنهم بصدد الحرب قريبٌ من هؤلاء، وقرئ (شرِّذْ)[٢] بالذال المعجمةِ، ولعله مقلوبُ شذِّر بمعنى فرق، وقرئ (مِنْ خلفِهم)[٣] أي افعلِ التشريدَ من ورائهم، والمعنى واحدٌ لأن إيقاعَ التشريد في الوراء لا يتحقّقُ إلا بتشريد مَنْ وراءَهم ﴿لعلهم يذكرون﴾ يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضِين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ بيانٌ لأحكام المشرِفين إلى نقض العهدِ إثرَ بيانِ أحكامِ الناقضين له بالفعل، والخوفُ مستعارٌ للعلم أي وإما تعلَمنَّ من قوم من المعاهِدين نقضَ عهدٍ فيما سيأتي بما لاح لك منهم من دلائلِ الغدرِ ومخايلِ الشر ﴿فانبِذ إليهم﴾ أي فاطرَح إليهم عهدَهم ﴿على سواء﴾ على طريق مستوٍ قَصْدٍ بأن تُظهر لهم النقضَ وتُخبِرَهم إخبارًا مكشوفًا بأنك قد قطعتَ ما بينك وبينهم من الوصلة ولا تناجِزْهم الحربَ وهم على توهم بقاءِ العهدِ كيلا يكونَ من قِبَلك[٤] شائبةُ خيانةٍ أصلًا فالجارُّ متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من النابذ أي فانبِذْ إليهم ثابتًا على سواءٍ.

وقيل: على استواءٍ في العلم بنقض العهدِ بحيث يستوي فيه أقصاهم وأدناهم، أو تستوي فيه أنت وهم، فهو على الأول حالٌ من المنبوذ إليهم وعلى الثاني من الجانبين ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ تعليلٌ للأمر بالنبذ إما باعتبار استلزامِه للنهي عن المناجزة التي هي خيانةٌ فيكونُ تحذيرًا لرسول الله ﷺ منها وإما باعتبار استتباعِه

---

(١) في خ: سُنَّة.

(٢) قرأ بها: المطوعي، وابن مسعود، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥)، والبحر المحيط (٤/ ٥٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٠)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٧٦).

(٣) قرأ بها: أبو حيوة، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٧٦).

(٤) في خ: جانبك.

للقتال بالآخرة فيكونُ حثًا له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولًا وعلى قتالهم ثانيًا، كأنه قيل: وإما تعلَمنَّ من قوم خيانةً فانبذْ إليهم ثم قاتِلْهم إن الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت [من][1] حالهم.

﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ أي أنفسَهم فحُذف للتكرار وقوله تعالى ﴿سبقوا﴾ أي فاتوا وأفلتوا، من أن يُظفَرَ بهم مفعولٌ ثانٍ لـ (يحسبن)، والمرادُ إقناطُهم من الخلاص وقطعُ أطماعِهم الفارغةِ من الانتفاع بالنبذ والاقتصارِ على دفع هذا التوهمِ مع أن مقاومةَ المؤمنين بل الغلبةَ عليهم أيضًا مما تتعلق به أمانيهم الباطلةُ للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله وهمُهم وحُسبانُهم وإنما الذي يمكن أن يدورَ في خلدهم حسبانُ المناصِ فقط، وقيل: الفعلُ مسندٌ إلى أحد أو إلى مَنْ خلفهم والمفعولُ الأولُ الموصولُ المتناولُ لهم أيضًا وقيل: هو الفاعلُ وأنْ محذوفةٌ مِنْ سبقوا، وهي مع ما في حيزها سادةٌ مسدَّ المفعولين، والتقديرُ: ولا يحسبن الذين كفروا أنْ سبقوا، ويعضُده قراءة من قرأ (أنهم سبقوا)[2] ونظيرُه في الحذف قوله تعالى: **﴿ومن آياته يُريكم البرقَ خوفًا﴾** [الروم، الآية ٢٤] وقولُه تعالى: **﴿أفغير الله تأمرونيِّ أعبدُ﴾** [الروم، الآية ٦٤] قاله الزجاج وقرئ بالتاء[3] على خطاب رسولِ الله ﷺ وهي قراءة واضحة وقرئ (ولا تحسبن الذين) بكسر[4] الباء وبفتحها[5] على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي لا يفوتون ولا يجدون طالبَهم عاجزًا عن إدراكهم، تعليلٌ للنهي على طريقة الاستئنافِ، وقرئ بفتح الهمزة[6] على حذف لام

---

(١) سقط في خ.
(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٧٧).
(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بن أبي النجود، والكسائي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والإعراب للنحاس ص (٦٨٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٥)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٠)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٧١)، والتيسير للداني ص (١١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٧).
(٤) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢).
(٥) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٨٣)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢).
(٦) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٨٣)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٠)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٧١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٢).

التعليلِ، وقيل: الفعلُ واقعٌ عليه و(لا) زائدةٌ، و(سبَقوا) حالٌ بمعنى سابقين أي مفُلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يُحذر من عاقبة النبذِ لِما أنه إيقاظٌ للعدو وتمكينٌ لهم من الهرب والخلاصِ من أيدي المؤمنين وفيه نفيٌ لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كما أشير إليه، وقيل: نزلت فيمن أفلت من فَلِّ المشركين وقرئ (لا يعجزونِ)[1] بكسر النون و(لا يعجزونِّ)[2] بالتشديد.

[الاستعداد للحرب]

﴿وأعدوا لهم﴾ توجيهُ الخطاب إلى كافة المؤمنين لما أن المأمورَ به [من][3] وظائف الكلِّ كما أن توجيهَه فيما سبق وما لحِق إلى رسول الله ﷺ لكون ما في حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام، أي أعِدّوا لقتال الذين نُبذ إليهم العهدُ وهيِّئوا لحِرابهم أو لقتال الكفار على الإطلاق وهو الأنسبُ بسياق النظمِ الكريم ﴿ما استطعتم من قوة﴾ من كل ما يُتقوَّى به في الحرب كائنًا ما كان.

وعن عقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه: سمعتُه عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «**ألا إن القوةَ الرميُ**» قالها ثلاثًا[4]. ولعل تخصيصَه عليه الصلاة والسلام إياه بالذكر

---

(١) قرأ بها: ابن محيصن، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والإعراب للنحاس(١/ ٦٨٤)، والبحر المحيط (٤/ ٥١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٥١١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢).

(٣) سقط في خ.

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٢) كتاب الإمارة: باب فضل الرمي والحث عليه حديث (١٦٧/ ١٩١٧)، وأبو داود (٢/ ١٧) كتاب الجهاد: باب في الرمي حديث (٢٥١٤) وابن ماجه (٢/ ٩٤٠) كتاب الجهاد: «باب الرمي في سبيل الله» حديث (٢٨١٣)، وأحمد (٤/ ١٥٧)، وأبو يعلى (٣/ ٢٨٣) رقم (١٧٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٤٤) رقم (٤٢٩٩)؛ كلهم من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي علي ثمامة بن شفي عن عقبة بن عامر به.
وأخرجه الدارمي (٢/ ٢٠٤) كتاب الجهاد: باب في فضل الرمي والأمر به، والبيهقي في «شُعب الإيمان» (٤/ ٤٤) رقم (٤٢٩٨)؛ كلاهما من طريق سعيد بن أبي أيوب ثنا يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله عن عقبة به.
وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٠، ٢٧١) كتاب التفسير: باب ومن سورة الأنفال حديث (٣٠٨٣) من طريق صالح بن كيسان عن رجل لم يسمه عن عقبة بن عامر.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٧)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم القراب في كتاب «فضل الرمي».

لإنافته على نظائره من القُوى ﴿ومن رباط الخيل﴾ الرباطُ اسمٌ للخيل التي ترُبط في سبيل الله تعالى فِعال بمعنى مفعول أو مصدرٌ سميت هي به يقال: رَبَط ربطًا ورِباطًا ورابط مُرابطة ورِباطًا، أو جمعُ رَبيطٍ كفصيل وفصال، أو جمع رَبْطٍ ككعْبٍ وكِعاب وكلب وكلاب، وقرئ (رُبط الخيل) بضم[1] الباء وسكونها[2] جمع رباط، وعطفُها على القوة مع كونها من جملتها للإيذان بفضلها على بقية أفرادِها كعطف جبريلَ وميكائيلَ على الملائكة ﴿ترهبون به﴾ أي: تخوّفون وقرئ (تُرهّبون)[3] بالتشديد وقرئ (تُخزون به)[4] والضميرُ لما استطعتم أو للإعداد وهو الأنسبُ ومحلُّ الجملةِ النصبُ على الحالية من فاعل أعدوا مرهِبين به أو من الموصول أو من عائده المحذوفِ أي: أعدوا ما استطعتموه مُرهَبًا به ﴿عدو الله وعدوكم﴾ وهم كفارُ مكة خُصّوا بذلك من بين الكفار مع كون الكلِّ كذلك لغاية عتوِّهم ومجاوزتِهم الحدَّ في العداوة ﴿وآخرين من دونهم﴾ من غيرهم من الكفرة وقيل: هم اليهودُ: وقيل: المنافقون. وقيل: الفرسُ ﴿لا تعلمونهم﴾ أي: لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿الله يعلمهم﴾ أي لا غيرُه تعالى أيضًا: ﴿وما تنفقوا من شيء﴾ لإعداد العَتادِ قلَّ أو جل: ﴿في سبيل الله﴾ الذي أوضحه الجهاد ﴿يوف إليكم﴾ أي جزاؤه كاملًا ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ بترك الإثابة أو بنقض الثوابِ، والتعبيرُ عن تركها بالظلم مع أن الأعمالَ غيرُ موجبةٍ للثواب حتى يكون تركُ ترتيبِه عليها ظلمًا لبيان كمالِ نزاهتِه سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى من القبائح، وإبرازُ الإثابةِ في معرضِ الأمور الواجبةِ عليه تعالى كما مر في تفسير قولِه تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربُّهم أني لا أُضيع عمل عاملٍ منكم﴾ [آل عمران: ١٩٥] ﴿وإن

---

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو حيوة، وعمرو بن دينار.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢).

(٢) قرأ بها: أبو حيوة، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢).

(٣) قرأ بها: رويس، والحسن، ويعقوب، وابن عقيل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٨٤)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٥٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).

(٤) قرأ بها: ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٢)، وتفسير الطبري (١٤/ ٣٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٢، ١٣٣).

جنَحوا﴾ الجُنوحُ الميلُ ومنه الجنَاح ويعدّى باللام وبإلى، أي إن مالوا **﴿للسلم﴾** أي للصلح بوقوع الرهبةِ في قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعدادِ وإعتادِ العتاد **﴿فاجنح لها﴾** أي للسلم، والتأنيثُ لحمله على نقيضه قال: [البسيط]

السِّلْمُ تأخذ منها ما رضيتَ به والحربُ يكفيكَ من أنفاسها جُرَعُ[١]

وقرئ (فاجنُحْ)[٢] بضم النون **﴿وتوكل على الله﴾** ولا تخَفْ أن يُظهروا لك السلمَ وجوانحُهم مطويةٌ على المكر والكيد **﴿إنه﴾** تعالى **﴿هو السميع﴾** فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخِداع **﴿العليم﴾** فيعلم نياتِهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويردُّ كيدَهم في نحرهم والآيةُ خاصّةٌ باليهود وقيل: عامة نسختها آيةُ السيف **﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾** بإظهار السلم وإبطالِ الحراب **﴿فإن حسبك الله﴾** أي: فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرُك عليهم **﴿هو الذي أيدك بنصره﴾** تعليلٌ لكفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئنافِ، فإن تأييدَه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ما ذكر من الوجه البعيدِ من الوقوع من دلائل تأييدِه تعالى فيما سيأتي أي: هو الذي أيدك بإمداد مِنْ عنده بلا واسطة كقوله تعالى: **﴿وما النصرُ إلا من عند الله﴾** [سورة آل عمران: ١٢٦] أو بالملائكة مع خَرقه للعادات **﴿وبالمؤمنين﴾** من المهاجرين والأنصار **﴿وألف بين قلوبهم﴾** مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالُك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة، وهذا من أبهر معجزاتِه عليه الصلاة والسلام **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعًا﴾** أي لتأليف ما بينهم **﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾** استئنافٌ مقررٌ لما قبله ومبين لعزة المطلبِ وصعوبةِ المأخذ أي تناهي التعادي فيما بينهم إلى حد لو أنفق منفقٌ في إصلاح ذاتِ البين جميعَ ما في الأرض من الأموال والذخائر لم يقدِرْ على التأليف والإصلاحِ، وذكرُ القلوب للإشعار بأن التأليفَ بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليفُ ظاهرًا **﴿ولكن الله ألف بينهم﴾** قلبًا وقالَبًا بقدرته الباهرة **﴿إنه عزيز﴾** كاملُ القدرةِ والغلبة لا يستعصي عليه شيءٌ مما يريده **﴿حكيم﴾** يعلم كيفيةَ تسخيرِ ما يريده وقيل: الآيةُ في الأوس والخزرج كان بينهم إحَنٌ لا أمدَ لها

---

(١) البيت لعباس بن مرداس في ديوانه ص(٨٦)، ولسان العرب (أبس)، وأساس البلاغة (جرع)، وتاج العروس (أبس)، وبلا نسبة في المخصص (١٥/ ٧٤).

(٢) قرأ بها: الأشهب العقيلي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٠).

ووقائعُ أفنت ساداتِهم وأعاظِمَهم ودقت أعناقَهم وجماجِمَهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافَوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصارًا.

﴿يا أيها النبي﴾ شروعٌ في بيان كفايتِه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام في مادة خاصةٍ وتصديرُ الجملة بحرفي النداءِ والتنبيهِ للتنبيه على مزيد الاعتناءِ بمضمونها، وإيرادهُ عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للإشعار بعليتها للحكم ﴿حسبك الله﴾ أي كافيك في جميع أمورِك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحِراب ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ في محل النصبِ على أنه مفعولٌ معه أي كفاك وكفي أتباعَك الله ناصرًا كما في قول من قال: [الطويل]

.... فحسبُك والضحّاكَ عضْبٌ مهندُ[1]

وقيل: في موضع الجر عطفًا على الضمير كما هو رأيُ الكوفيين أي كافيك وكافيهم أو في محل الرفعِ عطفًا على اسم الله تعالى أي كفاك الله والمؤمنين، والآيةُ نزلت في البيداء في غزوة بدرٍ قبل القتالِ. وقيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثةٌ وثلاثون رجلًا وستُّ نسوةٍ ثم أسلم عمرُ رضي الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه ﴿يا أيها النبي﴾ بعد ما بين كفايتَه إياهم بالنصر والإمدادِ أُمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادي نصرِه وإمدادِه، وتكريرُ الخطاب على الوجه المذكور لإظهار كمالِ الاعتناءِ بشأن المأمور به ﴿حرِّض المؤمنين على القتال﴾ أي بالِغْ في حثّهم عليه وترغيبِهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغّبة التي أعظمُها تذكيرُ وعدِه تعالى بالنصر وحُكمُه بكفايته تعالى أو بكفايتهم. وأصلُ التحريضِ الحَرَضُ وهو أن ينهكه المرضُ حتى يُشفيَ[2] على الموت وقال الراغب: كأنه في الأصل إزالةُ الحَرَض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به قلت: فالأوجهُ

---

(١) عجز بيت وصدره:

إذا كانت الهيجاءُ وانشقَّت العصا ....

البيت لجرير في ذيل الأمالي ص (١٤٠)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في خزانة الأدب (٧/ ٥٨١)، وسمط اللآلي ص (٨٩٩)، وشرح الأشموني (١/ ٢٢٤)، وشرح شواهد الإيضاح ص (٣٧٤)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٠٠)، وشرح عمدة الحافظ ص (٤٠٧، ٦٦٧)، وشرح المفصل (٢/ ٥١)، ولسان العرب (حسب)، (هيج)، (عصا)، ومغني اللبيب (٢/ ٥٦٣)، والمقاصد النحوية (٣/ ٨٤).

(٢) أشفى على الموت: اقترب منه.

حينئذ أن يُجعل الحرَضُ عبارةً عن ضعف القلب الذي هو من باب نَهْكِ المرض، وقيل: معنى تحريضِهم تسميتُهم حرضًا بأن يقال: إني أراك في هذا الأمر حَرَضًا أي محرّضًا فيه لتهييجه إلى الإقدام وقرئ (حرِّص)[1] بالصاد المهملة وهو واضح.

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ وعدٌ كريمٌ منه تعالى بتغليب كلِّ جماعةٍ من المؤمنين على عشرة أمثالِهم بطريق الاستئنافِ بعد الأمر بتحريضهم، وقوله تعالى: ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا﴾ مع انفهام مضمونِه مما قبله لكون كل منهما عدةً بتأييد الواحدِ على العشرة لزيادة التقريرِ المفيدةِ لزيادة الاطمئنان، على أنه قد يجري بين الجمعين القليلين ما لا يجري بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوتَ فيما بين كلٍّ من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبيّن أن ذلك لا يتفاوت في الصورتين.

وقوله تعالى: ﴿من الذين كفروا﴾ بيانٌ للألف وهذا القيدُ معتبرٌ في المِائتين أيضًا وقد تُرك ذكرُه تعويلًا على ذكره هاهنا كما ترك قيدُ الصبر هاهنا مع كونه معتبرًا حتمًا ثقةً بذكره هناك ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ متعلق بـ (يغلبوا) أي: بسبب أنهم قوم جَهلةٌ بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون احتسابًا وامتثالًا بأمر الله تعالى وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه كما يفعله المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهليةِ واتّباع خطواتِ الشيطانِ وإثارةِ ثائرةِ البغي والعُدوانِ فلا يستحقون إلا القهرَ والخِذلانَ، وأما ما قيل من أن مَنْ لا يؤمن بالله واليوم الآخِر لا يؤمن بالميعاد فالسعادةُ عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية فيشِحّ بها ولا يعرِّضها للزوال بمزاولة الحروبِ واقتحامِ مواردِ الخطوب فيميل إلى ما فيه السلامةُ فيفِر فيُغلب، وأما من اعتقد ألا سعادةَ في هذه الحياة الفانية وإنما السعادةُ هي الحياةُ الباقيةُ فلا يبالي بهذه الحياةِ الدنيا ولا يقيم لها وزنًا فيُقدم على الجهاد بقلب قوي وعزمٍ صحيحٍ فيقوم الواحدُ من مثله مقام الكثير، فكلامٌ حقٌّ لكنه لا يلائم المقام.

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا﴾ لمّا كان الوعدُ السابقُ متضمنًا ألا يجابَ مقاومةُ الواحد للعشرة وثباتُه لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم ألا يفِرّوا ويثبُتَ الواحدُ للعشرة وقد بعث رسولُ الله ﷺ حمزةَ في ثلاثين راكبًا فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكبٍ فهزمهم ثقُل عليهم ذلك وضجّوا منه بعد مدة فنُسخ وخُفف

---

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٣).

عنهم بمقاومة الواحدِ للاثنين. وقيل: كان فيهم قلةٌ في الابتداء ثم لما كثُروا نزل التخفيفُ والمرادُ بالضعف ضعفُ البدنِ. وقيل: ضعفُ البصيرةِ وكانوا متفاوتين في الاهتداء إلى القتال لا الضعفِ في الدين كما قيل، وقرئ (ضُعفًا)[١] بضم الضاد وهي لغةٌ فيه كالفَقر والفُقر والمَكْث والمُكث وقيل: الضعفُ بالفتح ما في الرأي والعقل، وبالضم ما في البدن وقرئ (ضُعفاءَ)[٢] جمعُ ضعيف والمرادُ بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحققٌ بالفعل لا علمُه تعالى به مطلقًا كيف لا وهو ثابتٌ في الأزل، وقوله تعالى: ﴿**فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين**﴾ تفسيرٌ للتخفيف وبيانٌ لكيفيته وقرئ (تكن)[٣] هاهنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية ﴿**وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله**﴾ أي بتيسيره وتسهيلِه وهذا القيدُ معتبرٌ فيما سبق من غلبة المائةِ المائتين والألفِ وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبرِ معتبرٌ هاهنا وإنما تُرك ذكرُه ثقةً بما مر وبقوله تعالى ﴿**والله مع الصابرين**﴾ فإنه اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبله والمرادُ بالمعية معيَّةُ نصرِه وتأييدِه، ولم يُتعرَّض هاهنا لحال الكفرةِ من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدارَ الغلبة في الصورتين مجموعُ الأمرين أعني نصرَ المؤمنين وخذلانَ الكفرةِ اكتفاءً بما ذُكر في كل مقامٍ عما ترك في المقام الآخر وما تشعرُ به كلمةُ مع من متبوعية مدخولِها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر كما مر مرارًا.

﴿**ما كان لنبي**﴾ وقرئ (للنبي)[٤] على العهد والأولُ أبلغُ لما فيه من بيان أن ما يذكر سنةٌ مطردة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي ما صح وما استقام لنبيٍّ

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وابن عمر، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وقتادة، وابن أبي إسحاق.
ينظر: الإعراب للنحاس (١/ ٦٨٦)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨٠)، والتيسير للداني ص (١١٧)، والحجة لابن خالويه (١٧٢، ١٧٣).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وابن عباس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢٣٨، ٢٣٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٨٦)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨٠)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٥٦).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٧)، والتيسير للداني ص (١١٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٠٨).

(٤) قرأ بها: أبو الدرداء، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٤).

من الأنبياء عليهم السلام ﴿أن يكون له أسرى﴾ وقرئ بتأنيث[١] الفعلِ و(أُسارى)[٢] أيضًا ﴿حتى يُثخِن في الأرض﴾ أي يُكثر القتلَ ويبالغَ فيه حتى يذِل الكفرُ ويقِلَّ حزبُه ويعِزّ الإسلامُ ويستوليَ أهلُه، من أثخنه المرَضُ والجُرحُ إذا أثقله وجعله بحيث لا حَراك به ولا براحَ، وأصلُه الثخانةُ التي هي الغِلَظ والكثافة وقرئ بالتشديد[٣] للمبالغة ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للعتاب أي تريدون حُطامَها بأخذكم الفداءَ وقرئ يريدون[٤] بالياء ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي يريد لكم ثوابَ الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها أو يريد سببَ نيلِ الآخرة من إعزاز دينِه وقمعِ أعدائِه، وقرئ بجر (الآخرةِ)[٥] على إضمار المضاف كما في قوله: [المتقارب]

أكلَّ امرئ تحسبين أمرا ونارٍ تَوقَّدُ بالليل نارا[٦]

﴿والله عزيز﴾ يغلّب أولياءَه على أعدائه ﴿حكيم﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالإثخان ونهىٰ عن أخذ الفداء حين كانت الشوْكةُ للمشركين وخيّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿فإما منًا بعدُ وإما فداءً﴾ [محمد: ٤] لما تحولت الحال

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٩)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨١)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٣)، والمعاني للفراء (١/ ٤١٨).

(٢) قرأ بها: عاصم، والمفضل، وأبو جعفر، ويزيد بن القعقاع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٩)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٤)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٥٥٨).

(٣) قرأ بها: أبو جعفر، ويحيى بن يعمر، ويحيى بن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٤).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٤).

(٥) قرأ بها: سليمان بن جماز.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨١).

(٦) البيت لأبي دؤاد الإيادي (حارثة بن الحجاج) في ديوانه ص (٣٥٣)، والأصمعيات ص (١٩١)، وأمالي ابن الحاجب (١/ ١٣٤)، وخزانة الأدب (٩/ ٥٩٢)، والدرر (٥/ ٣٩)، وشرح التصريح (٢/ ٥٦)، وشرح شواهد الإيضاح، ص (٢٩٩)، وشرح عمدة الحفاظ، ص (٥٠٠)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٧٠٠)، وشرح المفصل (٣/ ٢٦)، والكتاب (١/ ٦٦)، والمقاصد النحوية (٣/ ٤٤٥)، ولعديّ بن زيد في ملحق ديوانه ص (١٩٩)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٨/ ٤٩)، والإنصاف (٢/ ٤٧٣)، وأوضح المسالك (٣/ ١٦٩)، وخزانة الأدب (٤/ ٤١٧)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٢٥)، وشرح المفصل (٣/ ٧٩، ١٤٢)، والمحتسب (١/ ٢٨١)، ومغني اللبيب (١/ ٢٩٠)، والمقرب (١/ ٢٣٧)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٢).

وصارت الغلبةُ للمؤمنين. روي (أن رسول الله ﷺ أُتيَ بسبعين أسيرًا فيهم العباسُ وعقيل بنُ أبي طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر: قومُك وأهلك استَبْقِهم لعل الله يتوب عليهم وخُذ منهم فديةً تقوِّي أصحابَك، وقال عمر: اضرِبْ [فلنضرِبْ][١] أعناقَهم فإنهم أئمةُ الكفر والله أغناك من الفداء، مكِّنْ عليًا من عقيلٍ وحمزةَ من العباس، ومكني من فلان، (نسيبٍ له)، فلنضرِب أعناقَهم، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إن الله ليُلين قلوبَ رجالٍ حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشدد قلوبَ رجالٍ حتى تكون أشدَّ من الحجارة وإن مثلَك يا أبا بكر مثلُ إبراهيمَ قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلُك يا عمرُ مثل نوحٍ قال: ربٍّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا»**[٢] فخيّر أصحابَه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل عمرُ رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسولَ الله أخبرني فإني إن وجدت بكاءً بكَيْتُ وإلا تباكيتُ فقال: **«أبكي على أصحابك في أخذهم الفداءَ ولقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى من هذه الشجرةِ»**[٣] - لشجرة قريبةٍ منه، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«لو نزل عذابٌ من السماء لما نجا غيرُ عمرَ وسعد بن معاذ»**[٤] وكان هو أيضًا ممن أشار بالإثخان.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أي لولا حكمٌ منه تعالى سبق إثباتُه في اللوح المحفوظِ وهو ألا يعاقبَ المخطئ في اجتهاده أو ألا يعذب أهلَ بدر أو قومًا لم يصرِّح لهم بالنهي، وأما أن الفدية التي أخذوها ستحِل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساسِ العذاب فإن الحِلَّ اللاحقَ لا يرفع حكمَ الحرمةِ السابقة كما أن الحرمةَ اللاحقة كما في الخمر مثلًا لا ترفع حكمَ الإباحةِ السابقة على أنه قادحٌ في تهويل ما نُعي عليهم من أخذ الفداء **﴿لمسكم﴾** أي لأصابكم **﴿فيما أخذتم﴾** أي لأجل ما أخذتم من الفداء **﴿عذاب عظيم﴾** لا يقادَر قدرُه.

﴿فكلوا مما غنمتم﴾ رُوي أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا: الفاء لترتيب ما

---

(١) سقط في خ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٥٩) برقم (٣٦٦٩٠)، وأحمد (١/ ٣٨٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٢١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠، ٣١)، والطبري (٦/ ٢٨٧) رقم (١٦٣٠٧) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود.
وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه منقطع.

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٢٩١) رقم (١٦٣٣٣، ١٦٣٣٤) وعزاه الزيلعي إلى الثعلبي والبغوي في تفسيريهما؛ كما عزاه إلى الواقدي في كتابه المغازي (٢/ ٣٩) رقم (٥١٤).

بعدها على سبب محذوفٍ أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم، والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ أي: دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل: ما عبارة عن الفدية فإنها من جملة الغنائم ويأباه سياقُ النظم الكريم وسياقُه ﴿حلالًا﴾ حال من المغنوم أو صفةٌ للمصدر أي: أكلًا حلالًا وفائدتهُ الترغيبُ في أكلها.

وقوله تعالى: ﴿طيبًا﴾ صفةٌ لـ (حلالًا) مفيدةٌ لتأكيد الترغيبِ ﴿واتقوا الله﴾ أي في مخالفة أمرِه ونهيِه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ فيغفرُ لكم ما فرَط منكم من استباحة الفداءِ قبل ورود الإذنِ فيه ويرحمُكم ويتوبُ عليكم إذا اتقيتموه ﴿يأيها النبي قل لمن في أيديكم﴾ أي في مِلككم كأن أيديَكم قابضةٌ عليهم ﴿من الأسرى﴾ وقرئ (من الأُسارى)[١] ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا﴾ خلوصَ إيمانٍ وصحةَ نيةٍ ﴿يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم﴾ من الفداء، وقرئ (أَخَذَ)[٢] على البناء للفاعل. روي أنها نزلت في العباس كلفه رسولُ الله ﷺ أن يَفدِيَ ابني أخيه عَقيلَ بن أبي طالب ونوفلَ بنَ الحارث فقال: يا محمد تركتَني أتكفف قريشًا ما بقِيتُ فقال له عليه الصلاة والسلام: «**فأين الذهبُ الذي دفعتَه إلى أم الفضلِ وقت خروجِك من مكة وقلت لها: ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدثٌ فهو لك ولعبد اللَّه وعبيد اللَّه والفضلِ**» فقال العباس: ما يدريك؟ فقال: «**أخبرني به ربي**»، قال العباس: فأنا أشهد أنك صادقٌ وألا إلٰه إلا الله وأنك عبدُه ورسوله، والله لم يطلعْ عليه أحدٌ إلا الله ولقد دفعتُه إليها في سواد الليل ولقد كنت مرتابًا في أمرك فأما إذا أخبرتني بذلك فلا ريب، قال العباس بعد حين: فأبدلني الله خيرًا من ذلك لي الآن عشرون عبدًا وإنّ أدناهم ليُضرب في عشرين ألفًا وأعطاني زمزمَ ما أُحب أن لي بها جميعَ أموالِ أهل مكة وأنا أنتظر المغفرةَ من ربي[٣]، يتأول به ما في قوله تعالى: ﴿ويغفر لكم والله غفور

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، وقتادة، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم، والحسن، وعاصم الجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٩)، والبحر المحيط (٤/ ٥٢١)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨١)، والتيسير للداني ص (١١٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٠٩).

(٢) قرأ بها: الحسن، والمطوعي، وأبو حيوة، وشيبة، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٩)، والبحر المحيط (٤/ ٥٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٥)، وتفسير الرازي (٤/ ٣٨٨).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر إسلام العباس رضي الله عنه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

رحيم﴾ فإنه وعدٌ بالمغفرة مؤكدٌ بما بعده من الاعتراض التذييلي.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ أي نكثَ ما بايعوك عليه من الإسلام وهذا كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعدِ له والوعيد لهم **﴿فقد خانوا الله من قبل﴾** بكفرهم ونقضِ ما أخذ على كل عاقلٍ من ميثاقه **﴿فأمكن منهم﴾** أي أقدرَك عليهم حسبما رأيتَ يومَ بدر فإن أعادوا الخيانةَ فاعلم أنه سيُمكنك منهم أيضًا، وقيل: المرادُ بالخيانة منعُ ما ضمِنوا من الفداء وهو بعيد **﴿والله عليم﴾** فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب **﴿حكيم﴾** يفعل كلَّ ما يفعله حسبما تقتضيه حكمتُه البالغة **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا﴾** هم المهاجرون هاجروا أوطانَهم حبًا لله تعالى ولرسوله **﴿وجاهدوا بأموالهم﴾** بأن صرفوها إلى الكُراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج(١) **﴿وأنفسهم﴾** بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوضِ في المهالك **﴿في سبيل الله﴾** متعلقٌ بجاهدوا، قيدٌ لنوعي الجهادِ، ولعل تقديمَ الأموال على الأنفس لما أن المجاهدةَ بالأموال أكثرُ وقوعًا وأتمُّ دفعًا للحاجة حيث لا يُتصور المجاهدةُ بالنفس بلا مجاهدة بالمال **﴿والذين آوَوْا ونصروا﴾** هم الأنصارُ آوَوا المهاجرين وأنزلوهم منازلَهم وبذلوا إليهم أموالَهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة(٢) ونصروهم على أعدائهم **﴿أولئك﴾** إشارةٌ إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلةِ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو طبقتهم وبُعدِ منزلِتهم في الفضيلة وهو مبتدأ.

وقوله تعالى: **﴿بعضُهم﴾** إما بدلٌ منه وقوله تعالى: **﴿أولياء بعض﴾** خبرُه وإما مبتدأٌ ثانٍ وأولياءُ بعضٍ خبرُه والجملةُ خبرٌ للمبتدأ الأول أي بعضُهم أولياءُ بعضٍ في الميراث، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنُصرة دون الأقاربِ حتى نُسخ بقوله تعالى: **﴿وأولو الأرحام﴾** الآية [الأنفال: ٧٥، والأحزاب: ٦] وقيل: في النُصرة والمظاهرة، ويردُه قوله تعالى: **﴿فعليكم النصرُ﴾** بعد نفي موالاتِهم **﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾** كسائر المؤمنين **﴿ما لكم من وَلايتهم من شيء﴾** أي من تولّيهم في الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربِكم **﴿حتى يهاجروا﴾** وقرئ بكسر الواو(٣) تشبيهًا بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة **﴿وإن استنصروكم في الدين**

---

(١) المحاويج: جمع مُحْوِج وهو المعدم. والكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٢) الخصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال.

(٣) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وابن وثاب، والأخفش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٣٩)، والإعراب للنحاس (١/ ٦٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦)، والبحر المحيط (٤/ ٥٢٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨٨)، والتيسير للداني ص (١١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٥٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٠٤).

فعليكم النصرُ﴾ فواجبٌ عليكم أن تنصُروهم على المشركين **﴿إلا على قوم﴾** منهم **﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾** معاهدةٌ فإنه لا يجوز نقضُ عهدِهم بنصرهم عليهم **﴿والله بما تعملون بصير﴾** فلا تخالفوا أمرَه كيلا يحِلَّ بكم عقابُه **﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾** آخرَ منهم أي في الميراث أو في المؤازرة وهذا بمفهومه مُفيدٌ لنفي الموارثةِ والمؤازرةِ بينهم وبين المسلمين وإيجابِ المباعدةِ والمصارمة وإن كانوا أقارب.

﴿إلا تفعلوه﴾ أي ما أُمرتم به من التواصل بينكم وتولِّي بعضِكم بعضًا حتى التوارثُ ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار **﴿تكن فتنة في الأرض﴾** أن تحصُل فتنةٌ عظيمة فيها وهي ضعفُ الإيمان وظهورُ الكفر **﴿وفساد كبير﴾** في الدارين وقرئ كثير(١) **﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًّا﴾** كلامٌ مسوقٌ للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلَّى من الإيمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى: **﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾** لا تبعةَ له ولا منة فيه فلا تكرارَ لما أن مساقَ الأولِ لإيجاب التواصلِ بينهم **﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا﴾** بعد هجرتِكم **﴿وجاهدوا معكم﴾** في بعض مغازيكم **﴿فأولئك منكم﴾** أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصارُ وهم الذين جاؤوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلًا منه وترغيبًا في الإيمان والهجرة؛ وفي توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلِّهم ما لا يخفى **﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾** آخرَ منهم في التوارث(٢) من الأجانب **﴿في كتاب الله﴾** أي في حُكمه أو في اللوح أو في القرآن واستُدِل به على توريث ذوي الأرحام.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارثِ بالقرابة الدينيةِ أولًا وبالقرابة النسبيةِ آخِرًا من الحِكَم البالغة.

عن النبي ﷺ: «**من قرأ سورةَ الأنفالِ وبراءة فأنا شفيعٌ له يوم القيامة وشاهدٌ أنه بريءٌ من النفاق**(٣)**، وأُعطِيَ عشرَ حسناتٍ بعدد كلِّ منافقٍ ومنافقةٍ وكان العرشُ وحملتُه يستغفرون له أيامَ حياتِه**»(٤) والله تعالى أعلم.

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وأبو موسى الحجازي.
ينظر: البحر المحيط (٤/ ٥٢٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٦).

(٢) في خ: التوريث.

(٣) في حاشية خ في بعض النسخ بدل: فأنا شفيع، فإنهما شفعان له فتنبه.

(٤) تقدم.

سورة براءة[1]

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية[2]

ولها أسماءٌ أُخَرُ: سورة التوبة، والمقشقِشة[3]، والبَحوثُ، والمُنقِّرة، والمبعثرة، والمثيرة، والحافرة، والمُخزِية، والفاضِحة، والمنكّلة، والمشرِّدة، والمُدمدِمة، وسورة العذاب، لما فيها [من][4] ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحثِ والتنقيرِ عن حال المنافقين وإثارتِها والحفرِ عنها وما يُخزيهم ويشرِّدُهم ويدمدم عليهم، واشتهارُها بهذه الأسماء يقضي بأنها سورةٌ مستقلةٌ وليست بعضًا من سورة الأنفال، وادعاءُ اختصاصِ الاشتهارِ بالقائلين باستقلالها خلافُ الظاهِرِ فيكون حكمةُ تركِ التسمية عند النزول نزولَها في رفع الأمانِ الذي يأبى مقامُه التصديرَ بما يُشعرِ ببقائه من ذكر اسمِه تعالى مشفوعًا بوصف الرحمةِ كما رُوي عن ابن عُيَينةَ رضي الله عنه لا الاشتباهَ في استقلالها وعدمِه كما يحكىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما ولا رعايةَ ما وقع بين الصحابةِ رضي الله عنهم من الاختلاف في ذلك على أن ذلك ينزِعُ إلى القول بأن التسميةَ ليست من القرآنِ وإنما كُتبت للفصل بين السورِ كما نقل عن قدماء الحنفيةِ وأن مناطَ إثباتِها في المصاحف وتركِها إنما هو رأيُ من تصدَّى لجمع القرآن دون التوقيفِ، ولا ريب في أن الصحيحَ من المذهب أنها آيةٌ فذةٌ من القرآن أنزلت للفصل والتبركِ بها وألا مدخلَ لرأي أحدٍ في الإثبات والتركِ وإنما المتبَعُ في ذلك هو الوحيُ والتوقيفُ، ولا مِرية في عدم نزولِها هاهنا وإلا لامتنع أن يقعَ في الاستقلال اشتباهٌ أو اختلافٌ فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل إلى الأول وإلا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيدِ الحاجةِ إلى البيان لتعاضُد أدلةِ الاستقلال من كثرة

---

(١) في خ: التوبة.

(٢) في ط: ١٣٠ آية.

(٣) تقشقش المريض: برأ من مرضه. وسميت «براءة» بالمقشقشة لأنه كان يُبرأ بها من النفاق والمنافقين. كذلك سميت سورتا ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾ بالمقشقشتين. ومنهم من سمى ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ بالمقشقشة.

(٤) سقط من خ.

الآياتِ وطولِ المدة فيما بين نزولِهما فحيث لم يبيِّنْه عليه الصلاة والسلام تعين الثاني لأن عدَم البيانِ من الشارع في موضع البيانِ بيانٌ للعدم.

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ

رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿براءةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ وتنوينُه للتفخيم، وقرئ بالنصب[١] أي: اسمعوا براءةً، ومِنْ في قوله تعالى: ﴿من الله ورسوله﴾ ابتدائيةٌ متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لها ليفيدَها[٢] زيادةَ تفخيمٍ وتهويلٍ أي هذه براءةٌ مبتدأةٌ من جهة الله تعالى ورسوله واصلة ﴿إلى الذين عاهدتم مّن المشركين﴾ وإنما لم يذكر ما تعلق به للبراءة حسبما ذكر في قوله تعالى: ﴿إن الله بريءٌ من المشركين﴾ [التوبة: ٣] اكتفاءً بما في حيز الصلةِ فإنه منبئ عنه إنباءً ظاهرًا واحترازًا عن تكرير لفظة (من)، وقيل: هي مبتدأٌ لتخصصها بالصفة وخبرُه إلى الذين . . . إلخ والذي تقتضيه جزالةُ النظمِ هو الأولُ لأن هذه البراءةَ أمرٌ حادثٌ لم يُعهَدْ عند المخاطَبين ذاتُها ولا عنوانُ ابتدائِها من الله تعالى ورسولِه حتى يخرُجَ ذلك العنوانُ مخرَجَ الصفةِ لها ويُجعلَ المقصود بالذات، والعمدةُ في الإخبار شيئًا آخرَ هو وصولُها إلى المعاهَدين، وإنما الحقيقُ بأن يُعتنىٰ بإفادته حدوثُ تلك البراءةِ من جهته تعالى ووصولها إليهم فإن حق الصفاتِ قبل علم المخاطَب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارًا، وحقُّ الأخبار بعد العلم بثبوتها لما هيَ له أن تكون صفاتٍ كما حقق في موضعه، وقرئ (منِ الله)[٣] بكسر النون على أن الأصلَ في تحريك الساكنِ الكسرُ ولكن الوجهَ هو الفتحُ في لام التعريفِ خاصةً لكثرة الوقوع، والعهدُ العقدُ الموثقُ باليمين والخطابُ في (عاهدتم للمسلمين) وقد كانوا قد عاهدوا مشركي العربِ من أهل مكةَ وغيرِهم بإذن الله تعالى واتفاقِ الرسولِ ﷺ فنكثوا إلا بني ضَمْرَةَ وبني كِنانةَ فأُمر المسلمون بنبذ العهدِ إلى الناكثين وأُمهلوا أربعةَ أشهر ليسيروا أين شاءوا، وإنما نُسبت البراءةُ إلى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكِهم في حكمها ووجوبِ العملِ بموجبها وعُلّقت المعاهدةُ بالمسلمين خاصةً مع كونها بإذن الله تعالى واتفاقِ الرسولِ ﷺ للإنباء عن تنجُزها وتحتُّمها من غير توقفٍ على رأي المخاطبين لأنها عبارةٌ عن إنهاء حكمِ الأمانِ ورفعِ الحظْرِ المترتبِ على

---

(١) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٦٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٢).

(٢) في خ: ليفيدنا.

(٣) قرأ بها: أبو عمرو بن العلاء.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤)، والبحر المحيط (٥/ ٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٣).

العهد السابقِ من التعرض للكفرة، وذلك مَنوطٌ بجناب الله عز وجل لأنه أمرٌ كسائر الأوامرِ الجاريةِ على حسب حكمةٍ تقتضيها وداعيةٍ تستدعيها تترتب عليها آثارُها من غير توقفٍ على شيء أصلًا، واشتراكُ المسلمين في حكمها ووجوبِ العمل بموجبها إنما هو طريقةُ الامتثالِ بالأمر لا على أن يكونَ لهم مدخلٌ في إتمامها أو في ترتب أحكامِها عليها، وأما المعاهدةُ فحيث كانت عقدًا كسائر العقود الشرعيةِ لا تتحصّل في نفسها ولا تترتب عليها أحكامُها إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصةٍ اعتبرها الشرعُ لم يُتصوَّرْ صدورُها عنه سبحانه وإنما الصادرُ عنه في شأنها هو الإذنُ فيها وإنما الذي يباشرُها ويتولى أمرَها المسلمون.

ولا يخفى أن البراءةَ إنما تتعلق بالعهد لا بالإذن فيه فنُسبت كلٌّ واحدة منهما إلى من هو أصلٌ فيها على أن في ذلك تفخيمًا لشأن البراءةِ وتهويلًا لأمرها وتسجيلًا على الكفرة بغاية الذلِّ والهوانِ ونهايةِ الخِزْيِ والخِذلان وتنزيهًا لساحة السبحان والكبرياءِ عما يوهم شائبةَ النقصِ والبداء[1] تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. وإدراجُه عليه الصلاة والسلام في النسبة الأولى وإخراجُه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع وإجلالِ قدرِه المنيع في كلا المقامين ﷺ، وإيثارُ الجملة الاسميةِ على الفعلية كأن يقال: قد برئَ الله ورسولُه من الذين أو نحوُ ذلك للدلالة على دوامها واستمرارِها وللتوسل إلى تهويلها بالتنوين التفخيميِّ كما أشير إليه ﴿**فسيحوا**﴾ السياحةُ والسَّيْحُ الذهابُ في الأرض والسيرُ فيها بسهولة على مقتضى المشيئةِ كسيح الماءِ على موجب الطبيعة ففيه من الدِلالة على كمال التوسعةِ والترفيه ما ليس في (سيروا) ونظائِره، وزيادةُ قولِه عز وجل ﴿**في الأرض**﴾ لقصد التعميم لأقطارها من دار الإسلامِ وغيرِها والمرادُ إباحةُ ذلك لهم وتخليتُهم وشأنَهم من الاستعداد للحرب أو تحصينِ الأهلِ والمالِ وتحصيلِ المهرَبِ أو غيرِ ذلك لا تكليفُهم بالسياحة فيها، وتلوينُ الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهِه إليهم مع حصول المقصودِ بصيغة أمرِ الغائبِ أيضًا للمبالغة في الإعلام بالإمهال حسمًا لمادة تعلّلِهم بالغفلة وقطعًا لشأفة اعتذارِهم بعدم الاستعداد، وإيثارُ صيغةِ الأمرِ مع تسنّي إفادةِ ذلك المعنى بطريق الإخبارِ أيضًا كأن يقالَ مثلًا: فلكم أن تسيحوا أو نحوُ ذلك لإظهار كمالِ القوةِ والغلبةِ وعدمِ الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمرٌ مطلوبٌ منهم، والفاءُ لترتيب الأمرِ بالسياحة وما يعقُبه على ما تؤذن به

---

(١) البداء: استصواب شيء علم بعد أن لم يُعلم، وذلك غير جائز على الله تعالى. وقال الفراء: بدا لي بداءٌ أي ظهر لي رأيٌ آخر.

البراءةُ المذكورةُ من الحِراب، على أن الأولَ مترتبٌ على نفسه والثاني بكلا متعلِّقَيْه على عنوان كونِه من الله العزيز لا لترتيب الأولِ عليه والثاني على الأول كما في قوله تعالى: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا﴾** [النمل: ٦٩] إلخ كأنه قيل: هذه براءةٌ موجبةٌ لقتالكم فاسعَوْا في تحصيل العددِ والأسباب وبالغوا في إعتاد العَتادِ من كل باب **﴿أربعة أشهر واعلموا أنكم﴾** بسياحتكم في أقطار الأرضِ في العَرْض والطول وإن ركبتم متنَ كل صعبٍ وذلولٍ **﴿غيرُ معجزي الله﴾** أي لا تفوّتونه بالهرب والتحصُّن.

﴿وأن الله﴾ وُضع الاسمُ الجليلُ موضِعَ المضمر لتربية المهابةِ وتهويلِ أمر الإخزاءِ وهو الإذلالُ بما فيه فضيحةٌ وعار **﴿مخزي الكافرين﴾** أي مخزيكم ومُذِلّكم في الدنيا بالقتل والأسرِ وفي الآخرة بالعذاب، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ لذمهم بالكفر بعد وصفِهم بالإشراك وللإشعار بأن علةَ الإخزاءِ هي كفرُهم ويجوز أن يكون المرادُ جنسَ الكافرين فيدخلُ فيه المخاطَبون دخولًا أوليًا، والمرادُ بالأشهر الأربعةُ هي الأشهرُ الحرمُ التي عُلِّق القتالُ بانسلاخها فقيل: هي شوالٌ وذو القَعدةِ وذو الحِجة والمُحرَّم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرَّمُ وصفرُ وشهرُ ربيعِ الأول وعشرٌ من ربيعٍ الآخَر، وجُعلت حُرَمًا لحرمة قتالِهم فيها أو لتغليب ذي الحجة والمحرَّم على البقية، وقيل: من عشر ذي القعدة إلى عشرٍ من شهر ربيعِ الأول لأن الحجَّ في تلك السنةِ كان في ذلك الوقت للنسيء[1] الذي كان فيهم ثم صار في العام القابل في ذي الحجة، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**»[2] روي أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضي الله تعالى عنه على موسم سنةٍ تسعٍ ثم أتبعه عليًا رضي الله تعالى عنه على العضباء[3] ليقرأَها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال ﷺ: «**لا يؤدّي عني إلا رجلٌ مني**» وذلك لأن عادة العرب ألا يتولى أمرَ العهد والنقض على القبيلة إلا رجلٌ منها، فلما دنا عليٌّ سمع أبو بكر الرُّغاءُ فوقف فقال: هذا رُغاءُ ناقةِ

---

(١) النَّسيء: اسم من نسأه وأنسأه بمعنى أخَّره. وهو شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ليكون يوم صدورهم عن الحج في وقت واحد من السنة. يقوم الناس في منًى وقد صدر الحاج فيؤخره. وقد أبطله الإسلام ولا يزال عند اليهود. وانظر تفسير الآية ٣٦ في ما سيأتي.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٣٤) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين، برقم (٣١٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٠٥) كتاب القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (٢٩/ ١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) العضباء: هي الناقة المتقدمة الأذن. والعضباء هنا اسم لناقة من نوق رسول الله، ولم تكن عضباء وإنما سميت به لنجابتها ومضيها في وجهها.

رسولِ الله ﷺ فلما لحِقه قال: أميرٌ أو مأمورٌ قال: مأمورٌ فمضيا فلما كان قبل يوم التروية[١] خطَب أبو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام علي رضي الله عنه يومَ النحر عند جَمرةِ العقبة فقال: ياأيها الناسُ إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أُمرت بأربعٍ ألا يقرَبَ البيتَ بعد العام مشركٌ ولا يطوفَ بالبيت عُريانٌ ولا يدخلَ الجنةَ إلا كلُّ نَفسٍ مؤمنة وأن يُتمَّ إلى كل ذي عهد عهدُه[٢].

﴿وأذان من الله ورسوله﴾ أي إعلامٌ منهما فعَال بمعنى الإفعال كالعطاء بمعنى الإعطاء ورفعُه كرفع براءةٌ والجملةُ معطوفةٌ على مثلها وإنما قيل: ﴿إلى الناس﴾ أي كافةً لأن الأذانَ غيرُ مختصٍ بقوم دون آخَرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شاملٌ لعامة الكفرةِ وللمؤمنين أيضًا ﴿يوم الحج الأكبر﴾ هو يومُ العيدِ لأن فيه تمامَ الحجِّ ومعظَم أفعالِه ولأن الإعلامَ كان فيه ولما روي أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجَمَرات في حَجة الوداع فقال: «**هذا يومُ الحجِّ الأكبر**»[٣]. وقيل: يومُ عرفةَ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**الحج عرفة**»[٤] ووصفُ الحجِّ بالأكبر لأن العُمرة

---

(١) يوم التروية هو الثامن من ذي الحجة لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٨/١٤) برقم (١٦٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٤٠٢): كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى، حديث (١٧٤٢)، وأطرافه في (٤٤٠٣-٦٠٤٣-٦١٦٦-٦٧٨٥-٦٨٦٨-٧٠٧٧)، وأبو داود (٢/ ١٩٥): كتاب الحج: باب يوم الحج الأكبر، حديث (١٩٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٦): كتاب المناسك: باب رمي الجمار أيام التشريق، حديث (٣٠٥٨)، والبيهقي (٥/ ١٣٩) في السنن الكبرى، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأكثر هذا المتن مخرج في الصحيحين إلا قوله: «إن يوم الحج الأكبر يوم النحر سنة»، فإن الأقاويل فيه عن الصحابة والتابعين- رضي الله عنهم- على خلاف بينهم فيه، فمنهم من قال: يوم عرفة، ومنهم من قال: يوم النحر، وابن سعد في «الطبقات الكبرى»: (٢/ ١٤٠)، والطبراني في «المعجم الصغير»: (٢/ ١١٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ٢٧٤) في ترجمة سعيد بن عبد العزيز، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣١٥) رقم (١٦٤٦١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨١) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمر به.
وأخرجه الترمذي (٣/ ٢٨٢): كتاب الحج: باب ما جاء في يوم الحج الأكبر، حديث (٩٥٧)، مرفوعًا عن علي به، و(٣/ ٢٨٢) كتاب الحج باب ما جاء في يوم الحج الأكبر، حديث (٩٥٨) موقوفًا، وقال: وهذا أصح من الحديث الأول. و (٥/ ٢٧٤): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة حديث (٣٠٨٨)، مرفوعًا عن علي به، وحديث (٣٠٨٩) موقوفًا.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥٣) إلى أبي نعيم في تاريخ أصبهان.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩)، وأبو داود (١/ ٥٩٩) كتاب المناسك، باب: من لم يدرك عرفة، برقم =

تسمى الحجَّ الأصغرَ أو لأن المرادَ بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبرُ من باقي الأعمال، أو لأن الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لأنه ظهر فيه عزُّ المسلمين وذلُّ المشركين ﴿أن الله﴾ أي بأن الله وقرئ بالكسر[1] لِما أن الأذانَ فيه معنى القول ﴿بريء من المشركين﴾ أي المعاهِدين الناكثين ﴿ورسولُه﴾ عطف على المستكنِّ في (بريئ) أو على محل أنّ واسمِها على قراءة الكسر وقرئ بالنصب[2] عطفًا على اسم أنّ أو لأن الواوَ بمعنى مع أي بريءٌ معه منهم، وبالجر على الجوار وقيل: على القسم ﴿فإن تبتم﴾ من الشرك والغدر، التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب لزيادة التهديدِ والتشديد، والفاءُ لترتيب مقدّمِ الشرطيةِ على الأذان بالبراءة المذيّلةِ بالوعيد الشديد المُؤذِنِ بِلِين عَريكتِهم وانكسارِ شدة شكيمتِهم ﴿فهو﴾ أي فالتوب ﴿خير لكم﴾ في الدارين ﴿وإن توليتم﴾ عن التوبة أو ثَبَتُّم على التولي عن الإسلام والوفاء ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ غيرُ سابقين ولا فائتين ﴿وبشر الذين كفروا﴾ تلوينٌ للخطاب وصرفٌ له عنهم إلى رسول الله ﷺ لأن البشارة ﴿بعذاب أليم﴾ وإن كانت بطريق التهكمِ إنما تليق بمن يقفُ على الأسرار الإلٰهية.

[من قوانين المعاهدات]

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ استدراكٌ من النبذ السابقِ الذي أُخّر فيه القتالُ أربعةَ أشهرٍ كأنه قيل: لا تُمهلوا الناكثين فوق أربعةِ أشهرٍ لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكُثوا عهدَهم فلا تُجْروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم بل أتِمّوا إليه عهدَهم، ولا يضُرّ في ذلك تخللُ الفاصلِ بقوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ إلخ لأنه ليس بأجنبي بالكلية بل هو أمر بإعلام تلك البراءةِ كأنه قيل: وأَعلِموها، وقيل:

= (١٩٤٩)، والترمذي (٣/ ٢٣٧) كتاب الصوم، باب فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، برقم (٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٥٦) كتاب مناسك الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة، برقم (٣٠١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣) كتاب المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، برقم (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه.

(١) قرأ بها: الحسن، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤)، والبحر المحيط (٥/ ٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٧٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٣).

(٢) قرأ بها: يعقوب، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وزيد بن علي، والحسن، وروح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥)، والبحر المحيط (٥/ ٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٧٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٣)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٤)، وتفسير الرازي (١٥/ ٢٢٣).

هو استثناءٌ متصلٌ من المشركين الأوّل، ويرده بقاءُ الثاني على العموم مع كونهما عبارةً عن فريق واحد، وجعلُه استثناءً من الثاني يأباه بقاء الأولُ كذلك وقيل: هو استدراكٌ من المقدر في (فسيحوا) أي قولوا لهم: سيحوا أربعةَ أشهر لكن الذين عاهدتم منهم ﴿**ثم لم ينقصوكم شيئًا**﴾ من شروط الميثاقِ ولم يقتُلوا منكم أحدًا ولم يضروكم قط، وقرئ بالمعجمة[1] أي لم ينقضوا عهدَكم شيئًا من النقض، وكلمة ثم للدِلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة ﴿**ولم يظاهروا**﴾ أي لم يعاونوا ﴿**عليكم أحدًا**﴾ من أعدائكم كما عدَتْ بنو بكر على خُزاعةَ في غَيْبة رسول الله ﷺ فظاهَرَتْهم قريشٌ بالسلاح ﴿**فأتموا إليهم عهدهم**﴾ أي أدوه إليهم كاملًا ﴿**إلى مدتهم**﴾ ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضيِّ الأجل المضروبِ للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بقي لِحيٍّ من بني كنانةَ من عهدهم تسعةُ أشهر فأتم إليهم عهدَهم[2] ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾ تعليلٌ لوجوب الامتثال وتنبيهٌ على أن مراعاةَ حقوقِ العهدِ من باب التقوى وأن التسويةَ بين الوفيِّ والغادر منافيةٌ لذلك وإن كان المعاهَدُ مشركًا.

﴿**فإذا انسلخ**﴾ أي انقضى، استُعير له من الانسلاخ[3] الواقع بين الحيوان وجلدِه والأغلبُ إسناده إلى الجلد، والمعنى إذا انقضى ﴿**الأشهر الحرم**﴾ وانفصلت عما كانت مشتملةً عليه ساترةً له انفصالَ الجلدِ عن الشاة وانكشف عنه انكشافَ الحجاب عما وراءَه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال: أهلَلْنا شهرَ كذا أي دخلنا فيه ولبِسناه فنحن نزداد كلَّ ليلة لباسًا منه إلى مُضيِّ نصفِه ثم نسلَخُه عن أنفسنا جزءًا فجزءًا حتى نسلَخَه عن أنفسنا كلَّه فينسلِخ وأنشد: [الطويل]

إذا ما سلختُ الشهرَ أهلَلْتُ مثلَه ... كفى قاتلًا سَلْخي الشهورَ وإهلالي[4]

---

(١) قرأ بها: عطاء بن السائب، والكوفي، وعكرمة، وأبو زيد، وابن السميفع.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦)، والبحر المحيط (٥/ ٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٧٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٧١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٣)، وتفسير الرازي (١٥/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٧/ ١٥٠) برقم (٥٥٦٨).

(٣) نعم هو في الأصل كذلك استعارة من سلخ جلد الحيوان، أي إزالته، ثم شاع هذا الإطلاق حتى صار حقيقة، وهو استعارة تبعية بالنظر إلى اشتقاق اللفظ المستعار.
ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٥) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها، والتحرير والتنوير (١٠/ ١١٤).

(٤) البيت بلا نسبة في لسان العرب (سلخ)، وتهذيب اللغة (٧/ ١٧١)، وتاج العروس (سلخ)، وأساس البلاغة (سلخ).

وتحقيقُه أن الزمانَ محيطٌ بما فيه من الزمانيات مشتملٌ عليه اشتمالَ الجلد للحيوان وكذا كلُّ جزءٍ من أجزائه الممتدة من الأيام والشهورِ والسنين فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه، وفيه مزيدُ لطفٍ لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهرَ كانت حِرْزًا لأولئك المعاهَدين عن غوائل أيدي المسلمين فنيط قتالُهم بزوالها والمرادُ بها إما ما مر من الأشهر الأربعةِ فقط، ووضعُ المظهر موضعَ المضمرِ ليكون ذريعةً إلى وصفها بالحُرمة تأكيدًا لما يُنبئ عنه إباحةُ السياحةِ من حرمة التعرضِ لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناءِ بشأنها، أو هي مع ما فُهم من قوله تعالى: **﴿فأتموا إليهم عهدَهم إلى مدتهم﴾** من تتمة مدةٍ بقِيَتْ لغير الناكثين. فعلى الأول يكون المرادُ بالمشركين في قوله تعالى: **﴿فاقتلوا المشركين﴾** الناكثين خاصةً فلا يكون قتالُ البالغين مفهومًا من عبارة النصِّ من دِلالته، وعلى الثاني مفهومًا من العبارة إلا أنه يكون الانسلاخُ وما نيط به من القتال حينئذ شيئًا فشيئًا لا دفعةً واحدةً كأنه قيل: فإذا تم ميقاتُ كلِّ طائفةٍ فاقتُلوهم، وحملُها على الأشهر المعهودةِ الدائرةِ في كل سنة لا يساعده النظمُ الكريمُ وأما أنه يستدعي بقاءَ حُرمةِ القتالِ فيها، إذ ليس فيما نزل بعدُ ما ينسخها، فلا اعتدادَ به لا لأنها نُسخت بقوله تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ﴾** [الأنفال، الآية ٣٩] كما تُوهم فإنه رجمٌ بالغيب لأنه إن أريد به ما في سورة الأنفال فإنه نزل عَقيبَ غزوةِ بدرٍ وقد صح أن المرادَ بالذين كفروا في قوله تعالى: **﴿قل للذين كفروا﴾** [الأنفال، الآية ٣٨] أبو سفيانَ وأصحابُه وقد أسلم في أواسط رمضانَ عام الفتحِ سنة ثمانٍ وسورةُ التوبةِ إنما نزلت في شوالٍ سنةَ تِسعٍ وإن أريد ما في سورة البقرة فإنه أيضًا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ما قبله من قوله تعالى: **﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾** [البقرة: ١٩١] أي من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف يُنسخ به ما ينزِل بعده؟ بل لأن انعقادَ الإجماعِ على انتساخها كافٍ في الباب من غير حاجةٍ إلى كون سندِه منقولًا إلينا. وقد صح أن النبيَّ ﷺ حاصرَ الطائفَ لعشرٍ بقِين من المحرم **﴿حيث وجدتموهم﴾** من حِلّ وحِرْم **﴿وخذوهم﴾** أي أيسروهم والأَخيذُ: الأسير **﴿واحصروهم﴾** أي قيّدوهم أو امنعوهم من التقلب في البلاد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: حِيلوا بينهم وبين المسجدِ الحرام **﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾** أي كلَّ ممرٍ ومُجتازٍ يجتازون منه في أسفارهم، وانتصابُه على الظرفية أي ارصُدوهم وارقبُوهم حتى لا يُمرّوا به، وفائدتُه على التفسير الثاني دفعُ احتمالِ أن يُراد بالحصر المحاصرةُ المعهودة.

﴿فإن تابوا﴾ عن الشرك بالإيمان بعد ما اضطُرّوا بما ذكر من القتل والأسر

والحصر ﴿وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزكاة﴾ تصديقًا لتوبتهم وإيمانِهم، واكْتُفي بذكرهما عن ذكر بقيةِ العبادات لكونهما رأسَي العباداتِ البدنية والمالية ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فدعوهم وشأنَهم ولا تتعرَّضوا لهم بشيء مما ذكر ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر ويثبتهم بإيمانهم وطاعاتِهم وهو تعليل للأمر بتخلية السبيل.

﴿وإن أحد﴾ شروعٌ في بيان حكم المتصدِّين لمبادي التوبة من سماع كلامِ الله تعالى والوقوفِ على شعائر الدين إثرَ بيانِ حُكم التائبين عن الكفر والمُصِرِّين عليه وهو مرتفعٌ بشرط مضمرٍ يفسِّره الظاهرُ لا بالابتداء لأن إنْ لا تدخل إلا على الفعل ﴿من المشركين استجارك﴾ بعد انقضاءِ الأجل المضروبِ أي سألك أن تُؤَمِّنه وتكونَ له جارًا ﴿فأجِرْه﴾ أي أمِّنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبرَه ويطّلع على حقيقة ما يدعو إليه. والاقتصارُ على ذكر السماعِ لعدم الحاجةِ إلى شيء آخرَ في الفهم لكونهم من أهل اللُّسنِ والفصاحةِ، و(حتى) سواءٌ كانت للغاية أو للتعليل متعلقةٌ بما بعدها لا بقوله تعالى: ﴿استجارك﴾ لأنه يؤدّي إلى إعمال حتى في المضمر وذلك مما لا يكاد يرتكب في غير ضرورةِ الشعر كما في قوله: [الوافر]

فـلا والله لا يُـلـفـي أنـاسٌ فـتـىً حـتـاك يـا ابـنَ أبـي يـزيـدِ[1]

كذا قيل إلا أن تعلّق الإجارةِ بسماع كلامِ الله تعالى بأحد الوجهين يستلزمُ تعلقَ الاستجارةِ أيضًا بذلك أو بما في معناه من أمور الدينِ، وما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه أتاه رجلٌ من المشركين فقال: إن أراد الرجلُ منا أن يأتي محمدًا بعد انقضاء هذا الأجلِ لسماع كلامِ الله تعالى أو لحاجة قتل؟ قال: لا لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارَك فأجِرْه﴾[2] ... إلخ فالمرادُ بما فيه من الحاجة هي الحاجةُ المتعلقةُ بالدين لا ما يعمها وغيرَها من الحاجات الدنيوية كما ينبئ عنه قوله: أن يأتي محمدًا، فإن من يأتيه عليه السلام إنما يأتيه للأمور المتعلقةِ بالدين ﴿ثم أبلغه﴾ بعد استماعِه له إن لم يؤمِنْ ﴿مأمنه﴾ أي مسكنَه [الذي][3] يأمَن فيه وهو دارُ قومِه ﴿ذلك﴾ يعنى الأمرَ بالإجارة وإبلاغَ المأمن ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يعلمون﴾ ما الإسلامُ وما حقيقتُه، أو قومٌ جَهَلَةٌ فلا بد من إعطاء الأمانِ حتى يفهموا

---

(١) البيت بلا نسبة في الجنى الداني، ص (٥٤٤)، وجواهر الأدب ص (٣٠٨)، وخزانة الأدب (٩/ ٤٧٤)، والدرر (٤/ ١١١)، ورصف المباني ص (١٨٥)، وشرح ابن عقيل ص (٣٥٥)، والمقاصد النحوية (٣/ ٢٦٥)، والمقرب (١/ ١٩٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٢٣)، ويروى «زياد» بدل «يزيد».

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ١٣).

(٣) سقط في خ.

الحقَّ ولا يبقى لهم معذرة أصلًا. ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ شروعٌ في تحقيق حقيقةِ ما سبق من البراءة وأحكامِها المتفرِّعة عليها وتبيينِ الحكمة الداعيةِ إلى ذلك، والمرادُ بالمشركين الناكثون لأن البراءةَ إنما هي في شأنهم، والاستفهامُ إنكاريٌّ لا بمعنى إنكار الواقعِ كما في قوله تعالى ﴿كيف تكفرون بالله﴾ [البقرة: ٢٨] إلخ، بل بمعنى إنكار الوقوعِ ويكون من الكون التامِّ، وكيف في محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل: من الكون الناقصِ وكيف خبرُ يكون قُدّم على اسمه وهو عهدٌ لاقتضائه الصدارة، وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالًا من عهد ولو كان مؤخرًا لكان صفةً له أو بيكون عند من يجوز عملَ الأفعالِ الناقصة في الظروف، وعند متعلقٌ بمحذوف وقعَ صفةً لعهدٌ أو بنفسه لأنه مصدرٌ أو بيكون كما مر، ويجوزُ أن يكون الخبرُ للمشركين وعند كما ذكر أو متعلقٌ بالاستقرار الذي تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبرُ عند الله، وللمشركين إما تبيينٌ وإما حالٌ من عهدٌ وإما متعلقٌ بيكون أو بالاستقرار الذي تعلق به الخبرُ ولا يُبالىٰ بتقديم معمولِ الخبرِ على الاسم لكونه حرفَ جرّ، وكيف على الوجهين الأخيرين نُصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما في صورة الكون التام وهو الأولى لأن في إنكار ثبوتِ العهد في نفسه من المبالغة ما ليس في إنكار ثبوتِه للمشركين، لأن ثبوتَه الرابطي فرعُ ثبوتِه العيني فانتفاءُ الأصلِ يوجب انتفاءَ الفرعِ رأسًا، وفي توجيه الإنكارِ إلى كيفية ثبوتِ العهدِ من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى ثبوته لأن كلَّ موجودٍ يجب أن يكون وجودُه على حال من الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحوال وجودِه فقد انتفى وجودُه على الطريق البرهاني أي أو في أي حالٍ يوجد لهم عهدٌ معتدٌ به؟ ﴿عند الله وعند رسوله﴾ يستحِقُّ أن يُراعىٰ حقوقُه ويُحافَظ عليه إلى إتمام المدة ولا يُتعرَّضَ لهم بحسَبه قتلًا ولا أخذًا، وأما أن يأمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيلَ إلى اعتباره أصلًا إذ لا دخلَ لعهدهم في ذلك الأمنِ قطعًا وإن كان مرعيًا عند الله تعالى وعند رسولِه كعهد غيرِ الناكثين، وتكريرُ كلمة عند للإيذان بعدم الاعتدادِ به عند كلٍّ منهما على حدة ﴿إلا الذين﴾ استدراكٌ من النفي المفهومِ من الاستفهام المتبادرِ شمولُه لجميع المعاهَدين أي لكون الذين ﴿عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ وهم المستثنَوْن فيما سلف، والتعرُّضُ لكون المعاهَدةِ عند المسجدِ الحرامِ لزيادة بيانِ أصحابِها والإشعارِ بسبب وكادتِها، ومحلُّه الرفعُ على الابتداء خبره.

قوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ والفاءُ لتضمنه معنى الشرط وما إما مصدريَّة منصوبةُ المحلِّ على الظرفية بتقديرُ المضافِ أي فاستقيموا لهم مدةَ

استقامتِهم لكم و[١] إما شرطيةٌ منصوبةُ المحلِّ على الظرفية الزمانية أي أيّ زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم، أو مرفوعةٌ على الابتداء والعائدُ محذوفٌ أي أيُّ زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل: الاستثناءُ متصلٌ محلُّه النصبُ على الأصل أو الجرُّ على البدل من المشركين والمرادُ بهم الجنسُ لا المعهودُ، وأيًا ما كان فحكمُ الأمر بالاستقامة ينتهي بانتهاء مدةِ العهدِ لأن استقامتَهم التي وُقّت بوقتها الاستقامةُ المأمورُ بها عبارةٌ عن مراعاة حقوقِ العهدِ، وبعد انقضاءِ مدتِه لا عهدٌ ولا استقامةٌ فصار عينَ الأمرِ الواردِ فيما سلف حيث قيل: فأتِمُّوا إليهم عهدَهم إلى مدتهم خلا أنه قد صرّح به هناك مع كونه معتبرًا قطعًا وهو تقييدُ الإتمامِ المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء **﴿إن الله يحب المتقين﴾** تعليلٌ للأمر بالاستقامة وإشعارٌ بأن القيامَ بموجب العهدِ من أحكام التقوى كما مر **﴿كيف﴾** تكريرٌ لاستنكار ما مر من أن يكون للمشركين عهدٌ حقيقٌ بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسولِه ﷺ، وأما ما قيل من أنه لاستبعاد ثباتِهم على العهد فكما ترى لأن ما يُذكر بصدد التعليلِ للاستبعاد عن عدمِ ثباتِهم على العهد لا أنه شيءٌ يستدعيه، وإنما أعيد الاستنكارُ والاستبعادُ تأكيدًا لهما وتمهيدًا لتعداد العللِ الموجبةِ لهما لإخلال تخلّلِ ما في البين من الارتباط والتقريب، وحذفُ الفعل المستنكَر للإيذان بأن النفسَ مستحضِرةٌ له مترقِّبةٌ لورود ما يوجب استنكارَه لا لمجرد كونِه معلومًا كما في قوله: [الطويل]

وخبّرتماني أنما الموتُ بالقُرى ... فكيف وهاتا هضبةٌ وقليبُ[٢]

فإنه علةٌ مصححةٌ لا مرجِّحةٌ أي كيف يكون لهم عهدٌ معتدٌّ به عند الله تعالى و[عند][٣] رسولِه ﷺ **﴿وإن يظهروا عليكم﴾** أي وحالُهم أنهم إن يظهروا عليكم أي يظفَروا بكم **﴿لا يرقُبوا فيكم﴾** أي لا يُراعوا في شأنكم، وأصلُ الرقوبِ النظرُ بطريق الحفظِ والرعايةِ ومنه الرقيبُ ثم استُعمل في مطلق الرعايةِ، والمراقبةُ أبلغُ منه كالمراعاة، وفي نفي الرقوبِ من المبالغة ما ليس في نفيها **﴿إلاًّ ولا ذمة﴾** أي حلفًا وقيل: قرابةً ولا عهدًا، أو حقًا يُعاب على إغفاله مع ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيقِ، يعني أن وجوبَ مراعاةِ حقوقِ العهد على كل من المتعاهدين مشروط

---

(١) زاد في خ: مصدرية.

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي في الأصمعيات ص (٩٧)، والحيوان (٣/ ٥٦)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٦٩)، والكتاب (٣/ ٤٨٧)، ولسان العرب (١٥/ ٤٥٤)، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص (٢٨٤)، والمقتضب (٢/ ٢٨٨، ٤/ ٢٧٧).

(٣) سقط في خ.

بمراعاة الآخَر لها فإذا لم يُراعِها المشركون فكيف تراعونها؟ على منوال قولِ من قال: [البسيط]

عــلامَ تُـقـبـلُ مـنـهـم فـديـةٌ وهــمُ   لا فـضـةً قـبِـلـوا مـنّـا ولا ذهـبـا[١]

وقيل: الإلُّ من أسماء الله عز وجل أي لا يُراعوا حقَّ الله تعالى وقيل: الجِوار ومآلهُ الحِلفُ لأنهم إذا تماسحوا[٢] وتحالفوا رفعوا به أصواتَهم لتشهيره، ولما كان تعليقُ عدمِ رعايةِ العهدِ بالظفر موهمًا للرعاية عند عدمِه كُشف عن حقيقة شؤونِهم الجليةِ والخَفية بطريق الاستئنافِ وبين أنهم في حالة العجزِ أيضًا ليسوا من الوفاء في شيء، وأن ما يُظهرونه مداهنةٌ لا مهادنه فقيل:

﴿**يرضونكم بأفواههم**﴾ حيث يُظهرون الوفاءَ والمصافاةَ ويعِدون لكم بالإيمان والطاعةِ ويؤكدون ذلك بالأَيمان الفاجرةِ ويتعللون عند ظهورِ خلافِه بالمعاذير الكاذبة، ونسبةُ الإرضاءِ إلى الأفواه للإيذان بأن كلامَهم مجردُ ألفاظٍ يتفوّهون بها من غير أن يكون لها مِصداقٌ في قلوبهم ﴿**وتأبى قلوبهم**﴾ ما يفيد كلامُهم ﴿**وأكثرهم فاسقون**﴾ خارجون عن الطاعة فإن مراعاةَ حقوقِ العهد من باب الطاعةِ متمرِّدون ليست لهم مروءةٌ رادعةٌ ولا عقيدةٌ وازعةٌ ولا يتسترون كما يتعاطاه بعضُهم ممن يتفادىٰ عن الغدر ويتعفّف عما يجرُّ أُحدوثةَ السوء. ﴿**اشتروا بآيات الله**﴾ بآياته الآمرةِ بالإيفاء بالعهود والاستقامةِ في كل أمرٍ أو[٣] بجميع آياتِه فيدخُل فيها ما ذكر دخولًا أوليًا أي تركوها وأخذوا بدلها ﴿**ثمنًا قليلًا**﴾ أي شيئًا حقيرًا من حُطام الدنيا وهو أهواؤُهم وشهواتُهم التي اتبعوها، أو ما أنفقه أبو سفيانَ من الطعام وصَرَفه إلى الأعراب ﴿**فصدوا**﴾ أي عدَلوا ونكبوا، من صدّ صدودًا أو صرَفوا غيرَهم من صدّ صدًا والفاء للِدلالة على سببية الاشتراءِ لذلك ﴿**عن سبيله**﴾ أي الدينِ الحق الذي لا محيدَ عنه، والإضافةُ للتشريف أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصُدّون الحجّاجَ والعُمّارَ عنه ﴿**إنهم ساء ما كانوا يعملون**﴾ أي بئس ما كانوا يعملونه أو عملُهم المستمرّ، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ وقد جُوِّز أن تكون [كلمةُ][٤] ساء على أصلها من التصرف لازمةً بمعنى قبُح، أو متعديةً والمفعولُ محذوفٌ أي ساءهم الذي يعملونه أو عملُهم. وقوله عز وعلا: ﴿**لا يرقُبون في مؤمن إلاً ولا ذمة**﴾ ناعٍ عليهم عدمَ مراعاةِ حقوقِ عهدِ المؤمنين على الإطلاق فلا تكرارَ، وقيل: هذا في اليهود أو في الأعراب المذكورين

---

(١) ينظر: روح المعاني (١٠/ ٥٦).
(٢) تماسح القوم: تبايعوا فتصافقوا.
(٣) في خ: و.
(٤) سقط في خ.

ومَنْ يحذو حذوهم، وأما ما قيل من أنه تفسير لقوله تعالى: ﴿**يعملون**﴾ أو دليلٌ على ما هو مخصوصٌ بالذم فمُشعِرٌ باختصاص الذمِّ والسوء بعملهم هذا دون غيره ﴿**وأولئك**﴾ الموصوفون بما عُدّد من الصفات السيئةِ ﴿**هم المعتدون**﴾ المجاوزون الغايةَ القُصوى من الظلم والشرارة ﴿**فإن تابوا**﴾ أي عما هم عليه من الكفر وسائرِ العظائم، والفاءُ للإيذان بأن تقريعَهم بما نُعيَ عليهم من مساوئ أعمالِهم مزجرةٌ عنه ومِظنةٌ للتوبة ﴿**وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ أي التزموهما وعزموا على إقامتهما ﴿**فإخوانكم**﴾ أي فهم إخوانُكم وقوله تعالى: ﴿**في الدين**﴾ متعلقٌ بـ (إخوانُكم) لما فيه من معنى الفعلِ أي لهم ما لكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملةَ الإخوان، وفيه من استمالتهم واستجلابِ قلوبِهم ما لا مزيدَ عليه، والاختلافُ بين جوابِ هذه الشرطيةِ وجوابِ التي مرت من قبلُ مع اتحاد الشرطِ فيهما لما أن الأولى سيقت إثرَ الأمرِ بالقتل ونظائرِه فوجب أن يكون جوابُها أمرًا بخلافِ ذلك وهذه سيقت بعد الحُكم عليهم بالاعتداء وأشباهِه فلا بد من كون جوابِها حُكمًا بخلافه ألبتة ﴿**ونفصل الآيات**﴾ أي نبيّنها، والمرادُ بها إما ما مر من الآيات المتعلقةِ بأحوال المشركين من الناكثين وغيرِهم وأحكامِهم حالتي الكفرِ والإيمان وإما جميعُ الآياتِ فيندرج فيها تلك الآياتُ اندراجًا أوليًا ﴿**لقوم يعلمون**﴾ أي ما فيها من الأحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراضٌ للحث على التأمل في الأحكام المندرجةِ في تضاعيفها والمحافظةِ عليها.

﴿**وإن نكثوا**﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿**فإن تابوا**﴾ أي وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿**أيمانهم من بعد عهدهم**﴾ الموثقِ بها وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة إلى الفعل حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**وإن يظهروا عليكم لا يرقُبوا**﴾ الآية [التوبة: ٨] أو ثبتوا على ما هم عليه من النَّكْث لا أنهم ارتدوا بعد الإيمان كما قيل ﴿**وطعنوا في دينكم**﴾ قدَحوا فيه بصريح التكذيبِ وتقبيحِ الأحكام ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر**﴾ أي فقاتلوهم، وإنما أوثر ما عليه النظمُ الكريم للإيذان بأنهم صاروا بذلك ذوي رياسةٍ وتقدم في الكفر أحقّاءَ بالقتل والقتال، وقيل: المرادُ بأئمتهم رؤساؤُهم وصناديدُهم، وتخصيصُهم بالذكر إما لأهمية قتلِهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنةً لها أو للدِلالة على استئصالهم، فإن قتلَهم غالبًا يكون بعد قتلِ مَنْ دونهم، وقرئ (أئمة) بتحقيق الهمزتين على الأصل والأفصحُ إخراج الثانية بينَ بينَ وأما التصريحُ بالياء فلحنٌ ظاهرٌ عند الفراء ﴿**إنهم لا أيمان لهم**﴾ أي على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدّون نقضَها محذورًا وإن أجْرَوها على ألسنتهم، وإنما علّق النفيُ بها كالنَكْث فيما سلف لا بالعهد المؤكدِ بها لأنها العُمدةُ في المواثيق، وجعلُ

الجملة تعليلًا للأمر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعنِ لأن حالَهم في ألا أيمانَ لهم حقيقةً بعد النكثِ والطعن كحالهم قبل ذلك وحملُه على معنى عدم بقاءِ أيمانِهم بعد النَّكثِ والطعن مع أنه لا حاجةَ إلى بيانه خلاف الظاهرِ، ولعل الأولى جعلُها تعليلًا لمضمون الشرطِ كأنه قيل: وإن نكثوا وطعَنوا كما هو المتوقَّعُ منهم إذ لا أيمانَ لهم حقيقةً حتى لا ينكُثوها أو لاستمرار القتالِ المأمورِ به المستفادِ من سياق الكلامِ، كأنه قيل: فقاتلوهم إلى أن يؤمنوا إنهم لا أَيمانَ لهم حتى يُعقدَ معهم عهدٌ آخر، وقرئ بكسر الهمزة[1] على أنه مصدر بمعنى إعطاءِ الأمانِ أي لا سبيلَ إلى أن تُعطوهم أمانًا بعد ذلك أبدًا وأما العكسُ كما قيل فلا وجه له لإشعاره بأن معاهدتَهم معنا على طريقة أن يكون [إعطاءُ][2] الأمانِ من قِبَلهم وذلك بيِّنُ البُطلان أو بمعنى الإسلام ففي كونه تعليلًا للأمر بالقتال إشكالٌ بل استحالةٌ لأنه إن حُمل على انتفاء الإسلامِ مطلقًا فهو بمعزل عن العِلّية للقتال أو للأمر به كما قبل النكثِ والطعن، وإن حُمل على انتفائه فيما سيأتي فلا يلائم جعلَ الانتهاءِ غايةً للقتال فيما سيجيء، فالوجهُ أن يُجعل تعليلًا لما ذُكر من مضمون الشرطِ كأنه قيل: إن نكثوا وطعَنوا وهو الظاهرُ من حالهم لأنه لا إسلامَ لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنسِ أَيمانهم وعن الطعن في دينكم ﴿**لعلهم ينتهون**﴾ متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿**فقاتلوهم**﴾ أي قاتلوهم إرادةَ أن ينتهوا أي ليكن غرضُكم من القتال انتهاءَهم عما هم عليه من الكفر وسائرِ العظائمِ التي يرتكبونها لا إيصالَ الأذية بهم كما هو ديدنُ المؤذِين.

﴿**ألا تقاتلون**﴾ الهمزةُ الداخلةُ على انتفاء مقاتَلتِهم للإنكار والتوبيخ تدل على تخصيصهم على المقاتلة بطريق حملِهم على الإقرار بانتفائها كأنه أمرٌ لا يمكن أن يُعترف به طائعًا لكمال شناعتِه فيلجأون إلى ذلك ولا يقدرون على الإقرار به فيختارون المقاتلة ﴿**قومًا نكثوا أيمانهم**﴾ التي حلَفوها عند المعاهدة على ألا يعاوِنوا عليهم فعاوَنوا بني بكرٍ على خُزاعة ﴿**وهموا بإخراج الرسول**﴾ من مكةَ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة حسبما ذكر في قوله تعالى ﴿**وإذ يمكرُ بك الذين كفروا**﴾ [الأنفال: ٣٠] فيكون نعيًا عليهم جنايتهم القديمة وقيل: هم اليهودُ نكثوا عهدَ الرسولِ ﷺ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، والحسن، وعطاء، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٥)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨١)، والتيسير للداني ص (١١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٨٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٢).

(٢) سقط في خ.

وهموا بإخراجه من المدينة ﴿وهم بدءُوكم﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أول مرة﴾ لأن رسولَ الله ﷺ جاءهم أولًا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المُحاجّة لعجزهم عنها إلى المقاتلة أو بدأوا بقتال خزاعةَ حلفاءِ النبي ﷺ لأن إعانة بني بكر عليهم قتالٌ معهم ﴿أتخشونهم﴾ أي أتخشون أن ينالَكم منهم مكروهٌ حتى تتركوا قتالَهم، وبّخهم أولًا بترك مقاتلتِهم وحضَّهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبةَ فيها ويحقق أن مَنْ كان على تلك الصفاتِ السيئةِ حقيقٌ بألا تترك مصادمتُه ويوبَّخَ من فرّط فيها ﴿فالله أحق أن تخشَوه﴾ بمخالفة أمرِه وترك قتالِ أعدائهِ ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإن قضيةَ الإيمانِ تخصيصُ الخشيةِ به تعالى وعدمُ المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد ما لا يخفى.

من أحكام الجهاد

﴿قاتلوهم﴾ تجريدٌ للأمر بالقتال بعد التوبيخ على تركه ووعدٌ بنصرهم وبتعذيب أعدائِهم وإخزائِهم وتشجيعٌ لهم ﴿يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم﴾ قتلًا وأسرًا ﴿وينصُرْكم عليهم﴾ أي يجعلُكم جميعًا غالبين عليهم أجمعين ولذلك أُخّر عن التعذيب والإخزاء ﴿ويشفِ صدور قوم مؤمنين﴾ ممن لم يشهد القتالَ وهم خُزاعةُ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بطونٌ من اليمن وسبإٍ قدِموا مكةَ فأسلموا فلقُوا من أهلها أذىً كثيرًا فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال عليه والسلام: «أبشِروا فإن الفرجَ قريب»[1] ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ بما كابدوا من المكاره والمكايدِ ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون فكان إخبارُه عليه الصلاة والسلام بذلك قبل وقوعِه معجزةً عظيمة ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ كلامٌ مستأنفٌ ينبئ عما سيكون من بعض أهلِ مكةَ من التوبة المقبولةِ بحسب مشيئتِه تعالى المبنيةِ على الحِكَم البالغةِ فكان كذلك حيث أسلم ناسٌ منهم وحسُن إسلامُهم.

وقرئ بالنصب[2] بإضمار (أن) ودخولُ التوبةِ في جملة ما أجيب به الأمرُ بحسب المعنى فإن القتالَ كما هو سببٌ لفشل شوكتِهم وإلانةِ شَكيمتِهم فهو سبب للتدبر في أمرهم وتوبتِهم من الكفر والمعاصي وللاختلاف في وجه السببية غُيِّر السبكُ والله تعالى أعلم.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٢٣٩).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، والأعرج، وزيد بن علي، وعمرو ابن عبيد، وعمرو بن فائد، ورويس، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٤).

﴿والله﴾ إيثارُ إظهارِ الجلالة على الإضمار لتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة ﴿عليم﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يأمر إلا بما فيه حكمةٌ ومصلحةٌ ﴿أم حسِبتم﴾ أم منقطعةٌ جيء بها للدِلالة على الانتقال من التوبيخ السابقِ إلى آخَرَ وما فيها من همزة الاستفهام الإنكاريِّ توبيخٌ لهم على الحُسبان المذكورِ أي بل أحسِبتم ﴿أن تتركوا﴾ على ما أنتم عليه ولا تُؤمروا بالجهاد ولا تُبْتلوا بما يُمحِّصكم، والخطابُ إما لمن شق عليهم القتالُ من المؤمنين أو للمنافقين ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ الواو حالية ولمّا للنفي مع التوقع.

والمرادُ من نفي العلم نفيُ المعلومِ بالطريق البرهاني إذ لو شُمَّ رائحةُ الوجود لعُلم قطعًا فلما لم يُعلم لزِم عدمُه قطعًا أَي أم حسبتم أن تتركوا، والحالُ أنه لم يتبين الخُلّصُ من المجاهدين منكم من غيرهم، وما في لما من التوقع منبِّهٌ على أن ذلك سيكون، وفائدةُ التعبير عما ذكر من عدم التبينِ بعدم علم الله تعالى أن المقصودَ هو التبينُ من حيث كونُه متعلقًا للعلم ومدارًا للثواب، وعدمُ التعرّضِ لحال المقصّرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادةِ أكرم الأكرمين.

﴿ولم يتخذوا﴾ عطف على جاهدوا داخلٌ في حيز الصلةِ أو حال من فاعله أي جاهدوا حالَ كونِهم غيرَ متّخذين ﴿من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي بِطانةً وصاحب سِرّ، وهو الذي تُطلعه على ما في ضميرك من الأسرار الخفيةِ، من الولوج وهو الدخولُ، ومن دون الله متعلقٌ بالاتخاذ إن أُبقيَ على حاله أو مفعولٌ ثانٍ إن جُعل بمعنى التصيير ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي بجميع أعمالِكم وقرئ[1] على الغَيبة وهو تذييلٌ يُزيح ما يُتوَهّم من ظاهر قوله تعالى: ﴿ولما يعلم﴾ . . . إلخ، أو حال متداخلةٌ من فاعله أو من مفعوله، والمعنى ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم والحالُ أنه يعلم جميعَ أعمالِكم لا يخفى عليه شيءٌ منها.

﴿ما كان للمشركين﴾ أي ما صح وما استقام لهم على معنى نفي الوجودِ والتحققِ، لا نفيِ الجواز كما في قوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخُلوها إلا خائفين﴾ [البقرة، الآية ١١٤] أي ما وقع وما تحقق لهم ﴿أن يعمروا﴾ عمارةً معتدًا بها ﴿مساجد الله﴾ أي المسجدَ الحرامَ، وإنما جُمع لأنه قِبلةُ المساجد وإمامُها فعامرُه كعامرها أو لأن كلَّ ناحيةٍ من نواحيه المختلفةِ الجهات مسجدٌ على حياله بخلاف

---

(١) قرأ بها: يعقوب، والحسن، ورويس، وسلام.
ينظر: البحر المحيط (١٨/٥).

سائرِ المساجدِ إذ ليس في نواحيها اختلافُ الجهةِ، ويؤيده القراءةُ[1] بالتوحيد وقيل: ما كان لهم أن يعمُروا شيئًا من المساجد فضلًا عن المسجد الحرام الذي هو صدرُ الجنسِ، ويأباه أنهم لا يتصدَّوْن لتعمير سائرِ المساجدِ ولا يفتخرون بذلك، على أنه مبنيٌ على كون النفي بمعنى نفي الجوازِ واللياقةِ دون نفي الوجود ﴿**شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ أي بإظهار آثارِ الشركِ من نصب الأوثان حول البيتِ والعبادةِ لها فإن ذلك شهادةٌ صريحةٌ على أنفسهم بالكفر وإن أبَوْا أن يقولوا: نحن كفارٌ كما نقل عن الحسن رضي الله عنه، وهو حالٌ من الضمير في يعمُروا أي محالٌ أن يكون ما سمَّوْه عمارةً عمارةَ بيتِ الله مع ملابستهم لما ينافيها ويُحبِطها من عبادة غيرِه تعالى فإنها ليست من العمارة في شيء.

وأما ما قيل من أن المعنى ما استقام لهم أن يجمَعوا بين أمرين متنافيين: عمارةِ بيتِ الله تعالى وعبادةِ غيرِه تعالى فليس بمُعربٍ عن كُنه المرام، فإن عدمَ استقامةِ الجمعِ بين المتنافيَيْن إنما يستدعي انتفاءَ أحدِهما بعينه لا انتفاء العمارة الذي هو المقصود.

روي أن المهاجرين والأنصارَ أقبلوا على أُسارى بدرٍ يعيِّرونهم بالشرك وطفِق عليٌّ رضي الله تعالى عنه يوبِّخ العباسَ بقتال النبيِّ ﷺ وقطيعةِ الرحم وأغلَظ له في القول فقال العباس: تذكُرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال: ولكم محاسنُ؟ قالوا: نعم، إنا لنعمُر المسجدَ الحرام ونحجّب الكعبة ونسقي الحجيجَ ونفك العاني فنزلت[2] ﴿**أولئك**﴾ الذين يدّعون عمارةَ المسجدِ وما يضاهيها من أعمال البرِ مع ما بهم من الكفر ﴿**حبطت أعمالهم**﴾ أي التي يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورًا ﴿**وفي النار هم خالدون**﴾ لكفرهم ومعاصيهم، وإيرادُ الجملةِ الاسمية للمبالغة في الدلالة على الخلود.

والظرفُ متعلقٌ بالخبر قدم عليه للاهتمام به، ومراعاةِ الفاصلة، وكلتا الجملتين مستأنفةٌ لتقرير النفيِ السابق. الأولى من جهة نفيِ استتباعِ الثواب والثانيةُ من جهة نفي استدفاعِ العذاب.

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، وعاصم الجحدري، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٨٨)، والتيسير للداني ص (١١٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٨٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٧).

(٢) ذكره السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٦).

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ الكلامُ في إيراد صيغةِ الجمع كما مر فيما مر، خلا أن إرادةَ جميعِ المساجدِ وإدراجَ الحرامِ في ذلك غيرُ مخالفةٍ لمقتضى الحال، فإن الإيجابَ ليس كالسلب.

وقد قرئ[١] بالإفراد أيضًا والمرادُ هاهنا أيضًا قصرُ تحققِ العِمارةِ ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها ولياقتها أي إنما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارةً يُعتدّ بها **﴿من آمن بالله﴾** وحده **﴿واليوم الآخر﴾** بما فيه من البعد والحساب والجزاءِ حسبما نطَق به الوحيُ **﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾** على ما علم من الدين فيندرجُ فيه الإيمانُ بنبوة النبي ﷺ حتمًا وقيل: هو مندرجٌ تحت الإيمانِ بالله خاصةً فإن أحدَ جُزْأي كلمتي الشهادة علمٌ للكل أي إنما يعمُرها مَنْ جمع هذه الكمالاتِ العلميةَ والعمليةَ، والمرادُ بالعمارة ما يعم مَرَمَّةَ ما استرمّ منها وقمُّها[٢] وتنظيفُها وتزيينُها بالفُرُش وتنويرُها بالسُّرُج وإدامةُ العبادة والذكرُ ودراسةُ العلوم فيها ونحوُ ذلك وصيانتُها مما لم تُبنَ له كحديث الدنيا. وعن رسول الله ﷺ: «**الحديثُ في المسجد يأكلُ الحسناتِ كما تأكل البهيمةُ الحشيش**»[٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «**قال الله تعالى: «إن بيوتي في أرضي المساجدُ وإن زوّاري فيها عُمّارُها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحقّ على المَزورِ أن يكرم زائره**»[٤] وعنه عليه الصلاة والسلام: «**من ألِفَ المسجدَ ألِفَه الله تعالى**»[٥] وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتم الرجلَ يعتادُ المساجدَ**

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وحماد بن أبي سلمة، وعاصم الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٧٩).

(٢) قمَّ البيت: كَنَسه. ورمَّ الشيء: أصلحه.

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٥٢) رقم (٣٩٦): لم أقف له على أصل.

(٤) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥٧): غريب. ا هـ. وأخرجه الطبراني في معجمه (٦/ ٢٥٣، ٢٥٤) رقم (٦١٣٩) من طريق يحيى بن إسحاق التستري عن عامر بن سيار وعن سعيد بن زربي عن ثابت عن أبي عثمان عن سلمان، فذكره بنحوه.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير وأحد إسناديه رجاله رجال الصحيح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٣٩٢)، وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير في تفسيريهما، وإلى البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن ميمون الأودي- رضي الله عنه- قال: أخبرنا أصحاب رسول الله ﷺ .....فذكره.

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»: (٧/ ١٩٧) رقم (٦٣٧٩)، وابن عدي في الكامل: (٤/ ١٤٧٠) من حديث عبد الله بن لهيعة، عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، فذكره.
ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٢/ ٢٦) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة، ونقل =

فاشهدوا له بالإيمان»[1] وعن أنس رضى الله عنه: «من أسرج في مسجد سِراجًا لم تزل الملائكةُ وحملةُ العرشِ تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤُه»[2] ﴿**ولم يخش**﴾ في أمور الدين ﴿**إلا الله**﴾ فعمِل بموجب أمرِه ونهيه غيرَ آخذٍ له في الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدمُ الخشية عند القتال ونحو ذلك، وأما الخوفُ الجِبِلِّيُّ[3] من الأمور المَخوفةِ فليس من هذا الباب ولا مما يدخُل تحت التكليفِ والخطاب.

وقيل: كانوا يخشَوْن الأصنام ويرجونها فأريد نفيُ تلك الخشيةِ عنهم ﴿**فعسى أولئك**﴾ المنعوتون بتلك النعوتِ الجميلة ﴿**أن يكونوا من المهتدين**﴾ إلى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالبِ العليةِ، وإبرازُ اهتدائِهم مع ما بهم من الصفات السنيةِ في معرِض التوقعِ لقطع أطماعِ الكفرةِ عن الوصول إلى مواقف الاهتداء والانتفاعِ بأعمالهم التي يحسَبون أنهم في ذلك محسنون، ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون.

فإن المؤمنين، مع ما بهم من هذه الكمالاتِ، إذا كان أمرُهم دائرًا بين لعل وعسى، فما بالُ الكفرة وهم هُمْ، وأعمالهم أعمالُهم، وفيه لطفٌ للمؤمنين وترغيبٌ لهم في ترجيح جانبِ الخوفِ على جانب الرجاءِ ورفض الاعتذار بالله تعالى.

﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام**﴾ أي في الفضيلة وعلوِّ الدرجة ﴿**كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله**﴾ السقايةُ والعِمارةُ مصدران لا يتصور تشبيهُهما بالأعيان فلا بد من تقدير مضافٍ في أحد الجانبين أي أجعلتم

= ضعفه عن النسائي وابن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد وغيرهم، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٢)..

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٢) كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة حديث (٢٦١٧) وفي (٥/ ٢٧٧) كتاب التفسير: باب ومن سورة التوبة حديث (٣٠٩٣) وابن ماجه (١/ ٢٦٣) كتاب المساجد: باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة حديث (٨٠٢) وأحمد (٣/ ٦٨) والدارمي (١/ ٢٧٨) كتاب الصلاة: باب المحافظة على الصلوات، وابن خزيمة (٢/ ٣٧٩) رقم (١٥٠٢) وابن حبان (١٧٢١) والحاكم (٢/ ٣٣٢) والبيهقي (٣/ ٦٦) كتاب الصلاة باب فضل المساجد، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٧) كلهم من طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به.
وقال الترمذي: حديث غريب حسن.
وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي وأخرجه أحمد (٣/ ٧٦) وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص٢٨٩) رقم (٩٢٣) عن الحسن بن موسى ثنا ابن لهيعة عن دراج به.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٩٣-٣٩٤)، وعزاه إلى سليم الرازي في الترغيب عن أنس رضي الله عنه - قال فذكره، كما عزاه إلى الطبراني في مسند الشاميين عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-فذكره بنحوه مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(٣) أي الخوف الطبيعي الذي من طبيعة الإنسان أي جبلته.

أهلَهما كمن آمن بالله . . . إلخ، ويؤيده قراءةُ من قرأ (سُقاةَ الحاجِّ وعمرةَ[١] المسجد الحرام) أو أجعلتموهما كإيمان من آمن. . . إلخ، وعلى التقديرين فالخطابُ إما للمشركين على طريقة الالتفاتِ وهو المتبادر من تخصيص ذكرِ الإيمانِ بجانب المشبَّهِ به، وإما لبعض المؤمنين المؤثِرين للسقاية والعِمارةِ ونحوِهما على الهجرة والجهادِ ونظائرِهما، وهو المناسبُ للاكتفاء في الرد عليهم ببيان عدمِ مساواتِهم عند الله للفريق الثاني وبيانِ أعظميةِ درجتِهم عند الله تعالى على وجه يُشعر بعدم حِرمانِ الأوّلين بالكلية، وجعلُ معنى التفضيلِ بالنسبة إلى زعم الكفرةِ لا يُجدي كثيرَ نفعٍ لأنه إن لم يُشعِرْ بعدم الحِرمانِ فليس بمُشعر بالحِرمان أيضًا، أما على الأول فهو توبيخٌ للمشركين ومدارُه على إنكار تشبيهِ أنفسِهم من حيث اتصافُهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظرِ عما هم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافُهم بالإيمان والجهاد، أو على إنكار تشبيهِ وصفيهم المذكورين في حد ذاتِهما مع الإغماض عن مقارنتهما للشرك بالإيمان والجهادِ، وأما اعتبارُ مقارنتِهما له كما قيل فيأباه المقامُ، كيف لا وقد بيِّن آنفًا حبوطُ أعمالِهم بذلك الاعتبارِ بالمرة وكونُها بمنزلة العدم، فتوبيخُهم بعد ذلك على تشبيههما بالإيمان والجهادِ ثم رَدُّ ذلك بما يُشعر بعدم حِرمانِهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير إليه، مما لا يساعده النظمُ التنزيليُّ ولو اعتُبر ذلك لما احتيج إلى تقرير إنكارِ التشبيهِ وتأكيدِه بشيء آخرَ إذ لا شيءَ أظهرُ بطلانًا من تشبيه المعدومِ بالموجود، فالمعنى أجعلتم أهلَ السقايةِ والعمارةِ في الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخرِ وجاهد في سبيله! أو أجعلتموهما في ذلك كالإيمان والجهادِ وشتانَ بينهما فإن السقايةَ والعمارةَ وإن كانتا في أنفسيهما من أعمال البرِّ والخيرِ لكنهما، وإن خَلَتا عن القوادح، بمعزل عن صلاحيةِ أن يُشبَّه أهلُهما بأهل الإيمان والجهادِ أو يُشَّبهَ نفسُهما بنفس الإيمان والجهادِ، وذلك قوله عز وجل: ﴿**لا يستوون عند الله**﴾ أي: لا يساوي الفريقُ الأول الثانيَ من حيث اتصافُ كلٍّ منهما بوصفيهما، ومن ضرورته عدمُ التساوي بين الوصفَين الأولين وبين الآخَرَين لأنه المدار في التفاوت بين الموصوفَين، وإسنادُ عدم الاستواءِ إلى الموصوفين، لأن الأهمَّ بيانُ تفاوتِهم، وتوجيهُ النفي هاهنا والإنكارُ فيما سلف إلى الاستواء والتشبيهِ مع أن دعوى المفتخِرين بالسقاية والعمارةِ من المشركين والمؤمنين إنما هي الأفضليةُ دون التساوي والتشابه، للمبالغة في الرد عليهم فإن نفيَ التساوي والتشابهِ نفيٌ للأفضلية بالطريق

---

(١) في خ: عمارة.

الأولى، والجملةُ استئنافٌ لتقرير الإنكارِ المذكورِ وتأكيدِه، أو حال من مفعولي الجَعل، والرابطُ هو الضميرُ كأنه قيل: أسوَّيتم بينهم حال كونِهم متفاوتين عنده تعالى! وقوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ حُكمٌ عليهم بأنهم مع ظلمهم بالإشراك ومعاداةِ الرسولِ ﷺ ضالون في هذا الجعلِ غيرُ مهتدين إلى طريق معرفةِ الحقِّ وتمييزِ الراجحِ من المرجوح، وظالمون بوضع كلٍّ منهما موضعَ الآخَر وفيه زيادةُ تقريرٍ لعدم التساوي بينهم.

وقوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم**﴾ استئنافٌ لبيان مراتبِ فضلِهم إثرَ بيانِ عدمِ الاستواءِ وضلالِ المشركين وظلمِهم. وزيادةُ الهجرةِ وتفصيلُ نوعي الجهاد للإيذان بأن ذلك من لوازم الجهادِ لا أنه اعتُبر بطريق التدارك أمرًا لم يُعتبر فيما سلف، أي هم باعتبار اتصافِهم بهذه الأوصافِ الجميلة ﴿**أعظم درجة عند الله**﴾ أي أعلى رتبةً وأكثرَ كرامةً ممن لم يتصف بها كائنًا مَنْ كان وإن حاز جميعَ ما عداها من الكمالات التي من جملتها السقايةُ والعمارة ﴿**وأولئك**﴾ أي المنعوتون بتلك النعوتِ الفاضلةِ، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد للدِلالة على بُعد منزلتِهم في الرفعة ﴿**هم الفائزون**﴾ المختصون بالفوز العظيمِ أو بالفوز المطلقِ كأن فوزَ مَنْ عداهم ليس بفوزٍ بالنسبة إلى فوزهم، وأما على الثاني فهو توبيخٌ لمن يؤثِر السِّقايةَ والعِمارةَ من المؤمنين على الهجرة والجهاد. روي أن عليًا قال للعباس رضي الله عنهما بعد إسلامِه: يا عمّ ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله ﷺ، فقال: ألستُ في أفضلَ من الهجرة أسقي حاجَّ بيتِ الله وأعمُر المسجدَ الحرام؟ فلما نزلت قال: ما أُراني إلا تاركَ سقايتِنا فقال عليه السلام: «**أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرًا**»[(١)]. وروى النعمانُ بن بشير قال: كنت عند منبرِ رسولِ الله ﷺ فقال رجلٌ: ما أبالي ألا أعملَ عملًا بعد أن أسقي الحاجَّ، وقال آخَرُ: ما أبالي ألا أعملَ عملًا بعد أن أعمُرَ المسجدَ الحرام، وقال آخرُ: الجهادُ في سبيل الله أفضلُ مما قلتم، فزجرهم عمرُ رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتَكم عند منبر رسولِ الله ﷺ وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليتم استفتيتُ رسولَ الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآيةَ[(٢)]، والمعنى أجعلتم أهلَ السقايةِ والعمارةِ من

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٦٨، ٢٦٩) عن معمر عن الحسن فذكره.
والثعلبي في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٩٩) كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١١١/ ١٨٧٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

المؤمنين في الفضيلة والرفعةِ كمن آمن بالله واليومِ الآخر وجاهد في سبيله، أو أجعلتموهما كالإيمان والجهادِ. وإنما لم يُذكر الإيمانُ في جانب المشبَّه مع كونه معتبَرًا فيه قطعًا، تعويلًا على ظهور الأمرِ وإشعارًا بأن مدارَ إنكارِ التشبيه هو السقايةُ والعمارةُ دون الإيمانِ، وإنما لم يُترك ذكرُه في جانب المشبَّه به أيضًا تقويةً للإنكار وتذكيرًا لأسباب الرجحانِ ومباديءِ الأفضلية وإيذانًا بكمال التلازمِ بين الإيمان وما تلاه، ومعنى عدمِ الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهرٌ وكذا أعظميةُ درجةِ الفريقِ الثاني، وأما قوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ فالمرادُ به عدمُ هدايتِه تعالى إلى معرفة الراجح من المرجوح وظلمُهم بوضع كل منهما موضعَ الآخر لا عدمُ الهدايةِ مطلقًا ولا الظلمُ عمومًا، والقصرُ في قوله تعالى: ﴿**وأولئك هم الفائزون**﴾ بالنسبة إلى درجة الفريقِ الثاني، أو إلى الفوز المطلق ادعاءٌ كما مر والله أعلم.

﴿**يبشّرهم**﴾ وقرئ[1] بالتخفيف ﴿**ربهم برحمة**﴾ عظيمة ﴿**منه ورضوان**﴾ كبير ﴿**وجنات**﴾ عاليةٍ ﴿**لهم فيها**﴾ في تلك الجنات ﴿**نعيم مقيم**﴾ نِعمٌ لا نفادَ لها، وفي التعرُّض لعنوان الربوبيةِ تأكيدٌ للمبشَّر به وتربيةٌ له ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في الجنات ﴿**أبدًا**﴾ تأكيدٌ للخلود لزيادة توضيحِ المرادِ به إذ قد يُراد به المُكث الطويل ﴿**إن الله عنده أجر عظيم**﴾ لا قدرَ عنده لأجور الدنيا أو للأعمال التي في مقابلته، والجملةُ استئنافٌ وقع تعليلًا لما سبق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ

---

(١) قرأ بها: حمزة، والأعمش، وطلحة بن مصرف، وحميد بن هلال.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤١)، والبحر المحيط (٥/ ٢١)، والتيسير للداني ص (٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿٢٧﴾

﴿**يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء**﴾ نهيٌ لكل فردٍ من أفراد المخاطَبين عن موالاة فردٍ من المشركين بقضية مقابلةِ الجمعِ بالجمع الموجبةِ لانقسام الآحادِ إلى الآحاد كما في قوله عز وجل: ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾ [البقرة: ٢٧٠] لا عن موالاة طائفةٍ منهم فإن ذلك مفهومٌ من النظم دِلالةً لا عبارةً، والآية نزلت في المهاجرين فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا: إنْ هاجرنا قطَعْنا آباءَنا وأبناءَنا وعشيرتَنا وذهبت تجارتُنا وهلكتْ أموالُنا وخَرِبَتْ ديارُنا وبقِينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا فجعل الرجلُ يأتيه ابنُه أو أبوه أو أخوه أو بعضُ أقاربه فلا يلتفت إليه ولا يُنزِله ولا يُنفق عليه ثم رُخِّصَ لهم في ذلك. وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحِقوا بمكةَ نهيًا عن موالاتهم، وعن النبي ﷺ: «**لا يطعَمُ أحدُكم طعمَ الإيمانِ**[1] **حتى يُحب في الله أبعدَ الناس منه ويُبغضَ في الله أقربَ الناس إليه**»[2] ﴿**إن استحبوا الكفر**﴾ أي اختاروه ﴿**على الإيمان**﴾ وأصرّوا عليه إصرارًا لا يُرجى معه الإقلاعُ عنه أصلًا، وتعليقُ النهي عن الموالاة بذلك لما أنها قبلَ ذلك ربما تؤدي بهم إلى الإسلام بسبب شعورِهم بمحاسن الدين ﴿**ومن يتولهم**﴾ أي واحدًا منهم كما أشير إليه، وإفرادُ الضميرِ في الفعل لمراعاة لفظِ الموصولِ وللإيذان باستقلال كلِّ واحدٍ منهم في الاتصاف بالظلم لا أن المرادَ تولي فردٍ واحدٍ، وكلمةُ مِنْ في قوله تعالى: ﴿**منكم**﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿**فأولئك**﴾ أي أولئك المتولّون ﴿**هم الظالمون**﴾ بوضعهم

---

(١) زاد في خ: حتى يحب في الله ويبغض.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢/ ٦١): غريب.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٤) عن عمرو بن الحمق؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب الله...» الحديث، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه رشدين وهو ضعيف، وأخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٠): كتاب السنة: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨١)، والطبراني في معجمه (٨/ ١٥٩) رقم (٧٦١٣) و(٨/ ٢٠٨) رقم (٧٧٣٦) من طرق عن يحيى بن الحارث عن القاسم، عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله - فقد استكمل الإيمان... الحديث».
وقال الهيثمي (١/ ٩٥): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ضعفه البخاري وأحمد وغيرهما، وقال أبو حاتم: محله الصدق.
وللحديث شاهد من طريق معاذ بن أنس عن النبي ﷺ نحوه سواه، أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦١).

الموالاةَ في غير موضعِها كأنّ ظلمَ غيرِهم كلا ظلمٍ عند ظلمِهم.

﴿قل﴾ تلوين للخطاب وأمرٌ له عليه الصلاة والسلام بأن يُثبِّت المؤمنين ويقوّيَ عزائمَهم على الانتهاء عما نُهوا عنه من موالاة الآباءِ والإخوانِ ويزهِّدَهم فيهم وفيمن يجري مجراهم من الأبناء والأزواج ويقطعَ علائقَهم عن زخارف الدنيا وزينتِها على وجه التوبيخ والترهيب ﴿إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ لم يُذكر الأبناءُ والأزواجُ فيما سلف لأن موالاةَ الأبناءِ والأزواجِ غيرُ معتادةٍ بخلاف المحبة ﴿وعشيرتكم﴾ أي أقرباؤُكم مأخوذ من العِشرة أي الصحبة وقيل: من العشَرة فإنهم جماعةٌ ترجِع إلى عَقد كعقد العشرة، وقرئ (عشيراتكم)[1] و(عشائرُكم)[2] ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي اكتسبتموها وإنما وصفت بذلك إيماءً إلى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين ﴿وتجارة﴾ أي أمتعةٌ اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تخشون كسادها﴾ بفوات وقتِ رواجِها بغَيْبتكم عن مكةَ المعظمةِ في أيام الموسم ﴿ومساكن ترضونها﴾ أي منازلُ تعجبكم الإقامةُ فيها من الدور والبساتينِ، والتعرُّضُ للصفات المذكورة للإيذان بأن اللومَ على محبة ما ذكر من زينة الحياةِ الدنيا ليس لتناسي ما فيها من مبادي المحبة وموجباتِ الرغبة فيها وأنها مع ما لها من فنون المحاسنِ بمعزل عن أن يُؤثَرَ حبُّها على حبه تعالى وحبِّ رسولِه عليه الصلاة والسلام كما في قوله عز وجل: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ [الانفطار: ٦] ﴿أحبَّ إليكم من الله ورسوله﴾ بالحب الاختياري المستتبع لأثره الذي هو الملازمة وعدمُ المفارقةِ لا الحُبُّ الجِبلِّيُّ الذي لا يخلو عنه البشرُ فإنه غيرُ داخلٍ تحت التكليفِ الدائرِ على الطاقة.

﴿وجهادٍ في سبيله﴾ نُظم حبُّه في سلك حبِّ الله عز وجل وحبِّ رسولِه ﷺ تنويهًا لشأنه وتنبيهًا على أنه مما يجب أن يُحَبَّ فضلًا عن أن يُكرَه وإيذانًا بأن محبتَه راجعةٌ إلى محبتهما فإن الجهادَ عبارةٌ عن قتال أعدائِهما لأجل عداوتِهم فمَن يحبُّهما يجب أن يحِبَّ قتالَ من لا يحبُّهما ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فتحُ مكةَ وقيل: هي عقوبةٌ عاجلةٌ أو آجلة ﴿والله لا يهدي

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤١)، والتبيان للطوسي (٥/ ١٩٥)، والتيسير للداني ص (١١٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨١).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨١).

القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أو القومَ الفاسقين كافةً فيدخل في زمرتهم هؤلاءِ دخولًا أوليًا، أي: لا يرشدهم إلى ما هو خيرٌ لهم. وفي الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يَتخلّص منه إلا من تداركه لطفٌ من ربه والله المستعان.

﴿لقد نصركم الله﴾ الخطابُ للمؤمنين خاصة **﴿في مواطنَ كثيرة﴾** من الحروب وهي مواقُعها ومقاماتها والمرادُ بها وقَعاتُ بدر وقُرَيظةَ والنَّضيرِ والحُدَيبية وخيبَر وفتحُ مكة **﴿ويوم حنين﴾** عطفٌ على محل (في مواطن) بحذف المضافِ في أحدهما أي وموطنِ يوم حنين، أو في أيامِ مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حنين، ولعل التغييرَ للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثباتِ من أولَ الأمر وقيل: المرادُ بالموطِن الوقتُ كمقتل الحسين، وقيل: (يومَ حنين) منصوبٌ بمضمر معطوفٍ على (نصركم) أي: ونصرَكم يومَ حنين.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ بدلٌ من (يومَ حنينٍ)، ولا منعَ فيه من عطفه على محل الظرفِ بناءً على أنه لم يكن في المعطوف عليه كثرةٌ ولا إعجابٌ إذ ليس من قضية العطفِ مشاركةُ المعطوفين فيما أضيف إليه المعطوفُ، أو منصوبٌ بإضمار اذكُرْ، (وحنينٌ وادٍ بين مكةَ والطائفِ كانت فيه الوقعةُ بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفًا، عشرةُ آلافٍ منهم ممن شهد فتحَ مكةَ من المهاجرين والأنصار وألفانِ من الطلقاء، وبين هَوازِنَ وثقيفٍ وكانوا أربعةَ آلافٍ فيمن ضامهم من أمداد سائر العرب وكانوا الجمَّ الغفيرَ فلما التَقْوا قال رجلٌ من المسلمين اسمُه سلمةُ بنُ سلامةَ الأنصاري: لن نُغلَبَ اليومَ من قلة فساءت رسولَ الله ﷺ فاقتتلوا قتالًا شديدًا فانهزم المشركون وخلّوا الذراريَ فأكبَّ المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون، يا حُماة السوء اذكروا الفضائحَ، فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمةُ الإعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل: **﴿فلم تغن عنكم شيئًا﴾** والإغناءُ إعطاءُ ما يُدفع به الحاجةُ أي لم تُعطِكم تلك الكثرةُ ما تدفعون به حاجتَكم شيئًا من الإغناء **﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾** أي برَحْبها وسَعتها على أن (ما) مصدريةٌ والباء بمعنى مع أي لا تجِدون فيها مفرًّا تطمئنُّ إليه نفوسُكم من شدة الرعبِ ولا تثبُتون فيها كمن لا يسعه مكان **﴿ثم وليتم مدبرين﴾** رُوي أنه بلغ فَلُّهم مكةَ وبقي رسولُ الله ﷺ وحده ليس معه إلا عمُّه العباسُ آخذًا بلجام بغلته وابنُ عمِّه أبو سفيانَ بنُ الحارث آخذًا بركابه وهو يركُض[1] البغلةَ نحو المشركين وهو يقول: **«أنا النبيُّ لا كذِب أنا ابنُ عبد المطلب»**[2]. روي أنه عليه

---

(١) ركض البغلة: استحثَّها برجله لتعدو.
(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (١/ ٩٦) برقم (٧٠٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٥١).

الصلاة والسلام كان يحمِلُ على الكفار فيفِرُّون ثم يحمِلون عليه فيقف لهم، فعلَ ذلك بضعَ عشْرَةَ مرة. قال العباس: كنت أكُفَّ البغلة لئلا تُسرِعَ به نحوَ المشركين، وناهيك بهذه الواحدةِ شهادةَ صدقٍ على أنه عليه الصلاة والسلام كان في الشجاعة ورباطةِ الجأش سبّاقًا للغايات القاصيةِ وما كان ذلك إلا لكونه مؤيدًا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال: «**يا رب ائتني بما وعدتَني**» وقال للعباس وكان صيِّتًا[١]: «**صِحْ بالناس**»[٢] فنادى الأنصارَ فخِذًا فخِذًا ثم نادى: يا أصحابَ الشجرةِ يا أصحابَ سورةِ البقرة، فكرّوا عنقًا[٣] واحدًا وهم يقولون: لبيك لبيك. وذلك قوله تعالى: ﴿**ثم أنزل الله سكينتَه على رسوله**﴾ أي رحمتَه التي تسكُن بها القلوبُ وتطمئنُّ إليها اطمئنانًا كليًا مستتبِعًا للنصر القريبِ، وأما مطلقُ السكينةِ فقد كانت حاصلةً له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضًا ﴿**وعلى المؤمنين**﴾ عطفٌ على رسولِه، وتوسيطُ الجارِّ بينهما للدِلالة على ما بينهما من التفاوت أي المؤمنين الذين انهزموا وقيل: على الذين ثبتوا مع النبي ﷺ أو على الكل وهو الأنسبُ، ولا ضيرَ في تحقيق أصلِ السكينةِ في الثابتين من قبل، والتعرُّضُ لوصف الإيمانِ للإشعار بعلية الإنزال ﴿**وأنزل جنودًا لم تروها**﴾ أي بأبصاركم كما يرى بعضُكم بعضًا وهم الملائكةُ عليهم السلام عليهم البياضُ على خيول بُلْقٍ فنظر النبيُّ ﷺ إلى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمِيَ الوطيسُ فأخذ كفًّا من التراب فرمىٰ به نحو المشركين وقال: «**شاهت الوجوه**» فلم يبقَ منهم أحدٌ إلا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**انهزَموا وربِّ الكعبة**»[٤]. واختلفوا في عدد الملائكة يومئذ فقيل: خمسةُ آلافٍ، وقيل: ثمانيةُ آلافٍ، وقيل: ستةَ عشَرَ ألفًا، وفي قتالهم أيضًا[٥] فقيل: قاتلوا، وقيل: لم يقاتلوا إلا يومَ بدر وإنما كان نزولُهم لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطِر الحسنةِ وتأييدِهم بذلك وإلقاءِ الرعبِ في قلوب المشركين. قال سعيد بن المسيِّب: حدثني رجل كان في المشركين يوم حُنين قال: لما كشَفْنا المسلمين جعلْنا نسوقُهم فلما انتهينا إلى صاحب البغلةِ الشهباءِ تلقانا رجالٌ

---

(١) الصَّيِّت: الشديد الصوت.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٩٨، ١٣٩٩) كتاب الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، حديث (٧٦/ ١٧٧٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٣٧ - ١٣٩).

(٣) أي جماعة واحدة.

(٤) أخرجه مسلم (٦/ ٣٥٥): كتاب الجهاد والسير: باب في غزوة حنين، حديث (٧٦/ ١٧٧٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٣٧ - ١٣٩).

(٥) المراد: واختلفوا أيضاً في قتالهم فقيل.. إلخ.

بِيضُ الوجوه فقالوا: شاهت الوجوهُ ارجِعوا فرجَعنا فركِبوا أكتافنا[١] **﴿وعذب الذين كفروا﴾** بالقتل والأسر والسبي **﴿وذلك﴾** أي ما فُعل بهم مما ذكر **﴿جزاءُ الكافرين﴾** لكفرهم في الدنيا **﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾** أن يتوبَ عليه منهم لحكمة تقتضيه أي يوفقه للإسلام **﴿والله غفور﴾** يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي **﴿رحيم﴾** يتفضل عليهم ويثيبهم[٢]. (روي أن ناسًا منهم جاءوا رسولَ الله ﷺ وبايعوه على الإسلام وقالوا: يا رسول الله أنت خيرُ الناسِ وأبرُّ الناس وقد سُبيَ أهلونا وأولادنا وأُخذت أموالُنا. قيل: سُبيَ يومئذ ستةُ آلافِ نفسٍ وأُخذ من الإبل والغنم ما لا يُحصى فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن عندي ما ترون إن خيرَ القولِ أصدقه، اختاروا إما ذرارِيَكم ونساءَكم وإما أموالَكم**» قالوا: ما كنا نعدِل بالأحساب شيئًا فقام النبيُّ ﷺ فقال: «**إن هؤلاء جاءونا مسلمين وإنا خيَّرناهم بين الذراري والأموالِ فلم يعدِلوا بالأحساب شيئًا فمن كان بيده سبْيٌ وطابت نفسُه أن يرُدَّه فشأنُه، ومن لا فليُعطِنا وليكُنْ قَرْضًا علينا حتى نُصيبَ شيئًا فنعُطِيَه مكانه**»، قالوا: قد رضِينا وسلّمنا فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنا لا ندري لعل فيكم من لا يرضى فمُروا عُرفاءَكم فليرفعوا ذلك إلينا**»[٣] فرَفَعتْ إليه العرفاءُ أنهم قد رضُوا).

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ﴾ وُصفوا بالمصدر مبالغةً كأنهم عينُ النجاسةِ أو هم ذوو نجسٍ لخُبث باطنِهم أو لأن معهم الشركَ الذي هو بمنزلة النجَس أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاساتِ فهي ملابسةٌ لهم. عن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٨٦) برقم (١٦٥٨٢).

(٢) في خ: ويثبتهم.

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٥٢): كتاب الوكالة: باب إذا وهب شيئًا لوكيل أو شفيع قوم جاز، حديث (٢٣٠٧-٢٣٠٨) وأطرافهما في: (٢٥٣٩، ٢٥٨٤، ٢٦٠٧، ٣١٣١، ٤٣١٨، ٧١٧٦، ٢٥٤٠، ٢٥٨٥، ٢٦٠٨، ٣١٣٢، ٤٣١٩، ٧١٧٧) من طريق عروة عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة، فذكراه.

وأخرجه أبو داود (٣/ ٦٣): كتاب الجهاد: باب في فداء الأسير بالمال، حديث (٢٦٩٤) مختصرًا، والنسائي (٦/ ٢٦٣): كتاب الهبة: باب هبة المشاع، حديث (٣٦٩٠)، وأحمد (٢/ ١٨٤-٢١٨)، والطبراني في معجمه الكبير (٥/ ٢٧٠) رقم (٥٣٠٤)، وابن هشام في سيرته (٤/ ١٤٤-١٤٥) رقم (١٨٢٣-١٨٢٤-١٨٢٥) والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٤-١٩٥).

كلهم من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، فذكره، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٧٩-٣٨٠-٣٨١) رقم (٩٧٤١) من طريق معمر عن الزهري عن كثير بن العباس بن عبد المطلب عن أبيه فذكره. وذكره الثعلبي عن أنس بلفظ المصنف من غير سند؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦٥).

ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانَهم نجِسةٌ كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: مــن صافـح مشرِكًا توضأ، وأهلُ المذاهبِ على خلاف هذين القولين[١]، وقرئ

---

(١) مال الرازي إلى القول بأن المشركين نجس حسيا حيث قال: المسألة الثالثة: قال صاحب «الكشاف»: النجس مصدر نجس نجساً وقذر قذراً، ومعناه ذو نجس. وقال الليث: النجس الشيء القذر من الناس ومن كل شيء، ورجل نجس، وقوم أنجاس، ولغة أخرى رجل نجس وقوم نجس وفلان نجس ورجل نجس وامرأة نجس. واختلفوا في تفسير كون المشرك نجساً نقل صاحب «الكشاف» عن ابن عباس أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن من صافح مشركاً توضأ، وهذا هو قول الهادي من أئمة الزيدية، وأما الفقهاء فقد اتفقوا على طهارة أبدانهم.
واعلم أن ظاهر القرآن يدل على كونهم أنجاساً فلا يرجع عنه إلا بدليل منفصل، ولا يمكن ادعاء الإجماع فيه لما بينا أن الاختلاف فيه حاصل. واحتج القاضي على طهارتهم بما روي أن النبي ﷺ شرب من أوانيهم، وأيضاً لو كان جسمه نجساً لم يبدل ذلك بسبب الإسلام. والقائلون بالقول الأول أجابوا عنه: بأن القرآن أقوى من خبر الواحد، وأيضاً فبتقدير صحة الخبر وجب أن يعتقد أن حل الشرب من أوانيهم كان متقدماً على نزول هذه الآية وبيانه من وجهين: الأول: أن هذه السورة من آخر ما نزل من القرآن وأيضاً كانت المخالطة مع الكفار جائزة فحرمها الله تعالى، وكانت المعاهدات معهم حاصلة فأزالها الله، فلا يبعد أن يقال أيضاً الشرب من أوانيهم كان جائزاً فحرمه الله تعالى. الثاني: أن الأصل حل الشرب من أي إناء كان، فلو قلنا: إنه حرم بحكم الآية ثم حل بحكم الخبر فقد حصل نسخان. أما إذا قلنا: إنه كان حلالاً بحكم الأصل، والرسول شرب من آنيتهم بحكم الأصل، ثم جاء التحريم بحكم هذه الآية لم يحصل النسخ إلا مرة واحدة، فوجب أن يكون هذا أولى. أما قول القاضي: لو كان الكافر نجس الجسم لما تبدلت النجاسة بالطهارة بسبب الإسلام فجوابه أنه قياس في معارضة النص الصريح، وأيضاً أن أصحاب هذا المذهب يقولون إن الكافر إذا أسلم وجب عليه الاغتسال إزالة للنجاسة الحاصلة بحكم الكفر، فهذا تقرير هذا القول. وأما جمهور الفقهاء فإنهم حكموا بكون الكافر طاهراً في جسمه، ثم اختلفوا في تأويل هذه الآية على وجوه: الأول: قال ابن عباس وقتادة: معناه أنهم لا يغتسلون من الجنابة ولا يتوضئون من الحدث. الثاني: المراد أنهم بمنزلة الشيء النجس في وجوب النفرة عنه، الثالث: أن كفرهم الذي هو صفة لهم بمنزلة النجاسة الملتصقة بالشيء. واعلم أن كل هذه الوجوه عدول عن الظاهر بغير دليل.
ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٠، ٢١).
ورد الألوسي ما مال إليه الرازي فقال: والاستدلال على طهارتهم بأن أعيانهم لو كانت نجسة ما أمكن بالإيمان طهارتها إذ لا يعقل كون الإيمان مطهراً، ألا ترى أن الخنزير لو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله لا يطهر، وإنما يطهر نجس العين بالاستحالة على قول من يرى ذلك وعين الكافر لم تستحل بالإيمان عيناً أخرى ليس بشيء وإن ظنه من تهوله القعقعة شيئاً، لأن الطهارة والنجاسة أمران تابعان لما يفهم من كلام الشارع عليه الصلاة والسلام وليستا مربوطتين بالاستحالة وعدمها فإذا فهم منه نجاسة شيء في وقت وطهارته في وقت آخر أو ما بالعكس كما في الخمر اتبع وإن لم يكن هناك استحالة وذلك ظاهر. وقرأ ابن السميفع ﴿أنجاس﴾ على صيغة الجمع. وقرأ أبو حيوة ﴿المشركون نَجَسٌ﴾ بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد في كبد، ويقدر حينئذٍ موصوف كما قررناه آنفاً فيما قاله الجوهري، وأكثر ما جاء هذا اللفظ تابعاً لرجس.

=

(نِجْسٌ)[١] بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككِبْدٍ في كَبِد كأنه قيل: إنما المشركون جنسٌ نجسٌ أو ضربٌ نجس، وأكثرُ ما جاء تابعًا لرِجْس **﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾** تفريعٌ على نجاستهم، وإنما نُهي عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخولِ الحرمِ، وهو مذهبُ عطاءٍ، وقيل: المرادُ به النهيُ عن الدخول مطلقًا، وقيل: المرادُ المنعُ عن الحج والعمرةِ وهو مذهبُ أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل: **﴿بعد عامِهم هذا﴾** فإن تقييدَ النهي بذلك يدل على اختصاص المنهيِّ عنه بوقت من أوقات العام، أي لا يحجُّوا ولا يعتمِروا بعد حجِّ عامِهم هذا، وهو عامُ تسعةٍ من الهجرة حين أُمّر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم، ويدل عليه قولُ عليٍّ رضي الله عنه حين نادى ببراءة: ألا لا يَحُجُّ بعد عامِنا هذا مشركٌ، ولا يُمنعون من دخول الحرمِ والمسجد الحرام وسائرِ المساجدِ عنده، وعند الشافعي يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك يمنعون من جميع المساجد[٢]، ونهيُ المشركين

= ينظر: روح المعاني (٩/ ١١٢).
وقول المفسرين: «فلا يراد بالنجاسة ما أراده الفقهاء» تبين خطؤه على ما قاله الرازي والألوسي.
وقول المفسر: «أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يعاشرون المشركين ويتركونهم يدخلون المسجد النبوي في المدينة المنورة» فقد قال مثله الشوكاني: وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات؛ لأن الله سبحانه أحلّ طعامهم، وثبت عن النبيّ ﷺ في ذلك من فعله وقوله، ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده. (فتح القدير: ٢/ ٣٤٩). ومع ذلك فقد تبين أن أهل المذاهب الأربعة قالوا: إن الكافر ليس بنجس الذات.

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٣).

(٢) قال العلامة الزركشي في إعلام الساجد ص (٣١٨): يمكّن الكافر من دخول المسجد واللبث فيه، وإن كان جنباً، فإن الكفار كانوا يدخلون مسجده ?، ولا شك أن فيهم الجنب. وقد ترجم البخاري: دخول المشرك المسجد، وأدخل فيه حديث الأعرابي السائل عن الإسلام وحديث اليهود الذين ذكروا أن امرأة ورجلاً منهم زنيا، والفرق بينه وبين المسلم، أن المسلم يعتقد تحريمه، ولا شك أنه لا يمكن من المجاورة دائماً مع أنهم قد صرحوا في الكافرة الحائض بتحريم دخولها المسجد إن خافت التلويث صوناً له من النجاسة بخلاف الجنب وصرح الماوردي وغيره أنها إذا انقطع دمها على الوجهين في الجنب، والنفساءُ كالحائض، وأما دخول الحائض المسلمة المسجد فحرام إلا إذا أمنت التلويث فيجوز على الصحيح في الشرح والروضة، وصحح الإمام المنع وهذا قبل الانقطاع، فإن انقطع دمها جاز على الأصح. وقال القاضي أبو الطيب الطبري في تعليقه في الكلام على الصلاة على الميت في المسجد: إن الحائض إذا لم تكن قد استحكمت من نفسها، واستوثقت من ثفرها فإنه يكره لها دخول المسجد، وإن كان ذلك محكماً لم يكره لها دخوله. انتهى لفظه. =

أن يقرَبوه راجعٌ إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منذلك، وقيل: المرادُ أن يُمنعوا من

= ونقله عنه ابن الرفعة أيضاً قال: ودل كلامه على أنها كراهة تنزيه، والمعروف التحريم جزماً. والظاهر أن القاضي أراد كراهة التحريم فإنه قال. وإذا علم من الميت الانفجار بأمارات تدل عليه كره إدخاله المسجد. فأما الحائض...، وذكر ما سبق. وأفاد بأن أمنها التلويث بأن تستحكم من نفسها وتستوثق من ثفرها، أي بحيث لو خرج منها شيء بغتةً لرده ذلك لا بمجرد الظن مع ترك ذلك. واعلم أن الرافعي والنووي رحمهما الله أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل مساجد غير الحرم بإذن المسلم. وعليها تسعة تقييدات.

أحدها: قال الماوردي: هذا إذا لم يكن شرط عليه في عقد الذمة عدم الدخول، فإن كان قد شرط عليه ذلك لم يؤذن له وهذا صحيح لما في ذلك من مخالفة عقد الإمام والافتيات عليه، ومن أورد هذا وجهاً لم يصنع شيئاً بل هو تقييد للحكم المذكور. نعم لو لم يعلم هل شرط ذلك عليهم أم لا؟ فهل نقول: الأصل عدم الشرط فيأذن أو الأصل المنع فلا يأذن ما لم يعلم انتفاءُ الشرط. فيه نظر، والثاني أقرب إلى كلامهم.

الثاني: يشترط في الإذن التكليف والإسلام. فلا عبرة بإذن الصبي والمجنون، وقد يجيء فيه وجه كما قيل في أمانه. وقيل الإذن للإمام ونحوه. وقال الروياني: لا يكفي في الجامع إلا إذن السلطان ويكفي في مساجد المحال والقبائل إذن من يصح أمانه على الأصح. وفي الحاوي أن الدخول إن كان لمقام أكثر من ثلاثة أيام لم يصح الإذن في الدخول إلا من الإمام أو يجمع عليه أهل تلك الناحية بشرط ألا يتضرر به أحد من المصلين وإن كان لاجتياز أو لبث يسير فإن كان من الجوامع التي لا ترتب فيه الأئمة إلا بإذن السلطان لم يصح الإذن في الدخول إلا من السلطان ونحوه، وإن كان من مساجد القبائل فوجهان. أظهرهما أنه يكفي إذن من يصح أمانه والثاني: لا يصح إلا ممن كان من أهل الجهاد. انتهى. وأما إذا لم يأذن له المسلمون فليس له الدخول على الصحيح هكذا أطلقه النووي وغيره. وقضية كلام الرافعي تخصيص الوجهين بالذمي لأنه قال في أحدهما: نعم. لأنه يبذل الجزية فصار من أهل دار الإسلام، فلو دخل بغير إذن عُزر إلا أن يكون جاهلاً بتوقفه على الإذن، فيعذر.

الثالث: هذا إذا استأذن لسماع قرآن أو علم ورجي إسلامه، أو دخل لإصلاح بنيان ونحوه، وقضية كلام القاضي أبي علي الفارقي أنه لو دخل لسماع القرآن أو العلم، وهو ممن لا يرجى إسلامه أنه يمنع. وليس لنا أن نأذن له في دخوله، أي كما إذا كانت حاله تشعر بالاستهزاء، فأما إذا استأذن لنوم أو أكل ونحوه، قال في الروضة: فينبغي ألا يؤذن له في دخوله لذلك، وظاهره الجواز، وقال غيره: لا يجوز لنا أن نأذن له في ذلك. قال الفارقي: وفي معنى ذلك الدخول لتعلم الحساب واللغة، وما كان في معناه. ولا خفاءَ أن موضع التجويز إذا لم يخش على المسجد ضرر ولا تنجيس ولا تشويش على المصلين وأطلق جماعة القول بأن له الدخول بلا إذن لسماع القرآن، أو الحديث، أو العلم أو ليُسْلم أو ليستفتي كما قال الماوردي.

مثل أن يكون له غَرِيمٌ في المسجد لا يخرج إليه، ومثل أن يُحَاكم إلى قَاضٍ هو في المسجد، وقد كان الكفار يدخلون مَسْجِدَهُ ﷺ، ويطيلون فيه الجلوس، وقد أخرج أبو داود من حَدِيثِ أبي هريرة: «أن اليَهُودَ أَتَوْا النبي ﷺ وهو في المسجد».

وأما قوله تعالى: ﴿فلا يقربو المسجد الحرام﴾ [التوبة: ٢٨] فالمراد به: لا يمكنون من حَجٍّ ولا =

تولي المسجد الحرام والقيامِ بمصالحه ويُعزَلوا عن ذلك.

﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي فقرًا بسبب منعِهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلُبونه إليكم من الإرفاق والمكاسب، وقرئ (عائلةً)[1] على أنها مصدرٌ كالعافية أو حالًا عائلة ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجهٍ آخَرَ فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارًا أغزر بها خيرَهم وأكثر ميرَهم، وأسلم أهلُ تبالةَ وجرشٍ فحمَلوا إلى مكة الطعامَ وما يُعاش به فكان ذلك أعودَ عليهم مما خافوا العَيلةَ لفواته، ثم فتح عليهم البلادَ والغنائمَ، وتوجه إليهم الناسُ من أقطار الأرض ﴿إن شاء﴾ أن يغنيَكم مشيئةً تابعةً للحِكمة الداعيةِ إليها. وإنما قيد ذلك بها لتنقطعَ الآمالُ إلى الله تعالى ولأن الإغناءَ ليس مطردًا بحسب الأفراد والأحوال والأوقات ﴿إن الله عليم﴾ بمصالحكم ﴿حكيم﴾ فيما يُعطي ويمنع.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا

= عمرة، كما ورد في القصة التي بعث لأجلها ﷺ بآيات براءة إلى «مكة»، وقوله: «فلا يَحُجَّنَّ بعد هذا العام مُشْرِكٌ» وكذلك قوله تعالى: ﴿وما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ [البقرة: ١١٤] لا يتم بها دليل على تحريم المساجد على المشركين؛ لأنها نزلت في حَقِّ من استولى عليها، وكانت له الحكمة والمَنَعَةُ، كما وقع في سَبَبِ نزول الآية الكريمة، فإنها نزلت في شَأْنِ النصارى، واستيلائهم على «بيت المقدس»، وإلقاء الأذى فيه والأَزْبَالِ، أو أنها نزلت في شأن قريش، ومنعهم له؟ عام الحديبية عن العُمْرَةِ، وأما دخوله من غير استيلاء، ومنع وتخريب فلم تُفِدْهُ الآية، وكأن المصنف سَاقَهُ لبيان جَوَازِ دخول المشرك المسجد، وهو مذهب إِمَامِهِ، فيما عدا المسجد الحرام.

(١) قرأ بها: ابن مسعود، وعلقمة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٤٢)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٧).

كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أمرَهم بقتال أهلِ الكتابين إثرَ أمرِهم بقتال المشركين وبمنعهم من أن يحوموا حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرةِ غيرَ خائفين من الفاقة المتوهَّمةِ من انقطاعهم، ونبّههم في تضاعيف ذلك على بعض طرقِ الإغناء الموعودِ على الوجه الكليِّ وأرشدهم إلى سلوكه ابتغاءً لفضله واستنجازًا لوعده، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإيذان بعلِّية ما في حيز الصلةِ للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين، فإن اليهودَ مُثَنّيةٌ[1] والنصارى مُثلِّثةٌ، فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فإن عِلمَهم بأحوال الآخرة كلا علم، فإيمانُهم المبنيُّ عليه ليس بإيمان به **﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾** أي ما ثبت تحريمُه بالوحي متلوًّا أو غيرَ متلوٍ. وقيل: المرادُ برسوله الرسولُ الذي يزعُمون اتباعَه أي يخالفون أصلَ دينهم المنسوخِ اعتقادًا وعملًا **﴿ولا يدينون دين الحقِّ﴾** الثابتَ الذي هو ناسخٌ لسائر الأديان وهو دينُ الإسلام وقيل: دين الله **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** من التوراة والإنجيل، فمن بيانيةٌ لا تبعيضيةٌ حتى يكونَ بعضُهم على خلاف ما نُعت **﴿حتى يعطوا﴾** أي يقبَلوا أن يعطوا **﴿الجزية﴾** أي ما تقرَّرَ عليهم أن يُعطوه، مشتقٌّ من جزَى دَينَه أي قضاه، أو لأنهم يَجْزُون بها مَنْ مَنّ عليهم بالإعفاء عن القتل.

﴿عن يد﴾ حالٌ من الضمير في يُعطوا أي عن يد مؤاتيةٍ مطيعةٍ بمعنى منقادين، أو من يدهم بمعنى مسلّمين بأيديهم غيرَ باعثين بأيدي غيرِهم ولذلك مُنع من التوكيل فيه، أو عن غِنىً ولذلك لم تجِب الجزيةُ على الفقير العاجزِ، أو عن يد قاهرةٍ عليهم أي بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاءَ أو عن إنعام عليهم، فإن إبقاءَ مُهجتِهم بما بذلوا من الجِزية نعمةٌ عظيمةٌ عليهم، أو من الجزية أي نقدًا مسلّمةً عن يد إلى يد، وغايةُ القتالِ ليست نفسَ هذا الإعطاء بل قبولَه كما أشير إليه **﴿وهم صاغرون﴾** أي أذلاءُ وذلك بأن يأتيَ بها بنفسه ماشيًا غيرَ راكبٍ ويسلِّمَها وهو قائمٌ والمتسلِّمُ جالسٌ ويُؤخَذَ بتَلْبيبه[2] ويقال له: أدِّ الجزية، وإن كان يؤديها، وهي تؤخذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه من أهل الكتاب مطلقًا ومن مشركي العجَم لا من مشركي العرب، وعند أبي

---

(١) لقولهم: عزيرٌ ابن الله.

(٢) التلبيب: ما في موضع اللَّبب من الثياب، ويعرف بالطوق.
واللبب هو موضع القلادة من الصدر. ويقال: أخذ بتلبيب فلان وبتلابيبه.

يوسف رضي الله عنه لا تؤخذ من الأعجميِّ كتابيًا كان أو مشركًا، وعند الشافعي رضي الله عنه تؤخذ من أهل الكتابِ عربيًا أو عجميًا، ولا تؤخذ من أهل الأوثانِ مطلقًا، وذهب مالكٌ والأوزاعيُّ إلى أنها تؤخذ من جميع الكفارِ، وأما المجوسُ فقد اتفقت الصحابةُ رضي الله عنهم على أخذ الجزيةِ منهم لقوله عليه الصلاة والسلام: **«سُنّوا بهم سُنَّةَ أهلِ الكتاب»**[1] وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان لهم كتابٌ يدرُسونه فأصبحوا وقد أسري على كتابهم فرُفع من بين أظهُرِهم، واتفقوا على تحريم ذبيحتِهم ومناكحتِهم لقوله عليه الصلاة والسلام في آخر ما نقل من الحديث **«غيرَ ناكحي نسائِهم ولا آكلي ذبيحتِهم»**[2] ووقت الأخذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه أولُ السنة وتسقطُ بالموت والإسلام، ومقدارُها على الفقير المعتمِلِ اثنا عشر درهمًا وعلى المتوسط الحالِ أربعةٌ وعشرون درهمًا وعلى الفتى ثمانيةٌ وأربعون درهمًا ولا جزيةَ على فقير عاجزٍ عن الكسب ولا على شيخ فانٍ أو زَمِنٍ أو صبيٍّ أو امرأةٍ، وعند الشافعي رضي الله عنه تؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينارٌ غنيًا كان أو فقيرًا كان له كسبٌ أو لم يكن.

عدم إيمان أهل الكتاب

﴿وقالت اليهود﴾ جملةٌ مبتدأةٌ سيقت لتقريرِ ما مرَّ من عدم إيمانِ أهلِ الكتابين بالله سبحانه وانتظامِهم بذلك في سلك المشركين **﴿عزيرٌ ابن الله﴾** مبتدأٌ وخبرٌ وقرئ[3] بغير تنوينٍ على أنه اسمٌ أعجميٌّ كعازَرَ وعزَارَ غيرُ منصرفٍ للعجمة

---

(١) أخرجه مالك (١/ ٢٧٨) كتاب الزكاة، باب: جزية أهل الكتاب والمجوس، برقم (٤٢)، والشافعي (٢/ ١٣٠) كتاب الجهاد، باب : ما جاء في الجزية، برقم (٤٣٠)، وعبد الرزاق (٦/ ٦٨، ٦٩) كتاب أهل الكتاب، باب: أخذ الجزية من المجوس، برقم (١٠٠٢٥)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٢٤٣) برقم (١٢٦٩٦)، وأبو عبيد في الأموال ص (٤٠) برقم (٧٨)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٨٩، ١٩٠)، من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٦٩) برقم (١٠٠٢٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٩) برقم (٣٢٦٤٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٩٢)، من طريق قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن علي قال: كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام فمن أسلم قبل منه، ومن أبى ضربت عليه الجزية على ألا تؤكل لهم ذبيحة ولا تنكح لهم امرأة.
قال البيهقي: هذا مرسل وإجماع أكثر المسلمين عليه يؤكده.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، ونافع، وأبو عمرو.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤١)، والبحر المحيط (٥/ ٣١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٠٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٣).

والتعريف، وأما تعليلُه بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفًا على أن الخبرَ محذوفٌ فتعسّفٌ مستغنىً عنه. قيل: هو قولُ قدمائِهم ثم انقطع فحَكى الله تعالى ذلك عنهم، ولا عبرةَ بإنكار اليهودِ وقيل: قولُ بعضٍ ممن كان بالمدينة. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاء رسولَ الله ﷺ ناسٌ منهم وهم سلامُ بنُ مِشْكَم ونعمانُ بنُ أوفى وشاسُ بنُ قيسٍ ومالكُ بنُ الصيف فقالوا ذلك[1] وقيل: قاله فنحاصُ بنُ عازوراءَ وهو الذي قال: (إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء) وسببُ هذا القولِ أن اليهودَ قتلوا الأنبياءَ بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراةَ ومحاها من قلوبهم، فخرج عزيرٌ وهو غلامٌ يَسيح في الأرض فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال له: أين تذهب، قال: أطلبُ العلم فحفّظه التوراةَ فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرِم حرفًا، فقالوا: ما جمع الله التوراةَ في صدره وهو غلامٌ إلا أنه ابنُه. قال الإمام الكلبي: لما قَتل بُختُ نَصَّر علماءَهم جميعًا وكان عزيرٌ إذ ذاك صغيرًا فاستصغره ولم يقتُلْه فلما رجع بنو إسرائيلَ إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوارةَ بعث الله تعالى عزيرًا ليجدد لهم التوراةَ ويكونَ آيةً بعد ما أماته مائةَ عام، يقال إنه أتاه ملكٌ بإناء فيه ماءٌ فسقاه فمثلت في صدره فلما أتاهم فقال لهم: إني عزيرٌ كذّبوه فقالوا: إن كنت كما تزعُم فأمْلِ علينا التوراةَ ففعل فقالوا: إن الله تعالى لم يقذِف التوراةَ في قلب رجلٍ إلا لأنه ابنُه[2] تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن اليهود أضاعوا التوارةَ وعمِلوا بغير الحقِ فأنساهم الله تعالى التوراةَ ونسخها من صدورهم ورفع التابوتَ فتضرع عزيرٌ إلى الله تعالى وابتهل إليه فعاد حفظُ التوراةِ إلى قلبه فأنذر قومه به. ثم إن التابوت نزلَ فعرضوا ما تلاه عزيرٌ على ما فيه فوجدوه مثلَه فقالوا ما قالوا[3].

﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ هو أيضًا قولٌ لبعضهم وإنما قالوه استحالةً لأن يكون ولدٌ بغير أبٍ أو لأن يفعَلَ ما فعله من إبراء الأكمهِ والأبرصِ وإحياءِ الموتى مَنْ لم يكن إلٰهًا **﴿ذلك﴾** إشارةٌ إلى ما صدر عنهم من العظيمتين، وما فيه معنى البُعد للدِلالة على بُعد درجةِ المشار إليه في الشناعة والفظاعة **﴿قولهم بأفواههم﴾** إما تأكيدٌ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٠-٣٥١) رقم (١٦٦٣٥-١٦٦٣٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤١٣، ٤١٤)، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس به.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٣٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٠٢) برقم (١٦٦٢١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٨١) برقم (١٠٠٤٤).

لنسبة القولِ المذكورِ إليهم ونفي التجوّزِ عنها أو إشعارٌ بأنه قولٌ مجرد عن برهان وتحقيقٍ مماثل للمُهمل الموجودِ في الأفواه من غير أن يكون له مصداقٌ في الخارج ﴿**يضاهئون**﴾ أي في الكفر والشناعةِ وقرئ[1] بغير همز ﴿**قول الذين كفروا**﴾ أي يشابه قولُهم، على حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه عند انقلابِه مرفوعًا، قولَ الذين كفروا ﴿**من قبل**﴾ أي من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله أو اللاتُ والعزّى بناتُ الله لا قدماؤهم كما قيل إذ لا تعددَ في القول حتى يتأتّى التشبيهُ، وجعلُه بين قولي الفريقين مع اتحاد المقولِ ليس فيه مزيدُ مزيةٍ وقيل: الضميرُ للنصارى أي يضاهي قولُهم: المسيحُ ابنُ الله قولَ اليهودِ عزيرٌ . . . إلخ لأنهم أقدمُ منهم وهو أيضًا كما ترى فإنه يستدعي اختصاصَ الردِّ والإبطالَ بقوله تعالى: ﴿**ذلك قولُهم بأفواههم**﴾ بقول النصارى: ﴿**قاتلهم الله**﴾ دعاءٌ عليهم جميعًا بالإهلاك فإن مَنْ قاتله الله هلك، أو تعجّبٌ من شناعة قولِهم ﴿**أنى يؤفكون**﴾ كيف يُصْرفون من الحق إلى الباطل والحالُ أنه لا سبيل إليه أصلًا.

﴿**اتخذوا**﴾ زيادةُ تقريرٍ لما سلف من كفرهم بالله تعالى ﴿**أحبارَهم**﴾ وهم علماءُ اليهود، واختُلف في واحده، قال الأصمعي: لا أدري أهو حَبْرٌ أم حِبْرٌ وقال أبو الهيثم: بالفتح لا غير، وكان الليثُ وابنُ السِّكِّيتِ يقولان: حِبْرٌ وحَبْرٌ للعالِم ذميًا كان أو مسلمًا بعد أن كان من أهل الكتاب ﴿**ورهبانهم**﴾ وهم علماءُ النصارى من أصحاب الصوامعِ أي اتخذ كلٌّ واحد من الفريقين علماءَهم لا الكلُّ الكلَّ ﴿**أربابًا من دون الله**﴾ بأنَ أطاعوهم في تحريم ما أحله الله تعالى وتحليلِ ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوِه تسميةُ اتِّباعِ الشيطان عبادةً له كما في قوله تعالى: ﴿**يا أبت لا تعبد الشيطان**﴾ [مريم: ٤٤] وقولِه تعالى: ﴿**بل كانوا يعبُدون الجنَّ**﴾ [سبأ: ٤١] قال عدي بن حاتم: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، وكان إذ ذاك على دين يسمَّى الركوسية، فريق من النصارى، وهو يقرأ سورةَ براءة فقال: «**يا عديُّ اطرَحْ هذا الوثنَ**» فطرحتُه فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارَهم ورهبانهم أربابًا من دون الله**﴾ قلت: يا رسولَ الله لم يكونوا يعبُدونهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أليس يحرِّمون ما أحل الله فتُحرِّمونه ويُحِلّون ما حرم الله فتَستحلّونه؟**» فقلتُ: بلى، قال: «**ذلك**

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، وأبو عمرو، ونافع، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤١)، والبحر المحيط (٥/ ٣١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٠٤)، والتيسير للداني ص (١١٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٧).

عبادتُهم»[(١)]. قال الربيع: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبيةُ في بني إسرائيلَ؟ قال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالف أقوالَ الأحبارِ فكانوا يأخُذون بأقوالهم ويترُكون حُكمَ كتابِ الله[(٢)] **﴿والمسيح ابن مريم﴾** عطفٌ على رهبانهم أي اتخذه النصارى ربًا معبودًا بعد ما قالوا إنه ابنُه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وتخصيصُ الاتخاذِ به يشير إلى أن اليهودَ ما فعلوا ذلك بعزيرٍ، وتأخيرُه في الذكر مع أن اتخاذَهم له عليه الصلاة والسلام ربًا معبودًا أقوى من مجرد الإطاعةِ في أمر التحليل والتحريمِ كما هو المرادُ باتخاذهم الأحبارَ والرهبانَ أربابًا، لأنه مختصٌّ بالنصارى، ونسبتُه عليه الصلاة والسلام إلى أمه من حيث دلالتُها على مربوبيته المنافيةِ للربوبية للإيذان بكمال ركاكةِ رأيِهم والقضاءِ عليهم بنهاية الجهل والحماقة.

﴿وما أمروا﴾ أي والحالُ أن أولئك الكفرةَ ما أُمروا في كتابيهم **﴿إلا ليعبدوا إلٰهًا واحدًا﴾** عظيمَ الشأنِ هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمرَه ولا يطيعوا أمرَ غيرِه بخلافه، فإن ذلك مُخِلٌّ بعبادته تعالى فإن جميعَ الكتبِ السماوية متفقةٌ على ذلك قاطبةً وقد قال المسيح عليه السلام: (إنه من يشرِكْ بالله فقد حرم الله عليه الجنة) وأما إطاعة الرسولِ ﷺ وسائرِ مَنْ أمر الله تعالى بطاعته فهي في الحقيقة إطاعةٌ لله عز وجل أو وما أُمر الذين اتخذهم الكفرةُ أربابًا من المسيح والأحبارِ والرهبانِ إلا ليوحِّدوا الله تعالى فكيف يصِحُّ أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبَدون مثلَهم! ولا يقدح في ذلك كونُ ربوبيةِ الأحبار والرهبان بطريق الإطاعةِ فإن تخصيصَ العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعَةِ أيضًا به تعالى وحيث لم يخُصوها به تعالى لم يخصّوا العبادةَ به سبحانه **﴿لا إلٰه إلا هو﴾** صفةٌ ثانيةٌ لإلٰهًا أو استئنافٌ مقرِّرٌ للتوحيد **﴿سبحانه عما يشركون﴾** عن الإشراك به في العبادة والطاعةِ **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله﴾** إطفاءُ النار عبارةٌ عن إزالة لَهبِها الموجبةِ لزوال نورِها لا عن إزالة نورِها كما قيل، لكن لما كان الغرضُ من إطفاء نارٍ، لا يراد بها إلا النورُ كالمصباح، إزالةَ نورِها جُعل إطفاؤُها عبارةً عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارةً عن مطلق إزالةِ النور وإن كان لغير النار، والسرُّ في ذلك انحصارُ إمكانِ الإزالةِ في نورها والمرادُ بنور الله سبحانه

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب التفسير، باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥) وقال هذا حديث غريب، وأخرجه أيضا الطبري (١٠/ ١١٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢١٨، ٢١٩).
وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطيف بن أعين، وعطيف ليس بالمعروف.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٣٤).

إما حجتُه النيرةُ الدالةُ على وحدانيته وتنزُّهِه عن الشركاء والأولادِ أو القرآن العظيمِ الناطقِ بذلك أي يريد أهلُ الكتابين أن يردّوا القرآنَ ويكذّبوه فيما نطَق به من التوحيد والتنزُّه عن الشركاء والأولادِ والشرائعِ التي من جملتها ما خالفوه من أمر الحِلِّ والحُرمة ﴿بأفواههم﴾ بأقاويلهم الباطلةِ الخارجةِ منها[١] من غير أن يكونَ لها مصداقٌ تنطبقُ عليه أو أصلٌ تستند إليه حسبما حُكي عنهم. وقيل: المرادُ به نُبوةُ النبي ﷺ، هذا وقد قيل: مُثِّلت حالُهم فيما ذكر[٢] بحال مَنْ يريد طمسَ نورٍ عظيم منبثٍّ في الآفاق بنفخة ﴿ويأبى الله﴾ أي لا يريد ﴿إلا أن يتم نوره﴾ بإعلاء كلمةِ التوحيدِ وإعزازِ دينِ الإسلامِ وإنما صح الاستثناءُ المفرَّغُ من الموجَب لكونه بمعنى النفي كما أشير إليه لوقوعه في مقابلة قوله تعالى: ﴿يريدون﴾ وفيه من المبالغة والدِلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادةِ، أي لا يريد شيئًا من الأشياء إلا إتمامَ نورِه فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلًا عن الإطفاء، وفي إظهار النورِ في مَقام الإضمارِ مضافًا إلى ضميره عز وجل زيادةُ اعتناءٍ بشأنه وتشريفٌ له على تشريف وإشعارٌ بعِلة الحُكم ﴿ولو كره الكافرون﴾ جوابُ لو محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، والجملةُ معطوفةٌ على جملة قبلها مقدرةٍ وكلتاهما في موقع الحال، أي لا يريد الله إلا إتمامَ نورِه لو لم يكرَهِ الكافرون ذلك ولو كرهوه، أي على كل حال مفروضٍ وقد حُذفت الأولى في الباب حذفًا مطردًا لدلالة الثانيةِ عليها دَلالةً واضحةً لأن الشيءِ إذا تحقق عند المانِع فلأَنْ يتحققَ عند عدمِه أولى وعلى هذا السرِّ يدور ما في أن ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادةُ تحقيق لهذا مرارًا.

﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ ملتبسًا ﴿بالهدى﴾ أي القرآن الذي هو هدى للمتقين ﴿ودين الحق﴾ الثابتِ وهو دينُ الإسلام ﴿ليظهره﴾ أي رسولُه ﴿على الدين كله﴾ أي

---

(١) في خ: عنها.

(٢) وهذا الكلام مركب مستعمل في غير ما وضع له على طريقة تشبيه الهيئة بالهيئة ومن كمال بلاغته أنه صالح لتفكيك التشبيه، بأن يشبه الإسلام وحده بالنور ويشبه محاولو إبطاله بمريدي إطفاء النور، وشبه الإرجاف والتكذيب بالنفخ، ومن الرشاقة أن آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة، وهي الأفواه وإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم. الإباء هنا تمثيل أيضًا لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من يحاوله محاولة على فعل وهو يمتنع عنه، وقد كنى بالأفواه أيضًا عن قلة حيلتهم، والآية من الاستعارة التمثيلية وقد سبق الحديث عنها.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣)، والتحرير والتنوير (١٠/ ١٧١، ١٧٢)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦).

على أهل الأديانِ كلِّهم أو ليُظهرَ الدينَ الحقَّ على سائر الأديان بنسخه إياها حسبما تقتضيه الحِكمةُ، والجملةُ بيانٌ وتقريرٌ لمضمون الجملةِ السابقة، والكلامُ في قوله عز وجل: ﴿**ولو كره المشركون**﴾ كما فيما سبق خلا أن وصفَهم بالشرك بعد وصفِهم بالكفر للدلالة على أنهم ضمُّوا الكفرَ بالرسول إلى الكفر بالله.

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ شروعٌ في بيان حال الأحبارِ والرهبانِ في إغوائهم لأراذلهم إثرَ بيانِ سوءِ حالِ الأتباع في اتخاذهم لهم أربابًا يُطيعونهم في الأوامر والنواهي واتباعِهم لهم فيما يأتون وما يذرون ﴿**إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل**﴾ يأخذونها بطريق الرِّشوةِ لتغيير الأحكامِ والشرائعِ والتخفيفِ والمسامحة فيها، وإنما عبِّر عن ذلك بالأكل بناءً على أنه معظَمُ الغرَضِ منه وتقبيحًا لحالهم وتنفيرًا للسامعين عنهم ﴿**ويصدون**﴾ الناس ﴿**عن سبيل الله**﴾ عن دين الإسلامِ أو عن المسلك المقرَّر في التوراة والإنجيل إلى ما افترَوْه وحرَّفوه بأخذ الرشا ويصُدُّون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموالَ بالباطل ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾ أي يجمعونهما ويحفَظونهما سواءٌ كان ذلك بالدفن أو بوجه آخرَ، والموصولُ عبارةٌ إما عن الكثير من الأحبار والرهبانِ فيكون مبالغةً في الوصف بالحِرْص والضّنِّ بهما بعد وصفِهم بما سبق من أخذ الرشا[(١)] والبراطيلِ في الأباطيل وإما عن المسلمين الكانزين غيرِ المنفقين وهو الأنسبُ بقوله عز وجل ﴿**ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ فيكون نظمُهم في قَرْن المرتشين من أهل الكتابِ تغليظًا ودِلالةً على كونهم أسوةً لهم في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، فالمرادُ بالإنفاق في سبيل الله الزكاةُ (لما رُوي أنه لما نزل كبُرَ ذلك على المسلمين فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله تعالى لم يفرض الزكاةَ إلا ليُطيِّبَ بها ما بقيَ من أموالكم**»[(٢)] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما أُدِّي**

---

(١) تسمى الرشوة البرطيل وجمعه: براطيل.
قال المرتضى الزبيدي: واختلفوا في البرطيل بمعنى الرشوة، هل هو عربي أو لا؟
وفي المثل: البراطيل تنصر الأباطيل.
والرشوة في الاصطلاح: ما يعطى لإبطال حق، أو لإحقاق باطل.
ينظر: تاج العروس، المعجم الوسيط، حاشية الطحطاوي على الدر (٣/ ١٧٧)، والتعريفات (١٤٨)، الرهوني على الزرقاني (٧/ ٢٩٤)، الباجوري على ابن القاسم (٢/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٨) برقم (١٠٠٨٠)، وابن الأعرابي في معجمه (٤/ ٣١٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٩٤) برقم (٣٣٠٧)، وفي السنن الكبرى (٤/ ٨٣).

زكاتُه فليس بكنز»[1] أي بكنزٍ أوعِد عليه فإن الوعيدَ عليه مع عدم الإنفاقِ فيما أمر الله بالإنفاق فيه. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ تَرَكَ صفراءَ أو بيضاءَ كُوي بها**»[2] ونحوُه فالمرادُ بها ما لم يؤدِّ حقَّها لقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما من صاحب ذهبٍ ولا فضة لا يؤدّي منها حقَّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحَتْ له صفائحُ من نار فيُكوى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه**»[3] ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾ خبرٌ للموصول والفاءُ لتضمنه معنى الشرطِ ويجوز أن يكون الموصولُ منصوبًا بفعل يفسِّره فبشرهم ﴿**يوم**﴾ منصوبٌ بعذاب أليم أو بمضمر يدلُّ عليه ذلك أي يعذّبون أو باذكر ﴿**يُحمىٰ عليها في نار جهنم**﴾ أي يوم توقد النارُ ذاتُ حَمْيٍ شديدٍ عليها، وأصلُه تُحمى النارُ فجعل الإحماءُ للنار مبالغةً ثم حُذفت النارُ وأسند الفعلُ إلى الجارِّ والمجرور تنبيهًا على المقصود

---

(١) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٦٦): غريب بهذا اللفظ.
وقد أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٨٣) مرفوعًا بمعناه من حديث محمد بن كثير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ما أدي زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونًا تحت الأرض، وكل ما لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرًا».
وقال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفًا.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٧) عن ابن عمر مرفوعًا إلى النبي ﷺ بنحو حديث البيهقي، وقال الهيثمي: هو في الصحيح بنحوه، ولكن إلى ابن عمر- رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سويد ابن عبد العزيز وهو ضعيف.
وله شاهد من حديث أم سلمة:
أخرجه أبو داود (٢/ ٩٥): كتاب الزكاة: باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي، حديث (١٥٦٤) من طريق ثابت بن عجلان عن عطاء عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحًا من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكي - فليس بكنز».

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧١): روي من حديث أبي ذر، ومن حديث أبي أمامة .ا هـ.
فحديث أبي ذر:
أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٣٥٩)، رقم (١٦٦٧٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٢٠)، والبخاري في تاريخه الوسط وابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٢).
أما حديث أبي أمامة:
أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١٦٨) رقم (٧٦٣٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٢٨)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه بقية وهو مدلس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٢٠)، وعزاه إلى ابن مردويه في تفسيره.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦٨٠) كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، برقم (٢٤/ ٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فانتقل من صيغة التأنيثِ إلى التذكير كما تقول: رُفعت القصةُ إلى الأمير فإن طرحْتَ القِصةَ قلت: رُفع إلى الأمير وإنما قيل: عليها والمذكورُ شيئان لأن المرادَ بهما دنانيرُ ودراهمُ كثيرةٌ (كما قال علي رضي الله عنه: أربعةُ آلافٍ وما دونها نفقةٌ، وما فوقها كنزٌ)[١] وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿**ولا ينفقونها**﴾ وقيل: الضميرُ للأموال والكنوزِ فإن الحُكم عامٌّ وتخصيصُهما بالذكر لأنهما قانونُ التموّلِ، أو للفضة وتخصيصُها لقربها ودَلَالة حكمِها على أن الذهبَ كذلك بل أولى ﴿**فتكوى بها جباههم وجنوبُهم وظهوُرهم**﴾ لأن جمعَهم لها وإمساكَهم كان لطلب الوجاهةِ بالغنى والتنعُّم بالمطاعم الشهيةِ والملابس البهيةِ أو لأنهم ازوَرُّوا عن السائل وأعرضوا عنه وولَّوْه ظهورَهم أو لأنها أشرفُ الأعضاءِ الظاهرةِ فإنها المشتملةُ على الأعضاء الرئيسةِ التي هي الدماغُ والقلبُ والكبِدُ أو لأنها أصولُ الجهات الأربعةُ التي هي مقاديمُ البدن ومآخِرُه وجنباه ﴿**هذا ما كنزتم**﴾ على إرادة القول ﴿**لأنفسكم**﴾ لمنفعتها فكان عينَ مَضرَّتها وسببَ تعذيبها ﴿**فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾ أي وبالَ كنزِكم أو ما تكنِزونه وقرئ[٢] بضم النون.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿**إن عدة الشهور**﴾ أي عددَها ﴿**عند الله**﴾ أي في حكمه وهو معمولٌ لها لأنها مصدرٌ ﴿**اثنا عشر**﴾ خبرٌ لإن ﴿**شهرًا**﴾ تمييزٌ مؤكدٌ كما في قولك: عندي من الدنانير عشرون دينارًا والمرادُ الشهورُ القمريةُ إذ عليها يدور فلكُ الأحكام الشرعية ﴿**في كتاب الله**﴾ في اللوحِ المحفوظِ أو فيما أثبته وأوجبه، وهو صفةُ اثنا عشر أي اثنا عشر شهرًا مُثبتًا في كتاب الله، وقولُه عز وجل: ﴿**يوم خلق السموات والأرض**﴾ متعلقٌ بما في الجارِّ والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدرٌ. والمعنى إن هذا أمرٌ ثابتٌ في نفس الأمرِ منذ خلق الله تعالى الأجرامَ والحركاتِ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٩) رقم (٧١٥٠)، والطبري في تفسيره: (٦/ ٣٥٨) رقم (١٦٦٧٢، ١٦٦٧٣).

وذكره الثعلبي والبغوي في تفسيريهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٨).

والأزمنة ﴿منها﴾ أي من تلك الشهورِ الاثنيْ عشر ﴿أربعة حرُم﴾ هي ذو القَعدة وذو الحِجة والمحرَّم ورجبٌ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في خُطبته في حجة الوداع: «**ألا إن الزمانَ قد استدار كهيئته يومَ خلقَ الله السمواتِ والأرضَ السنةُ اثنا عشرَ شهرًا منها أربعةٌ حرُمٌ ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القَعدةِ وذو الحِجة والمحرَّم، ورجبُ مُضَرَ الذي بين جُمادىٰ وشعبانَ**»[1] والمعنى رجعت الأشهرُ إلى ما كانت عليه من الحِل والحُرمة وعاد الحجُّ إلى ذي الحِجّة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسيءِ الذي أحدثوه في الجاهلية. وقد وافقت حَجةُ الوَداعِ ذا الحِجة، وكانت حَجةُ أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القَعدة ﴿ذلك﴾ أي تحريم الأشهرِ الأربعة المعينة المعدودةِ، وما في ذلك من معنى البُعد لتفخيم المشار إليه هو ﴿الدين القيم﴾ المستقيمُ دينُ إبراهيَم وإسماعيلَ عليهما السلام، وكانت العرب قد تمسكت به وراثةً منهما، وكانوا يعظّمون الأشهرَ الحرمَ ويكرهون القتال فيها حتى إنه لو لقيَ رجلٌ قاتلَ أبيه أو أخيه لم يَهِجْهُ، وسمَّوا رجبًا الأصمَّ ومنصل الأسنة[2] حتى أحدثوا النسيء

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٩٠) كتاب العلم: باب قول النبي ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع» حديث (٦٧)، (١/ ٢٤٠) كتاب العلم: باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب حديث (١٠٥) (٤/ ٦٧٠) كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى حديث (١٧٤١)، (٦/ ٣٣٨) كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في سبع أرضين حديث (٣١٩٧)، (٧/ ٧١١) كتاب المغازي: باب حجة الوداع حديث (٤٤٠٦)، (١٠/ ١٠) كتاب الأضاحي: باب الأضحى يوم النحر حديث (٥٥٥٠)، (١٣/ ٢٩) كتاب الفتن: باب قول النبي ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» حديث (٧٠٧٨)، (١٣/ ٤٣٣، ٤٣٤) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ حديث (٧٤٤٧)، ومسلم (٣/ ١٣٠٥-١٣٠٧) كتاب القسامة : باب تغليظ تحريم الدماء حديث (٢٩، ٣٠، ٣١/ ١٦٧٩) وأبو داود (١/ ٥٩٩) كتاب المناسك: باب الأشهر الحرم حديث (١٩٤٨) وابن ماجه مختصرًا (١/ ٨٥) المقدمة: باب من بلغ علمًا، حديث (٢٣٣) وأحمد (٥/ ٣٧، ٤٥، ٤٩) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٨٣٣) والبيهقي (٥/ ١٤٠) كتاب الحج: باب الخطبة يوم النحر، كلهم من طريق محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعًا.
تنبيه: سقط من إسناد ابن الجارود أبو بكرة ولعله سهو من طابع أو ناسخ مرفوع محمد ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ.
وعبد الرحمن ليس هو القائل وليست له صحبة.
قوله: «بين جمادى وشعبان» تأكيد للبيان؛ لأنهم كانوا يؤخرونه ـ أي ينسئونه ـ من شهر إلى شهر فيتحول عن موضعه الذي يختص به. وإنما قيل: رجب مضر لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم فكأنهم اختصّوا به.

(٢) أي مُخرج الأسنَّة من أماكنها. كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام إبطالاً للقتال فيه وقطعاً لأسباب الفتن.

فغيروا ﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ بهتك حرمتِهن وارتكابِ ما حرّم فيهن، والجمهورُ على أن حرمةَ القتال فيهن منسوخةٌ وأن الظلم ارتكابُ المعاصي فيهن فإنه أعظمُ وزرًا كارتكابها في الحرَم وعن عطاء أنه لا يحِلّ للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرُم. إلا أن يقاتلَوا وما نسخت. ويؤيد الأولَ أنه عليه الصلاة والسلام حصرَ طائفًا وغَزَا هَوازنَ بحُنين في شوال وذي القعدة.

﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾ أي جميعًا وهو مصدرُ كفّ عن الشيء فإن الجميع مكفوفٌ عن الزيادة وقع موقعَ الحال ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ أي معكم بالنصر والإمداد فيما تباشِرونه من القتال. وإنما وضع المُظهرُ موضعَه مدحًا لهم بالتقوى وحثًا للقاصرين عليه وإيذانًا بأنه المدارُ في النصر وقيل: هي بشارةٌ وضمانٌ لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

﴿**إنما النسيء**﴾ هو مصدرُ نسَأه إذا أخَّره نسْأً[(١)] ونَساءً[(٢)] ونسيئًا نحوُ مسَّ مسًّا ومَساسًا ومسيسًا وقرئ بهن جميعًا وقرئ[(٣)] بقلب الهمزة ياءً وتشديدِ الياء الأولى فيها. كانوا إذا جاء شهرٌ حرامٌ وهم محارِبون أحلُّوه وحرَّموا مكانه شهرًا آخر حتى رفضوا خصوصَ الأشهر واعتبروا مجردَ العددِ وربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثةَ عشرَ أو أربعةَ عشَر ليتسعَ لهم الوقت ويجعلوا أربعةَ أشهر من السنة حُرُمًا ولذلك نصّ على العدد المعين في الكتاب والسنة أي إنما تأخيرُ حرمةِ شهرٍ إلى شهر آخر ﴿**زيادة في الكفر**﴾ لأنه تحليلُ ما حرمه الله وتحريمُ ما حلله فهو كفرٌ آخرُ مضمومٌ إلى كفرهم ﴿**يضل به الذين كفروا**﴾ ضلالًا على ضلالهم القديم، وقرئ[(٤)]

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، والسلمي، وطلحة، والأشهب، وشبل، وعبيد بن عقيل، ومحمد بن سعدان.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٩).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٨).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، والبزي، وخلف، وشبل، والأزرق، وأبو جعفر، والزهري، وحميد، وورش، والحلواني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٢)، والإعراب للنحاس(٢/ ١٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢١٥)، والتيسير للداني ص (١١٨).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، ورويس، والحسن، وأبو رجاء، وابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعمرو ابن ميمون، والأعمش.
=

على البناء للفاعل من الأفعال على أن الفعلَ لله سبحانه أي يخلُق فيهم الضلال عند مباشرتِهم لمباديه وأسبابِه وهو المعنيُّ على القراءة الأولى أيضًا، وقيل: المُضِلّون حينئذ رؤساؤُهم والموصولُ عبارةٌ عن أتباعهم، وقرئ (يَضَلُّ)[1] بفتح الياء والضاد من ضَلِل[2] ونُضِلّ بنون العظمة **﴿يُحلونه﴾** أي الشهرَ المؤخر **﴿عامًا﴾** من الأعوام ويحرِّمون مكانه شهرًا آخرَ مما ليس بحرام **﴿ويحرمونه﴾** أي يحافظون على حُرمته كما كانت، والتعبيرُ عن ذلك بالتحريم باعتبار إحلالِهم له في العام الماضي أو لإسنادهم له إلى آلهتهم كما سيجيء **﴿عامًا﴾** آخرَ إذا لم يتعلقْ بتغييره غرضٌ من أغراضهم. قال الكلبي: أولُ من فعل ذلك رجلٌ من كنانة يقال له نُعيم بنُ ثعلبة وكان إذا همّ الناسُ بالصدَر من الموسم يقوم فيخطب ويقول: لا مردَّ لما قضيْتُ وأنا الذي لا أُعاب ولا أُجاب فيقول له المشركون: لبيك ثم يسألونه أن يَنْسأهم شهرًا يغيِّرون فيه فيقول: إن صفرَ العامَ حرامٌ فإذا قال ذلك حلّوا الأوتارَ ونزعوا الأسنةَ والأزِجّة وإن قال: حلالٌ عقدوا الأوتار وشدّوا الأزجةَ وأغاروا، وقيل: هو جُنادةُ بنُ عوفٍ الكنانيُّ وكان مطاعًا في الجاهلية كان يقوم على جمل في الموسم فينادي بأعلى صوتِه: إن آلهتَكم قد أحلت لكم المحرَّم فأحِلّوه ثم يقوم في العام القابل فيقول: إن آلهتَكم قد حرمت عليكم المحرَّمَ فحرِّموه، وقيل: هو رجلٌ من كنانةَ يقال له القَلَمّسُ قال قائلهم: [الوافر]

ومـنـا نـاسـئُ الـشـهـرِ الـقَـلَـمَّـس[3]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أولُ من سنَّ النسيءَ عمرُ[4] بنُ قُمعةَ بن خندِفَ[5] والجملتان تفسيرٌ للضلال أو حالٌ من الموصول والعاملُ عاملُه **﴿ليواطئوا﴾** أي ليوافقوا **﴿عدة ما حرم الله﴾** من الأشهر الأربعةِ واللام متعلقةٌ بالفعل الثاني أو بما يدل عليه مجموعُ الفعلين **﴿فيُحِلّوا ما حرم الله﴾** بخصوصه من الأشهر المعينة **﴿زين لهم سوءُ أعمالهم﴾** وقرئ[6] على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جَعلَ أعمالَهم مشتهاةً

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢١٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٣٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٨).

(١) قرأ بها: أبو رجاء العطاردي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٣٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٧).

(٢) زاد في خ: يضلل.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٨/ ٨٩)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٩١)، ولباب التأويل (٢/ ٣٠٤).

(٤) في خ: عمرو بن لحي.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٢٩١).

(٦) قرأ بها: زيد بن علي. =

للطبع محبوبةً للنفس وقيل: خَذَلهم حتى حسِبوا قبيحَ أعمالِهم حسنًا فاستمروا على ذلك ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هدايةً موصلةً إلى المطلوب ألبتةَ وإنما يهديهم إلى ما يوصل إليه عند سلوكِه وهم قد صدّوا عنه بسوء اختيارِهم فتاهوا في تيه الضلال.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

عود إلى التحريض على القتال

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ رجوعٌ إلى حث المؤمنين وتجريدِ عزائمِهم على قتال الكفرةِ إثرَ بيان طرَفٍ من قبائحهم الموجبةِ لذلك ﴿ما لكم﴾ استفهامٌ فيه معنى الإنكارِ والتوبيخ ﴿إذا قيل لكم انفِروا في سبيل الله اثاقلتم﴾ تباطأتم وتقاعستم أصلهُ تثاقلتم وقد قرئ كذلك، أي أيُّ شيءٍ حصل أو حاصلٌ لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبيُّ ﷺ: «انفِروا»[١] أي اخرُجوا إلى الغزو في سبيل الله متثاقلين، على أن الفعلَ ماضٍ لفظًا مضارعٌ معنىً كأنه قيل: تتثاقلون، فالعاملُ في الظرف الاستقرارُ المقدرُ في لكم أو معنى الفعلِ المدلولِ عليه بذلك ويجوز أن يعملَ فيه الحالُ أي ما لكم متثاقلين حين قيل لكم: انفِروا وقرئ[٢] أثّاقلتم على الاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ، فالعاملُ في الظرف حينئذ إنما هو الأول ﴿إلى الأرض﴾ متعلقٌ باثاقلتم على تضمينه معنى المَيْلِ والإخلادِ أي اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتِها الفانيةِ عما قليل، وكرِهتم مشاقَّ الغزوِ ومتاعبَه المستتبعةَ للراحة الخالدة، كقوله تعالى: ﴿أخلدَ إلى الأرض واتبعَ هواه﴾ [الأعراف: ١٧٦] أو إلى الإقامة بأرضكم وديارِكم وكان ذلك في غزوة

= ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٩).

(١) ليس بحديث إذ إنه كلام المصنف وشرحه للآية.

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٨٩).

تبوكَ في سنة عشرٍ بعد رجوعِهم من الطائف استُنفِروا في وقت عُسرةٍ وقَحطٍ وقَيْظ، وقد أدركت ثمارُ المدينة وطابت ظلالُها مع بعد الشُّقةِ وكثرةِ العدوِّ فشق عليهم ذلك، وقيل: ما خرج رسولُ الله ﷺ في غزوة غزاها إلا ورَّى[1] بغيرها إلا في غزوة تبوكَ فإنه عليه الصلاة والسلام بيّن لهم المقصِدَ فيها ليستعدوا لها ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا﴾ وغرورِها ﴿من الآخرة﴾ أي بدلَ الآخرة ونعيمِها الدائم ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أظهر في مقام الإضمارِ لزيادة التقرير أي فما التمتعُ بها وبلذائذها ﴿في الآخرة﴾ أي في جنب الآخرة ﴿إلا قليل﴾ أي مستحقَرٌ لا يُؤبَه له، وفي ترشيح الحياةِ الدنيا بما يُوذِن بنفاستها ويستدعي الرغبةَ فيها وتجريدِ الآخرة عن مثل ذلك مبالغةٌ في بيان حقارة الدنيا ودناءتِها وعِظَم شأن الآخرةِ وعلوِّها ﴿إلا تنفروا﴾ أي إلا تنفِروا إلى ما استُنفرتم إليه ﴿يعذبْكم﴾ أي الله عز وجل ﴿عذابًا أليمًا﴾ أي يُهلكْكم بسبب فظيع هائل كقَحط ونحوِه ﴿ويستبدل﴾ بكم بعد إهلاكِكم ﴿قومًا غيركم﴾ وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيدِ والتشديد في التهديد بالدِلالة على المغايرةِ الوصفيةِ والذاتيةِ المستلزِمة للاستئصال، أي قومًا مطيعين مُؤْثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامِكم كأهل اليمنِ وأبناءِ فارسَ، وفيه من الدِلالة على شدة السُّخط ما لا يخفى ﴿ولا تضروه شيئًا﴾ أي لا يقدح تثاقلُكم في نُصرة دينِه أصلًا فإنه الغنيُّ عن كل شيءٍ في كل شيءٍ، وقيل: الضمير للرسول ﷺ فإن الله عز وجل وعده بالعصمة والنصرةِ وكان وعدُه مفعولًا لا محالة ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على إهلاككم والإتيانِ بقوم آخرين.

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي إن لم تنصُروه فسينصُره الله الذي قد نصره في وقت ضرورةٍ أشدَّ من هذه المرة، فحُذف الجزاءُ وأقيم سببُه مُقامَه أو إن لم تنصُروه فقد أوجب له النُّصرة حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذُله في غيره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي تسببوا لخروجه حيث أُذن له عليه الصلاة والسلام في ذلك حين همّوا بإخراجه ﴿ثاني اثنين﴾ حالٌ من ضميره عليه الصلاة والسلام، وقرئ[2] بسكون الياء على لغة من يُجري الناقصَ مُجرى المقصور في الإعراب، أي أحدَ اثنين من غير اعتبار كونِه عليه الصلاة والسلام ثانيًا فإن معنى قولِهم: ثالثُ ثلاثةٍ ورابعُ أربعةٍ ونحوُ ذلك أحدُ هذه الأعدادِ مطلقًا لا الثالثُ والرابعُ خاصة، ولذلك منع الجمهورُ أن يُنصَبَ ما

---

(١) أي سترها وكنَّى عنها وأوهم أنه يريد غيرها. وأصله من الوراء، أي ألقى البيان وراء ظهره.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، (في الشواذ).
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩)، والبحر المحيط (٥/ ٤٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٤٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٨٩).

بعده بأن يقال: ثالثٌ ثلاثةً ورابعٌ أربعةً، وقد مر في قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثةٍ**﴾ من سورة المائدة [٧٣] وجعلُه عليه الصلاة والسلام ثانيَهما لمشي الصديقِ أمامَه ودخولِه في الغار أولًا لكنسه وتسويةِ البِساط له، كما ذكر في الأخبار، تمحّلٌ مُستغنىً عنه ﴿**إذ هما في الغار**﴾ بدلٌ من إذ أخرجه بدلَ البعضِ إذ المرادُ به زمانٌ متسعٌ والغارُ ثقبٌ في أعلى ثوْرٍ وهو جبلٌ في يُمنىٰ مكةَ على مسيرة ساعةٍ مكثا فيه ثلاثًا.

﴿**إذ يقول**﴾ بدلٌ ثانٍ أو ظرفٌ لثانيَ ﴿**لصاحبه**﴾ أي الصدّيق ﴿**لا تحزن إن الله معنا**﴾ بالعون والعصمةِ والمرادُ بالمعية الولايةُ الدائمةُ التي لا تحوم حول صاحبِها شائبةُ شيءٍ من الحزن، وما هو المشهورُ من اختصاص مَعَ بالمتبوع فالمرادُ بما فيه من المتبوعية[(١)] في الأمر المباشر، (روي أن المشركين لما طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: إنْ نُصَبْ اليومَ ذهب دينُ الله فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما؟**»[(٢)] وقيل: (لما دخلا الغارَ بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوتَ فنسَجت عليه[(٣)] وقال رسول الله ﷺ: «**اللهم أعمِ أبصارَهم**»[(٤)] فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطَنون قد أخذ الله تعالى

---

(١) زاد في خ: هو المتبوعية.

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. ا هـ.
والحديث أخرجه البخاري (٧/ ٣٥٥): كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة رضي الله عنه، حديث (٣٦٥٣)، وطرفاه في (٣٩٢٢، ٤٦٦٣)، ومسلم (٨/ ١٦٠-النووي): كتاب فضائل الصحابة- رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق- رضي الله عنه-، حديث (١/ ٢٣٨١)، والترمذي (٥/ ٢٧٨): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٦)، كلهم من طريق همام عن ثابت عن أنس عن أبي بكر به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما يعرف من حديث همام تفرد به، وقد روى هذا الحديث حبان بن هلال، وغير واحد عن همام نحو هذا.

(٣) أخرجه البزار (٢/ ٢٩٩-٣٠٠) رقم (١٧٤١).
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٥-٥٦) وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه جماعة لم أعرفهم.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٨١-٤٨٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص (٢٣٤).
كلهم من طريق أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يحدثون عن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله سبحانه وتعالى شجرة فنبتت على وجه الغار.... الحديث».
وله شاهد من حديث ابن عباس:
أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨٩) رقم (٩٧٤٣).

(٤) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧٧): قوله- عليه السلام-: «اللهم أعم أبصارهم». لم أجده.

أبصارهم عنه)، وفيه من الدِلالة على علو طبقةِ الصّدّيق رضي الله عنه وسابقةِ صُحبتِه ما لا يخفى، ولذلك قالوا: من أنكر صُحبةَ أبي بكر رضى الله عنه فقد كفر لإنكاره كلامَ الله سبحانه وتعالى **﴿فأنزل الله سكينته﴾** أَمَنَتَه التي تسكُن عندها القلوب **﴿عليه﴾** على النبي ﷺ فالمرادُ بها ما لا يحوم حوله شائبةُ الخوفِ أصلًا أو على صاحبه إذ هو المنزعِج، وأما النبي ﷺ فكان على طُمَأْنينة من أمره **﴿وأيده بجنود لم تروها﴾** عطفٌ على نصره الله والجنودُ هم الملائكةُ النازلون يوم بدرٍ والأحزابِ وحُنينٍ، وقيل: هم الملائكةُ أنزلهم الله ليحرِسوه في الغار ويأباه وصفُهم بعدم رؤيةِ المخاطَبين لهم وقوله عز وعلا: **﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾** يعني الشركَ أو دعوةَ الكفرِ فإن ذلك الجعلَ لا يتحقق بمجرد الإنجاءِ بل بالقتل والأسر ونحو ذلك **﴿وكلمة الله﴾** أي التوحيدُ أو دعوةُ الإسلام **﴿هي العليا﴾** لا يدانيها شيءٌ، وتغييرُ الأسلوب للدِلالة على أنها في نفسها كذلك لا يتبدل شأنُها ولا يتغيرُ حالُها دون غيرِها من الكلم ولذلك وُسِّط ضميرُ الفصلِ، وقرئ[1] بالنصب عطفًا على كلمة الذين **﴿والله عزيز﴾** لا يغالب **﴿حكيم﴾** في حكمه وتدبيره.

﴿انفروا﴾ تجريدٌ للأمر بالنفور بعد التوبيخ على تركه الإنكار على المساهلة فيه وقوله تعالى: **﴿خفافًا وثقالًا﴾** حالان من ضمير المخاطبين أي على أيّ حالٍ كان من يُسر وعُسر حاصلَين بأي سببٍ كان من الصِحة والمرض، أو الغِنى والفقر، وقلةِ العيال وكثرتِهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدةُ الأسباب وعدمُها بعد الإمكان والقدرةِ في الجملة، وما ذكر في تفسيرهما من قولهم: خفافًا لقلة عيالِكم وثقالًا لكثرتها أو خِفافًا من السلاح وثِقالًا منه أو رُكبانًا ومُشاةً أو شبانًا وشيوخًا أو مهازيلَ وسِمانًا أو صِحاحًا ومِراضًا ليس لتخصيص الأمرَين المتقابلَين بالإرادة من غير مقارنةٍ للباقي وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول الله ﷺ: أعليّ أن أنفِر؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**نعم**» حتى نزل **﴿ليس على الأعمى حرج﴾** [**النور:٦١ والفتح:١٧**][2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما نسخت بقوله عز وجل: **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾** [التوبة: ٩١] الآية **﴿وجاهِدوا بأموالكم وأنفسِكم في سبيل الله﴾** إيجابٌ للجهاد بهما إن أمكن وبأحدهما عند إمكانِه وإعوازِ الآخَر، حتى إن من ساعده النفسُ والمالُ يجاهدُ بهما

---

(١) قرأ بها: يعقوب، والأعمش، والحسن، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٩)، والبحر المحيط (٥/ ٤٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٢١)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٤٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٣١).

(٢) تقدم تخريجه.

ومن ساعده المالُ دون النفسِ يغزي مكانَه مَنْ حالُه على عكس حالِه. إلى هذا ذهب كثيرٌ من العلماء وقيل: هو إيجابٌ للقسم الأول فقط ﴿ذلكم﴾ أي ما ذكر من النفير والجهادِ، وما في اسم الإشارةِ من معنى البعدِ للإيذان ببعد منزلِته في الشرف ﴿خير لكم﴾ أي خيرٌ عظيمٌ في نفسه أو خبر(١) مما يبتغىٰ بتركه من الراحة والدعةِ وسَعةِ العيشِ والتمتع بالأموال والأولاد ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي تعلمون الخيرَ علمتم أنه خيرٌ أو إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ إذ لا احتمال لغير الصدقِ في أخبار الله تعالى فبادروا إليه.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟

(١) في خ: خير.

مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ
رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى
ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن
يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ
﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ
تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً
فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ
ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟
وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا
مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟

يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

﴿**لو كان**﴾ صرفٌ للخطاب عنهم وتوجيهٌ له إلى رسول الله ﷺ تعديدًا لما صدَر عنهم من الهنات قولًا وفعلًا على طريق المباثةِ وبيانًا لدناءة هممِهم وسائرِ رذائلِهم أي لو كان ما دعَوا إليه ﴿**عرضًا قريبًا**﴾ العرَضُ ما عرَض لك من منافعِ الدنيا أي لو كان ذلك غُنمًا سَهلَ المأخذِ قريبَ المنال ﴿**وسفرًا قاصدًا**﴾ (ذا قصدٍ) بين القريبِ والبعيد ﴿**لاتبعوك**﴾ في النفير طمعًا في الفوز بالغنيمة، وتعليقُ الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققِه عند توسّط السفرِ فقط ﴿**ولكن بعدت عليهم الشقة**﴾ أي المسافةُ الشاطّةُ[1]

(١) زاد في خ: الشقة.

التي تُقطع بمشقة وقرئ[١] بكسر العين والشين ﴿**وسيحلفون**﴾ أي المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى: ﴿**بالله**﴾ إما متعلقٌ بـ (سيحلفون) أو هو من جملة كلامِهم والقولُ مرادٌ على الوجهين أي سيحلفون بالله اعتذارًا عند قفولك قائلين: ﴿**لو استطعنا**﴾ أو سيحلِفون قائلين: بالله لو استطعنا . . . إلخ، أي: [و][٢] لو كان لنا استطاعةٌ[٣] من جهة الصحةِ أو من جهتهما جميعًا حسبما عنّ لهم من الكذب والتعللِ، وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى: ﴿**لخرجنا معكم**﴾ سادٌّ مسدَّ جوابي القسمِ والشرط جميعًا. أما على الثاني فظاهرٌ وأما على الأول فلأن قولَهم: لو استطعنا في قوة بالله لو استطعنا لأنه بيانٌ لقوله تعالى: ﴿**سيحلفون بالله**﴾ وتصديقٌ له، والإخبارُ بما سيكون منهم بعد القُفولِ، وقد وقع حسبما أُخبر به، من جملة المعجزات الباهرة، وقرئ لو استطعنا بضم الواو تشبيهًا لها بواو الجمع كما في قوله عز وجل: ﴿**فتمنَّوا الموتَ**﴾ [البقرة: ٩٤. والجمعة: ٦] ﴿**يهلكون أنفسهم**﴾ بدلٌ من (سيحلفون) لأن الحلِفَ الكاذبَ إهلاكٌ للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**اليمينُ الفاجرةُ تدع الديارَ بلاقِعَ**»[٤]. أو حالٌ من فاعله أي مهلِكين أنفسَهم أو من فاعل (خرَجْنا)، جيء به على طريقة الإخبارِ عنهم كأنه قيل: نهلك أنفسَنا أي لخرَجْنا معكم مهلِكين أنفسَنا كما في قولك: حلَف ليفعلن مكان لأفعلن ﴿**والله يعلم إنهم لكاذبون**﴾ أي في مضمون الشرطيةِ وفيما ادّعَوا ضمنًا من انتفاء تحققِ المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا.

﴿**عفا الله عنك**﴾ صريحٌ في أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة والسلام ما وقع منه عند استئذانِ المتخلفين في التخلف معتذرين بعدم الاستطاعةِ، وإذنُه اعتمادًا على أَيْمانهم ومواثيقِهم لخلوها عن المزاحِم من ترك الأولى والأفضلِ الذي هو التأنّي والتوقفُ إلى انجلاء الأمرِ وانكشافِ الحالِ، وقولُه عز وجل: ﴿**لم أذنت لهم**﴾ أي لأي سببٍ أذِنْتَ لهم في التخلف حين اعتلّوا بعللهم بيانٌ لما أشير إليه بالعفو من ترك الأولى وإشارةٌ إلى أنه ينبغي أن تكون أمورُه عليه الصلاة والسلام منوطةً بأسباب قويةٍ

---

(١) قرأ بها بعدت: عيسى بن عمر، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩١).
الشقة: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٥)، وتفسير الرازي (١٦/ ٧٢).

(٢) سقط في خ.

(٣) زاد في خ: من جهة العدة أو.

(٤) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٧٦) برقم (٢٥٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٥) كتاب الأيمان، باب: ما جاء في اليمين الغموس، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

موجبةٍ لها أو مصححةٍ وأن ما أبرزوه في معرض التعلل والاعتذارِ مشفوعًا بالأيمان كان بمعزل من كونه سببًا للإذن قبل ظهورِ صدقِه، وكلتا اللامَين متعلقةٌ بالإذن لاختلافهما في المعنى فإن الأولى للتعليل والثانيةُ للتبليغ، والضميرُ المجرورُ لجميع المستأذِنين، وتوجهُ الإنكار إلى الإذن باعتبار شمولِه للكل لا باعتبار تعلّقِه بكل فردٍ لتحقق عدمِ استطاعةِ بعضِهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أيَ فيما أَخبروا به عند الاعتذارِ من عدم الاستطاعةِ من جهة المالِ أو من جهة البدن أو من جهتهما معًا حسبما عنّ لهم هناك.

﴿وتعلم الكاذبين﴾ في ذلك فتعامل كلاً من الفريقين بما يستحقه وهو بيانٌ لذلك الأولى [و][1] الأفضلِ، وتحضيضٌ له - عليه الصلاة والسلام - عليه، فإن كلمة حتى سواءٌ كانت بمعنى اللامِ أو بمعنى إلى لا يمكن تعلقُها بقوله تعالى: **﴿لم أذنت﴾** لاستلزامه أن يكون إذنُه عليه الصلاة والسلام لهم معلّلًا أو مُغيًّا[2] بالتبين والعلم ويكون توجُّهُ الاستفهامِ إليه من تلك الحيثيةِ وذلك بيِّنُ الفسادِ بل بما يدل عليه ذلك، كأنه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم وهلاّ تأنّيت حتى ينجليَ الأمر كما هو قضيةُ الحزْم!

قال قتادة وعمرو بنُ ميمون: اثنان فعلهما رسولُ الله ﷺ لم يؤمَر فيهما بشيء: إذنُه للمنافقين وأخذهُ الفداءَ من الأُسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون. وتغييرُ الأسلوب بأن عبّر عن الفريق الأولِ بالموصول الذي صلتُه فعلٌ دالٌّ على الحدوث وعن الفريق الثاني باسم الفاعلِ المفيدِ للدوام للإيذان بأن ما ظهر من الأوّلين صدقٌ حادثٌ في أمر خاص غيرُ مصحِّح لنظمهم في سلك الصادقين، وأن ما صدر من الآخَرين وإن كان كذبًا حادثًا متعلقًا بأمر خاص لكنه أمرٌ جارٍ على عادتهم المستمرةِ ناشئ عن رسوخهم في الكذب. والتعبيرُ عن ظهور الصدقِ بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهورُ من أن مدلولَ الخبر هو الصدقُ والكذبُ احتمالٌ عقلي فظهورُ صدقِه إنما هو تبيّنُ ذلك المدلولِ وانقطاعُ احتمالِ نقيضِه بعد ما كان محتمِلًا له احتمالًا عقليًا وأما كذبُه فأمرٌ حادثٌ لا دِلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكونَ ظهورُه تبيّنًا له بل هو نقيضٌ لمدلوله فما يتعلق به يكون عِلْمًا مستأنفًا، وإسنادُه إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا إلى المعلومين ببناء الفعلِ للمفعول مع إسناد التبيّنِ إلى الأولين لما أن المقصودَ هاهنا علمُه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتُهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذةَ عليهم ومن لم يتنبَّه لهذا قال: حتى يتبين

---

(١) سقط في خ.

(٢) أي لعلَّةٍ أو غاية.

لك مَنْ صدق في عذره ممن كذَب فيه، وإسنادُ التبيُّنِ إلى الأولين وتعليقُ العلمِ بالآخَرين، مع أن مدارَ الإسنادِ والتعلقِ أولا وبالذات هو وصفُ الصدقِ والكذب كما أشير إليه، لما أن المقصِدَ هو العلمُ بكلا الفريقين باعتبار اتصافِهما بوصفهما المذكورَين ومعاملتِهما بحسب استحقاقِهما لا العلمُ بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامِهما بموصوفيهما. هذا وفي تصدير فاتحةِ الخطابِ ببشارة العفوِ دون ما يوهم العتابَ من مراعاة جانبِه عليه الصلاة والسلام وتعهده بحسن المفاوضةِ ولُطفِ المراجعةِ ما لا يخفى على أولي الألباب. قال سفيانُ بن عيينة: انظرْ إلى هذا اللطفِ بدأ بالعفو قبل ذكر المعفوّ.

ولقد أخطأ وأساء الأدبَ وبئسما فعل، فيما قال وكتب، مَنْ زعم أن الكلام كنايةٌ عن الجناية وأن معناه أخطأتَ وبئسما فعلتَ. هبْ أنه كنايةٌ أليس إيثارُها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب والتخفيفِ في العتاب؟ وهب أن العفوَ مستلزِمٌ للخطأ فهل هو مستلزمٌ لكونه من القبح واستتباعِ اللائمة بحيث يصحِّح هذه المرتبةَ من المشافهة بالسوء أو يسوِّغُ إنشاءَ الاستقباحِ بكلمة بئسما المنبئةِ عن بلوغِ القبحِ إلى رتبة يتعجَّب منها! ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحةٌ للدين أو منفعةٌ للمسلمين بل كان[1] فسادًا وخَبالًا حسبما نطَق به قولُه عز وجل: ﴿**لو خرجوا**﴾ [التوبة، الآية ٤٧] إلخ، وقد كرِهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿**ولكن كره الله انبعاثهم**﴾ [التوبة، الآية ٤٦] نعم كان الأولى تأخيرُ الإذن حتى يظهر كذبُهم آثَرَ ذي أثيرٍ[2] ويفتضحوا على رؤوس الأشهادِ ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعةِ ولا يتسنّى لهم الابتهاجُ فيما بينهم بأنهم غرُّوه عليه الصلاة والسلام وأرضَوْه بالأكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيشٌ ولا قرت لهم عينٌ إذ لم يكونوا على أمن واطمئنانٍ بل كانوا على خوف من ظهور أمرِهم وقد كان.

من أخلاق المنافقين

﴿**لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ تنبيهٌ على أنه كان ينبغي أن يُستدل باستئذانهم على حالهم ولا يُؤذَنَ لهم أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في ﴿**أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ وإن الخُلَّصَ منهم يبادرون إليه من غير توقفٍ على الإذن فضلًا عن أن يستأذنوك في التخلف، وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان

---

(١) زاد في خ: فيه.
(٢) يقال: آثر ذي أثير، وإثر ذي أثير، وأول ذي أثير: أي أول كل شيء.

ذلك مَئِنّةً[١] للتأني في أمرهم بل دليلًا على نفاقهم، وقيل: المستأذَنُ فيه محذوفٌ ومعنى قوله تعالى: ﴿**أن يجاهدوا**﴾ كراهةَ أن يجاهدوا ثم قيل: المحذوفُ هو التخلّفُ والمعنى لا يستأذنك المؤمنون في التخلف كراهةَ الجهاد، فيتوجّه النفيُ إلى القيد وبه يمتاز المؤمنُ من المنافق، وهو وإن كان في نفسه أمرًا خفيًا لا يوقف عليه باديءَ الأمرِ لكن عامةَ أحوالِهم لما كانت مُنبئةً عن ذلك جُعل أمرًا ظاهرًا مقررًا وقيل: هو الجهادُ أي لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد كراهةَ أن يجاهدوا بناءً على أن الاستئذان في الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان في الشيء لكراهته مما لا يقع بل لا يُعقل ولو سَلِم وقوعُه، فالاستئذانُ لعلة الكراهة[٢] مما لا يمتاز بحسب الظاهرِ من الاستئذان لعلة الرغبةِ ولو سلِم فالذي نُفيَ عن المؤمنين يجب أن يثبُتَ للمنافقين وظاهرٌ أنهم لم يستأذِنوا في الجهاد لكراهتهم له بل إنما استأذنوا في التخلف ﴿**والله عليم بالمتقين**﴾ شهادةٌ لهم بالانتظام في سلك المتقين وعِدَةٌ لهم بأجزل الثوابِ وتقريرٌ لمضمون ما سبق، كأنه قيل: والله عليم بأنهم كذلك وإشعارٌ بأن ما صدر عنهم معلّلٌ بالتقوى.

﴿**إنما يستأذنك**﴾ أي في التخلف مطلقًا على الأول أو لكراهة الجهادِ على الثاني ﴿**الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ تخصيصُ الإيمان بهما في الموضعين للإيذان بأن الباعثَ على الجهاد ببذل النفسِ والمالِ إنما هو الإيمانُ بهما إذ به يتسنى للمؤمنين استبدالُ الحياةِ الأبدية والنعيم [المقيم][٣] الخالدِ بالحياة الفانية والمتاعِ الكاسد ﴿**وارتابت قلوبهم**﴾ عطفٌ على الصلة، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرُّره ﴿**فهم**﴾ حالَ كونهم ﴿**في ريبهم**﴾ وشكِّهم المستقرِّ في قلوبهم ﴿**يترددون**﴾ أي يتحيرون فإن الترددَ ديدنُ المتحيرِ كما أن الثباتَ ديدنُ المستبصر، والتعبيرُ عنه به مما لا يخفى حسنُ موقعِه ﴿**ولو أرادوا الخروج**﴾ يدل على أن بعضَهم قالوا عند الاعتذارِ: كنا نريد الخروجَ لكن لم نتهيأ له، وقد قرُب الرحيلُ بحيث لا يمكننا الاستعدادُ، فقيل تكذيبًا لهم: لو أرادوه ﴿**لأعدوا له**﴾ أي للخروج في وقته ﴿**عُدّة**﴾ أي أُهبةً (من العَتاد)[٤] والراحلة والسلاح وغيرِ ذلك مما لا بد منه للسفر، وقرئ (عِدَّهُ)[٥] بحذف التاءِ، والإضافةِ إلى ضمير الخروج كما فعل بالعدة مَنْ قال: [البسيط]

---

(١) المئنَّة: علامة الشيء. وكل شيء دلَّ على شيء فهو مئنَّةٌ له.

(٢) في خ: بالكراهة. (٣) سقط في خ.

(٤) في خ: في الزاد.

(٥) قرأ بها: عاصم، وأبان، وزر بن حبيش.

ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٣)، وتفسير الرازي (١٦/ ٧٨).

.... وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وعَدوا[١]

أي عِدتَه وقرئ (عِدّةً)[٢] بكسر العين و(عُدَّتَهُ)[٣] بالإضافة ﴿**ولكن كره الله انبعاثهم**﴾ أي نهوضَهم للخروج. قيل: هو استدراك عما يُفهم من مقدم الشرطيةِ فإن انتفاءَ إرادتِهم للخروج يستلزم انتفاءَ خروجِهم، وكراهةَ الله تعالى انبعاثَهم تستلزم تثبيطَهم عن الخروج، فكأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبَّطوا والاتفاق في المعنى لا يمنع الوقوعَ بين طرَفي لكنْ بعد تحققِ الاختلافِ نفيًا وإثباتًا في اللفظ كقولك: ما أحسن إلي زيد ولكنْ أساء والأظهرُ أن يكون استدراكًا من نفس المقدم عن نهج ما في الأقيسة الاستثنائيةِ، والمعنى لو أرادوا الخروجَ لأعدوا له عُدةً ولكن ما أرادوه لِما أنه تعالى كره انبعاثَهم لما فيه من المفاسد التي ستَبين ﴿**فثبطهم**﴾ أي حبسهم بالجُبن والكسلِ فثبطوا عنه ولم يستدعوا له ﴿**وقيل اقعدوا مع القاعدين**﴾ تمثيلٌ لإلقاء الله تعالى كراهةَ الخروجِ في قلوبهم[٤] أو لوسوسة الشيطانِ بالأمر بالقعود أو هو حكايةُ قولِ بعضِهم لبعض أي هو إذنُ الرسول ﷺ لهم في القعود، والمرادُ بالقاعدين إما المعذورون أو غيرُهم، وأيًا ما كان فغيرُ خالٍ عن الذم.

﴿**لو خرجوا فيكم**﴾ بيانٌ لسر كراهتِه تعالى لانبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿**ما زادوكم**﴾ أي ما أورثوكم شيئًا من الأشياء ﴿**إلا خبالًا**﴾ أي فسادًا وشرًا فالاستثناءُ مفرَّغٌ متصلٌ وقيل: منقطعٌ وليس بذلك ﴿**ولأوضعوا خلالكم**﴾ أي ولسعَوْا فيما بينكم بالنمائم والتضريبِ[٥] وإفسادِ ذاتِ البين من وضَع البعيرُ وضعًا إذا أسرع

---

(١) عجز بيت وصدره:

إنَّ الخليط أجَدُّوا البينَ فانجردوا ....

والبيت للفضل بن عباس في شرح التصريح (٢/ ٣٩٦)، وشرح شواهد الشافية ص (٦٤)، ولسان العرب (غلب، خلط)، والمقاصد النحوية (٤/ ٥٧٢)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٥/ ٢٤١)، وأوضح المسالك (٤/ ٤٠٧)، وشرح شافية ابن الحاجب (١/ ١٥٨)، والخصائص (٣/ ١٧١)، وشرح عمدة الحافظ ص (٤٨٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٣)، وتفسير الرازي (١٦/ ٧٨).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (١٦/ ٧٨).

(٤) وذلك مبني على كراهة إسناد الأفعال القبيحة إلى الله تعالى، ولكن هناك استعارة أخرى في (القعود) فهو مستعمل في ترك الغزو تشبيهًا للترك بالجلوس، والقول الذي في ﴿وقيل اقعدوا﴾ قول أمر التكوين أي كُوِّن منهم القعود عن الغزو، وزيادة قوله: ﴿مع القاعدين﴾ مذمة لهم؛ لأن القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعمي والزمنى.

ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٥)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٥)، وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

(٥) التضريب بين القوم: الإغراء.

وأوضعتُه أنا أي حملتُه على الإسراع والمعنى لأوضعوا ركائبَهم بينكم، والمرادُ به المبالغة في الإسراع بالنمائم لأن الراكبَ أسرعُ من الماشي وقرئ (ولأوقصوا)[١] من وقصت الناقةُ أسرعتْ وأوقصتُها أنا وقرئ (ولأوفضوا)[٢] أي أسرعوا ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يحاولون أن يفتنوكم بإيقاع الخلافِ فيما بينكم وإلقاءِ الرعبِ في قلوبكم وإفسادِ نياتِكم، والجملةُ حالٌ من ضمير أوضعوا أو استئنافٌ ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي نمّامون يسمعون حديثكم لأجل نقلِه إليهم أو فيكم قومٌ ضَعَفةٌ يسمعون للمنافقين أي يُطيعونهم، والجملةُ حالٌ من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما، أو مستأنَفةٌ، ولعلهم لم يكونوا في كمية العددِ وكيفية الفسادِ بحيث يخل مكانُهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهادِ إخلالًا عظيمًا، ولم يكن فسادُ خروجِهم معادلًا لمنفعته، ولذلك لم تقتضِ الحكمةُ عدمَ خروجِهم فخرجوا مع المؤمنين، ولكن حيث كان انضمامُ المنافقين القاعدين إليهم مستتبِعًا لخلل كليٍّ كرِه الله انبعاثَهم فلم يتسنَّ اجتماعُهم فاندفع فسادُهم. ووجهُ العتابِ على الأذن في قعودهم مع تقرُّره لا محالة وتضمُّنِ خروجِهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير إذنٍ منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقُهم فيما بين المسلمين من أول الأمرِ ولم يقدِروا على مخالطتهم والسعي فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسنَّ لهم التمتعُ بالعيش إلى أن يظهرَ حالُهم بقوارعِ الآيات النازلة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ علمًا محيطًا بضمائرهم وظواهرِهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتّىٰ منهم فيما سيأتي، ووضعُ المظهَرِ موضِعَ المضمرِ للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والإشعارِ بترتّبه على الظلم ولعله شاملٌ للفريقين السّماعين والقاعدين.

﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ تشتيتَ شملِك وتفريقَ أصحابِك منك[٣] ﴿من قبل﴾ أي يومَ أحُدٍ حين انصرف عبدُ اللَّه بنُ أُبيٍّ ابنِ سَلولٍ المنافقُ بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوكَ أيضًا بعدما خرج مع النبي ﷺ إلى ذي جُدّة، أسفلَ من ثنية الوداع، وعن ابن جريج رضي الله عنه وقفوا لرسول الله ﷺ على الثنية ليلةَ العقبةِ وهم اثنا عشر رجلًا من المنافقين ليفتِكوا به عليه الصلاة والسلام فردّهم الله تعالى خاسئين ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ تقليبُ الأمر تصريفُه من وجه إلى وجه وترديدُه لأجل التدبير والاجتهادِ في

---

(١) قرأ بها: ابن الزبير.
ينظر: وتفسير الرازي (١٦/ ٨١).

(٢) قرأ بها: مجاهد، ومحمد بن زيد.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٤).

(٣) في خ: عنك.

المكر والحيلة، يقال للرجل المتصرِّف في وجوه الحِيَل: حُوَّلٌ وقُلّبٌ، أي اجتهدوا ودبروا لك الحِيلَ والمكايدَ ودّوروا الآراءَ في إبطال أمرِك، وقرئ[١] بالتخفيف ﴿حتى جاء الحق﴾ أي النصرُ والتأييدُ الإلٰهي ﴿وظهر أمر الله﴾ غلب دينُه وعلا شرعُه ﴿وهم كارهون﴾ والحالُ أنهم كارهون لذلك أي على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيانُ ما ثبّطهم الله تعالى لأجله وهتَك أستارَهم وكشف أسرارَهم، وإزاحةِ أعذارِهم تداركًا لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الإذن وإيذانًا بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهوينًا للخطب ﴿ومنهم من يقول ائذن لي﴾ في القعود ﴿ولا تفتني﴾ أي لا توقِعْني في الفتنة وهي المعصيةُ والإثمُ يريد إني متخلِّفٌ لا محالة أذِنتَ أو لم تأذَنْ فأْذن لي حتى لا أقعَ في المعصية بالمخالفة أو لا تُلقِني في الهلكة فإني إن خرجتُ معك هلَك مالي وعيالي لعدم مَنْ يقوم بمصالحهم. وقيل: قال الجدُّ بنُ قيس: قد علمت الأنصارُ أني مشتهرٌ بالنساء فلا تفتنّي ببنات الأصفر، يعني نساءَ الروم ولكن أُعينُك بمالي فاتركني، وقرئ (ولا تُفْتِنِّي)[٢] من أفْتَنَه بمعنى فتنه ﴿ألا في الفتنة﴾ أي في عينها ونفسها وأكملِ أفرادِها الغنيِّ عن الوصف بالكمال الحقيقِ باختصاص اسم الجنسِ به ﴿سقطوا﴾ لا في شيء مُغايرٍ لها فضلًا عن أن يكون مهرَبًا ومخلَصًا عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءةِ على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعةِ ومن القعود بالإذن المبنيِّ عليه وعلى الاعتذارات الكاذبةِ وقرئ[٣] بإفراد الفعلِ محافظةً على لفظ (من) وفي تصدير الجملةِ بحرف التنبيه مع تقديم الظرفِ إيذانٌ بأنهم وقعوا فيها وهم يحسَبون أنها مَنْجى من الفتنة زعمًا منهم أن الفتنةَ إنما هي التخلفُ بغير إذن، وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيلٌ لها منزلةَ المَهواة المُهلِكةِ المُفصحةِ عن تردّيهم في دَركات الرَّدى أسفلَ سافلين.

وقوله عز وجل: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ وعيدٌ لهم على ما فعلوا معطوفٌ على الجملة السابقة داخلٌ تحت التنبيهِ أي جامعةٌ لهم يوم القيامة من كل جانب، وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ للدِلالة على الثبات والاستمرارِ أو محيطةٌ بهم الآن

---

(١) قرأ بها: مسلمة بن محارب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٤).

(٢) قرأ بها: عيسى بن عمر، وابن السميفع، وإسماعيل المكي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٨)، وتفسير الرازي (١٦/ ٨٤).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٤).

تنزيلًا لشيء سيقع عن قريب منزلَة الواقعِ أو وضعًا لأسباب الشيءِ موضعَه فإن مبادئ إحاطةِ النارِ بهم من الكفر والمعاصي محيطةٌ بهم الآن من جميع الجوانبِ ومن جملتها ما فرّوا منه وما سقطوا فيه من الفتنة، وقيل: تلك المبادئ المتشكلةُ بصور الأعمالِ والأخلاق هي النارُ بعينها ولكن لا يظهر ذلك في هذه النشأةِ وإنما يظهر عند تشكُّلِها بصورها الحقيقيةِ في النشأة الآخرة، والمرادُ بالكافرين إما المنافقون، وإيثارُ وضعِ المُظهَر موضعَ المضمرِ للتسجيل عليهم بالكفر والإشعارِ بأنه معظمُ أسبابِ الإحاطة المذكورة، وإما جميعُ الكافرين الشاملين للمنافقين شمولًا أوليًا.

﴿**إن تصبك**﴾ في بعض مغازيك ﴿**حسنة**﴾ من الظَفَر والغنيمة ﴿**تسُؤهم**﴾ تلك الحسنةُ أي تورِثُهم مساءةً لفرط حسَدِهم وعداوتهم لك ﴿**وإن تصبك**﴾ في بعضها ﴿**مصيبة**﴾ من نوع شدة ﴿**يقولوا**﴾ متبجّحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿**قد أخذنا أمرنا**﴾ أي تلافَيْنا ما يُهمّنا من الأمر، يعنون به الاعتزالَ عن المسلمين والقعودَ عن الحرب والمداراةَ مع الكفرة وغيرَ ذلك من أمور الكفر والنفاقِ قولًا وفعلًا ﴿**من قبل**﴾ أي من قبلِ إصابةِ المصيبة في وقت تدارُكِه، يشيرون بذلك إلى أن المعاملةَ المذكورةَ إنما تروّج عند الكفرةِ بوقوعها حالَ قوةِ الإسلام لا بعد إصابةِ المصيبة ﴿**ويتولوا**﴾ عن مجلس الاجتماعِ والتحدثِ إلى أهاليهم أو يُعرِضوا عن النبي ﷺ ﴿**وهم فرحون**﴾ بما صنعوا من أخذ الأمرِ وبما أصابه عليه الصلاة والسلام، والجملة حالٌ من الضمير في (يقولوا) و(يتولوا) لا في الأخير فقط، لمقارنة الفرَحِ لهما معًا، وإيثارُ الجملةِ الاسمية للدِلالة على دوام السرورِ، وإسنادُ المَساءة إلى الحسنة والمَسرَّة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال: وإن تُصِبْك مصيبةٌ تَسْرُرْهم للإيذان باختلاف حاليهم حالتي عروضِ المَساءة والمسرةِ بأنهم في الأولى مضطرون وفي الثانية مختارون.

﴿**قل**﴾ بيانًا لبطلان ما بنَوْا عليه مسرتَهم من الاعتقاد ﴿**لن يصيبنا**﴾ أبدًا وقرئ (هل يصيبنا)[١] و(هل يُصيبَنّا)[٢] من فيعل لا من فعل لأنه واويٌّ، يقال: صاب السهمُ يصوب واشتقاقُه من الصواب ﴿**إلا ما كتب الله لنا**﴾ أي أثبته لمصلحتنا الدنيويةِ أو

---

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف، وابن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٣)، والبحر المحيط (٥/ ٥١).

(٢) قرأ بها: أعين (قاضي الري)، وطلحة بن مصرف.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٣)، والبحر المحيط (٥/ ٥١)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٦٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٣٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٨).

الأخروية من النُّصرة عليكم أو الشهادة المؤديةِ إلى النعيم الدائم ﴿**هو مولانا**﴾ ناصرُنا ومتولِّي أمورِنا ﴿**وعلى الله**﴾ وحده ﴿**فليتوكل المؤمنون**﴾ التوكلُ تفويضُ الأمر إلى الله والرضا بما فعله وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادي العادية، والفاءُ للدلالة على السببية والأصل ليتوكلِ المؤمنون على الله، قدّم الظرفُ على الفعل لإفادة القصْرِ ثم أُدخل الفاءُ للدَلالة على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما في قوله تعالى: ﴿**وإيايَ فارهبون**﴾ [البقرة، الآية ٤٠] والجملةُ إن كانت من تمام الكلامِ المأمورِ به فإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مقام الإضمارِ لإظهار التبرُّكِ والتلذذِ به وإن كانت مَسوقةً من قِبله تعالى أمرًا للمؤمنين بالتوكل إثرَ أمرِه عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالأمرُ ظاهرٌ وكذا إعادةُ الأمر في قوله عزَّ وجل: ﴿**قل هل تربصون بنا**﴾ لانقطاع حُكم الأمرِ الأولِ بالثاني وإن كان أمرَ الغائب وأما على الوجه الأولِ فهي لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المأمورِ به والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أولًا من الفرق في السياقِ، والتربُّصُ التمكّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، والباءُ للتعدية وإحدى التاءين محذوفةٌ أي ما تنتظرون بنا ﴿**إلا إحدى الحسنيين**﴾ أي العاقبتين اللتين كلُّ واحدةٍ منهما هي حُسنى العواقبِ وهما النصرُ والشهادةُ وهذا نوعُ بيانٍ لما أُبهم في الجواب الأول وكشفٌ لحقيقة الحالِ بإعلام أن ما يزعُمونه مضرَّةً للمسلمين من الشهادة أنفعُ مما يعُدّونه منفعةً من النصر والغنيمة ﴿**ونحن نتربص بكم**﴾ إحدى السوأَيَيْن من العواقب إما ﴿**أن يصيبكم الله بعذاب من عنده**﴾ كما أصاب مَن قبلكم من الأمم المهلَكة والظرفُ صفةُ عذاب، ولذلك حُذف عاملُه وجوبًا ﴿**أو**﴾ بعذاب ﴿**بأيدينا**﴾ وهو القتلُ على الكفر ﴿**فتربصوا**﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتُنا ﴿**إنا معكم متربصون**﴾ ما هو عاقبتُكم فإذا لقِيَ كلٌّ منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون إلا ما يُسرنا ولا نشاهد إلا ما يسوءُكم.

﴿**قل أنفقوا**﴾ أموالَكم في سبيل الله ﴿**طوعًا أو كرهًا**﴾ مصدران وقعا موقعَ الفاعل أي طائعين أو كارهين وهو أمرٌ في معنى الخبر كقوله تعالى: ﴿**استغفِرْ لهم أو لا تستغفِرْ لهم**﴾ [التوبة: ٨٠] والمعنى أنفقتم طوعًا أو كرهًا ﴿**لن يتقبل منكم**﴾ ونظمُ الكلامِ في سلك الأمرِ للمبالغة في بيان تساوي الأمرين في عدم القَبولِ كأنهم أُمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يُتقبّل منهم فيشاهدوا عدمَ القبولِ وهو جوابُ قولِ جدِّ بنِ قيس: ولكن أُعينك بمالي، ونفيُ التقبُّلِ يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذِ منهم وأن يكون بمعنى عدمِ الإثابةِ عليه وقوله عز وجل: ﴿**إنكم كنتم قومًا فاسقين**﴾ أي عاتين متمرّدين تعليلٌ لرد إنفاقِهم ﴿**وما منعهم أن تقبل منهم**﴾

وقرئ[1] بالتحتانية ﴿**نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾ استثناءٌ من أعم الأشياءِ أي ما منعهم قَبولَ نفقاتِهم منهم شيءٌ من الأشياء إلا كفرُهم، وقرئ (يَقبَلَ) على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿**ولا يأتون الصَّلاة إلا وهم كسالى**﴾ أي لا يأتونها في حال من الأحوال إلا حالَ كونهم متثاقلين ﴿**ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثوابًا ولا يخافون على تركهما عقابًا فقوله تعالى: ﴿**طوعًا**﴾ أي رغبة من غير إلزامٍ من جهته عليه الصلاة والسلام أو هو فرْضيٌّ لتوسيع الدائرة.

﴿**فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم**﴾ فإن ذلك استدراجٌ لهم ووبالٌ عليهم حسبما ينبئ عنه قولُه عز وجل: ﴿**إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا**﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظِها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب ﴿**وتزهَقَ أنفسهم وهم كافرون**﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك لهم نقمةً لا نعمةً وأصلُ الزهوقِ الخروجُ بصعوبة ﴿**ويحلفون بالله إنهم لمنكم**﴾ في الدين والإسلام ﴿**وما هم منكم**﴾ في ذلك ﴿**ولكنهم قوم يفرَقون**﴾ يخافون أن يُفعلَ بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الإسلام تقيةً ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿**لو يجدون ملجأ**﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءَهم إلى الانتماء إليهم إنما هو للتقية اضطرارًا حتى إنهم لو وجدوا غيرَ ذلك ملجأ أي مكانًا حصينًا يلجئون إليه من رأس جبل أو قلعةٍ أو جزيرة، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في الشرط وإن كان المعنىٰ على المُضِيّ لإفادة استمرارِ عدمِ الوجدانِ فإن المضارعَ المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس نصًّا في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعلِ كما هو الظاهرُ بل قد يفيد استمرارَ انتفائِه أيضًا حسبما يقتضيه المقامُ فإن معنى قولِك: لو تحسن إليّ لشكرتك أن انتفاءَ الشكر بسبب استمرارِ انتفاء الإحسانِ لا أنه بسبب انتفاءِ استمرارِ الإحسانِ فإن الشكرَ يتوقف على وجود الإحسانِ لا على استمرارِه كما حقق في موضعه ﴿**أو مغارات**﴾ أي غِيرانًا[2] وكهوفًا يُخفون فيها أنفسهَم وقرئ[3] بضم

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وزيد بن علي، والشنبوذي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٢)، والبحر المحيط (٥/ ٥٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٣٧)، والتيسير للداني ص (١١٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٦٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٨)، والكشف للقيسي (١/ ٥٠٣)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٣٨).

(٢) الغيران والأغوار: جمع غَوْر، وهو كل منخفض من الأرض.

(٣) قرأ بها: سعد بن عبد الرحمن بن عوف.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ١٩٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٢).

الميم من أغار الرجلُ إذا دخل الغَور.

وقيل: هو متعد من غار إذا دخل الغور أي أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم يجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى مهارب ومفار ﴿أو مدخلًا﴾ أي نفقًا يندسّون فيه وينجحرون وهو مفتعلٌ من الدخول وقرئ (مَدخْلًا)[١] من الدخول ومُدْخلًا من الإدخال، أي مكانًا يُدخِلون فيه أنفسَهم وقرئ (مُتدخَّلًا)[٢] و(منْدخَلًا)[٣] من التدخل والاندخال ﴿لولوا﴾ أي: لصرفوا وجوهَهم وأقبلوا، وقرئ (لوالَوْا)[٤] أي لالتجأوا ﴿إليه﴾ أي إلى أحد ما ذكر ﴿وهم يجمحون﴾ أي يُسرعون بحيث لا يردُّهم شيء من الفرس الجَموح وهو الذي لا يثنيه اللجام، وفيه إشعارٌ بكمال عتوِّهم وطُغيانِهم وقرئ (يجمزون)[٥] بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة.

﴿ومنهم من يلمِزك﴾ بكسر الميم وقرئ[٦] بضمها أي يَعيبُك سرًّا وقرئ (يُلمِّزك)[٧] و(يلامزُك)[٨] مبالغة ﴿في الصدقات﴾ أي في شأنها وقسمتها ﴿فإن أعطوا

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ويعقوب، وابن أبي إسحاق، والحسن، وابن محيصن، ومسلمة بن محارب، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٥٥)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٦٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٢).

(٢) قرأ بها: أبي بن كعب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٥٥)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٦٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٣٩).

(٣) قرأ بها: أبي بن كعب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٥)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٩٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٢)، وتفسير الرازي (١٦/ ٩٦).

(٤) قرأ بها: الأشهب العقيلي، ومعاوية بن نوفل، وأبو عبيدة بن معاوية.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٩٨)، وتفسير الرازي (١٦/ ٩٦).

(٥) قرأ بها:أنس بن مالك، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٣٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٩٨)، وتفسير الرازي (١٦/ ٩٦).

(٦) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وحماد بن سلمة، والحسن، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٥٦) والحجة لابن خالويه ص (١٧٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٣).

(٧) قرأ بها: المطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٧).

(٨) قرأ بها: ابن كثير، وحماد بن سلمة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٥٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٧).

منها﴾ بيانٌ لفسادِ لمزِهم وأنه لا منشأ له سوى حرصِهم على حطام الدنيا أي إن أُعطوا منها قدرَ ما يريدون **﴿رضُوا﴾** بما وقع من القسمة واستحسنوها **﴿وإن لم يعطَوا منها﴾** ذلك المقدارَ **﴿إذا هم يسخطون﴾** أي يفاجِئون بالسُخط، وإذا نائبُ منابَ فاءِ الجزاء. قيل: نزلت الآية في أبي الجوّاظِ المنافقِ حيث قال: ألا تَروْن إلى صاحبكم، يقسِم صدقاتِكم في رعاة الغنم ويزعُم أنه يعدل. وقيل: في ابن ذي الخُويصِرَةِ واسمُه حُرقوصُ بنُ زهير التميمي رأسُ الخوارج كان رسول الله ﷺ يقسمُ غنائمَ حُنينٍ فاستعطف قلوبَ أهلِ مكةَ بتوفير الغنائم عليهم فقال: اعدِلْ يا رسول الله فقال عليه الصلاة السلام: «**ويلك إن لم أعدِلْ فمن يعدِلُ؟**»[١] وقيل: هم المؤلفةُ قلوبُهم والأولُ هو الأظهر **﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾** أي ما أعطاهم الرسولُ ﷺ من الصدقات طيِّبي النفوسِ به وإن قلَّ، وذكرُ الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسولُ ﷺ كان بأمره سبحانه **﴿وقالوا حسبنا الله﴾** أي كفانا فضلُه وصنعُه بنا وما قسمه لنا **﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾** بعد هذا حسبما نرجو ونؤمّل **﴿إنا إلى الله راغبون﴾** في أن يُخوِّلنا فضلَه، والآيةُ بأسرها في حيز الشرطِ، والجوابُ محذوفٌ بناء على ظهوره أي لكان خيرًا لهم.

﴿إنما الصدقات﴾ شروعٌ في تحقيق حقِّيةِ ما صنعه الرسولُ ﷺ من القسمة ببيان المصارفِ وردٌّ لمقالة القالةِ في ذلك وحسمٌ لأطماعهم الفارغة المبنيةِ على زعمهم الفاسدِ ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق، أي جنسُ الصدقات المشتملةِ على الأنواع المختلفة **﴿للفقراء والمساكين﴾** أي مخصوصةٌ بهؤلاء الأصنافِ الثمانيةِ الآتية لا تتجاوزهم إلى غيرهم، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقةَ بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغ لهم أن يتكلموا فيها وفي قاسمها؟ والفقيرُ من له أدنى شيءٍ والمسكينُ من لا شيء له هو المرويُّ عن أبي حنيفة رضي الله عنه[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤/ ٢٩٥-٢٩٦): كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف، ولئلا ينفر الناس عنه، حديث (٦٩٣٣)، ومسلم (٤/ ١٧٣، ١٧٤ - النووي): كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث (١٤٨/ ١٠٦٤).

(٢) ذكر ابن العربي في الفقير والمسكين أقوالًا:

الأول: أن الفقير: هو المحتاج المتعفف، والمسكين هو: الفقير السائل، وبه قال مالك، وقاله ابن عباس والزهري.

الثاني: أن الفقير: هو المحتاج المزمن، والمسكين: هو المحتاج الصحيح، قاله قتادة.

الثالث: أن الفقير: هو المحتاج، والمسكين: سائر الناس؛ قاله إبراهيم النخعي وغيره.

الرابع: أن الفقير: هو الذي لا شيء له، والمسكين: هو الذي له شيء؛ قاله الشافعي. =

وقد قيل: على العكس ولكل منهما وجهٌ يدل عليه ﴿**والعاملين عليها**﴾ الساعين

= الخامس: أن المسكين: هو الذي لا شيء له، والفقير: هو الذي له شيء بعكس القول السابق، وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة، والقاضي عبد الوهاب.
السادس: أن الفقير والمسكين واحد وقد ذكرا معًا للتأكيد.
السابع: أن الفقراء: هم المهاجرون، والمساكين: هم الأعراب.
وأوجه هذه الأقوال - فيما أرى - ثلاثة:
أحدها- قول مالك: أن الفقير: هو المتعفف، والمسكين: هو الفقير السائل.
الثاني- قول الشافعي: أن الفقير: هو الذي لا شيء له، والمسكين: الذي له شيء.
الثالث - قول أبو حنيفة: أن الفقير: الذي له شيء، والمسكين: الذي لا شيء له.
ولدى التمحيص يتبين أن مؤدى قول مالك وأبي حنيفة واحد - بغض النظر عن أيهما يسأل - فكون الفقير له شيء هذا مما يدعوه إلى التعفف مع حاجته، وكون المسكين لا شيء له مما يحمله على السؤال.
فمحصلة الأقوال الثلاثة في قولين:
الأول: أن الفقير: هو الذي له شيء، ومع ذلك فهو محتاج متعفف، والمسكين: لا شيء له، ولذلك يسأل الناس، وهو قول مالك وأبي حنيفة.
الثاني: أن الفقير: هو الذي لا شيء له، والمسكين الذي له شيء، وهو قول الشافعي.
وعلى هذا النهج سار الإمام النسفي حيث قال: «الفقير: الذي لا يسأل؛ لأن عنده ما يكفيه للحال.
والمسكين: الذي يسأل؛ لأنه لا يجد شيئًا، فهو أضعف حالاً منه.
وعند الشافعي - رحمه الله - على العكس».
وقال في أحكام القرآن: «الفقير - والله أعلم -: من لا مال له، ولا حرفة تقع منه موقعًا، زمنًا كان أو غير زمن، سائلاً كان أو متعففًا.
والمسكين: من له مال، أو حرفة، لا تقع منه موقعًا، ولا تغنيه - سائلاً كان أو غير سائل».
وجاء في الأم: «الفقير: الذي لا حرفة له ولا مال، والمسكين: الذي له الشيء، ولا يقوم به».
وقال الماوردي: «الفقير: هو الذي لا شيء له، والمسكين: هو الذي له ما لا يكفيه، فكان الفقير أسوأ حالاً منه، وقال أبو حنيفة: المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو الذي قد أسكنه العدم».
ومهما يكن من أمر هذا الخلاف في تحديد المراد بلفظي: الفقير والمسكين، فقد نصوا - أي: العلماء المختلفون في تحديد كل منهما - على أن هذا الخلاف لا طائل تحته، وليس من وراء تحقيقه ثمرة تجنى في باب الزكاة.
لكن الذي تقع إليه الحاجة في هذه المسألة هو بيان حد الفقر، أو المسكنة أيًا كان الفرق اللفظي بينهما، بمعنى أن تتعرف على هذا الذي يستحق الزكاة للحاجة، سواء أطلقنا عليه فقيرًا أم مسكينًا؛ وللعلماء في هذا اتجاهان:
الاتجاه الأول: اتجاه الحنفية، حيث ذهبوا إلى أن الفقير هو من يملك شيئًا دون النصاب الشرعي في الزكاة، أو يملك ما قيمته نصاب، أو أكثر من الأثاث، والأمتعة، والثياب، والكتب، ونحوها؛ مما هو محتاج إليه، لاستعماله والانتفاع به في حاجته الأصلية، وأما المسكين: فالمشهور عندهم أنه من لا يملك شيئًا. =

في جمعها وتحصليها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم أصنافٌ فمنهم أشرافٌ من العرب كان رسول الله ﷺ يستألفهم ليُسلموا فيرضَخ لهم ومنهم قومٌ أسلموا ونيّاتُهم ضعيفةٌ فيؤلّف قلوبَهم بإجزال العطاء كعيينةَ بنِ حصن، والأقرعِ بن حابس، والعباسِ بن مرداس، ومنهم من يُترقَّب بإعطائهم إسلامُ نظرائِهم، ولعل الصنفَ الأولَ كان يعطيهم الرسولُ ﷺ من خُمس الخُمسِ الذي هو خالصُ ماله، وقد عد منهم من يؤلَّف قلبُه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة وقد سقط سهمُ هؤلاء بالإجماع لما أن ذلك كان لتكثير سوادِ الإسلامِ فلما أعزّه الله عز وعلا وأعلى كلمتَه استُغنيَ عن ذلك ﴿وفي الرقاب﴾ أي وللصَّرف في فك الرقاب بأن يُعانَ المكاتَبون[1] بشيء منها على أداء نجومِهم.

= قال صاحب البدائع: «ثم قدر الحاجة ما ذكره الكرخي في مختصره، فقال: لا بأس بأن يعطى من الزكاة من له مسكن، وما يتأثث به في منزله، وخادم، وفرش، وسلاح، وثياب البدن، وكتب العلم إن كان من أهله، فإن كان له فضل عن ذلك ما يبلغ قيمته مائتي درهم، حرم عليه أخذ الصدقة؛ لما روي عن الحسن البصري أنه قال: كانوا يعطون الزكاة لمن يملك عشرة آلاف درهم من الفرس، والسلاح، والخادم، والدار، وقوله: «كانوا» كناية عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ وهذا لأن هذه الأشياء من الحوائج اللازمة التي لا بد للإنسان منها، فكان وجودها وعدمها سواء».

الاتجاه الثاني: هو اتجاه الأئمة الثلاثة - مالك والشافعي وأحمد - حيث لا يدور الفقر والمسكنة عندهم على عدم ملك النصاب، بل على عدم ملك الكفاية، فالفقير: من ليس له مال، ولا كسب حلال لائق به، يقع موقعًا من كفايته، من مطعم وملبس ومسكن وسائر ما لا بد منه، لنفسه، ولمن تلزمه نفقته من غير إسراف ولا تقتير، كمن يحتاج إلى عشرة دراهم كل يوم، ولا يجد إلا أربعة، أو ثلاثة، أو اثنين.

والمسكين: من قدر على مال أو كسب حلال لائق يقع موقعًا من كفايته وقدرته وكفاية من يعوله، ولكن لا تتم به الكفاية، كمن يحتاج إلى عشرة، فيجد سبعة أو ثمانية، وإن ملك نصابًا أو نصبًا.

وعلى أية حال سواء كان ضابط جواز الأخذ من الزكاة للفقراء والمساكين النصاب أو الكفاية، فالكل متفق على حاجتهما وأهليتهما للإعطاء، وأنهما مصرفان من مصارف الزكاة، أما بالنسبة إلى مقدار ما يعطيان، فيدفع إلى كل منهما إذا اتسعت الزكاة ما يخرجه عن حد الفقر؛ فهناك من يصير بالدينار الواحد غنيًّا؛ إذا كان من أهل الأسواق يربح فيه قدر كفايته، وهذا لا يجوز أن يعطى من الزكاة زيادة عن الدينار، ومنهم من لا يستغني إلا بمائة دينار، ومنهم من يكون ذا جلد يكتسب بصناعته قدر كفايته، فلا يجوز أن يعطى وإن كان لا يملك درهمًا.

وقدر أبو حنيفة - رضي الله عنه - أكثر ما يعطاه الفقير والمسكين بما دون مائتي درهم من الورق، وما دون عشرين دينارًا من الذهب؛ لئلا تجب عليه الزكاة فيما أخذ من الزكاة.

ينظر: أحكام القرآن (٢/ ٩٤٩)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ١٣٢)، وأحكام القرآن للشافعي (١/ ١٦٢)، والأم (٢/ ٦٩)، والأحكام السلطانية، ص (١٢٢).

(١) قال الحنفية: الصنف الخامس «في الرقاب» هم المكاتبون غير الهاشميين، فيعان المكاتبون من الزكاة في فك رقابهم، وإن ملك المكاتب نصاباً زائداً على بدل الكتابة. =

وقيل: بأن يُفدَى الأُسارى وقيل: بأن يُبتاع منها الرقابُ فتُعتق، وأيًا ما كان فالعدولُ عن اللام لعدم ذكرِهم بعنوان مصحّحٍ للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للإيذان بعدم قرارِ ملكِهم فيما أعطوا كما في الوجهين الأولين أو بعدم ثبوتِه

= وقال الشافعية: الصنف الخامس: الرقاب: وهم المكاتبون كتابة صحيحة لغير مزك، فيعطون، ولو بغير إذن ساداتهم، أو قبل حلول النجوم (الأقساط) ما يعينهم على العتق، إن لم يكن معهم ما يفي بنجومهم. أما مكاتب المزكي فلا يعطى من زكاته شيئاً لعود الفائدة إليه مع كونه ملكه.
وقال المالكية: تصرف الزكاة لرقيق مؤمن لا كافر، يعتق منها، بأن يشتري منها رقيق فيعتق، أو يكون عنده عبد أو أمة يقوِّمه قيمة عدل ويعتقه عن زكاته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾ [التوبة: ٦٠].
ويشترط في الرقيق أن يكون خالصاً، لم تنعقد حرية فيه كمكاتب، ومدبر، ومعتق لأجل، وأم ولد، وإلا فلا يجزئ، والمشهور أن العتق صحيح، وإن لم يجزئ عن الزكاة.
ويشترط أيضاً ألا يعتق الرقيق بالملك نفسه على رب المال، كالأبوين والأولاد والحواشي القريبة: الإخوة والأخوات، لقوله صلّى الله عليه وسلم. فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عن سمرة - «من ملك ذا رحم محرم فهو حر». فإن اشترى رب المال من زكاته من يعتق عليه فلا يجزئه إلا أن يدفعها الإمام، فيشتري بها والد ربّ المال ولده، ويعتقه، فيجزئ حيث لا تواطؤ.
ويكون ولاء المعتق إذا عتق من الزكاة للمسلمين، سواء صرح المعتق بذلك أو سكت، بل ولو شرطه لنفسه، وأما لو قال: أنت حر عني وولاؤك للمسلمين، فلا تجزئه عن الزكاة، والعتق لازم، والولاء له؛ لأن الولاء لمن أعتق.
والمشهور عند المالكية أنه لا تجزئ الزكاة في فك الأسير، وقال ابن حبيب: هو أحق وأولى من فك الرقاب التي بأيدينا، ووافقه ابن عبد الحكم.
ومذهب الحنابلة كما ذكروا في كتبهم المعتمدة: أن الصنف الخامس: الرقاب: وهم المكاتبون المسلمون الذين لا يجدون وفاء ما يؤدون، ولو مع القوة والكسب؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾ [التوبة: ٦٠]. قال في المبدع: لا يختلف المذهب أنهم - أي المكاتبون - من الرقاب، بدليل قوله: أعتقت رقابي، فإنه يشملهم؛ وفي قوله تعالى: ﴿فكاتبوهم﴾ [النور: ٣٣] إشعار به ولأنه يملك المال على سيده، ويصرف إليه أرش جنايته، فكان الإعطاء له إعطاء لسيده، لا في الرقاب.
وللمكاتب الأخذ قبل حلول نجم (قسط) لئلا يؤدي إلى فسخ الكتابة عند حلول النجم، ولا شيء معه.
والأولى دفع الزكاة إلى سيد المكاتب، من دفع الزكاة إلى المكاتب.
ينظر: أحكام القرآن للجصاص: (٣/ ١٢٥)، فتح القدير: (٢/ ٢٦٣)، حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار): (٢/ ٣٤١)، وشرح المجموع للنووي: (٦/ ١٤٦)، وما بعدها، بجيرمي علي الخطيب (٢/ ٣١٣) ومواهب الجليل للحطاب: (٢/ ٣٥٠)، الشرح الصغير للدردير وحاشية الصاوي عليه: (١/ ٦٦١)، وكشاف القناع للبهوتي: (٢/ ٢٧٩)، الروض المربع بشرح زاد المستنقع للشيخ منصور بن يونس البهوتي: ص (١٥١)، المغني والشرح الكبير: (٢/ ٧٠٩).

رأسًا كما في الوجه الأخير أو للإشعار برسوخهم في استحقاق الصدقةِ لما أن (في) للظرفية المنبئةِ عن إحاطتهم بها وكونِهم محلَّها ومركزَها.

﴿والغارمين﴾ أي الذين تداينوا لأنفسهم في غير معصيةٍ إذا لم يكن لهم نصابٌ فاضلٌ عن ديونهم وكذلك عند الشافعيِّ رضي الله عنه غُرم لإصلاح ذاتِ البين وإطفاءِ الثائرة بين القبيلتين وإن كانوا أغنياء ﴿وفي سبيل الله﴾ أي فقراءِ الغزاةِ والحجيج والمنقطَعِ بهم ﴿وابن السبيل﴾ أي المسافر المنقطِع عن ماله، وتكريرُ الظرف في الأخيرين للإيذان بزيادة فضلِهما في الاستحقاق أو لما ذكر من إيرادهما بعنوان غيرِ مصحِّح للمالكية والاختصاص فهذه مصارفُ الصدقاتِ، فللمتصدق أن يدفع صدقتَه إلى كلِّ واحدٍ منهم وأن يقتصرَ على صنف[1] منهم لأن اللام لبيان أنهم مصارفُ لا تخرُج عنهم لا لإثبات الاستحقاق، وقد روي ذلك عن عمرَ وابنِ عباس وحذيفةَ رضي الله عنهم وعند الشافعيِّ لا يجوز إلا أن يُصرَف إلى ثلاثة من تلك الأصناف ﴿فريضة من الله﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لما دل عليه صدْرُ الآية أي فَرَضَ لهم الصدقاتِ فريضةً. ونُقل عن سيبويه أنه منصوبٌ بفعله مقدرًا أي فرَض الله ذلك فريضةً أو حالٌ من الضمير المستكنّ في قوله: للفقراء، أي إنما الصدقاتُ كائنةٌ لهم حالَ كونها فريضةً أي مفروضة ﴿والله عليم﴾ بأحوال الناسِ ومراتبِ استحقاقِهم ﴿حكيم﴾ لا يفعلُ إلا ما تقتضيه الحِكمةُ من الأمور الحسنةِ التي من جملتها سَوْقُ الحقوقِ إلى مستحقّيها.

﴿ومنهم الذين يؤذون النبيّ﴾ نزلت في فِرقة من المنافقين قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغي فقال بعضُهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلُغه ذلك فيقعَ بنا فقال الجُلاَسُ بنُ سُوَيْد: نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلِف فيصدقنا بما نقول، إنما محمدٌ أُذُنٌ سامعة وذلك قوله عز وجل ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي يسمع كلَّ ما قيل من غير أن يتدبَّرَ فيه ويميّزَ بين ما يليق بالقَبول لمساعدة أَمارات الصدقِ له وبين ما لا يليق به، وإنما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفَحُ عنهم حِلمًا وكرمًا فحملوه على سلامة القلبِ وقالوا ما قالوا ﴿قل أُذنُ خير لكم﴾ من قبيل رجلُ صدقٍ في الدلالة على المبالغة في الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذنٌ ولكن نِعمَ الأذُنُ، ويجوز أن يكون المرادُ أذنًا في الخير والحقِّ وفيما ينبغي سماعُه وقَبولُه لا في غير ذلك كما يدل عليه قراءةُ (رحمةٍ)[2] بالجر عطفًا

---

(١) زاد في خ: واحد.

(٢) قرأ بها: حمزة، والمطوعي، وأبي، وعبد الله، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٢٧)، والبحر المحيط (٥/ ٦٢، ٦٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٤٦)، والتيسير للداني ص (١١٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٩٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٠).

عليه أي هو أذنُ خيرٍ ورحمةٍ لا يسمع غيرَهما ولا يقبله، وقرئ (أذْن)[1] بسكون الذال فيهما وقرئ أذن خير على أنه صفةٌ أو خبرٌ ثان وقوله عز وجل ﴿**يؤمن بالله**﴾ تفسيرٌ لكونه أذنَ خيرٍ لهم أي يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبةِ له، وكونُ ذلك خيرًا للمخاطَبين كما أنه خيرٌ للعالمين مما لا يخفى ﴿**ويؤمن للمؤمنين**﴾ أي يصدّقهم لِما علم فيهم من الخلوص، واللامُ مزيدةٌ للتفرقة بين الإيمان المشهورِ وبين الإيمان بمعنى التسليمِ والتصديق كما في قوله تعالى: ﴿**أنؤمن لك**﴾ [الشعراء: ١١١] . . . إلخ وقوله تعالى: ﴿**فما آمن لموسى**﴾ [يونس: ٨٣] . . . إلخ.

﴿**ورحمةٌ**﴾ عطفٌ على أذنُ خيرٍ أي وهو رحمةٌ بطريق إطلاقِ المصدرِ على الفاعل للمبالغة ﴿**للذين آمنوا منكم**﴾ أي للذين أظهروا الإيمانَ منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقًا لهم في ذلك بل رفقًا بهم وترحمًا عليهم ولا يكشف أسرارَهم ولا يهتِك أستارَهم، وإسنادُ الإيمان إليهم بصيغة الفعلِ بعد نسبتِه إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئةِ عن الرسوخ والاستمرارِ للإيذان بأن إيمانَهم أمرٌ حادثٌ ما له من قرار، وقرئ[2] بالنصب على أنها علةٌ لفعل دلَّ عليه أذنُ خيرٍ أي يأذن لكم رحمةً ﴿**والذين يؤذون رسول الله**﴾ بما نُقل عنهم من قولهم: هو أذنٌ ونحوِه، وفي صيغة الاستقبالِ المُشعِرة بترتب الوعيدِ على الاستمرار على ما هم عليه إشعارٌ بقبول توبتِهم كما أفصح عنه قولُه تعالى فيما سيأتي: ﴿**فإن يتوبوا يكُ خيرًا لهم**﴾ [التوبة، الآية ٧٤] ﴿**لهم**﴾ بما يجترئون عليه من أذيَّته عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه بناءُ الحُكمِ على الموصول ﴿**عذاب أليم**﴾ وهذا اعتراضٌ مَسوقٌ من قِبَله عز وجل على نهج الوعيدِ غيرُ داخلٍ تحت الخطابِ وفي تكرير الإسنادِ بإثبات العذابِ الأليم لهم ثم جعلِ الجملةِ خبرًا للموصول ما لا يخفى من المبالغة، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ مضافًا إلى الاسم الجليلِ لغاية التعظيمِ والتنبيهِ على أن أذيته راجعةٌ إلى جنابه عز وجل موجبةٌ لكمال السخطِ والغضب.

﴿**يحلفون بالله لكم**﴾ الخطابُ للمؤمنين خاصةً وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن

---

(١) قرأ بها: نافع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٤٦)، والتيسير للداني ص (٩٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣١٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٩)، والكشف للقيسي (١/ ٥٠٣)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٤٣).

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٦٢، ٦٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٩)، وتفسير الرازي (١٦/ ١١٨).

ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرَهم بالأيمان ليعذُروهم ويرضَوا عنهم أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نُقل إليهم مما يورث أذاةَ النبيِّ ﷺ وأما التخلفُ عن الجهاد فليس بداخل في هذا الاعتذارِ ﴿ليرضوكم﴾ بذلك، وإفرادُ إرضائِهم بالتعليل مع أن عمدةَ أغراضِهم إرضاءُ الرسول ﷺ وقد قبِل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذِّبْهم للإيذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلةً إلى إرضائه عليه الصلاة والسلام وأنه ﷺ إنما لم يكذبهم رفقًا بهم وسترًا لعيوبهم لا عن رضا بما فعلوه كما أشير إليه ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ أي أحقُّ بالإرضاء ولا يتسنى ذلك إلا بالطاعة والمتابعةِ وإيفاءِ حقوقِه عليه الصلاة والسلام في باب الإجلالِ والإعظام مَشهدًا ومَغيبًا وأما ما أتَوا به من الأَيمان الفاجرة فإنما يرضىٰ به من انحصر طريقُ علمِه في الأخبار إلى أن يجيءَ الحقُّ ويزهَقَ الباطلُ. والجملةُ نصبٌ على الحالية من ضمير يحلفون أي يحلفون لكم لإرضائكم والحالُ أنه تعالى ورسولُه أحقُّ بالإرضاء منكم أي يُعرضون عما يُهِمُّهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يَعنيهم، وإفرادُ الضمير في يُرْضوه إما للإيذان بأن رضاه عليه الصلاة السلام مندرجٌ تحت رضاه سبحانه وإرضاؤُه عليه الصلاة والسلام إرضاءٌ له تعالى لقوله تعالى: ﴿من يُطع الرسولَ فقد أطاع الله﴾ [النساء، الآية ٨٠] وإما لأنه مستعارٌ لاسم الإشارةِ الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما في قول رؤبة: [الرجز]

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كأنه في الجلد توليعُ البَهَقْ[1]

أي كأن ذلك. لا يقال أيُّ حاجةٍ إلى الاستعارة بعد التأويل المذكورِ لأنا نقول: لولا الاستعارةُ لم يتسنَّ التأويل لما أن الضميرَ لا يتعرض إلا لذات ما يرجِع إليه من غير تعرضٍ لوصف من أوصافه التي من جملتها المذكوريةُ وإنما المتعرضُ لها اسمُ الإشارةِ وإما لأنه عائدٌ إلى رسوله، والكلامُ جملتان حُذف خبرُ الأولى لدلالة خبرِ الثانية عليه كما ذهب إليه سيبويه، ومنه قولُ من قال: [المنسرح]

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلف[2]

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج في ديوانه ص (١٠٤)، وأساس البلاغة (ولع)، والأشباه والنظائر (٥/ ٦٣)، وتخليص الشواهد ص (٥٣)، وخزانة الأدب (١/ ٨٨)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٣٦٤)، ولسان العرب (ولع، بهق) والمحتسب (٢/ ١٥٤)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٧٨)، وتهذيب اللغة (٥/ ٤٠٧)، وتاج العروس (٢٢/ ٣٧٦) (ولع)، وكتاب العين (٣/ ٣٧١)، ومجمل اللغة (١/ ٢٩٩)، ومقاييس اللغة (١/ ٣١٠)، وأساس البلاغة (ولع).

(٢) البيت لقيس بن الخطيم في ملحق ديوانه ص (٢٣٩)، وتخليص الشواهد ص (٢٠٥)، والدرر (٥/ =

أو إلى الله على أن المذكورَ خبرُ الجملة الأولى وخبرُ الثانيةِ محذوفٌ كما هو رأي المبرد ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ جوابُه محذوفٌ تعويلًا على دِلالة ما سبق عليه أي إن كانوا مؤمنين فليُرْضوا الله ورسولَه بما ذكر فإنهما أحقُّ بالإرضاء.

﴿ألم يعلموا﴾ أي أولئك المنافقون، والاستفهامُ للتوبيخ على ما أقدَموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتِها، وقرئ[1] بالتاء على الالتفات لزيادةِ التقريعِ والتوبيخ أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات ﴿أنه﴾ أي الشأنَ ﴿من يحادِدِ الله ورسوله﴾ المحادَّةُ من الحدّ كالمُشاقّة من الشّق والمعاداةُ من العُدوة بمعنى الجانبِ فإن كلَّ واحدٍ من مباشري كلِّ الأفعالِ المذكورة في محل غيرِ محلِّ صاحبِه، ومَنْ شرطيةٌ جوابُها قوله تعالى: ﴿فأن له نار جهنم﴾ على أن خبرَه محذوفٌ أي فحَقٌّ أن له نارَ جهنم، وقرئ[2] بكسر الهمزةِ والجملةُ الشرطيةُ في محلّ الرفعِ على أنها خبرٌ لأن وهي مع خبرها سادةٌ مسدَّ مفعولي يعلموا، وقيل: المعنى فله، وإنّ تكريرٌ للأولى تأكيدًا لطول العهدِ لا من باب التأكيدِ اللفظيِّ المانعِ للأولى من العمل، ودخولُ الفاءِ كما في قول من قال: [الطويل]

لقد علم الحيُّ اليمانُونَ أنني ... إذا قلتُ: أما بعدُ، أني خطيبُها[3]

وقد جوّز أن يكون فإن له معطوفًا على أنه، وجوابُ الشرط محذوفٌ تقديرُه ألم يعلموا أنه من يحادِدِ الله ورسولَه يهلِكْ فإن له إلخ، ورُدّ بأن ذلك إنما يجوز عند كونِ فعلِ الشرط ماضيًا أو مضارعًا مجزومًا بلم ﴿خالدًا فيها﴾ حالٌ مقدّرةٌ من الضمير

= ٣١٤)، والكتاب (١/ ٧٥)، والمقاصد النحوية (١/ ٥٥٧)، ولعمرو بن امرئ القيس الخزرجي في الدرر (١/ ١٤٧)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٢٧٩)، وشرح شواهد الإيضاح ص (١٢٨)، ولدرهم بن زيد الأنصاري في الإنصاف (١/ ٩٥)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٣/ ١٠٠)، وخزانة الأدب (١٠/ ٢٩٥)، وأمالي ابن الحاجب (٢/ ٧٢٦)، وشرح الأشموني (١/ ٤٥٣)، والصاحبي في فقه اللغة ص (٢١٨)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٢٢)، والمقتضب (٣/ ١١٢)، وهمع الهوامع (٢/ ١٠٩)، ولسان العرب (قعد).

(١) قرأ بها: الأعرج، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٦٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٩٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٩٩).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو عبيدة، ومحبوب، والحسن، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩)، والبحر المحيط (٥/ ٦٥)، وتفسير الطبري (١٠/ ١١٨)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٤).

(٣) البيت لسحبان بن وائل في خزانة الأدب (١٠/ ٣٦٩)، وبلا نسبة في تخليص الشواهد، ص (٢٤٨)، وخزانة الأدب (١/ ٣١٥)، ولسان العرب (سحب).

المجرورِ إن اعتُبر في الظرف ابتداءُ الاستقرار وحدوثُه وإن اعتبر مطلقُ الاستقرارِ فالأمرُ ظاهر ﴿ذلك﴾ أشير إلى ما ذكر من العذاب الخالدِ بذلك إيذانًا ببُعد درجتِه في الهول والفظاعةِ ﴿الخزي العظيم﴾ الخزيُ الذلُّ والهوانُ المقارِنُ للفضيحة والندامة، وهي ثمراتُ نفاقِهم حيث يفتضحون على رؤوس الأشهادِ بظهورها ولُحوقِ العذاب الخالدِ بهم، والجملةُ تذييلٌ لما سبق. ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم﴾ في شأنهم فإن ما نزل في حقهم نازلٌ عليهم ﴿سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ من الأسرار الخفيةِ فضلًا عما كانوا يُظهِرونه فيما بينهم من أقاويل الكفرِ والنفاقِ. ومعنى تَنْبئتِها إياهم بما في قلوبهم، مع أنه معلومٌ لهم وأن المحذورَ عندهم إطلاعُ المؤمنين على أسرارهم لا إطلاعُ أنفسِهم عليها، أنها تُذيع ما كانوا يُخفونه من أسرارهم فتنتشرُ فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجالِ مُذاعةً، فكأنها تخبرهم بها أو المرادُ بالتنبئة المبالغةُ في كون السورة مشتملةً على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنةِ ما لا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعي عليهم قبائحَهم، وقيل: معنى يحذر لِيحذر، وقيل: الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالىٰ بالتفكيك عند ظهورِ الأمرِ بعَوْد المعنى إليه أي يحذر المنافقون أن تنزَّلَ على المؤمنين سورةٌ تخبرهم بما في قلوب المنافقين وتهتِك عليهم أستارَهم. قال أبو مسلم: كان إظهارُ الحذرِ منهم بطريق الاستهزاءِ فإنهم كانوا إذا سمعوا رسولَ الله ﷺ يذكر كلَّ شيء ويقول إنه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل: ﴿قل استهزءوا﴾ أي افعلوا الاستهزاءَ وهو أمر تهديد ﴿إن الله مخرج﴾ أي من القوة إلى الفعل أو من الكُمون إلى البروز ﴿ما تحذرون﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورةِ ومن مخازيكم ومثالِبكم المستكنةِ في قلوبكم الفاضحةِ لكم على ملأ الناسِ، والتأكيدُ لرد إنكارِهم بذلك لا لدفع ترددِهم في وقوع المحذورِ إذ ليس حذرُهم بطريق الحقيقة ﴿ولئن سألتهم﴾ عما قالوا ﴿ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ رُوي أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير في غزوة تبوكَ وبين يديه ركبٌ من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول ﷺ ويقولون: انظُروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتحَ حُصون الشام وقصورَها هيهاتَ هيهات. فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال: «احبِسوا على الركبَ» فأتاهم فقال: «قلتم كذا، وكذا؟» فقالوا: يا نبيَّ الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابِك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركبُ ليقصُرَ بعضنا على بعض السفر[1] ﴿قل﴾ غيرَ ملتفتٍ إلى اعتذارهم ناعيًا عليهم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٤٠٩) رقم (١٦٩٣٠، ١٦٩٣١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٥٦)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ؛ كلهم عن قتادة به.

جناياتِهم منزِّلًا لهم منزلةَ المعترفِ بوقوع الاستهزاء موبخًا لهم على أخطائهم موقعَ الاستهزاء ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك إلا بعد تحققِ الاستهزاءِ وثبوتِه ﴿لا تعتذروا﴾ لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارةٌ عن محو أثرِ الذنبِ فإنه معلومُ الكذبِ بيِّنُ البطلان ﴿قد كفرتم﴾ أظهرتم الكفر بإيذاء الرسولِ ﷺ والطعن فيه ﴿بعد إيمانكم﴾ بعد إظهارِكم له ﴿إن نعفُ عن طائفةٍ منكم﴾ لتوبتهم وإخلاصِهم أو تجنّبهم (عن) الإيذاء والاستهزاءِ، وقرئ (إن يعفُ)[1] على إسناد الفعلِ إلى الله سبحانه وقرئ على البناء للمفعول مسنَدًا إلى الظرف بتذكير[2] الفعلِ وبتأنيثه[3] أيضًا ذهابًا إلى المعنى كأنه قيل: إن ترحم طائفةٌ ﴿نعذب﴾ بنون العظمة وقرئ[4] بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندًا إلى ما بعده ﴿طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾ مصِرِّين على الإجرام وهو غيرُ التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين. قال محمد بن إسحاقَ: الذي عُفي عنه رجلٌ واحدٌ هو يحيى بنُ حُمَيِّر الأشجعيُّ لما نزلت هذه الآيةُ تاب عن نفاقه وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آيةً تقشعر منها الجلودُ وتجِبُ[5] منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلًا في سبيلك لا يقولُ أحدٌ: أنا غسلتُ أنا كفنتُ أنا دفنتُ، فأصيب يومَ اليمامة فما أحدٌ من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره.

﴿المنافقون والمنافقات﴾ التعرّضُ لأحوال الإناثِ للإيذان بكمال عراقتِهم في

---

(١) قرأ بها: عاصم الجحدري.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٦٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٦) والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٠).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص(٢٤٣)، والبحر المحيط (٥/ ٦٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٥٢)، والتيسير للداني (١١٨، ١١٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٦).

(٣) قرأ بها: مجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٦٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٩٨)، وتفسير الرازي (١٦/ ١٢٤).

(٤) قرأ بها: عاصم الجحدري.
ينظر: الإعراب للنحاس٢/ (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٦٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٠).

(٥) وجب القلب يجب وجيباً: خفق واضطرب.

الكفر والنفاق ﴿بعضهم من بعض﴾ أي متشابهون في النفاق والبُعدِ عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحدِ بالشخص، وقيل: أريد به نفيُ أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبُهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم وتقريرٌ لقوله تعالى: ﴿وما هم منكم﴾ وقوله تعالى: ﴿يأمرون بالمنكر﴾ أي بالكفر والمعاصي ﴿وينهون عن المعروف﴾ أي عن الإيمان والطاعةِ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما سبق ومُفصِحٌ عن مضادة حالِهم لحال المؤمنين أو خبرٌ ثان ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي عن المبرات والإنفاق في سبيل الله فإن قبضَ اليد كنايةٌ عن الشح ﴿نسوا الله﴾ أغفلوا ذكرَه ﴿فنسيهم﴾ فتركهم من رحمته وفضلِه وخذلَهم، والتعبيرُ عنه بالنسيان للمشاكلة[١] ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون في التمرد والفسقِ الذي هو الخروجُ عن الطاعة والانسلاخُ عن كل خيرٍ والإظهارُ في موقع الإضمار لزيادة التقرير كما في قوله تعالى:

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ أي المجاهرين ﴿نار جهنم خالدين فيها﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هي حسبهم﴾ عقابًا وجزاءً وفيه دليلٌ على عظم عقابِها وعذابِها ﴿ولعنهم الله﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم، وفي إظهار الاسم الجليلِ من الإيذان بشدة السخط ما لا يخفى ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي نوعٌ من العذاب غيرَ عذابِ النار دائمٌ لا ينقطع أبدًا أو لهم عذاب مقيمٌ في الدنيا لا ينفك عنهم وهو ما يقاسونه من تعب النفاقِ الذي هم منه في بلية دائمةٍ[٢] لا يأمنون ساعةً من خوف الفضيحةِ ونزولِ العذاب إن اطُّلع عن أسرارهم ﴿كالذين من قبلكم﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب للتشديد والكافُ في محل الرفعِ على الخبرية، أي أنتم مثلُ الذين مِن قبلكم ﴿كانوا أشد منكم قوةً وأكثر أموالًا وأولادًا﴾ تفسيرٌ وبيانٌ لِشَبَهِهم بهم وتمثيلٌ لحالهم بحالهم ﴿فاستمتعوا﴾ تمتعوا، وفي صيغة الاستفعالِ ما ليس في صيغة التفعلِ من الاستزادة والاستدامةِ في التمتع ﴿بخلاقهم﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقُه من الخَلْق بمعنى التقدير وهو ما قُدّر لصاحبه ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع﴾ الكاف في محل النصبِ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي استمتاعًا كاستمتاع ﴿الذين

---

(١) والمشاكلة لون بديعي مضى الكلام عنه، ويمكن أن يكون النسيان منهم مستعار للإشراك بالله، أو للإعراض عن ابتغاء مرضاته، وامتثال ما أمر به، لأن الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعرض عنه، أما نسيان الله إياهم فمشاكلة.

ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥٤، ٢٥٥)، والإيضاح مع البغية (٤/ ٢٢)، وشروح التلخيص (٤/ ٣٠٩) وما بعدها، والمصباح (٢١) وما بعدها، والمطول (٤٢٣)، وشرح عقود الجمان (١١٠).

(٢) زاد في خ: معهم.

من قلبكم **بخلاقهم﴾** ذمّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسةِ من الشهوات الفانيةِ والتهائِهم بها عن النظر في العواقب الحقةِ واللذائذ الحقيقيةِ تمهيدًا لذم المخاطبين بمشابهتهم إياهم واقتفائِهم أثرَهم **﴿وخضتم﴾** أي دخلتم في الباطل **﴿كالذي خاضوا﴾** أي كالذين بإسقاط النونِ أو كالفوج الذي أو كالخوض الذي خاضوه **﴿أولئك﴾** إشارةٌ إلى المتصفين بالأوصاف المعدودةِ من المشبَّهين والمشبَّهة بهم لا إلى الفريق الأخير فقط فإن ذلك يقتضي أن يكون حُبوطُ أعمالِ المشبهين وخسرانُهم مفهومَين ضمنًا لا صريحًا ويؤدي إلى خلوّ تلوينِ الخطابِ عن الفائدة إذ الظاهرُ حينئذ أولئكم والخطابُ لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلُح للخطاب أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة.

﴿حبطت أعمالهم﴾ ليس المرادُ بها أعمالَهم المعدودةَ كما يُشعر به التعبيرُ عنهم باسم الإشارةِ فإن غائلتَها غنيةٌ عن البيان بل أعمالهم التي كانوا يستحقون بها أجورًا حسنةً لو قارنت الإيمان، أي ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثرٌ **﴿في الدنيا والآخرة﴾** بطريق المثوبةِ والكرامةِ، أما في الآخرة فظاهرٌ وأما في الدنيا فلأنّ ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحةِ والسعة وغيرِ ذلك حسبما ينبئ عنه قولُه عز وجل: **﴿من كان يريد الحياةَ الدنيا وزينتَها نوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخسون﴾** [هود، الآية ١٥] ليس ترتبُه عليها على طريقة المثوبةِ والكرامة بل بطريق الاستدراج **﴿وأولئك﴾** أي الموصوفون بحُبوط الأعمالِ في الدارين **﴿هم الخاسرون﴾** الكاملون في الخسران في الدارين الجامعون لمباديه وأسبابِه طرًّا فإنه قد ذهبت رؤوسُ أموالِهم التي هي أعمالُهم فيما ضرَّهم ولم تنفعْهم قطّ ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانًا، وإيرادُ اسمِ الأشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصافِ المُشارِ إليها للحبوط والخسران.

﴿ألم يأتهم﴾ أي المنافقين **﴿نبأ الذين من قبلهم﴾** أي خبرُهم الذي له شأنٌ وهو[1] ما فعل بهم والاستفهامُ للتقرير والتحذير **﴿قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين﴾** وهم قومُ شعيبٍ **﴿والمؤتفكات﴾** قَرْياتُ قومِ لوطٍ ائتفَكَت بهم [أي انقلبت][2] بهم فصار عاليها سافلَها وأُمطروا حجارةً من سجيل وقيل: قرياتُ المكذبين وائتفاكُهن انقلابُ أحوالِهن من الخير إلى الشر **﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾** استئنافٌ لبيان نبئهم **﴿فما كان الله ليظلمهم﴾** الفاءُ للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلامُ ويستدعيه النظامُ أي فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك، وإيثارُ ما

---

(١) زاد في خ: ما فعلوا و. (٢) سقط في خ.

عليه النظمُ الكريمُ للمبالغة في تنزيه ساحةِ السُّبحان عن الظلم، أي ما صح وما استقام له أن يظلِمهم ولكنهم ظلموا أنفسَهم، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله عز وجل: ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ للدِلالة على استمرار ظلمِهم حيث لم يزالوا يعرِّضونها للعقاب بالكفر والتكذيب، وتقديمُ المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلةِ من غير قصدٍ إلى قصر المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديمَ موجبًا للقصر فيكون كما في قوله تعالى: ﴿**وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسَهم**﴾ [هود، الآية ١٠١] من غير قصر[1] للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجيء لهذا مزيدُ بيان في قوله سبحانه: ﴿**إن الله لا يظلم الناسَ شيئًا ولكن الناس أنفسَهم يظلمون**﴾ [يونس، الآية ٤٤].

﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾ بيانٌ لحسن حالِ المؤمنين والمؤمنات حالًا ومآلًا إثرَ بيانِ قبحِ حالِ أضدادِهم عاجلًا وآجلًا، والتعبيرُ عن نسبة هؤلاء بعضِهم إلى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للإيذان بأن نسبةَ هؤلاء بطريق القرابة الدينيةِ المبنية على المعاقدة المستتبعةِ للآثار من المعونة والنصرة وغيرِ ذلك ونسبةُ أولئك بمقتضى الطبيعةِ والعادة ﴿**يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ أي جنسِ المعروف والمنكرِ المنتظمَين لكل خير وشر ﴿**ويقيمون الصَّلاة**﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ماسبق من قوله تعالى: ﴿**نسُوا الله**﴾ ﴿**ويؤتون الزكاة**﴾ بمقابلة قوله تعالى: ﴿**ويقبضون أيديَهم**﴾ ﴿**ويطيعون الله ورسوله**﴾ أي في كل أمر ونهي، وهو بمقابلة وصفِ المنافقين بكمال الفسقِ والخروج عن الطاعة ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافِهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعدِ للإشعار ببُعد درجتِهم في الفضل أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة ﴿**سيرحمهم الله**﴾ أي يُفيض عليهم آثارَ رحمتِه من التأييد والنصرة ألبتة لما أن السين مؤكدةٌ للوقوع كما في قولك: سأنتقم منك ﴿**إن الله عزيز**﴾ تعليلٌ للوعد أي قويٌّ قادرٌ على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه ﴿**حكيم**﴾ يبني أحكامَه على أساس الحِكمةِ الداعيةِ إلى إيصال الحقوقِ من النعمة والنقمة إلى مستحقيها من أهل الطاعة وأهلِ المعصية وهذا وعدٌ للمؤمنين متضمِّنٌ لوعيد المنافقين كما أن ما سبق في شأن المنافقين من قوله تعالى: ﴿**فنسِيَهم**﴾ [التوبة، الآية ٦٧] وعيدٌ لهم متضمنٌ لوعد المؤمنين فإن منعَ لطفِه تعالى عنهم لطفٌ في حق المؤمنين.

---

(١) في خ: قصد.

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات﴾ تفصيلٌ لآثار رحمتِه الدنيوية، والإظهارُ في موقع الإضمارِ لزيادة التقريرِ والإشعارِ بعلية وصفِ الإيمان لحصول ما تعلق به الوعدُ، وعدمُ التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغيرِ ذلك للإيذان بأنه من لوازمه ومستتبِعاته أي وعَدهم وعدًا شاملًا لكل أحدٍ منهم على اختلاف طبقاتِهم في مراتب الفضل كيفًا وكمًا **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** فإن كلَّ أحد منهم فائزٌ بها لا محالة **﴿ومساكن طيبة﴾** أي وعد بعضَ الخواصِّ الكمَّل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش. في الخبر (أنها قصورٌ من اللؤلؤ والزبرجدِ والياقوتِ الأحمر) **﴿في جنات عدن﴾** هي أبهى أماكنِ الجناتِ وأسناها. عن النبي ﷺ: «**عدْنٌ دارُ الله لم ترها عينٌ ولم تخطُرْ على قلب بشر لا يسكنها غيرُ ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك**»[1] وعن ابن عمر رضي الله عنهما: إن في الجنة قصرًا يقال له عدْن حوله البروج والمروج وله خمسةُ آلاف باب على كل باب خمسةُ آلافِ حَوْراء لا يدخُله إلا نبيٌّ أو صدّيقٌ أو شهيد[2]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هي بُطنانُ[3] الجنة وسُرَّتُها. فعدن على هذا عَلَم[4]. وقيل: هو بمعناه اللغوي أعني الإقامة والخلود فمرجعُ العطفِ إلى اختلاف الوصفِ وتغايُرِه فكأنه وصَفه أولًا بأنه من جنس ما هو أشرفُ الأماكنِ المعروفة عندهم من الجنات ذاتِ الأنهار الجارية ليميل إليها طباعُهم أولَ ما يقرع أسماعَهم، ثم وصفه بأنه محفوفٌ بطيب العيشِ مُعرّى عن شوائب الكدوراتِ التي لا تكاد تخلو عنها أماكنُ الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذ الأعينُ ثم وصفه بأنه دارُ إقامةٍ وثباتٍ في جوار العلّيين لا يعتريهم فيها فناءٌ ولا تغيُّرٌ ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال: **﴿ورضوان من الله﴾** أي وشيء يسيرٌ من رضوانه تعالى **﴿أكبر﴾** إذ عليه يدور فوزُ كل خيرٍ وسعادة وبه يُناط نيلُ كلِّ شرفٍ وسيادة ولعل عدمَ نظمِه في سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحققٌ في ضمن كل موعودٍ ولأنه مستمرٌّ في الدارين. روي أنه تعالى

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره»: (٦/ ٤١٧) رقم (١٦٩٥٩)، والبزار في مسنده، والدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٩) رقم (٥٥٥)؛ كما عزاه الزيلعي إلى ابن مردويه في تفسيره (٢/ ٨٠).

(٢) أخرجه البزار (٦/ ٤٤٩) برقم (٢٤٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا وأخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٢٤) برقم (٢٠٣٤٢) موقوفًا عليه.

(٣) البطنان من الشيء: وسطه.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٥١١) برقم (١٤٥٥)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٣٥).

يقول لأهل الجنة: **(هل رضِيتم؟** فيقولون: ما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك فيقول: **أنا أُعطيكم أفضلَ من ذلك** قالوا: وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك قال: **أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم أبدًا**[١].

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما سبق ذكرُه وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعدِ درجتِه في العِظَم والفخامة ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ دون مايعده الناس فوزًا من حظوظ الدنيا فإنها مع قطع النظرِ عن فنائها وتغيُّرِها وتنغُّصِها وتكدّرِها ليست بالنسبة إلى أدنى شيءٍ من نعيم الآخرة بمثابة جناحِ البعوض، قال رسول الله ﷺ: «**لو كانَتِ الدنيَا تَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَىٰ الكافرَ منها شربة ماء**»[٢] ونِعِمّا قال من قال: [البسيط]

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها ... تبقي علينا ويأتي رزقُها رغَدا

ما كان من حق حرٍّ أن يذِلّ بها ... فكيف وهي متاعٌ يضمحلّ غدا[٣]

﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار**﴾ أي المجاهرين منهم بالسيف ﴿**والمنافقين**﴾ بالحجة

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٢٣٤): كتاب الرقاق باب: صفة الجنة والنار، حديث (٦٥٤٩)، ومسلم (٩/ ١٨٤-النووي): كتاب الجنة. وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبدًا، حديث (٩/ ٢٨٢٩) والترمذي (٤/ ٦٨٩)، كتاب صفة الجنة، حديث (٢٥٥٥).
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦٠) كتاب الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل حديث (٢٣٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٥٣) وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٥٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٦)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٩٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣٩) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل ابن سعد الساعدي به.
وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد توبع عبد الحميد، تابعه أبو يحيى زكريا بن منظور.
أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦، ١٣٧٧) كتاب الزهد: باب مثل الدنيا حديث (٤١١٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢٨) من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم به وقال الحاكم: صحيح الإسناد.
وتعقبه الذهبي فقال: زكريا بن منظور ضعفوه. وفي «الزوائد»: في إسناده زكريا بن منظور وهو ضعيف.
وللحديث شواهد من حديث ابن عمر أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٠) ومن حديث ابن عباس.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٤).

(٣) ينظر: روح المعاني (١٠/ ١٣٧)، ومعجم السفر (١/ ٤٦٠)، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (١/ ٢٣٩)، والمدهش لابن الجوزي (/ ١٥١)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٣٢٨).

وإقامة الحدود ﴿واغلظ عليهم﴾ في ذلك ولا تأخُذْكَ بهم رأفة. قال عطاء: نَسَخت هذه الآيةُ كلَّ شيء من العفو والصفح[١] ﴿ومأواهم جهنم﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان آجل أمرِهم إثرَ بيانِ عاجلِه، وقيل: حالية ﴿وبئس المصير﴾ تذييلٌ لما قبله والمخصوصُ بالذم محذوف ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ استئنافٌ لبيان ما صدر عنهم من الجرائمِ الموجبةِ لما مر من الأمر بالجهاد والغِلظة عليهم ودخولِ جهنم. (روي أن رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوكَ شهرين ينزلِ عليه القرآنُ ويَعيب المنافقين المتخلّفين فيسمعه مَنْ كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجُلاَّس بنُ سويد منهم: لئن كان ما يقول محمد حقًا لإخواننا الذين خلّفناهم وهم سادتُنا وأشرافنا فنحن شرٌّ من الحمير)، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إن محمدًا لصادقٌ وأنت شرٌّ من الحمار، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستُحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامرٌ يده فقال: اللهم أنزِل على عبدك ونبيِّك تصديقَ الصادق وتكذيبَ الكاذب فنزل[٢]. وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في يحلفون لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على تكرير الحلف، وصيغةُ الجمعِ في قالوا مع أن القائلَ هو الجلاس للإيذان بأن بقيتَهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل.

﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هي ما حُكي آنفًا والجملةُ مع ما عطف عليها اعتراضٌ ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي وأظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد إظهارِهم الإسلامَ ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ هو الفتكُ برسول الله ﷺ وذلك أنه (توافقَ خمسةَ عشرَ منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته إذا تسنّم العقبةَ بالليل وكان عمارُ بنُ ياسر آخذًا بخِطام راحلته يقودها وحذيفةُ بنُ اليمان خلفها يسوقُها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفافِ الإبلِ وبقعقعة السلاحِ فالتفت فإذا قومٌ متلثّمون فقال: إليكم إليكم يا أعداءَ الله فهربوا)[٣]. وقيل: هم المنافقون همّوا بقتل عامر لرده على

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣١١).

(٢) ذكره النسفي في تفسيره (٢/ ٩٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: (٥/ ٤٥٣)، من طريق يزيد بن هارون عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل به.
وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠، ٢٦١) من طريق محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/ ١١٥)، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.
وأخرجه البزار بنحوه (٢/ ٣٥٧) من طريق محمد بن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة به.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٥).

الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوِّجوا عبدَ اللّه بنَ أبيٍّ ابنِ سَلول وإن لم يرضَ به رسولُ الله ﷺ **﴿وما نقموا﴾** أي وما أنكروا وما عابوا أو ما وجدوا ما يورث نِقمتَهم **﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾** سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ في غاية ما يكون من ضنْك العيشِ لا يركبون الخيلَ ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقُتل للجلاس مولى فأمر رسولُ الله ﷺ بديته اثني عشَرَ ألفَ درهم فاستغنى، والاستثناء مفرَّغٌ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أي وما أنكروا شيئًا من الأشياء إلا إغناءَ الله تعالى إياهم أو وما أنكروا لعلة من العلل إلا لإغناء الله إياهم **﴿فإن يتوبوا﴾** عما هم عليه من الكفر والنفاق **﴿يك خيرًا لهم﴾** في الدارين. قيل: لما تلاها رسولُ الله ﷺ قال الجلاس: يا رسول الله لقد عرض الله عليّ التوبةَ والله لقد قلت وصدق عامرٌ فتاب الجلاسُ وحسُنت توبته **﴿وإن يتولوا﴾** أي استمروا على ما كانوا عليه من التولي والإعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض **﴿يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا﴾** بالقتل والأسرِ والنهب وغيرِ ذلك من فنون العقوبات **﴿والآخرة﴾** بالنار وغيرها من أفانين العقاب **﴿وما لهم في الأرض﴾** مع سعتها وتباعُدِ أقطارِها وكثرة أهلِها المصحّحة لوجدان ما نُفيَ بقوله عز وجل: **﴿من ولي ولا نصير﴾** ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة.

﴿ومنهم﴾ بيانٌ لقبائح بعضٍ آخرَ منهم **﴿من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾** لنؤتين الزكاةَ وغيرَها من الصدقات **﴿ولنكونن من الصالحين﴾** قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: يريد الحج وقرئ[1] بالنون الخفيفة فيهما. قيل: نزلت في ثعلبةَ بنِ حاطب أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يرزُقَني مالًا فقال عليه الصلاة والسلام: «**يا ثعلبةُ قليلٌ تؤدّي حقه خيرٌ من كثير لا تطيقه**» فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالًا لأعطين كلَّ ذي حق حقَّه فدعا له فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدودُ حتى ضاقت بها المدينةُ فنزل واديًا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسولُ الله ﷺ فقيل: كثرُ مالُه حتى لا يسعُه وادٍ فقال: «**يا ويحَ ثعلبةَ**» فبعث مصدِّقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناسُ بصدقاتهم ومرا بثعلبةَ فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسولِ الله ﷺ الذي فيه الفرائضُ فقال: ما هذه إلا أختُ الجزية وقال: ارجعا حتى أرى رأيي وذلك قوله عز وجل: **﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾**

---

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: والبحر المحيط (٥/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٣).

أي منعوا حق الله منه ﴿وتولوا﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه: «**يا ويحَ ثعلبةَ**» مرتين فنزلت فجاء ثعلبةُ بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله منعني أن أقبل منك**» فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام: «**هذا عملُك قد أمرتك فلم تُطعني**» فقُبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها إلى أبي بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها إلى عمرَ رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في خلافة عثمانَ رضي الله عنه[1] وقيل: نزلت فيه وفي سهل بن الحارثِ وجَدِّ بنِ قيس ومعتب بن قُشير والأول هو الأشهرُ ﴿وهم معرضون﴾ جملة معترضة أي وهم قوم عادتهم الإعراضُ أو حالية أي تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم.

﴿فأعقبهم﴾ أي جعل الله عاقبةَ فعلِهم ذلك ﴿نفاقًا﴾ راسخًا ﴿في قلوبهم إلى يوم يلقَونه﴾ إلى يوم موتِهم الذي يلقون الله تعالى عنده أو يلقَون فيه جزاءَ عملِهم وهو يومُ القيامة وقيل: فأورثهم البخلَ نفاقًا متمكنًا في قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل: ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ أي بسبب إخلافِهم ما وعده تعالى من التصدق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبكونهم مستمرِّين على الكذب في جميع المقالاتِ التي من جملتها وعدُهم المذكورُ، وتخصيصُ الكذبِ به يؤدّي إلى تخلية الجمعِ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ عن المزية فإن تسببَ الإعقابِ المذكورِ بالإخلاف والكذب يقضي بإسناده إلى الله عز وجل إذ لا معنى لكونهما سببين لإعقاب البخلِ للنفاق، والتحقيقُ أنه لما كانت الفاءُ الدالةُ على الترتيب والتفريع منبئةً عن ترتب إعقابِ النفاقِ المخلّدِ على أفعالهم المحكيةِ عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولي والإعراض، وفيها ما لا دخل له في الترتيب المذكور كالمعاهدة،

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٢٨٩: ٢٩٢)، وفي «شعب الإيمان»: (٤/ ٧٩، ٨٠) رقم (٤٣٥٧)، وأخرجه الطبراني كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤، ٣٥).
والواحدي في «تفسيره الوسيط» (٢/ ٥١٣، ٥١٤)، والطبري في تفسيره (٦/ ٤٢٥، ٤٢٦) رقم (١٧٠٠٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٧) وعزاه إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال، وابن منده والبارودي وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي- رضي الله عنه- فذكره.
قال البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٨٠):
وفي إسناد هذا الحديث نظر، وهو مشهور فيما بين أهل التفسير والله أعلم.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٥):
وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

أزيح ما في ذلك من الإبهام بتعيين ما هو المدارُ في ذلك والله تعالى أعلم وقرئ[١] بتشديد الذال.

﴿ألم يعلموا﴾ أي المنافقون أو من عاهد الله وقرئ[٢] بالتاء الفوقانية خطابًا للمؤمنين فالهمزةُ على الأول للإنكار والتوبيخِ والتهديد أي ألم يعلموا ﴿أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ أي ما أسرُّوا به في أنفسهم وما تناجَوا به فيما بينهم من المطاعن وتسميةِ الصدقةِ جزيةً وغيرِ ذلك مما لا خيرَ فيه، وسرُّ تقديم السر على النجوىٰ سيظهر في قوله سبحانه: ﴿وستُردّون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ [التوبة: ١٠٥] ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ فلا يخفىٰ عليه شيءٌ من الأشياء حتى اجترأوا على ما اجترأوا عليه من العظائم، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ في الموقعين لإلقاء الروعةِ وتربيةِ المهابةِ، وفي إيراد العلم المتعلّق بسرهم ونجواهم بصيغة الفِعلِ الدالِّ على الحدوث والتجدد، والعلمِ المتعلقِ بالغيوب الكثيرةِ الدائمةِ بصيغة الاسم الدالِّ على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالةِ ما لا يخفى، وعلى الثاني لتقرير عِلم المؤمنين بذلك وتنبُّههم على أنه تعالى مؤاخِذُهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم ﴿الذين يلمِزون﴾ نصبٌ أو رفع على الذم، ويجوز جرُّه على البدلية من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ[٣] بضم الميم وهي لغة أي يعيبون ﴿المطوعين﴾ أي المتطوعين المتبرِّعين ﴿من المؤمنين﴾ حالٌ من المطّوعين وقوله تعالى: ﴿في الصدقات﴾ متعلق بـ (يلمزون). (روي أن رسولَ الله ﷺ حث الناسَ على الصدقة فأتى عبدُ الرحمٰن بنُ عوف بأربعين أوقيةً من ذهب وقيل: بأربعةِ آلافِ درهم وقال: لي ثمانيةُ آلافٍ فأقرضتُ ربي أربعة وأمسكتُ لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت**» فبارك له حتى صولحت تُماضِرُ رابعةُ نسائِه عن ربع الثمن على ثمانين ألفًا، وتصدق عاصمُ بنُ عدي بمائة وَسْقٍ[٤] من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر، فقال: بتُّ ليلتي

---

(١) قرأ بها: أبو رجاء، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والبحر المحيط (٥/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٤).

(٢) قرأ بها: علي، وأبو عبد الرحمن، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٧٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٤).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ويعقوب، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).

(٤) الوَسْق: حمل بعير، وهو ستون صاعاً، وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً بالحجاز وأربعمائة وثمانون رطلاً بالعراق.

أجرٌ بالجرير على صاعين فتركت صاعًا لعيالي وجئت بصاع فأمره رسول الله ﷺ أن ينثُره على الصدقات فلمَزَهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدُ الرحمٰن وعاصمٌ إلا رياءً وإنْ كان الله ورسولُه لغنيَّيْن عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكِّر بنفسه ليُعطىٰ من الصدقات فنزلت)[١].

﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ عطف على المطوعين أي ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقاتِهم، وقرئ[٢] بفتح الجيم وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه وقيل: هو بالضم الطاقةُ وبالفتح المشقة ﴿فيسخرون منهم﴾ عطف على (يلمِزون) أي يهزأون بهم والمرادُ بهم الفريقُ الأخير ﴿سخر الله منهم﴾ إخبارٌ بمجازاته تعالى إياهم على ما فعلوا من السخرية والتعبيرُ عنها بذلك للمشاكلة[٣] ﴿ولهم﴾ أي ثابت لهم ﴿عذاب أليم﴾ التنوينُ للتهويل والتفخيم، وإيرادُ الجملةِ اسميةً للدلالة على

---

(١) أخرجه البزار من طريقين؛ كما في «مجمع الزوائد»: (٧/ ٣٥) عن أبي سلمة وعن أبي هريرة به.
وأخرجه الطبراني عن أبي عقيل؛ كما في مجمع الزوائد (٧/ ٣٥-٣٦)، فذكره.
ومن طريق أبي عقيل أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٣٢) رقم (٢٧٠٢٩).
وعبد الرزاق في تفسيره: (٢/ ٢٨٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٤٣١) رقم (١٧٠٢٤)، والواحدي في تفسيره: (٢/ ٥١٤)؛ كلهم من طريق قتادة به.
وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٣٠) رقم (١٧٠١٨-١٧٠١٩) من طريق ابن عباس به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٩) عن أبي هريرة، وعزاه إلى البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه.
كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور». (٣/ ٤٧٠) عن أبي عقيل، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبغوي والطبراني في معجمه، وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة؛ كما ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٧٠) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٥) فيما رواه عن أبي سلمة وعن أبي هريرة:
رواه البزار من طريقين: إحداهما متصلة عن أبي هريرة، والأخرى عن أبي سلمة مرسلة، قال: ولم نسمع أحدًا أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت بن عبادة، وفيه عمر بن أبي سلمة وثقه: العجلي وأبو خيثمة وابن حبان، وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات. ا هـ.
كما قال الهيثمي (٧/ ٣٦) فيما رواه عن أبي عقيل: ورواه الطبراني ورجاله ثقات، إلا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه ولا جرحه. ا هـ.

(٢) قرأ بها: ابن هرمز.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٧٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٤).

(٣) نعم وإسناد سخر الله تعالى على سبيل المجاز الذي حسنته المشاكلة لفعلهم، والمعنى أن الله تعالى عاملهم معاملة تشبه سخرية الساخر على طريقة التمثيل، ويجوز أن يكون إطلاق سخر الله منهم على طريقة المجاز المرسل، أي احتقرهم ولعنهم، وقد سبق الحديث عن المشاكلة.
ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢٧٥)، والمفتاح للسكاكي (٤٢٤)، والمطول (٤٢٣).

الاستمرار ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم**﴾ إخبارٌ باستواء الأمرَين الاستغفارُ لهم وتركُه في استحالة المغفرة، وتصويرُه بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائِهما كأنه عليه الصلاة والسلام أُمر بامتحان الحالِ بأن يستغفر تارة ويتركَ أخرى ليظهرَ له جليةُ الأمر كما في قوله عز وجل: ﴿**قل أنفقوا طَوعًا أو كرْهًا لن يتقبلَ منكم**﴾ [التوبة، الآية ٥٣] ﴿**إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾ بيانٌ لاستحالة المغفرة بعد المبالغةِ في الاستغفار إثرَ بيانِ الاستواءِ بينه وبين عدمِه. (روي أن عبدَ اللّه بنَ عبدِ اللّه ابنِ أُبيّ وكان من المخلِصين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفرَ له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظةً على ما هو الأصلُ من أن مراتبَ الأعداد حدودٌ معينةٌ يخالف حكمُ كلٍّ منها حكمَ ما فوقها: «**إن الله قد رخّص لي فسأزيد على السبعين**»[1] فنزلت ﴿**سواءٌ عليهم أستغفرْتَ لهم أم لم تستغفِرْ لهم لن يغفرَ الله لهم**﴾ [المنافقون، الآية ٦] وقد شاع استعمالُ السبعةِ والسبعين والسبعِمائةِ في مطلق التكثيرِ لاشتمال السبعة على جملة أقسام العددِ فكأنها العددُ بأسره وقيل: هي أكملُ الأعدادِ لجمعها معانيَها ولأن الستة أولُ عددٍ تامٍّ لتعادل أجزائِها الصحيحةِ إذ نصفُها ثلاثة وثلثُها اثنان وسدسُها واحد وجملتها ستةٌ وهي مع الواحد سبعةٌ فكانت كاملةً إذ لا مرتبةَ بعد التمام إلا الكمالُ ثم السبعون غايةُ الكمالِ إذ الآحادُ غايتُها العشرات والسبعُمائة غايةُ الغايات.

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى امتناع المغفرةِ لهم ولو بعد المبالغةِ في الاستغفار، أي ذلك الامتناعُ ليس لعدم الاعتدادِ باستغفارك بل ﴿**بأنهم**﴾ أي بسبب أنهم ﴿**كفروا بالله ورسوله**﴾ كفرًا متجاوزًا عن الحد كما يلوح به وصفُهم بالفسق في قوله عز وجل: ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ فإن الفسقَ في كل شيء عبارةٌ عن التمرُّد والتجاوز عن حدوده أي لا يهديهم هدايةً مُوصلةً إلى المقصد ألبتةَ لمخالفة ذلك للحكمة التي

---

(١) لم أجده بهذا السياق، وأصله متفق عليه عن ابن عمر- رضي الله عنهما - والحديث أخرجه البخاري (٩/ ٢٣٢)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، حديث (٤٦٧٠)، ومسلم (٨/ ١٧٦-النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل عمر- رضي الله عنه - حديث (٢٥/ ٢٤٠٠)، عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه»، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فأخذ عمر- رضي الله عنه- بثوبه فقال: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه، فقال: إنما خيرني فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾، وسأزيده على السبعين فصلى عليه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ فتركت الصلاة عليهم. لفظ مسلم. انتهى.

عليها يدور فلكُ التكوينِ والتشريعِ، وأما الهدايةُ بمعنى الدِلالة على ما يوصِل إليه فهي متحققةٌ لا محالة ولكنهم بسوء اختيارِهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا، وهو تذييلٌ مؤكدٌ لما قبله من الحُكم فإن مغفرةَ الكافرِ إنما هي بالإقلاع عن الكفر والإقبالِ إلى الحق، والمنهمكُ فيه المطبوعُ عليه بمعزل من ذلك، وفيه تنبيهٌ على عذر النبيِّ ﷺ في استغفاره لهم وهو عدمُ يأسِه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغي والضلالِ إذ الممنوعُ هو الاستغفارُ لهم بعد تبيُّن حالِهم كما سيتلى من قوله عز وجل: ﴿**ما كان للنبي**﴾ الآية [التوبة، الآية ١١٣].

﴿**فرح المخلفون**﴾ أي الذين خلّفهم النبيُّ ﷺ بالإذن لهم في القعود عند استئذانِهم أو خلّفهم الله بتثبيطه إياهم لِما علم في ذلك من الحِكمة الخفية أو خلّفهم كسلُهم أو نفاقُهم ﴿**بمقعدهم**﴾ متعلقٌ بفرِحَ أي بقعودهم وتخلّفِهم عن الغزو ﴿**خلافَ رسول الله**﴾ أي خلفه وبعد خروجِه حيث خرج ولم يخرُجوا يقال: أقام خلافَ الحيِّ أي بعدهم، ظعنوا ولم يظعَن، ويؤيده قراءةُ من قرأ خلفَ رسولِ الله، فانتصابُه على أنه ظرفٌ لمقعدهم إذ لا فائدة في تقييد فرحِهم بذلك، وقيل: هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ (خُلفَ رسولِ الله)[1] بضم الخاء فانتصابُه على أنه مفعولٌ له والعاملُ إما (فرح) أي فرحوا لأجل مخالفتِه عليه الصلاة والسلام بالقعود وإما (مقعدِهم) أي فرحوا بقعودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حالٌ والعامل أحدُ المذكورَيْن أي فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام ﴿**وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ لا إيثارًا للدعةِ والخفْضِ على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاقِ، فإن إيثارَ أحدِ الأمرين قد يتحقق بأدنى رُجْحانٍ منه من غير أن يبلُغ الآخرُ مرتبةَ الكراهيةِ[2] وإنما أوثر ما عليه النظمُ الكريمُ على أن يقال: وكرهوا أن يخرُجوا إلى الغزو إيذانًا بأن الجهادَ في سبيل الله مع كونه من أجلّ الرغائبِ وأشرفِ المطالبِ التي يجب أن يتنافسَ فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائحِ الذي هو القعودُ خلافَ رسولِ الله ﷺ ﴿**وقالوا**﴾ أي لإخوانهم تثبيتًا لهم على التخلف والقعودِ وتواصيًا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطًا لهم عن الجهاد ونهيًا عن المعروف وإظهارًا لبعض العللِ الداعيةِ لهم إلى ما فرِحوا به من القعود، فقد جمَعوا ثلاثَ خلالٍ من خصال الكفر والضلالِ: الفرحُ بالقعودِ وكراهيةُ الجهاد ونهيُ

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٧٩).
(٢) في خ: الكراهة.

الغير عن ذلك ﴿**لا تنفروا في الحر**﴾ فإنه لا يستطاع شدّتُه ﴿**قل**﴾ ردًا عليهم وتجهيلًا لهم ﴿**نار جهنم**﴾ التي ستدخُلونها بما فعلتم ﴿**أشد حرًا**﴾ مما تحذرون من الحر المعهودِ وتحذّرون الناسَ منه، فما لكم لا تحذَرونها وتعرِّضون أنفسَكم لها بإيثار القعودِ على النفير ﴿**لو كانوا يفقهون**﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته سبحانه وتعالى غيرُ داخلٍ تحت القولِ المأمور به مؤكدٌ لمضمونه وجوابُ لو إما مقدرٌ أي لو كانوا يفقهون أنها كذلك، أو كيف هي أو إنْ آل مآلُهم إليها لَما فعلوا، أو لتأثروا بهذا الإلزام، وإما غيرُ منويٍّ على أن لو لمجرد التمني المنبىء عن امتناع تحققِ مدخولِها أي لَو كانوا من أهلِ الفَطانةِ والفِقه كما في قوله عز وجل: ﴿**قل انظُروا ماذا في السموات والأرضِ وما تُغني الآيات والنذرُ عن قوم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ١٠١] ﴿**فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا**﴾ إخبارٌ عن عاجل أمرِهم وآجلِه من الضحِك القليلِ والبكاءِ الطويلِ المؤدِّي إليه أعمالُهم السيئةُ التي من جملتها ما ذكر من الفرح، والفاءُ لسببية ما سبق للإخبار بما ذُكر من الضحِك والبكاءِ لا لنفسهما؛ إذ لا يُتصوَّر السببيةُ في الأول أصلًا، وقليلًا وكثيرًا منصوبان على المصدرية أو الظرفية أي ضَحِكًا قليلًا وبكاءً كثيرًا أو زمانًا قليلًا وزمانًا كثيرًا، وإخراجُه في صورة الأمرِ للدِلالة على تحتم وقوعِ المُخبَر به، فإن أمرَ الآمرِ المطاعِ مما لا يكاد يتخلّف عنه المأمورُ به خلا أن المقصودَ إفادتُه في الأول هو وصفُ القِلة فقط وفي الثاني وصفُ الكثرةِ مع الموصوف.

يروى أن أهلَ النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ[1] لهم دمعٌ ولا يكتحلون بنوم. ويجوز أن يكون الضحِكُ كنايةً عن الفرح والبكاءُ عن الغم[2] وأن تكون القِلةُ عبارةً عن العدم والكثرةُ عن الدوام ﴿**جزاء بما كانوا يكسبون**﴾ من فنون المعاصي، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على الاستمرار التجدّدي ما داموا في الدنيا، وجزاءً مفعولٌ له للفعل الثاني أي ليبكوا جزاءً أو مصدرٌ حُذف ناصبُه أي يُجزَون بما ذكر من البكاء الكثيرِ جزاءً بما كسبوا من المعاصي المذكورة.

﴿**فإن رجعك الله**﴾ الفاء لتفريع الأمرِ الآتي على ما بيِّن من أمرهم والفعلُ من الرجْع المتعدّي دون الرجوع اللازم أي فإن ردّك الله تعالى ﴿**إلى طائفة منهم**﴾ أي إلى

---

(١) رقأ الدمع والدم ونحوهما: سكن وجفَّ وانقطع بعد جريانه.

(٢) على ذلك يكون في الآية كنايتان عن صفة. والكناية لون بياني سبق الحديث عنه.
ينظر: في الكناية الإيضاح مع البغية (٣/ ٤١)، وشروح التلخيص (٣/ ٤٠٢) وما بعدها، والطراز للعلوي (١/ ٣٧٢، ٣٧٣)، وسر الفصاحة (٢٧١)، والصناعتين (٣٥٠) وما بعدها، والمثل السائر (٣/ ١٩، ٥١، ٥٢، ٧٢)، والعمدة (١/ ٣١٢) وما بعدها.

المنافقين من المتخلفين في المدينة فإنّ تخلّف بعضهم إنما كان لعذر عائقٍ مع الإسلام أو إلى من بقيَ من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضُهم بالموت أو بالغَيبة عن البلد أو بأن لم يستأذِن البعضُ. عن قتادة أنهم كانوا اثنيْ عشرَ رجلًا قيل فيهم ما قيل ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتِك هذه ﴿فقل﴾ إخراجًا لهم عن ديوان الغُزاةِ وإبعادًا لمحلهم عن محفِل[١] صُحبتِك ﴿لن تخرُجوا معيَ أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا﴾ من الأعداء، وهو إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة وقد وقع كذلك ﴿إنكم﴾ تعليلٌ لما سلف أي لأنكم ﴿رضِيتم بالقعود﴾ أي عن الغزوة وفرِحتم بذلك ﴿أول مرة﴾ هي غزوةُ تبوكَ ﴿فاقعدوا﴾ الفاءُ لتفريع الأمرِ بالقعود بطريق العقوبةِ على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أي إذا رضِيتم بالقعود أولَ مرة فاقعُدوا من بعدُ ﴿مع الخالفين﴾ أي المتخلّفين الذين ديدنُهم القعودُ والتخلفُ دائمًا وقرئ (الخَلِفين)[٢] على القصر، فكان محوُ أساميهم من[٣] دفتر المجاهدين ولزُّهم في قَرن الخالفين عقوبةً لهم أيَّ عقوبةٍ، وتذكيرُ اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الأكثرُ الدائرُ على الألسنة فإنك لا تكاد تستمع قائلًا يقول: هي كبرى امرأةٍ أو أُولى مرة.

﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات﴾ صفةٌ لأحد وإنما جيء بصيغة الماضي تنبيهًا على تحقق الوقوعِ لا محالة ﴿أبدًا﴾ متعلقٌ بالنهي أي لا تدْعُ ولا تستغفرْ لهم أبدًا ﴿ولا تقم على قبره﴾ أي لا تقِفْ عليه للدفن أو للزيارة والدعاء. (روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرِض رأسُ النفاق عبدُ اللّه بنُ أُبيٍّ ابنِ سَلول بعث إلى رسول الله ﷺ ليأتيَه فلما دخل عليه قال عليه السلام: «أهلكك حبُّ اليهود» فقال: يا رسول الله بعثتُ إليك لتستغفرَ لي لا لتؤنِّبني وسأله أن يكفِّنه في شِعاره[٤] الذي يلي جلدَه ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنُه وكان مؤمنًا صالحًا فأجابه عليه السلام تسليةً له ومراعاةً لجانبه وأرسل إليه قميصَه فكُفّن فيه فلما همّ بالصلاة أو صلّى نزلت)[٥] وعن عمرَ رضي الله عنه أنه قال: لما هلك

---

(١) في خ: محل.

(٢) قرأ بها: مالك بن دينار، وعكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٨١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٠٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٢٩٨).

(٣) في خ: عن.

(٤) الشعار: ما ولي جسد الإنسان من الثياب، وفوقه الدثار.

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٤١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٨٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد به. =

عبدُ اللَّه بن أبيّ ووضعناه ليُصلّىٰ عليه قام رسولُ الله ﷺ فقلت: أتصلي على عدوّ الله القائلِ يومَ كذا كذا وكذا والقائلِ يوم كذا كذا وكذا وعدّدت أيامَه الخبيثةَ فتبسم عليه السلام وصلّىٰ عليه ثم مشىٰ معه وقام على حُفرته حتى دُفن فوالله ما لبث إلا يسيرًا حتى نزل ﴿ولا تصلِّ﴾ . . . إلخ[1] فما صلى رسولُ الله ﷺ بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره، وإنما لم يُنْهَ عن التكفين بقميصه ﷺ لأن الضنَّةَ بالقميص كانت مظِنّةَ الإخلالِ بالكرم على أنه كان مكافأةً لقميصه الذي كان ألبسه العباسَ رضي الله تعالى عنه حين أُسر ببدر والخبرُ مشهور[2] ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ تعليلٌ للنهي على معنى أن الاستغفارَ للميت والوقوفَ على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيلٌ في حقهم، لأنهم استمرّوا على الكفر بالله ورسوله مدةَ حياتِهم ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أي متمرِّدون في الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق.

﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ تكريرٌ لما سبق وتقريرٌ لمضمونه بالإخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا في حق فريقٍ غيرِ الفريقِ الأولِ، وتقديمُ الأموالِ في أمثال هذه المواقعِ على الأولاد مع كونهم أعزَّ منها إما لعموم مِساسِ الحاجةِ إليها بحسب الذاتِ وبحسب الأفراد والأوقات، فإنها مما لا بد منه لكل أحدٍ من الآباء والأمهاتِ والأولادِ في كل وقت وحينٍ حتى إن من له أولادٌ ولا مالَ له فهو وأولادُه في ضيق ونَكالٍ وأما الأولادُ فإنما يَرغب فيهم مَنْ بلغ مبلغَ الأُبوةِ وإما لأن المالَ مناطُ لبقاء النفسِ والأولادُ لبقاء النوعِ وإما لأنها أقدمُ في الوجود من الأولاد لأن الأجزاءَ المَنويةَ إنما تحصُل من الأغذية كما سيأتي في سورة الكهف [٤٦] ﴿إنما يريد الله﴾ بما متعهم به من الأموال والأولاد ﴿أن يعذبهم بها في الدنيا﴾ بسبب معاناتِهم المشاقَّ ومكابدتِهم الشدائدَ في شأنها ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبّرِ في العواقب.

= قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.
وزاد البيهقي في رواية أخرى عن الواقدي (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦) ثم قال: يا رسول الله، ليس هذا بحين عتاب هو الموت فإذا مت فاحضر غسلي ....الحديث».

(١) قول عمر: «أتصلي على عدو الله» فقد تقدم تخريجه قبل ذلك بحديثين.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥١) كتاب الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى، حديث (٣٠٠٨) من رواية عمرو بن دينار سمع جابرًا «لما كان يوم بدر أتي بالأسارى وأتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ قميصًا. فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه. قال ابن عتبة كانت له عند النبي ﷺ يد فأحب أن يكافئه.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٣٠، ٣٣١) من حديث جابر، وأدرج فيه الكلام الأخير.

﴿**وإذا أُنزلت سورة**﴾ من القرآن ويجوز أن يُراد بها بعضُها ﴿**أن آمنوا بالله**﴾ (أنْ) مفسرةٌ لما في الإنزال من معنى القولِ والوحي، أو مصدريةٌ حذف عنها الجارُّ أي بأن آمِنوا ﴿**وجاهدوا مع رسوله**﴾ لإعزاز دينِه وإعلاءِ كلمتِه ﴿**استأذنك أولو الطول منهم**﴾ أي: ذوو الفضلِ والسعةِ والقُدرة على الجهاد بدنًا ومالًا ﴿**وقالوا**﴾ عطفٌ تفسيريٌّ لـ(استأذنك) مغنٍ عن ذكر ما استأذنوا فيه يعني القعودَ ﴿**ذرنا نكن مع القاعدين**﴾ أي الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر.

﴿**رضوا**﴾ استئنافٌ لبيان سوءِ صنيعِهم وعدمِ امتثالِهم لكلا الأمرين وإن لم يرُدّوا الأول صريحًا ﴿**بأن يكونوا مع الخوالف**﴾ مع النساء اللاتي شأنُهن القعودُ ولزومُ البيوتِ، جمعُ خالفةٍ.

وقيل: الخالفةُ من لا خير فيه ﴿**وطبع على قلوبهم فهم**﴾ بسبب ذلك ﴿**لا يفقهون**﴾ ما في الإيمان بالله وطاعتِه في أوامره ونواهيه واتباعِ رسولِه عليه السلام والجهادِ من السعادة وما في أضداد ذلك من الشقاوة ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه**﴾ بالله وبما جاء من عنده تعالى، وفيه إيذانٌ بأنهم ليسوا من الإيمان بالله في شيء وإن لم يُعرضوا عنه صريحًا إعراضَهم عن الجهاد باستئذانهم في القعود ﴿**جاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ أي إنْ تخلّف هؤلاء عن الغزو فقد نهَدَ إليه ونهضَ له من هو خيرٌ منهم وأخلصُ نيةً ومعتقَدًا وأقاموا أمرَ الجهادِ بكلا نوعيه كقوله تعالى: ﴿**فإن يكفُرْ بها هؤلاء فقد وكلْنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين**﴾ [الأنعام، الآية ٨٩] ﴿**وأولئك**﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿**لهم**﴾ بواسطة نعوتِهم المزبورة[1] ﴿**الخيراتُ**﴾ أي منافعُ الدارين النصرُ والغنيمةُ في الدنيا والجنةُ والكرامة في العُقبى، وقيل: الحورُ كقوله عز قائلًا: ﴿**فيهن خيراتٌ حسانٌ**﴾ [الرحمٰن، الآية ٧٠] وهي جمعُ خَيْرة تخفيف خيّرة ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ أي الفائزون بالمطلوب لا مَنْ حاز بعضًا من الحظوظ الفانية عما قليل، وتكريرُ اسم الإشارة تنويهٌ لشأنهم وربْءٌ لمكانهم ﴿**أعد الله لهم**﴾ استئنافٌ لبيان كونِهم مفلحين أي هيأ لهم في الآخرة ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ حالٌ مقدرةٌ من الضمير المجرورِ والعامل أعدّ ﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما فُهم من إعداد الله سبحانه لهم الجناتِ المذكورةَ من نيل الكرامةِ العظمى ﴿**الفوز العظيم**﴾ الذي لا فوزَ وراءه.

﴿**وجاء المعذورن من الأعراب ليؤذن لهم**﴾ شروعٌ في بيان أحوالِ منافقي

---

(١) المزبورة: المكتوبة.

الأعرابِ إثرَ بيانِ منافقي أهلِ المدينةِ، والمعذّرون من عذّر في الأمر إذا قصّر فيه وتوانىٰ ولم يجِد، وحقيقتُه أن يوهِمَ أن له عذرًا فيما يفعل ولا عذرَ له أو المعتذرون بإدغام التاءِ في الذال ونقلِ حركتِها إلى العين وهم المعتذرون بالباطل، وقرئ (المُعْذِرون)[1] من الإعذار وهو الاجتهاد في العذرُ والاحتشادُ فيه، قيل: هم أَسَدٌ وغطَفانُ قالوا: إن لنا عيالًا وإن بنا لجَهدًا فأذن لنا في التخلف. وقيل: هم رهطُ عامِرِ بنِ الطفيل قالوا: إن غزَوْنا معك أغار أعرابُ طيءٍ على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام: «**سيغنيني الله تعالى عنكم**». وعن مجاهد: نفرٌ من غِفارٍ اعتذروا فلم يعذُرهم الله سبحانه. وعن قتادة: اعتذروا بالكذب. وقرئ (المُعّذّرون)[2] بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحنٌ إذ التاءُ لا تُدغم في العين إدغامَها في الطاء والزاي والصاد في المطّوعين وأزّكى وأصّدق. وقيل: أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فُسّر المعذّرون والمُعْذِرون أي الذين لم يُفرطوا في العذر ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ وهم منافقو الأعرابِ الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسولَه بادعائهم الإيمانَ والطاعة ﴿**سيصيب الذين كفروا منهم**﴾ أي من الأعراب أو من المعذّرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿**عذاب أليم**﴾ بالقتل والأسرِ في الدنيا والنارِ في الآخرة.

﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى**﴾ كالهَرْمىٰ والزَّمْنى ﴿**ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون**﴾ لفقرهم كمُزَينةَ وجُهينة وبني عذرة ﴿**حرج**﴾ إثمٌ في التخلف ﴿**إذا نصحوا لله ورسوله**﴾ وهو عبارةٌ عن الإيمان بهما والطاعةِ لهما في السر والعلنِ وتولِّيهما في السراء والضراءِ والحبِّ فيهما والبغضِ فيهما كما يفعل المَوْلى الناصحُ بصاحبه ﴿**ما على المحسنين من سبيل**﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما سبق أي ليس عليهم جناحٌ ولا إلى معاتبتهم سبيلٌ، و(من) مزيدةٌ للتأكيد، ووضْعُ المحسنين موضِعَ الضمير للدِلالة على انتظامهم بنُصحهم لله ورسولِه في سلك المحسنين، أو تعليلٌ لنفي

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وعاصم، والشنبوذي، وابن عباس، وزيد بن علي، والأعرج، وأبو صالح، وعيسى ابن هلال، وقتيبة، ومجاهد، وشبعة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٨٣، ٨٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٧٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٢٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢١)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٥).

(٢) قرأ بها: مسلمة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٨٤).

الحرج عنهم، أي ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييلٌ مؤيدٌ لمضمون ما ذُكر مشيرٌ إلى أن بهم حاجةً إلى المغفرة وإن كان تخلُّفهم بعذر.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ عطفٌ على المحسنين كما يُؤذِن به قوله عز وجل فيما سيأتي: ﴿إنما السبيل﴾ الآية، وقيل: عطفٌ على الضعفاء وهم البكّاؤون، سبعةٌ من الأنصار: معقِلُ بنُ يسار وصخرُ ابنُ خنساءَ وعبدُ اللَّه بنُ كعبٍ وسالمُ بنُ عميرٍ وثعلبةُ بنُ غنمةَ وعبدُ اللَّه بنُ معقِلٍ وعلبةُ بنُ زيد أتوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: نذرْنا الخروجَ فاحمِلنا على الخِفافِ المرقوعة والنعالِ المخصوفة نغْزُ معك فقال عليه السلام: «لا أجد»، فتولَّوا وهم يبكون[1]، وقيل: هم بنو مُقرِّن: معقِلٌ وسويدٌ ونُعمانُ وقيل: أبو موسى الأشعريُّ وأصحابُه رضي الله تعالى عنهم ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ حالٌ من الكاف في (أتوك) بإضمار قد وما عامةٌ لِما سألوه عليه السلام وغيره مما يُحمل عليه عادة وفي إيثار (لا أجد) على ليس عندي من تلطيف الكلامِ وتطييبِ قلوبِ السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده ﴿تولوا﴾ جوابُ إذا ﴿وأعينهم تفيض﴾ أي تسيل بشدة ﴿من الدمع﴾ أي دمعًا فإن (من) البيانية مع مجرورها في حيز النصب على التمييز وهو أبلغُ من يفيض دمعُها لإفادتها أن العينَ بعينها صارت دمعًا فيّاضًا والجملةُ حاليةٌ وقوله عزّ اسمُه: ﴿حزنًا﴾ نُصب على العلية أو الحالية أوالمصدرية لفعل دل عليه ما قبله أي تفيض للحزن، فإن الحزنَ يُسند إلى العين مجازًا كالفيض، أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنًا فتكون هذه الجملةُ حالًا من الضمير في تفيض ﴿ألا يجدوا﴾ على حذف لام متعلقة بـ (حَزَنًا) أو تفيض أي لئلا يجدوا ﴿ما ينفقون﴾ في شراء ما يحتاجون إليه إذ لم يجدوه عندك.

۞ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إنما السبيل﴾ بالمعاتبة ﴿على الذين يستأذنونك﴾ في التخلف ﴿وهم أغنياء﴾

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٨١).

واجدون لأُهبة الغزوِ مع سلامتهم ﴿رضُوا﴾ استئنافٌ تعليليٌّ لما سبق كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ الذين شأنُهم الضَّعة والدناءة ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ أي خذلهم فغفَلوا عن وخامة العاقبة ﴿فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لا يعلمون﴾ أبدًا غائلةَ ما رضُوا به وما يستتبعه آجلًا كما لم يعلموا بخساسة شأنِه عاجلًا.

عود إلى المنافقين

﴿يعتذرون إليكم﴾ استئنافٌ لبيان ما يتصدَّوْن له عند القفولِ إليهم. روي أنهم كانوا بضعةً وثمانين رجلًا فلما رجع عليه السلام إليهم جاءوا يعتذرون إليه بالباطل والخطابُ لرسول الله ﷺ وأصحابِهِ فإنهم كانوا يعتذرون إليهم أيضًا لا إلى رسول الله ﷺ فقط أي يعتذرون إليكم في التخلف ﴿إذا رجعتم﴾ من الغزو منتهين ﴿إليهم﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة إيذانًا بأن مدارَ الاعتذار هو الرجوعُ إليهم لا إلى الرجوع إلى المدينة فلعل منهم مَنْ بادر إلى الاعتذار قبل الرجوعِ إليها ﴿قل﴾ تخصيصُ هذا الخطابِ برسول الله ﷺ بعد تعميمِه فيما سبق لأصحابه أيضًا لِما أن الجوابَ وظيفتُه عليه السلام، وأما اعتذارُهم فكان شاملًا للمسلمين شمولَ الرجوعِ لهم ﴿لا تعتذروا﴾ أي لا تفعلوا الاعتذارَ كقوله تعالى: ﴿اخسَؤا فيها ولا تكلّمونِ﴾ [المؤمنون، الآية ١٠٨] أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير، وأما التعرُّضُ لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى: ﴿لن نؤمن لكم﴾ أي لن نصدِّقَكم في ذلك أبدًا فإنه استئنافٌ تعليليٌّ للنهي مبنيٌّ على سؤال [نشأ][1] من قِبَلهم متفرّعٌ على ادعاء الصّدقِ في الاعتذار كأنهم قالوا: لمَ نعتذر؟ فقيل: لأنا لا نصدقكم أبدًا فيكون عبثًا إذ لا يترتب عليه غرضُ المعتذِر وقوله عز وجل: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ تعليلٌ لانتفاء التصديقِ أي أُعلِمْنا بالوحي بعضَ أخباركم المنافيةِ للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه في ضمائركم وهيأتموه للإبراز في معرِض الاعتذارِ من الأكاذيب، وجمعُ ضميرِ المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم أطماعِهم من التصديق رأسًا ببيان عدمِ رواج اعتذارِهم عند أحدٍ من المؤمنين أصلًا فإن تصديقَ البعض لهم ربما يطمعهم في تصديق الرسولِ ﷺ أيضًا بواسطة المصدِّقين وللإيذان بأن افتضاحَهم بين المؤمنين كافة ﴿وسيرى الله عملكم﴾ فيما سيأتي أتُنيبون إليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم

---

(١) سقط في خ.

تثبُتون وكأنه استتابةٌ وإمهالٌ للتوبة، وتقديمُ مفعول الرؤية على ما عطف على فاعله من قوله تعالى: ﴿**ورسوله**﴾ للإيذان باختلاف حالِ الرؤيتين وتفاوتِهما وللإشعار بأن مدارَ الوعيد هو علمُه عز وجل بأعمالهم ﴿**ثم تردون**﴾ يوم القيامة ﴿**إلى عالم الغيب والشهادة**﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال، ووضعُ المُظهرِ موضعَ المضمرِ لتشديد الوعيدِ فإن علمَه سبحانه وتعالى بجميع أعمالِهم الظاهرةِ والباطنةِ وإحاطتَه بأحوالهم البارزةِ والكامنةِ مما يوجب الزجرَ العظيم ﴿**فينبئكم**﴾ عند ردِّكم إليه ووقوفِكم بين يديه ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ أي بما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الأعمال السيئةِ السابقةِ واللاحقة، على أن ما موصولةٌ والعائدُ إليها محذوفٌ أو بعملكم على أنها مصدريةٌ، والمرادُ بالتنبئة بذلك المجازاةُ به، وإيثارُها عليها لمراعاة ما سبق من قوله تعالى: ﴿**قد نبأنا الله**﴾ إلخ، فإن المنبأَ به الأخبارُ المتعلِّقةُ بأعمالهم وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالِهم وإنما يعلمونها يومئذ.

﴿**سيحلفون بالله لكم**﴾ تأكيدًا لمعاذيرهم الكاذبةِ وتقريرًا لها، والسين للتأكيد، والمحلوفُ عليه محذوفٌ يدل عليه الكلامُ وهو ما اعتذروا به من الأكاذيب، والجملةُ بدلٌ من يعتذرون أو بيانٌ له ﴿**إذا انقلبتم**﴾ أي انصرفتم من الغزو ﴿**إليهم**﴾ ومعنى الانقلابِ هو الرجوعُ والانصرافُ مع زيادة معنى الوصولِ والاستيلاء، وفائدةُ تقييدِ حَلفِهم به الإيذانُ بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبي عليه السلام به من قوله تعالى: ﴿**لا تعتذروا**﴾ إلخ، بل هو أمرٌ مبتدأ ﴿**لتعرضوا**﴾ وتصفحوا ﴿**عنهم**﴾ صفحَ رضا فلا توبّخوهم ولا تعاتبوهم كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿**لترضَوا عنهم**﴾ ﴿**فأعرضوا عنهم**﴾ لكن لا إعراضَ رضا كما هو طِلْبتُهم بل إعراضَ اجتنابٍ ومقتٍ كما يعرب عنه قوله عز وجل: ﴿**إنهم رجس**﴾ فإنه صريحٌ في أن المرادَ بالإعراض عنهم إما الاجتنابُ عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني، وإما تركُ استصلاحِهم بترك المعاتبةِ لأن المقصودَ بها التطهيرُ بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاسٌ لا تقبل التطهير، فلا يُتعرّضُ لهم بها وقوله عز وعلا: ﴿**ومأواهم جهنم**﴾ إما من تمام التعليلِ فإن كونَهم من أهل النارِ من دواعي الاجتناب عنهم وموجباتِ تركِ استصلاحِهم باللوم والعتاب، وإما تعليلٌ مستقل أي وكفتْهم النارُ عتابًا وتوبيخًا فلا تتكلفوا أنتم في ذلك ﴿**جزاء**﴾ نُصب على أنه مصدرٌ مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالًا أي يُجزَون جزاءً أو لمضمون الجملةِ السابقة فإنها مفيدةٌ لمعنى المجازاةِ قطعًا كأنه قيل: مجزيّون جزاءً ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ في الدنيا من فنون السيئاتِ أو على أنه مفعولٌ له ﴿**يحلفون لكم**﴾ بدلٌ مما سبق، وعدمُ ذكر المحلوفِ به لظهوره أي يحلفون به تعالى ﴿**لترضوا**

عنهم﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم.

﴿فإن ترضوا عنهم﴾ حسبما راموا وساعدتموهم في ذلك ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي فإن رضاكم عنهم لا يُجديهم نفعًا لأن الله ساخطٌ عليهم ولا أثرَ لرضاكم عند سخطِه سبحانه، ووضعُ الفاسقين موضعَ ضميرِهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجبِ لما حل بهم من السخط وللإيذان بشمول الحُكم لمن شاركهم في ذلك والمرادُ به نهيُ المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترارِ بمعاذيرهم الكاذبةِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه فإن الرضا عمن لا يرضىٰ عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدرُ عن المؤمن، وقيل ذلك لئلا يَتوهمَ متوهمٌ أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى. قيل: هم جدُّ بنُ قيس ومعتبُ بنُ قشير وأصحابُهما وكانوا ثمانين منافقًا فقال النبي ﷺ للمؤمنين حين قدم المدينة: «**لا تجالسوهم ولا تكلموهم**»[1]، وقيل: جاء عبد اللّه بن أبي يحلف ألا يتخلف عنه أبدًا.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ٨٢، ٨٣).

أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿**الأعراب**﴾ هي صيغةُ جمعٍ وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزمَ كونُ الجمع أخصَّ من الواحد فإن العربَ هو هذا الجيلُ الخاصُّ سواء سكنَ البواديَ أم القرى، وأما الأعرابُ فلا يطلق إلا على من يسكن البواديَ ولهذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل: أعرابيٌّ وقال أهلُ اللغة: رجلٌ عربيٌّ وجمعُه العَرَبُ كما يقال: مَجوسيٌّ ويهوديٌّ ثم يحذف ياء النسب في الجمع فيقال: المجوس واليهود ورجلٌ أعرابي ويجمع على الأعراب والأعاريب أي أصحاب البدو ﴿**أشد كفرًا ونفاقًا**﴾ من أهل الحضَر لجفائهم وقسوةِ قلوبهم وتوحُّشهم ونشئِهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم، وهذا من باب وصف الجنسِ بوصف بعض أفرادِه كما في قوله تعالى: ﴿**وكان الإنسانُ كفورًا**﴾ [الإسراء: ٦٧] إذ ليس كلُّهم كما ذُكر على ما ستحيط به خُبرًا.

﴿**وأجدر ألا يعلموا**﴾ أي أحقُّ وأخلقُ بألا يعلموا ﴿**حدود ما أنزل الله على رسوله**﴾ لبعدهم عن مجلسه ﷺ وحِرمانِهم من مشاهدة معجزاتِه ومعاينةِ ما ينزل عليه من الشرائع في تضاعيف الكتابِ والسنة ﴿**والله عليم**﴾ بأحوال كلٍّ من أهل الوَبر والمدَر ﴿**حكيم**﴾ فيما يصيب به مسيئَهم ومحسنَهم من العقاب والثواب.

﴿**ومن الأعراب**﴾ شروعٌ في بيان تشعّبِ جنسِ الأعرابِ إلى فريقين وعدم انحصارِهم في الفريق المذكورِ كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم، وشرحٌ لبعض مثالبِ هؤلاء المتفرعةِ على الكفر والنفاق بعد بيانِ تماديهم فيهما، وحملُ الأعراب على الفريق المذكورِ خاصةً وإن ساعده كونُ من يحكي حالَه بعضًا منهم وهم الذين بصدد الإنفاقِ من أهل النفاقِ دون فقرائِهم أو أعرابِ أسدٍ وغطفانَ وتميم كما قيل لكن لا يساعده ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿**ومن الأعراب من يؤمن**﴾ [التوبة: ٩٩] إلخ، فإن أولئك ليسوا من هؤلاء قطعًا وإنما هم من الجنس أي ومن جنس الأعرابِ الذي نُعت بنعت بعضِ أفرادِه ﴿**من يتخذ ما ينفق**﴾ من المال أي يعُدّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به صورةً ﴿**مغرمًا**﴾ أي غرامةً وخُسرانًا لازمًا إذ لا ينفقه احتسابًا ورجاءً لثواب الله تعالى ليكون له مغنمًا وإنما ينفقه رياءً وتقيةً فهي غرامةٌ محضةٌ، وما في صيغة الاتخاذِ من معنى الاختيارِ والانتفاعِ بما يتخذ إنما هو باعتبار غرضِ المنفقِ من الرياء والتقيةِ لا باعتبار ذاتِ منفقةٍ أعني كونَها غرامة ﴿**ويتربص بكم الدوائر**﴾

أصلُ الدائرة ما يحيط بالشيء والمرادُ بها ما لا محيص عنه من مصائب الدهرِ أي ينتظر بكم دوائرَ الدهرِ ونُوَبه ودولَه ليذهب غلَبتكم عليه فليتخلص مما ابتُلي به **﴿عليهم دائرة السوء﴾** دعاءٌ عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه: **﴿غُلتْ أيديهم﴾** [المائدة، الآية ٦٤] بعد قول اليهود ما قالوا والسوءُ مصدرٌ ثم أطلق على كل ضُرٍّ وشر وأضيفت إليه الدائرةُ ذمًا كما يقال: رجلُ سوءٍ لأن مَن دارت عليه يذمّها، وهي من باب إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه فوصفت في الأصل بالمصدر مبالغةً ثم أضيفت إلى صفتِها كقوله عز وجل: **﴿ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ﴾** [مريم، الآية ٢٨] وقيل: معنى الدائرةِ يقتضي معنى السَّوءِ فإنما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ كما قالوا: «شمسُ النهارِ ولَحْيا[١] رأسِه»[٢] وقرئ بالضم وهو العذابُ كما قيل له سيئة **﴿والله سميع﴾** لما يقولونه عند الإنفاقِ مما لا خيرَ فيه **﴿عليم﴾** بما يُضمِرونه من الأمور الفاسدةِ التي من جملتها أن يتربّصوا بكم الدوائرَ وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى.

﴿ومن الأعراب﴾ أي من جنسهم على الإطلاق **﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ﴾** أي يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاءِ والادخارِ **﴿ما ينفق﴾** أي ينفقه في سبيل الله تعالى **﴿قرُباتٍ﴾** أي ذرائعَ إليها وللإيذان بما بينهما من كمال الاختصاصِ جُعل كأنه نفسُ القرُبات، والجمعُ باعتبار أنواعِ القرُباتِ أو أفرادِها، وهي ثاني مفعولَي (يتخذ).

وقولُه تعالى: **﴿عند الله﴾** صفتُها أو ظرفٌ لـ (يتخذ) **﴿وصلوات الرسول﴾** أي وسائلَ إليها فإنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدِّقين بالخير والبركة ويستغفرُ لهم ولذلك سُنّ للمُصدِّق أن يدعوَ للمتصدِّق عند أخذِ صدقتِه لكن ليس له أن يصليَ عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوْفى**»[٣] فإن

---

(١) اللحيان: حائطا الفم، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٣/ ٧٤)، وروح المعاني (١١/ ٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٤٢٣) كتاب الزكاة: باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، حديث (١٤٩٧) ومسلم (٢/ ٥٦) كتاب الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقته، حديث (١٧٦/ ١٠٧٨) وأبو داود (١/ ٤٩٩) كتاب الزكاة: باب دعاء المصدق لأهل الصدقة، حديث (١٥٩٠) والنسائي (٥/ ٣١) كتاب الزكاة: باب صلاة الإمام على صاحب الصدقة رقم (٢٤٥٩) وابن ماجه (١/ ٥٧٢) كتاب الزكاة باب ما يقال عند إخراج الزكاة، حديث (١٧٩٦) وأحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٨١، ٣٨٢) والطيالسي (١/ ١٧٦- منحة) رقم (٨٣٣) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ١٦٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٣٥) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٣٦١) والطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٠) رقم (١١) والبيهقي (٤/ ١٥٧) كتاب الزكاة والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٣١٤) كلهم من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم صل عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى.

ذلك منصِبُه فله أن يتفضلَ به على من يشاء، والتعرُّضُ لوصف الإيمان بالله واليوم الآخر في الفريق الأخيرِ مع أن مساقَ الكلام لبيان الفرقِ بين الفريقين في شأن اتخاذِ ما ينفقانه حالًا ومآلًا وأن ذكرَ اتخاذِه ذريعةً إلى القربات والصلوات مغنٍ عن التصريح بذلك لكمال العنايةِ بإيمانهم وبيانِ اتصافِهم به وزيادةِ الاعتناءِ بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول الأمرِ، وأما الفريقُ الأولُ فاتصافُهم بالكفر والنفاقِ معلومٌ من سياق النظم الكريم صريحًا ﴿**ألا إنها قربة لهم**﴾ شهادةٌ لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديقٌ لرجائهم[١]، والضميرُ لما ينفَق والتأنيثُ باعتبار الخبرِ مع ما مر من تعدّده بأحد الوجهين، والتنكيرُ للتفخيم المغني عن الجمع أي قربةٌ عظيمةٌ لا يُكتَنه كُنهُها. وفي إيراد الجملةِ اسميةً وتصديرِها بحرفي التنبيهِ والتحقيقِ من الجزالة ما لا يخفى، والاقتصارُ على بيان كونِها قربةً لهم لأنها الغايةُ القصوى وصلواتُ الرسول من ذرائعها.

وقوله تعالى: ﴿**سيدخلهم الله في رحمته**﴾ وعدٌ لهم بإحاطة رحمتِه الواسعةِ بهم وتفسيرٌ للقربة كما أن قوله عز وعلا: ﴿**والله سميعٌ عليم**﴾ وعيدٌ للأولين عَقيبَ الدعاءِ عليهم والسينُ للدلالة على تحقق ذلك وتقررِه ألبتةَ.

وقوله تعالى: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ تعليلٌ لتحقق الوعدِ على نهج الاستئنافِ التحقيقيّ. قيل هذا في عبد اللّه ذي البجادَيْن[٢] وقومِه، وقيل: في بني مُقَرِّنٍ من مُزينةَ وقيل: في أسلمَ وغِفارٍ وجُهينةَ. وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال رسولُ الله ﷺ: «**أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينةَ ومُزينةَ خيرٌ عند الله يومَ القيامة من تميمٍ وأسدِ بنِ خزيمةَ وهوازنَ وغَطَفان**»[٣].

﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين**﴾ بيانٌ لفضائل أشرافِ المسلمين إثرَ بيانِ فضيلةِ طائفةٍ منهم، والمرادُ بهم الذين صلَّوا إلى القبلتين أو الذين شهِدوا بدْرًا أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿**والأنصار**﴾ أهلُ بَيْعةِ العقبةِ الأولى وكانوا سبعين رجلًا والذين آمنوا حين

---

(١) في خ: رجائهم.

(٢) قال ابن هشام في السيرة النبوية: وإنما سمي ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيّقون عليه حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره. والبجاد: الكساء الغليظ الجافي. فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريباً منه شقَّ بجاده باثنين، فائتزر بواحد واشتمل بالآخر، فقيل له ذو البجادين.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٢٣١) كتاب المناقب، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع، برقم (٣٥١٦) مكرر، ومسلم (٤/ ١٩٥٥) كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع، برقم (١٩٢/ ٢٥٢١).

قدم عليهم أبو زُرارةَ مصعبُ بنُ عمير. وقرئ بالرفع[1] عطفًا على (والسابقون).

﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ أي ملتبسين به، والمرادُ به كلُّ خَصلةٍ حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن (من) تبعيضيةٌ أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعةِ إلى يوم القيامة، فالمرادُ بالسابقين جميعُ المهاجرين والأنصارِ ومن بيانية.

﴿رضي الله عنهم﴾ خبرٌ للمبتدأ أي رضي الله عنهم بقَبول طاعتِهم وارتضاءِ أعمالِهم ﴿ورضُوا عنه﴾ بما نالوه من رضاه المستتبِع لجميع المطالبِ طرا ﴿وأَعدَّ لهم﴾ في الآخرة ﴿جنات تجري تحتها الأنهار﴾ وقرئ (من تحتها)[2] كما في سائر المواقع ﴿خالدين فيها أبدًا﴾ من غير انتهاءٍ ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي لا فوزَ وراءه وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد لبيان بُعدِ منزلتِهم في مراتب الفضلِ وعظمِ الدرجةِ من مؤمني الأعراب.

[المنافقون في المدينة]

﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ شروعٌ في بيان أحوالِ منافقي أهلِ المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيانِ حالِ أهلِ الباديةِ أي ممن حول بلدتِكم ﴿منافقون﴾ وهم جهينةُ ومزينةُ وأسلمُ وأشجَعُ وغفارٌ كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطفٌ على ممن حولكم عطفَ مفردٍ على مفرد.

وقوله تعالى: ﴿مردوا على النفاق﴾ إما جملةٌ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب مَسوقةٌ لبيان غلوِّهم في النفاق إثرَ بيانِ اتصافِهم به وإما صفةٌ للمبتدأ المذكورِ فُصل

---

(١) قرأ بها: يعقوب، وعمر بن الخطاب، وقتادة، والحسن البصري، وعيسى الكوفي، وسلام، وسعيد بن أبي سعيد، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ١١)، والبحر المحيط (٥/ ٩٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٨٧)، وتفسير الطبري (١١/ ٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٣٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٦٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٠)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٦)، والمعاني للفراء (١/ ٤٥٠)، وتفسير الرازي (١٦/ ١٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والبحر المحيط (٥/ ٩٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٨٧)، والتيسير للداني ص (١١٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١١)، والكشف للقيسي (١/ ٥٠٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٦٤).

بينهما وبينه بما عُطفَ على خبره، وإما صفةٌ لمحذوف أقيمت هي مُقامه وهو مبتدأ خبرُه من أهل المدينة كما في قوله: [الوافر]

أنـا ابـنُ جـلا وطـلاع الـثـنـايـا　.....　.....　.....[1]

والجملةُ عطفٌ على الجملة السابقة أي ومن أهل المدينةِ قومٌ مردوا على النفاق أي تمهّروا فيه. من (مرَن) فلانٌ على عمله و(مرَد) عليه إذا درب به وضرِي حتى لانَ عليه ومهَر فيه، غير أن (مرَدَ) لا يكاد يستعمل إلا في الشر، فالتمرّدُ على الوجهين الأولين شاملٌ للفريقين حسب شمولِ النفاقِ وعلى الوجه الأخير خاصٌّ بمنافقي أهلِ المدينةِ وهو الأظهر والأنسبُ بذكر منافقي أهلِ البادية أولًا ثم ذكرِ منافقي الأعرابِ المجاورين للمدينة ثم ذكرِ منافقي أهلِها والله تعالى أعلم.

وقوله عز شأنه: ﴿لا تعلمهم﴾ بيانٌ لتمرّدهم أي تعرفِهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائِهم وأنسابِهم بل بعنوان نفاقِهم يعني أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتنوُّق[2] في مراعاة التقيةِ والتحامي عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفىٰ عليك حالُهم مع ما أنت عليه من علو الكعبِ وسموِّ الطبقة في كمال الفِطنةِ وصِدقِ الفِراسةِ، وفي تعليق نفي العلمِ بهم مع أنه متعلقٌ بحالهم مبالغةٌ في ذلك وإيماءٌ إلى أن ما هم فيه من صفة النفاقِ لعَراقتهم ورسوخِهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتِهم أو مشخَّصاتِهم بحيث لا يُعَدّ من لا يعرِفهم بتلك الصفة عالمًا بهم، وحُمل عدم علمِه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمِه عليه الصلاة والسلام بعد مجيء هذا البيانِ على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم وهو مع كونه خلافَ الظاهر عارٍ عما ذكر من المبالغة.

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.....　.....　.....　متى أضع العمامة تعرفوني

البيت لسحيم بن وثيل في الاشتقاق ص (٢٢٤)، والأصمعيات ص (١٧)، وجمهرة اللغة ص (٤٩٥، ١٠٤٤)، وخزانة الأدب (١/ ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٦)، والدرر (١/ ٩٩)، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٩٥)، وشرح المفصل (٣/ ٦٢)، والشعر والشعراء (٢/ ٦٤٧)، والكتاب (٣/ ٢٠٧)، والمقاصد النحوية (٤/ ٣٥٦)، وبلا نسبة في الاشتقاق ص (٣١٤)، وأمالي ابن الحاجب ص (٤٥٦)، وأوضح المسالك (٤/ ١٢٧)، وخزانة الأدب (٤٠٢١٩)، وشرح الأشموني (٢/ ٥٣١) وشرح شواهد المغني (٢/ ٧٤٩)، وشرح قطر الندى ص (٨٦)، وشرح المفصل (١/ ٦١، ٤/ ١٠٥)، ولسان العرب (ثني)، (جلا)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص (٢٠)، ومجالس ثعلب (١/ ٢١٢)، ومغني اللبيب (١/ ١٦٠)، والمقرب (١/ ٢٨٣)، وهمع الهوامع (١/ ٣٠).

(٢) التنوُّق في الأمر: المبالغة فيه.

وقوله عز وجل: ﴿نحن نعلمهم﴾ تقريرٌ لما سبق من مهارتهم في فن النفاقِ أي لا يقف على سرائرهم المركوزةِ في ضمائرهم إلا مَنْ لا تخفىٰ عليه خافيةٌ لِما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفرِ وإظهارِ الإخلاصِ، وفي تعليق العلمِ بهم مع أن المقصودَ بيانُ تعلقِه بحالهم ما مر في تعليق نفيِه بهم، وقولُه عز شأنُه: ﴿سنعذبهم﴾ وعيدٌ لهم وتحقيقٌ لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته، والسين للتأكيد ﴿مرتين﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قام خطيبًا يوم الجمعة فقال: «**اخرُجْ يا فلانُ فإنك منافقٌ اخرجْ يا فلان فإنك منافقٌ**»(١) فأخرج ناسًا وفضحَهم فهذا هو العذابُ الأولُ، والثاني إما القتلُ وإما عذابُ القبرِ أو الأولُ هو القتلُ والثاني عذابُ القبرِ أو الأولُ أخذُ الزكاةِ لما أنهم يعُدّونها مغرمًا بحتًا والثاني نهكُ الأبدان وإتعابُها بالطاعات الفارغةِ عن الثواب. ولعل تكريرَ عذابِهم لما فيهم من الكفر المشفوعِ بالنفاق أو النفاقِ المؤكدِ بالتمرد فيه، ويجوز أن يكون المرادُ بالمرتين مجردَ التكثيرِ كما في قوله تعالى: ﴿ثم ارجع البَصر كرَّتين﴾ [الملك: ٤] أي كرةً بعد أخرى ﴿ثم يردّون﴾ يوم القيامة ﴿إلى عذاب عظيم﴾ هو عذابُ النارِ، وفي تغيير السبكِ بإسناد عذابِهم السابقِ إلى نونِ العظمةِ حسب إسنادِ ما قبله من العلم وإسناد ردِّهم إلى العذاب اللاحقِ إلى أنفسهم إيذانٌ باختلافهما حالًا وأن الأولَ خاصٌّ بهم وقوعًا وزمانًا يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شاملٌ لعامة الكفرةِ وقوعًا وزمانًا وإن اختلفت طبقاتُ عذابِهم.

﴿وآخرون﴾ بيانٌ لحال طائفةٍ من المسلمين ضعيفةِ الهِمَم في أمور الدينِ وهو عطفٌ على (منافقون) أي ومنهم يعني وممن حولَكم ومن أهلَ المدينة قومٌ آخرون ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ التي هي تخلُّفهم عن الغزو، وإيثارُ الدعةِ عليه والرضا بسوء جِوارِ المنافقين، وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبةِ ولم يُخفوا ما صدر عنهم من الأعمال السيئةِ كما فعله من اعتاد إخفاءَ ما فيه وإبرازَ ما ينافيه من المنافقين الذين

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٤٤١، ٤٤٢) رقم (٧٩٦).
وذكره الهيثمي في الزوائد (٧/ ٣٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقري وهو ضعيف».
وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٧) رقم (١٧١٣٧) وابن مردويه والثعلبي في تفسيريهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٩٧).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٨٦)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس- رضي الله عنهما- فذكره.

اعتذروا بما لا خيرَ فيه من المعاذير المؤكدةِ بالأيمان الفاجرةِ حسب ديدنِهم المألوفِ (وهم رهطٌ من المتخلفين أوثقوا أنفسَهم على سواري المسجدِ عندما بلغهم ما نزل في المتخلّفين فقدم رسولُ الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادتِه الكريمةِ ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل: أنهم أقسموا أن لا يَحُلوا أنفسَهم حتى تحُلَّهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**وأنا أقسم ألا أحُلَّهم حتى أُومرَ فيهم**» فنزلت)[١] ﴿**خلطوا عملًا صالحًا**﴾ هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحةِ والخروجِ إلى المغازي السابقةِ وغيرِها وما لحِق من الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتذمُّمِهم وندامتِهم على ذلك. وتخصيصُه بالاعتراف لا يناسب الخلْطَ لا سيما على وجه يُؤذِن بتوارد المختلطَيْن وكونِ كلٍّ منهما مخلوطًا ومخلوطًا به كما يؤذن به تبديلُ الواوِ بالباء في قوله تعالى: ﴿**وآخر سيئًا**﴾ فإن قولك: خلطتُ الماءَ باللبن يقتضي إيرادَ الماءِ على اللبن دون العكس وقولك: خلطتُ الماءَ واللبنَ معناه إيقاعُ الخلطِ بينهما من غير دلالةٍ على اختصاص أحدِهما بكونه مخلوطًا والآخرِ بكونه مخلوطًا به، وتركُ تلك الدلالةِ للدلالةِ على جعل كلٍّ منهما متصفًا بالوصفين جميعًا وذلك فيما نحن فيه بورود كلٍّ من العملين على الآخر مرةً بعد أخرى، والمرادُ بالعمل السيئ ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولًا وآخرًا. وعن الكلبي التوبةُ والإثمُ وقيل: الواوُ بمعنى الباء كما في قولهم: بعتُ الشاءَ شاةً ودرهمًا بمعنى شاةً بدرهم ﴿**عسى الله أن يتوب عليهم**﴾ أي يقبل توبتَهم المفهومةَ من اعترافِهم بذنوبهم ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ يتجاوز عن سيئات التائبِ ويتفضل عليه وهو تعليلٌ لما تفيده كلمةُ (عسى) من وجوب القَبولِ فإنها للإطماع الذي هو من أكرم الأكرمين إيجابٌ وأيُّ إيجاب.

﴿**خذ من أموالهم صدقة**﴾ روي أنهم لما أُطلقوا قالوا: يا رسولَ الله هذه أموالُنا التي خلَّفتْنا عنك فتصدقْ بها وطهِّرْنا فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما أُمرتُ أن آخذَ من أموالكم شيئًا**» فنزلت[٢] فليست هي الصدقةُ المفروضةُ لكونها مأمورًا بها ولِما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلثَ وتركَ لهم الثلثين[٣] فوقع ذلك بيانًا

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٧١، ٢٧٢) من طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما - فذكره.
وأخرجه ابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف؛ والزيلعي (٢/ ٩٨).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٧١، ٢٧٢) من طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٩٨) وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره الخازن في «لباب التأويل» (٣/ ١٤٢).

لِما في ﴿صدقةً﴾ من الإجمال، وإنما هي كفارةٌ لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قولُه عز وجل: ﴿تطهرهم﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلفِ، والتاءُ للخطاب والفعل مجزومٌ على أنه جواب للأمر وقرئ بالرفع[(١)] على أنه حالٌ من ضمير المخاطبِ في خذ أو صفةٌ لـ (صدقةً) والتاء للخطاب أو للصدقة والعائدُ على الأول محذوفٌ ثقةً بما بعده وقرئ تُطْهِرهم[(٢)] من أطْهره بمعنى طَهّره ﴿وتزكيهم بها﴾ بإثبات الياءِ وهو خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ والجملةُ حال من الضمير في الأمر أو في جوابه، أي وأنت تزكيهم بها أي تُنْمي بتلك الصدقةِ حسناتِهم إلى مراتب المخلِصين أو أموالَهم أو تبالغ في تطهيرهم، هذا على قراءة الجزم في (تطهرْهم) وأما على قراءة الرفع فسواءٌ جُعلت التاءُ للخطاب أو للصدقة وكذا جعلت الجملةُ الأولى حالًا من ضمير المخاطَب أو صفةً للصدقة على الوجهين فالثانيةُ عطفٌ على الأولى حالًا وصفةً من غير حاجةٍ إلى تقدير المبتدأ لتوجيه دخولِ الواو في الجملة الحالية ﴿وصلِ عليهم﴾ أي واعطِف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿إن صلاتك﴾ وقرئ (صلواتِك)[(٣)] مراعاةً لتعدد المدعوِّ لهم ﴿سكن لهم﴾ تسكُن نفوسُهم إليها وتطمئن قلوبُهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتَهم، والجملةُ تعليلٌ للأمر بالصلاة عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع ما صدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبةِ والدعاء ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرَط منهم ومن الإخلاص في التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءَك لهم عليم بما تقتضيه الحكمةُ، والجملةُ حينئذ تذييلٌ للتعليل مقررٌ لمضمونه، وعلى الأول تذييلٌ لما سبق من الآيتين محقِّقٌ لما فيهما.

﴿ألم يعلموا﴾ وقرئ بالتاء[(٤)]، والضمير إما للتائبين فهو تحقيقٌ لما سبق من قبول توبتِهم وتطهيرِ الصدقة وتزكيتِها لهم، وتقريرٌ لذلك وتوطينٌ لقلوبهم ببيان أن المتوليَ

---

(١) قرأ بالجزم: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٢).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠١).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٩١)، والتيسير للداني ص (١١٩)، وتفسير الطبري (١١/ ١٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٧).

(٤) قرأ بها: الحسن، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والبحر المحيط (٥/ ٩٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٢)، وتفسير الرازي (١٦/ ١٨٤).

لقبول توبتِهم وأخذِ صدقاتِهم هو الله سبحانه وإن أُسند الأخذُ والتطهيرُ والتزكيةُ إليه عليه الصلاة والسلام أي ألم يعلمْ أولئك التائبون ﴿أن الله هو يقبل التوبةَ﴾ الصحيحةَ الخالصةَ ﴿عن عباده﴾ المخلِصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يُفصح عنه كلمةُ عن والمرادُ بهم إما أولئك التائبون، ووضعُ المظهرِ في موضع المضمرِ للإشعار بعلّية العبادةِ لقبولها، وإما كافةُ العباد وهم داخلون في ذلك دخولًا أوليًا ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي يقبل صدقاتِهم على أن اللامَ عوضٌ عن المضاف إليه أو جنسُ الصدقاتِ المندرجُ تحته صدقاتُهم اندراجًا أوليًا أي هو الذي يتولى قَبولَ التوبةِ وأخذَ الصدقاتِ وما يتعلق بها من التطهير والتزكية، وإن كنتَ أنتَ المباشرَ لها ظاهرًا، وفيه من تقرير ما ذكر ورفعِ شأنِ النبيِّ ﷺ على نهج قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح، الآية ١٠] ما لا يخفى ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ تأكيدٌ لما عُطف عليه وزيادةُ تقريرٍ لما يقرره مع زيادةِ معنى ليس فيه، أي ألم يعلموا أنه المختصُّ المستأثرُ ببلوغ الغايةِ القصوى من قبول التوبةِ والرحمةِ وأن ذلك سُنةٌ مستمرةٌ له وشأنٌ دائم، والجملتان في حيز النصبِ بيعلموا بسدّ كلٍّ واحدةٍ منهما مسدّ مفعوليه. وإما لغير التائبين من المؤمنين فقد روي أنهم قالوا لما تِيب على الأولين: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلَّمون ولا يجالَسون فما لهم فنزلت. أي ألم يعلموا ما للتائبين من الخصال الداعيةِ إلى التكرِمة والتقريبِ والانتظامِ في سلك المؤمنين والتلقّي يحسن القَبولِ والمجالسة فهو ترغيبٌ لهم في التوبة والصدقة.

وقوله تعالى: ﴿وقل اعملوا﴾ زيادةُ ترغيبٍ لهم في العمل الصالحِ الذي من جملته التوبةُ وللأولين في الثبات على ما هم عليه أي قل لهم بعد ما بان لهم شأنُ التوبةِ: اعملوا ما تشاءون من الأعمال فظاهرُه ترخيصٌ وتخييرٌ وباطنُه ترغيبٌ وترهيبٌ وقوله عز وجل: ﴿فسيرى الله عملكم﴾ أي خيرًا كان أو شرًّا وتعليلٌ لما قبله وتأكيدٌ للترغيب والترهيب، والسينُ للتأكيد ﴿ورسوله﴾ عطفٌ على الاسم الجليل وتأخيرُه عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت.

﴿والمؤمنون﴾ في الخبر (ولو أن رجلًا عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائنًا ما كان). والمعنى أن أعمالَكم غيرُ خافيةٍ عليهم كما رأيتم وتبين لكم، ثم إن كان المرادُ بالرؤية معناها الحقيقيَّ فالأمرُ ظاهرٌ وإن أريد بها مآلُها من الجزاء خيرًا أو شرًا فهو خاصٌّ بالدنيوي من إظهار المدحِ والثناءِ والذكرِ الجميلِ والإعزازِ ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها ﴿وستردون﴾ أي بعد الموتِ ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ في وضع الظاهرِ موضِعَ المضمَرِ من تهويل الأمرِ وتربية المهابةِ ما

لا يخفى. ووجهُ تقديمِ الغيبِ في الذكر لسعة عالَمِه وزيادةِ خطرِه على الشهادة غنيٌّ عن البيان. وقيل: إنّ الموجوداتِ الغائبةَ عن الحواس عللٌ أو كالعلل للموجودات المحسوسةِ والعلمُ بالعلل علةٌ للعلم بالمعلومات فوجب سبقُ العلمِ بالغيب على العلم بالشهادة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبُ ما يُسِرّونه من الأعمال، والشهادةُ ما يظهرونه كقوله تعالى: **﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** [البقرة: ٧٧. وهود: ٥. والنحل: ٢٣] فالتقديمُ حينئذ لتحقيق أن نسبةَ علمِه المحيطِ بالسر والعلنِ واحدةٌ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه لا لإيهام أن علمَه سبحانه بما يسرونه أقدمُ منه بما يعلنونه، كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزهٌ عن أن يكون بطريق حصولِ الصورة بل وجودُ كل شيءٍ وتحققُه في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحالُ بين الأمور البارزةِ والكامنةِ، وإما للإيذان بأن رتبةَ السرِّ متقدمةٌ على رتبة العلن، إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو أو مباديه القريبةُ أو البعيدةُ مضمرٌ قبل ذلك في القلب فتعلقُ علْمِه تعالى به في حالته الأولى متقدمٌ على تعلقه به في حالته الثانية **﴿فينبئكم﴾** عقّب الردّ الذي هو عبارةٌ عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة **﴿بما كنتم تعملون﴾** قبل ذلك في الدنيا. والمرادُ بالتنبئة بذلك الجزاءُ بحسَبه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر فهو وعدٌ ووعيد.

﴿وآخرون﴾ عطفٌ على آخرون قبله أي ومن المتخلفين من أهل المدينةِ ومَنْ حولها من الأعراب قومٌ آخرون غيرُ المعترفين المذكورين **﴿مُرْجون﴾**.

وقرئ[١] مُرْجَئون من أرجيتُه وأرجأتُه أي أخرتُه ومنه المُرْجِئة الذين لا يقطعون بقبول التوبة **﴿لأمر الله﴾** في شأنهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم كعبُ بنُ مالك ومَرارةُ بنُ الربيع وهلالُ بنُ أمية لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لُبابةَ وأصحابُه من شد أنفسِهم على السواري وإظهارِ الغمّ والجزَعِ والندمِ على ما فعلوا فوقَفهم رسولُ الله ﷺ ونهى أصحابَه عن أن يسلّموا عليهم ويكلّموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم، والناسُ في شأنهم على اختلاف فمن قائلٍ: هلكوا وقائل: عسى الله أن يغفرَ لهم فصاروا عندهم مُرجَئين لأمره تعالى **﴿إما يعذبهم﴾** إن بقوْا على ما هم عليه من الحال وقيل: إن أصروا على النفاق وليس بذاك فإن المذكورين ليسوا

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وشعبة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٩)، والبحر المحيط (٥/ ٩٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٩٥)، والتيسير للداني ص (١١٩)، وتفسير الطبري (١١/ ١٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٣)، والكشف للقيسي (١/ ٥٠٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٦٩)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٧).

من المنافقين ﴿**وإما يتوب عليهم**﴾ إن خلَصت نيتُهم وصحت توبتُهم والجملةُ في محل النصبِ على الحالية أي منهم هؤلاء إما معذَّبين وإما مَتوبًا عليهم، وقيل: آخرون مبتدأٌ ومرجون صفتُه وهذه الجملةُ خبره.

﴿**والله عليم**﴾ بأحوالهم ﴿**حكيم**﴾ فيما فعل بهم من الإرجاء وما بعده وقرئ[١] (والله غفور رحيم) ﴿**والذين اتخذوا مسجدًا**﴾ عطفٌ على ما سبق أي ومنهم الذين أو نصبٌ على الذم وقرئ[٢] بغير واو لأنها قصة على حيالها ﴿**ضرارًا**﴾ أي مضارّةً للمؤمنين وانتصابُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ(اتخذوا) أو على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل مقدر منصوبٍ على الحالية أي يضارّون بذلك ضرارًا أو على أنه مصدرٌ بمعنى الفاعل وقع حالًا من ضمير (اتخذوا) أي مضارِّين للمؤمنين. (روي أن بني عمرو بنِ عَوْف لما بنَوا مسجدَ قُباءَ بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهَم فيصليَ بهم في مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتْهم إخوتُهم بنو غنم بنِ عوف وقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامرٍ الراهب أيضًا إذا قدم من الشام) وهو الذي سماه رسولُ الله ﷺ الفاسقَ (وقد كان قال لرسول الله ﷺ يوم أُحد: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازنُ يومئذ ولّى هاربًا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استعدتم من قوة وسلاح فإني ذاهبٌ إلى قيصرَ وآتٍ بجنود ومخرجٌ محمدًا وأصحابَه من المدينة) (فبنَوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباءَ وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجةِ والليلةِ المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصليَ لنا فيه وتدعوَ لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام: «**إني على جناح سفر وحالِ شُغْلٍ وإذا قدِمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه**» فلما قفَل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوكَ سألوه إتيانَ المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بنِ الدخشم[٣]

---

(١) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٣).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٢)، والبحر المحيط (٥/ ٩٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٩٧)، والتيسير للداني ص (١١٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٥٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٩).

(٣) هو: مَالِكُ بن الدُّخْشُم بن مالك بن غَنْم بن عوف بن عمرو بن عوف وقيل مالك بن الدُّخْشُم بن =

ومعنِ بن عدي وعامر بنِ السكن[(١)] ووحشي[(٢)] فقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا المسجد الظالمِ أهلُه فاهدِموه وأحرِقوه**» ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كُناسةٌ تلقى فيها الجيفُ والقُمامة وهلك أبو عامر الفاسقُ بالشام بقِنَّسْرين)[(٣)] ﴿وكفرًا﴾ تقوية للكفر الذي يُضمِرونه ﴿وتفريقًا بين المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون في مسجد قباءَ مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا

= مالك بن الدُّخْشم بن مَرْضَخَة بن غَنْم شهد العقبة في قول ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي. وقال أبو معشر: لم يشهد مالك العقبة وقد رُوِي عن الواقدي أيضاً أنه لم يشهدها وشهد بدراً في قول الجميع وهو الذي أسر يوم بدر سُهَيلَ بن عمرو وكان يتهم بالنفاق وهو الذي قال فيه عِتْبَان بن مالك لرسول الله (إنه منافق) فقال رسول الله ﷺ أليس يشهد أن لا إله إلا الله) فقال بلى ولا شهادة له، فقال رسول الله ﷺ: (أليس يصلي) قال بلى ولا صلاة له، فقال رسول الله: (أولئك الذين نهاني الله عنهم).

ولا يصح عنه النفاق وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه وهو الذي أرسله رسول الله ﷺ فأحرق مسجد الضرار هو ومعن بن عدي.

ينظر: أسد الغابة (٥/ ٢٣)، والإصابة (٥/ ٧٢١).

(١) هو: عامر بن السكن الأنصاري ذكر الثعلبي في تفسيره أنه أحد من وجه النبي ﷺ لهدم مسجد الضرار، قلت وهو غير عامر بن يزيد بن السكن فإنه استشهد بأحد ومسجد الضرار كان بعد ذلك بمدة.

ينظر: الإصابة (٣/ ٥٨١).

(٢) هو: وحشي بن حرب الحَبَشي أبو دَسَمَة، ويقال: أبو حرب، وهو صحابي. روى عن النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، وروى عنه ابنه حرب بن وحشي بن حرب وغيره. نزل حمص ومات بها.

ينظر: تهذيب الكمال: (٣٠/ ٤٢٩ . ٤٣٠)، وتقريب التهذيب (٢/ ٣٣٠).

(٣) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق، إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبني مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. ا هـ.

أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٦٩) رقم (١٧٢٠٠) مرسلًا من طريق ابن إسحاق من رواية الزهري ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم.

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٩، ٢٦٠) من طريق ابن إسحاق، وقال: وذكر محمد بن إسحاق في الأوراق التي لم أجد سماعًا فيها من كتاب المغازي عن ثقة من بني عمرو بن عوف.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٩٥) من طريق أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري- رضي الله عنه-، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن مردويه.

وأخرجه ابن هشام في سيرته (٤/ ٢٠٢) رقم (١٨٩١) من طريق ابن إسحاق به.

وذكره الثعلبي بلفظ المصنف بتمامه من غير سند ولا راوٍ، وذكره الواحدي في أسباب النزول وعزاه للمفسرين؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٠١).

كما عزاه الزيلعي لابن مردويه في تفسيره.

وانظر: تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٠١، ١٠٢).

وتختلف كلمتُهم ﴿وإرصادًا﴾ إعدادًا وانتظارًا وترقبًا ﴿لمن حارب الله ورسوله﴾ وهو الراهبُ الفاسقُ أي لأجله حتى يجيءَ فيصليَ فيه ويظهرَ على رسول الله ﷺ ﴿من قبل﴾ متعلقٌ بـ (اتخذوا) أي اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك، أو بحارب أي حاربهما قبل اتخاذِ هذا المسجد ﴿وليحلفن أن أردنا﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إلا الحسنى﴾ إلا الخَصلةَ الحسنى وهي الصلاةُ وذكرُ الله والتوسعةُ على المصلين أو إلا الإرادةَ الحسنى ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في حلِفهم ذلك.

﴿لا تقم﴾ للصلاة ﴿فيه﴾ في ذلك المسجدِ حسبما دعَوْك إليه ﴿أبدًا لمسجد أسس﴾ أي بُني أصلُه ﴿على التقوى﴾ يعني مسجدَ قباءَ أسسه رسولُ الله ﷺ وصلى فيه أيامَ مقامِه بقباء وهي يومُ الاثنين والثلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ وخرج يومَ الجمعة، وقيل: هو مسجدُ رسولِ الله ﷺ بالمدينة وعن أبي سعيد رضي الله عنه: سألت النبيَّ ﷺ عن المسجد الذي أُسس على التقوى فأخذ حصباءَ فضرب بها الأرضَ وقال: «**مسجدُكم هذا مسجدُ المدينة**»[1]، واللامُ إما للابتداء أو للقسم المحذوفِ أي والله لَمسجدٌ، وعلى التقديرين فـ (مسجدٌ) مبتدأٌ وما بعده صفتُه وقوله تعالى: ﴿من أول يوم﴾ أي من أيام تأسيسِه، متعلقٌ بـ (أسس).

وقوله تعالى: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أي للصلاة وذكرِ الله تعالى خبرُه وقوله تعالى: ﴿فيه رجال﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبينةٌ لأحقّيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيانِ أحقيتِه له من حيث المحلُّ، أو صفةٌ أخرى للمبتدأ أو حالٌ من الضمير في (فيه)، وعلى كل حالٍ ففيه تحقيقٌ وتقريرٌ لاستحقاقه القيامَ فيه والمرادُ بكونه أحق نفس كونه حقيقًا به إذ لا استحقاقَ في مسجد الضرارِ رأسًا وإنما عبر عنه بصيغة التفضيلِ لفضله في نفسه أو الأفضلية في الاستحقاق المتناولِ لما يكون باعتبار زعمِ الباني ومن يشايعُه في الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتي ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ من المعاصي والخصالِ الذميمةِ لمرضاة الله سبحانه وقيل: من الجنابة فلا ينامون عليه.

﴿والله يحب المطهرين﴾ أي يرضىٰ عنهم ويُدْنيهم من جنابه إدناءَ المحبِّ حبيبَه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ١٨١-النووي): كتاب الحج: باب لا تشد الرحال إلا في ثلاثة مساجد، حديث (٥١٤/ ١٣٩٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٩) من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه به.
وبنحو معناه مختصرًا أخرجه النسائي (٢/ ٣٦) كتاب المساجد: باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى من طريق ابن أبي سعيد الخدري عن أبيه فذكره.

قيل: (لما نزلت مشىٰ رسولُ الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباءَ فإذا الأنصارُ جلوسٌ فقال: «**أمؤمنون أنتم؟**» فسكت القومُ ثم أعادها فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: يا رسولَ الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**أترضَوْن بالقضاء؟**» قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام: «**أتصبرون على البلاء**» قالوا نعم. قال: **أتشكرون في الرخاء؟** قالوا: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «**مؤمنون وربِّ الكعبة**». فجلس ثم قال: «**يا معشرَ الأنصار إن الله عز وجل قد أثنىٰ عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟**» فقالوا: نُتبعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثة ثم نتبع الأحجارَ الماءَ، فتلا النبيُّ عليه الصلاة والسلام ﴿**فيه رجال يحبون أن يتّطهروا**﴾[١] وقرئ[٢] (أن يطّهروا) بالإدغام وقيل: هو عام في التطهر عن النجاسات كلِّها وكانوا يُتبعون الماءَ إثرَ البول.

وعن الحسن رضي الله عنه: هو التطهرُ عن الذنوب بالتوبة وقيل: يحبّون أن يتطهروا بالحُمّى المكفرةِ لذنوبهم فحُمُّوا عن آخرهم.

﴿**أفمن أسس بنيانه**﴾ على بناء الفعلِ للفاعل والنصبِ، وقرئ على البناء للمفعول[٣] والرفعِ وقرئ (آسسُ بنيانِه)[٤] على الإضافة جمع أساس، وإساسُ بالفتح

(١) قال ابن حجر: وكأنه ملفق من حديثين.
ذكر المخرج أولهما من الطبراني في الأوسط قال: حدثنا الهيثم بن خلف الدوري بسنده إلى ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «دخل رسول الله ﷺ على عمر ومعه أناس، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا ثلاث مرات، فقال عمر- رضي الله عنه- يا رسول الله، نؤمن بما أتيتنا به ونحمد الله في الرخاء، ونصبر في البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة» انتهى، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين ما لا يخفى، وأما الثاني، فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس بنحوه. ا هـ.
والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠/ ١٩٤) حديث (٩٤٢٣).

(٢) قرأ بها: ابن مصرف، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٣).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعمارة بن عائذ، وابن عباس، وزيد بن ثابت.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤١)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٠)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٠١)، والتيسير للداني ص (١١٩)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٨).

(٤) قرأ بها: نصر بن عاصم.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٠).

والكسر جمع أُسّ وقرئ (أَساسُ بنيانِه)[١] جمع أُس أيضًا و(أُسُّ بنيانِه)[٢]، وهي جملةٌ مستأنفة مبينةٌ لخيرية الرجالِ المذكورين من أهل مسجد قُباء والهمزةُ للإنكار والفاء للعطف على مقدر أي أبعدَ ما عَلِمَ حالَهم: مَنْ أسّس بنيانَ دينِه **﴿على تقوى من الله ورضوان﴾** أي على قاعدةٍ محكمة هي التقوى من الله وابتغاءُ مرضاتِه بالطاعة، والمرادُ بالتقوى درجتُها الثانية التي هي التوقّي عن كل ما يُؤثِم من فعل أو ترك، وقرئ (تقوىً)[٣] بالتنوين على أن الألف للإلحاق دون التأنيث **﴿خير أمّن أسس بنيانه﴾** تركُ الإضمار للإيذان باختلاف البُنيانين[٤] ذاتًا مع اختلافهما وصفًا وإضافةً **﴿على شفا جرف هار﴾** (الشفا) الحَرْف والشفير، و(الجُرُف) ما جرفه السيلُ أي استأصله واحتفَر ما تحته فبقيَ واهيًا يريد الانهدام، والهارُ الهائرُ المتصدِّعُ المشرِفُ إلى السقوط من هار يهورُ ويهار أو هار يهير قُدّمت لامُه على عينه فصار كغازٍ ورامٍ وقيل: حذفت عينه اعتباطًا أي بغير موجب فجرى وجوهُ الإعرابِ على لامه **﴿فانهار به في نار جهنم﴾** مثّل ما بنَوا عليه أمرَ دينِهم في البُطلان وسرعةِ الانطماسِ بما ذُكر ثم رشّح بانهياره[٥] في النار، ووُضع بمقابلة الرضوانِ تنبيهًا على أن تأسيسَ ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضياتِه التي أدناها الجنةُ وتأسيسَ هذا على ما هو بصدد[٦] الوقوعِ في النار ساعةً فساعة ثم مصيرُهم إليها لا محالة.

---

(١) قرأ بها: نصر بن علي، وأبو حيوة، ونصر بن عاصم.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤١)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٧٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠١).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٣).

(٣) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٤).

(٤) في خ: البنايين.

(٥) وذلك من باب الاستعارة التمثيلية، أي من أسس بنيانه على الإسلام خيرٌ أم من أسسَ بنيانه على الشرك والنفاق، وبين أن بناء الكافر كبناء على شفا جرف هار يتهور أهله في جهنم، وقال ابن عطية بل ذلك حقيقة، وأن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، ولكن الأظهر أنه استعارة تمثيلية، وانهار تخييل وترشيح للمجاز وقد مضى الكلام على الاستعارة التمثيلية.
ينظر: فتح القدير (٢/ ٤٠٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٠)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦)، وشروح التلخيص (٤/ ١٤٣).

(٦) في ط: بصدد.

وقرئ (جُرْف)[1] بسكون الراء ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لأنفسهم أو الواضعين للأشياء في غير مواضِعها أي لا يُرشدهم إلى ما فيه نجاتُهم وصلاحُهم إرشادًا موجبًا له لا محالة، وأما الدلالةُ على ما يرشدهم إليه إن استرشدوا به فهو متحققٌ بلا اشتباه.

﴿لا يزال بنيانُهم الذي بنَوا﴾ البنيانُ مصدرٌ أُريد به المفعولُ، ووصفُه بالموصول الذي صلتُه فعلا للإيذان بكيفية بنائِهم له وتأسيسِه على أوهن قاعدةٍ وأوهىٰ أساسٍ وللإشعار بعلة الحُكم، أي لا يزال مسجدُهم ذلك مبنيًا ومهدومًا ﴿ريبة في قلوبهم﴾ أي سببَ ريبةٍ وشكٍّ في الدين كأنه نفسُ مُريبِه. أما حالَ بنيانه فظاهرٌ لِما أن اعتزالَهم من المؤمنين واجتماعَهم في مجمع على حياله يُظهرون فيه ما في قلوبهم من آثار الكفرِ والنفاقِ ويدبِّرون فيه أمورَهم ويتشاورون في ذلك، ويُلقي بعضُهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا في الدين، وأما حالَ هدمِه فلما أنه رسَخ به ما كان في قلوبهم من الشر وتضاعفت آثارُه وأحكامُه أو سبّب ريبةً في أمرهم حيث ضعُفت قلوبُهم ووهَى اعتقادُهم بخفاء أمرِهم على أمر المؤمنين لأنهم أظهروا من أمرهم بعد البناءِ أكثرَ مما كانوا يُظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطِهم بالمؤمنين وساءت ظنونُهم بأنفسهم فلما هُدم بنيانُهم تضاعف ذلك الضَّعفُ وتقوّى وصاروا مُرتابين في أن رسول الله ﷺ هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمرُ بقتلهم ونهبِ أموالِهم. وقال الكلبي: معنى ريبةً: حسرةً وندامة. وقال السدي وحبيب والمبرد: لا يزال هدمُ بنيانِهم حزازةً وغيظًا في قلوبهم ﴿إلا أن تقطّع﴾ من التفعل بحذف إحدى التاءين أي إلا أن تتقطع ﴿قلوبهم﴾ قِطعًا وتتفرّقَ أجزاءً بحيث لا يبقى لها قابليةُ إدراكٍ وإضمار قطعًا، وهو استثناءٌ من أعم الأوقاتِ أو أعم الأحوال ومحلُّه النصبُ على الظرفية أي لا يزال بنيانُهم ريبةً في كل الأوقات أو كلِّ الأحوال إلا وقتَ تقطُّع قلوبهم أو حالَ تقطعِ قلوبِهم، فحينئذ يسْلُون عنها وأما ما دامت سالمةً فالريبةُ باقيةٌ فيها فهو تصويرٌ لامتناع زوالِ الريبةِ عن قلوبهم، ويجوزُ أن يكون المرادُ حقيقةً تقطُّعُها عند قتلِهم أو في القبور أو في النار، وقرئ[2] (تُقَطّع) على بناء

---

(١) قرأ بها: حمزة، وابن عامر، وعاصم، وابن ذكوان، وهشام، وخلف، وشعبة، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٢)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٠)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٠١)، والتيسير للداني ص (١١٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٩).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، والكسائي، وخلف. =

المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل[١] منه على خطاب النبي ﷺ أي إلا أن تُقطِّع أنت قلوبَهم بالقتل، وقرئ على البناء للمجهول من الثلاثي مذكرًا[٢] ومؤنثًا[٣] وقرئ (إلى تقطُّع قلوبهم) و(إلى أن تُقطِّع قلوبَهم)[٤] على الخطاب، وقرئ (ولو قُطِّعت قلوبُهم)[٥] على إسناد الفعل مجهولًا إلى قلوبهم (ولو قَطَّعتَ قلوبَهم)[٦] على الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد يصلُح للخطاب. وقيل: إلا أن يتوبوا توبةً تتقطّع بها قلوبُهم ندمًا وأسفًا على تفريطهم ﴿والله عليم﴾ بجميع الأشياءِ التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿حكيم﴾ في جميع أفعالِه التي من زمرتها أمرُه الواردُ في حقهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٥٤٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٠١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٠٣)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٩).

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠١).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٦).

(٣) قرأ بها: يعقوب، وأبو عبد الرحمن.
ينظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٦٦)، والمعاني للفراء (١/ ٤٥٢).

(٤) قرأ بها: يعقوب، وأبو حيوة، والحسن، وسهل، وقتادة، وعاصم الجحدري، والمطوعي، وأبو حاتم.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٠٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٧٠)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٧)، وتفسير الرازي (١٦/ ١٩٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨١).

(٥) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠١)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٦)، والمعاني للفراء ص (٤٥٢)، وتفسير الرازي (١٦/ ١٩٨).

(٦) قرأ بها: طلحة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٦)، وتفسير الرازي (١٦/ ١٩٨).

إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

[فضل الجهاد]

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ ترغيبٌ للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلتِه إثرَ بيانِ حالِ المتخلفين عنه، ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيدَ عليه حيث عبّر عن قَبول الله تعالى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم التي بذلوها في سبيله تعالى

وإثابتِهِ إياهم، بمقابلتها، الجنةَ بالشراء على طريقة الاستعارةِ التبعية[١] ثم جُعل المبيعُ الذي هو العُمدةُ والمقصِدُ في العقد أنفُسَ المؤمنين وأموالَهم والثمنُ الذي هو الوسيلةُ في الصفقة الجنةُ ولم يُجعل الأمرُ على العكس بأن يقال: إن الله باع الجنةَ من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصِد في العقد هو الجنةُ وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلةٌ إليها إيذانًا بتعليق كمالِ العنايةِ بهم وبأموالهم ثم إنه لم يقل بالجنة بل قيل: ﴿**بأن لهم الجنة**﴾ مبالغةً في تقرير وصولِ الثمنِ إليهم واختصاصِه بهم كأنه قيل: بالجنة الثابتةِ لهم المختصةِ بهم. وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسَهم وأموالَهم بمجرد الوعدِ لكمال ثقتِهم بوعده تعالى وأن تمامَ الاستعارةِ موقوفٌ على ذلك إذ لو قيل: بالجنة لاحتمل كونُ الشراء حقيقةً لأنها صالحةٌ للعِوضية بخلاف الوعيدِ بها فليس بشيء لأن مناطَ دِلالةِ ما عليه النظمُ الكريمُ على الوعد ليس كونُه جملةً ظرفيةً مصدّرةً بأن فإن ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنةُ التي يستحيل وجودُها في الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوضُ الجنةَ الموعودَ بها ﴿**يقاتلون في سبيل الله**﴾ استئنافٌ لكن لا لبيان ما لأجله الشراءُ ولا لبيان نفسِ الاشتراء لأن قتالَهم في سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسَهم وأموالَهم، بل ولا هو بذلٌ لهما في ذلك بل لبيان البيعِ الذي يستدعيه الاشتراءُ المذكورُ كأنه قيل: كيف يبيعون أنفسَهم وأموالَهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله وهو بذلٌ منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعريضٌ لهما للهلاك وقوله تعالى: ﴿**فيَقتلون ويُقتلون**﴾ بيانٌ لكون القتالِ في **سبيل** الله بذلًا للنفس وأن المقاتِلَ في سبيله باذلٌ لها وإن كانت سالمةً غانمة، فإن الإسنادَ في الفعلين ليس بطريق اشتراطِ الجمعِ بينهما ولا اشتراطِ الاتصافِ بأحدهما البتةَ بل بطريق وصفِ الكلِّ بحال البعضِ فإنه يتحقق القتالُ من الكل سواءٌ وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدُرْ منهم أحدُهما أيضًا كما إذا وُجدت المضاربةُ ولم يوجد القتلُ من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربةُ أيضًا فإنه

---

(١) هذا هو ما عليه البلاغيون وقد مضى الحديث عن مثل هذه الاستعارة بإفاضة عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ فلينظر هناك.
ينظر: التحرير والتنوير (١١/ ٣٨١)، ومفتاح العلوم (٣٨٠) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها، والمثل السائر (٢/ ٣٨) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٥) وما بعدها، وشرح عقود الجمان، ص (٣٠) وما بعدها.

يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثيرِ السواد، وتقديمُ حالةِ القاتلية على حالة المقتوليةِ للإيذان بعدم الفرقِ بينهما في كونهما مصداقًا لكون القتالِ بذلًا للنفس وقرئ بتقديم المبنيِّ للمفعول[١] رعايةً لكون الشهادة عريقةً في الباب وإيذانًا بعدم مبالاتِهم بالموت في سبيل الله تعالى بل بكونه أحبَّ إليهم من السلامة كما قيل في حقهم: [البسيط]

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قومًا وليسوا مَجازيعًا إذا نِيلوا
لا يقطع الطعنُ إلا في نحورِهم وما لهم عن حِياض الموتِ تهليلُ[٢]

وقيل: في (يقاتلون) إلخ معنى الأمر كما في قوله تعالى: ﴿**وتُجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسِكم**﴾ [الصف، الآية ١١] ﴿**وعدًا عليه**﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لما يدل عليه كونُ الثمنِ مؤجلًا ﴿**حقًا**﴾ نعتٌ لـ (وعدًا) والظرفُ حال منه لأنه لو تأخر لكان صفةً له وقوله تعالى: ﴿**في التوراة والإنجيل والقرآن**﴾ متعلقٌ بمحذوف وقعَ صفةً لوعدًا أي وعدًا مثبتًا في التوراة والإنجيل كما هو مثبتٌ في القرآن ﴿**ومن أوفى بعهده من الله**﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من حقية الوعدِ على نهج المبالغةِ في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل وافٍ فإن اختلافَ الميعاد مما لا يكاد يصدُر عن كرام الخلقِ مع إمكان صدورِه عنهم فكيف بجناب الخلاقِ الغنيِّ عن العالمين جل جلاله! وسبكُ التركيب وإن كان على إنكارِ أن يكون أحدٌ أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرّضٍ لإنكار المساواةِ ونفيها لكن المقصودَ به قصدًا مطردًا إنكارُ المساواةِ ونفيُها قطعًا فإذا قيل: مَنْ أكرمُ من فلان؟ أو لا أفضلَ منه، فالمرادُ به حتمًا أنه أكرمُ من كل كريم وأفضلُ من كل فاضل ﴿**فاستبشروا**﴾ التفاتٌ إلى الخطاب تشريفًا لهم على تشريف وزيادةً لسرورهم على سرور، والاستبشارُ إظهارُ السرور، والسينُ فيه ليس للطلب، كاستوقَدَ وأوقد، والفاء لترتيب الاستبشارِ أو الأمر به على ما قبله أي فإذا كان كذلك فسُرّوا نهايةَ السرور وافرحوا غايةَ الفرحِ بما فُزتم به من الجنة، وإنما قيل: ﴿**يبيعكم**﴾ مع أن الابتهاجَ به باعتبار أدائِه إلى الجنةِ لأن

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والنخعي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعبد الله.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٠٥)، والتيسير للداني ص (٩٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٦٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٧٤)، والمعاني للفراء (١/ ٤٥٣)، وتفسير الرازي (١٦/ ٢٠٠).

(٢) البيتان لكعب بن زهير في ديوانه، ص (٥١)، وجمهرة أشعار العرب (١/ ٢٤٠)، والحماسة المغربية (١/ ٦٩)، وروح المعاني (١١/ ٢٩).

المرادَ ترغيبُهم في الجهاد الذي عبّر عنه بالبيع وإنما لم يُذكر العقدُ بعنوان الشراءِ لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم، والترغيبُ إنما يكون فيما يتم من قبلهم، وقوله تعالى: ﴿**الذي بايعتم به**﴾ لزيادة تقرير بيعِهم وللإشعار بكونه مغايرًا لسائر البياعات فإنه بيعٌ للفاني بالباقي ولأن كِلا البدلين له سبحانه وتعالى.

عن الحسن رضي الله عنه: أنفُسًا هو خلقها وأموالًا هو رزقها. روي أن الأنصارَ لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبدُ اللَّه بنُ رواحةَ رضي الله تعالى عنه: اشترِطْ لربك ولنفسك ما شئت. قال عليه الصلاة والسلام: «**أشترطُ لربي أن تعبُدوه ولا تشرِكوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسَكم**»، قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «**لكم الجنة**»، قالوا: ربِحَ البيعُ لا نُقيل ولا نستقيل[١]. ومر برسول الله ﷺ أعرابيٌّ وهو يقرأها قال: كلامُ مَنْ؟ قال: «**كلامُ الله عز وجل**» قال: بيعٌ والله مُربحٌ لا نُقيله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو واستُشهد[٢]. ﴿**وذلك**﴾ أي الجنةُ التي جعلت ثمنًا بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالِهم ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ الذي لا فوزَ أعظمُ منه، وما في ذلك من معنى البُعد إشارةٌ إلى بُعد منزلةِ المشارِ إليه وسموٌّ رتبتِهِ في الكمال، ويجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى البيع الذي أُمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفسُ الفوز العظيم أو يُجعل فوزًا في نفسه، فالجملةُ على الأول تذييلٌ للآية الكريمة وعلى الثاني لقوله تعالى: ﴿**فاستبشروا**﴾ [النساء، الآية ٩٥] مقرِّرٌ لمضمونه.

﴿**التائبون**﴾ رُفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءةُ بالياء[٣] نصبًا على المدح ويجوز أن يكون مجرورًا على أنه صفةٌ للمؤمنين، وقد جوِّز الرفع على الابتداء والخبرُ محذوفٌ أي التائبون من أهل الجنةِ أيضًا وإن لم يجاهدوا كقوله تعالى: ﴿**وكلًّا وعد الله الحسنى**﴾ [التوبة، الآية ١١١] ويجوز أن يكون خبرُه قولَه تعالى: ﴿**العابدون**﴾ وما بعده خبرٌ بعد خبرٍ أي التائبون من الكفر على الحقيقة هُمُ الجامعون لهذه النعوتِ الفاضلةِ أي المخلِصون في عبادة الله تعالى

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٤٨٢) رقم (١٧٢٨٤).
والواحدي في تفسيره: (٢/ ٥٢٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٠١).

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٠٥): ذكره الثعلبي عن الحسن، قال: مر أعرابي بالنبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ...﴾ إلى آخرها فقال: كلام من هذا؟ قال: «كلام الله» قال: بيع والله مربح ... إلى آخره، وسنده إلى الحسن في أول كتابه.

(٣) قرأ بها: أبي، وعبد الله بن مسعود، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٠٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٧١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٧٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٤)، وتفسير الرازي (١٦/ ٢٠٢).

﴿**الحامدون**﴾ لنَعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء ﴿**السائحون**﴾ الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام: «**سياحةُ أمتي الصومُ**»(١) شبّه بها لأنه عائقٌ عن الشهوات أو لأنه رياضةٌ نفسانيةٌ يُتوسّل بها إلى العثور على خفايا المُلك والملَكوتِ وقيل: هم السائحون في الجهاد وطلبِ العلم ﴿**الراكعون الساجدون**﴾ في الصلاة ﴿**الآمرون بالمعروف**﴾ بالإيمان والطاعة ﴿**والناهون عن المنكر**﴾ عن الشرك والمعاصي، والعطفُ فيه للدلالة على أن المتعاطِفَيْن بمنزلة خَصلةٍ واحدة وأما قوله تعالى: ﴿**والحافظون لحدود الله**﴾ أي فيما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع عَملًا وحمْلًا للناس عليه فلئلًا يُتوهمَ اختصاصُه بأحد الوجهين ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ أي الموصوفين بالنعوت المذكورةِ، ووضعُ المؤمنين موضعَ ضميرِهم للتنبيه على أن مِلاك الأمرِ هو الأيمانُ وأن المؤمن الكاملَ مَنْ كان كذلك، وحُذف المبشَّرُ به للإيذان بخروجه عن حد البيانِ، وفي تخصيص الخطابِ بالأولين إظهارُ زيادةِ اعتناءٍ بأمرهم من الترغيب والتسلية.

[حكم الاستغفار للمشرك]

﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا**﴾ بالله وحده، أي ما صح لهم في حكم الله عز وجل وحكمتِه وما استقام ﴿**أن يستغفروا للمشركين**﴾ به سبحانه ﴿**ولو كانوا**﴾ أي المشركين ﴿**أولي قربىٰ**﴾ أي ذوي قرابةٍ لهم، وجوابُ (لو) محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه والجملةُ معطوفةٌ على جملة أخرى قبلها محذوفةٍ حذفًا مطّردًا كما بُيّن في قوله تعالى: ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ [التوبة: ٣٢] ونظائرِه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبي طالب لما حضرتْه الوفاةُ: «**يا عمّ قل كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله**» فأبى فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا أزال أستغفرُ لك ما لم أُنهَ عنه**» فنزلت(٢).

وقيل: لما افتتَح مكةَ خرج إلى الأبواء فزار قبرَ أمِّه ثم قام مستعبِرًا فقال: «**إني استأذنتُ ربي في زيارة قبرِ أمّي فأذِن لي، واستأذنتُه في الاستغفار لها فلم يأذَنْ لي، وأنزل علي الآيتين**»(٣).

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه الطبري بنحوه في تفسيره (١٤/ ٥٠٢) برقم (١٧٢٨٦) من حديث عبيد بن عمير مرسلًا قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين. فقال: هم الصائمون قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤٩): هذا مرسل جيد.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٦، ٥٨٧): كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، وأطرافه في (٣٨٨٤، ٤٦٧٥-٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم (١/ ٢٤٤-٢٤٥- النووي) كتاب الإيمان: باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزع، وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك، فهو في أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، حديث (٣٩/ ٢٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٦)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهذا وهم من الحاكم فالحديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١) كتاب الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، برقم =

﴿من بعد ما تبين لهم﴾ أي للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿أنهم﴾ أي المشركين ﴿أصحاب الجحيم﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحيُ بأنهم يموتون على ذلك ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه﴾ بقوله: ﴿واغفِرْ لأبي﴾ [الشعراء: ٨٦] أي: بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه، كما يلوح به تعليله بقوله: (إنه كان من الضالين) والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير ما سبق ودفعِ ما يتراءى بحسب الظاهرِ من المخالفة، وقرئ (وما استغفر إبراهيمُ لأبيه)[١]، وقرئ (وما يستغفر إبراهيمُ)[٢] على حكاية الحال الماضية.

وقوله تعالى: ﴿إلا عن موعدة﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم العللِ أي لم يكن استغفارُه عليه السلام لأبيه آزرَ ناشئًا عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة ﴿وعدها﴾ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام ﴿إياه﴾ أي أباه وقد قرئ[٣] كذلك بقوله: ﴿لأستغفرنّ لك﴾ [الممتحنة: ٤] وقولِه: ﴿سأستغفر لك ربي﴾ [مريم: ٤٧] بناءً على رجاء إيمانِه لعدم تبيُّنِ حقيقةِ أمرِه وإلا لما وعدها إياه كأنه قيل: وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدة مبْنيةٍ على عدم تبيُّنِ أمرِه كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿فلما تبين له﴾ أي لإبراهيمَ بأن أوحِيَ إليه أنه مُصِرٌّ على الكفر غيرُ مؤمنٍ أبدًا، وقيل: بأن مات على الكفر والأولُ هو الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿أنه عدو لله﴾ فإن وصفَه بالعداوة مما يأباه حالةُ الموت ﴿تبرأ منه﴾ أي تنزّه عن الاستغفار له وتجانبَ كلَّ التجانب، وفيه من المبالغة ما ليس في تركه ونظائرِه ﴿إن إبراهيم لأواه﴾ لكثيرُ التأوّهِ وهو كنايةٌ عن كمال الرأفةِ ورقةِ القلب[٤] ﴿حليم﴾ صبورٌ على الأذية والمحنة، وهو استئنافٌ لبيان ما كان يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى ما صدر عنه من الاستغفار، وفيه إيذانٌ بأن

= (١٠٨/٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ:
زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي. واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي... الحديث.

(١) قرأ بها: طلحة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٤).

(٣) قرأ بها: الحسن، وابن السميفع، وأبو نهيك، ومعاذ، وحماد الراوية.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٧)، وتفسير الرازي (١٦/ ٢١٠).

(٤) وذلك حين يوصف به من ليس به وجع، وهذه الكناية كناية عن صفة وقد سبق الحديث عن الكناية.
ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ٤١)، وشروح التلخيص (٣/ ٤٠٢)، والطراز للبغوي (١/ ٣٧٢)، وسر الفصاحة (٢٧١)، والصناعتين (٣٥٠) وما بعدها، والمثل السائر (٣/ ١٩، ٥١، ٥٢، ٧٢)، والعمدة (١/ ٣١٢) وما بعدها.

إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام كان أواهًا حليمًا فلذلك صدَر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبينِ فليس لغيره أن يأتسيَ به في ذلك، وتأكيدٌ لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبينِ وهو في كمال رقةِ القلبِ والحلم، فلا بد أن يكون غيرُه أكثرَ منه اجتنابًا وتبرُّؤًا، وأما أن الاستغفارَ قبل التبينِ لو كان غيرَ محظورٍ لما استُثنيَ من الائتساء[1] به في قوله تعالى: ﴿**إلا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرن لك**﴾ [الممتحنة: ٤] فقد حُقق في سورة مريم بإذن الله تعالى.

﴿**وما كان الله ليضل قومًا**﴾ أي ليس من عادته أن يصفَهم بالضلال عن طريق الحق ويُجريَ عليهم أحكامَه ﴿**بعد إذ هداهم**﴾ للإسلام ﴿**حتى يبين لهم**﴾ بالوحي صريحًا أو دِلالةً ﴿**ما يتقون**﴾ أي ما يجب اتقاؤُه من محظورات الدينِ فلا ينزجروا عما نُهوا عنه، وأما قبل ذلك فلا يسمّىٰ ما صدَر عنهم ضلالًا ولا يؤاخَذون به فكأنه تسليةٌ للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك، وفيه دليلٌ على أن الغافَل غيرُ مكلفٍ بما لا يستبدُّ بمعرفته العقلُ ﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ تعليلٌ لما سبق أي أنه تعالى عليمٌ بجميع الأشياءِ التي من جملتها حاجتُهم إلى بيان قُبحِ ما لا يستقلُّ العقلُ في معرفته فيبيِّنُ لهم ذلك كما فعل هاهنا ﴿**إن الله له ملك السموات والأرض**﴾ من غير شريك له فيه ﴿**يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ لمّا منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قُربىٰ وضمّن ذلك التبرُّؤَ منهم رأسًا بيَّن لهم أن الله تعالى مالكُ كلِّ موجودٍ ومتولي أمورِه والغالبُ عليه، ولا يتأتّىٰ لهم نصرٌ ولا ولايةٌ إلا منه تعالى ليتوجهوا إليه بشراشرهم متبرِّئين عما سواه غيرَ قاصدين إلا إياه ﴿**لقد تاب الله على النبي**﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هو العفوُ عن إذنه للمنافقين في التخلف عنه ﴿**والمهاجرين والأنصار**﴾ قيل: هو في حق زلاتٍ سبقت منهم يوم أُحُدٍ ويوم حُنينٍ، وقيل: المرادُ بيانُ فضلِ التوبةِ وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاجٌ إليها حتى النبيُّ ﷺ لِما صدرَ عنه في بعض الأحوالِ من ترك الأَوْلى ﴿**الذين اتبعوه**﴾ ولم يتخلفوا عنه ولم يُخِلّوا بأمر من أوامره ﴿**في ساعة العسرة**﴾ أي في وقتها، والتعبيرُ عنه بالساعة لزيادة تعيينِه وهي حالُهم في غزوة تبوكَ كانوا في عُسرةٍ من الظَّهر، يعتقِبُ عشرةٌ على بعير واحد، ومن الزاد تزوّدوا التمرَ المدوّد والشعيرَ المسوّس والإهالة[2] الزَّنِخة، وبلغت بهم الشدةُ إلى أن اقتسم التمرةَ اثنان وربما مصّها الجماعةُ ليشربوا عليها الماء المتغيِّرَ، وفي عسرة من الماء، حتى نحَروا الإبلَ

(١) في خ: الأنباء، ومن قولهم: ائتسى به أي اتَّخذه أسوة واقتدى به.
(٢) الإهالة: الشحم.

واعتصروا فروثَها وفي شدة زمانٍ من حمارة القَيظ[١] ومن الجدب والقَحط والضيقة الشديدةِ، ووصفُ المهاجرين والأنصارِ بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام، في مثل هاتيك المراتبِ من الشدة للمبالغة في بيان الحاجةِ إلى التوبة فإنه ذلك حيث لم يُغنهم عنها فلأَنْ لا يستغنيَ عنها غيرُهم أولى وأحرى ﴿**من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم**﴾ بيانٌ لتناهي الشدة وبلوغِها إلى ما لا غايةَ وراءَها وهو إشرافُ بعضهم على أن يَميلوا إلى التخلف عن النبي عليه الصلاة والسلام وفي (كاد) ضميرُ الشأنِ أو ضميرُ القوم الراجعُ إليه الضميرُ في (منهم)، وقرئ بتأنيث الفعل[٢] وقرئ (**من بعد ما** زاغت قلوبُ فريقٍ منهم)[٣] يعني المتخلفين من المؤمنين كأبي لُبابةَ وأضرابِه ﴿**ثم تاب عليهم**﴾ تكريرٌ للتأكيد وتنبيهٌ على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العُسرة والمرادُ أنه تاب عليهم لكيدودتهم ﴿**إنه بهم رؤوف رحيم**﴾ استئنافٌ تعليليٌ فإن صفةَ الرأفةِ والرحمةِ من دواعي التوبةِ والعفوِ ويجوز كونُ الأولِ عبارةً عن إزالة الضررِ والثاني عن إيصالِ المنفعةِ وأن يكون أحدُهما للسوابق والآخَرُ لِلّواحق.

﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا**﴾ أي وتاب الله على الثلاثة الذين أُخِّر أمرُهم عن أمر أبي لُبابةَ وأصحابِه حيث لم يقبَلْ معذرتَهم مثلَ أولئك ولا رُدَّتْ ولم يُقطَعْ في شأنهم بشيء إلى أن نزل فيهم الوحيُ وهم كعبُ بنُ مالكٍ وهلالُ بنُ أميةَ ومَرارةُ بنُ الربيع، وقرئ (خَلَّفوا)[٤] أي خلَّفوا الغازين بالمدينة أو فسَدوا، من الخالفة وخُلوف الفم، وقرئ (على المخلّفين)[٥] والأولُ هو الأنسبُ لأن قوله تعالى: ﴿**حتى إذا ضاقت عليهم الأرض**﴾ غايةٌ للتخليف ولا يناسبُه إلا المعنى الأولُ، أي خُلّفوا وأخّر أمرُهم إلى أن ضاقت عليهم الأرضُ ﴿**بما رحبت**﴾ أي برُحبها وسَعتِها لإعراض الناسِ عنهم وانقطاعِهم عن مفاوضتهم وهو مثلٌ لشدة الحَيْرة كأنه لا يستقِرُّ به قرارٌ ولا تطمئن له

---

(١) حمارة القيظ: شدَّته.

(٢) قرأ بها: الكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٥)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣١٣)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣١٩).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٠٩)، وتفسير الرازي (١٦/ ٢١٥).

(٤) قرأ بها: أبو العالية، وأبو الجوزاء.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١١٠).

(٥) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١١٠)، وتفسير الرازي (١٦/ ٢١٧).

دار ﴿**وضاقت عليهم أنفسهم**﴾ أي إذا رجَعوا إلى أنفسهم لا يطمئنّون بشيء لعدم الأنسِ والسرورِ واستيلاءِ الوحشة والحَيْرة ﴿**وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه**﴾ أي علِموا أنه لا ملجأً من سُخطه تعالى إلا إلى استغفاره ﴿**ثم تاب عليهم**﴾ أي وفقّهم للتوبة ﴿**ليتوبوا**﴾ أو أنزل قَبولَ توبتِهم ليصيروا من جملة التوّابين أو رجَع عليهم بالقَبول والرَّحمة مرةً بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿**إن الله هو التواب**﴾ المبالغُ في قَبول التوبةِ كمًّا وكيفًا وإن كثُرت الجناياتُ وعظمُت ﴿**الرحيم**﴾ المتفضل عليهم بفنون الآلاءِ مع استحقاقهم لأفانينِ العقاب.

رُوي أن ناسًا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ منهم من بدا له[1] وكره مكانه فلحِق به عليه الصلاة والسلام.

عن الحسن رضي الله عنه أنه قال: بلغني أنه كان لأحدهم حائطٌ كان خيرًا من ألف درهم فقال: يا حائطاه ما خلّفني إلا ظلُّك وانتظارُ ثمارِك اذهبْ فأنت في سبيل الله. ولم يكن لآخرَ إلا أهلُه فقال: يا أهلاه ما بطّأني ولا خلّفني إلا الفتنُ بك فلا جرَم والله لأكابدنّ الشدائدَ حتى ألحقَ برسول الله ﷺ فتأبط زادَه ولحِق به عليه الصلاة والسلام[2]، قال الحسن رضي الله عنه: كذلك والله المؤمنُ يتوب من ذنوبه ولا يُصِرُّ عليها[3].

(وعن أبي ذر الغفاري أن بعيرَه أبطأ به فحمَل متاعَه على ظهره واتّبع أثرَ رسولِ الله ﷺ ماشيًا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سوادَه: «**كنْ أبا ذر**» فقال الناسُ: هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام: «**رحِم الله أبا ذر يمشي وحدَه ويموت وحده ويُبعث وحده**».

(وعن أبي خيثمةَ أنه بلغ بستانه وكانت له امرأةٌ حسناءُ فرَشت له في الظل وبسَطت له الحصيرَ وقرّبت إليه الرطَبَ والماءَ الباردَ فنظر فقال: ظلٌ ظليلٌ ورُطبٌ يانعٌ وماء باردٌ وامرأةٌ حسناء ورسولُ الله ﷺ في الضِّحّ[4] والريح، ما هذا بخير، فقام ورحل ناقتَه وأخذ سيفَه ورُمحَه، ومرَّ كالريح، فمد رسولُ الله ﷺ طرفَه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه[5] السرابُ، فقال: «**كن أبا خيثمةَ**» فكانَهُ ففرِح به رسول الله واستغفرَ

---

(١) بدا له في الأمر كذا: جدَّ له فيه رأي. (٢) ذكره الزمخشري في تفسيره (٣/ ١٠٣).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٣/ ٥٠-٥١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في دلائل النبوة: (٥/ ٢٢١-٢٢٢)، وابن هشام في سيرته (٤/ ١٩٣) رقم (١٨٧٩). كلهم عن ابن إسحاق عن بريدة عن ابن كعب عن ابن مسعود به.

(٤) الضِّحّ: الشمس. (٥) زها السرابُ الشيء زَهْواً: رفعه.

له)[١] ومنهم من بقيَ لم يلحَقْ به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثة. قال كعب رضي الله عنه: لما قفَل رسولُ الله ﷺ سلّمتُ عليه فرد عليّ كالمغضب بعد ما ذكرني، وقال: «**ياليت شعري ما خلّف كعبًا**»[٢] فقيل له: ما خلفه إلا حسنُ بُردَيه والنظرُ في عِطْفيه فقال عليه الصلاة والسلام: **ما أعلم إلا فضلًا وإسلامًا**» ونهىٰ عن كلامنا أيها الثلاثةُ فتنكر لنا الناسُ ولم يكلمنا أحدٌ من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلةً أُمرنا أن نعتزل نساءَنا ولا نقربَهن فلما تمت خمسون ليلةً إذا أنا بنداء من ذُروة سلعٍ: أبشرْ يا كعبُ بنَ مالكٍ فخرَرْتُ لله ساجدًا وكنتُ كما وصفني ربي ﴿وضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت وضاقت عليهم أنفسُهم﴾ وتتابعت البِشارةُ فلبست ثوبي وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فإذا هو جالسٌ في المسجد وحوله المسلمون فقام إليّ طلحةُ بنُ عبيد اللَّه يُهرْوِل إلي حتى صافحني وقال: لتهنِكَ توبةُ الله عليك، فلن أنساها لطلحةَ رضي الله عنه وقال رسول الله ﷺ وهو يستنير استنارةَ القمر: «**أبشر يا كعبُ بخير يوم مر عليك منذ ولدتْك أمُّك**» ثم تلا علينا الآية. وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النَّصوح فقال: أن تَضيق على التائب الأرضُ بما رحبَتْ وتضيقَ عليه نفسُه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه[٣].

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ خطابٌ عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا وقيل: لمن تخلف [عليه][٤] من الطلقاء عن غزوة تبوكَ [خاصة][٥] ﴿**اتقوا الله**﴾ في كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملةُ مع رسول الله ﷺ في أمر المغازي دخولًا أوليًّا ﴿**وكونوا مع الصادقين**﴾ في إيمانهم وعهودِهم أو في دين الله نيةً وقولًا وعملًا أو في كل شأنٍ من الشؤون فيدخل ما ذُكر، أو في توبتهم وإنابتهم فيكون المرادُ بهم حينئذ هؤلاء الثلاثةَ وأضرابَهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خطابٌ لمن آمن من أهل الكتابِ أي كونوا مع المهاجرين والأنصارِ وانتظِموا في سلكهم في الصدق وسائرِ المحاسن، وقرئ (من الصادقين)[٦].

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٢٢، ٢٢٣)، وابن هشام في سيرته (٤/ ١٨٧-١٨٨) رقم (١٨٧٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الزمخشري في تفسيره (٣/ ١٠٤).

(٤) سقط في خ.

(٥) سقط في خ.

(٦) قرأ بها: ابن مسعود، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١١١)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣١٨)، وتفسير الطبري (١١/ ٢٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢١٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٨٠).

﴿ما كان لأهل المدينة﴾ ما صح وما استقام لهم ﴿ومن حولهم من الأعراب﴾ كمزينةَ وجهينةَ وأشجعَ وغِفارٍ وأضرابِهم ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عند توجهِه عليه الصلاة والسلام إلى الغزو ﴿ولا يرغبوا﴾ نصب وقد جُوّز الجزمُ ﴿بأنفسهم عن نفسه﴾ أي لا يصرِفوها عن نفسه الكريمةِ ولا يصونوها عما لم يصُن عنه نفسَه بل يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب، والكلامُ في معنى النهي وإن كان على صورة الخبر ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما دل عليه الكلامُ من وجوب المشايعة ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ أي عطشٌ يسير ﴿ولا نصَبٌ﴾ ولا تعب ما ﴿ولا مخمصة﴾ أي مجاعةٌ وهي ما لا يستباح عنده المحرمات من مراتبها، فإن الظمأَ والنصبَ اليسيرين حين لم يخلُوَا من الثواب فلأَنْ لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة إلى تأكيد النفي بتكرير كلمة (لا)، ويجوز أن يراد بها تلك المرتبةُ ويكونُ الترتيبُ بناءً على كثرة الوقوع وقِلّته فإن الظمأَ أكثرُ وقوعًا من[1] المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيطُ كلمةِ لا حينئذ ليس لتأكيد النفي بل للدلالة على استقلال كلٍّ واحدٍ منها بالفضيلة والاعتداد به ﴿في سبيل الله﴾ وإعلاء كلمتِه ﴿ولا يطؤون موطئًا يغيظ الكفار﴾ أي لا يدوسون بأرجلهم وحوافِرِ خيولِهم وأخفافِ رواحلِهم دَوْسًا أو مكانًا يداس ﴿ولا ينالون من عدو نيلًا﴾ مصدرٌ كالقتل والأسرِ والنهب أو مفعول أي شيئًا يُنال من قِبَلهم ﴿إلا كتب لهم به﴾ أي بكل واحدٍ من الأمور المعدودة ﴿عملٌ صالح﴾ وحسنةٌ مقبولةٌ مستوجبةٌ بحكم الوعد الكريم للثواب الجميلِ ونيل الزُّلفى، والتنوينُ للتفخيم وكونُ المكتوبِ عينَ ما فعلوه من الأمور لا يمنع دخولَ الباء، فإن اختلافَ العنوان كافٍ في ذلك ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ على إحسانهم، تعليلٌ لما سلف من الكتب والمرادُ بالمحسنين إما المبحوثُ عنهم ووضعُ المظهرِ موضِعَ المضمرِ لمدحهم والشهادةِ عليهم بالانتظام في سلك المحسنين وأن أعمالَهم من قبيل الإحسانِ وللإشعار بعلية المأخَذ للحكم، وإما جنسُ المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة﴾ ولو تمرةً أو علاقةَ سَوْط ﴿ولا كبيرة﴾ كما أنفق عثمانُ رضي الله عنه والترتيب باعتبار ما ذُكر من كثرة الوقوعِ وقلته وتوسيطُ (لا) للتنصيص على استبداد كلٍّ منهما بالكتْب والجزاءِ لا لتأكيد النفي كما في قوله عز وجل: ﴿ولا يقطعون﴾ أي لا يجتازون في مسيرهم ﴿واديًا﴾ وهو في الأصل كلُّ منفرَجٍ من الجبال والآكامِ يكون منفذًا للسيل، اسمُ فاعلٍ من (ودَى) إذا سال ثم شاع في الأرض على

(١) زاد في خ: النصب الذي هو أكثر وقوعا من.

الإطلاق ﴿إلا كتب لهم﴾[(١)] ذلك الذي فعلوه من الإنفاق والقطع ﴿ليجزيهم الله﴾ بذلك ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ أحسنَ جزاءِ أعمالِهم أو جزاءَ أحسنِ أعمالِهم.

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي ما صح وما استقام لهم أن ينفِروا جميعًا لنحو غزْوٍ أو طلب علمٍ كما لا يستقيم لهم أن يتثبّطوا جميعًا فإن ذلك مُخِلٌّ بأمر المعاش.

﴿فلولا نفر﴾ فهلا نفَر ﴿من كل فرقة﴾ أي طائفة كثيرة ﴿منهم﴾ كأهل بلدةٍ أو قبيلةٍ عظيمة ﴿طائفة﴾ أي جماعة قليلة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ أي يتكلفوا الفَقاهةَ فيه ويتجشموا مشاقَّ تحصيلِها ﴿ولينذروا قومهم﴾ أي وليجعلوا غايةَ سعيِهم ومرمىٰ غرضِهم من ذلك إرشادَ القومِ وإنذارَهم ﴿إذا رجعوا إليهم﴾ وتخصيصُه بالذكر لأنه أهم، وفيه دليلٌ على أن التفقهَ في الدين من فروض الكفايةِ[(٢)] وأن يكون غرضُ المتعلم الاستقامةَ والإقامةَ لا الترفعَ على العباد والتبسّط في التلاد[(٣)] كما هو ديدن أبناء الزمانِ والله المستعان ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادةَ أن يحذروا عما ينذَرون واستُدلَّ به على أن أخبارَ الآحادِ حجةٌ[(٤)] لأن

---

(١) زاد في خ: أي أثبت لهم.

(٢) دلت هذه الآية على وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده، فلولا نفر - بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم - من كل فرقة منهم طائفة، وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه.
فإذا كان الله تعالى أذن بأن تجلس طائفة للتفقه في الدين، وتترك الجهاد في سبيل الله الذي هو أفضل الأعمال، وذلك حتى تقوم هذه الطائفة بتعليم النافرين؛ حتى لا يكون هناك عجز في التعليم والتفقه في الدين، وتكون كل المجالات فيها من يقوم بها، فكذلك إقبال الناس على جميع الصناعات والحرف التي أباحها الله لهم مطلوب أيضا؛ وذلك سدا لحاجة الأمة وتحقيقا لكفايتها في كل مجالات الحياة.
ينظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٩٣، ٢٩٤)، تفسير الطبري (١١/ ٦٨).

(٣) في خ: البلاد.

(٤) ذهب جمهور الأصوليين، وجميع أصحاب الحديث إلى قبول خبر الواحد فيما تعم به البلوى، ويكثر وقوعه بين الناس.
وذهب الشيخ أبو الحسن الكرخي، وبعض أصحاب أبي حنيفة، - وهو اختيار الإمام الجصاص- إلى عدم قبول خبر الواحد فيما تعم به البلوى.
ينظر: المستصفى للغزالي (١/ ١٧١)، والإحكام للآمدي (٢/ ١٢٤)، والتبصرة صـ٣١٤، والتمهيد لأبي الخطاب (٣/ ٨٦ - ٨٧)، والمسودة ص (٢١٥)، وروضة الناظر، ص (١٢٧)، والعدة (٣/ ٨٨٥)، وتحفة المسئول للرهوني (٢/ ٤٢٧-٤٢٨)، والمحصول لابن العربي (١/ ١١٧)، وكشف الأسرار للبخاري عن أصول البزدوي (٣/ ١٦-١٧)، والتقرير والتحبير (٢/ ٢٩٥)، وأصول الجصاص (٣/ ١١٤).

عمومَ كلِّ فرقةٍ يقتضي أن ينفِرَ[١] من كل ثلاثةٍ تفردوا بقرية طائفةٌ إلى التفقه لتنذر فرقتَها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الإخبارُ ما لم يتواتر لم يُفِدْ ذلك، وقد قيل: للآية وجهٌ آخرُ وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل في المتخلفين سارعوا إلى النفير رغبةً ورهبةً وانقطعوا عن التفقه فأُمروا أن ينفِر من كل فرقةٍ طائفةٌ إلى الجهاد ويبقى أعقابُهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقهُ الذي هو الجهادُ الأكبرُ لأن الجدالَ بالحجة هو الأصلُ والمقصودُ من البعثة، فالضميرُ في (ليتفقهوا ولينذِروا) لبواقي الفِرَق بعد الطوائفِ النافرةِ للغزو، وفي (رجعوا) للطوائف، أي ولينذر البواقي قومَهم النافرين إذا رجَعوا إليهم بما حصلوا في أيام غَيبتهم من العلوم.

﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾ أُمروا بقتال الأقربِ منهم فالأقرب كما أُمر عليه الصلاة والسلام أولًا بإنذار عشيرتِه فإن الأقربَ أحقُّ بالشفقة والاستصلاحِ. قيل: هم اليهودُ حوالي المدينة كبني قريظةَ والنَّضير وخيبَر، وقيل: الرومُ فإنهم كانوا يسكنون الشامَ وهو قريبٌ من المدينة بالنسبة إلى العراق وغيره ﴿**وليجدوا فيكم غلظة**﴾ أي شدة وصبرًا على القتال وقرئ بفتح[٢] الغين كسَخْطة وبضمها[٣] وهما لغتان فيها ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ بالعصمة والنصرة والمرادُ بهم إما المخاطَبون، ووضعُ الظاهرِ موضعَ الضمير للتنصيص على أن الإيمانَ والقتالَ على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادةِ بكونهم من زُمرة المتقين، وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والمرادُ بالمعية الولايةُ الدائمةُ، وقد ذُكر وجهُ دخولِ مع على المتبوع في قوله تعالى: ﴿**إن الله معنا**﴾ [التوبة ٤٠].

﴿**وإذا ما أنزلت سورة**﴾ من سور القرآن ﴿**فمنهم**﴾ أي من المنافقين ﴿**من يقول**﴾ لإخوانه ليثبِّتهم على النفاق أو لعوامّ المؤمنين وضعفتِهم ليصُدّهم عن الإيمان ﴿**أيكم زادته هذه**﴾ السورةُ ﴿**إيمانًا**﴾ وقرئ بنصب (أيّكم)[٤] على تقدير فعلٍ يفسِّره المذكورُ

---

(١) في خ: ينفرد.

(٢) قرأ بها: عاصم، وأبان بن تغلب، والمفضل، والأعمش، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٣)، والبحر المحيط (٥/ ١١٥)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٢٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٢).

(٣) قرأ بها: السلمي، وأبان بن تغلب، والمفضل، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٣)، والبحر المحيط (٥/ ١١٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٢)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٣٩).

(٤) قرأ بها: زيد بن علي، وعبيد بن عمير.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١١٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٢).

أي أيُّكم زادتْه هذه إلخ، وإيرادُ الزيادةِ مع أنه لا إيمانَ فيهم أصلًا باعتبار اعتقادِ المؤمنين حسبما نطَق به قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجِلتْ قلوبُهم وإذا تُلِيت عليهم آياته زادتْهم إيمانًا﴾** [الأنفال: ٢] **﴿فأما الذين آمنوا﴾** جوابٌ من جهته سبحانه وتحقيقٌ للحق وتعيينٌ لحالهم عاجلًا وآجلًا أي فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده **﴿فزادتهم إيمانًا﴾** بزيادة العلمِ اليقينيِّ الحاصلِ من التدبر فيها، والوقوفِ على ما فيها من الحقائق وانضمامِ إيمانِهم بما فيها بإيمانهم السابق **﴿وهم يستبشرون﴾** بنزولها وبما فيه من المنافع الدينيةِ والدنيوية **﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾** أي كفرٌ وسوءُ عقيدة **﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾** أي كُفرًا بها مضمومًا إلى الكفر بغيرها وعقائدَ باطلةً وأخلاقًا ذميمةً كذلك **﴿وماتوا وهم كافرون﴾** واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه **﴿أو لا يرون﴾** الهمزةُ للإنكار والتوبيخ والواوُ للعطف على مقدر أي ألا ينظُرون ولا يرَوْن **﴿أنهم﴾** أي المنافقين **﴿يفتنون في كل عام﴾** من الأعوام **﴿مرة أو مرتين﴾** والمرادُ مجردُ التكثيرِ لا بيانُ الوقوع حسب العدِّ المزبورِ، أي يُبتلَوْن بأفانينِ البليات من المرض والشدةِ وغيرِ ذلك مما يذكّر الذنوبَ والوقوفَ بين يدي رب العزة فيؤدي إلى الإيمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لا سيما القوارعُ الزائدةُ للإيمان الناعيةُ عليهم ما فيهم من القبائح المخزيةِ لهم **﴿ثم لا يتوبون﴾** عطف على لا يَرَوْن داخلٌ تحت الإنكار والتوبيخِ وكذا قوله تعالى: **﴿ولا هم يذكرون﴾** والمعنى أو لا يَرَون افتتانَهم الموجبَ لإيمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفِتن الموجبةِ للتذكر والتوبة، وقرئ بالتاء[1] والخطابُ للمؤمنين والهمزةُ للتعجيب أي ألا تنظرون ولا ترَوْن أحوالَهم العجيبة التي هي افتتانُهم على وجه التتابعِ وعدمَ التنبّهِ لذلك فقوله تعالى: **﴿ثم لا يتوبون﴾** وما عطف عليه معطوفٌ على يفتنون.

﴿وإذا ما أنزلت سورةٌ﴾ بيان لأحوالهم عند نزولِها وهم في مجال[2] تبليغِ الوحي كما أن الأولَ بيانٌ لمقالاتهم وهم غائبون عنه **﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾** تغامزوا بالعيون إنكارًا لها أو سخريةً بها أو غيظًا لما فيها من مخازيهم **﴿هل يراكم من أحد﴾** أي قائلين: هل يراكم أحدٌ من المسلمين لننصرف، مظهرين أنهم لا يصطبرون على

---

(١) قرأ بها: حمزة، ويعقوب، والأعمش، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٥)، والبحر المحيط (٥/ ١١٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٢٦)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٩٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٦)، السبعة لابن مجاهد ص (٣٢٠).

(٢) في خ: محفل.

استماعها ويغلبُ عليهم الضحِكُ فيفتَضِحون أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروجِ والانسلال لِواذًا يقولون: هل يراكم من أحد إن قمتم من المجلس، وإيرادُ ضمير الخطابِ لبعث المخاطَبين على الجد في انتهاز الفرصةِ فإن المرءَ بشأنه أكثرُ اهتمامًا منه بشأن أصحابِه كما في قوله تعالى: ﴿**وليتلطَّفْ ولا يُشعِرَن بكم أحدًا**﴾ [الكهف: ١٩] وقيل: المعنى ما أنزلت سورةٌ في عيوب المنافقين ﴿**ثم انصرفوا**﴾ عطفٌ على نظَر بعضُهم والتراخي باعتبار وُجدانِ الفرصةِ والوقوفِ على عدم رؤيةِ أحدٍ من المؤمنين، أي انصرفوا جميعًا عن محفِل الوحيِ خوفًا من الافتضاح أو غير ذلك ﴿**صرف الله قلوبهم**﴾ أي عن الإيمان حسَب انصرافِهم عن المجلس، والجملةُ اختباريةٌ أو دعائية ﴿**بأنهم**﴾ أي بسبب أنهم ﴿**قوم لا يفقهون**﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبّر ﴿**لقد جاءكم**﴾ الخطابُ للعرب ﴿**رسول**﴾ أي رسول عظيمُ الشأن ﴿**من أنفسكم**﴾ من جنسكم عربيٌّ قرشيٌّ مثلُكم وقرئ بفتح الفاء[1] أي أشرفِكم وأفضِلكم ﴿**عزيز عليه ما عنتم**﴾ أي شاقٌّ شديدٌ عليه عَنَتُكم ولقاؤكم المكروهَ فهو يخاف عليكم سوءَ العاقبةِ والوقوعَ في العذاب، وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة ﴿**حريص عليكم**﴾ في إيمانكم وصلاحِ حالِكم ﴿**بالمؤمنين**﴾ منكم ومن غيركم ﴿**رؤوف رحيم**﴾ قدِّم الأبلغُ منهما وهي الرأفَةُ التي هي عبارةٌ عن شدة الرحمةِ محافظةً على الفواصل ﴿**فإن تولوا**﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى النبي ﷺ تسليةً له أي إن أعرضوا عن الإيمان بك ﴿**فقل حسبيَ الله**﴾ فإنه يكفيك ويُعينك عليهم ﴿**لا إله إلا هو**﴾ استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ﴿**عليه توكلت**﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿**وهو رب العرش العظيم**﴾ أي المُلك العظيم أو الجِسم الأعظم المحيط الذي تنزل منه الأحكامُ والمقادير، وقرئ (العظيمُ)[2] بالرفع. وعن أبي أن آخِرَ ما نزل هاتان الآيتان. وعن النبي ﷺ: «**ما نزل القرآنُ إلا آيةً آيةً وحرفًا حرفًا ما خلا سورةَ براءةٌ وسورةَ ﴿قُلْ هو الله أحد﴾ فإنهما أُنزلتا عَليّ ومعهما سبعون ألفَ صف من الملائكة**» عليهم الصلاة والسلام[3].

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، ومحبوب، وعبد الله بن قسيط، ويعقوب، وفاطمة، وعائشة، وابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، وابن علية، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٦) ، والبحر المحيط ص (١١٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٣)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٨٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٦).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٦)، والبحر المحيط (٥/ ١١٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٣)، وتفسير الرازي (١٦/ ٢٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

سورة يونس

عليه السلام، مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ
ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢)
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن
شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٧) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ
ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ
قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ
لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ
بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ

وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿آلر﴾ بتفخيم الراءِ المفتوحةِ وقرئ بالإمالة[١] إجراءً للأصلية مُجرى المنقلبة عن[٢] الياء وقرئ بينَ بين[٣] وهو إما مسرودٌ على نمط التعديدِ بطريق التحدّي على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة فلا محلَّ له من الإعراب وإما اسمٌ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، ونافع، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وقالون، وحفص، وهشام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٢٣١)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٠٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٠)، وتفسير الرازي (١٧/ ٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٦٦، ٦٧).

(٢) في خ: من.

(٣) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعاصم، والأزرق، ورش، وقالون، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٦)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٠)، وتفسير الرازي (١٧/ ٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٦٧).

للسورة كما عليه إطباقُ الأكثرِ فمحلُّه **الرفعُ** على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هذه السورةُ مسماةٌ بـ (الر)، وهو أظهرُ من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلمِ بالتسمية بعدُ، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر. والإشارةُ إليها قبل جَرَيانِ ذكرها لِما أنها باعتبار كونِها على جناح الذكْرِ وبصدده صارت في حكم الحاضِر كما يقال: هذا ما اشترى فلان، أو **النصب** بتقدير فعل لائقٍ بالمقام نحو اذكر أو اقرأ، وكلمةُ ﴿**تلك**﴾ إشارةٌ إليها إما على تقدير كونِ (الر) مسرودةً على نمط التعديدِ فقد نُزّل حضورُ مادتِها التي هي الحروفُ المذكورةُ منزلةَ ذكرها فأشير إليها كأنه قيل: هذه الكلماتُ المؤلفةُ من جنس هذه الحروفِ المبسوطةِ إلخ، وأما تقدير كونِه اسمًا للسورة فقد نوّهتُ بالإشارة إليها بعد تنويهِها بتعيين اسمِها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها، وما في اسم الإشارة من معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلِتها في الفخامة ومحلُّه الرفعُ على أنه مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿**آياتُ الكتاب**﴾ وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأٌ ثانٍ أو بدلٌ من الأول والمعنى هي آياتٌ مخصوصةٌ منه مترجمةٌ باسم مستقلٍ والمقصودُ ببيانِ بعضيَّتِها منه وصفُها بما اشتهر اتصافُه به من النعوت الفاضلةِ والصفاتِ الكاملةِ، والمرادُ بالكتاب إما جميعُ القرآنِ العظيم وإن لم ينزل الكلُّ حينئذ إما باعتبار تعيّنِه وتحققِه في علم الله عز وعلا أو في اللوح أو باعتبار أنه أُنزل جملةً إلى السماء الدنيا كما هو المشهورُ فإن فاتحةَ الكتاب كانت مسماةً بهذا الاسم وبأم القرآن في عهد النبوة ولمّا يحصُلِ المجموعُ الشخصي إذ ذاك فلا بد من ملاحظة كلٍّ من الكتاب والقرآن بأحد الاعتباراتِ المذكورةِ وأما جميعُ القرآنِ النازلِ وقتئذ المتفاهَم بين الناسِ إذ ذاك فإنه كما يُطلق على المجموع الشخصيّ يُطلق على مجموع ما نَزل في كل عصرٍ، ألا يُرى إلى ما رُوي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: (كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحُدٍ في ثوب واحد ثم يقول: «**أيُّهم أكثرُ أخذًا للقرآن؟**» فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد[1]، فإن ما يفهمه الناسُ من القرآن في ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت في أخذه إنما هو المجموعُ النازلُ حينئذ من غير ملاحظةٍ لتحقق المجموعِ الشخصيِّ في علم الله سبحانه أو في اللوح ولا لنزوله جملةً إلى السماء الدنيا.

﴿**الحكيم**﴾ ذي الحِكمة وصف به لاشتماله على فنون الحِكَم الباهرةِ ونُطقِه بها، أو

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥٧٠) كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الشهيد، برقم (١٣٤٣)، من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-.

هو من باب وصفِ الكلامِ بصفة صاحبِه أو من باب الاستعارة المكنيةِ المبنيةِ على تشبيه الكتابِ بالحكيم الناطقِ بالحكمة، هذا وقد جعل الكتابُ عبارةً عن نفس السورةِ، وكلمةُ تلك إشارةٌ إلى ما في ضمنها من الآي فإنها في حكم الحاضرِ لا سيما بعد ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمِها أو الأمرِ بذكرها أو بقراءتها، وينبغي أن يكون المشارُ إليه حينئذ كلَّ واحدةٍ منها لا جميعَها من حيث هو جميعٌ لأنه عينُ السورةِ فلا يكون للإضافة وجهٌ ولا لتخصيص الوصفِ بالمضاف إليه حكمةٌ فلا يتأتى ما قُصد من مدح المضافِ بما للمضاف إليه من صفات الكمال ولأن في بيان اتصافِ كلٍّ منها بالكمال من المبالغة ما ليس في بيان اتصافِ الكلِّ بذلك، والمتبادرُ من الكتاب عند الإطلاقِ وإن كان كلُّه بأحد الوجهين المذكورين لكنّ صحةَ إطلاقِه على بعضه أيضًا مما لا ريب فيها، والمعهودُ المشهورُ وإن كان اتصافُ الكل بأحد الاعتبارين بما ذُكر من نعوت الكمالِ إلا أن شهرةَ اتصافِ كل سورةٍ منه بما اتصف به الكلُّ مما لا ينكر، وعليه يدور تحققُ مدحِ السورةِ بكونها بعضًا من القرآن الكريم إذ لولا أن بعضَه منعوتٌ بنعت كلِّه داخلٌ تحت حكمِهِ لما تسنى ذلك، وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف.

[دفاع عن النبي ﷺ]

﴿**أكان للناس عجبًا**﴾ الهمزةُ لإنكار تعجّبِهم ولتعجب السامعين منه لكونه في غير محلِّه، والمرادُ بالناس كفارُ مكةَ. وإنما عبِّر عنهم باسم الجنسِ من غير تعرُّضٍ لكفرهم. مع أنه المدارُ لتعجبهم كما تُعُرِّض له في قوله عز وجل: ﴿**قال الكافرون**﴾ إلخ، لتحقيق ما فيه الشركةُ بينهم وبين رسولِ الله ﷺ وتعيينِ مدارِ التعجبِ في زعمهم ثم تبيينِ خطئِهم وإظهارِ بطلانِ زعمِهم بإيراد الإنكارِ والتعجيب، واللامُ متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا من عجبًا وقيل: بعجبًا على التوسع المشهورِ في الظروف، وقيل: المصدرُ إذا كان بمعنى اسم الفاعلِ أو اسمِ المفعول جاز تقديمُ معمولِه عليه، وقيل: متعلقةٌ بكان وهو مبنيٌّ على دلالة كان الناقصةِ على الحدث ﴿**أن أوحينا**﴾ اسمُ (كان) قد قُدِّم عليه خبرُها اهتمامًا بشأنه لكونه مدارَ الإنكارِ والتعجيبِ وتشويقًا إلى المؤخَّر ولأن في الاسم ضربَ تفصيلٍ ففي مراعاة الأصلِ نوعُ إخلالٍ بتجاوب أطرافِ الكلام.

وقرئ برفع (عجب)[1] على أنه الاسمُ وهو نكرةٌ والخبرُ أن أوحينا وهو معرفةٌ لأن أن مع الفعل في تأويل المصدرِ المضافِ إلى المعرفة ألبتةَ والمختارُ حينئذ أن تجعل

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٩)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٢)، وتفسير الرازي (١٧/ ٦).

كان تامةٌ وأن أوحينا متعلقًا بعجبٌ على حذف حرف التعليل أي أحدث للناس عجبٌ لأن أوحينا أو من أن أوحينا، أو بدلًا من عجبٌ لكن لا على توجيه الإنكارِ والتعجيب إلى حدوثه بل إلى كونه عجبًا، فإن كونَ الإبدال في حكم تنحيةِ المبدَلِ منه ليس معناه إهدارَه بالمرة وإنما قيل: للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبةً لهم، وفيه من زيادة تقبيحِ حالِهم ما لا يخفى ﴿**إلى رجل منهم**﴾ أي إلى بشر من جنسهم كقولهم: أبعث الله بشرًا رسولًا أو من أفنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم: ﴿**لولا نُزّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم**﴾ [الزخرف: ٣١] وكلا الوجهين من ظهور البطلانِ بحيث لا مزيد عليه. أما **الأولُ** فلأن بعثَ الملَكِ إنما يكون عند كون المبعوثِ إليهم ملائكةً كما قال سبحانه: ﴿**قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملَكًا رسولًا**﴾ [الإسراء: ٩٥] وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضةِ الملكية كيف لا وهي منوطةٌ بالتناسب والتجانس، فبعثُ الملَكِ إليهم مزاحِمٌ للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوين والتشريع وإنما الذي تقتضيه الحكمةُ أن يُبعث الملكُ من بينهم إلى الخواصّ المختصين بالنفوس الزكية المؤيَّدين بالقوة القدسيةِ المتعلّقين بكلا العالَمين الروحانيِّ والجُسماني ليتلقَّوْا من جانب ويُلْقوا إلى جانب. وأما **الثاني** فلما أن مناطَ الاصطفاء للنبوة والرسالةِ هو التقدُم في الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلةِ والصفاتِ الجليلة والسبْقِ في إحراز الفضائلِ العلية وحيازةِ الملَكات السنية جِبِلّةً واكتسابًا، ولا ريب لأحد منهم في أنه عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأنِ في غاية الغاياتِ القاصيةِ ونهايةِ النهاياتِ النائيةِ، وأما التقدمُ في الرياسات الدنيويةِ والسبْقِ في نيل الحظوظِ الدنية فلا دخلَ له في ذلك قطعًا بل له إخلالٌ به غالبًا قال عليه الصلاة والسلام: «**لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما سقى الكافرَ منها شربةَ ماء**»[1].

﴿**أن أنذر الناسَ**﴾ أن **مصدريةٌ** لجواز كونِ صلتِها أمرًا كما في قوله تعالى: ﴿**وأن اقم وجهك**﴾ [يونس، الآية ١٠٥] وذلك لأن الخبرَ والإنشاءَ في الدلالة على المصدر سيانِ فساغ وقوعُ الأمرِ والنهي صلةً حسبَ وقوعِ الفعل فلا يجرد عند ذلك عن معنى الأمرِ والنهي نحوَ تجرُّدِ الصلةِ الفعليةِ عن معنى المضيِّ والاستقبالِ، ووجوبُ كونِ الصلةِ في الموصول الاسميِّ خبريةً إنما هو للتوصل بها إلى وصف المعارفِ بالجمل لا لقصور في دلالة الإنشاءِ على المصدر، أو **مفسرةٌ** إذ الإيحاءُ فيه معنى القولِ وقد

---

(١) تقدم.

جوز كونُها مخففة من المثقّلة [على][(١)] حذف ضميرِ الشأنِ والقولِ من الخبر والمعنى أن الشأنَ قولُنا: أنذر الناسَ، والمرادُ به جميعُ الناسِ كافةً لا ما أريد بالأول وهو النكتةُ في إيثار الإظهارِ على الإضمار، وكونُ الثاني عينَ الأولِ عند إعادة المعرفةِ ليس على الإطلاق ﴿**وبشر الذين آمنوا**﴾ بما أوحيناه وصدّقوه ﴿**أن لهم**﴾ أي بأن لهم ﴿**قدم صدق**﴾ أي سابقةً ومنزلةً رفيعة ﴿**عند ربهم**﴾ وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصُل السبْقُ والوصولُ إلى المنازل الرفيعةِ كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطىٰ بها، وقيل: مقامَ صدقٍ، والوجهُ أن الوصولَ إلى المقام إنما يحصُل بالقدم وإضافتُها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتِها، وللتنبيه على أن مدارَ نيلِ ما نالوه من المراتب العليةِ هو صدقُهم فإن التصديقَ لا ينفك عن الصدق ﴿**قال الكافرون**﴾ هم المتعجبون، وإيرادُهم هاهنا بعنوان الكفر مما لا حاجة إلى ذكر سببِه، وتركُ العاطفِ لجرَيانه مَجرى البيانِ للجملة التي دخلت عليها همزةُ الإنكار أو لكونه استئنافًا مبنيا على السؤال، كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجبِ هل بقُوا على التردد والاستبعادِ أو قطعوا فيه بشيء؟ فقيل: قال الكافرون على طريقة التأكيدِ: ﴿**إن هذا**﴾ يعنون به ما أوحيَ إلى رسول الله ﷺ من القرآن الحكيم المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿**لَسْحِرٌ مبين**﴾ أي ظاهرٌ وقرئ لسحر[(٢)] على أن الإشارةَ إلى رسول الله ﷺ وقرئ (ما هذا إلا سحرٌ مبينٌ)[(٣)]، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون بأن ما عاينوه خارجٌ عن طَوْق البشر نازلٌ من جناب خلاق القُوى والقدَر ولكنهم سمَّوه بما قالوا تماديًا في العناد كما هو ديدنُ المكابرِ اللَّجوجِ ودأبُ المُفحَمِ المحجوج.

﴿**إن ربكم**﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لإظهار بطلانِ تعجُّبهم المذكورِ وما بنَوا عليه من المقالة الباطلةِ غِبَّ الإشارةِ إليه بالإنكار والتعجيبِ وحُقّق فيه حقيةُ ما تعجبوا منه وصِحّةُ ما أنكروه بالتنبيه الإجمالي على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلقِ والتقديرِ وأحوالِ التكوينِ والتدبيرِ، ويُرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكيرٍ لاعترافهم به من غير نكيرٍ لقوله تعالى: ﴿**قل من ربُّ السموات السبعِ وربُّ العرشِ العظيم سيقولون لله قل**

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، ونافع، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٦)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٣٢)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٠٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٢).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٢٣).

أفلا تتقون﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧] وقوله تعالى: **﴿قل من يرزقُكم من السماء والأرض﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ومن يدبرُ الأمرَ فسيقولون الله﴾** [يونس: ٣١] أي إن ربكم ومالكَ أمرِكم الذي تتعجبون من أن يرسِل إليكم رجلًا منكم بالإنذار والتبشيرِ وتُعدّون ما أوحيَ إليه من الكتاب الحكيم سحرًا هو **﴿الله الذي خلق السموات والأرض﴾** وما فيهما من أصول الكائنات **﴿في ستة أيام﴾** أي في ستة أوقاتٍ أو في مقدار ستةِ أيام معهودةٍ فإن نفسَ اليوم الذي هو عبارةٌ عن زمان كونِ الشمس فوق الأرض مما لا يتصور تحققُه حين لا أرضَ ولا سماء. وفي خلقها مدرّجًا، مع القدرة التامةِ على إبداعها دفعةً، دليلٌ على الاختيار واعتبارٌ للنظّار وحثٌّ لهم على التأنيّ في الأحوال والأطوار، وأما تخصيصُ ذلك بالعدد المعينِ فأمرٌ قد استأثر بعلم ما يستدعيه علامُ الغيوب جلت قدرتُه ودقتْ حكمتُه وإيثارُ صيغةِ الجمعِ في السموات لما هو المشهورُ من الإيذان بأنها أجرامٌ مختلفةُ الطباعِ متباينةُ الآثارِ والأحكام **﴿ثم استوى على العرش﴾** العرشُ هو الجسمُ المحيطُ بسائر الأجسامِ سمِّي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملِك فإن الأوامرَ والتدابير منه تنزل، وقيل: هو المُلك ومعنى استوائِه سبحانه عليه استيلاؤُه عليه أو استواءُ أمرِه. وعن أصحابنا أن الاستواءَ على العرش صفةٌ له سبحانه بلا كيف. والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّهًا عن التمكن والاستقرار، وهذا بيانٌ لجلالة مُلكه وسلطانِه بعد زمان عظمةِ شأنِه وسَعة قدرتِه بما مر من خلق هاتيك الأجرامِ العظام.

﴿يدبر الأمر﴾ التدبيرُ النظرُ في أدبار الأمورِ وعواقبِها لتقعَ على الوجه المحمودِ والمرادُ هاهنا التقديرُ على الوجه الأتمِّ الأكملِ والمرادُ بالأمر أمرُ ملكوتِ السمواتِ والأرضِ والعرشِ وغيرُ ذلك من الجزئيات الحادثةِ شيئًا فشيئًا على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمبايناتِ في الذوات والصفاتِ والأزمنةِ والأوقاتِ أي يقدّر ما ذُكر من أمر الكائناتِ الذي ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحي فردٌ من جملته وشُعبةٌ من دوحته، ويهيىء أسبابَ كل منها حدوثًا وبقاءً في أوقاتها المعينةِ ويرتب مصالحَها على الوجه الفائقِ والنمطِ اللائقِ حسبما تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المصلحةُ، والجملةُ في محل النصبِ على أنها حالٌ من ضمير استوىٰ وقد جوز كونُها خبرًا ثانيًا لإن أو مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب مبنيةٌ على سؤال نشأ من ذكر الاستواءِ على العرش المنبئ عن إجراء أحكامِ المُلك. وعلى كل حال فإيثارُ صيغةِ المضارعِ للدلالة على تجدد التدبيرِ واستمرارِه وقوله عز وجل: **﴿ما من شفيع﴾** بيانٌ لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبيرِ ونفيٌ للشفاعة على أبلغ الوجوهِ فإن نفيَ جميعِ

أفرادِ الشفيعِ بمن الاستغراقية يستلزم نفيَ الشفاعةِ على أتم الوجوه كما في قوله تعالى: ﴿**لا عاصمَ اليوم من أمر الله**﴾ [هود، الآية ٤٣] وهذا بعد قوله تعالى: ﴿**يدبر الأمر**﴾ جارٍ مجرى قوله تعالى: ﴿**وهو يجير ولا يجار عليه**﴾ عقيب قوله تعالى: ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾ [المؤمنون، الآية ٨٨] وقوله تعالى ﴿**إلا من بعد إذنه**﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعم الأوقاتِ أي ما من شفيع يشفع لأحد في وقت من الأوقات إلا بعد إذنِه المبنيِّ على الحكمة الباهرةِ، وذلك عند كون الشفيع من المصطَفين الأخيارِ والمشفوعُ له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى: ﴿**يوم يقوم الروحُ والملائكةُ صفًا لا يتكلّمون إلا من أذِن له الرحمٰنُ وقال صوابًا**﴾ [النبأ: ٣٨] وفيه من الدلالة على عظمة جلالِه سبحانه ما لا يخفى ﴿**ذلكم**﴾ إشارةٌ إلى المعلوم بتلك العظمةِ أي ذلكم العظيمُ الشأنِ المنعوتُ بما ذكر من نعوت الكمالِ التي عليها يدور استحقاقُ الألوهية ﴿**الله**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ربكم**﴾ بيانٌ له أو بدلٌ منه أو خبرٌ ثانٍ لاسم الإشارةِ، وهذا بعد بيانِ أن ربَّهم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ إلخ، لزيادة التقريرِ والمبالغةِ في التذكير ولتفريع الأمرِ بالعبادة عليه بقوله تعالى: ﴿**فاعبُدوه**﴾ أي وحّدوه من غير أن تشركوا به شيئًا من ملَك أو نبيٍّ فضلًا عن جماد لا يُبصر ولا يَسمع ولا يضر ولا ينفع وآمِنوا بما أنزله إليكم ﴿**أفلا تذكرون**﴾ أي تعلمون أن الأمرَ كما فُصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقِفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدوا عنه ﴿**إليه**﴾ لا إلى أحد سواه استقلالًا أو اشتراكًا ﴿**مرجعكم**﴾ أي بالبعث كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**جميعًا**﴾ فإنه حالٌ من الضمير المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى أي إليه رجوعُكم مجتمعين والجملةُ كالتعليل لوجوب العبادة ﴿**وعْد الله**﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لنفسه لأن قوله عز وجل: ﴿**إليه مرجعكم**﴾ وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أي وعَدَ الله، وأيا ما كان فهو دليلٌ على أن المرادَ بالمرجِع هو الرجوعُ بالبعث لأن ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرئ بصيغة الفعل[١] ﴿**حقا**﴾ مصدرٌ آخرُ مؤكدٌ لما دل عليه الأول ﴿**إنه يبدأ الخلق**﴾ وقرئ (يُبدِئ)[٢] ﴿**ثم يعيده**﴾ وهو استئنافٌ عُلّل به وجوبُ المرجعِ إليه سبحانه وتعالى فإن غايةَ البدءِ والإعادةِ وهو جزاءُ المكلّفين بأعمالهم حسنةً أو سيئةً، وقرئ بالفتح[٣] أي لأنه، ويجوز كونُه منصوبًا بما نصب وعدَ الله أي وعَد الله وعدًا

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٥)، وتفسير الرازي (١٧/ ٣٠).

(٢) قرأ بها: طلحة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٥)، وتفسير الرازي (١٧/ ٣٠).

(٣) قرأ بها: عبد الله، والأعمش، وسهل بن شعيب، ويزيد بن القعقاع.

=

بدءَ الخلقِ ثم إعادتَه، ومرفوعًا بما نصب (حقا) أي حق (حقا) بدءُ الخلقِ إلخ ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي بالعدل وهو حالٌ من فاعل (يجزي) أي ملتبسًا بالعدل أو متعلق بيجزي أي ليجزيَهم بقسطه ويوفيَهم أجورَهم، وإنما أُجمل ذلك إيذانًا بأنه لا يفي به الحصرُ أو بقسطهم وعدلِهم عند إيمانِهم ومباشرتِهم للأعمال الصالحة وهو الأنسبُ بقوله عز وجل: ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ فإن معناه ويجزي الذين كفروا بسبب كفرِهم، وتكريرُ الإسناد بجعل الجملةِ الظرفية خبرًا للموصول لتقوية الحكم والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على مواظبتهم على الكفر، وتغييرُ النظمِ للإيذان بكمال استحقاقِهم للعقاب وأن التعذيبَ بمعزل عن الانتظام في سلك العلةِ الغائيّة للخلق بدءًا وإعادةً وإنما يحيقُ ذلك بالكفرة على موجَبِ سوءِ اختيارِهم، وأما المقصودُ الأصليُّ من ذلك فهو الإثابة.

[دلائل وحدة الله وعظمته]

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ تنبيهٌ على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدتِه وعلمِه وقدرتِه وحكمتِه بآثار صُنعِه في النّيِّريْن بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السمواتِ والأرضِ والاستواءِ على العرش وغيرِ ذلك وبيانٌ لبعض أفرادِ التدبيرِ الذي أشير إليه إشارةً إجماليةً وإرشادٌ إلى أنه حيث دبّرت أمورُهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبيَر البديعَ فلأن يدبّرَ مصالحَهم المتعلقةَ بالمعاد بإرسال الرسولِ وإنزالِ الكتابِ وتبيينِ طرائقِ الهدىٰ وتعيينِ مهاوي الردىٰ أولى وأحرى، والجعلُ إن جُعل بمعنى الإنشاءِ والإبداعِ فـ (ضياءً) حالٌ من مفعوله أي خلقها حالَ كونِها ذاتَ ضياءٍ على حذف المضافِ أو ضياءً محضًا للمبالغة، وإن جُعل بمعنى التصييرِ فهو مفعولُه الثاني أي جعلها ضياءً على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خاليةً عن تلك الحالةِ بل أبدعها كذلك كما في قولهم: ضيِّقْ فم الركية ووسِّعْ أسفلها[1].

و(الضياءُ) مصدرٌ كقيام أو جمعُ ضوءٍ كسياط وسَوْط وياؤه منقلبة من الواو

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٣٦)، وتفسير الطبري (١١/ ٦١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٠٧)، والمعاني للفراء (١/ ٤٥٧)، وتفسير الرازي (١٧/ ٣٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

(١) ينظر: الكشاف (٤/ ١٥٩)، وروح المعاني (٧/ ٢٢٦)، والبحر المحيط (٧/ ٤٣٥).

لانكسار ما قبلها وقرئ (ضِئاء)[1] بهمزتين بينهما ألفٌ بتقديم اللام على العين.

﴿والقمر نورًا﴾ الكلامُ فيه كالكلام في الشمس والضياءُ أقوى من النور وقيل: ما بالذات ضوءٌ وما بالعرَض نور، ففيه إشعارٌ بأن نورَه مستفادٌ من الشمس ﴿وقدره﴾ أي قدّر له وهيأ ﴿منازل﴾ أو قدّر مسيرَه في منازلَ أو قدره ذا منازلَ على تضمين التقديرِ معنى التصييرِ، وتخصيصُ القمر بهذا التقديرِ لسرعة سيرِه ومعاينةِ منازِله وتعلقِ أحكام الشريعة به وكونِه عمدةً في تواريخ العرب، وقد جُعل الضميرُ لكل منهما وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلًا، ينزل القمرُ كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطّاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين فإذا كان في آخر منازلِه دقّ واستقوس ثم يستسرّ[2] ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهرُ ويكون مقامُ الشمس في كل منزلةٍ منها ثلاثةَ عشرَ يومًا، وهذه المنازلُ هي مواقعُ النجومِ التي نَسَبت إليها العربُ الأنواءَ المستمطَرةَ وهي السرطانُ والبطينُ والثريا الدبَرانُ الهقعةُ الهنعةُ الذراعُ النثرةُ الطرفُ الجبهةُ الزبرةُ الصّرفةُ العوّاءُ السّماك الغفرُ الزبانىٰ الإكليلُ القلبُ الشوْلةُ النعائمُ البلدةُ سعدُ الذابحُ سعدُ بلَع سعدُ السعودِ سعدُ الأخبيةِ فرغُ الدلوِ المقدّم فرغُ الدلو المؤخّرُ الرّشا وهو بطن الحوت.

﴿لتعلموا﴾ إما بتعاقب الليلِ والنهارِ المنوطَين بطلوع الشمسِ وغروبِها أو باعتبار نزولِ كلٍّ منهما في تلك المنازل ﴿عدد السنين﴾ التي يتعلق بها غرضٌ علميٌّ لإقامة مصالحِكم الدينية والدنيوية ﴿والحساب﴾ أي حسابَ الأوقاتِ من الأشهر والأيام والليالي وغيرِ ذلك مما نيط به شيءٌ من المصالح المذكورةِ، وتخصيصُ العدد بالسنين والحسابِ بالأوقات لما أنه لم يُعتبرْ في السنينَ المعدودةِ معنى مغايرٌ لمراتب الأعداد كما اعتُبر في الأوقات المحسوبةِ، وتحقيقُه أن الحسابَ إحصاءُ ما له كميةٌ انفصاليةٌ بتكرير أمثالِه من حيث يتحصل بطائفة معيّنةٍ منها حدٌّ معيَّنٌ له اسمٌ خاصٌّ وحكمٌ مستقلٌّ كالسنة المتحصِّلةِ من اثني عشرَ شهرًا قد تحصل كلٌّ من ذلك من ثلاثين يومًا قد تحصّل كلٌّ من ذلك من أربع وعشرين ساعةً مثلًا، والعدُّ مجردُ إحصائِه بتكرير أمثالِه من غير اعتبارٍ أن يتحصل بذلك شيءٌ كذلك، ولما لم يُعتبر في السنين

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وقنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٥)، والتيسير للداني (١٢٠، ١٢١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٠٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٣).

(٢) في خ: يستتر، واستسرَّ: استتر وخفي. وسرار الشهر: آخر ليلة فيه.

المعدودةِ تحصُّلُ حدٍّ معيَّنٍ له اسمٌ خاصٌّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعدادِ وحكم مستقلٌّ أضيف إليها العدد وتحصّلُ مراتبِ الأعدادِ من العشرات والمئاتِ والألوفِ اعتباريٌّ لا يُجدي في تحصل المعدودِ نفعًا وحيث اعتُبر في الأوقات المحسوبةِ وتحصلَ ما ذُكر من المراتب التي لها أسامٍ خاصةٌ وأحكامٌ مستقلةٌ علّق بها الحسابُ المنبئ عن ذلك والسنةُ من حيث تحققُها في نفسها مما يتعلق به الحسابُ وإنما الذي يتعلق به العدُّ طائفةٌ منها وتعلقُه في ضمن ذلك بكل واحدةٍ من تلك الطائفةِ ليس من الحيثية المذكورةِ أعني حيثيةَ تحصّلِها من عدة أشهرٍ قد تحصل كلُّ واحدٍ منها من عدة أيامٍ قد حصل كلٌّ منها بطائفة من الساعات فإن ذلك وظيفةُ الحسابِ بل من حيث إنها فردٌ من تلك الطائفةِ المعدودةِ من غير أن يُعتبرَ معها شيءٌ غيرُ ذلك، وتقديمُ العددِ على الحساب مع أن الترتيبَ بين متعلّقيهما وجودًا وعلمًا على العكس لأن العلمَ المتعلّقَ بعدد السنين علمٌ إجماليٌّ بما تعلق به الحسابُ تفصيلًا وإن لم تتّحِد الجهةُ، أو لأن العددَ من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصُّلُ أمرٍ آخرَ حسبما حُقق آنفًا نازلٍ من الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيطِ من المركب ﴿**ما خلق الله ذلك**﴾ أي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حُكي من الأحوال وفيه إيذانٌ بأن معنى جعلِهما على تلك الأحوالِ والهيئاتِ ليس إلا خلقَهما كذلك كما أشير إليه، ولا يقدح في ذلك أن استفادةَ القمرِ النورَ من الشمس أمرٌ حادثٌ فإن المرادَ بجعله نورًا إنما هو جعلُه بحيث يتصف بالنور عند وجودِ شرائطِ الاتصافِ به بالفعل ﴿**إلا بالحق**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم أحوالِ الفاعل أو المفعول أي ما خلق ذلك ملتبسًا بشيء من الأشياء إلا ملتبسًا بالحق مراعيًا لمقتضىٰ الحِكمة البالغةِ أو مراعىً فيه ذلك، وهو ما أشير إليه إجمالًا من العلم بأحوال السنينَ والأوقاتِ المنوطِ به أمورُ معاملاتِهم وعباداتِهم ﴿**يفصل الآيات**﴾ أي الآياتِ التكوينيةَ المذكورةَ أو جميعَ الآياتِ فيدخلُ فيها الآياتُ المذكورةُ دخولًا أوليا أو يفصل الآياتِ التنزيليةَ المنبِّهة على ذلك، وقرئ بنون[1] العظمة ﴿**لقوم يعلمون**﴾ الحكمةَ في إبداع الكائناتِ فيستدلون بذلك على شؤون مُبدعِها جل وعلا أو يعلمون ما في تضاعيف الآياتِ المنزلةِ فتؤمنون بها، وتخصيصُ التفصيلِ بهم لأنهم المنتفِعون به.

---

(١) قرأ بها: نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٦)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣١١)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٦)، الكشف للقيسي (١/ ٥١٣)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٩١)، وتفسير الرازي (١٧/ ٣٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ تنبيهٌ آخرُ إجماليٌّ على ما ذكر أي في تعاقبهما وكونِ كلٍّ منهما خِلْفَةً للآخر بحسب طلوعِ الشمسِ وغروبِها التابعين لحركات السموات وسكونِ الأرضِ أو في تفاوتهما في أنفسهما بازدياد كلٍّ منهما بانتقاص الآخرِ وانتقاصِه بازدياده باختلاف حالِ الشمسِ بالنسبة إلينا قُربًا وبعدًا بحسب الأزمنة، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنةِ **إما** في الطول والقِصَر فإن البلادَ القريبةَ من القُطب الشماليِّ أيامُها الصيفيةُ أطولُ ولياليها الصيفية أقصرُ من أيام البلاد البعيدةِ منه ولياليها، **وإما** في أنفسهما فإن كرية الأرضِ تقضي أن يكون بعضُ الأماكن ليلًا وفي مقابله نهارًا **﴿وما خلق الله في السموت والأرض﴾** من أصناف المصنوعات **﴿لآيات﴾** عظيمةً أو كثيرةً دالةً على وجود الصانع تعالى ووحدتِه وكمالِ علمِه وقدرتِه وبالغِ حكمتِه التي من جملة مقتضياتِها ما أنكروه من إرسال الرسول ﷺ وإنزالِ الكتابِ والبعثِ والجزاء **﴿لقوم يتقون﴾** خصّهم بذلك لأن الداعيَ إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله تعالى والحذرُ من العاقبة فهم الواقفون على أن جميعَ المخلوقاتِ آياتٌ دون غيرهم **﴿وكأيٍّ من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾** [يوسف، الآية ١٠٥].

﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ بيانٌ لمآل أمرِ مَنْ كفر بالبعث وأعرضَ عن البينات الدالةِ عليه بعد تحقيقِ أن مرجِعَ الكلِّ إليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئِهم للجزاء ثوابًا وعقابًا وتفصيلِ بعض الآياتِ الشاهدة بذلك، والمرادُ بلقائه إما الرجوعُ إليه تعالى بالبعث أو لقاءُ الحساب كما في قوله عز وعلا: **﴿إني ظننتُ أني ملاقٍ حسابيه﴾** [الحاقة، الآية ٢٠] وأيا ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالةِ من تهويل الأمر ما لا يخفى والمرادُ بعدم الرجاءِ عدمُ التوقع مطلقًا المنتظم لعدم الأملِ وعدمِ الخوف فإن عدمَهما لا يستدعي عدمَ اعتقادِ وقوعِ المأمولِ والخوف أي لا يتوقعون الرجوعَ إلينا أو لقاءَ حسابِنا المؤدِّي إما إلى حسنِ الثوابِ أو إلى سوء العذابِ فلا يأمُلون الأولَ وإليه أشير بقوله عز وجل: **﴿ورضوا بالحيوة الدنيا﴾** فإنه منبئ عن إيثار الأدنى الخسيسِ على الأعلى النفيسِ كقوله تعالى: **﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾** [التوبة، الآية ٣٨] ولا يخافون الثانيَ وإليه أشير بقوله تعالى: **﴿واطمأنوا بها﴾** أي سكَنوا فيها سكونَ مَنْ لا بَراحَ له منها آمنين مِن اعتراء المزعجاتِ غيرَ مُخطرين ببالهم ما يسوؤهم من عذابنا، وقيل: المرادُ بالرجاء معناه الحقيقيُّ وباللقاء حسنُ اللقاءِ أي لا يأمُلون حسنَ لقائِنا بالبعث والإحياءِ بالحياة الأبدية ورضُوا بدلًا منها ومما فيها من فنون الكراماتِ السنيةِ بالحياة الدنيا الدنيةِ الفانيةِ واطمأنوا بها أي سكَنوا إليها مُكبّين

عليها قاصرين مجامعَ هِممِهم على لذائذها وزخارفِها من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم، وإيثارُ الباءِ على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الوصولِ والانتهاء للإيذان بتمام الملابسةِ ودوام المصاحبةِ والمؤانسة، وحملُ الرجاءِ على الخوف فقط يأباه كلمةُ الرضا بالحياة الدنيا فإنها مُنبئةٌ عما ذُكر من ترك الأعلى وأخذِ الأدنى، واختيارُ صيغةِ الماضي في الصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقق والتقّررِ كما أن اختيارَ صيغةِ المستقبلِ في الأولى للإيذان باستمرارِ عدم الرجاء.

﴿**والذين هم عن آياتنا**﴾ المفصلةِ في صحائف الأكوانِ حسبما أشير إلى بعضها أو آياتِنا المنزلِة المنبّهةِ على الاستشهاد بها المتفقةِ معها في الدلالة على حقية ما لا يرجونه من اللقاء المترتبِ على البعث وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنوا إليه من الحياة الدنيا ﴿**غافلون**﴾ يتفكرون فيها أصلًا وإن نُبّهوا على ذلك وذُكّروا بأنواع القوارعِ لانهماكهم فيما يصُدهم عنها من الأحوال المعدودةِ، وتكريرُ الموصولِ للتوسل به إلى جعل صلتِه جملةً اسميةً منبئةً عما هم عليه من استمرار الغفلةِ ودوامِها، وتنزيلُ التغايرِ الوصفيِّ منزلةَ التغايرِ الذاتي إيذانًا بمغايرة الوصفِ الأخير للأوصاف الأُوَل واستقلالِه باستتباع العذابِ.

هذا وأما ما قيل من أن العطفَ إما لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أن الوعيدَ على الجمع بين الذهولِ عن الآيات رأسًا والانهماكِ في الشهوات بحيث لا يخطُر ببالهم الآخرةُ أصلًا وإما لتغاير الفريقين والمرادُ بالأولين من أنكر البعثَ ولم يُرد إلا الحياةَ الدنيا وبالآخِرين مَنْ ألهاه حبُّ العاجل عن التأمل في الآجل فكلامٌ ناءٍ عن السداد فليُتأملْ ﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿**مأواهم**﴾ أي مسكنُهم ومقرُّهم الذي لا بَراحَ لهم منه ﴿**النار**﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمُها ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ من الأعمال القلبيةِ المعهودةِ وما يستتبعه من أصناف المعاصي والسيئاتِ أو بكسبهم إياها، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددي والباء متعلقةٌ بمضمون الجملةِ الأخيرةِ الواقعةِ خبرًا عن اسم الإشارةِ وهو مع خبرِه خبرٌ لإن في قوله تعالى: ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ [يونس، الآية ٧] الخ.

﴿**إن الذين آمنوا**﴾ أي فعلوا الإيمانَ أو آمنوا بما يشهَد به الآياتُ التي غفَل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمَنَ به فيندرجُ فيه ذلك اندراجًا أوليا ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ أي الأعمالَ الصالحةَ في أنفسها اللائقةَ بالإيمان، وإنما تُرك ذكرُ الموصوف لجريانها مَجرى الأسماءِ ﴿**يهديهم ربهم**﴾ أُوثر الالتفاتُ تشريفًا لهم بإضافة

الربِّ وإشعارًا بعلة الهداية **﴿بإيمانهم﴾** أي يهديهم بسبب إيمانِهم إلى مأواهم ومقصِدِهم وهي الجنةُ، وإنما لم تُذكر تعويلًا على ظهورها وانسياقِ النفسِ إليها لا سيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوىٰ الكفَرة وما آواهم إليه من أعمالهم السيئةِ ومشاهدةِ ما لحق من التلويح والتصريحِ، وفي النظم الكريم إشعارٌ بأن مجردَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ لا يكفي في الوصول إلى الجنةَ بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفرَ والمعاصيَ كافيةٌ في دخول النارِ ثم إنه لا نزاعَ في أن المرادَ بالإيمان الذي جعل سببًا لتلك الهداية هو إيمانُهم الخاصُّ المشفوعُ بالأعمال الصالحةِ لا الإيمانُ المجردُ عنها ولا ما هو أعمُّ منهما، إلا أن ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه أهلُ السنةِ والجماعة من أن الإيمانَ الخاليَ عن العمل الصالحِ يُفضي إلى الجنة في الجملة ولا يخلّد صاحبه في النار فإن منطوقَ الآيةِ الكريمةِ أنَ الإيمانَ المقرونَ بالعمل الصالح سببٌ للهداية إلى الجنة، وأما أن كلَّ ما هو سببٌ لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالَةَ لها ولا لغيرها عليه قطعًا، كيف لا وقولُه عز وجل: **﴿الذين آمنوا ولم يلبِسوا إيمانَهم بظُلم أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون﴾** [الأنعام، الآية ٨٢] [منادٍ بخلافه][(١)] فإن المرادَ بالظلم هو الشركُ كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلِطوا إيمانَهم بشرك، ولئن حُمل على ظاهره أيضًا يدخُل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحًا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرامٍ أو بترك واجب **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾** أي بين أيديهم كقوله سبحانه: **﴿وهذه الأنهارُ تجري من تحتي﴾** [الزخرف، الآية ٥١][(٢)] وهم على سرر مرفوعةٍ وأرائِكَ مصفوفةٍ، والجملةُ مستأنفةٌ أو خبرٌ ثانٍ لإن أو حالٌ من مفعول يهديهم على تقدير كونه المهدي إليه ما يريدونه في الجنة كما قيل، وقيل: يهديهم ويسدّدهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدي إلى الثواب والجنة، وقوله: **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾** جارٍ مجرى التفسيرِ والبيان فإن التمسكَ بحبل السعادةِ في حكم الوصولِ إليها وقيل: يهديهم إلي إدراك الحقائقِ البديعةِ بحسب القوةِ العملية كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم**»[(٣)] **﴿في جنات النعيم﴾** خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بـ (تجري) أو بـ (يهدي) فالمراد بالمهدى إليه إما منازلهم في الجنة أو ما يريدونه فيها.

---

(١) سقط في خ. (٢) زاد في خ: أو تجري.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا، وضعفه الشوكاني في الفوائد المجموعة ص(٢٨٦) برقم (٤٣).

﴿**دعواهم**﴾ أي دعاؤُهم وهو مبتدأٌ وقوله عز وجل: ﴿**فيها**﴾ متعلقٌ به وقوله تعالى: ﴿**سبحانك اللهم**﴾ خبرُه أي دعاؤهم هذا الكلامُ وهو معمولٌ لمقدر لا يجوز إظهارُه والمعنى اللهم إنا نسبّحك تسبيحًا، ولعلهم يقولونه عندما عاينوا فيها من تعاجيبِ آثارِ قدرتِه تعالى ونتائجِ رحمتِه ورأفتِه ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر تقديسًا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصانِ وتنزيهًا لوعده الكريمِ عن سمات الخُلف ﴿**وتحيتهم فيها**﴾ التحيةُ التكرمةُ بالحالة الجليلة أصلُها أحياكَ الله حياةً طيبة، أي ما يحيي به بعضُهم بعضًا أو تحيةُ الملائكةِ إياهم كما في قوله تعالى: ﴿**والملائكة يدخُلون عليهم من كل باب سلام**﴾ [الرعد، الآية ٢٣] أو تحيةُ الله عز وجل لهم كما في قوله تعالى: ﴿**سلام قولًا من رب رحيم**﴾ [يس، الآية ٥٨] ﴿**سلام**﴾ أي سلامةٌ من كل مكروه ﴿**وآخر دعواهم**﴾ أي خاتمةُ دعائِهم ﴿**أن الحمد للهِ رب العالمين**﴾ أي أن يقولوا ذلك نعتًا له عز وجل بصفات الإكرام إثرَ نعتِه تعالى بصفات الجلال، أي دعاؤهم منحصِرٌ فيما ذُكر إذ ليس لهم مطلبٌ مترقّبٌ حتى ينتظموا في سلك الدعاء، وأن هي المخففةُ من أنّ المثقلة أصلُه أنه الحمدُ لله فحُذف ضميرُ الشأنِ كما في قوله: [البسيط]

.... أنْ هالكٌ كلُّ من يحفىٰ وينتعلُ[1]

وقرئ أنّ الحمدَ لله بالتشديد ونصبِ (الحمد)[2] ولعل توسيط ذكرِ تحيتِهم عند الحكايةِ بين دعائِهم وخاتمتِه للتوسل إلى ختم الحكايةِ بالتحميد تبرّكًا مع أن التحيةَ ليست بأجنبية على الإطلاق، ودعوى كونِ ترتيبِ الوقوعِ أيضًا كذاك، بأن كانوا حين دخلوا الجنةَ وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءَه مجدّوه ونعتوه بنعوت الجلالِ ثم حياهم

---

(١) عجز بيت وصدره:

في فتنةٍ كسيوفِ الهِنْد قد علموا ....

والبيت للأعشى في ديوانه ص (١٠٩)، والأزهية ص (٦٤)، والإنصاف ص (١٩٩)، وتخليص الشواهد ص (٣٨٢)، وخزانة الأدب (٥/ ٤٢٦)، والدرر (٢/ ١٩٤)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٧٦)، والكتاب (٢/ ١٣٧)، والمحتسب (١/ ٣٠٨)، ومغني اللبيب (١/ ٣١٤)، والمقاصد النحوية (٢/ ٢٨٧)، والمنصف (٣/ ١٢٩)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (١٠/ ٣٩١)، ورصف المباني ص (١١٥)، وشرح المفصل (٨/ ٧١)، والمقتضب (٣/ ٩)، وهمع الهوامع (١/ ١٤٢).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن، وعكرمة، وبلال بن أبي بردة،وابن يعمر، وأبو مجلز، وأبو حيوة، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٩٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٨٠).

الملائكةُ بالسلامة من الآفات والفوزِ بأصناف الكراماتِ أو حياهم بذلك ربُّ العزةِ فحمِدوه تعالى وأثنَوا عليه، يأباها إضافةُ الآخرِ إلى دعواهم وقد جوز أن يكون المرادُ بالدعاء العبادةَ كما في قوله تعالى: ﴿وأعتزلكم وما تدعون﴾ [مريم: ٤٨] إلخ، إيذانًا بأنْ لا تكليفَ في الجنة أي ما عبادتُهم إلا أن يسبحوه ويحمَدوه وليس ذلك بعبادة إنما يُلْهمونه وينطِقونه[١] تلذذًا ولا يساعده تعيينُ الخاتمة.

[من طبائع النفس]

﴿ولو يعجل الله للناس﴾ هم الذين لا يرجون لقاءَ الله تعالى لإنكارهم البعثَ وما يترتب عليه من الحساب والجزاءِ، أشير إلى بعض من عظائم معاصيهم المتفرّعةِ على ذلك وهو استعجالُهم بما أُوعدوا به من العذاب تكذيبًا واستهزاءً، وإيرادُهم باسم الجنسِ لما أن تعجيلَ الخيرِ لهم ليس دائرًا على وصفهم المذكور إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراجِ أي لو يعجل الله لهم ﴿الشر﴾ الذي كانوا يستعجلون به فإنهم كانوا يقولون: ﴿اللهم إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِر علينا حجارةً من السماء أو ائتِنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال، الآية ٣٢] ونحو ذلك وقوله تعالى ﴿استعجالهم بالخير﴾ نصبَ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌّ وُضع موضِعَ مصدرٍ ناصبِه دلالةً على اعتبار الاستعجالِ في جانب المشبّهِ كاعتبار التعجيلِ في جانب المشبه به وإشعارًا بسرعة إجابتِه تعالى لهم حتى كان استعجالُهم بالخير نفسَ تعجيلِه لهم، والتقديرُ ولو يعجل الله لهم الشرَّ عند استعجالِهم به تعجيلًا مثلَ تعجيلِه لهم الخيرَ عند استعجالِهم به فحُذف ما حذف تعويلًا على دلالة الباقي عليه ﴿لقضي إليهم أجلُهم﴾ لأدّىٰ إليهم الأجلَ الذي عيّن لعذابهم وأُميتوا وأُهلِكوا بالمرة وما أُمهلوا طرفةَ عينٍ، وفي إيثار صيغةِ المبنيِّ للمفعول جريٌ على سنن الكبرياءِ مع الإيذان بتعيين الفاعلِ، وقرئ على البناء للفاعل[٢] كما قرئ (لقضينا)[٣]، واختيارُ صيغةِ الاستقبال في الشرط وإن كان المعنى على المضيِّ لإفادة أن عدم قضاءِ الأجلِ لاستمرار عدمِ التعجيل، فإن المضارعَ

---

(١) في خ: فينطقون به.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، ويعقوب، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٢)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٤٤)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وتفسير الطبري (١١/ ٦٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٧٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٣).

(٣) قرأ بها: الأعمش، وعبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٢٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٧)، وتفسير الرازي (١٧/ ٤٩).

المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنص في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعل بل قد يفيد استمرارَ انتفائِه أيضًا بحسب المقام كما حقق في موضعه، واعلم أن مدارَ الإفادةِ في الشرطية أن يكون التالي أمرًا مغايرًا للمقدّم في نفسه مترتبًا عليه في الوجود كما في قوله عز وجل: **﴿لو يطيعُكم في كثير من الأمر لعنِتّم﴾** [الحجرات، الآية ٧] فإن العنَتَ أي الوقوعَ في المشقة والهلاكِ أمرٌ مغايرٌ لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتبٌ عليها في الوجود أو يكون فردًا كاملًا من أفراده ممتازًا عن البقية بأمر يخصّه كما في الأجزية[1] المحذوفة في مثل قولِه تعالى: **﴿ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم﴾** [الأنعام، الآية ٣٠] وقوله تعالى: **﴿ولو ترى إذ وُقفوا على النار﴾** [الأنعام، الآية ٢٧] وقوله تعالى: **﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾** [السجدة، الآية ١٢] ونظائرِها أي لرأيت أمرًا هائلًا فظيعًا أو نحوَ ذلك وكما في قوله تعالى: **﴿ولو يؤاخذ الله الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾** [فاطر، الآية ٤٥] إذا فسر الجوابُ بالاستئصال فإنه فردٌ كاملٌ من أفراد مطلقِ المؤاخذة قد عبّر عنه بما لا مزيدَ عليه في الدلالة على الشدة والفظاعةِ، فحسنُ موقعِه في معرض التالي للمؤاخذة المطلقةِ وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغايرٍ لتعجيل الشرِّ في نفسه، وهو ظاهرٌ بل هو إما نفسُه أو جزئيٌّ منه كسائر جزئياتِه من غير مزّيةٍ له على البقية إذا لم يُعتبر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيلِ الشرِّ من الشدة والهولِ فلا يكونُ في ترتّبه عليه وجودًا أو عدمًا مزيدُ فائدةٍ مصحِّحة لجعله تاليًا له فالحقُّ أن المقدمَ ليس نفسَ التعجيلِ المذكورِ بل هو إرادتُه المستتبعةِ للقضاء المذكورِ وجودًا وعدمًا كما في قوله تعالى: **﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذابَ﴾** [الكهف، الآية ٥٨] أي لو يريد مؤاخذتهم، فإن تعجيلَ العذاب لهم نفسُ المؤاخذةِ أو جزئيٌّ من جزئياتها غيرُ ممتازٍ عن البقية فليس في بيان ترتبِه عليها وجودًا أو عدمًا مزيد فائدة، وإنما الفائدة في ترتبه على إرادتها حسبما ذكر، وأيضًا في ترتب التالي على إرادة المقدمِ ما ليس في ترتبه على نفسه من [الدلالة على][2] المبالغة وتهويلِ الأمر والدلالةِ على أن الأمور منوطةٌ بإرادته تعالى المبنيّة على الحِكم البالغة **﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾** بنون العظمة الدالة على التشديد في الوعيد وهو عطفٌ على مقدر تنبئ عنه الشرطيةُ كأنه قيل: لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه الحكمةُ فنتركهم إمهالًا واستدراجًا **﴿في طغيانهم﴾** الذي هو عدمُ رجاءِ اللقاء، وإنكارُ البعثِ والجزاءِ وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئةِ ومقالاتهم الشنيعة

---

(١) في خ: الأجوبة. (٢) سقط في خ.

﴿يعمهون﴾ أي يترددون ويتحيرون ففي وضع الموصولِ موضعَ الضمير نوع بيانٍ للطغيان بما في حيز الصلةِ وإشعارٌ بعليّته للترك والاستدارج.

﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ أي أصابه جنسُ الضرِّ من مرض وفقرٍ وغيرِهما من الشدائد إصابةً يسيرة ﴿دعانا﴾ لكشفه وإزالتِه ﴿لجنبه﴾ حالٌ من فاعل دعا بشهادة ما عُطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما في قوله تعالى: ﴿يخرون للأذقان﴾ [الإسراء، الآية ١٠٧] أي دعانا كائنًا على جنبه أي مُضجعًا ﴿أو قاعدًا أو قائمًا﴾ أي في جميع الأحوالِ مما ذُكر وما لم يذكر، وتخصيصُ المعدوداتِ بالذكر لعدم خلوِّ الإنسانِ عنها عادةً أو دعانا في جميع أحوالِ مرضِه على أنه المرادُ بالضر خاصة مُضجَعًا عاجزًا عن القعود وقاعدًا غيرَ قادرٍ على النهوض وقائمًا لا يستطيع الحَراك ﴿فلما كشفنا عنه ضره﴾ الذي مسه غِبَّ ما دعانا حسبما ينبئ عنه الفاء ﴿مر﴾ أي مضىٰ واستمرَّ على طريقته التي كان ينتحيها قبل مساسِ الضرِّ ونسيَ حالةَ الجَهْدِ والبلاءِ، أو مر عن موقف الضراعةِ والابتهالِ ونأى بجانبه ﴿كأن لم يدْعُنا﴾ أي كأنه لم يدعُنا فخُفف وحُذف ضميرُ الشأن كما في قوله: [الطويل]

كأنْ لم يكن بين الحَجون إلى الصفا ....[1]

والجملةُ التشبيهيةُ في محل النصبِ على الحالية من فاعل مرّ أي مرّ مشبَّهًا بمن لم يدْعنا ﴿إلى ضر﴾ أي إلى كشف ضرٍّ ﴿مسه﴾ وهذا وصفٌ للجنس باعتبار حال بعضِ أفرادِه ممن هو متصفٌ بهذه الصفات ﴿كذلك﴾ نصبٌ على المصدرية وذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ الآتي، وما فيه من معنى البعدِ للتفخيم والكافُ مقحَمةٌ للدلالة على زيادة فخامةِ المشارِ إليه إقحامًا لا يكاد يُترَك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم: مثلُك لا يَبخلُ مكان أنت لا تبخل أي مثلَ ذلك التزيينِ العجيب ﴿زين للمسرفين﴾ أي للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمةِ وإسرافُهم لما إن الله تعالى إنما أعطاهم القُوى والمشاعرَ ليصرِفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خُلقت[2] له من العلوم والأعمالِ الصالحة، فلما صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأسُ مالِهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافًا ظاهرًا، والتزيينُ إما من جهة الله سبحانه على طريقه التخليةِ

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.... أنيسٌ ولم يسْمُرْ بمكّة سامِرُ

والبيت لعمرو بن الحارث بن مضاض أو للحارث الجرهمي في لسان العرب (حجن)، وبلا نسبة في شرح قطر الندى ص (١٥٩).

(٢) في خ: خلقنا.

والخِذلانِ أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل ﴿**ما كانوا يعملون**﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاءِ والانهماكِ في الشهوات، وتعلقُ الآيةِ الكريمة بما قبلها من حيث إن في كل منهما إملاءً للكفرة على طريقة الاستدراجِ بعد الإنقاذِ من الشر المقدّرِ في الأولى ومن الضرِّ المقررِ في الأخرى.

﴿**ولقد أهلكنا القرون**﴾ أي القرونَ الخاليةَ مثلَ قوم نوحٍ وعادٍ وأضرابِهم و(من) في قوله تعالى: ﴿**من قبلكم**﴾ متعلقةٌ بأهلكنا أي أهلكناهم من قبل زمانِكم والخطابُ لأهل مكةَ على طريقة الالتفاتِ للمبالغة في تشديد التهديدِ بعد تأييدِه بالتوكيد القسمي ﴿**لما ظلموا**﴾ ظرفٌ للإهلاك أي أهلكناهم حين فعلوا الظلمَ بالتكذيب والتمادي في الغي والضلالِ من غير تأخير، وقوله تعالى: ﴿**وجاءتهم رسلهم**﴾ حالٌ[1] من ضمير ظلموا بإضمار قد، وقوله تعالى: ﴿**بالبينات**﴾ متعلقٌ بجاءتهم على أن الباءَ للتعدية أو بمحذوف وقع حالًا من رسلهم، دالةٌ على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المكابرة، أي ظلموا بالتكذيب وقد جائتهم رسلُهم بالآيات البينةِ الدالةِ على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجالَ للتكذيب، وقد جُوِّز أن يكون قولُه تعالى: ﴿**وجاءتهم**﴾ عطفًا على ظلموا فلا محلَّ له من الإعراب عند سيبويه، وعند غيره محلُّه الجرُّ لأنه[2] معطوفٌ على ما هو مجرورٌ بإضافة الظرفِ إليه، وليس الظلمُ منحصرًا في التكذيب حتى يُحتاج إلى الاعتذار بأن الترتيبَ الذكري لا يجب كونُه على وفق الترتيبِ الوقوعيّ كما في قوله تعالى: ﴿**ورفع أبويه على العرش وخروا له**﴾ [يوسف، الآية ١٠٠] إلخ، بل هو محمولٌ على سائر أنواعِ الظلم والتكذيبُ مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿**وما كانوا ليؤمنوا**﴾ على أبلغ وجهٍ وآكده فإن اللامَ لتأكيد النفي أي وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادِهم وخذلانِ الله تعالى إياهم لعلمه بأن الألطافَ لا تنجع فيهم، والجملةُ على الأول عطفٌ على ظلموا لأنه إخبارٌ بإحداث التكذيب، وهذا بالإصرار عليه، وعلى الثاني عطفٌ على ما عطف عليه، وقيل: اعتراضٌ بين الفعلِ وما يجري مَجرى مصدرِه التشبيهيِّ أعني قولَه تعالى: ﴿**كذلك**﴾ فإن الجزاءَ المشارَ إليه عبارةٌ عن مصدره أي مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيعِ أي الإهلاكِ الشديدِ الذي هو الاستئصالُ بالمرة ﴿**نجزي القوم المجرمين**﴾ أي كلَّ طائفةٍ مجرمة، وفيه وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ أكيدٌ لأهل مكةَ لاشتراكهم لأولئك المهلَكين في الجرائم والجرائر التي هي تكذيبُ الرسولِ والإصرارُ عليه وتقريرٌ لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿**ولو يعجل الله للناس الشرَّ**

---

(١) في خ: الواو.

(٢) في خ: لأنها.

استعجالَهم بالخير﴾ [يونس: ١١] وقرئ بالياء[١] على الالتفات إلى الغَيبة وقد جُوِّز أن يكون المرادُ بالقوم المجرمين أهلَ مكةَ على طريقة وضع الظاهرِ موضعَ ضميرِ الخطابِ إيذانًا بأنهم أعلامٌ في الإجرام ويأباه كلَّ الإباء قولُه عز وجل: **﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾** فإنه صريحٌ في أنه ابتداءُ تعرّضَ لأمورهم وأن ما بيِّن فيه إنما هو مبادي أحوالِهم لاختبار كيفياتِ أعمالِهم على وجه يُشعر باستمالتهم نحوَ الإيمان والطاعةِ فمُحالٌ أن يكون ذلك إثرَ بيانِ منتهى أمرِهم وخطابِهم ببتّ القولِ بإهلاكهم لكمال إجرامِهم والمعنى ثم استخلفناكم في الأرض من بعد إهلاكِ أولئك القرونِ التي تسمعون أخبارَها وتشاهدون آثارَها استخلافَ من يَختبر **﴿لننظر﴾** أي لنعاملَ معاملةَ من ينظُر **﴿كيف تعملون﴾** فهي استعارةٌ تمثيليةٌ[٢]، و(كيف) منصوبٌ على المصدرية بـ (تعملون) لا بـ (ننظر) فإن ما فيه من معنى الاستفهام مانعٌ من تقدم عاملِه عليه أي أيَّ عملٍ أو على الحالية أي على أيّ حالٍ تعملون الأعمالَ اللائقةَ بالاستخلاف من أوصاف الحُسن كقوله عز وعلا: **﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملًا﴾** [هود: ٧. والملك: ٢] ففيه إشعارٌ بأن المرادَ بالذات والمقصودَ الأصليَّ من الاستخلاف إنما هو ظهورُ الكيفياتِ الحسنةِ للأعمال الصالحةِ، وأما الأعمالُ السيئةُ فبمعزل من أن تصدُرَ عنهم لا سيما بعد ما سمِعوا أخبارَ القرونِ المهلَكه وشاهَدوا آثارَ بعضِها فضلًا عن أن يُنظمَ ظهورُها في سلك العلة الغائيةِ للاستخلاف، وقيل: منصوبٌ على أنه مفعولٌ به أي أيَّ عملٍ تعملون أخيرًا أم شرا فنعاملَكم بحسبه فلا يكون في كلمة كيف حينئذ دلالةٌ على أنَ المعتبرَ في الجزاء جهاتُ الأعمالِ وكيفياتُها لا ذواتُها كما هو رأيُ القائل بل تكون حينئذ مستعارةً لمعنى أيّ[٣] شيء.

﴿وإذا تتلى عليهم﴾ التفاتٌ من خطابهم إلى الغَيبة إعراضًا عنهم وتوجيهًا للخطاب إلى رسول الله ﷺ بتعديد جناياتِهم المضادةِ لما أريد منهم بالاستخلاف، من تكذيب الرسولِ والكفر بالآيات البيناتِ وغيرِ ذلك كدأب مَنْ قبلهم من القرون المهلَكة،

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٨)، وتفسير الرازي (١٧/ ٥٤).

(٢) وذلك مبني على أن الله بكل شيء عليم، فيكون ذلك من باب التمثيل حيث شبه هذا الصنيع بصنيع من يبلو شيئًا ليعرف حقيقته، وإنما جعل استخلافهم في الأرض علة لعلم الله بأعمالهم كناية عن ظهور أعمالهم في الواقع إن كانت مما يرضي الله أو مما لا يرضيه، فإذا ظهرت أعمالهم علمها الله علم الأشياء النافعة، وإن كان يعلم أن ذلك سيقع علمًا أزليًّا.
ينظر: التحرير والتنوير (١١/ ١١٥)، والاستعارة التمثيلية الإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦، ١٦٠)، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

(٣) في ط: أن.

وصيغةُ المضارعِ للدلالة على تجدد جوابِهم الآتي حسبَ تجددِ التلاوة ﴿آياتنا﴾ الدالةُ على حقية التوحيدِ وبُطلانِ الشركِ، والإضافةُ لتشريف المضافِ والترغيبِ في الإيمان به والترهيبِ عن تكذيبه ﴿بينات﴾ حالَ كونِها واضحاتِ الدلالةِ على ذلك، وإيرادُ فعل التلاوةِ مبنيا للمفعول مسندًا إلى الآيات دون رسولِ الله ﷺ ببنائه للفاعل للإشعار بعدمِ الحاجةِ لتعيّن التالي وللإيذان بأن كلامَهم في نفس المتلوّ دون التالي ﴿قال الذين لَا يرجون لقاءنا﴾ وضعَ الموصول موضعَ الضميرِ إشعارًا بعلّية ما في حيز الصلةِ العظيمةِ المحكيةِ عنهم وأنهم إنما اجترؤوا عليها لعدم خوفِهم من عقابه تعالى يوم اللقاءِ لإنكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذما لهم بذلك أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسولُ الله ﷺ وإنما لم يذكر إيذانًا بتعينه ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ أشاروا بهذا إلى القرآنِ المشتملِ على تلك الآياتِ لا إلى نفسها فقط قصدًا إلى إخراج الكلِّ من البين أي ائت بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والحسابِ والجزاءِ وما نكرهه من ذم آلهتِنا ومعايبِها والوعيدِ على عبادتها ﴿أو بدله﴾ بتغيير ترتيبِه بأن تجعلَ مكانَ الآيةِ المشتملةِ على ذلك آيةً أخرى خاليةً عنها وإنما قالوه كيدًا وطمعًا في المساعدة ليتوسلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به ﴿قل﴾ لهم ﴿ما يكون لي﴾ أي ما يصح وما يستقيم لي ولا يمكنني أصلًا ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي من قبل نفسي وهو مصدرٌ استعمل ظرفًا، وقرئ بفتح التاءِ(١) وقصر الجواب ببيان امتناعِ ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني للإيذان بأن استحالةَ ما اقترحوه أولًا من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها وأن التصدّيَ لذلك مع كونه ضائعًا ربما يُعد من قبيل المجاراةِ مع السفهاء إذ لا يصدُر مثلُ ذلك الاقتراحِ عن العقلاء، ولأن ما يدل على استحالة الثاني يدل على استحالة الأولِ بالطريق الأولى.

﴿إن أتبع﴾ أي ما أتبع في شيء مما آتي وأذَرُ ﴿إلا ما يوحى إلي﴾ من غير تغيير له في شيء أصلًا على معنى قصرِ حالِه عليه السلام على اتباع ما يوحىٰ إليه لا قصرِ اتباعِه على ما يوحى إليه كما هو المتبادرُ من ظاهر العبارةِ كأنه قيل: ما أفعل إلا اتباعَ ما يوحىٰ إلي وقد مر تحقيقُ المقامِ في سورة الأنعام [الأية: ٥٠]، وهو تعليلٌ لصدر الكلام، فإن مَنْ شأنُه اتباعُ الوحيِ على ما هو عليه لا يستبد بشيء دونه قطعًا، وفيه جوابٌ للنقض بنسخ بعضِ الآياتِ ببعض وردٌّ لما عرّضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآنَ كلامُه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيّد التبديلُ في الجواب

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٩).

بقوله: ﴿من تلقاء نفسي﴾ وسماه عصيانًا عظيمًا مستتبعًا لعذاب عظيم بقوله تعالى: ﴿إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإنه تعليلٌ لمضمون ما قبله من امتناع التبديلِ واقتصارِ أمرِه عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي، أي أخاف إن عصيتُه تعالى، بتعاطي ما ليس لي من التبديل من تلقاء نفسي والإعراضِ عن اتباع الوحي، عذابَ يوم عظيم هو يومُ القيامة أو يومُ اللقاءِ الذي لا يرجونه، وفيه إشعارٌ بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراحِ.

والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمرِ العصيان وإظهارِ كمالِ نزاهتِه عليه السلام عنه، وإيرادُ اليوم بالتنوين التفخيميّ ووصفُه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعِه، ولا مساغَ لحمل مُقترَحِهم على التبديل والإتيانِ بقرآن آخرَ من جهة الوحي بتفسير قوله تعالى: ﴿ما يكونُ لي أن أبدلَه من تلقاء نفسي﴾ بأنه لا يتسهّلُ لي أن أبدلَه بالاستدعاء من جهة الوحي، ما أتبع إلا ما يوحىٰ إليّ من غير صنعٍ ما من الاستدعاء وغيرِه من قِبلي، لأنه يرده التعليلُ المذكورُ لا لأن المقترَحَ حينئذٍ ليس فيه معصيةٌ أصلًا كما تُوُهم، فإن استدعاءَ تبديلِ الآياتِ النازلِة، حسبما تقتضيه الحكمةُ التشريعيةُ بعضِها ببعض، لا سيما بموجب اقتراحِ الكفرة، مما لا ريبَ في كونه معصيةً [بل لأنه ليس فيه معصيةٌ][(١)] الافتراءِ مع أنها المقصودةُ بما ذُكر في التعليل، ألا يُرى إلى ما بعده من الآيتين الكريمتين فإنه صريحٌ في أن مقترَحَهم الإتيانُ بغير القرآنِ وتبديلُه بطريق الافتراءِ وأن زعمَهم في الأصل أيضًا كذلك وقوله عز وجل: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ تحقيقٌ لحقية القرآنِ وكونِه من عند الله تعالى إثرَ بيانِ بطلانِ ما اقترحوا الإتيانَ به واستحالتِه عبارةً ودلالةً، وإنما صدر بالأمر المستقلِّ مع كونه داخلًا تحت الأمرِ السابقِ إظهارًا لكمال الاعتناءِ بشأنه وإيذانًا باستقلاله مفهومًا وأسلوبًا، فإنه برهانٌ دالٌّ على كونه بأمر الله تعالى ومشيئتِه كما سيأتي، وما سبق مجردُ إخبارٍ باستحالة ما اقترحوه، ومفعولُ (شاء) محذوفٌ ينبئ عنه الجزاءُ لا غيرُ ذلك كما قيل فإن مفعولَ المشيئةِ إنما يحذف إذا وقعت شرطًا وكان مفعولُها مضمونَ الجزاءِ ولم يكن في تعلقها به غرابةٌ كما في قوله: [الكامل]

لـو شـئـتُ أن أبـكـي دمًـا لـبـكَـيـتُـه ....[(٢)]

حيث لم يحُذف لفقدان الشرطِ الأخيرِ ولأن المستلزِمَ للجزاء أعني عدمَ تلاوتِه عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم إنما هو مشيئتُه تعالى له لا مشيئتُه لغير القرآن،

---

(١) سقط في خ.
(٢) تقدم.

والمعنى أن الأمرَ كلَّه منوطٌ بمشيئته تعالى شيئا وليس لي منه [شيء][(١)] قط، ولو شاء عدمَ تلاوتي له عليكم، لا بأن شاء عدمَ تلاوتي له من تلقاء نفسي بل بأن يُنزِله عليّ ولم يأمُرْني بتلاوته كما ينبئ عنه إيثارُ التلاوة على القراءة، ما تلوتُه عليكم ﴿**ولا أدراكم به**﴾ أي ولا أعلمَكم به بواسطتي، والتالي وهو عدمُ التلاوةِ والإدراءِ منتفٍ فينتفي المقدّم أعني مشيئتَه عدمَ التلاوة، ولا يخفى أنها مستلزمةٌ لعدم مشيئتِه التلاوة قطعًا، فانتفاؤُها مستلزمٌ لانتفائه حتمًا وانتفاءُ عدم مشيئتِه التلاوةَ إنما يكون بتحقق مشيئةِ التلاوةِ فثبت أن تلاوتَه عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمرِه، وإنما قيدنا الإدراءَ بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لأن عدمَ الإعلام مطلقًا ليس من لوازم الشرطِ الذي هو مشيئةُ عدمِ تلاوتِه عليه السلام فلا يجوز نظمُه في سلك الجزاءِ، وفي إسناد عدمِ الإدراءِ إليه تعالى المنبئ عن استناد الإدراءِ إليه تعالى إيذانٌ بألا دخلَ له عليه السلامَ في ذلك حسبما يقتضيه المقامُ، وقرئ (ولا أدرَأْتُكم)[(٢)] (ولا أدرَأَكم)[(٣)] بالهمزة فيهما على لغة من يقول: أعطأتُ وأرضأتُ في أعطيت وأرضيتُ أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتُكم بتلاوته عليكم خصَماءَ تدرَؤونني بالجِدال، وقرئ (ولا أنذرتُكم به)[(٤)] وقرئ (لأَدْرَاكم)[(٥)] بلام الجوابِ، أي لو شاء الله ما تلوتُه عليكم أنا ولأَعلَمكم به على لسان غيري، على معنى أنه الحقُّ الذي لا محيصَ عنه، لو لم أُرسل به أنا لأُرسل به غيري ألبتة، أو على معنى أنه تعالى يمُنّ على من يشاء فخصّني بهذه الكرامة.

---

(١) سقط في ط.

(٢) قرأ بها: الحسن، وابن عباس، وابن سيرين، وأبو رجاء.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٣٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٦٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢١)، والمعاني للفراء (١/ ٤٥٩).

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٤)، تفسير الرازي (١٧/ ٥٨).

(٤) قرأ بها: ابن عباس، والأعمش،وشهر بن حوشب، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٣٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٩)، وتفسير الرازي (١٧/ ٥٨).

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وقنبل، والبزي، وأبو ربيعة، وأبو عمرو الداني، والنقاش، وعبد العزيز الفارسي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٣٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٥١)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣١٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٢٩)، والكشف للقيسي (١/ ٥١٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٩٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

﴿**فقد لبثت فيكم عمرًا**﴾ تعليلٌ للملازمة المستلزِمةِ لكون تلاوتِه بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بيّن آنفًا، لكن لا بطريق الاستدلالِ عليها بعدم تلاوتِه عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئتِه تعالى إياه بل بطريق الاستشهادِ عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام في تلك المدةِ الطويلةِ من الأمور الدالةِ على استحالة كونِ التلاوةِ من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحي، وعمرًا نُصب على التشبيه بظرف الزمانِ، والمعنى قد أقمتُ فيما بينكم دهرًا مديدًا مقدارَ أربعين سنةً تحفظون تفاصيلَ أحوالي طرًّا وتحيطون بما لديّ خبرًا ﴿**من قبله**﴾ أي من قبل نزولِ القرآن لا أتعاطىٰ شيئًا مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائقِ وأحكامِ الشرائع ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي ألا تلاحِظون ذلك فلا تعقلون امتناعَ صدورِه عن مثلي، ووجوبَ كونِه منزلًا من عند الله العزيز الحكيم فإنه غيرُ خافٍ على من له عقلٌ سليمٌ. والحق الذي لا محيدَ عنه أن مَنْ له أدنى مَسَكةٍ من العقل إذا تأمل في أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهرَ الطويلَ من غير مصاحبةِ العلماء في شأن من الشؤون ولا مراجعةٍ إليهم في فن من الفنون ولا مخالطةِ البلغاءِ في المفاوضة والحِوار ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخُطبِ والأشعار ثم أتى بكتاب بهَرتْ فصاحتُه كلَّ فصيح فائقٍ وبزّت بلاغتُه كلَّ بليغ رائقٍ وعلا نظمُه كلَّ منثور ومنظومٍ وحوى فحواه بدائعَ أصنافِ العلومِ، كاشفٌ أسرارَ الغيبِ من وراء أستارِ الكمُونِ ناطقٌ بأخبار ما قد كان وما سيكون، مصدقٌ لما بين يديه من الكتب المنزلةِ مهيمنٌ عليها في أحكامها المُجْملة والمفصّلة لا يبقى عنده شائبةُ اشتباهٍ في أنه وحيٌ منزلٌ من عند الله، هذا هو الذي اتفقت عليه كلمةُ الجمهور، ولكن الأنسبَ ببناء الجوابِ فيما سلف على مجرد امتناعِ صدورِ التغيير والتبديلِ عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصيةً موجبةً للعذاب العظيم واقتصارِ حالِه عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي وامتناعِ الاستبدادِ بالرأي من غير تعرضٍ هناك ولا هاهنا لكون القرآنِ في نفسه أمرًا خارجًا عن طَوْق البشرِ ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غيرَ قادرٍ على الإتيان بمثله، أن يُستشهدَ هاهنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرةِ في تلك المدةِ المتطاولةِ من كمال نزاهتِه عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبةَ صدورِ الكذبِ والافتراءِ عنه في حق أحدٍ كائنًا مَنْ كان كما ينبئ عنه تعقيبُه بتظليم المفتري على الله تعالى، والمعنى قد لبثتُ فيما بين ظَهْرانيكم قبل الوحي لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدالٍ ولا أحوم حولَ مقالٍ فيه شائبةُ شبهةٍ فضلًا عما فيه كذبٌ أو افتراءٌ، ألا تلاحظون فلا تعقِلون أن مَنْ هذا شأنُه المطردُ في هذا العهد البعيدِ مستحيلٌ أن يفتريَ

على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلقِ بالأوامر والنواهي الموجبةِ لسلب الأموالِ وسفكِ الدماءِ ونحو ذلك، وأن ما أتىٰ به وحيٌ مبينٌ تنزيلٌ من رب العالمين.

وقوله عز وجل: **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾** استفهامٌ إنكاريٌّ معناه الجحدُ أي لا أحدَ أظلمُ منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم، وإن كان سبكُ التركيب مفيدًا لإنكار أن يكون أحدٌ أظلم منه من غير تعرضٍ لإنكار المساواةِ ونفيها، فإنه إذا قيل: مَنْ أفضلُ من فلان أو لا أعلمَ منه يُفهم منه حتمًا أنه أفضلُ من كل فاضل وأعلمُ من كل عالم، وزيادةُ قوله تعالى: **﴿كذبًا﴾** مع أن الافتراءَ لا يكون إلا كذلك للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضِمْنًا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحًا، مع كونه افتراءً على الله تعالى، كذبٌ في نفسه، فربّ افتراءٍ يكون كذبُه في الإسناد فقط كما إذا أسند ذنبُ زيدٍ إلى عمرو، وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام في التفادي عما[1] ذُكر من الافتراء على الله سبحانه **﴿أو كذب بآياته﴾** فكفر بها، وهذا تظليمٌ للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملِهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام، والفاءُ لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كونِ القرآنِ بمشيئته تعالى وأمرِه، فلا مجال لحمل الافتراءِ[2] باتخاذ الولدِ والشريك، أي وإذا كان الأمرُ كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلقَ كلامًا فيقول: هذا من عند الله أو يبدل بعضَ آياتِه تعالى ببعض كما تجوّزون ذلك في شأني، وكذلك مَن كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلمُ من كل ظالم **﴿إنه﴾** الضمير للشأن وقع اسمًا لإن والخبرُ ما يعقُبه من الجملة، ومدارُ وضعِه موضعَه ادعاءُ شهرتِه المغنيةِ عن ذكره، وفائدةُ تصديرِها به الإيذانُ بفخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريرِه في الذهن فإن الضميرَ لا يُفهم منه من أول الأمرِ إلا شأنٌ مبْهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهنُ مترقبًا لما يعقُبه فيتمكن عند ورودِه عليه فضل تمكنٍ، فكأنه قيل: إن الشأنَ هذا أي **﴿لا يفلح المجرمون﴾** أي لا ينجُون من محذور ولا يظفَرون بمطلوب، والمرادُ جنسُ المجرمين فيندرج فيه المفتري والمكذب اندراجًا أوليا.

﴿ويعبدون من دون الله﴾ حكايةٌ لجناية أخرى لهم نشأتْ عنها جنايتُهم الأولى معطوفةٌ على قوله تعالى: **﴿وإذا تتلى عليهم﴾** الآية [يونس، الآية ١٥] عطفَ قصةٍ على قصة، ومن دون متعلقٌ بيعبدون ومحلُّه النصبُ على الحالية من فاعله أي متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى تركِ عبادتِه بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاءِ بها وجعلها قرينًا لعبادة الأصنامِ كما يُفصح عنه سياقُ النظمِ الكريم **﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾**

---

(١) في خ: مما.

(٢) زاد في خ: على.

أي ما ليس من شأنه الضرُّ والنفعُ من الأصنام التي هي جمادات، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ، وتقديمُ نفي الضررِ لأن أدنى أحكامِ العبادةِ دفعُ الضررِ الذي هو أولُ المنافع، والعبادةُ أمرٌ حادث مسبوقٌ بالعدم الذي هو مظِنّةُ الضرر فحيث لم تقدِر الأصنامُ على الضرر لم يوجد لإحداث العبادة سببٌ، وقيل: لا يضرّهم إن تركوا عبادتَها ولا ينفعهم إن عبدوها. كان أهلُ الطائفِ يعبُدون اللاتَ وأهلُ مكة عزّىٰ ومَناةَ وهُبَل وإسافًا ونائلةَ ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ عن النضْر بن الحارثِ: إذا كان يوم القيامة يشفع لي اللاتُ. قيل: إنهم كانوا يعتقدون أن المتوليَ لكل إقليم روحٌ معينٌ من أرواح الأفلاكِ فعيّنوا لذلك الروح صنمًا معينًا من الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودُهم ذلك الروحُ ثم اعتقدوا أن ذلك الروحَ يكون عند الإلٰهِ الأعظم مشتغلًا بعبوديته[1]، وقيل: إنهم كانوا يعبدون الكواكبَ فوضعوا لها أصنامًا معينةً واشتغلوا بعبادتها قصدًا إلى عبادة الكواكبِ، وقيل: إنهم وضعوا طلسماتٍ معينةً على تلك الأصنام ثم تقربوا إليها، وقيل: إنهم وضعوا هذه الأصنامَ على صور أنبيائِهم وأكابرِهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيلِ فإن أولئك الأكابرَ يشفعون لهم عند الله تعالى.

﴿قل﴾ تبكيتًا لهم ﴿أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ أي أتخبرونه بما لا وجودَ له أصلًا وهو كونُ الأصنامِ شفعاءَهم عند الله تعالى إذ لولاه لعلمه علامُ الغيوبِ، وفيه تقريعٌ لهم وتهكّمٌ بهم وبِما يدعونه من المُحال الذي لا يكاد يدخُل تحت الصحة والإمكانِ، وقرئ أَتُنْبِئون[2] بالتخفيف وقوله تعالى: ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ حالٌ من العائد المحذوفِ في (يعلم) مؤكدةٌ للنفي، لأن ما لا يوجد فيهما فهو منتفٍ عادة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ عن إشراكهم المستلزم لتلك المقالةِ الباطلةِ أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءَهم عند الله تعالى وقرئَ (تُشركون)[3] بتاء الخطاب على أنه من جملة القولِ المأمورِ به، وعلى الأول هو اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته سبحانه وتعالى.

---

(١) في خ: بعبودته.

(٢) قرأ بها: أبو السمال العدوي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٣٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٠)، وتفسير الرازي (١٧/ ٦٠).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٣٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٥٤)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٤).

[وحدة الإسلام والتوحيد]

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ بيانٌ لأن التوحيدَ والإسلامَ ملةٌ قديمةٌ أجمعت عليها الناسُ[١] قاطبة فطرةً وتشريعًا وأن الشركَ وفروعَه جهالاتٌ ابتدعها الغواةُ خلافًا للجمهور وشقًّا لعصا الجماعةِ، وأما حملُ اتحادِهم على الاتفاق على الضلال عند الفترةِ[٢] واختلافُهم على ما كان منهم من الاتباع والإصرارِ فمما لا احتمالَ له، أي وما كان الناسُ كافةً من أول الأمرِ إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلافٍ، وذلك من عهد آدمَ عليه الصلاة والسلام إلى أن قتل قابيلُ هابيلَ، وقيل: إلى زمن إدريسَ عليه السلام وقيل: إلى زمن نوحٍ عليه السلام وقيل: من حينِ الطوفانِ حينَ لم يذر الله من الكافرين ديارًا إلى أن ظهر فيما بينهم الكفرُ، وقيل: من لدُنْ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام إلى أن أظهر عمْرُو بنُ لحيٍّ عبادةَ الأصنام، فالمرادُ بالناس العربُ خاصةً وهو الأنسب بإيراد الآيةِ الكريمة إثرَ حكايةِ ما حُكي عنهم من الهَنات وتنزيهِ ساحةِ الكبرياء عن ذلك ﴿فاختلفوا﴾ بأن كفرَ بعضُهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كلٌّ من الفريقين الآخرَ لا أن كلاًّ منهما أحدث ملةً على حدة من ملل الكفرِ مخالفةً لملة الآخر، فإن الكلامَ ليس في ذلك الاختلافِ إذ كلٌّ منهما مبطِلٌ حينئذ فلا يُتصوَّر أن يُقضىٰ بينهما بإبقاء المُحقّ وإهلاكِ المبطل، والفاء التعقيبيةُ لا تنافي امتدادَ زمانِ الاتفاقِ إذ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلاف عقيبَ انصرامِ مدةِ الاتفاقِ لا عقيبَ حدوثِ الاتفاق ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخير القضاءِ بينهم أو بتأخير العذابِ الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يومُ الفصل ﴿لقُضي بينهم﴾ عاجلًا ﴿فيما فيه يختلفون﴾ بتمييز الحقِّ من الباطل بإبقاء المحِقِّ وإهلاكِ المبطل. وصيغةُ الاستقبال لحكاية الحالِ الماضيةِ وللدلالة على الاستمرار.

﴿ويقولون﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿ويعبدون﴾ وصيغةُ المضارع لاستحضار صورةِ مقالتهم الشنعاءِ والدلالةِ على الاستمرار والقائلون أهلُ مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آيةً من الآيات التي اقترحوها كأنهم لفرط العتوِّ والفساد ونهايةِ التمادي في المكابرة والعِناد لم يعدّوا البيناتِ النازلةَ عليه عليه الصلاة والسلام من جنس الآياتِ واقترحوا غيرَها مع أنه قد أُنزل عليه من الآيات الباهرةِ والمعجزاتِ المتكاثرةِ ما يضطرهم إلى الانقياد والقبولِ لو كانوا من أرباب العقولِ ﴿فقل﴾ لهم في الجواب ﴿إنما الغيبُ لله﴾ اللامُ للاختصاص العلميِّ

---

(١) في خ: الأمم.

(٢) الفترة هي المدَّة تقع بين بعثة نبيَّين.

دون التكوينيِّ فإن الغيبَ والشهادةَ في ذلك الاختصاصِ سيان والمعنى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازمِ النبوة وعلّقتم إيمانَكم بنزوله من الغيوب المختصّة بالله تعالى لا وقوف لي عليه ﴿فانتظروا﴾ نزولَه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ أي لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمةِ من جحود الآياتِ واقتراحِ غيرِها، وجعلُ الغيبِ عبارةً عن الصارف عن إنزال الآياتِ المقترحةِ يأباه ترتيبُ الأمرِ بالانتظار على اختصاص الغيبِ به تعالى.

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ صِحةً وسَعةً ﴿من بعد ضراءَ مستهم﴾ أي خالطتْهم حتى أحسوا بسوء أثرِها فيهم، وإسنادُ المساسِ إلى الضراء بعد إسنادِ الإذاقةِ إلى ضمير الجلالِة من الآداب القرآنيةِ كما في قوله تعالى: ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٨٠] ونظائرِه. وقيل: سلط الله تعالى على أهل مكةَ القحطَ سبع سنينَ حتى كادوا يهلِكون ثم رحمهم بالحَيا[1] فطفقوا يطعنون في آياته تعالى ويعادون رسولَه عليه الصلاة والسلام ويكيدونه وذلك قوله تعالى: ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾ أي بالطعن فيها وعدمِ الاعتداد بها والاحتيالِ في دفعها، و(إذا) الأولى شرطيةٌ والثانيةُ جوابُها كأنه قيل: فاجأوا وقوع المكرِ منهم. وتنكيرُ (مكرٌ) للتفخيم، و(في) متعلقةٌ بالاستقرار الذي يتعلق به (اللام).

﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي أعجلُ عقوبةً أي عذابُه أسرعُ وصولًا إليكم مما يأتي منكم في دفع الحقِّ، وتسميةُ العقوبةِ بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرِهم وجودًا أو ذكرًا[2] ﴿إن رسلنا﴾ الذين يحفظون أعمالَكم والإضافةُ للتشريف ﴿يكتبون ما تمكرون﴾ أي مكرَكم أو ما تمكُرونه وهو تحقيقٌ للانتقام منهم وتنبيهٌ على أن ما دبروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الحفَظة فضلًا عن العليم الخبير، وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي والجملةُ تعليلٌ من جهته تعالى لأسرعية مكرِه سبحانه غيرُ داخل في الكلام الملقن كقوله تعالى: ﴿ولو جئنا بمثله مددًا﴾ [الكهف: ١٠٩] فإن كتابةَ الرسلِ لما يمكرون من مبادئ بطلانِ مكرِهم وتخلف أثرِه عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف، وتلوينُ الخطاب بصرفه عن رسول الله ﷺ إليهم

---

(١) الحيا: الخصب، والمطر.

(٢) أي أن الآية من قبيل المشاكلة، وذلك لأن حقيقة المكر إخفاء الإضرار وإبرازه في صورة المسالمة، وقد تقدم الحديث بإفاضة عن المشاكلة عند قوله تعالى في سورة البقرة ﴿الله يستهزئ بهم﴾.
ينظر: الإيضاح مع البغية (٤/ ٢٢)، وشروح التلخيص (٤/ ٣٠٩) وما بعدها، والمطول (٤٢٣)، والمفتاح للسكاكي (٤٢٤).

للتشديد في التوبيخ، وقرئ على لفظ الغَيبة[1] فيكون حينئذٍ تعليلًا لما ذُكر أو للأمر.

﴿**هو الذي يسيركم**﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان جنايةٍ أخرى لهم مبنيةٍ على ما مر آنفًا من اختلاف حالِهم حسب اختلافِ ما يعتريهم من السراء والضراءِ، أي يمكّنكم من السير تمكينًا مستمرا عند الملابسة به وقبلها ﴿**في البر**﴾ مشاةً ورُكبانًا وقرئ (ينشُركم)[2] من النشر ومنه قوله عز وجل: ﴿**بشرٌ تنتشِرون**﴾ [الروم، الآية ٢٠] ﴿**والبحر حتى إذا كنتم في الفلك**﴾ أي السفن فإنه جمعُ فَلك على زنة أُسْد جمعُ أَسَد لا على وزن قفل، وغايةُ التسييرِ ليست ابتداءَ ركوبِهم فيها بل مضمونُ الشرطيةِ بتمامه كما ينبئ عنه إيثارُ الكونِ المؤذنِ بالدوام على الركوب المُشعِرِ بالحدوث ﴿**وجرين**﴾ أي السفن ﴿**بهم**﴾ بالذين فيها، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان مما لهم من سوء الحالِ الموجبِ للإعراض عنهم كأنه يُذكر لغيرهم مساوئ أحوالِهم ليعجِّبهم منها ويستدعيَ منه الإنكارَ والتقبيحَ، وقيل: ليس فيه التفاتٌ بل معنى قوله تعالى: ﴿**حتى إذا كنتم في الفُلك**﴾ إذا كان بعضُكم فيها إذ الخطابُ للكل ومنهم المسيَّرون في البر، فالضميرُ الغائبُ عائدٌ إلى ذلك المضافِ المقدر كما في قوله تعالى: ﴿**أو كظلماتٍ في بحرٍ لُجّيٍّ يغشاه**﴾ [النور، الآية ٤٠] أي أو كذي ظلماتٍ يغشاه موجٌ ﴿**بريح طيبة**﴾ ليّنةِ الهُبوب موافقةٍ لمقصدهم ﴿**وفرحوا بها**﴾ بتلك الريح لطيبها وموافقتها ﴿**جاءتها**﴾ جوابُ إذا والضميرُ المنصوبُ للريح الطيبةِ أي تلقتْها واستولتْ عليها من طرف مخالِفٍ لها فإن الهبوبَ على وفقها لا يسمى مجيئًا لريح أخرى عادةً بل هو اشتدادٌ للريح الأولى وقيل: للفُلك والأول أظهرُ لاستلزامه للثاني من غير عكس لأن الهبوبَ على طريقة الريح اللينةِ يعد مجيئًا بالنسبة إلى الفُلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطمَ الأمواجِ الموجبِ لمجيئها من كل مكان، ولأن التهويلَ في بيان استيلائِها على

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وقتادة، ومجاهد، والأعرج، وروح، ويعقوب، ورويس، والحسن، وهارون، والعتكي، وسهل، وزيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٣٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٥٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣١)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٠٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، والحسن، وزيد بن ثابت، وأبو العالية، وزيد بن علي، وعبد الله بن جبير، وأبو عبد الرحمن، وشيبة، وأبو يعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٣٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٥٩)، والتيسير للداني ص (١٢١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٢٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٠).

ما فرحوا به وعلَّقوا به حبالَ رجائِهم أكثرُ ﴿**ريح عاصف**﴾ أي ذاتُ عصْفٍ وقيل: العصُوفُ مختصٌّ بالريح فلا حاجة إلى الفارق وقيل: الريحُ قد يذكّر ﴿**وجاءهم الموج**﴾ في الفلك ﴿**من كل مكان**﴾ أي من أمكنة مجيءِ الموجِ عادةً ولا بُعدَ في مجيئه من جميع الجوانبِ أيضًا إذ لا يجب أن يكون مجيئُه من جهة هبوبِ الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسبابٍ تتفق [له][(١)] ﴿**وظنوا أنهم أحيط بهم**﴾ أي هلَكوا فإن ذلك مثلٌ في الهلاك أصلُه إحاطةُ العدو بالحيّ أو سدّت عليهم مسالكُ الخلاص ﴿**دعوُا الله**﴾ بدلٌ من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساقُ إليه الأذهانُ كأنه قيل: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعوُا الله ﴿**مخلصين له الدين**﴾ من غير أن يشركوا به شيئًا من آلهتهم لا مخصّصين لدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضًا فإنهم بمجرد تخصيصِ الدعاء به تعالى لا يكونون مخلِصين له الدين.

﴿**لئن أنجيتنا**﴾ اللامُ موطئةٌ للقسم على إرادة القولِ أي قائلين: والله لئن أنجيتنا ﴿**من هذه**﴾ الورطة ﴿**لنكونن**﴾ ألبتةَ بعد ذلك أبدًا ﴿**من الشاكرين**﴾ لنعمك التي من جملتها هذه النعمةُ المسؤولةُ وقيل: الجملةُ مفعولُ دعَوا لأن الدعاءَ من قبيل القولِ والأولُ هو الأَولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائِهم على ذلك فقط وفي قوله: ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ من المبالغة في الدِلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظِمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال لنشكُرن ﴿**فلما أنجاهم**﴾ مما غشِيَهم من الكُربة والفاءُ للدلالة على شمول بغيهم لأقطارها، صيغة المضارع للدلالة على سرعة الإجابة ﴿**إذا هم يبغون في الأرض**﴾ أي فاجأوا الفسادَ فيها وسارعوا إليه متراقين في ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيثِ[(٢)]، من قولهم: بغىٰ الجرحُ إذا ترامى في الفساد، وزيادةُ في الأرض للدلالة على شمول بغيهم لأقطارها، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرارِ وقوله تعالى: ﴿**بغير الحق**﴾ تأكيدٌ لما يفيده البغيُ أو معناه أنه بغير الحقِّ عندهم أيضًا بأن يكون ذلك ظلمًا ظاهرًا لا يخفى قبحُه على أحد كما في قوله تعالى: ﴿**ويقتُلون النبيين بغير الحق**﴾ [البقرة، الآية ٦١] وأما ما قيل من أنه للاحتراز عن البغي بحق كتخريب الغزاةِ ديارَ الكفرة وقطعِ أشجارِهم وإحراق زرعِهم[(٣)] فلا يساعده النظمُ

(١) سقط في خ.
(٢) العيث: الفساد.
(٣) في خ: زروعهم.

الكريم لابتنائه على كون البغي بمعنى إفسادِ صورةِ الشيء وإبطالِ منفعتِه دون ما ذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين.

﴿**يا أيها الناس**﴾ توجيهٌ للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغةِ في الوعيد ﴿**إنما بغيكم**﴾ الذي تتعاطَوْنه وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿**على أنفسكم**﴾ خبرُه أي عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظُنَّ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿**متاعَ الحيوة الدنيا**﴾ بيانٌ لكون ما فيه من المنفعة العاجلةِ شيئًا غيرَ معتدٍّ به سريعَ الزوال دائمَ الوبال، وهو نصبٌ على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل مقدر بطريق الاستئنافِ أي تتمتعون متاعَ الحياةِ الدنيا وقيل: على أنه مصدرٌ وقع موقِعَ الحال أي متمتعين بالحياة الدنيا والعاملُ هو الاستقرارُ الذي في الخبر لا نفسُ البغي لأنه يؤدي إلى الفصل بين المصدرِ ومعمولِه بالخبر ولا يخبر عن الموصولِ إلا بعد تمامِ صلتِه وأنت خبيرٌ بأنه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحال تمتعِهم بالحياة الدنيا معنىً يعتدّ به، وقيل: على أنه ظرفُ زمانٍ نحو مقدمَ الحاجِّ أي زمنَ متاعِ الحياةِ الدنيا وفيه ما مر بعينه، وقيل: على أنه مفعولٌ لفعل دل عليه المصدرُ أي تبغون متاعَ الحياة الدنيا، ولا يخفى أنه لا يدل على البغي بمعنى الطلَب وجعلُ المصدر أيضًا بمعناه مما يُخلُّ بجزالة النظمِ الكريم لأن الاستئنافَ لبيان سوءِ عاقبةِ ما حُكيَ عنهم من البغي المفسّر بالإفسادِ المفْرِطِ اللائقِ بحالهم فأيُّ مناسبةٍ بينه وبين البغي بمعنى الطلب؟ وجعلُ الأول أيضًا بمعناه مما يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيلِ عنه وقيل: على أنه مفعولٌ له أي لأجل متاعِ الحياة الدنيا والعاملُ ما ذكر من الاستقرار، وفيه أن المعلّلَ بما ذُكر نفسُ البغي لا كَونُه على أنفسهم.

وقيل: العاملُ فيه فعلٌ مدلولٌ عليه بالمصدر أي تبغون لأجل متاعِ الحياةِ الدنيا على أن الجملةَ مستأنفةٌ، وقيل: على أنه مفعولٌ صريحٌ للمصدر وعلى أنفسكم ظرفٌ لغوٌ متعلقٌ به.

والمرادُ بالأنفس الجنسُ والخبرُ محذوفٌ لطول الكلام، والتقديرُ إنما بغيُكم على أبناء جنسِكم متاعَ الحياة الدنيا محذورٌ أو ظاهرُ الفساد أَو نحوُ ذلك، وفيه ما مر من ابتنائه على ما يليق بالمقام من كون البغي بمعنى الطلب. نعم لو جُعل نصبُه على العلة أي إنما بغيُكم على أبناء جنسِكم لأجل متاعِ الحياةِ الدنيا محذورٌ كما اختاره بعضُهم لكان له وجهٌ في الجملة لكن الحقَّ الذي تقتضيه جزالةُ التنزيلِ إنما هو الأولُ.

وقرئ (متاعُ)[1] بالرفع على أنه الخبرُ والظرفُ صلةٌ للمصدر أو خبرٌ ثانٍ لمبتدإٍ

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٠)، =

محذوفٍ أي هو متاعُ إلخ، كما في قوله تعالى: **﴿إلا ساعةً من نهار بلاغٌ﴾** [الأحقاف: ٣٥] أي هذا بلاغٌ فالمرادُ بـ (أنفسهم) على الوجه الأول أبناءُ جنسِهم وإنما عبّر عنهم بذلك هزا لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك إيثارِ التمتعِ المذكورِ على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لأن كونَ بغيهم وَبالًا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حُكي عنهم ولم يُخبَر به بعدُ حتى يُجعلَ من تتمة الكلام ويجعل كوْنه متاعًا مقصودَ الإفادةِ، على أن عنوانَ كونِه وبالًا عليهم قادحٌ في كونه متاعًا فضلًا عن كونه من مبادي ثبوتِه للمبتدأ كما هو المتبادرُ من السَّوْق.

وأما كونُ البغي على أبناء الجنسِ فمعلومُ الثبوتِ عندهم ومتضمنٌ لمبادئ التمتعِ من أخذ المالِ والاستيلاءِ على الناس وغيرِ ذلك.

وأما على الوجهين الأخيرين فلا موجبَ للعدول عن الحقيقة فإن المبتدأَ إما نفسُ البغي أو الضميرُ العائدُ إليه من حيث هو هو لا من حيث كونُه وبالًا عليهم كما في صورة كونِ الظرفِ صلةً للمصدر فتدبر.

وقرئ (متاعًا الحياةَ الدنيا)[١]، أما نصبُ متاعًا فعلى ما مر وأما نصبُ الحياةَ فعلى أنه بدلٌ من متاعًا بدلَ اشتمالٍ، وقيل: على أنه مفعولٌ به لمتاعًا إذا لم يكن انتصابُه على المصدرية لأن المصدرَ المؤكدَ لا يعمل.

عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تمكُرْ ولا تُعِن ماكرًا ولا تبغِ ولا تُعن باغيًا ولا تنكُث ولا تُعِن ناكثًا**»[٢] وكان يتلوها وقال محمد بن كعب: ثلاثٌ من كنّ فيه كنّ عليه:

= والتبيان للطوسي (٥/ ٣٦١)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وتفسير الطبري (١١/ ٧١)، والحجة لابن خالويه ص (١٨١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٠).

(١) قرأ بها: ابن أبي إسحاق.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٦)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق» ص (١/ ٢٥٢) رقم (٧٢٥)، من طريق يونس بن يزيد عن الزهري مرسلًا قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تعن ماكرًا؛ فإن الله يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾، ولا تبغ ولا تعن باغيًا، فإن الله تعالى يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾، ولا تنكث ولا تعن ناكثًا فإن الله تعالى يقول: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾.
وأخرج الحاكم بعضه في مستدركه (٢/ ٣٣٨) عن عيينة بن عبد الرحمن الغطفاني سمعت أبي يحدث عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تعن باغيًا، فإن الله يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾.
وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه أ.هـ. وعن الحاكم أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٨٥) رقم (٦٦٧١). =

البغي والنكث والمكر قال تعالى: ﴿**إنما بغيُكم على أنفسكم**﴾ [يونس: ٢٣] ﴿**وما يمكرون إلا بأنفسهم**﴾ [الأنعام: ١٢٣] ﴿**فمن نكثَ فإنما ينكث على نفسه**﴾ [الفتح: ١٠] وعنه عليه الصلاة والسلام: «**وأسرعُ الخير ثوابًا صلةُ الرحم وأعجلُ الشر عقابًا البغيُ واليمينُ الفاجرة**»[1] وروي (ثنتان يعجّلهما الله تعالى في الدنيا البغيُ وعقوقُ الوالدين)[2] وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (لو بغىٰ جبلٌ على جبل لدُكّ الباغي)[3].

= ومن طريق ابن المبارك روا ه الثعلبي في تفسيره في سورة فاطر؛ كما في تخريج الكشاف للزيعلي (٢/ ١٢١).

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ١٠٢٧) برقم (١٧٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨): كتاب الزهد: باب البغي، حديث (٤٢١٢)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ١٠-١١) رقم (٤٥١١٢) عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين به.

وله شاهد من حديث أبي بكرة.

أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٦): كتاب الأدب: باب في النهي عن البغي، حديث (٤٩٠٢)، والترمذي (٤/ ٦٦٤-٦٦٥) كتاب صفة القيامة، حديث (٢٥١١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨): كتاب الزهد: باب البغي، حديث (٤٢١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٦) و (٤/ ١٦٢-١٦٣)، والبخاري في الأدب المفرد ص(٢٨) برقم (٦٧)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ا هـ. كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكرة به.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٦٦)، وأبو نعيم في أخبار أصفهان (٦/ ٤٤٣)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٤١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ١٣١) من حديث عبد الله بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ، وبنحوه أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٥٩١)، وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٢٢)، وعزاه إلى إسحاق بن راهويه، والطبراني في معجمه.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٥/ ٢٩١) رقم (٦٦٩٣) عن الأصم عن محمد بن إسحاق قال: «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكًا».

قال البيهقي: تابعه فطر عن أبي يحيى القتات. وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٢/ ٧٧٧) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لو بغى جبل على جبل لخر الجبل الذي بغى عليه.

قال ابن عدي: هذا حديث باطل عن ابن أبي ذئب لم يروه غير إسماعيل، وكان يحدث عن الثقات بالبواطيل، وقال ابن حبان: كان يروي الموضوعات عن الثقات لا يحل الرواية عنه.أ.هـ.

وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية أيضا (٢/ ٧٧٧) عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكًا.

قال أبو حاتم: كتبت عنه نحو خمسمائة حديث كلها موضوعة، ولعله قد وضع على الأئمة أكثر من ثلاثة آلاف حديث.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٤٤) وعزاه إلى ابن مردويه عن كل من ابن عباس وابن عمر- رضي الله عنهما. =

﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ عطفٌ على ما مر من الجملة المستأنفةِ المقدرةِ كأنه قيل: تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا ثم ترجِعون إلينا وإنما غُيّر السبكُ إلى الجملة الاسمية مع تقديم الجارِّ والمجرور للدلالة على الثبات والقصرِ ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا على الاستمرار من البغي وهو وعيدٌ بالجزاء والعذابِ كقول الرجل لمن يتوعّده: سأخبرك بما فعلت، وفيه نكتةٌ خفيةٌ مبنيةٌ على حِكمة أبيةٍ وهي أن كلَّ ما يظهر في هذه النشأةِ من الأعيان والأعراضِ فإنما يظهر بصورة مغايرةٍ لصورته الحقيقيةِ التي بها يظهر في النشأة الآخرة فإن المعاصيَ مثلًا سمومٌ قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوسُ العصاةِ وكذا الطاعاتُ مع كونها أحسنَ الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهةٍ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**حُفت الجنةُ بالمكارة وحفّت النارُ بالشهوات**»[1] فالبغي في هذه النشأة وإن برز بصورة تشتهيها البغاةُ وتستحسنها الغواةُ لتمتعهم به من حيث أخذُ المالِ والتشفّي من الأعداء ونحوُ ذلك لكن ذلك ليس بتمتع في الحقيقة بل هو تضرّر من حيث لا يحتسبون وإنما يظهرُ لهم ذلك عند إبرازِ ما كانوا يعملونه من البغي بصورته الحقيقيةِ المضادّةِ لِما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المرادُ بالتنبئة المذكورةِ والله سبحانه وتعالى أعلم.

[شأن الدنيا]

﴿إنما مثل الحيوة الدنيا﴾ كلامٌ مستأنف مسوقٌ[2] لبيان شأنِ الحياةِ الدنيا وقصرِ مدة التمتعِ بها وقربِ زمانِ الرجوع الموعودِ، وقد شبِّه حالُها العجيبة الشأنِ البديعةُ المثالِ المنتظمةُ لغرابتها في سلك الأمثالِ في سرعة تقضِّيها وانصرامِ نعيمها غِبَّ إقبالِها واغترارِ الناسِ بها بحال ما على الأرض من أنواع النباتِ في زوال رونقِها ونضارتِها فجأةً وذهابِها حُطامًا لم يبق لها أثرٌ أصلًا بعد ما كانت غضّةً طرية قد التف بعضُها ببعض وزُيِّنت الأرضُ بألوانها وتقوّت بعد ضعفِها بحيث طمِع الناسُ وظنوا أنها سلِمت من الجوائح، وليس المشبَّهُ به ما دخله الكافُ في قوله عز وجل: ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ بل ما يفهم من الكلام فإنه من التشبيه

= وأخرجه ابن المبارك في كتاب «البر والصلة»؛ والبخاري في الأدب المفرد؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٣) عن ابن عباس موقوفًا.

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ١١٦) كتاب الرقاق، باب: حجبت النار بالشهوات، برقم (٦٤٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤) أول كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في خ: سيق.

المركب[١] ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ من البقول والزروعِ والحشيش ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ جُعلت الأرضُ في تزينها بما عليها من أصناف النباتاتِ وأشكالِها وألوانِها المختلفة المونقةِ آخذةً زخْرُفَها على طريقة التمثيلِ بالعروس التي قد أخذت من ألوان الثيابِ والزَّيْن فتزيّنت بها ﴿وازينت﴾ أصله (تزينت) فأدغم، وقرئ على الأصل[٢] وقرئ و(أزْينت)[٣] كأغيلت من غير إعلالٍ والمعنى صارت ذاتَ زينةٍ و(ازْيانَّت)[٤] كابياضّت ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ متمكنون من حصدها ورفعِ غَلّتها ﴿أتاها أمرنا﴾ جوابُ إذا أي ضرب زرعَها ما يجتاحه من الآفات والعاهات ﴿ليلًا أو نهارًا فجعلناها﴾ أي زرعَها وسائرَ ما عليها ﴿حصيدًا﴾ أي شبيهًا بما حُصد

---

(١) يذكر البقاعي فيما سبق هذا التمثيل فيقول: (ولما كان السياق لإثبات البعث وتخويفهم به، وكانوا ينكرونه، ويعتقدون بقاء الدنيا، وأنها إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع دائمًا بلا انقضاء، فهي دار يرضى بها فيطمأن إليها، وللتنفير من البغي، والتعزز بغير الحق، وكانت الأمثال أجلى لمحال الإشكال، قال تعالى ممثلاً لمتاعها، قاصرًا أمرها على الفناء؛ ردًا عليهم في اعتقادهم دوامها من غير بعث ﴿إنما مثل﴾.

فقد شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال عليها بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطامًا بعدما التف وتكاثف، وزين الأرض بخضرته ورقيقه، والغرض من هذا التمثيل: تقرير حال الدنيا في ذهن السامع، وذلك لأن القرآن الكريم عرض لتصويرها في عدة مواضع، وقد أشاد الإمام عبد القاهر بهذا التشبيه، وبين أنه مركب من عشر جمل؛ لأنه أوغل في كونه عقليًا محضًا، وقال الخطيب القزويني قبل الآية: إنه كلما كان التركيب من أمور أكثر كان التشبيه أبعد وأبلغ، وقد بينت عناصر التشبيه على المبالغة ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ «فالتف بسببه وخالط بعضه بعضًا من كثرته وتكاثفه، أو نجع في النبات حتى روى ورف، وعلى هذا كان حقه فاختلط بنبات الأرض، لكن لما كان كل من المختلطين موصوفًا بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته.

ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٩/ ١٠١)، والكشاف (٢/ ٢٣٣)، وأسرار البلاغة (٩٦)، والإيضاح (١٤٥).

(٢) قرأ بها: المطوعي، وزيد بن علي، والأعمش، وابن مسعود، وأبي بن كعب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٣).

(٣) قرأ بها: الحسن، والأعرج، وأبو العالية، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبد الرحمن، وابن يعمر، والشعبي، وقتادة، ونصر بن عاصم، وابن هرمز، وعيسى الثقفي، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٤٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٣، ١٤٤)، وتفسير الطبري (١١/ ٧٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٣)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٠٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١١).

(٤) قرأ بها: أبو عثمان النهدي، وأشياخ عوف بن أبي جميلة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٦)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٧).

من أصله ﴿كأن لم تغنَ﴾ كأن لم يغنَ زرعُها والمضافُ محذوفٌ للمبالغة وقرئ[1] بتذكير الفعل ﴿بالأمس﴾ أي فيما قبلُ بزمان قريبٍ فإن الأمسَ مثلٌ في ذلك كأنه قيل: لم تغنَ آنفًا ﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك التفصيلِ البديعِ ﴿نفصل الآيات﴾ أي الآيات القرآنيةَ التي من جملتها هذه الآيةُ المنبهةُ على أحوال الحياةِ الدنيا أي نوضّحها ونبيِّنها ﴿لقوم يتفكرون﴾ في تضاعيفها ويقفون على معانيها، وتخصيصُ تفصيلِها بهم لأنهم المنتفعون بها، ويجوز أن يرادَ بالآيات ما ذُكر في أثناء التمثيلِ من الكائنات والفاسداتِ وبتفصيلها تصريفُها على الترتيب المحكيِّ إيجادًا وإعدامًا فإنها آياتٌ وعلاماتٌ يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياةِ الدنيا حالًا ومآلًا.

﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ ترغيبٌ للناس في الحياة الأخرويةِ الباقيةِ إثرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أي يدعو الناسَ جميعًا إلى دار السلامةِ عن كل مكروهٍ وآفةٍ وهي الجنةُ، وإنما ذُكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معَرْضًا للآفات أو إلى دار الله تعالى وتخصيصُ الإضافةِ التشريفية بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو إلى دار يسلّم الله أو الملائكةُ فيها على من يدخلها أو يسلم بعضُهم على بعض ﴿ويهدي من يشاء﴾ هدايتَه منهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ موصلٍ إليها وهو الإسلامُ والتزودُ بالتقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيصِ الهدايةِ بالمشيئة دليلٌ على أن الأمرَ غيرُ الإرادة وأن من أصر على الضلالة لم يُرِد الله رشده.

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟

---

(١) قرأ بها: الحسن، وقتادة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٤)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٢٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٣).

أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

﴿للذين أحسنوا﴾ أي أعمالَهم أي عمِلوها على الوجه اللائقِ وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزمُ لحسنها الذاتي، وقد فسره رسولُ الله ﷺ بقوله: «**أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك**»(١) **﴿الحسنى﴾** أي المثوبةُ الحسنى **﴿وزيادةٌ﴾** أي ما يزيد على تلك المثوبة تفضلًا لقوله عز اسمه: **﴿ويزيدُهم من فضله﴾** [النور: ٣٨] وقيل: الحسنى مثلُ حسناتِهم والزيادةُ عشرُ أمثالِها إلى سبعمائة ضعفٍ وأكثر، وقيل: الزيادةُ مغفرةٌ من الله ورِضوانٌ، وقيل: الحُسنى الجنةُ والزيادة اللقاء **﴿ولا يرهق وجوههم﴾** أي لا يغشاها **﴿قتر﴾** غبرةٌ فيها سوادٌ **﴿ولا ذلة﴾** أي أثرُ هوانٍ وكسوفُ بالٍ، والمعنى لا يرهقهم ما يرهَق أهلَ النار أو لا يرهَقُهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوءِ الحالِ، والتنكيرُ للتحقير أيْ شيءٌ منهما والجملةُ مستأنفةٌ لبيان أمنِهم من المكاره إثرَ بيان فوزِهم بالمطالب، والثاني وإن اقتضى الأولَ إلا أنه ذُكر إذكارًا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته، وتقديمُ المفعولِ على الفاعلِ للاهتمام ببيان أن المصونَ من الرهَق

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٥٣) كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، برقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم (٥/ ٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أشرفُ أعضائِهم وللتشويق إلى المؤخر فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مترقبةً لوروده فعند ورودِه عليها يتمكن عندها فضلُ تمكن ولأن في الفاعل ضربَ تفصيلٍ كما في قوله تعالى: ﴿**يخرج منهما اللؤلؤُ والمَرْجان**﴾ [الرحمن ٢٢] وقوله عز وجل: ﴿**وجاءك في هذه الحقُّ وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾ [هود: ١٢٠].

﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار اتصافِهم بالصفات المذكورةِ، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعدِ للإيذان بعلو درجتِهم وسموّ طبقتِهم أي أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلةِ الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره ﴿**أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ بلا زوالٍ دائمون بلا انتقال.

﴿**والذين كسبوا السيئات**﴾ أي الشركَ والمعاصيَ وهو مبتدأٌ بتقدير المضافِ خبرُه قوله تعالى: ﴿**جزاء سيئة بمثلها**﴾ أي جزاءُ الذين كسبوا السيئاتِ أن يجازىٰ سيئةً واحدةً بسيئة مثلها، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة، وتغييرُ السبكِ حيث لم يقل: وللذين كسبوا السيئاتِ السوآى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنائي والتبايُن، وإيرادُ الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعِهم وبسبب جنايتِهم على أنفسهم، أو الموصولُ معطوفٌ على الموصول الأولِ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها كقولك: في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ وفيه دلالةٌ على أن المرادَ بالزيادة الفضلُ ﴿**وترهقهم ذلة**﴾ وأيُّ ذلةٍ كما ينبئ عنه التنوينُ التفخيميُّ، وفي إسناد الرَهق إلى أنفسهم دون وجوهِهم إيذانٌ بأنها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم جميعًا وقرئ (يرهَقهم)[1] بالياء التحتانية.

﴿**ما لهم من الله من عاصم**﴾ أي لا يعصِمُهم أحدٌ من سُخطه وعذابِه تعالى أو ما لهم من عنده تعالى مَن يعصمهم كما يكون للمؤمنين، وفي نفي العاصمِ من المبالغة في نفي العصمةِ ما لا يخفى، والجملةُ مستأنفةٌ أو حال من ضمير ترهَقهم ﴿**كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل**﴾ لفرط سوادِها وظلمتِها ﴿**مظلمًا**﴾ حالٌ من الليل والعاملُ فيه أغشيت لأنه العاملُ في قِطَعًا وهو موصوفٌ بالجار والمجرور والعاملُ في الموصوف عاملٌ في الصفة، أو معنى الفعلِ في (مِنَ الليل) وقرئ (قِطْعًا)[2] بسكون

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٤٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، والكسائي، ويعقوب، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٠)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٦٦)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وتفسير الطبري (١١/ ٧٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٨١)، والحجة لأبي زرعة ص (١٣٣)، السبعة لابن مجاهد ص (٣٢٥).

الطاء وهو طائفة من الليل قال: [الخفيف]

افتحي الباب وانظُري في النجوم كم علينا من قِطْع ليلٍ بهيمِ[١]

فيجوزُ كونُ مظلمًا صفةً له أو حالًا منه وقرئ (كأنما تغشىٰ وجوهَهم قِطعٌ من الليل مظلمٌ)[٢]، والجملةُ كما قبلها مستأنفةٌ أو حال من ضمير ترهقهم.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة **﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** وحيث كانت الآيةُ الكريمةُ في حق الكفارِ بشهادة السياقِ والسباقِ لم يكن فيها تمسك للوعيدية.

﴿ويوم نحشرهم﴾ كلامٌ مسأنفٌ مسوقٌ لبيان بعضٍ آخرَ من أحوالهم الفظيعةِ، وتأخيرُه في الذكر مع تقدمه في الوجود على بعض أحوالِهم المحكيةِ سابقًا للإيذان باستقلال كلٍّ من السابق واللاحقِ بالاعتبار، ولو روعيَ الترتيبُ الخارجيُّ لعُدَّ الكلُّ شيئًا واحدًا كما مر في قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله، ويومَ منصوبٌ على المفعولية بمضمر أي أنذرْهم أو ذكرْهم، وضمير نحشُرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئاتِ لأنه المتبادرُ من قوله تعالى: **﴿جميعًا﴾** ومن أفراد الفريقِ الثاني بالذكر في قوله تعالى: **﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾** أي نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخَهم وتهديدَهم على رؤوس الأشهادِ أفظعُ والإخبارُ بحشر الكلِّ في تهويل اليومِ أدخل، وتخصيصُ وصفِ إشراكهم بالذكر في حيز الصلةِ من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخِ والتقريعِ عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيئاتِهم.

وقيل: للفريق الثاني خاصةً فيكون وضعُ الموصولِ موضعَ الضميرِ لما ذكر آنفًا **﴿مكانكم﴾** نُصب على أنه في الأصل ظرفٌ لفعيل أقيم مُقامه لا على أنه اسمُ فعل، وحركتُه حركةُ بناءٍ كما هو رأيُ الفارسي[٣]، أي الزَموه حتى تنظُروا ما يفعل بكم **﴿أنتم﴾** تأكيدٌ للضمير المنتقل إليه من عامله لسده مسدَّه **﴿وشركاؤكم﴾** عطفٌ عليه وقرئ[٤] بالنصب على أن الواوَ بمعنى مع **﴿فزيلنا﴾** من زيّلت الشيء مكانه أُزيِّله أي

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (قطع)، وتاج العروس (قطع)، وديوان الأدب (١/ ١٨٨)، وكتاب العين (١/ ١٣٩).

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٠).

(٣) أي أبي علي الفارسي، النحوي الشهير.

(٤) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٥).

أزلتُه، والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرئ[١] (فزايلنا) بمعناه نحو كلّمتُه وكالمته وهو معطوفٌ على (نقول)، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على التحقق المورِّثِ لزيادة التوبيخِ والتحسيرِ، والفاءُ للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيبَ الخطابِ من غير مُهلةٍ إيذانًا بكمال رخاوةِ ما بين الفريقين من العلاقة والوصلةِ أي ففرقنا.

﴿بينهم﴾ وقطّعنا أقرانَهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبَدةِ فقط لعدم احتمالِ شمولِ الشركاءِ للشياطين كما سيجيء فخابت آمالُهم وانصرمت عُرى أطماعِهم وحصل لهم اليأسُ الكليُّ من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم، والحالُ وإن كانت معلومةً لهم من حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب لكن هذه المرتبةَ من اليقين إنما حصلت عند المشاهدةِ والمشافهةِ، وقيل: المرادُ بالتزييل التفريقُ الحسيُّ أي فباعدنا بينهم بعد الجمعِ في الموقفِ وتبرُّؤ شركائِهم منهم ومن عبادتهم كما في قوله تعالى: **﴿أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا﴾** [غافر: ٧٣] فالواو حينئذ في قوله تعالى: **﴿وقال شركاؤهم﴾** حاليةٌ بتقدير كلمةِ قد عند من يشترطها وبدونه عند غيرِه ولا عاطفة كما في التفسير الأول لاستدعاء المحاورةِ المحاضرةَ الفائتةَ بالمباعدة وليس في ترتيب التزييلِ بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكانِ ما في ترتيبه عليه بالمعنى الأول من النكتة المذكورةِ ليُصار لأجل رعايتِها إلى تغيير الترتيبِ الخارجيِّ فإن المباعدةَ بعد المحاورةِ حتمًا، وأما قطعُ الأقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤُه حاصلٌ من حين الحشر، بل بعضُ مراتبه حاصلٌ قبله أيضًا وإنما الحاصلُ عند المحاورةِ أقصاها كما أشير إليه اعتدادًا بما في تقديمه من التغيير لا سيما مع رعاية ماذكر من النكتة، ولو سلم تأخرُ جميعِ مراتبِه عن المحاورة فمراعاةُ تلك النكتةِ كافيةٌ في استدعاء تقديمِه عليها ويجوز أن تكون حاليةً على هذا التقديرِ أيضًا، والمرادُ بالشركاء قيل: الملائكةُ وعُزيرٌ والمسيحُ وغيرُهم ممن عبدوه من أولي العلم ففيه تأييدٌ لرجوع الضميرِ إلى الكل.

وقولهم: **﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾** عبارةٌ عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءَهم وشياطينَهم الذين أغوَوْهم لأنها الآمرةُ لهم بالإشراك دونهم كقولهم: **﴿سبحانك أنت وليُّنا من دونهم﴾** [سبأ، الآية ٤١] الآية، وقيل: الأصنامُ يُنطِقها الله الذي أنطق كلَّ شيء فتُشافِهُهم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقعونها

---

(١) ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٥)، والمعاني للفراء (١/ ٤٦٢).

﴿فكفى بالله شهيدًا بيننا وبينكم﴾ فإنه العليمُ الخبير **﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾** أي عن عبادتكم لنا، وتركهُ للظهور وللإيذان بكمال الغفلةِ عنها، والغفلةُ عبارةٌ عن عدم الارتضاءِ وإلا فعدمُ شعورِ الملائكةِ بعبادتهم لهم غيرُ ظاهرٍ وهذا يقطع احتمالَ كونِ المرادِ بالشركاء الشياطينَ كما قيل فإن ارتضاءَهم بإشراكهم مما لا ريب فيه وإن لم يكونوا مُجْبِرين لهم على ذلك و(إنْ) مخففةٌ من إنّ واللامُ فارقة.

﴿هنالك﴾ أي في ذلك المقام الدهِش، أو في ذلك الوقت على استعارة ظرفِ المكان للزمان **﴿تبلو﴾** أي تختبر وتذوق **﴿كل نفس﴾** مؤمنةً كانت أو كافرةً سعيدةً أو شقية **﴿ما أسلفت﴾** من العمل وتعاينه بكُنهه مستتبِعًا لآثاره من نفع أوضُرٍّ وخيرٍ أو شر، وأما ما علِمتْ من حالها من حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجملٌ وقرئ[١] (نبلو) بنونِ العظمةِ ونصبِ كلٍّ وإبدالِ ما منه أي نعاملها معاملةَ من يبلوها ويتعرّفُ أحوالَها من السعادة والشقاوةِ باختبار ما أسلفت من العمل، ويجوزُ أن يُراد نُصيب بالبلاء أي العذاب كلَّ نفسٍ عاصيةٍ بسبب ما أسلفت من الشر فيكون ما منصوبةً بنزع الخافضِ وقرئ[٢] (تتلو) أي تتبع لأن عملَها هو الذي يهديها إلى طريق الجنةِ أو إلى طريق النارِ، أو تقرأ في صحيفة أعمالِها ما قدمت من خير أو شر **﴿وردوا﴾** الضمير لـ (الذين أشركوا) على أنه معطوفٌ على (زيلنا) وما عطف عليه قوله عز وجل: **﴿هنالك تبلو﴾** إلخ، اعتراضٌ في أثناء الحكايةِ مقرّرٌ لمضمونها **﴿إلى الله﴾** أي جزائه وعقابه **﴿مولاهم﴾** ربِّهم **﴿الحق﴾** أي المتحقق الصادِق ربوبيتُه لا ما اتخذوه باطلًا، وقرئ[٣] (الحقَّ) بالنصب على المدح كقولهم: الحمدُ لله أهلَ الحمد أو على المصدر المؤكد.

﴿وضل عنهم﴾ وضاع أي ظهر ضَياعُه وضلالُه لا أنه كان قبل ذلك غيرَ ضالٍ، أو ضل في اعتقادهم أيضًا **﴿ما كانوا يفترون﴾** من أن آلهتَهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهةٌ، هذا وجُعل الضميرُ في رُدوا للنفوسِ المدلولِ عليها بكل نفسٍ على

---

(١) قرأ بها: عاصم.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٥)، وتفسير الرازي (١٧/ ٨٥).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وروح، وزيد بن علي، ويعقوب، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٦٩)، وتفسير الطبري (١١/ ٧٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٥).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٥).

أنه معطوفٌ على تبلو وأن العدولَ إلى الماضي للدلالة على التحقق والتقرر، وأن إيثارَ صيغةِ الجمعِ للإيذان بأن ردّهم إلى الله يكون على طريقة الاجتماعِ، لا يلائمه التعرُّض لوصف الحقيةِ في قوله تعالى: ﴿مولاهم الحقِّ﴾ فإنه للتعريضِ بالمردودين حسبما أشير إليه، ولئن اكتُفيَ فيه بالتعريض ببعضهم أو حُمل (الحقِّ) على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عز وجل: ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ مما لا مجال فيه للتدارك قطعًا، فإن ما فيه من الضمائر الثلاثةِ للمشركين فليزم التفكيكُ حتمًا وتخصيصُ (كلُّ نفس) بالنفوس المشتركةِ مع عموم البلوى للكل يأباه مقامُ تهويلِ المقام والله تعالى أعلم.

﴿قل﴾ أي لأولئك المشركين الذين حُكيت أحوالُهم وبيّن ما يؤدي إليه أعمالُهم احتجاجًا على حقية التوحيدِ وبُطلانِ ما هم عليه من الإشراك ﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي منهما جميعًا فإن الأرزاقَ تحصُل بأسباب سماوية وموادَّ أرضيةٍ أو من كل واحدة منهما توسعةً عليكم وقيل: مِنْ لبيان كلمة مَنْ على حذف المضافِ أي مِنْ أهل السماء والأرض ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أم منقطعةٌ وما فيها من كلمة بل للإضراب عن الاستفهام الأولِ لكن لا على طريقة الإبطالِ بل على وجه الانتقالِ وصرفِ الكلام عنه إلى استفهام آخرَ تنبيهًا على كفايته فيما هو المقصودُ، أي من يستطيع خلقَهما وتسويتَهما على هذه الفطرةِ العجيبةِ أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالِهما من أدنى شيءٍ يصيبهما ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ أي ومن يحيي ويميت أو ومن ينشئ الحيوانَ من النطفة والنطفةَ من الحيوان ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أي ومن يلي تدبيرَ أمرِ العالم جميعًا، وهو تعميمٌ بعد تخصيصِ بعضِ ما اندرج تحته من الأمور الظاهرةِ بالذكر ﴿فسيقولون﴾ بلا تلعثم ولا تأخير ﴿الله﴾ إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحِه، والخبرُ محذوف أي الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيرُه.

﴿فقل﴾ عند ذلك تبكيتًا لهم ﴿أفلا تتقون﴾ الهمزةُ لإنكار عدم الاتقاء بمعنى إنكارِ الواقع كما في أتضرب أباك؟ لا بمعنى إنكار الوقوع في أأضربُ أبي؟ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظمُ الكريمُ أي أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسَكم عذابَه الذي ذَكر لكم بما تتعاطَونه من إشراككم به ما لا يشاركه في شيء مما ذُكر من خواصّ الإلٰهية.

﴿فذلكم﴾ فذلكةٌ لما تقدم أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورةِ وهو مبتدأٌ وقوله تعالى: ﴿الله﴾ خبرُه وقوله تعالى: ﴿ربكم﴾، أي مالكُكم ومتولي أمورِكم

على الإطلاق، بدلٌ منه أو بيان له، وقوله تعالى: **﴿الحق﴾** صفةٌ له أي ربكم الثابتُ ربوبيتُه والمتحققُ ألوهيتُه تحققًا لا ريب فيه **﴿فماذا﴾** يجوز أن يكون الكلُّ اسمًا واحدًا قد غلب فيه الاستفهامُ على اسم الإشارةِ وأن يكون ذا موصولًا بمعنى الذي أي ما الذي **﴿بعد الحق﴾** أي غيرُه بطريق الاستعارةِ، وإظهارُ الحق إما لأن المرادَ به غيرُ الأول وإما لزيادة التقريرِ ومراعاةِ كمالِ المقابلةِ بينه وبين الضلالِ، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى الوقوعِ ونفيِه أي ليس غيرُ الحق **﴿إلا الضلال﴾** الذي لا يختاره أحدٌ فحيث ثبت أن عبادةَ من هو منعوتٌ بما ذكر من النعوت الجميلةِ حقٌّ ظهر أن ما عداها من عبادة الأصنامِ ضلالٌ محضٌ إذ لا واسطة بينهما، وإنما سُميت ضلالًا مع كونها من أعمال الجوارحِ باعتبار ابتنائِها على ما هو ضلالٌ من الاعتقاد، والرأيُ هذا على تقدير كونِ الحقِّ عبارةً عن التوحيد، وأما على تقدير كونِه عبارةً عن الأول فالمرادُ بالضلال هو الأصنامُ لا عبادتُها، والمعنى فماذا بعد الربِّ الحقِّ الثابتِ ربوبيّتُه إلا الضلالُ أي الباطلُ الضائعُ المضمحلُّ، وإنما سمي بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الضلالِ والضياعِ وهذا أنسبُ بقوله تعالى: **﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** على التفسير الثاني.

﴿فأنى تصرفون﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الواقعِ واستبعادِه والتعجيبِ منه، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى نفس الفعلِ لأن كلَّ موجودٍ لا بد من أن يكون وجودُه على الحال من الأحوال قطعًا فإذا انتفىٰ جميعُ أحوالِ وجودِه فقد انتفى وجودُه على الطريق البرهاني كما مر مرارًا، والفاءُ لترتيب الإنكارِ على ما قبله أي كيف تُصرفون من الحق الذي لا محيدَ عنه وهو التوحيدُ إلى الضلال عن السبيل المستبينِ وهو الإشراكُ وعبادةُ الأصنام أو من عبادة ربكم الحقِّ الثابتِ ربوبيتُه إلى عبادة الباطلِ الذي سمعتم ضلالَه وضياعَه في الآخرة، وفي إيثار صيغةِ المبنيِّ للمفعول إيذانٌ بأن الانصرافَ من الحق إلى الضلال مما لا يصدُر عن العاقل بإرادته وإنما يقع عند وقوعِه بالقسر من جهة صارفٍ خارجيٍّ.

﴿كذلك﴾ أي كما حقت الربوبيةُ لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحقِّ إلا الضلالُ أو أنهم مصروفون عن الحق **﴿حقت كلمة ربك﴾** وحكمُه وقضاؤُه **﴿على الذين فسقوا﴾** أي تمردوا في الكفر وخرجوا من أقصى حدودِه **﴿أنهم لا يؤمنون﴾** بدلُ الكلمةِ أو تعليلٌ لحقيتها والمرادُ بها العِدَةُ بالعذاب **﴿قل هل من شركائكم﴾** احتجاجٌ آخرُ على حقية التوحيدِ وبطلانِ الإشراكِ بإظهار كونِ شركائِهم بمعزل من استحقاق الإلٰهيةِ ببيان اختصاصِ خواصِّها من بدء الخلقِ وإعادتِه به سبحانه وتعالى وإنما لم

يُعطف على ما قبله إيذانًا باستقلاله في إثبات المطلوبِ، والسؤالُ للتبكيت والإلزامِ وقد جُعلت أهليةُ الإعادةِ وتحققُها لوضوح مكانِها وسُنوح برهانِها بمنزلة بدءِ الخلقِ فنُظمت في سلكه حيث قيل: ﴿**من يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ إيذانًا بتلازمهما وجودًا وعدمًا يستلزم الاعترافَ بها وإن صدهم عن ذلك ما بهم من المكابرة والعِناد، ثم أُمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم مَنْ يفعل ذلك فقيل له: ﴿**قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ أي هو يفعلهما لا غيرُ كائنًا ما كان لا بأن ينوبَ عليه الصلاة والسلام عنهم في ذلك كما قيل لأن القولَ المأمورَ به غيرُ ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزِمًا له إذ ليس المسؤولُ عنه مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله تعالى: ﴿**قل من ربُّ السمواتِ والأرض قل الله**﴾ [الرعد، الآية ١٦] حتى يكونَ القولُ المأمورُ بين عينِ الجوابِ الذي أريد منهم ويكونَ عليه الصلاة والسلام نائبًا عنهم في ذلك بل إنما هو وجودُ مَنْ يفعل البدءَ والإعادةَ من شركائهم فالجوابُ المطلوبُ منهم لا غير نعم، أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمِّنه مقالتَه إيذانًا بتعينه وتحققِه وإشعارًا بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافةَ التبكيتِ وإلقامِ الحجر لا مكابرةً ولَجاجًا فتدبر. وإعادةُ الجملةِ في الجواب السابق لمزيد التأكيدِ والتحقيق ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ الإفكُ الصرْفُ والقلبُ عن الشيء وقد يُخصّ بالقلب عن الرأي وهو الأنسبُ بالمقام أي كيف تُقلبون من الحق إلى الباطل، والكلامُ فيه كما ذكر في تُصرفون ﴿**قل هل من شركائكم**﴾ احتجاجٌ آخرُ على ما ذكر جيء به إلزامًا لهم غِبَّ إلزام وإفحامًا إثرَ إفحام وفصلُه عما قبله لما ذُكر من الدلالة على استقلاله ﴿**من يهدي إلى الحق**﴾ أي بوجه من الوجوه فإن أدنىٰ مراتبِ المعبودية هدايةُ المعبودِ لعبَدته إلى ما فيه صلاحُ أمرِهم، وأما تعيينُ طريقِ الهدايةِ وتخصيصُه بنصب الحجج وإرسالِ الرسلِ والتوفيقِ للنظر والتدبر كما قيل فمُخِلٌّ بما يقتضيه المقام من كمال التبكيتِ والإلزامِ فإن العجزَ عن الهداية على وجه خاصٍّ لا يستلزم العجزَ عن مطلق الهدايةِ. وهدىٰ كما يُستعمل بكلمة إلى لتضمّنه معنى الانتهاءِ يُستعمل باللام للدلالة على أن المنتهىٰ غايةُ الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استُعمل بها ما أسند إلى الله تعالى حيث قيل: ﴿**قل الله يهدي للحق**﴾ أي هو يهدي له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلةِ والحججِ وإرسالِ الرسل وإنزال الكتبِ والتوفيقِ للنظر والتدبر وغيرِ ذلك من فنون الهداياتِ، والكلامُ في الأمر بالسؤال والجوابِ كما مر فيما مر ﴿**أفمن يهدي إلى الحق**﴾ وهو الله عز وجل ﴿**أحق أن يتبع أمن لا يهدّى**﴾ بكسر الهاء أصله يهتدي

فأُدغِم وكُسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرئ[١] بكسر الياء إتباعًا لها لحركة الهاء وقرئ[٢] بفتح الهاء نقلًا لحركة التاء إليها أي لا يهتدي بنفسه فضلًا عن هداية غيرِه، وفيه من المبالغة ما لا يخفى وإنما نُفي عنه الاهتداءُ مع أن المفهومَ مما سبق نفيُ الهدايةِ لما أن نفيَها مستتبعٌ لنفيه غالبًا فإن من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية غيرِه في الجملة وأدناها كونُه قدوةً له بأن يراه فيسلُكَ مسلَكَه من حيث لا يدري، والفاءُ لترتيب الاستفهامِ على ما سبق من تحقق هدايتِه تعالى صريحًا وعدمِ هدايةِ شركائِهم المفهومِ من القَصر ومن عدم الجوابِ المنبئ عن الجواب بالعدم فإن ذلك مما يَضطرهم إلى الجواب الحقِّ لا لتوجُّبِه الاستفهامَ إلى الترتيب كما يقع في بعض المواقع فإن ذلك مختصٌّ بالإنكاري كما في قوله تعالى: **﴿أفمن اتبعَ رِضوانَ الله﴾** [آل عمران ١٦٢] إلخ ونحوه، والهمزةُ متأخرةٌ في الاعتبار وإنما تقديمُها في الذكر لإظهار عراقتِها في اقتضاء الصدارةِ كما هو رأيُ الجمهورِ حتى لو كان السؤالُ بكلمة أي لأخِّرت حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: **﴿فأي الفريقين أحقُّ بالأمن﴾** [الأنعام: ٨٣] إثرَ تقديرِ ما يُلجىء المشركين إلى الجواب من حالهم وحالِ رسول الله ﷺ وقرئ[٣] (لا يهدي) بمعنى لا يهتدي لمجيئه لازمًا أو لا يهدي غيرَه، وصيغةُ التفضيلِ **إما** على حقيقتها والمفضلُ عليه محذوف [كما اختاره مكي والتقدير أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدي أم من لا يهدي أحق الخ. وإما بمعنى حقيق][٤] كما

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، ويحيى بن آدم، وحماد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٧)، والكشف للقيسي (١/ ٥١٨)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٠٨)، وتفسير الرازي (١٧/ ٩١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن محيصن، والحسن، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٧٥)، والتيسير للداني ص (١٢٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٨١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٤٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٨١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤١).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٤٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٩)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٧٥)، التيسير للداني ص (١٢٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٨١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٤٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٨١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٦).

(٤) سقط في خ.

اختاره أبو حيان، وأيا ما كان فالاستفهامُ للإلزام وأن يُتَّبعَ في حيز النصب، أو الجرِّ بعد حذفِ الجارِّ على الخلاف المعروفِ أي بأن يتبع ﴿**إلا أن يهدي**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأحوالِ أي لا يهتدي أو لا يهدي غيره في حال من الأحوال إلا حالَ هدايتِه تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير، وهذا حالُ أشرافِ شركائِهم من الملائكة والمسيحِ وعزيرٍ عليهم السلام.

وقيل: المعنى أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقلُ إليه إلا أن يُنقل إليه أو إلا أن ينقُلَه الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيوانًا مكلفًا فيهديَه. وقرئ (إلا أن يهتدي) من التفعيل للمبالغة ﴿**فما لكم**﴾ أي أيُّ شيءٍ لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاءَ لله سبحانه وتعالى والاستفهامُ للإنكار التوبيخيِّ وفيه تعجيبٌ من حالهم.

وقوله تعالى: ﴿**كيف تحكمون**﴾ أي بما يقضي صريحُ العقل ببطلانه؛ إنكارٌ لحكمهم الباطلِ وتعجبٌ منه وتشنيعٌ لهم بذلك، والفاءُ لترتيب كلا الإنكارين على ما ظهر من وجوب اتباعِ الهادي إلى الحق.

إن قلت: التبكيتُ بالاستفهام السابقِ إنما يظهر في حق من يعكسُ جوابَه الصحيحَ فيحكم بأحقية من لا يَهدي بالاتباع دون مَنْ يهدي، وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائِهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعًا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون: هؤلاء شفعاؤُنا عند الله قلتُ: حكمُهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراكِ حكمٌ منهم بعدم استحقاقِه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائِهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون.

﴿**وما يتبع أكثرهم**﴾ كلامٌ مبتدأٌ غيرُ داخلٍ في حيز الأمرِ مَسوقٌ من قِبله تعالى لبيان عدمِ فهمِهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجرَ من البرهان النيّر الموجبِ لاتباع الهادي إلى الحق الناعي عليهم بطلانَ حكمِهم وعدمَ تأثرِهم من ذلك لعدم اهتدائِهم إلى طريق العلم أصلًا أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتِهم ﴿**إلا ظنا**﴾ واهيًا من غير التفاتٍ إلى فرد من أفراد العِلم فضلًا عن أن يسلُكوا مسالكَ الأدلةِ الصحيحةِ الهادية إلى الحق المبنيةِ على المقدمات اليقينية الحقةِ فيفهموا مضمونَها ويقفوا على صحتها وبُطلانِ ما يخالفها من أحكامهم الباطلةِ فيحصُل التبكيتُ والإلزامُ، فالمراد بالاتباع مطلقُ الاعتقادِ الشامل لما يقارن القَبولَ والانقيادَ وما لا يقارنه، وبالقصر ما أشير إليه من ألا يكونَ لهم في أثنائه اتباعٌ لفرد من أفراد العلمِ والتفاتٌ إليه، ووجهُ تخصيصِ هذا الاتباعِ بأكثرهم الإشعارُ بأن بعضَهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيدِ وبطلانِ الشركِ لا يقبلونه مكابرةً وعنادًا

فيحصل بالنسبة إليهم التأثرُ من البرهان المزبورِ وإن لم يُظهروه وكونُهم أشدَّ كفرًا وأكثرَ عذابًا من الفريق الأولِ لا يقدح فيما يُفهم من فحوى الكلام عُرفًا من كون أولئك أسوأَ حالًا من غيرهم، إذ المعتبرُ سوءُ الحالِ من حيث الفهمُ والإدراكُ لا من حيث الكفرُ والعذابُ، أو ما يتبع أكثرُهم مدةَ عمرِهم إلا ظنا ولا يتركونه أبدًا، فإن حرفَ النفي الداخلِ على المضارع يُفيد استمرارَ النفي بحسب المقامِ فالمرادُ بالاتباع حينئذٍ هو الإذعانُ والانقيادُ والقصرُ باعتبار الزمان.

ووجهُ تخصيصِ هذا الاتباعِ بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم في ذلك التلويحُ بما سيكون من بعضهم من اتباعَ الحقِّ والتوبةِ كما سيأتي.

هذا وقد قيل: المعنى وما يتبع أكثرُهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظنًّا غيرَ مستندٍ إلى برهان عندهم وقيل: وما يتبع أكثرُهم في قولهم للأصنام: إنها آلهةٌ إلا ظنًّا، والمرادُ بالأكثر الجميعُ فتأمل. وقيل: الضميرُ في أكثرهم للناس فلا حاجةَ إلى التكلف[1] ﴿**إن الظن لا يغني من الحق**﴾ من العلم اليقينيِّ والاعتقادِ الصحيحِ المطابقِ للواقع ﴿**شيئًا**﴾ من الإغناء، ويجوز أن يكون مفعولًا به، ومن الحق حالًا فيه والجملةُ استئنافٌ ببيان شأنِ الظنِّ وبُطلانِه، وفيه دِلالةٌ على وجوب العلم في الأصول وعدمِ جوازِ الاكتفاءِ بالتقليد ﴿**إن الله عليم بما يفعلون**﴾ وعيدٌ لهم على أفعالهم القبيحةِ فيندرج تحتها ما حُكي عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعةِ والاتباعِ للظنون الفاسدةِ اندراجًا أوليا، وقرئ[2] (تفعلون) بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد.

﴿**وما كان هذا القرآن**﴾ شروعٌ في بيان ردِّهم للقرآن الكريم إثرَ بيانِ ردهم للأدلة العقليةِ المندرجةِ في تضاعيفه، أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآنُ المشحونُ بفنون الهداياتِ المستوجبةِ للاتّباع التي من جملتها هاتيك الحججُ البينةُ الناطقةُ بحقية التوحيدِ وبطلان الشرك ﴿**أن يفترى من دون الله**﴾ أي افتراءً من الخلق أي مفترىً منهم سُمّي بالمصدر مبالغة ﴿**ولكن تصديقَ الذي بين يديه**﴾ من الكتب الإلٰهيةِ المشهودِ على صدقها أي مصدّقًا لها كيف لا وهو لكونه معجزًا دونها عيارٌ عليها شاهدٌ بصحتها، ونصبُه بأنه خبرُ كان مقدرًا وقد جوّز كونُه علةً لفعل محذوفٍ تقديرُه لكن أنزله الله تصديقَ إلخ وقرئ[3] بالرفع على تقدير المبتدإ أي ولكن هو

---

(١) في خ: التكليف.
(٢) قرأ بها: عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٧).
(٣) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٧).

تصديقُ إلخ ﴿**وتفصيلَ الكتابِ**﴾ عطفٌ عليه نصبًا ورفعًا أي وتفصيلَ ما كُتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿**لا ريب فيه**﴾ خبرٌ ثالثٌ داخلٌ في حكم الاستدراكِ أي منتفيًا عنه الريبُ أو حالٌ من الكتاب وإن كان مضافًا إليه فإنه مفعولٌ في المعنى أو استئنافٌ لا محلَّ له من الإعراب ﴿**من رب العالمين**﴾ خبرٌ آخرُ أي كائنًا من رب العالمين، أو متعلقٌ بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعللِ بهما، و(لا ريب فيه) اعتراضٌ كما في قولك: زيد لا شك فيه كريمٌ أو حالٌ من الكتاب أو من الضمير في فيه، ومساقُ الآية الكريمةِ بعد المنعِ عن اتباع الظنِّ لبيان ما يجب اتباعُه ﴿**أم يقولون افتراه**﴾ أي بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزةُ لإنكار الواقِع واستبعادِه ﴿**قل**﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لبطلان مقالتِهم الفاسدةِ إن كان الأمر كما تقولون ﴿**فأتوا بسورة مثله**﴾ أي في البلاغة وحسنِ الصياغةِ وقوةِ المعنى على وجه الافتراءِ فإنكم مثلي في العربيةِ والفصاحةِ وأشدُّ تمرنًا مني في النظم والعبارة، وقرئ[١] بسورةِ مثلِه على الإضافة أي بسورة كتابِ مثلِه ﴿**وادعوا**﴾ للمظاهرة والمعاونة ﴿**من استطعتم**﴾ دعاءَه والاستعانةَ به من آلهتكم التي تزعُمون بأنها مُمِدةٌ لكم في المُهمات والمُلماتِ، ومدارِهكم[٢] الذين تلجئون إلى آرائهم في كل ما تأتون وما تذرون ﴿**من دون الله**﴾ متعلقٌ بـ (ادعوا)، ودون جارٍ مجرى أداةِ الاستثناءِ وقد مر تفصيله في قوله تعالى: ﴿**وادعوا شهداءَكم من دون الله**﴾ أي ادعُوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فإنه لا يقدِر عليه أحدٌ، وأخرجه سبحانه من حكم الدعاءِ للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونِهم في عُدوة المضادة والمُشاقّة لا لبيان استبدادِه تعالى بالقدرة على ما كُلّفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعَوْه تعالى لأجابهم إليه ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي في أني افتريته فإن ذلك مستلزمٌ لإمكان الإتيانِ بمثله وهو أيضًا مستلزِمٌ لقدرتكم عليه، والجوابُ محذوفٌ لدلالة المذكور عليه.

﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن إظهار بطلانِ ما قالوا في حق القرآن العظيم بالتحدِّي إلى إظهاره ببيانِ أنه كلامٌ ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليلِ (فما) عبارةٌ عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاءِ وما يخالف دينَهم كما قيل، فإنه مما يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيلِ عن مثله أي سارعوا إلى تكذيبه آثرَ ذي أثيرٍ[٣] من

---

(١) قرأ بها: عمر بن فائد.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٢).

(٢) المداره: جمع مِدْرَه، وهو السيد الشريف، وزعيم القوم وخطيبهم والمحامي عنهم.

(٣) أي أولًا.

غير أن يتدبروا فيه ويقِفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالةِ على كونه كما وُصف آنفًا ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظيرٌ يقدر عليه المخلوقُ.

والتعبيرُ عنه (بما لم يحيطوا بعلمه) دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلِهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبَهم به إنما هو بسبب عدم علمِهم به لما أن إدارةَ الحكم على الموصول مشعِرةٌ بعلية ما في حيز الصلةِ له ﴿**ولما يأتهم تأويله**﴾ عطف على الصلة أو حالٌ من الموصول أي ولم يقِفوا بعدُ على تأويله ولم يبلُغ أذهانَهم معانيه الرائقةُ المنبئةُ عن علو شأنِه.

والتعبيرُ عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأن تأويلَه متوجّهٌ إلى الأذهان منساقٌ إليها بنفسه أو لم يأتِهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدقٌ أم كذبٌ. والمعنى أن القرآنَ معجزٌ من جهة النظم والمعنى ومن جهة الإخبار بالغيب، وهم قد فاجأوا تكذيبَه قبل أن يتدبروا نظمَه ويتفكروا في معناه أو ينتظروا وقوعَ ما أخبر به من الأمور المستقبلةِ، ونفيُ إتيان التأويل بكلمة لمّا الدالةِ على التوقع بعد نفي الإحاطةِ بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذمِّ وتشديد التشنيعِ فإن الشناعةَ في تكذيب الشيء قبل علمِه المتوقّعِ إتيانُه أفحشُ منها في تكذيبه قبل علمِه مطلقًا، والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا إلى زمان وقوعِ المتوقَّعِ فلم يفعلوا، وأما أن المتوقعَ قد وقع بعدُ وأنهم استمرّوا عند ذلك أيضًا على ما هم عليه أولًا فلا تعرّضَ له هاهنا والاستشهادُ عليه بعدم انقطاعِ الذمِّ أو ادعاءُ أن قولَهم افتراه تكذيبٌ بعد التدبر ناشئ من عدم التدبر فتدبر، كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدي بل قبل وادعاءُ كونِه مسبوقًا بالتحدي الواردِ في سورة البقرة يردّه أنها مدنية وهذه مكيةٌ وإنما الذي يدل عليه ما سيتلى عليك من قوله تعالى: ﴿**ومنهم من يؤمن به ومنهم**﴾ [٤٠] إلخ، وقوله تعالى: ﴿**كذلك**﴾ إلخ، وصفٌ لحالهم المحكيِّ وبيانٌ لما يؤدّي إليه من العقوبة أي مثلَ ذلك التكذيبِ المبنيِّ على بادي الرأي والمجازفةِ من غير تدبرٍ وتأمل.

﴿**كذب الذين من قبلهم**﴾ أي فعلوا التكذيبَ أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التي ظهرت على أيدي أنبيائِهم أو كذبوا أنبياءَهم ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ وهم الذين من قبلهم من المكذبين، وإنما وضع المُظهرُ موضعَ المضمر للإيذان بكون التكذيبِ ظلمًا أو بعليته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبةِ وبدخول هؤلاء الظالمين في زُمرتهم جزمًا ووعيدًا دخولًا أوليا.

وقوله عز وجل: ﴿**ومنهم**﴾ إلخ، وصفٌ لحالهم بعد إتيانِ التأويل المتوقع، إذ حينئذٍ يمكن تنويعُهم إلى المؤمِن به وغير المؤمن ضرورةَ امتناعِ الإيمان بشيء من غير

علم به واشتراكِ الكلِّ في التكذيب والكفرِ به قبل ذلك حسبما أفاده قولُه تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾ [البقرة: ٢٣] أي ومن هؤلاء المكذبين ﴿**من يؤمن به**﴾ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله وظهورِ حقّيتِه بعد ما سعَوا في المعارضة ورازُوا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ما شاهدوا وقوعَ ما أَخبر به كما أَخبر به مرارًا، ومعنى الإيمانِ به إما الاعتقادُ بحقيته فقط أي يصدّق به في نفسه ويعلم أنه حقٌّ ولكنه يعاند ويكابر وهؤلاءِ هم الذين أُشير بقصْر اتباعِ الظنِّ على أكثرهم إلى أنهم يعلمون الحقَّ على التفسير الأول كما أشير إليه فيما سلَف، وإما الإيمانُ الحقيقيُّ أي سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذي أشير بالقصْر المذكورِ على التفسير الثاني إلى أنهم سيتبعون الحقَّ كما مر.

﴿**ومنهم من لا يؤمن به**﴾ أي لا يصدق به في نفسه كما لا يصدّق به ظاهرًا لفرْط غباوتِه المانعةِ عن الإحاطة بعلمه كما ينبغي وإن كان فوق مرتبةِ عدمِ الإحاطةِ به أصلًا أو لسخافة عقلِه واختلالِ تمييزِه وعجزِه عن تخليص علومِه [من مخالطة][1] الظنونِ والأوهام التي أَلِفَها فيبقى على ما كان عليه من الشك، وهذا القدرُ من الإحاطة وإتيانِ التأويلِ كافٍ في مقابلة ما سبق من عدم الإحاطةِ بالمرة، وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل: ﴿**وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا**﴾ [يونس: ٣٦] على التفسير الأول، أو لا يؤمِن به فيما سيأتي بل يموت على كفره معاندًا كان أو شاكًا، وهم المستمرّون على اتباع الظن على التفسير الثاني من غير إذعانٍ للحق وانقيادٍ له ﴿**وربك أعلم بالمفسدين**﴾ أي بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل، لاشتراكهما في أصل الإفسادِ المستدعي لاشتراكهما في الوعيد، أو بالمُصرّين الباقين على الكفر على الوجه الثاني من المعاندين والشاكين ﴿**وإن كذبوك**﴾ أي إن استمروا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أُخبر عنهم بعد إلزامِ الحجةِ بالتحدي ﴿**فقل لي عملي ولكم عملكم**﴾ أي تبرأ منهم فقد أعذرتَ[2] كقوله تعالى: ﴿**فإن عصوك فقل إني بريء**﴾ [الشعراء: ٢١٦] والمعنى لي جزاءُ عملي ولكم جزاءُ عملِكم حقًا كان أو باطلًا، وتوحيدُ العمل المضافِ إليهم باعتبار الاتحادِ النوعيِّ ولمراعاة كمالِ المقابلة.

﴿**أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون**﴾ تأكيدٌ لما أفادته لامُ الاختصاص من عدم تعدّي جزاءِ العمل إلى غير عاملِه أي لا تؤاخَذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم،

---

(١) في خ: عن معارضة.
(٢) في خ: اعتذرت.

ولما فيه من إيهام المتاركةِ وعدم التعرضِ لهم قيل: إنه منسوخٌ بآية السيف.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ بيانٌ لكونهم مطبوعًا على قلوبهم بحيث لا سبيل إلى إيمانهم، وإنما جمع الضميرُ الراجعُ إلى كلمة مَنْ رعايةً لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتي محافظةً على ظاهر اللفظِ، ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناءً على عدم توقفِ الاستماع على ما يتوقف عليه النظرُ من المقابلة وانتفاءِ الحجاب والظُلمة، أي ومنهم ناسٌ يستمعون إليك عند قراءتِك القرآنَ وتعليمِك الشرائعَ ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ همزةُ الاستفهامِ إنكاريةٌ والفاءُ عاطفةٌ وليس الجمعُ بينهما لترتيب إنكارِ الإسماعِ[1] كما هو رأيُ سيبويهِ والجمهور على أن يجعل تقديمُ الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارةَ كما تقرر في موضعه بل لإنكار ترتُّبِه عليه حسبما هو المعتادُ لكن لا **بطريق** العطفِ على الفعل المذكورِ لأدائه إلى اختلال المعنى، لأنه إما صلةٌ أو صفةٌ وأيًا ما كان فالعطفُ عليه يستدعي دخولَ المعطوفِ في حيزه وتوجّهَ الإنكارِ إليه من تلك الحيثية ولا ريب في فساده، بل **بطريق** العطفِ على مقدر مفهومٍ من فحوى النظمِ، كأنه قيل: أيستمعون إليك فأنت تسمعهم لا إنكارًا لاستماعهم فإنه أمر محقق بل إنكارًا لوقوع الاستماعِ عقيبَ ذلك وترتبِه عليه حسب العادةِ الكليةِ بل نفيًا لإمكانه أيضًا كما ينبئ عنه وضع الصمِّ موضعَ ضميرِهم ووصفِهم بعدم العقلِ بقوله تعالى: ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدمُ عقولِهم لأن الأصمَّ العاقلَ ربما تفرس إذا وصل إلى صِماخه صوتٌ وأما إذا اجتمع فقدانُ السمع فقد تم الأمر.

﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ ويعاين دلائلَ نبوّتك الواضحة ﴿أفأنت﴾ أي أعقيبَ ذلك أنت تهديهم وإنما قيل: ﴿تهدي العُمي﴾ تربيةً لإنكار هدايتِهم وإبرازًا لوقوعها في معرض الاستحالةِ وقد أكد ذلك حيث قيل: ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ أي ولو انضم إلى عدم البصَر عدمُ البصيرة فإن المقصودَ من الإبصارِ الاعتبارُ والاستبصارُ، والعمدةُ في ذلك هي البصيرةُ ولذلك يحدس الأعمى المستبصرُ ويتفطن لما لا يدركه البصيرُ الأحمقُ فحيث اجتمع فيهم الحمَقُ والعمى فقد انسد عليهم بابُ الهدى، وجوابُ لو في الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى: ﴿تُسمع الصم﴾ و﴿تهدي العمي﴾ عليه وكلٌّ منهما معطوفةٌ على جملة مقدرةٍ مقابلةٍ لها في الفحوى كلتاهما في موضع الحال من مفعول الفعلِ السابق، أي أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون، أفأنت تهدي العميَ لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون، أي على كل حال

---

(١) زاد في خ: على الاستماع.

مفروضٍ، وقد حذفت الأولى في الباب حذفًا مطردًا لدِلالة الثانية عليها دِلالةً واضحةً فإن الشيءَ إذا تحقق عند تحققِ المانعِ أو المانع القويِّ فلأَنْ يتحققَ عند عدمِه أو عند تحققِ المانعِ الضعيفِ أولى، وعلى هذه النُكتةِ يدور ما في لو وأن الوصليتين من التأكيد وقد مر الكلام في قوله تعالى: ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ [التوبة: ٣٢] ونظائرِه مرارًا ﴿**إن الله لا يظلم الناس**﴾ إشارةٌ إلى أن ما حكيَ عنهم من عدم اهتدائِهم إلى طريق الحقِّ وتعطّلِ مشاعرِهم من الإدراك ليس لأمر مستندٍ إلى الله عز وجل من خلقهم متوفي[١] المشاعرِ ونحو ذلك بل إنما هو من قِبلهم أي لا ينقُصهم ﴿**شيئًا**﴾ مما نيط به مصالحُهم الدينيةُ والدنيويةُ وكمالاتُهم الأولويةُ والأُخْروية من مبادئ إدراكِهم وأسبابِ علومِهم من المشاعر الظاهرةِ والباطنةِ والإرشادِ إلى الحق بإرسال الرسلِ وإنزالِ الكتب بل يوفيهم ذلك من غير إخلالٍ بشيء أصلًا ﴿**ولكن الناس**﴾ وقرئ[٢] بالتخفيف ورفعِ الناس، وضع الظاهرُ موضَع الضمير لزيادة تعيينٍ وتقريرٍ، أي لكنهم بعدم استعمالِ مشاعِرهم فيما خُلقت له وإعراضِهم عن قبول دعوةِ الحق وتكذيبِهم للرسل والكتب ﴿**أنفسهم يظلمون**﴾ أي ينقُصون ما ينقصون مما يُخِلّون به من مبادئ كمالِهم[٣] وذرائعِ اهتدائِهم، وإنما لم يُذكر لما أن مَرمىٰ الغرضِ إنما هو قصرُ الظلمِ على أنفسهم لا بيانُ ما يتعلق به الظلمُ، والتعبيرُ عن فعلهم بالنقص مع كونِه تفويتًا بالكلية وإبطالًا بالمرة لمراعاة جانبِ قرينتِه.

قولُه عز وجل: ﴿**أنفسَهم**﴾ إما تأكيدٌ لـ (الناس) فيكونُ بمنزلة ضمير الفصلِ في قوله تعالى: ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين**﴾ [الزخرف: ٧٦] في قصر الظالمية عليهم وإما مفعولٌ لـ (يظلمون) حسبما وقع سائر المواقع، وتقديمُه عليه لمجرد الاهتمامِ به مع مراعاة الفاصلةِ من غير قصدٍ إلى قصر المظلوميةِ عليهم على رأي من لا يرى التقديمَ موجبًا للقصر فيكون كما في قوله تعالى: ﴿**وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسَهم**﴾ [هود: ١٠١] من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول، وأما على رأي من يراه موجبًا له فلعل إيثارَ قصرِها دون قصرِ الظالمية

---

(١) في ط: مؤفى.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٦٢)، والتيسير للداني ص (١٢٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤١)، والكشاف للزمخشري (١/ ١٠٢)، والمعاني للفراء (١/ ٤٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٩).

(٣) في خ: كلامهم.

عليهم للمبالغة في بيان بطلان أفعالِهم وسخافةِ عقولِهم لما أن أقبحَ الأمرين عند اتحادِ الفاعلِ والمفعولِ وأشدَّهما إنكارًا عند العقل ونفرةً لدى الطبع وأوجبَهما حذرًا منه عند كل أحدٍ هو المظلوميةُ لا الظالمية، على أن قصرَ الأولى عليهم مستلزِمٌ لما يقتضيه ظاهرُ الحالِ من قصر الثانية عليهم ضرورةَ أنه إذا لم يظلِمْ أحدٌ من الناس إلا نفسَه يلزم ألا يظلِمَه إلا نفسُه، إذ لو ظلمه غيرُه يلزم كونُ ذلك الغيرِ ظالمًا لغير نفسِه، والمفروضُ ألا يظلم أحدٌ إلا نفسَه فاكتُفي بالقصر الأولِ عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة.

وصيغةُ المضارع للاستمرار نفيًا وإثباتًا، فإن حرفَ النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقامِ استمرارَ النفي لا نفيَ الاستمرارِ، ألا يرى أن قولكَ: ما زيدا ضربتُ يدل على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص، ومساقُ الآيةِ الكريمةِ لإلزام الحجةِ ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارعُ المنفيُّ للاستقبال والمُثبتُ للاستمرار، والمعنى أن الله لا يظلِمُهم بتعذيبهم يومَ القيامة شيئًا من الظلم ولكنهم أنفسَهم يظلِمون ظلمًا مستمرا، فإن مباشرتَهم المستمرةَ للسيئات الموجبةِ للتعذيب عينُ ظلمِهم لأنفسهم، وعلى الوجهين فالآيةُ الكريمة تذييلٌ لما سبق.

﴿**ويوم يحشرهم**﴾ منصوبٌ بمضمر وقرئ[1] بالنون على الالتفات أي اذكر لهم أو أنذِرْهم يوم يحشرهم ﴿**كأن لم يلبثوا**﴾ أي كأنهم لم يلبثوا ﴿**إلا ساعة من النهار**﴾ أي شيئًا قليلًا منه فإنها مثَلٌ في غاية القِلة[2]، وتخصيصُها بالنهار لأن ساعاتِه أعرفُ حالًا من ساعاتِ الليلِ، والجملةُ في موقع الحال من ضمير المفعولِ أي يحشرهم مشبَّهين في أحوالهم الظاهرةِ للناس بمَنْ لم يلبَثْ في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها إلا ذلك

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٦٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٨٤)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤١)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٢)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١١٢)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٠٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

(٢) ووجه الشبه التحقق والحصول بحيث لم يمنعهم طول الزمن من المحشر، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، فكأنهم لم يغنوا، وهذا اعتبار بعظم قدرة الله على إرجاعهم، والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث لشبهة أن طول اللبث، وتغير الأجساد ينافي إحياءها، والغرض من التشبيه بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة إليه تعالى، ولو بعد دهر طويل، وإظهار بطلان استبعادهم، وإنكارهم له، أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور فإن اللبث اليسير يلزمه عدم التبديل، أو هو بيان لحالهم في تذكرها للدنيا».
ينظر: التحرير والتنوير (١١/ ١٨٢)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٣٥٢)، والمنار (١١/ ٣٨٥).

القدرَ اليسيرَ فإن مَنْ أقام بها دهرًا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكامِ بهجةٍ منافيةٍ لما بهم من رثاثة الهيئةِ وسوء الحالِ، أو بمن لم يلبَث في البرزخ إلا ذلك المقدارَ ففائدة التقييدِ بيانُ كمالِ يُسرِ الحشرِ بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهرٍ طويلٍ وإظهارِ بطلانِ استبعادِهم وانكارِهم بقولهم: (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون؟) ونحوِ ذلك، أو بيانُ تمامِ الموافقةِ بين النشأتين في الأشكال والصورِ فإن قلةَ اللُّبثِ في البرزخ من موجبات عدمِ التبدلِ والتغيرِ فيكون قوله عز وعلا: ﴿يتعارفون بينهم﴾ بيانًا وتقريرًا له لأن التعارفَ مع طول العهدِ ينقلب تناكرًا، وعلى الأول يكون استئنافًا أي يعرِف بعضُهم بعضًا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلًا، وذلك أولَ ما خرجوا من القبور، إذ هم حينئذٍ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارَفةِ فيما بينهم ثم ينقطع التعارفُ بشدة الأهوالِ المذهلة واعتراءِ الأحوالِ المُعضلة المغيِّرةِ للصور والأشكالِ المبدّلة لها من حال إلى حال.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ شهادةٌ من الله سبحانه وتعالى على خُسرانهم وتعجبٌ منه، وقيل: حالٌ من ضمير يتعارفون على إرادة القولِ، والتعبيرُ عنهم بالموصول مع كون المقام مقامَ إضمارٍ لذمهم بما في حيز الصلةِ، والإشعارُ بعليته لما أصابهم، والمرادُ بلقاء الله إن كان مطلقَ الحسابِ والجزاءِ أو حسنَ اللقاءِ فالمراد بالخسران الوضيعةُ، والمعنى وضَعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائِهم الكفرَ بالإيمان والضلالةَ بالهدى ومعنى قوله تعالى: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ ما كانوا عارفين بأحوال التجارةِ مهتدين لطرقها وإن كان سوءَ اللقاءِ فالخَسارُ الهلاك والضلالُ أي قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة.

﴿وإما نرينك﴾ أصله إن نُرِكَ وما مزيدةٌ لتأكيد معنى الشرطِ ومِنْ ثَمةَ أُكد الفعلُ بالنون أي بنُصرتك بأن نُظهرَ لك ﴿بعض الذي نعدهم﴾ أي وعدناهم من العذاب ونعجِّلَه في حياتك فتراه، والعدولُ إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على التجدد والاستمرارِ أي نعِدُهم وعدًا متجددًا حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذارٍ غِبَّ إنذار، وفي تخصيص البعضِ بالذكر رمزٌ إلى العِدَة بإراءةِ بعضِ الموعودِ، وقد أراه يومَ بدر ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإلينا مرجعهم﴾ أي كيفما دارت الحالُ أريناك بعضَ ما وعدناهم أو لا فإلينا مرجعُهم في الدنيا والآخرةِ فننجزُ ما وعدناهم ألبتةَ، وقيل: المذكورُ جوابٌ للشرط الثاني كأنه قيل: فإلينا مرجعُهم فنريكَه في الآخرة وجوابُ الأول محذوفٌ لظهوره أي فذاك ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من الأفعال السيئةِ التي حُكيت عنهم، والمرادُ بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتُها وهي معاقبتُه تعالى

إياهم وإما إقامتُها وأداؤُها بإنطاق الجوارح، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ لإدخال الروعةِ وتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التهديد، وقرئ (ثَمّةَ) أي هناك.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الخالية **﴿رسول﴾** يُبعث إليهم بشريعة خاصةٍ مناسبة لأحوالهم ليدعُوَهم إلى الحق **﴿فإذا جاء رسولهم﴾** فبلغهم ما أُرسل به فكذبوه

وخالفوه ﴿**قُضي بينهم**﴾ أي بين كلِّ أمةٍ ورسولِها ﴿**بالقسط**﴾ بالعدل وحُكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وإهلاك[1] المكذِبين كقوله تعالى: ﴿**وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولًا**﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ في ذلك القضاءِ المستوجِب لتعذيبهم لأنه من نتائج أعمالِهم أو ولكل أمةٍ من الأمم يوم القيامةِ رسولٌ تُنسَبُ إليه وتُدعىٰ به فإذا جاء رسولُهم الموقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان كقوله عز وجل: ﴿**وجيء بالنبيين والشهداءِ وقُضي بينهم**﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿**ويقولون متى هذا الوعد**﴾ استعجالًا لما وُعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاءِ به والإنكارِ حسبما يرشد إليه الجوابُ لا طلبًا لتعيين وقتِ مجيئِه على وجه الإلزام كما في سورة الملك ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي في أنه يأتينا والخطابُ للرسول ﷺ والمؤمنين[2] يتلون عليهم الآياتِ المتضمنةَ للوعد المذكورِ، وجوابُ الشرط محذوفٌ اعتمادًا على ما تقدم[3] حسبما حُذف في مثل قوله تعالى: ﴿**فائتنا بما تعِدنا إن كنتَ من الصادقين**﴾ [الأعراف، الآية ٧٠] فإن الاستعجالَ في قوة الأمرِ بالإتيان عجلةً كأنه قيل: فليأتنا عجَلةً إن كنتم صادقين، ولِما فيه من الإشعار بكون إتيانِه بواسطة النبيِّ ﷺ.

قيل: ﴿**قل لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا**﴾ أي لا أقدِر على شيء منهما بوجه من الوجوه، وتقديمُ الضر لِما أن مساقَ النظمِ لإظهار العجزِ عنه، وأما ذكرُ النفعِ فلتوسيع الدائرةِ تكملةً للعجز، وما وقع في سورة الأعرافِ من تقديم النفعِ للإشعار بأهميته والمقامُ مقامُه، والمعنى إني لا أملك شيئًا من شؤوني ردًا وإيرادًا مع أن ذلك أقربُ حصولًا فكيف أملك شؤونَكم حتى أتسبّبَ في إتيان عذابِكم الموعودِ ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ولكن ما شاء الله كائنًا وحملُه على الاتصال على معنى إلا ما شاء الله أن املِكَه يأباه مقامُ التبرُّؤ من أن يكون له عليه السلام دخلٌ في إتيان الوعدِ فإن ذلك يستدعي بيانَ كونِ المتنازَعِ فيه مما لا يشاء الله أن يملِكه عليه السلام، وجعلُ (ما) عبارةً عن بعض الأحوالِ المعهودةِ المنوطةِ بالأفعال الاختياريةِ المفوضة إلى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسي شيئًا من الضر والنفعِ إلا ما شاء الله أن أملِكه منهما من الضر والنفعِ المترتبَيْن على[4] الأكل والشربِ عدمًا ووجودًا - تعسّفٌ ظاهرٌ.

---

(١) في خ: هلاك.

(٢) زاد في خ: الذين.

(٣) في خ: تقدمه.

(٤) زاد في خ: الأفعال الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على.

وقوله تعالى: ﴿**لكل أمة أجل**﴾ بيانٌ لما أُبهم في الاستثناء وتقييدٌ لما في القضاء السابقِ من الإطلاق المُشعِر بكون المقضيِّ به أمرًا مُنجزًا غيرَ متوقِّفٍ على شيء غيرِ مجيءِ الرسولِ وتكذيبِ الأمة أي لكل أمةٍ أمة ممن قُضي بينهم وبين رسولِهم أجلٌ معينٌ خاصٌّ بهم لا يتعدىٰ إلى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحِلّ بهم عند حلولِه ﴿**إذا جاء أجلهم**﴾ إن جُعل الأجلُ عبارةً عن حد معينٍ من الزمان فمعنى مجيئِه ظاهرٌ، وإن أريد به ما امتدّ إليه من الزمان فمجيئُه عبارةٌ عن انقضائِه إذ هناك يتحقق مجيئُه بتمامه، والضميرُ إن جُعل للأمم المدلولِ عليها بكل أمةٍ فإظهارُ الأجلِ مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصودِ الذي هو بلوغُ كل أمةٍ أجلَها الخاصِّ بها، ومجيئُه إياها بعينها من بين الأمم بواسطة اكتسابِ الأجل بالإضافة عمومًا يفيده معنى الجمعيةِ كأنه قيل: إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيءَ كلَّ واحدةٍ من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها، وإن جُعل لكل أمةٍ خاصةً كما هو الظاهرُ فالإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لزيادة التقريرِ، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة كمالِ التعيين أي إذا جاءها أجلُها الخاصُّ بها.

﴿**فلا يستأخرون**﴾ عن ذلك الأجلِ ﴿**ساعة**﴾ أي شيئًا قليلًا من الزمان فإنها مثَلٌ في غاية القلةِ منه أي لا يتأخرون عنه أصلًا، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿**ولا يستقدمون**﴾ أي لا يتقدمون عليه وهو عطفٌ على (يستأخرون) لكنْ لا لبيان انتفاءِ التقدم مع إمكانه في نفسه كالتأخر، بل للمبالغة في انتفاءِ التأخرِ بنظمه في سلك المستحيلِ عقلًا كما في قوله سبحانه وتعالى.

﴿**وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفارٌ**﴾ [النساء، الآية ١٨] فإن من مات كافرًا مع ظهور أن لا توبةَ له رأسًا قد نُظم في عدم قَبولِ التوبةِ في سلك من سوّفها إلى حضور الموتِ إيذانًا بتساوي وجودِ التوبةِ حينئذٍ وعدمها بالمرة، كما مر في سورة الأعراف، وقد جُوز أن يراد بمجيء الأجلِ دنوُّه بحيث يمكن التقدمُ في الجملة كمجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ معينةٌ منه لكن ليس في تقييد عدمِ الاستئخار بدنوه مزيدُ فائدةٍ، وتقديمُ بيان انتفاءِ الاستئخار على بيان انتفاءِ الاستقدامِ لأن المقصودَ الأهمَّ بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب ولو ساعةً وذلك بالتأخر.

وأما ما في قوله تعالى: ﴿**ما تسبق من أمة أجلَها وما يستأخرون**﴾ [الحجر: ٥] من سبق السبْقِ في الذكر فلما أن المرادَ هناك بيانُ سرِّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل: ﴿**ذْرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهم الأملُ فسوف يعلمون**﴾ [الحجر: ٣] فالأهمُّ إذ ذاك بيانُ انتفاءِ السبقِ كما ذكر هناك ﴿**قل**﴾ لهم غِبَّ ما بيّنتَ

كيفيةَ جريانِ سنةِ الله عز وجل فيما بين الأمم على الإطلاق ونبهتَهم على أن عذابَهم أمرٌ مقررٌ محتومٌ لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم إيذانًا بكمال دنوِّه وتنزيلًا له منزلةَ إتيانِه حقيقة ﴿أرأيتم﴾ أي أخبروني ﴿إن أتاكم عذابه﴾ الذي تستعجلون به ﴿بياتًا﴾ أي وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنوم ﴿أو نهارًا﴾ أي عند اشتغالِكم بمشاغلكم حسبما عُيِّن لكم من الأجل بمقتضى المشيئةِ التابعةِ للحكمة كما عيّن لسائر الأممِ المهلَكة.

وقوله عز وجل: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ جوابٌ للشرط بحذف الفاءِ كما في قولك: إن أتيتُك ماذا تطعمني؟ والمجرمون موضوعٌ موضعَ المضمر لتأكيد الإنكارِ ببيان مباينةِ حالِهم للاستعجال، فإن حقَّ المجرمِ أن يَهلك فزَعًا من إتيان العذابِ فضلًا عن استعجاله، والجملةُ الشرطيةُ متعلقةٌ بـ (أرأيتم)، والمعنى أخبروني إن أتاكم عذابُه تعالى أيَّ شيءٍ تستعجلون منه سبحانه والشيءُ لا يمكن استعجالُه بعد إتيانِه، والمرادُ به المبالغةُ في إنكار استعجالِه بإخراجه عن حيز الإمكانِ، وتنزيلُه في الاستحالة منزلةَ استعجالِه بعد إتيانِه بناءً على تنزيل تقرر إتيانِه ودنوِّه منزلةَ إتيانه حقيقةً كما أشير إليه، وهذا الإنكارُ بمنزلة النهي في قوله عز وعلا: ﴿أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل: ١] خلا أن التنزيلَ هناك صريحٌ وهنا ضمنيٌّ كما في قول من قال لغريمه الذي يتقضّاه حقَّه: أرأيتَ إن أعطيتُك حقَّك فماذا تطلُب مني؟ يريد المبالغةَ في إنكار التقاضي بنظمه في سلك التقاضي بعد الإعطاءِ بناءً على تنزيل تقرّرِه منزلةَ نفسِه.

وقوله عز وجل: ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ إنكارٌ لإيمانهم بنزول العذابِ بعد وقوعِه حقيقةً داخلٌ مع ما قبله من إنكار استعجالِهم به بعد إتيانِه حكمًا تحت القولِ المأمورِ به أي أبعد ما وقع العذابُ وحل بكم حقيقةً آمنتم به حين لا ينفعُكم الإيمانُ إنكارًا لتأخيره إلى هذا الحد وإيذانًا باستتباعه للندم والحسرةِ ليُقلعوا عما هم عليه من العناد ويتوجهوا نحوَ التدارُك قبل فوتِ الوقتِ، فتقديمُ الظرفِ للقصر، وقيل: ماذا يستعجل منه متعلِّقٌ بـ (أرأيتم)، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ أي تندموا على الاستعجال أو تعرِفوا خطأه، والشرطيةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون الاستخبار، وقيل: الجوابُ قوله تعالى: ﴿أثم إذا ما وقع﴾ إلخ، والاستفهاميةُ الأولى اعتراضٌ والمعنى أخبروني إن أتاكم عذابُه آمنتم به بعد وقوعِه حين لا ينفعكم الإيمانُ ثم جيء بكلمة التراخي دِلالةً على الاستبعاد، ثم زيد أداةُ الشرطِ دِلالةً على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأولَ كالتمهيد له وجيء بـ (إذا) مؤكدًا (بما) ترشيحًا لمعنى الوقوعِ وزيادةً للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن لم ينفعْهم الإيمانُ ألبتةَ.

وقولُه تعالى: ﴿آلآن﴾ استئنافٌ من جهته تعالى غيرُ داخل تحت القول الملقن

مَسوقٌ لتقرير مضمونِ ما سبق على إرادة القولِ، أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوعِ العذاب: آلآن آمنتم به؟ إنكارًا للتأخير وتوبيخًا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذارِ به ولا للتأمل والتدبرِ في شأنه ولا لشيء آخرَ مما عسى يُعدّ عذرًا في التأخير، كان ذلك على طريق التكذيبِ والاستعجالِ به على وجه الاستهزاءِ، وقرئ[1] آلان بحذف الهمزةِ وإلقاء حركتِها على اللام وقوله تعالى: ﴿**وقد كنتم به تستعجلون**﴾ أي تكذيبًا واستهزاءً، جملةٌ وقعت حالًا من فاعل آمنتم المقدرِ لتشديد التوبيخِ والتقريعِ وزيادةِ التنديمِ والتحسيرِ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصلِ دون القصرِ، وقولهَ تعالى: ﴿**ثم قيل**﴾ إلخ، تأكيدٌ للتوبيخ والعتابِ بوعيد العذابِ والعقابِ وهو عطفٌ على ما قدّر قبل آلآن ﴿**للذين ظلموا**﴾ أي وضعوا الكفر والتكذيب موضعَ الإيمان والتصديقِ، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب والهلاكِ، ووضعُ الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة والإشعارِ بعلّيته لإصابة ما أصابهم ﴿**ذوقوا عذاب الخلد**﴾ المؤلمَ على الدوام ﴿**هل تجزون**﴾ اليوم ﴿**إلا بما كنتم تكسبون**﴾ في الدنيا من أصناف الكفر والمعاصي التي من جملتها ما مرّ من الاستعجال.

﴿**ويستنبئونك**﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاءِ أو الإنكار: ﴿**أحق هو**﴾ أحقٌّ خبرٌ قُدم على المبتدإ الذي هو الضميرُ للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى: ﴿**إنه لحق**﴾ أو مبتدأٌ والضميرُ مرتفعٌ به سادٌّ مسدَّ الخبر، والجملةُ في موقع النصب بيستنبئونك، وقرئ: (آلحقُّ هو)[2]، تعريضًا بأنه باطلٌ كأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحقَّ؟ ﴿**قل**﴾ لهم غيرَ ملتفتٍ إلى استهزائهم مغضيًا عما قصدوا بانيًا للأمر على أساس الحكمة ﴿**إي وربي**﴾ (إي) من حروف الإيجابِ بمعنى نعم في القسم خاصةً كما أن هل بمعنى قد في الاستفهام خاصةً، ولذلك يوصل بواوه ﴿**إنه**﴾ أي العذابُ الموعودُ ﴿**لحق**﴾ لثابتٌ ألبتةَ، أُكّد الجوابُ بأتم وجوهِ التأكيدِ حسب شدةِ إنكارِهم وقوتِه، وقد زيد تقريرًا وتحقيقًا بقوله عز اسمُه:

---

(١) قرأ بها: نافع، والكسائي، وقالون، وورش، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٠)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٢٧)، والتيسير للداني ص (١٢٢)، والحجة لابن خالويه، ص (١٨٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٧)، والغيث للصفاقسي، ص (٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤١)، والكشف للقيسي (١/ ٩١)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٥٧).

(٢) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٢).

﴿**وما أنتم بمعجزين**﴾ أي بفائتين العذابَ بالهرب وهو لاحقٌ بكم لا محالة وهو إما معطوفٌ على جواب القسم أو مستأنفٌ سيق لبيانِ عجزِهم عن الخلاص مع ما فيه من التقدير المذكور ﴿**ولو أن لكل نفس ظلمت**﴾ بالشرك أو التعدّي على الغير أو غيرِ ذلك من أصناف الظلمِ ولو مرةً حسبما يفيده كونُ الصفةِ فعلًا ﴿**ما في الأرض**﴾ أي ما في الدنيا من خزائنها وأموالِها ومنافعها قاطبةً بما كثُرت ﴿**لافتدت به**﴾ أي لجعلتْه فديةً لها من العذاب من افتداه[1] بمعنى فداه ﴿**وأسروا**﴾ أي النفوسُ المدلولُ عليها بكل نفسٍ، والعدولُ إلى صيغة الجمعِ مع تحقق العمومِ في صورة الإفرادِ أيضًا لإفادة تهويلِ الخطبِ بكون الإسرارِ بطريق المعيةِ والاجتماع، وإنما لم يُراعَ ذلك فيما سبق لتحقيق ما يُتوخىٰ من فرض كونِ جميعِ ما في الأرض لكل واحدةٍ من النفوس، وإيثارُ صيغةِ جمعِ المذكرِ لحمل لفظ النفسِ على الشخص أو لتغليب ذكورِ مدلولِه على إناثه ﴿**الندامة**﴾ على ما فعلوا من الظلم أي أخفَوْها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهاتَ ولاتَ حينَ اصطبارٍ بل لأنهم بُهتوا ﴿**لما رأوا العذاب**﴾ أي عند معاينتِهم من فظاعة الحالِ وشدةِ الأهوالِ ما لم يكونوا يحتسبوا فلم يقدروا على أن ينطِقوا بشيء، (فلما) بمعنى حين منصوبٌ بـ (أسرّوا) أو حرفُ شرطٍ حذف جوابُه لدِلالة ما تقدم عليه، وقيل: أسرها رؤساؤُهم ممن أضلوهم حياءً منهم وخوفًا من توبيخهم، ولكن الأمرَ أشدُّ من أن يعترِيَهم هناك شيءٌ غيرَ خوفِ العذاب، وقيل: أسروا الندامةَ أخلصوها لأن إسرارها إخلاصُها أو لأن سرَّ الشيءِ خالصتُه حيث تُخْفىٰ ويُضَنّ بها، ففيه تهكمٌ بهم.

وقيل: أظهروا الندامةَ من قولهم: أسرَّ الشيء وأشره إذا أظهره حين عيل صبرُه وفنِيَ تجلُّده.

﴿**وقُضي بينهم**﴾ أي أُوقع القضاءُ بين الظالمين من المشركين وغيرِهم من أصناف أهل الظلمِ بأن أُظهر الحقُّ سواءٌ كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العبادِ من الباطل، وعومل أهلُ كل منهما بما يليق به ﴿**بالقسط**﴾ بالعدل، وتخصيصُ الظلم بالتعدي وحملُ القضاء على مجرد الحكومةِ بين الظالمين والمظلومين من غير أن يُتعرَّضَ لحال المشركين وهم أظلمُ الظالمين لا يساعدُه المقامُ فإن مقتضاه كونُ الظلم عبارةً عن الشرك أو عما يدخُل فيه دخولًا أوليًّا.

﴿**وهم**﴾ أي الظالمون ﴿**لا يظلمون**﴾ فيما فعل بهم من العذاب بل هو من

---

(١) في خ: افداه.

مقتضيات ظلمِهم ولوازمِه الضرورية ﴿**ألا إن لله ما في السموات والأرض**﴾ أي ما وجد فيهما داخلًا في حقيقتهما أو خارجًا عنهما متمكنًا فيهما، وكلمةُ ما لتغليب غيرِ العقلاءِ على العقلاء، فهو تقريرٌ لكمال قدرتِه سبحانه على جميع الأشياءِ وبيانٌ لاندراج الكلِّ تحت ملكوتِه يتصرف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا.

﴿**ألا إن وعد الله**﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ لتفخيم شأنِ الوعدِ والإشعارِ بعلة الحكم، وهو إما بمعنى الموعودِ أي جميعِ ما وُعد به كائنًا ما كان فيندرج فيه العذابُ الذي استعجلوه وما ذُكر في أثناء[1] بيان حالِه اندراجًا أوليا، أو بمعناه المصدريِّ أي وعدَه بجميع ما ذكر فمعنى قولِه تعالى: ﴿**حق**﴾ على الأول ثابتٌ واقعٌ لا محالة وعلى الثاني مطابقٌ للواقع، وتصديرُ الجملتين بحرفي التنبيهِ والتحقيقِ للتسجيل على تحقق مضمونِها المقرِّر لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيهِ على وجوب استحضارِه والمحافظةِ عليه ﴿**ولكن أكثرهم**﴾ لقصور عقولِهم واستيلاءِ الغفلة عليهم والفهمِ بالأحوال المحسوسةِ المعتادة ﴿**لا يعلمون**﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ﴿**هو يحيي ويميت**﴾ في الدنيا من غير دخلٍ لأحد في ذلك ﴿**وإليه ترجعون**﴾ في الآخرة بالبعث والحشرِ ﴿**يا أيها الناس**﴾ التفاتٌ ورجوعٌ إلى استمالتهم نحوَ الحق واستنزالِهم إلى قَبوله واتباعه غِبَّ تحذيرِهم من غوائل الضلالِ بما تُليَ عليهم من القوارع الناعيةِ عليهم سوءَ عاقبتِهم وإيذانٌ بأن جميعَ ذلك مسوقٌ لمصالحهم ومنافِعِهم ﴿**قد جاءتكم موعظة**﴾ وهي والوعظُ والوعظة التذكيرُ بالعواقب سواءٌ كان بالزجر والترهيبِ أو بالاستمالة والترغيبِ وكلمة (من) في قوله تعالى: ﴿**من ربكم**﴾ ابتدائيةٌ متعلقةٌ بجاءتكم أو تبعيضيةٌ متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لـ (موعظة) أي موعظةٌ كائنةٌ من مواعظ ربِّكم، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ من حسن[2] الموقِع ما لا يخفى ﴿**وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**﴾ أي كتاب جامعٌ لهذه الفوائد والمنافِع فإنه كاشفٌ عن أحوال الأعمالِ حسناتِها وسيئاتِها مرغب في الأولى ورادِعٌ عن الأخرى ومبينٌ للمعارف الحقةِ التي هي شفاءٌ لما في الصدور من الأدواء القلبيةِ كالجهل والشكِّ والشِّرْكِ والنفاق وغيرِها من العقائد الزائغةِ وهادٍ إلى طريق الحقِّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبةِ في الآفاق والأنفسِ وفي مجيئه رحمةً للمؤمنين حيث نجَوا به من ظلمات الكفرِ والضلال إلى نور الإيمانِ وتخلصوا من دركاتِ النيرانِ وارتقَوا إلى درجات الجنانِ، والتنكيرُ

---

(١) في خ: إيثار.
(٢) في خ: جنس.

في الكل للتفخيم ﴿**قل**﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله ﷺ ليأمرَ الناسَ بأن يغتنموا ما في مجيء القرآن العظيم من الفضل والرحمة ﴿**بفضل الله وبرحمته**﴾ المرادُ بهما إما ما في مجيء القرآنِ من الفَضل والرحمةِ وإما الجنسُ وهما داخلان فيه دخولًا أوليا، والباء متعلقةٌ بمحذوف، وأصلُ الكلام ليفرَحوا بفضل الله وبرحمته[1] للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرحِ ثم قُدّم الجارُّ والمجرورُ على الفعل لإفادة القصرِ ثم أُدخل عليه الفاءُ لإفادة معنى السببيةِ فصار بفضل الله وبرحمته فليفرَحوا ثم قيل: ﴿**فبذلك فليفرحوا**﴾ للتأكيد والتقريرِ ثم حُذف الفعلُ الأول لدلالة الثاني عليه والفاءُ الأولى جزائيةٌ والثانيةُ للدلالة على السببية والأصلُ إن فرِحوا بشيء فبذلك ليفرحوا لا بشيء آخرَ، ثم أُدخل الفاءُ للدلالة على السببية ثم حذف الشرطُ، ومعنى البُعد في اسم الإشارةِ للدلالة على بُعد درجةِ فضل الله تعالى ورحمتِه ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته[2] فلْيعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يتعلق الباءُ بجاءتكم أي جاءتكم موعظةٌ بفضل الله وبرحمته فبذلك أي فبمجيئها فليفرَحوا وقرئ[3] (فلتفرحوا) وقرأ أُبيّ: فافرَحوا[4]، وعن أبي كعب أن رسولَ الله ﷺ تلا: «**قل بفضلِ الله وبرحمتِهِ**» فقالَ: «**بكتاب الله والإسلامِ**»[5]، وقيل: فضلُه[6] الإسلامُ ورحمتُه ما وعَد عليه.

---

(١) زاد في خ: وتكرير الباء في (برحمته). (٢) في خ: ورحمته.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وعثمان بن عفان، وأبي، وأنس، والحسن، وأبو رجاء، وابن هرمز، وابن سيرين، وأبو جعفر المدني، والسلمي، وقتادة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٢)، الإعراب للنحاس (٢/ ٦٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٦)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٩٥)، وتفسير الطبري (١١/ ٨٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٤)، الحجة لأبي زرعة ص (٣٣٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤١)، والكشف للقيسي (١/ ٥٢٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١١٦).

(٤) قرأ بها: أبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٦٥)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٣)، والمعاني للفراء (١/ ٤٦٥)، وتفسير الرازي (١٧/ ١١٨).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٥٦٨) موقوفًا على أبي سعيد الخدري رقم (١٧٦٨٣)، وهلال بن يساف رقم (١٧٦٨٥-١٧٦٨٦-١٧٦٨٧-١٧٦٨٨) و(٦/ ٥٦٩) موقوفًا أيضًا على قتادة رقم (١٧٦٩٠)، والحسن رقم (١٧٦٩١)، ومجاهد رقم (١٧٦٩٢)، وابن عباس رقم (١٧٦٩٥)، وزيد بن أسلم رقم (١٧٦٩٩-١٧٧٠٠).
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفًا على الخدري وعلي، وابن عباس؛ كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفًا على ابن عباس؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٨)، وعزاه أيضًا إلى ابن مردويه في تفسيره.

(٦) في خ: فضل.

﴿هو﴾ أي ما ذكر من فضل الله ورحمته ﴿خير مما يجمعون﴾ من حُطام الدنيا وقرئ (تجمعون)[1] أي فبذلك فليفرَحِ المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطَبون.

﴿قل أرأيتم﴾ أي أخبروني ﴿ما أنزل الله لكم من رزق﴾ (ما) منصوبةُ المحلِّ بما بعدها أو بما قبلها واللامُ للدلالة على أن المرادَ بالرزق ما حل لهم، وجعلُه منزلًا لأنه مقدّرٌ في السماء محصّلٌ هو أو ما يتوقف عليه وجودًا أو بقاءً بأسباب سماويةٍ من المطر والكواكبِ في الإنضاج والتلوين ﴿فجعلتم منه﴾ أي جعلتم بعضَه ﴿حرامًا﴾ أي حكمتم بأنه حرامٌ ﴿وحلالًا﴾ أي وجعلتم بعضَه حلالًا أي حكمتم بحِلّه مع كون كلِّه حلالًا وذلك قولُهم: ﴿هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام، الآية ١٣٨]، وقولهم: ﴿ما في بطون هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورنا ومُحرَّمٌ على أزواجنا﴾ [الأنعام، الآية ١٣٩] ونحوُ ذلك، وتقديمُ الحرامِ لظهور أثر الجعلِ فيه ودورانِ التوبيخِ عليه ﴿قل﴾ تكريرٌ لتأكيد الأمرِ بالاستخبار أي أخبروني ﴿آلله أذن لكم﴾ في ذلكَ الجعلِ فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى ﴿أم على الله تفترون﴾ أم متصلةٌ والاستفهامُ للتقرير والتبكيتِ لتحقق العلم بالشق الأخير قطعًا كأنه قيل: أم لم يأذنْ لكم بل تفترون عليه سبحانه، فأظهر الاسمَ الجليلَ وقدّم على الفعل دِلالةً على كمال قبحِ افترائِهم وتأكيدًا للتبكيت إثرَ تأكيدٍ مع مراعاة الفواصلِ، ويجوز أن يكون الاستفهامُ للإنكار وأمْ منقطعةً، ومعنى بل فيها الإضرابُ والانتقال من التوبيخ والزجرِ بإنكار الإذنِ إلى ما تفيده همزتُها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل: بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون.

﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب﴾ كلامٌ مسوقٌ من قِبَله تعالى لبيان هولِ ما سيلقَونه غيرُ داخلٍ تحت القولِ المأمورِ به، والتعبيرُ عنهم بالموصول في موقع الإضمارِ لقطع احتمالِ الشق الأولِ من التردد والتسجيلِ عليهم بالافتراء وزيادةِ الكَذب مع أن الافتراءَ لا يكون إلا كذبًا لإظهار كمالِ قبحِ ما افتعلوا وكونِه كذبًا في اعتقادهم أيضًا، وكلمةُ (ما) استفهاميةٌ وقعت مبتدأً وظن خبرُها ومفعولاه محذوفان

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، ورويس، والحسن، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٢)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٩٥)، والتيسير للداني ص (١٢٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٨٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٧)، والغيث للصفاقسي ص (٤٢٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٢).

وقوله عز وجل: ﴿يوم القيامة﴾ ظرفٌ لنفس الظنِّ، أي أيُّ شيءٍ ظنُّهم في ذلك اليوم، يومَ عرضِ الأفعال والأقوالِ والمجازاة عليها مثقالًا بمثقال، والمرادُ تهويلُه وتفظيعُه بهول ما يتعلق به مما يُصنع بهم يومئذ، وقيل: هو ظرفٌ لما يتعلق به ظنُّهم اليومَ من الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلًا له ولِما فيه من الأحوال، لكمال وضوحِ أمرِه في التقرير والتحققِ، منزلةَ المسلم عندهم أي أيُّ شيء ظنُّهم لما سيقع يوم القيامة؟ أيحسبون أنهم لا يُسألون عن افترائهم [أو][1] لا يجازون عليه أو يجازون جزاءً يسيرًا ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون؟ كلا إنهم لفي أشدِّ العذاب لأن معصيتَهم أشدُّ المعاصي، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وقرئ على لفظ الماضي[2]، أي أيُّ ظنٍّ ظنوا يوم القيامة؟ وإيرادُ صيغةِ الماضي لأنه كائنٌ فكأنه قد كان ﴿إن الله لذو فضل﴾ أي عظيم لا يُكتنه كنهُه ﴿على الناس﴾ أي جميعًا حيث أنعم عليهم بالعقل المميِّز بين الحقِّ والباطلِ والحسَنِ والقبيحِ ورحِمهم بإنزال الكتبِ وإرسالِ الرسلِ وبيّن لهم الأسرارَ التي لا تستقلُ العقولُ في إدراكها وأرشدهم إلى ما يُهمّهم من أمر المعاشِ والمعاد ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ تلك النعمةَ الجليلةَ فلا يصرِفون قُواهم ومشاعرَهم إلى ما خُلقت له ولا يتبعون[3] دليلَ الشرعِ فيما لا يدرك إلا به، وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقَوْنه يوم القيامة فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييلٌ لما سبق مقرِّرٌ لمضمونه.

﴿وما تكون في شأن﴾ أي في أمر، من شأنْتُ شأْنه أي قصدتُ قصدَه مصدر بمعنى المفعول ﴿وما تتلو منه﴾ الضميرُ للشأنِ والظرفُ صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي تلاوةً كائنةً من الشأن إذ هي معظمُ شؤونِه عليه السلام أو للتنزيل، والإضمارُ قبل الذكر لتفخيم شأنِه، ومن ابتدائيةٌ أو تبعيضيةٌ أو لله عز وجل ومن ابتدائيةٌ والتي في قوله تعالى: ﴿من قرآن﴾ مزيدةٌ لتأكيد النفيِ أو ابتدائيةٌ على الوجه الأول وبيانية[4] أو تبعيضيةٌ على الثاني والثالث ﴿ولا تعملون من عمل﴾ تعميمٌ للخطاب إثرَ تخصيصِه بمقتضى الكلِّ وقد رُوعي في كل من المقامين ما لا يليق به حيث ذُكر أولًا من الأعمال ما فيه فخامةٌ وجلالةٌ وثانيًا ما يتناول الجليلَ والحقيرَ ﴿إلا كنا عليكم شهودًا﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أي ما تلابِسون

---

(١) في خ: و.
(٢) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٧٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٢)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٢٠).
(٣) زاد في خ: دليل العقل فيما يستبد به ولا. (٤) في ط: بيانه.

بشيء منها في حال من الأحوال إلا حالَ كونِنا رُقباءَ مطّلعين عليه حافظين له ﴿**إذ تفيضون فيه**﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه، وأصلُ الإفاضة الاندفاعُ بكثرة أو بقوة، وحيث أريد بالأفعال السابقةِ الحالةُ المستمرَّةُ الدائمةُ المقارنةُ للزمان الماضي أيضًا أوثر في الاستثناء صيغةُ الماضي وفي الظرف كلمةُ إذ التي تفيد المضارعَ معنى الماضي ﴿**وما يعزُب عن ربك**﴾ أي لا يبعُد ولا يغيب على علمه الشامل، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ من الإشعار باللطف ما لا يخفى وقرئ[1] بكسر الزاءِ ﴿**من مثقال ذرة**﴾ كلمةُ مِنْ مزيدةٌ لتأكيد النفي أي ما يعزُب عنه ما يساوي في الثقل نملةً صغيرةً أو هباءً ﴿**في الأرض ولا في السماء**﴾ أي في دائرة الوجودِ والإمكان فإن العامة لا تعرِف سواهما ممكنًا ليس في أحدهما أو متعلِّقًا بهما، وتقديمُ الأرضِ لأن الكلامَ في حال أهلِها والمقصودُ إقامةُ البرهانِ على إحاطة علمِه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى: ﴿**ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين**﴾ كلامٌ برأسه مقرِّرٌ لما قبله ولا نافيةٌ للجنس وأصغرَ اسمُها وفي كتاب خبرُها وقرئ[2] بالرفع على الابتداء والخبر [في كتاب][3]. ومن عطفَ على [لفظ][4] مثقالِ ذرةٍ وجعل الفتحَ بدلَ الكسرِ لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعلَ الاستثناءَ منقطعًا كأنه قيل: لا يعزُب عن ربك شيءٌ ما، لكنْ جميعُ الأشياء في كتاب مبين فكيف يعزُب عنه شيٌ منها؟ وقيل: يجوز أن يكون الاستثناءُ متصلًا ويعزُب بمعنى يَبينُ ويصدُر والمعنى لا يصدُر عنه تعالى شيءٌ إلا وهو [في][5] كتاب مبين. والمراد بالكتاب المبين اللوحُ المحفوظ.

[أولياء الله]

﴿**ألا إن أولياء الله**﴾ بيانٌ على وجه التبشير والوعدِ نتيجةٌ لأعمال المؤمنين وغايةٌ

---

(١) قرأ بها: الكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وطلحة بن مصرف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٩٩)، والتيسير للداني (١٢٢، ١٢٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٩٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٨).

(٢) قرأ بها: حمزة، ويعقوب، والحسن، والأعمش، وخلف، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٣٩٩)، والتيسير للداني ص (١٢٣)، وتفسير الطبري (١١/ ٩١)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٨).

(٣) سقط في ط.

(٤) سقط في خ.

(٥) سقط في ط.

لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنًا على نبيه عليه السلام وأمتِه في كل ما يأتون وما يذرون وإحاطةِ علمه سبحانه بجميع ما في السماء والأرض وكونِ الكلِّ مثبتًا في الكتاب المبين بعد ما أشير إلى فظاعة حالِ المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول إشارةٌ إجماليةٌ على طريق التهديدِ والوعيد، وصُدّرت الجملةُ بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة تقريرِ مضمونِها.

و(الوليُّ) لغة القريبُ والمرادُ بأولياء الله خُلّصُ المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم ﴿**لا خوف عليهم**﴾ في الدارين من لُحوق مكروه ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ من فواتِ مطلوب أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوفٌ وحزنٌ أصلًا بل يستمرون على النشاط والسرورِ، كيف لا واستشعارُ الخوفِ والخشيةِ استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبتِه واستقصارًا للجد والسعي في إقامة حقوقِ العبوديةِ من خصائص الخواصِّ والمقرَّبين، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفائِهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارِعًا لَما مر مرارًا من أن النفيَ وإن دخل على نفس المضارِع يفيد الاستمرارَ والدوامَ بحسب المقام، وإنما لا يعتريهم ذلك لأن مقصِدَهم ليس إلا طاعةَ الله تعالى ونيلَ رضوانِه المستتبعِ للكرامة والزُّلفى، وذلك مما لا ريب في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجب الوعدِ بالنسبة إليه تعالى، وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيويةِ المترددةِ بين الحصول والفوات فهي بمعزل من الانتظام في سلك مقصِدهم وجودًا وعدمًا حتى يخافوا من حصول ضارِّها أو يحزنوا بفوات نافعِها.

وقوله عز وجل: ﴿**الذين آمنوا**﴾ أي بكل ما جاء من عند الله تعالى: ﴿**وكانوا يتقون**﴾ أي يقون أنفسَهم عما يحِقّ وقايتُها عنه من الأفعال والتروك وقايةً دائمةً حسبما يفيده الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ [وهو] بيانٌ وتفسيرٌ لهم وإشارةٌ إلى ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستئنافِ المبنيِّ على السؤال، ومحلُّ الموصولِ الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ كأنه قيل: مَنْ أولئك وما سببُ فوزِهم بتلك الكرامةِ؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمانِ والتقوى المُفْضِيَيْن إلى كل خير المنحيَيْن عن كل شر وقيل: محلُّه النصبُ أو الرفعُ على المدح أو على أنه وصفٌ مادحٌ للأولياء، ولا يقدح في ذلك توسطُ الخبرِ، والمرادُ بالتقوى المرتبةُ الثالثةُ منها الجامعةُ لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الإيمانُ أيضًا ومرتبةِ التجنبِ عن كل ما يُؤثم من فعل وترك، أعني تنزهَ الإنسانِ عن كل ما يشغل سرَّه عن الحق والتبتلِ إليه بالكلية وهي التقوىٰ الحقيقية المأمورُ بها في قوله تعالى: ﴿**يا أيها**

الذين آمنو اتقوا الله حقَّ تقاتِه﴾ [آل عمران: ١٠٢] وبه يحصُل الشهودُ والحضورُ والقُرب الذي عليه يدورُ إطلاقُ الاسمِ عليه، وهكذا كان حالُ كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل: **﴿ولا تعمَلون مِنْ عملٍ﴾** [يونس: ٦١] خلا أن لهم في شأن التبتّلِ والتنزّهِ درجاتٍ متفاوتةً حسب تفاوتِ درجاتِ استعدادتِهم الفائضةِ عليهم بموجب المشيئةِ المبنيةِ على الحِكَم الأبيةِ أقصاها ما انتهى إليه هممُ الأنبياءِ عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولايةِ ولم يعُقْهم[1] التعلقُ بعالم الأشباح عن الاستغراقِ في عالم الأرواح ولم تصُدَّهم الملابسةُ بمصالح الخلقِ عن التبتل إلى جناب الحقِّ لكمال استعدادِ نفوسِهم الزكيةِ المؤيدةِ بالقوة القدسيةِ، فمَلاكُ أمرِ الولاية هو التقوى المذكورُ فأولياءُ الله هم المؤمنون المتقون، ويقرُب منه ما قيل من أنهم الذين تولّى الله هدايتَهم بالبرهان وتولَّوُا القيامَ بحق عبوديةِ الله تعالى والدعوةِ إليه ولا يخالفه ما قيل من أنهم الذين يُذكرُ الله برؤيتهم لما رُوي عن سعيد بن جبير أن رسولَ الله ﷺ سُئل مَنْ أولياءُ الله فقال: «**هم الذين يُذكرُ الله برؤيتهم**[2] **أي بسَمْتهم**

---

(١) في ط: يعقبهم.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٢٨): هكذا ذكره المصنف مرسلًا، وقد روي مرسلًا ومسندًا. ا هـ.

قلتُ: وروي أيضًا موقوفًا.

فالمسند:

أخرجه النسائي في تفسيره لسورة يونس (١/ ٥٧١) رقم (٢٥٥)، وابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق»: ص (٧٢) رقم (٢١٨)، والطبراني في «الكبير»:(١٢/ ١٣) رقم (١٢٣٢٥)، والواحدي في تفسيره (٢/ ٥٥٢).

كلهم من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٩) وقال: رواه الطبراني عن شيخه الفضل بن أبي روح ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. أ.هـ.

كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٦)، وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعًا.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٢٨) إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبزار في مسنده.

وأما المرسل:

فأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٧٩) رقم (٣٤٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦) و(٧/ ٢٣١)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٥) رقم (١٧٧٢٣)، وابن المبارك في الزهد ص (٧٢) رقم (٢١٧)، وابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٩).

كلهم من طرق مختلفة عن سعيد بن جبير مرسلًا.

=

وإخباتهم[1] **وسكينتهم**»، ولا ما قيل من أنهم المتحابّون في الله لما رُوي (عن عمرَ رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن من عبادِ الله عبادًا ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة لمكانهم من الله**» قالوا: يا رسولَ الله خبِّرنا من هم وما أعمالُهم فلعلنا نحبّهم، قال: «**هم قوم تحابُّوا في الله على غير أرحامٍ منهم ولا أموالٍ يتعاطَونها فوالله إن وجوهَهم لنورٌ وإنهم لعلى منابرَ من نور لا يخافون إذا خاف الناسُ ولا يحزنون إذا حزِن الناسُ**»[2] فإن ما ذكر من حسن السَّمْت والسكينةِ

= وذكره السيوطي في «الد المنثور» (٣/ ٥٥٦)، وزاد نسبته لأبي الشيخ عن سعيد بن جبير مرسلًا.
وأما الموقوف:
فأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٥) رقم (١٧٧١٨) بسنده عن مقسم وسعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٦)، وزاد نسبته إلى الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس موقوفًا.
وللحديث شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:
أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٧٩): كتاب الزهد: باب من لا يؤبه له، حديث (٤١١٩)، وأحمد (٦/ ٤٥٩)، وعبد بن حميد ص (٤٥٧) رقم (١٥٨٠-منتخب) والطبراني في الكبير (٢٤/ ١٦٧-١٦٨) رقم (٤٢٣-٤٢٤-٤٢٥)؛ كلهم من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ .... الحديث. وقال البوصيري في «الزوائد»: (٣/ ٢٧٣): هذا إسناد حسن وشهر بن حوشب وسويد ابن سعيد مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات أ.هـ.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٦) بعد أن نسبه لأحمد وحده: وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح. أ.هـ والحديث ذكره السيوطي في «الدر»: (٣/ ٥٥٧)، وزاد نسبته للحكيم الترمذي وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد به وله شاهد آخر من حديث عبد الرحمن بن غنم مرفوعًا:
أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) عن سفيان عن ابن أبي الحسين عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ «خيار عباد الله الذين إذ رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون البراء العنت».
وعبد الرحمن بن غنم مختلف في صحبته، وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين.
وله شاهد آخر من حديث عمرو بن الجموح مرفوعًا:
أخرجه أحمد (١/ ٤٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/ ٩٢)، وقال: «وفيه رشدين بن سعد، وهو منقطع ضعيف».
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٧)، وزاد نسبته إلى الحكيم الترمذي.

(١) الإخباتُ: الخشوع والتواضع، وقد أخْبَتَ لله، يخبت. النهاية (خبت).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٨٨): كتاب البيوع: باب في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٨٦) رقم (٨٩٩٨-٨٩٩٩)، ثم قال: وأبو زرعة عن عمر مرسل ا هـ. والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٦) رقم (١٧٧٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥)، والواحدي في تفسيره (٢/ ٥٥٢-٥٥٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب؛ كما في =

المذكِّرةِ لله تعالى والتحابِّ في الله سبحانه من الأحكام الدنيويةِ اللازمة للإيمان

= تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣٠).
كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب، فذكره.
وقد روي هذا الحديث من حديث أبي هريرة، وأبي مالك الأشعري، وابن عمر، والعلاء بن زياد، وأنس، وأبي الدرداء.
فحديث أبي هريرة:
أخرجه النسائي في التفسير (١/ ٥٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٣٢-٣٣٣) رقم (٥٧٣)، وأبو يعلى في مسنده: (١٠/ ٤٩٥-٤٩٦) حديث (٦١١٠)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٥) رقم (١٧٧٢٨) كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة به.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٧-٥٥٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة به.
وأما حديث أبي مالك الأشعري:
أخرجه أحمد (٥/ ٣٤١-٣٤٢-٣٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٦/ ٤٨٦-٤٨٧) رقم (٩٠٠١)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٣٣-٢٣٤) رقم (٦٨٤٢)، وابن المبارك في «الزهد»: ص (٢٤٨-٢٤٩) رقم (٧١٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٠١) رقم (٢٠٣٢٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٢٩) رقم (٣٤٣٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٦) رقم (١٧٧٣٠)؛ كلهم من طريق ابن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري به.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٩)، وقال: رواه أحمد كله، والطبراني بنحوه...
ورجاله وثقوا. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٥٨)، وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي مالك الأشعري به.
وأما حديث ابن عمر:
فأخرجه الحاكم في مستدركه: (٤/ ١٧٠، ١٧١)، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٧).
وأما حديث العلاء بن زياد:
فأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي: (٢/ ١٣١).
وقال ابن حجر: وعن العلاء بن زياد مرسلًا، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٩).
وأما حديث أنس:
فأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (١/ ٣٦٧) رقم (٤٠٩)، وقال ابن حجر: وفيه راقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان.
وأخرجه ابن عدي في الكامل، والعقيلي في الضعفاء وأعله بواقد، قال ابن عدي: لم يصح حديثه، ونقل العقيلي عن البخاري نحوه، قال: ولا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣١).
وأما حديث أبي الدرداء:
فذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٠)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفهم.

والتقوى والآثارِ الخاصّةِ بهما الحقيقةِ بالتخصيص بالذكر لظهورها وقُربها من أفهام الناسِ قد أورد رسولُ الله ﷺ كلاً من ذلك حسبما يقتضيه مقامُ الإرشادِ والتذكيرِ ترغيبًا للسائلين أو غيرِهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامهم فلعلَّ الحاضرين أولًا كانوا محتاجين إلى إصلاح الحالِ من جهة الأقوالِ والأفعال والملابس[١] ونحو ذلك، والحاضرين ثانيًا مفتقرين إلى تأليف قلوبِهم وعطفِها نحوَ المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسبِ والقرابةِ وتأكيدِ ما بينهم من الأخوة الدينية ببيان عِظَم شأنِها ورفعةِ مكانتها وحُسن عاقبتِها ليُراعوا حقوقَها ويهجُروا من لا يوافقهم في الدين من أرحامهم[٢]، وأما ما ذكر من أنه يغبِطُهم الأنبياءُ فتصويرٌ لحسن حالِهم على طريقة التمثيلِ. قال الكواشي[٣]: وهذا مبالغةٌ، والمعنى لو فُرض قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل: أولياءُ الله الذين يتولّونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجُعل قوله عز وجل: ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ تفسيرا لتولّيهم إياه تعالى. وقوله عز وجل: ﴿**لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة**﴾ تفسيرًا لتولّيه تعالى إياهم ولا ريب في أن اعتبارَ القيد الأخيرِ في مفهوم الولايةِ غيرُ مناسبٍ لمقام ترغيبِ المؤمنين في تحصيلها والثباتِ عليها وبشارتِهم بآثارها ونتائجها بل مخِلٌّ بذلك إذ التحصيلُ إنما يتعلق بالمقدور والاستبشارُ لا يحصل إلا بما عُلم بوجود سببِه والقيدُ المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصّلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصولِه حتى يعرفوا حصولَ الولايةِ لهم ويستبشروا بمحاسنِ آثارِها بل التولي بالكرامة عينُ نتيجةِ الولاية فاعتبارُه في عنوان الموضوعِ ثم الإخبارُ بعدم الخوفِ والحزنِ مما لا يليق بشأن التنزيلِ الجليلِ، فالذي يقتضيه نظمُه الكريمُ أن الأولَ تفسيرٌ للأولياء حسبما شُرح والثاني بيانٌ لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيانِ إنجائِهم من شرورهما ومكارههما، والجملةُ مستأنفةٌ كما سبق كأنه قيل: هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامةٍ؟ فقيل لهم ما يسرّهم في الدارين، وتقديمُ الأول لما أن التخليةَ سابقةٌ على التحلية مع ما فيه من مراعاة حقِّ المقابلةِ بين حسن حالِ المؤمنين وسوء حالِ المفترين، وتعجيلُ إدخالِ المسرّةِ بتبشير الخلاصِ عن الأهوال وتوسيطُ البيانِ السابق بين بشارةِ الخلاص عن المحذور وبشارةِ الفوز بالمطلوب لإظهار كمالِ

---

(١) في خ: والملابسة. (٢) في خ: ذوي أرحامهم.

(٣) هو أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع، الإمام أبو العباس الكواشى الموصلى المفسر، عالم زاهد كبير القدر توفى سنة (٦٨٠) هـ.

ينظر: غاية النهاية فى طبقات القراء: (١/ ١٥١)، وطبقات المفسرين (١/ ٩٨، ١٠٠).

العناية بتفسير الأولياءِ مع الإيذان بأن انتفاءَ الخوف والحزنِ لاتقائهم عما يؤدّي إليهما من الأسباب.

والبُشرى مصدرٌ أريد به المبشَّرُ به من الخيرات العاجلةِ كالنصر والفتحِ والغنيمة وغيرُ ذلك والآجلةِ الغنيةِ عن البيان، وإيثارُ الإبهام والإجمالِ للإيذان بكونه وراءَ البيان والتفصيلِ، والظرفان في موقع الحالِ منه والعاملُ ما في الخبر من معنى الاستقرارِ أي لهم البشرى حالَ كونها في الحياة الدنيا وحالَ كونِها في الآخرة أي عاجلةً وآجلةً، أو من الضمير المجرور أي حالَ كونِهم في الحياة إلخ، ومن البشرى العاجلةِ الثناءُ الحسنُ والذكرُ الجميلُ ومحبةُ الناس.

عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسولَ الله الرجلُ يعمل العملَ لله ويحبه الناسُ فقال عليه السلام: «**تلك عاجلُ بشرى المؤمنين**»[1] هذا وقيل: (البشرى) مصدرٌ والظرفان متعلقان به. أما البُشرى في الدنيا فهي البشاراتُ الواقعةُ للمؤمنين المتقين في غير موضع من الكتاب المبين. وعن النبي ﷺ: «**هي الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرى له**»[2] وعنه عليه الصلاة والسلام: «**ذهبت النبوةُ وبقيت المبشِّراتُ**»[3] وعن

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٤٣٨-النووي) كتاب البر والصلة والآداب، حديث (١٦٦/ ٢٦٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٢) كتاب الزهد، باب: الثناء الحسن، حديث (٤٢٢٥) كلاهما من طريق أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر به.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٧٥) وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٨٣): كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٨)، والدارمي (٢/ ١٢٣): كتاب الرؤيا: باب في قوله تعالى «لهم البشرى في الحياة الدنيا» وأحمد (٥/ ٣١٥، ٣٢١) من طريق يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن عبادة بن الصامت به.
وأخرجه الترمذي (٢٢٧٣)، وأخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٢)، والحميدي (٢/ ١٩٣)، حديث (٣٩١، ٣٩٢)، من طريق عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به.

(٣) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٣٥)؛ روي من حديث حذيفة بن أسيد، ومن حديث أبي الطفيل ومن حديث أم كرز الكعبية. أ.هـ.
أما حديث حذيفة بن أسيد:
فأخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٠) رقم (٣٠٥١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٧٦)، وقال: رواه الطبراني والبزار، ورجال الطبراني ثقات. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٠)، وعزاه إلى ابن مردويه وأما حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة:
فأخرجه أحمد في مسنده: (٥/ ٤٥٤)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٣٥) إلى البخاري في تاريخه الأوسط في باب العين المهملة في ترجمة عثمان بن عبيد، وإلى الطبراني في معجمه، وإلى أبي يعلى الموصلي في مسنده.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن =

عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكةُ بالرحمة قال الله تعالى: **﴿تنزّل عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحزَنوا وأبشِروا بالجنة﴾**[١] [فصلت، الآية ٣٠] وأما البشرى في الآخرة فتلقِّي الملائكةِ إياهم مسلمين مبشَّرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوهِهم وإعطاء الصحائفِ بأيْمانهم وما يقرؤون منها وغيرُ ذلك من البشارات فتكون[٢] هذه بِشارةً بما سيقع من البشارات العاجلةِ والآجلةِ المطلوبة لغاياتها لا لذواتها، ولا يخفى أن صرفَ البشارة الناجزةِ عن المقاصد بالذات إلى وسائلها مما لا يساعده جلالةُ شأنِ التنزيل الكريم **﴿لا تبديل لكلمات الله﴾** لا تغييرَ لأقواله التي من جملتها مواعيدُه الواردةُ بشارةً للمؤمنين المتقين فتدخل فيها البشاراتُ الواردةُ هاهنا دخولًا أوليًا ويثبُت امتناعُ الإخلافِ فيها ثبوتًا قطعيًا، وعلى تقدير كونِ المراد بالبشرى الرؤيا الصالحةَ فالمرادُ بعدم تبديل كلماتِهِ تعالى ليس عدَم الخُلفِ بينهما وبين نتائجِها الدنيوية والأخرويةِ بل عدَم الخُلفِ بينها وبين ما دل على ثبوتها ووقوعِها فيما سيأتي بطريق الوعد من قوله تعالى: **﴿لهم البشرى﴾** فتدبر.

= أبي الطفيل عامر بن واثلة به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٦)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. أ.هـ.

وأما حديث أم كرز الكعبية:

فأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٨٣)، كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٦)، وأحمد (٦/ ٣٨١)، والدارمي (٢/ ١٢٣): كتاب الرؤيا: باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، والحميدي (١/ ١٦٧) رقم (٣٤٨)، وابن حبان (١٣/ ٤١١) رقم (٦٠٤٧)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٩) رقم (١٧٧٤٧).

كلهم من حديث سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي زيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كرز الكعبية به. وذكره البوصيري في «الزوائد» (١/ ١٤٢)، وقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وللحديث شواهد أيضًا من طريق عائشة وأبي هريرة وابن عباس.

فأما حديث عائشة:

فأخرجه أحمد (٦/ ١٢٩) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الجمحي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه البخاري (١٤/ ٤٠١): كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث (٦٩٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٢/ ٨٨)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٩١) رقم (٣١٦٥)؛ كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بنحوه مرفوعًا، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦١).

وأما حديث ابن عباس:

فأخرجه ابن حبان (١٣/ ٤١٠-٤١١) رقم (٦٠٤٥-٦٠٤٦) بنحوه.

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٣/ ١٥٧). (٢) في خ: فيكون.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من أن لهم البشرى في الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوزَ وراءَه وفيه تفسيرٌ لما أُبهم فيما سبق، وهاتيك الجملة والتي قبلها اعتراضٌ لتحقيق المبشَّر به وتعظيمٌ شأنه، وليس من شرطه أن يكون بعده كلامٌ متصل بما قبله، أو هذه تذييلٌ والسابقة اعتراضٌ.

﴿ولا يحزنك قولهم﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئةِ عن مقالاتهم الموحشةِ وتبشيرٌ له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصُره ويُعزّه عليهم، إثرَ بيانِ أن له ولأتباعه أمْنًا من كل محذورٍ وفوزًا بكل مطلوبٍ، وقرئ (ولا يُحْزِنك)[1] من أحزنه وهو في الحقيقة نهيٌ له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل: لا تحزنْ بقولهم ولا تُبالِ بتكذيبهم وتشاورِهم في تدبير هلاكِك وإبطالِ أمرِك وسائرِ ما يتفوهون به في شأنك مما لا خيرَ فيه، وإنما وُجّه النهيُ إلى قولهم للمبالغة في نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهيَ عن التأثير نهيٌ عن التأثر بأصله ونفيٌ له بالمرة وقد يوجّه النهيُ إلى اللازم والمرادُ هو النهيُ عن الملزوم كما في قولك: لا أُرَيَّنك هاهنا، وتخصيصُ النهي عن الحزن بالإيراد مع شمول النفي السابقِ للحزن أيضًا لما أنه لم يكن فيه عليه السلام شائبةُ خوفٍ حتى ينهىٰ عنه وربما كان يُعنىٰ به عليه السلام في بعض الأوقاتِ نوعُ حزنٍ فسُلِّيَ عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿إن العزة﴾ تعليلٌ للنهي على طريقة الاستئنافِ أي الغلبةَ والقهرَ ﴿لله جميعًا﴾ أي في ملكته وسلطانِه لا يملك أحدٌ شيئًا منها أصلًا لا هم ولا غيرُهم فهو يقهرُهم ويعصِمُك منهم وينصُرك عليهم وقد كان كذلك فهي من جملة المبشرات العاجلة، وقرئ بفتح (أن)[2] على صريح التعليلِ أي لأن العزة لله ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون في حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافِئُهم بذلك.

﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض﴾ أي العقلاءَ من الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجةِ إلى التصريح بغيرهم فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيدًا له سبحانه مقهورين تحت قهرِه[3] وملكته فما

---

(١) قرأ بها: نافع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٦)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٣٠).

(٢) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٤)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٣٠).

(٣) في خ: قدرته.

عداهم من الموجودات أولى بذلك، وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجبِ لسلوته عليه السلام وعدمِ مبالاتِه بالمشركين وبمقالاتهم، تمهيدٌ لما لحِق من قوله تعالى:

﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ وبرهانٌ على بطلان ظنونِهم وأعمالِهم المبنيةِ عليها.

و(ما) **إما** نافيةٌ و(شركاءَ) مفعولُ (يتّبع) ومفعولُ (يدْعون) محذوفٌ لظهوره أي ما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة وإن سمَّوْها شركاءَ فاقتُصر على أحدهما لظهور دلالتِه على الآخر، ويجوز أن يكون المذكورُ مفعولَ يدعون ويكون مفعولُ يتّبع محذوفًا لانفهامه من قوله تعالى: **﴿إن يتبعون إلا الظن﴾** أي ما يتبعونه يقينًا إنما يتبعون ظنَّهم الباطلَ، **وإما** موصولةٌ معطوفةٌ على مَنْ كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاءَ أي وله شركاؤهم، وتخصيصُهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارةٌ أو دلالةٌ للمبالغة في بيان بطلانِ اتباعِهم وفسادِ ما بنَوْه عليه من ظنهم شركاءَهم معبودين مع كونهم عبيدًا له سبحانه، **وإما** استفهاميةٌ أي وأيُّ شيءٍ يتّبعون أي لا يتبعون[1] إلا الظنَّ والخيالَ الباطلَ كقوله تعالى: **﴿ما تعبدُون من دونه إلا أسماءً سمَّيتموها﴾** [يوسف، الآية ٤٠] إلخ، وقرئ (تدعون) بالتاء[2] فالاستفهامُ للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل: وأي شيءٍ يتّبع الذين تدعونهم شركاءَ من الملائكة والنبيين تقريرًا لكونهم متّبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخًا لهم على اقتدائهم بهم في ذلك كقوله تعالى: **﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ﴾** [الإسراء، الآية ٥٧] ثم صُرف الكلامُ عن الخطاب إلى الغَيبة فقيل: إنْ يتبعُ هؤلاء المشركون إلا الظنَّ ولا يتبعون ما يتبعه الملائكةُ والنبيون من الحق **﴿وإن هم إلا يخرصون﴾** يكذبون فيما ينسُبونه إليه سبحانه ويحزَرون ويقدّرون أنهم شركاءُ تقديرًا باطلًا.

﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا﴾ تنبيهٌ على تفرّده تعالى بالقدرة الكاملةِ والنعمةِ الشاملة ليدلّهم على توحّده سبحانه باستحقاق العبادة، وتقريرٌ لما سلف من كون جميعِ الموجوداتِ الممكنةِ تحت قدرتِه وملكته المفصِح عن اختصاص العزةِ به سبحانه، والجعلُ إن كان بمعنى الإبداعِ والخلق فمبصِرًا حالٌ وإلا

---

(١) في خ: يتبعون شيئا ما.

(٢) قرأ بها: علي بن أبي طالب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٧٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٤).

(فلكم) مفعولُه الثاني، أو هو حالٌ كما في الوجه الأولِ والمفعولُ الثاني لتسكنوا فيه، أو هو محذوفٌ يدل عليه المفعولُ الثاني من الجملة الثانيةِ كما أن العلةَ الغائيّةَ منها محذوفةٌ اعتمادًا على ما في الأولى، والتقديرُ هو الذي جعل لكم الليلَ مظلمًا لتسكُنوا فيه والنهارَ مبصِرًا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجيء نظيره في قوله تعالى: **﴿وإن يمسسْك الله بضرٍ فلا كاشفَ له إلا هو وإن يُردْك بخير فلا رادَّ لفضله﴾** [يونس، الآية ١٠٧] فحُذف في كل واحد من الجانبين ما ذكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك، وإسنادُ الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في: نهارُه صائمٌ **﴿إن في ذلك﴾** أي في جعل كلٍّ منهما كما وُصف أو فيهما، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلةِ المشارِ إليه وعلوِّ رتبته **﴿لآيات﴾** عجيبةً كثيرةً أو آياتٍ أُخَرَ غيرَ ما ذكر **﴿لقوم يسمعون﴾** أي هذه الآياتِ المتلوةَ ونظائرَها المنبّهةَ على تلك الآيات التكوينيةِ الآمرةِ بالتأمل فيها سماعَ تدبرٍ واعتبار فيعملون بمقتضاها، وتخصيصُ الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها.

﴿قالوا﴾ شروعٌ في ذكر ضربٍ آخرَ من أباطيلهم وبيانُ بطلانه **﴿اتخذ الله ولدًا﴾** أي تبنّاه **﴿سبحانه﴾** تنزيهٌ وتقديس له عما نسبوا إليه وتعجيبٌ من كلمتهم الحمقاء **﴿هو الغني﴾** على الإطلاق عن كل شيءٍ في كل شيء وهو علةٌ لتنزيهه[1] سبحانه وإيذانٌ بأن اتخاذَ الولدِ من أحكام الحاجةِ وقوله عز وجل: **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾** أي من العقلاء وغيرِهم، تقريرٌ لغناه وتحقيقٌ لمالكيته تعالى لكل ما سواه وقوله تعالى: **﴿إن عندكم من سلطان﴾** أي حجة **﴿بهذا﴾** أي بما ذكر من قولهم الباطلِ وتوضيحٌ لبطلانه بتحقيق سلامةِ ما أقيم من البرهان الساطِع عن المعارض، فِمنْ في قوله تعالى: **﴿مِنْ سلطان﴾** زائدةٌ لتأكيد النفي وهو مبتدأٌ والظرفُ المقدم خبرُه أو مرتفعٌ على أنه فاعلٌ للظرف لاعتماده على النفي وبهذا متعلقٌ إما بسلطان لأنه بمعنى الحجةِ والبرهانِ وإما بمحذوف وقعَ صفةً له وإما بما في (عندكم) من معنى الاستقرارِ، كأنه قيل: إن عندكم في هذا القول من سلطان، والالتفاتُ إلى الخطاب لمزيد المبالغةِ في الإلزام والإفحام وتأكيدِ ما في قوله تعالى: **﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** من التوبيخ والتقريعِ على جهلهم واختلاقِهم، وفيه تنبيه على أن كل مقالةٍ لا دليلَ عليها فهي جهالةٌ وأن العقائدَ لا بد لها من برهان قطعيٍّ وأن التقليدَ بمعزل من الاعتداد به **﴿قل﴾** تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله ﷺ ليبين لهم

---

(١) في خ: لتنزهه.

سوءَ مغبّتِهم ووخامةَ عاقبتِهم ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ أي في كل أمر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء بنسبة الولدِ والشريكِ إليه سبحانه دخولًا أوليا ﴿لا يفلحون﴾ أي لا ينجُون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلًا وتخصيصُ عدم النجاةِ والفوز بما يندرج في ذلك من عدم النجاةِ من النار وعدمِ الفوز بالجنة لا يناسب مقامَ المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه ﴿متاع في الدنيا﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهرِ من نيل المطالبِ والفوزِ بالحظوظ الدنيويةِ على الإطلاق أو في ضمن افترائِهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاحِ كأنه قيل: كيف لا يُفلحون وهم في غِبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاعٌ يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب، ثم أشير إلى انتفاء النجاةِ عن المكروه أيضًا بقوله عز وعلا: ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ أي بالموت. ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ فيبقَوْن في الشقاء المؤبدِ بسبب كفرِهم المستمرِّ أو بكفرهم في الدنيا فأين هم من الفلاح، وقيل: المبتدأُ المحذوف حياتُهم أو تقلُّبهم، وقد قيل: إنه افتراؤُهم، ولا يخفى أن المتاعَ إنما يطلق على ما يكون مطبوعًا عند النفسِ مرغوبًا فيه في نفسه يُتمتع ويُنتفع به، وإنما عدمُ الاعتدادِ به لسرعة زوالِه، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند النفس فضلًا عن أن يكون مطبوعًا عندها وعده كذلك باعتبار إجراءِ حكم ما يؤدي إليه من رياستهم عليه مما لا وجهَ له، فالوجهُ ما ذكر أولًا، وليس ببعيد ما قيل: إن المحذوفَ هو الخبرُ أي لهم متاعٌ والآية إما مسوقةٌ من جهة الله تعالى لتحقيق عدم إفلاحِهم غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمورِ به كما يقتضيه ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿ثم نذيقهم﴾ وإما داخلةٌ فيه على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بنقله وحكايتِه عنه عز وجل.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ

أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

[أبناء نوح]

﴿واتلُ عليهم﴾ أي على المشركين من أهل مكةَ وغيرِهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمعون به على جناح الفواتِ وأنهم مشرِفون على العذاب الخالد

﴿نبأ نوح﴾ أي خبرَه الذي له شأنٌ وخطر مع قومه الذين هم أضرابُ قومِك في الكفر والعنادِ ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلولِ عذابِ الغرق الموصولِ بالعذاب المقيمِ لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدةُ شكيمتهم أو يعترف بعضُهم بصحة نبوءتِك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقٌ لما ثبت عندهم من غير مخالفةٍ بينهما أصلًا مع علمهم بأنك لم تسمَعْ ذلك من أحد ليس إلا بطريق الوحي.

وفيه من تقرير ما سبق من كون الكلِّ لله سبحانه واختصاصِ العزةِ به تعالى وانتفاءِ الخوفِ والحزن عن[1] أوليائه عز وعلا قاطبةً وتشجيعِ النبيِّ ﷺ وحملِه على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى.

﴿إذ قال﴾ معمولٌ لـ (نبأ) أو بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ، وأيا ما كان فالمرادُ بعضُ نَبئِه عليه السلام لا كلُّ ما جرى بينه وبين قومه.

واللامُ في قوله تعالى: ﴿لقومه﴾ للتبليغ ﴿يا قومِ إن كان كبر﴾ أي عظُمَ وشقّ ﴿عليكم مقامي﴾ أي نفسي كما يقال: فعلتُه لمكان فلانٍ، أي لفلان ومنه قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ [الرحمٰن، الآية ٤٦] أي خاف ربَّه أو قيامي ومُكثي بين ظَهْرانيكم مدةً طويلة أو قيامي ﴿وتذكيري بآيات الله﴾ فإنهم كانوا إذا وَعَظوا الجماعةَ يقومون على أرجلهم والجماعةُ قعودٌ ليظهر حالُهم ويُسمع مقالُهم ﴿فعلى الله توكلت﴾ جوابٌ للشرط أي دمت على تخصيص التوكلِ به تعالى، ويجوز أن يراد به إحداثُ مرتبةٍ مخصوصة من مراتب التوكل ﴿فأجمعوا أمركم﴾ عطفٌ على الجواب، والفاءُ لترتيب الأمرِ بالإجماع على التوكل لا لترتيب نفسِ الإجماعِ عليه أو هو الجوابُ وما سبق جملةٌ معترضةٌ[2].

والإجماعُ العزم قيل: هو متعدٍّ بنفسه وقيل: فيه حذفٌ وإيصال. قال السدوسي[3]: أجمعتُ الأمرَ أفصحُ من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم: أجمع أمرَه جعله مجموعًا بعد ما كان متفرقًا، وتفرُّقُه أنه يقول: مرة أفعلُ كذا وأخرى أفعل كذا وإذا عزم على أمر واحدٍ فقد جمعه أي جعله جميعًا ﴿وشركاءكم﴾ بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءةُ بالرفع[4] عطفًا على الضمير المتصل تنزيلًا

(١) في خ: من. (٢) في خ: المتراضية.

(٣) هو مؤرّج بن عمرو بن أبي فيد السدوسي.. من كبار أهل اللغة والعربية. وأخذ عن أبي زيد الأنصاري وصحب الخليل بن أحمد وكان من كبار أصحابه. وسمع الحديث من شعبة بن الحجاج وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما.
ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري، ص (١٥٠).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وسلام.

=

للفصل منزلةَ التأكيدِ، وإسنادُ الإجماعِ إلى الشركاء على طريقة التهكم، وقيل: إنه عطفٌ على أمرَكم بحذف المضافِ أي أمرَ شركائِكم وقيل: منصوبٌ بفعل محذوفٍ أي وادعوا شركاءَكم وقد قرئ كذلك[١] وقرئ (فاجْمعوا)[٢] من الجمع، أي فاعزِموا على أمركم الذين تريدون بي من السعي في إهلاكي واحتشِدوا فيه على أي وجه يمكنكم **﴿ثم لا يكن أمركم﴾** ذلك **﴿عليكم غمة﴾** أي مستورًا من غمّه إذا ستره، بل مكشوفًا مشهورًا تجاهرونني به فإن السرَّ إنما يُصار إليه لسد باب تدارُك الخلاصِ بالهرب أو نحوه، فحيث استحال ذلك في حقي لم يكن للسر وجهٌ، وإنما خاطبهم عليه السلام بذلك إظهارًا لعدم المبالاةِ بهم وأنهم لم يجدوا إليه سبيلًا وثقةً بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكَلاءتِه، فكلمةُ ثمّ للتراخي في الرتبة، وإظهارُ الأمر في موقع الإضمارِ لزيادة تقريرٍ يقتضيها مقامُ الأمرِ بالإظهار الذي يستلزمه النهيُ عن التستر والإسرار، قيل: المرادُ بأمرهم ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدةِ عليهم المكروهةِ لديهم، والغُمة والغمّ كالكُربة والكرب وثم للتراخي الزماني، والمعنى لا يكن حالُكم عليكم غمةً وتخلصوا بإهلاكي من ثِقَل مقامي وتذكيري، ولا يخفى أنه لا يساعده قولُه عز وجل **﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾** أي أدّوا إليّ أي أحكِمُوا ذلك الأمرَ الذي تريدون بي ولا تمهلوني كقوله تعالى: **﴿وقضينا إليه ذلك الأمرَ﴾** [الحجر، الآية ٦٦] أو أدوا إلي ما هو حقٌّ عليكم عندكم من إهلاكي كما يقضي الرجلُ غريمَه، فإن توسيطَ ما يحصل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصلِ بين الشجرِ ولِحائِه، وقرئ أفضوا (بالفاء)[٣] أي انتهوا إليّ بشرّكم أو ابرُزوا إليّ، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء **﴿فإن توليتم﴾**

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٠٨)، وتفسير الطبري (١١/ ٩٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٦٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٢٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٤)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٤٦).

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: المحتسب لابن جني (١/ ٣١٤).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: التبيان للطوسي (٥/ ٤٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٥).

(٣) قرأ بها: السري بن ينعم، وأبو حيوة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٥)، والمعاني للفراء (١/ ٤٧٤).

الفاءُ لترتيب التولِّي على ما سبق فالمرادُ به إما الاستمرارُ عليه وإما إحداثُ التولّي المخصوصِ، أي إن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري إثرَ ما شاهدتم مني من مخايل صحةِ ما أقول ودلائلِها التي من جملتها دعوتي إياكم جميعًا إلى تحقيق ما تريدون بي من السوء غيرَ مبالٍ بكم وبما يأتي منكم وإحجامُكم من الإجابة علمًا منكم بأني على الحق المبين مؤيدٌ من عند الله العزيز ﴿**فما سألتكم**﴾ بمقابلة وعظي وتذكيري ﴿**من أجر**﴾ تؤدّونه إلي حتى يؤدي ذلك إلى توليكم إما لاتهامكم إياي بالطمع والسؤالِ وإما لثقلِ دفع المسؤولِ عليكم أو حتى يضرّني توليكم المؤدِّي إلى الحرمان، فالأولُ لإظهار بطلان التولي ببيان عدمِ ما يصححه والثاني لإظهار عدم مبالاتِه عليه السلام بوجوده وعدمه، وعلى التقديرين فالفاء الجزائيةُ لسببية الشرطِ لإعلام مضمونِ الجزاءِ لا لنفسه، والمعنى إن توليتم فاعلموا أن ليس في مصحِّح له ولا تأثّرٍ منه وقوله عز وجل: ﴿**إن أجري إلا على الله**﴾ ينتظم المعنيين جميعًا خلا أنه على الأول تأكيدٌ وعلى الثاني تعليلٌ لاستغنائه عليه السلام عنه أي ما ثوابي على العِظة والتذكير إلا عليه تعالى يُثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمرَه ولا أرجو غيرَه أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء في طاعة الله تعالى ﴿**فكذبوه**﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعدما ألزمهم الحجةَ وبيّن لهم المَحَجّةَ وحقق أن تولّيَهم ليس له سببٌ غيرُ التمردِ والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمةُ العذاب ﴿**فنجيناه ومن معه في الفلك**﴾ من المسلمين وكانوا ثمانين ﴿**وجعلناهم خلائف**﴾ من الهالكين ﴿**وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا**﴾ أي بالطوفان، وتأخيرُ ذكره عن ذكر الإنجاءِ والاستخفاف حسبما وقع في قوله عز وعلا: ﴿**ولما جاء أمرُنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ**﴾ [سورة هود الآية: ٩٤] وغيرِ ذلك من الآيات الكريمة لإظهار كمالِ العناية بشأنِ المقدّمِ ولتعجيل المسرةِ للسامعين وللإيذان بسبق الرحمةِ التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائمِ المجرمين ﴿**فانظر كيف كان عاقبة المنذرين**﴾ تهويلٌ لما جرى عليهم وتحذيرٌ لمن كذّب الرسولَ عليه الصلاة والسلام وتسليةٌ له عليه السلام ﴿**ثم بعثنا**﴾ أي أرسلنا ﴿**من بعده**﴾ أي من بعد نوحٍ عليه السلام ﴿**رسلًا**﴾ التنكير للتفخيم ذاتًا ووصفًا أي رسلًا كرامًا ذوي عددٍ كثيرٍ ﴿**إلى قومهم**﴾ أي إلى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كلَّ رسولٍ منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم ما، أيَّ قومٍ كانوا بل كلُّ رسولٍ إلى قومه خاصة مثلُ هودٍ إلى عاد وصالحٍ إلى ثمودَ وغير ذلك ممن قُصَّ منهم ومن لم يُقصّ ﴿**فجاءوهم**﴾ أي جاء كلُّ رسولٍ قومَه المخصوصين به

﴿بالبينات﴾ أي المعجزات الواضحةِ الدالةِ على صدق ما قالوا، والباءُ إما متعلقةٌ بالفعل المذكورِ على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالًا من ضمير جاءوا أي ملتبسين بالبينات، لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصةٍ به معينةٍ له حسب اقتضاءِ الحِكمة فإنَّ مراعاةَ انقسامِ الآحاد إلى الآحاد إنما هي فيما بين ضميري جاءوهم كما أشير إليه ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيانٌ لاستمرار عدمِ إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرارِ إيمانِهم كما مر مثلُه في هذه السورة الكريمة غيرَ مرة أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوامِ في وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعًا منهم لشدة شكيمتِهم في الكفر والعناد، ثم إن كان المحكيُّ آخرَ حال كلِّ قومٍ حسبما يدل عليه حكايةُ قوم نوحٍ فالمراد بعدم إيمانِهم المذكورِ هاهنا إصرارُهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما أشير إليه في قوله عز وجل: ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ تكذيبُهم من حيث مجيءِ الرسلِ إلى زمان الإصرارِ والعناد وإنما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأول حيث جُعل صلةً للموصول إيذانًا بأنه بيِّنٌ بنفسه غنيٌّ عن البيان، وإنما المحتاجُ إلى ذلك عدمُ إيمانِهم بعد تواترِ البيناتِ الظاهرةِ وتظاهُرِ المعجزاتِ الباهرةِ التي كانت تَضْطَرُّهم إلى القَبول لو كانوا من أصحاب العقول، والموصولُ الذي تعلق به الإيمانُ والتكذيب سلبًا وإيمانًا عبارةٌ عن جميع الشرائعِ التي جاء بها كلُّ رسولٍ أصولِها وفروعِها.

وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوالِ كل قومٍ منهم فالمرادُ بما ذُكر أولًا كفرُهم المستمرُّ من حين مجيءِ الرسلِ إلى آخره، وبما أشير إليه آخرًا تكذيبُهم قبل مجيئِهم فلا بد من كون الموصولِ المذكور عبارةً عن أصول الشرائعِ التي أجمعت عليها الرسلُ قاطبةً ودعَوا أممَهم إليها آثرَ ذي أثيرٍ لاستحالة تبدلِها وتغيرها مثلُ ملة التوحيد ولوازمِها، ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كلُّ قومٍ من أولئك الأقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمودَ من بقايا عادٍ وعادٍ من بقايا قوم نوحٍ عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتُهم بعد مجيء الرسلِ كحالتهم قبل ذلك كأنْ لم يُبعث إليهم أحدٌ، وتخصيصُ التكذيبِ وعدمِ الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقي بدِلالة النص، فإنهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافةُ الرسلِ فلأَن لا يؤمنوا بما تفرَّد به بعضُهم أولى، وعدمُ جعل هذا التكذيبِ مقصودًا بالذات لِما أن عليه يدورُ أمرُ العذابِ والعقابِ عند اجتماعِ المكذِّبين هو التكذيبُ الواقعُ بعد الدعوةِ حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولًا﴾ [الإسراء، الآية ١٥] وإنما ذُكر

ما وقع قبلها بيانًا لعراقتهم في الكفر والتكذيبِ، وعلى التقديرين فالضمائرُ الثلاثةُ متوافقةٌ في المرجع، وقيل: ضميرُ كذبوا راجعٌ إلى قوم نوحٍ عليه السلام، والمعنى فما كان قومُ الرسلِ ليؤمنوا بما كَذب بمثله قومُ نوح، ولا يخفى ما فيه من التعسف، وقيل: الباءُ للسببية أي بسبب تعوُّدِهم تكذيبَ الحقِّ وتمرُّنِهم عليه قبل بعثة الرسلِ، ولا يخفى أن ذلك يؤدّي إلى مخالفة الجمهورِ من جعل ما المصدريةِ من قبيل الأسماءِ كما هو رأيُ الأخفشِ وابنِ السرّاج ليرجِع إليها الضميرُ وفي إرجاعه إلى الحق بادعاء كونِه مركوزًا في الأذهان ما لا يخفى من التعسف ﴿**كذلك**﴾ أي مثلَ ذلك الطبعِ المُحكَم ﴿**نطبع**﴾ بنون العظمةِ وقرئ (بالياء)[1] على أن الضميرَ لله سبحانه ﴿**على قلوب المعتدين**﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودةِ في الكفر والعناد المتجافين عن قَبول الحق وسلوكِ طريقِ الرشادِ، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنَهم لانهماكهم في الغيّ والضلالِ وفي أمثال هذا دلالةٌ على أن الأفعالَ واقعةٌ بقدرة الله تعالى وكسب العبد ﴿**ثم بعثنا**﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿**ثم بعثنا من بعده رسلًا إلى قومهم**﴾ [يونس، الآية ٧٤] عطفَ قصةٍ على قصة ﴿**من بعدهم**﴾ أي من بعد أولئك الرسلِ عليهم السلام ﴿**موسى وهارون**﴾ خُصّت بعثتُهما عليهما السلام بالذكر ولم يُكتفَ باندراج خبرِهما فيما أشير إليه إجمالًا[2] من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأُوثر في ذلك ضربُ تفصيلٍ إيذانًا بخطر شأنِ القصةِ وعِظَمِ وقعها كما في نبأ نوح عليه السلام ﴿**إلى فرعون وملإيه**﴾ أي أشرافِ قومِه، وتخصيصُهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالحِ والمُهمّات ومراجعةِ الكل إليهم في النوازل والملمات ﴿**بآياتنا**﴾ أي ملتبسين بها وهي الآياتُ المفصّلات في الأعراف ﴿**فاستكبروا**﴾ الاستكبارُ ادعاءُ الكِبْر من غير استحقاقٍ والفاءُ فصيحة أي فأتيَاهم فبلغاهم الرسالةَ فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قولُ اللعين لموسى عليه السلام: ﴿**ألم نُربّك فينا وليدًا ولبثتَ فينا من عمُرك سنين**﴾ [الشعراء، الآية ١٨] إلخ، ﴿**وكانوا قومًا مجرمين**﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله أي كانوا معتادين لارتكاب الذنوبِ العظامِ فإن الإجرامَ مؤذنٌ بعظم الذنبِ ومنه الجِرمُ أي الجثة فلذلك اجترأوا على ما اجترأوا عليه من الاستهانة برسالةِ الله تعالى، وحملُ الاستكبارِ على الامتناع عن قَبول الآيات لا

---

(١) قرأ بها: العباس بن الفضل.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٧).

(٢) في خ: إشارة إجمالية.

يساعده قولُه عز وعلا: ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ فإنه صريحٌ في أن المرادَ باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجيءِ الحقِّ الذي سمَّوه سحرًا أعني العصا واليدَ البيضاءَ كما ينبئ عنه سياقُ النظمِ الكريم وذلك أولُ ما أظهره عليه السلام من الآياتِ العظام والفاء فيه أيضًا فصيحةٌ معربةٌ عما صرّح به في مواضعَ أُخَرَ كأنه قيل: قال موسى: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ [الأعراف، الآية ١٠٥] إلى قوله تعالى: ﴿فالقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ ونزَع يدَه فإذا هي بيضاءُ للناظرين﴾ [الأعراف، الآية ١٠٧ - ١٠٨] فلما جاءهم الحقُّ من عندنا وعرَفوه قالوا من فَرْط عتوِّهم وعِنادِهم: إن هذا لسحرٌ مبين، أي ظاهرٌ كونُه سحرًا، أو فائقٌ في بابه واضحٌ فيما بين أضرابِه، وقرئ لساحر[1].

﴿قال موسى﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال تنساق إليه الأذهانُ كأنه قيل: فماذا قال لهم موسى حينئذٍ؟ فقيل: قال على طريقة الاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ: ﴿أتقولون للحق﴾ الذي هو أبعدُ شيءٍ من السحر الذي هو الباطلُ البحتُ ﴿لما جاءكم﴾ أي حين مجيئِه إياكم ووقوفِكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبرٍ، وكلا الحالين مما ينافي القولَ المذكور، والمقولُ[2] محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانًا بأنه مما لا ينبغي أن يُتفوَّه به ولو على نهج الحكاية، أي أتقولون له ما تقولون من أنه سحرٌ يعني به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائلٌ ويتكلمَ به متكلمٌ أو القول بمعنى العيب والطعن، من قولهم: فلان يخاف القالَةَ، وبين الناسِ تقاولٌ إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ونظيرُه الذكرُ في قوله تعالى: ﴿سمعنا فتىً يذْكُرهم﴾ [الأنبياء، الآية ٦٠] إلخ، فيُستغنى عن المفعول أي أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل: ﴿أسحر هذا﴾ إنكارٌ مستأنفٌ من جهته عليه السلام لكونه سحرًا وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخٌ لهم على ذلك إثرَ توبيخٍ وتجهيلٌ بعد تجهيلٍ، أما على الأول فظاهرٌ وأما على الثاني فوجهُ إيثارِ إنكارِ كونه سحرًا على إنكار كونِه معيبًا بأن يقال مثلًا: أفيه عيبٌ حسبما يقتضيه ظاهرُ الإنكارِ السابق التصريحَ بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه به بعد التنبيهِ بالإنكار السابقِ على أن ليس فيه شائبةُ عيبٍ ما، وما في هذا من معنى القربِ لزيادة تعيينِ المشارِ إليه واستحضارِ ما فيه من الصفات الدالةِ على كونه

---

(١) قرأ بها: مجاهد، وسعيد بن جبير، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٨١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٦).

(٢) في خ: والقول.

آيةً باهرةً من آيات الله المناديةِ على امتناع كونِه سحرًا أي أسحرٌ[١] هذا الذي أمرُه واضحٌ مكشوفٌ وشأنُه مشاهَدٌ معروفٌ بحيث لا يرتاب فيه أحدٌ ممن له عين مبُصِرةٌ! وتقديمُ الخبر للإيذان بأنه مُنْصَبُّ الإنكارِ ولما استلزَم كونُه سحرًا كونَ من أتىٰ به ساحرًا أكِّد الإنكارُ السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل: ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ وهو جملةٌ حالية من ضمير المخاطَبين والرابطُ هو الواو بلا ضمير كما في قول من قال: [الكامل]

جـاء الـشـتـاءُ ولـسـت أمـلِـك عُـدّةً ....[٢]

وقولِك: جاء [وحده][٣] زيدٌ ولم تطلُع الشمس، أي أتقولون للحق إنه سحرٌ والحالُ أنه لا يُفلح فاعلُه أي لا يظفَر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدورُه من مثلي من المؤيَّدين من عند الله العزيزِ الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذورٍ.

وقوله تعالى: ﴿أسحر هذا﴾ جملةٌ معترضةٌ بين الحال وصاحبِها أكّد بها الإنكارُ السابقُ ببيان استحالةِ كونه سحرًا بالنظر إلى ذاته قبل بيانِ استحالتِه بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام.

هذا وأما تجويزُ أن يكون الكلُّ مقولَ القولِ على أن المعنى أجئتما السحر تطلُبان به الفلاحَ ولا يفلح الساحرون؟ فمما لا يساعده النظمُ الكريم أصلًا أما أولًا فلأن ما قالوا هو الحكمُ بأنه سحرٌ من غير أن يكون فيه دِلالةٌ على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرفُ جوابِه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهم منه أصلًا مما يجب تنزيهُ النظمِ التنزيليِّ عن الحمل على أمثاله وأما ثانيًا فلأن التعرضَ لعدم إفلاحِ السحرةِ على الإطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبينِ دون الكثرةِ المتشبثين بأذيال بعضٍ منهم في معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيصَ عدم الإفلاح بمن زعموه ساحرًا بناءً على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثًا فلأن قولَه عز وجل: ﴿قالوا أجئتنا﴾ إلخ، مسوقٌ لبيان أنه عليه

---

(١) في ط: سحر.
(٢) صدر بيت وعجزه:

.... والصبر في السبرات غير مطيعي

والبيت بلا نسبة في الدرر (٤/١٦)، وشرح عمدة الحافظ، ص (٤٦٠)، وهمع الهوامع (١/٢٤٦)، ويروى «دهم» بدل «جاء».
(٣) سقط في ط.

السلام ألقمهم الحجرَ فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلقٌ بكلامه عليه السلام فضلًا عن الجواب الصحيح واضطروا إلى التشبّث بذيل التقليدِ الذي هو دأبُ كل عاجزٍ محجوجٍ وديدنُ كلِّ مَعاند[١] لجوج على أنه استئنافٌ وقع جوابًا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى: **﴿قال موسى﴾** إلخ، حسبما أشير إليه، كأنه قيل: فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عنه المحاجّة: أجئتنا **﴿لتلفتنا﴾** أي لتصْرِفنا فإن الفتلَ واللفتَ أخوَان **﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾** أي من عبادة الأصنام، ولا ريب في أن ذلك إنما يتسنى بكونِ ما ذكر من تتمة كلامِه عليه السلام على الوجه الذي شرح إذ على تقدير كونِه محكيًا من قِبَلهم يكون جوابُه عليه السلام خاليًا من التبكيت الملجئ لهم إلى العدول عن سنن المُحاجّة ولا ريب في أنه لا علاقةَ بين قولِهم: (أجئتنا) إلخ، وبين إنكارِه عليه السلام لما حُكيَ عنهم مصححةٌ لكونه جوابًا عنه **﴿وتكون لكما الكبرياء﴾** أي المُلكُ أو التكبرُ على الناس باستتباعهم وقرئ (ويكون)[٢] بالياء التحتانية.

وكلمة «في» في قوله تعالى: **﴿في الأرض﴾** أي أرض مصرَ متعلقةٌ بـ (تكون) أو بالكبرياء أو بالاستقرار في (لكما) لوقوعه خبرًا أو بمحذوف وقع حالًا من الكبرياء أو من الضمير في (لكما) لتحمُّله إياه.

﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي بمصدّقين فيما جئتما به وتثنيةُ الضمير في هذين الموضعين بعد إفرادِه فيما تقدم من المقامين باعتبار شمولِ الكبرياءِ لهما عليهما السلام واستلزامِ التصديقِ لأحدهما التصديقَ للآخر، وأما اللفتُ والمجيءُ له فحيث كانا من خصائصِ صاحب الشريعةِ أسند إلى موسى عليه السلام خاصة.

﴿وقال فرعون﴾ توحيدُ الفعلِ لأن الأمرَ من وظائف فرعونَ أي قال لملئه يأمرُهم بترتيب مبادي إلزامِهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأسِ من إلزامهما بالقول: **﴿ائتوني بكل ساحر عليم﴾** بفنون السحر حاذقٍ ماهرٍ فيه، وقرئ (سحار)[٣] **﴿فلما جاء**

---

(١) في ط: عاجز.

(٢) قرأ بها: شعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٦).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وطلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب، وعيسى بن عمر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٢)، والتيسير للداني ص (١١٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

﴿السحرة﴾ عطف على مقدر يستدعيه المقامُ قد حذف إيذانًا بسرعة امتثالِهم لأمر فرعونَ كما هو شأنُ الفاء الفصيحة في كل مقام أي فأتَوا به فلما جاؤوا ﴿قال لهم موسى﴾ لكن لا في ابتداء مجيئِهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حُكي عنهم في السور الأُخَرِ من قولهم: ﴿إما أن تلقيَ وإما أن نكونَ نحن الملقين﴾ [الأعراف، الآية ١١٥] ونحو ذلك ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي ملقون له كائنًا ما كان من أصناف السحر ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقَوْا من العِصِيّ والحبالِ واسترهبوا الناسَ وجاؤوا بسحر عظيم ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ غيرَ مكترثٍ بهم وبما صنعوا ﴿ما جئتم به السحرُ﴾ ما موصولةٌ وقعت مبتدأ والسحرُ خبرُه أي هو السحرُ لا ما سماه فرعونُ وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحرِ يُريهم أن حالَه بيِّن لا يُعبأ به كأنه قال: ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاء به، وقرئ (آلسحر)[1] على الاستفهام فما استفهاميةٌ أي أيُّ شيء جئتم به أهو السحرُ الذي يعرِف حالَه كلُّ أحدٍ ولا يتصدى له عاقلٌ؟ وقرئ (ما جئتم به سحرٌ)[2] وقرئ (ما أتيتم به سحرٌ)[3] ودلالتُهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهرُ.

﴿إن الله سيبطله﴾ أي سيمحقه بالكلية بما يُظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثرٌ أصلًا أو سيظهر بطلانُه للناس والسين للتأكيد ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أي عملَ جنسِ المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحرُ دخولًا أوليًا أو عملُكم فيكون من باب وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعارِ بعلة الحكم، وليس المرادُ بعدم إصلاحِ عملِهم عدَم جعل فسادِهم صلاحًا

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، واليزيدي، والشنبوذي، ومجاهد، وابن القعقاع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤١٦)، والتيسير للداني ص (١٢٣)، وتفسير الطبري (١١/ ١٠٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٦٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٨).

(٢) قرأ بها: المطوعي، وعبد الله بن مسعود، والأعمش، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٣)، وتفسير الطبري (١١/ ١٠٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٦٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٧)، والكشف للقيسي (١/ ٥٢١)، والمعاني للفراء (١/ ٤٧٥).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٧٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٣)، وتفسير الطبري (١١/ ١٠٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٦٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٧)، والمعاني للفراء (١/ ٤٧٥).

بل عدمَ إثباتِه وإتمامِه أي لا يُثبته ولا يُكمله ولا يُديمه بل يمحقه ويُهلكه ويسلِّط عليه الدمارَ، والجملةُ تعليلٌ لما سبق من قوله: ﴿إن الله سيبطله﴾ [يونس، الآية ٨١] والكلُّ اعتراضٌ تذييليٌّ وفيه دليلٌ على أن السحر إفسادٌ وتمويهٌ لا حقيقة له ﴿ويحق الله الحق﴾ عطفٌ على قوله: سيبطله أي يثبته ويقوّيه، وإظهارُ الاسم الجليلِ في المقامين الأخيرين لإلقاء الروعةِ وتربيةِ المهابةِ ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضاياه وقرئ (بكلمته)[1] ﴿ولو كره المجرمون﴾ ذلك والمرادُ بهم كلُّ من اتصف بالإجرام من السحَرة وغيرِهم.

﴿فما آمن لموسى﴾ معطوفٌ على مقدر قد فصل في مواقعَ أُخَرَ، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقَف ما يأفِكون إلخ، وإنما لم يذكر تعويلًا على ذلك وإيثارًا للإيجاز وإيذانًا بأن قوله تعالى: ﴿إن الله سيبطله﴾ مما لا يحتمل الخُلفَ أصلًا وعطفُه على ذلك بالفاء مع كونه عدمًا مستمرًا من قبيل ما في قوله عز وجل: ﴿فاتبعوا أمرَ فرعونَ﴾ [هود، الآية ٩٧] وما في قولك: وعظتُه فلم يتعظ وصِحتُ به فلم ينزجِرْ، والسرُّ في ذلك أن الإتيانَ بالشيء بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه وإن كان استمرارًا عليه لكنه بحسب العنوانِ فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ أي فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآياتِ القاهرة ﴿إلا ذرية من قومه﴾ أي إلا أولادٌ من أولاد قومِه بني إسرائيلَ حيث دعا الآباءَ فلم يجيبوه خوفًا من فرعون وأجابتْه طائفةٌ من شبانهم، وقيل: الضميرُ لفرعون والذريةُ طائفةٌ من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمنُ آلِ فرعونَ وامرأتُه آسيةُ وخازنُه وامرأتُه وماشطتُه وهو بعيد ﴿على خوف﴾ أي كائنين على خوف عظيم ﴿من فرعون وملإيهم﴾ الضميرُ لفرعون والجمعُ لما هو المعتادُ في ضمائر العظماءِ ولا يأباه مقامُ بيانِ علوِّه في الفساد وغلوِّه في الشر والتسلطِ على العباد، أو لأن المرادَ به آلُه كما يقال: ربيعةُ ومضرُ أو للذرية أو للقوم أي على خوف من فرعونَ ومن أشراف بني إسرائيلَ حيث كانوا يمنعون أعقابَهم خوفًا من فرعونَ عليهم وعلى أنفسهم ﴿أن يفتنهم﴾ أي يعذّبَهم وهو بدلُ اشتمالٍ أو مفعولُ خوفٍ فإن إعمالَ المصدرِ المنكّر كثيرٌ كما في قوله عز وجل: ﴿أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبةٍ يتيمًا﴾ [البلد: ١٤ - ١٥] أو مفعولٌ له بعد حذفِ اللام، وإسنادُ الفعلِ إلى فرعون خاصةً لأنه الآمرُ بالتعذيب ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ لغالبٌ في أرض مصرَ ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ في الظلم والفسادِ بالقتلِ وسفكِ الدماءِ أو في الكبر والعتوِّ حتى ادّعى الربوبيةَ واسترقَّ أسباطَ

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٤٨).

الأنبياءِ، والجملتانِ اعتراضٌ تذييليٌّ مؤكدٌ لمضمون ما سبق ﴿**وقال موسى**﴾ لما رأى تخوّفَ المؤمنين منه ﴿**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله**﴾ أي صدقتم به وبآياته ﴿**فعليه توكلوا**﴾ وبه ثِقوا ولا تخافوا أحدًا غيرَه فإنه كافيكم كلَّ شرٍّ وضُرٍّ ﴿**إن كنتم مسلمين**﴾ مستسلمين لقضاءِ الله تعالى مخلِصين له، وليس هذا من تعليق الحُكم بشرطين فإن المعلَّقَ بالإيمان وجوبُ التوكلِ عليه تعالى فإنه المقتضي له، والمشروطَ بالإسلام وجودُه فإنه لا يتحقق مع التخليد، ونظيرُه: إنْ أحسنَ إليك زيدٌ فأحسنْ إليه إن قدَرتَ عليه.

﴿**فقالوا**﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم[1] في ذلك ﴿**على الله توكلنا**﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلِصين ثم دعَوا ربَّهم قائلين: ﴿**ربنا لا تجعلنا فتنة**﴾ أي موقعَ فتنةٍ ﴿**للقوم الظالمين**﴾ أي لا تسلِّطْهم علينا حتى يعذّبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يُفتَتنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لَما أصيبوا.

وقوله تعالى: ﴿**ونجنا برحمتك من القوم الكافرين**﴾ دعاءٌ منهم بالإنجاء من سوء جوارِهم وشؤمِ مصاحبتِهم بعد الإنجاءِ من ظلمهم[2]، عبّر عنهم بالكفر بعدما وُصفوا بالظلم، وفي ترتيب الدعاءِ على التوكل تلويحٌ بأن الداعَي حقُّه أن يبنيَ دعاءَه على التوكل على الله تعالى ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ**﴾ أنْ مفسرةٌ لأنّ في الوحي معنى القولِ أي اتخذا مَباءةً ﴿**لقومكما بمصر بيوتًا**﴾ تسكُنون فيها وترجِعون إليها للعبادة ﴿**واجعلوا**﴾ أنتما وقومكما ﴿**بيوتكم**﴾ تلك ﴿**قبلة**﴾ مصلّىً وقيل: مساجدَ متوجهةً نحو القِبلة يعني الكعبةَ فإن موسى عليه السلام كان يصلي إليها ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ أي فيها، أُمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهرَ عليهم الكفرةُ فيؤذوهم ويفتِنوهم عن دينهم ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ بالنصرة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنةِ في العقبى، وإنما ثُنِّيَ الضميرُ أولًا لأن التَّبوُّءَ للقوم واتخاذَ المعابد مما يتولاه رؤساءُ القوم بتشاور، ثم جُمع لأن جعلَ البيوتِ مساجدَ والصلاةَ فيها مما يفعله كلُّ أحدٍ، ثم وُحِّد لأن بشارةَ الأمةِ وظيفةُ صاحبِ الشريعة، ووضعُ المؤمنين موضعَ ضميرِ القوم لمدحهم بالإيمان والإشعار بأنه المدارُ في التبشير ﴿**وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة**﴾ أي ما يُتزَيَّن به من اللباس والمراكبِ ونحوِها ﴿**وأموالًا**﴾ وأنواعًا كثيرةً من المال ﴿**في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك**﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ الأمرِ بما عُلم بممارسة أحوالِهم أنه لا يكون غيرُه، كقولك: لعن الله إبليسَ، وقيل: اللامُ للعاقبة

---

(١) في ط: تعلثم.

(٢) زاد في خ: ولذلك.

وهي متعلقةٌ بآتيتَ أو للعلة لأن إيتاءَ النعم على الكفر استدراجٌ وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعةً إلى الضلال فكأنهم أُوتوها ليُضلوا فيكون ربَّنا تكريرًا للأول تأكيدًا أو تنبيهًا على أن المقصودَ عرضُ ضلالِهم وكفرانِهم تقدمةً لقوله تعالى: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ الطمسُ المحوُ وقرئ[1] بضم الميم أي أهلكْها ﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي اجعلها قاسيةً واطبَع عليها حتى لا تنشرحَ للإيمان كما هو قضيةُ شأنهم ﴿فلا يؤمنوا﴾ جوابٌ للدعاء أو دعاءٌ بلفظ النهي أو عطفٌ على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك ﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به إضافةُ الرب إلى ضمير المتكلم مع الغير في المواقعِ الثلاثةِ ﴿فاستقيما﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجةِ ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائنٌ في وقته لا محالة. (روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة).

﴿ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون﴾ أي بعادات الله سبحانه في تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلةِ في الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرئ بالنون الخفيفةِ وكسرِها[2] لالتقاء الساكنين، ولا تَتْبَعانْ[3] من تبع ولا تَتْبَعانِّ[4] أيضًا.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكانَ إذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحرَ بأن جعلناه يبسًا وحفِظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ (جوّزنا) وهو من التجويز المرادفِ للمجاوزة لا مما هو بمعنى التنفيذ نحو ما

---

(١) قرأ بها: الشعبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٠).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وابن ذكوان، والداجوني، وهشام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٢٥)، والتيسير للداني ص (١٢٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٧٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٢٩).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، والأخفش الدمشقي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٢٥).

(٤) قرأ بها: ابن عامر، وابن عباس، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٧)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٢٥)، والحجة لابن خالويه، ص (١٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٧).

وقع في قول الأعشى: [الطويل]

.... كما جوّز السّكّيَّ في الباب فَيْتَقُ[١]

وإلا لقيل: وجوزنا بني إسرائيلَ في البحر ولخلا النظمُ الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العنايةِ الإلٰهية لهم عنَوا الجوازَ كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهَب به.

﴿**فأتبعهم**﴾ يقال: تبِعتُه حتى أتبعتُه إذا كان سبقك فسبقتَه أي أدركهم ولحِقهم ﴿**فرعون وجنوده**﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿**بغيًا وعدوًا**﴾ ظلمًا واعتداءً أي باغين وعادين أو للبغي والعدوان.

وقرئ (وعُدُوًّا)[٢] وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيلَ على حين غفلةٍ من فرعون فلما سمع به تبِعهم حتى لحِقهم ووصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبَسًا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرُهم وهمَّ أولُهم بالخروج غشِيهم من اليم ما غشيهم ﴿**حتى إذا أدركه الغرق**﴾ أي لحِقه وألجمه﴿**قال آمنت أنه**﴾ أي بأنه والضميرُ للشأن وقرئ إنه[٣] على الاستئناف بدلًا من آمنت وتفسيرًا له ﴿**لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيلَ**﴾ لم يقل كما قاله السحرةُ: آمنا بربّ العالمين ربَّ موسى وهارون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلتُه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعًا في القبَول والانتظامِ معهم في سلك النجاة ﴿**وأنا من المسلمين**﴾ أي الذين أسلموا نفوسَهم لله أي جعلوها سالمةً خالصةً له تعالى وأراد بهم إما بني إسرائيلَ خاصةً وإما الجنسَ وهم داخلون فيه دخولًا أوليًا، والجملةُ على الأول عطفٌ على

---

(١) عجز بيت وصدره:

ولا بد من جارٍ يجيز سبيلها ....

والبيت في ديوان الأعشى ص (٢٧٣)، ولسان العرب (فتق، سكك)، وتهذيب اللغة (٩/ ٦٣)، وكتاب الجيم (٣/ ٦٦)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٧١)، وكتاب العين (٥/ ٢٧٢)، وتاج العروس (فتق)، وبلا نسبة في المخصص (٥/ ١٣٢)، والسّكّي: المسمار. والفيفق: البوّاب أو الحدّاد.

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٧٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥١).

(٣) قرأ بها: الكسائي، وحمزة، وخلف، وعبد الله.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٧٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٨)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٢٦)، والتيسير للداني ص (١٢٣)، وتفسير الطبري (١١/ ١١٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٠).

آمنت، وإيثار الاسميةِ لادعاء الدوامِ والاستمرارِ وعلى الثاني يحتمل الحاليةَ أيضًا من ضمير المتكلمِ أي آمنتُ مخلصًا لله منتظمًا في سلك الراسخين فيه، ولقد كُرِّر المعنى الواحد بثلاثَ عباراتٍ حرصًا على القبول المفضي إلى النجاة وهيهاتَ هيهاتَ بعد ما فات وأتى ما هو آتٍ، وقوله عز وجل: ﴿**آلآن**﴾ مقولٌ لقول مقدرٍ معطوفٍ على قال أي فقيل: آلآن، وهو إلى قوله تعالى: ﴿**آية**﴾ حكايةٌ لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الإنكارِ التوبيخيِّ على تأخيره وتقريعِه بالعصيان والإفساد وغير ذلك، وفي حذف الفعل المذكورِ وإبرازِ الخبرِ المحكيِّ في صورة الإنشاءِ من الدلالة على عظم السخطِ وشدةِ الغضبِ ما لا يخفى كما يُفصح عنه ما روي من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فإنه تأكيدٌ للرد القوليّ بالرد الفعليِّ ولا ينافيه تعليلُه بمخافة إدراكِ الرحمةِ فيما نقل أنه قال للنبي عليه السلام: فلو رأيتَني يا محمدُ وأنا آخذٌ من حال البحرِ فأدُسّه في فيه مخافةَ أن تدركه الرحمةُ إذ المرادُ بها الرحمةُ الدنيويةُ أي النجاة التي هي طِلْبَةُ المخذولِ وليس من ضرورة إدراكِها صحةُ الإيمان كما في إيقان قومِ يونسَ عليه السلام حتى يلزمَ كراهتُه ما لا يتصور في شأن جبريلَ عليه السلام من الرضا بالكفر إذ لا استحالةَ في ترتب هذه الرحمةِ على مجرد التفوّه بكلمة الإيمانِ وإن كان ذلك في حالة البأسِ واليأس فيحمل دسُّه عليه السلام على سد باب الاحتمالِ البعيد لكمال الغيظِ وشدةِ الحرْدِ فتدبر والله الموفق.

وحقُّ العاملِ في الظرف أن يقدر مؤخرًا ليتوجه الإنكارُ والتوبيخُ إلى تأخير الإيمانِ إلى حد يمتنعُ قبولُه فيه أي آلآن تؤمن حين يئستَ من الحياة وأيقنتَ بالممات وقوله عز وعلا: ﴿**وقد عصيت قبل**﴾ حال من فاعل الفعل المقدَّر جيء به لتشديد التوبيخِ والتقريعِ على تأخير الإيمانِ إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغِ الدعوةِ إليه ولا للتأمل والتدبر في دلائله وآياتِه ولا لشيء آخرَ مما عسى يُعدُّ عذرًا في التأخير بل كان ذلك على طريقة الردِّ والاستعصاءِ والإفساد فإن قوله تعالى: ﴿**وكنت من المفسدين**﴾ عطفٌ على عصيت داخلٌ في حيز الحال أي وكنت من الغالين في الضلال والإضلالِ عن الإيمانِ كقوله تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدْناهم عذابًا فوق العذابِ بما كانوا يُفسدون**﴾ [النحل: ٨٨] فهذا عبارةٌ عن فساده الراجع إلى نفسه والساري إلى غيره من الظلم والتعدي وصدٍّ بني إسرائيلَ عن الإيمان والأولُ عن عصيانه الخاصِّ به ﴿**فاليوم ننجيك**﴾ أي نخرجك مما وقع فيه قومُك من قعر البحرِ ونجعلك طافيًا وفي التعبير عنه بالتنجية تلويحٌ بأن مرادَه بالإيمان هو النجاةُ

كما مر وتهكمٌ به، أو نلقيك على نجوة[١] من الأرض ليراك بنو إسرائيلَ.

وقرئ (نُنْجيك)[٢] من الإنجاء و(نُنَحِّيك)[٣] بالحاء من التنحية أو نلقيك بناحية الساحل ﴿ببدنك﴾ في موضع الحالِ من ضمير المخاطَب أي ننجيك ملابسًا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبُك فهو تخييبٌ له وحسمٌ لأطماعه بالمرة أو عاريًا عن اللباس أو كاملًا سويًا أو بدِرْعك وكانت له دروعٌ من الذهب يعرف بها.

وقرئ (بأبدانك)[٤] أي بأجزاء بدنك كلها كقولهم: هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مُظاهِرًا بينها ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ لمن وراءك علامةً وهم بنو إسرائيلَ إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خُيِّل أنه لا يهلِك، حتى يُروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحًا على ممرهم من الساحل، أو تكون لمن يأتي بعدك من الأمم إذا سمعوا مآلَ أمرِك ممن شاهدك عبرةً ونكالًا من الطغيان أو حجةً تدلهم على أن الإنسانَ وإن بلغ الغايةَ القصوى من عظم الشأنِ وعلوِّ الكبرياء وقوةِ السلطان فهو مملوكٌ مقهورٌ بعيد عن مظانّ الربوبيةِ، وقرئ (لمن خَلَفَك)[٥] فعلًا ماضيًا أي لمن خلفك من الجبابرة، وقرئ (لمن خلقك)[٦] بالقاف أي لتكون لخالقك آيةً كسائر الآيات فإن إفرادَه سبحانه إياك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنه قصد منه كشفَ تزويرِك وإماطةَ الشبهةِ في أمرك وبرهانٌ نيِّرٌ على كمال علمِه وقدرتِه وحكمتِه وإرادتِه، وهذا الوجهُ محتملٌ على القراءة المشهورة أيضًا، وفي تعليل تنجيته بما ذكر إيذانٌ بأنها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدةٍ إليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحِه على رؤوس الأشهاد وزيادةِ تفظيعِ حالِه كمن يُقتل ثم يُجرُّ

---

(١) النجوة: المرتفع من الأرض.

(٢) قرأ بها: يعقوب، وقتيبة، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٣٠)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٤٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٩).

(٣) قرأ بها: أبي، وابن السميفع، ويزيد البربري، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٦)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٥٧).

(٤) قرأ بها: أبو حنيفة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٧٩).

(٥) ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٨١).

(٦) قرأ بها: علي بن أبي طالب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٨١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٢).

جسدُه في الأسواق أو يدار برأسه في البلاد، واللامُ الأولى متعلقةٌ بننجّيك والثانيةُ بمحذوف وقع حالًا من آية أي كائنةً لمن خلفك **﴿وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** لا يتفكرون بها ولا يعتبرون بها وهو اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به عند الحكايةِ تقريرًا لفحوى الكلام المحكيِّ **﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل﴾** كلامٌ مستأنَفٌ سيق لبيان النعم الفائضةِ عليهم إثرَ نعمةِ الإنجاء على الإجمال وإخلالهم بشكرها وأداءِ حقوقها أي أسكناهم وأنزلناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءَهم **﴿مبوأ صدق﴾** أي منزِلًا صالحًا مرْضيًا وهو الشامُ ومصرُ ملكوهما بعد الفراعنةِ والعمالقةِ وتمكنوا في نواحيهما حسبما نطقَ به قولهُ تعالى: **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضْعفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها التي باركنا فيها﴾** [الأعراف، الآية ١٣٧] **﴿ورزقناهم من الطيبات﴾** أي اللذائذ **﴿فما اختلفوا﴾** في أمر دينهم **﴿حتى جاءهم العلم﴾** [أي][1] إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراةَ وعلمِهم بأحكامها أو في أمر محمدٍ عليه الصلاة والسلام إلا بعد ما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبي ﷺ **﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** فيميزُ بين المُحِق والمبطل بالإثابة والتعذيب **﴿فإن كنت في شك﴾** أي في شك ما يسير على الفرْض والتقدير، فإن مضمونَ الشرطيةِ إنما هو تعليقُ شيءٍ بشيء من غير تعرُّضٍ لإمكان شيءٍ منهما، كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعًا كقوله عز وجل: **﴿قل إن كان للرحمٰن ولدٌ فأنا أولُ العابدين﴾** [الزخرف، الآية ٨١] وقوله تعالى: **﴿لئن أشركتَ ليحبطَنّ عملُك﴾** [الزمر، الآية ٦٥] ونظائرِهما **﴿مما أنزلنا إليك﴾** من القصص التي من جملتها قصةُ فرعون وقومِه وأخبارُ بني إسرائيلَ **﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾** فإن ذلك محققٌ عندهم ثابتٌ في كتبهم حسبما ألقَينا إليك.

والمرادُ إظهارُ نبوتِه عليه السلام بشهادة الأحبارِ[2] حسبما هو المسطورُ في كتبهم وإن لم يكن إليه حاجة أصلًا أو وصفُ أهلِ الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوتِه عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادةِ تثبيتِه على ما هو عليه من اليقين لا تجويزِ صدورِ الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام: «**لا أشُكُّ ولا أسألُ**»[3] وقيل: المرادُ بالموصول مؤمنو أهلِ الكتاب كعبد اللّه بن سلام وتميمِ الداري وكعبٍ

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: الأخبار.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦١٠) رقم (١٧٩٠٧-١٧٩٠٨) كلاهما عن معمر عن قتادة به.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٧١).

وأضرابِهم وقيل: الخطابُ للنبي عليه السلام والمرادُ أمتُه أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامعُ في شك مما أنزلنا إليك على لسان نبيِّنا، وفيه تنبيهٌ على أن من خالجتْه شبهةٌ في الدين ينبغي أن يسارِعَ إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم[١] فاسأل الذين يقرؤون الكتاب ﴿**لقد جاءك الحق**﴾ الذي لا محيدَ عنه ولا ريبَ في حقيته ﴿**من ربك**﴾ وظهرَ ذلك بالآيات القاطعةِ التي لا يحوم حولَها شائبةُ الارتيابِ، وفي التعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف ما لا يخفى ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقينِ ودُمْ على ذلك كما كنت من قبل.

﴿**ولا تكونن من الذين كذبوا بأيات الله**﴾ من باب التهييج والإلهابِ، والمرادُ به إعلامُ أن التكذيبَ من القبح والمحذوريةِ بحيث ينبغي أن يُنهى عنه من لا يُتصورُ إمكانُ صدورِه عنه فكيف بمن يمكن اتصافُه به وفيه قطعٌ لأطماع الكفرة ﴿**فتكون**﴾ بذلك ﴿**من الخاسرين**﴾ أنفسًا وأعمالًا ﴿**إن الذين حقت عليهم**﴾ شروعٌ في بيان سرِّ إصرارِ الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلالِ أي ثبتت ووجبتْ بمقتضى المشيئةِ[٢] على الحكمة البالغة ﴿**كلمة ربك**﴾ حكمُه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار كقوله تعالى: ﴿**ولكنْ حقَّ القولُ مني لأملأن جهنم**﴾ [السجدة، الآية ١٣] إلى آخره.

﴿**لا يؤمنون**﴾ أبدًا إذ لا كذِبَ لكلامه ولا انتقاضَ لقضائه أي لا يؤمنون إيمانًا نافعًا واقعًا في أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينةِ العذابِ مثلَ فرعونَ باقيًا عند الموتِ فيدخل فيهم المرتدون ﴿**ولو جاءتهم كل آية**﴾ واضحةُ المدلولِ مقبولةٌ لدى العقولِ لأن سببَ إيمانِهم وهو تعلقُ إرادته تعالى به مفقودٌ لكنّ فقدانَه ليس لمنعٍ منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارِهم المتفرِّعِ على عدم استعدادِهم لذلك ﴿**حتى يروا العذاب الأليم**﴾ كدأب آلِ فرعونَ وأضرابهم ﴿**فلولا كانت**﴾ كلامٌ مستأنفٌ لتقرير ما سبق من استحالة إيمانِ من حقت عليهم كلمتُه تعالى لسوءِ اختيارِهم مع تمكنهم من التدارك فيكونُ الاستثناءُ الآتي بيانًا لكون قوم يونسَ عليه السلام ممن لم يحِقَّ عليه الكلمةُ لاهتدائهم إلى التدارك في وقته و(لَولا) بمعنى هلاّ وقرئ كذلك[٣] أي فهلاّ كانت ﴿**قرية**﴾ من القرى المهلَكة ﴿**آمنت**﴾ قبل معاينةِ العذابِ ولم

---

(١) زاد في خ: وقرئ.
(٢) زاد في خ: المبنية.
(٣) قرأ بها: أبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٩٢)، وتفسير الطبري (١١/ ١١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٨٣)، =

تؤخِّرْ[1] إيمانَها إلى حين معاينتِه كما فعل فرعونُ وقومُه ﴿فنفعها إيمانها﴾ بأن يقبَله الله تعالى منها ويكشِفَ بسببه العذابَ عنها ﴿إلا قوم يونسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي لكن قومُ يونسَ ﴿لما آمنوا﴾ أولَ ما رأوا أمارةَ العذابِ ولم يؤخِّروا إلى حلوله ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ بعد ما أظلهم وكاد يحِلّ بهم، ويجوز أن تكونَ الجملةُ في معنى النفي كما يُفصح عنه حرفُ التحضيض فيكون الاستثناءُ متصلًا إذِ المرادُ بالقرى أهاليها كأنه قيل: ما آمنت طائفةٌ من الأمم الماضيةِ فينفعهم إيمانُهم إلا قومَ يونَس عليه السلام فيكون قوله تعالى: ﴿لما آمنوا﴾ استئنافًا لبيان نفعِ إيمانِهم ويؤيده قراءةُ الرفع[2] على البدلية ﴿ومتعناهم﴾ بمتاع الدنيا بعد كشفِ العذاب عنهم ﴿إلى حين﴾ مقدرٍ لهم في علم الله سبحانه. رُوي أن يونسَ عليه السلام بُعث إلى نينوىٰ من أرض الموْصِل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبًا فلما فقَدوه خافوا نزولَ العذاب فلبِسوا المُسوحَ وعجّوا[3] أربعين ليلةً وقيل: قال لهم يونسُ عليه السلام: أجلُكم أربعون ليلةً فقالوا: إن رأينا أسبابَ الهلاك آمنّا بك، فلما مضَتْ خمسٌ وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسودَ هائلًا يدخّن دُخانًا شديدًا ثم يهبِط حتى يغشىٰ مدينتَهم ويسودّ سطوحهم فلبِسوا المسوحَ وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائِهم وصِبيانهم ودوابّهم وفرقوا بين النساء والصبيان[4] والدواب وأولادِها فحنّ بعضُها إلى بعض وعلت الأصواتُ والعجيجُ وأظهروا الإيمانَ والتوبةَ وتضرَّعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يومَ عاشوراءَ يومَ الجمعة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالمَ حتى إن الرجل كان يقتلع الحجرَ وقد وضع عليه أساسَ بنائه فيرده إلى صاحبه وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائِهم فقالوا: قد نزل بنا العذابُ فما ترى فقال لهم: قولوا: يا حيُّ حين لا حيَّ ويا حيُّ محيي الموتى ويا حيُّ لا إلٰه إلا أنت فقالوا، فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض قالوا: إن ذنوبَنا قد عظُمت وجلّت وأنت أعظمُ منها وأجلُّ افعل بنا ما أنت أهلُه ولا تفعلْ بنا ما نحن أهلُه ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض﴾ تحقيقٌ لدروان إيمانِ كافةِ المكلفين وجودًا وعدمًا على قُطب مشيئتِه تعالى

=
والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٤)، والمعاني للفراء (١/ ٤٧٩).

(١) في خ: يؤخر.

(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٨)، والبحر المحيط (٥/ ١٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٤)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٦٥).

(٣) عجّوا: رفعوا صوتهم وصاحوا.

(٤) زاد في خ: وبين.

مطلقًا إثرَ بيانِ تبعيةِ كفرِ الكفرةِ لكلمته ومفعولُ المشيئة محذوفٌ لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء وأن لا يكونَ في تعلقها به غرابةٌ كما هو المشهورُ أي لو شاء سبحانه إيمانَ من في الأرض من الثقلين لآمن ﴿كلهم﴾ بحيث لا يشِذّ عنهم أحد ﴿جميعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفًا للحِكمة التي عليها بُنيَ أساسُ التكوين والتشريع وفيه دِلالةٌ على أنه من شاء الله إيمانَه يؤمن لا محالة ﴿أفأنت تكره الناس﴾ على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبئ عنه حرفُ الامتناعِ في الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل: أربُّك لا يشاء ذلك فأنت تُكرههم ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ فيكون الإنكارُ متوجهًا إلى ترتيب الإكراهِ المذكورِ على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الإنكارِ على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة في الاعتبار وإنما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأيُ الجمهورِ وأيا ما كان فالمشيئةُ على إطلاقها إذ لا فائدةَ بل لا وجهَ لاعتبار عدمِ مشيئة الإلجاءِ خاصة في إنكار الترتيبِ عليه أو ترتيب الإنكارِ عليه وفي إيلاء الاسم حرف الاستفهام إيذان بأن الإكراهَ أمرٌ ممكنٌ لكن الشأنَ في المكرَه مَنْ هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه القادرُ على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرهم إلى الإيمان وذلك غيرُ مستطاعٍ للبشر وفيه إيذانٌ باعتبار الإلجاءِ في المشيئة كما أشير إليه ﴿وما كان لنفس﴾ بيانٌ لتبعية إيمانِ النفوس المؤمنةِ لمشيئته تعالى وجودًا بعد بيانِ الدوران الكليِّ عليها وجودًا وعدمًا أي ما صح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى أنها تؤمنُ ﴿أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي بتسهيله ومنحِه للألطاف وإنما خُصت النفسُ بمن ذُكر ولم يُجعل من قبيل قولِه تعالى: ﴿**وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذن الله**﴾ [آل عمران، الآية ١٤٥] لأن الاستثناءَ مفرَّغٌ من أعم الأحوالِ أي ما كان لنفس أن تؤمن في حال من أحوالها إلا حالَ كونِها ملابسةً بإذنه تعالى فلا بد من كون الإيمانِ مما يؤول إليه حالُها كما أن الموتَ مآلٌ لكل نفس بحيث لا محيصَ لها عنه فلا بد من تخصيص النفسِ بمن ذكر فإن النفوسَ التي علم الله أنها لا تؤمنُ ليس لها حالٌ تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها ﴿ويجعل الرجس﴾ أي الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذي هو عبارةٌ عن القبيح المستقذَر المستكرَه لكونه علمًا في القبح والاستكراه.

وقيل: هو العذاب أو الخِذلان المؤدي إليه وقرئ بنون العظمة[١] وقرئ بالزاي[٢]

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، وحماد، وزيد بن علي، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٩٣)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٣٦)، والتيسير للداني ص (١٢٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٠).

(٢) قرأ بها: الأعمش.

=

أي يجعل الكفرَ ويبقيه ﴿على الذين لا يعقلون﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصُل لهم الهدايةُ التي عبّر عنها بالإذن فيبقَون مغمورين بقبائح الكفرِ والضلال أو مقهورين بالعذاب والنَّكال، والجملةُ معطوفةٌ على مقدر ينسحب عليه النظمُ الكريم كأنه قيل: فيأذن لهم بمنح الألطافِ ويجعل إلخ.

﴿قل﴾ مخاطِبًا لأهل مكةَ بعثًا لهم على التدبر في ملكوت السماواتِ والأرض وما فيهما من تعاجيب الآياتِ الأنفسية والآفاقية ليتضحَ لك أنهم من الذين لا يعقِلون وحقّت عليهم الكلمة ﴿انظروا﴾ أي تفكروا وقرئ بنقل حركةِ الهمزةِ إلى لام قل[1].

﴿ماذا في السموات والأرض﴾ أي أيُّ شيءٍ بديعٍ فيهما من عجائب صُنعه الدالةِ على وحدته وكمالِ قدرتِه، على أن ماذا جعل بالتركيب اسمًا واحدًا مغلّبًا فيه الاستفهامُ على اسم الإشارةِ فهو مبتدأٌ خبرُه الظرفُ ويجوز أن يكون (ما) مبتدأ وذا بمعنى الذي والظرفُ صلته والجملةُ خبرٌ للمبتدأ، وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبرُ في محل النصبِ بإسقاط الخافضِ وفعلُ النظر معلقٌ بالاستفهام ﴿وما تغني﴾ أي ما تنفع وقرئ بالتذكير[2] ﴿الآيات﴾ وهي التي عبر عنها بقوله تعالى: **﴿ماذا في السموات والأرض﴾** ﴿والنذر﴾ جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أي لا تنفع الآيات والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ في علم الله تعالى وحكمه، فـ (ما) نافية والجملة إما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهاميةً إنكاريةً في موضع النصبِ على المصدرية أي أي إغناء تغني إلخ، فالجملة حينئذ اعتراضية ﴿فهل ينتظرون﴾ أي مشركو مكة وأضرابهم ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا﴾ أي إلا يومًا مثل أيام الذين خلوا ﴿من قبلهم﴾ من مشركي الأممِ الماضية أي مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها ﴿قل﴾ تهديدًا لهم ﴿فانتظروا﴾ ما هو عاقبتكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لذلك ﴿ثم ننجي رسلنا﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف[3] وهو عطفٌ على مقدر يدل عليه قوله: (مثل أيام الذين

= ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٩٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٥).

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي، وحفص.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ١٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٧)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٦٩).

(٢) ينظر: الكشاف (٢/ ٢٥٥)، وتفسير الرازي (١٧/ ١٧٠).

(٣) قرأ بها: الكسائي، يعقوب.
ينظر: التبيان للطوسي (٥/ ٤٣٨)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٨٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٣٧).

خلَوا)، وما بينهما اعتراضٌ جيء به مسارعةً إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلة إليهم.

﴿**والذين آمنوا**﴾ وصيغةُ الاستقبالِ لحكاية الأحوالِ الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورِها، وتأخيرُ حكايةِ التنجيةِ عن حكاية الإهلاكِ على عكس ما في قوله تعالى: ﴿**فنجيناه ومَنْ معه في الفلك**﴾ [يونس: ٧٣] إلخ، ونظائِره الواردةِ في مواقعَ عديدة ليتصل به قولُه عز وجل: ﴿**كذلك**﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿**حقًّا علينا**﴾ اعتراض بين العامل والمعمول أي حق ذلك حقًّا وقيل: بدل من المحذوف الذي ناب عنه كذلك أي إنجاء مثل ذلك حقًّا والكاف متعلقة بقوله تعالى: ﴿**ننج المؤمنين**﴾ أي من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه، والمرادُ بالمؤمنين إما الجنسُ المتناول للرسل عليهم السلام، وإما الأتباعُ[1] فقط، وإنما لم يذكر إنجاء الرسل إيذانًا بعدم الحاجة إليه، وأيا ما كان ففيه تنبيهٌ على أن مدارَ النجاة هو الإيمان.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿**قل**﴾ لجمهور المشركين ﴿**يا أيها الناس**﴾ أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرًا بحرف التنبيه تعميمًا للتبليغ وإظهارًا لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم ﴿**إن كنتم في شك من ديني**﴾ الذي أتعبّد الله عز وجل به وأدعوكم إليه ولم تعلموا ما هو وما صفتُه ﴿**فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله**﴾ في وقت من الأوقات ﴿**ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم**﴾ ثم يَفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أي فاعلموا أنه تخصيصُ العبادةِ به ورفضُ عبادةِ ما سواه من الأصنام وغيرِها مما تعبدونه جهلًا، وتقديمُ تركِ عبادةِ الغير على عبادته تعالى لتقدم التخليةِ على التحلية كما في كلمة التوحيد، وللإيذان[2] بالمخالفة من أول الأمر أو إن كنتم في شك من صحة ديني وسَدادِه فاعلموا أن خلاصتَه إخلاصُ العبادة لمن بيده الإيجادُ والإعدام دون ما هو بمعزل منهما من

---

(١) في خ: والاتباع إما الأتباع.

(٢) في خ: للأيمان.

الأصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكارَكم وانظُروا فيها بعين الإنصافِ لتعلموا أنه حقٌّ لا ريب فيه «وفيه تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التعديد والتعبير عما هو فيه . . .» بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحةِ للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضُه للعاقل في هذا الباب هو الشكُّ في صحته، وأما القطعُ بعدمها فمما لا سبيلَ إليه وإن كنتم في شك من ثباتي على الدين فاعلموا أني لا أتركه أبدًا ﴿**وأمرت أن أكون من المؤمنين**﴾ بما دل عليه العقلُ ونطق به الوحيُ وهو تصريحٌ بأن ما هو عليه من دين التوحيدِ ليس بطريق العقلِ الصِّرْفِ بل بالإمداد السماويِّ والتوفيق الإلٰهي.

وحذفُ حرفِ الجر من (أن) يجوز أن يكون من باب الحذفِ المطردِ مع (أنْ) و(أنّ)، وأن يكون خاصًا بفعل الأمرِ كما في قوله: [البسيط]

أمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْت به ....[1]

﴿**وأن أقم وجهك للدين**﴾ عطفٌ على أن أكونَ خلا أن صلةَ أن محكيةٌ بصيغة الأمرِ ولا ضيرَ في ذلك لأن مناطَ جوازِ وصلها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبيةِ، ووجوبُ كونِ الصلةِ خبريةً في الموصول الاسميِّ إنما هو للتوصل إلى وصف المعارفِ بالجمل وهي لا توصف إلا بالجمل الخبرية، وليس الموصولُ الحرفيُّ كذلك أي وأُمرتُ بالاستقامة في الدين والاستبدادِ فيه بأداء المأمورِ به والانتهاءِ عن المنهيِّ عنه أو باستقبال القبلةِ في الصلاة وعدمِ الالتفات إلى اليمين والشمال ﴿**حنيفًا**﴾ حالٌ من الدين أو الوجه أي مائلًا عن الأديانِ الباطلة ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾ عطفٌ على أقم داخلٌ تحت الأمرِ [أي: لا تكونن منهم اعتقادًا ولا عملًا وقوله عز وعلا: ﴿**ولا تدع**﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس**﴾ غير داخل تحت الأمر][2] وقيل: على ما قبله من النهي، والوجهُ هو الأولُ لأن ما بعده من الجمل إلى آخر الآيتين متسقةٌ لا يمكن فصلُ بعضِها عن بعض كما ترى ولا وجهَ لإدراج الكلِّ تحت الأمرِ، وهو تأكيدٌ للنهي المذكورِ وتفصيلٌ لما أجمل فيه إظهارًا لكمال العنايةِ بالأمر وكشفًا عن وجه بُطلان ما عليه المشركون أي لا تدْعُ ﴿**من دون الله**﴾ استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿**ما لا ينفعك**﴾ إذا دعوتَه بدفع مكروهٍ أو جلبِ محبوب ﴿**ولا يضرك**﴾ إذا تركتَه بسلب المحبوبِ دفعًا أو رفعًا أو بإيقاع المكروهِ، وتقديمُ النفعِ على الضرر غنيٌّ عن بيان السبب ﴿**فإن فعلت**﴾ أي ما نُهيتَ عنه من

---

(١) تقدم. (٢) سقط في ط.

دعاء ما لا ينفع ولا يضر، كنّى به عنه تنويهًا لشأنه عليه السلام وتنبيهًا على رفعة مكانِه من أن يُنسَب إليه عبادةُ غير الله سبحانه ولو في ضمن الجملةِ الشرطية ﴿فإنك إذًا من الظالمين﴾ جزاءٌ للشرط وجوابٌ لسؤال من يسأل عن تَبِعة ما نُهي عنه ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ تقريرٌ لما أورد في حيز الصلة من سلب النفعِ من الأصنام وتصويرٌ لاختصاصه به سبحانه ﴿فلا كاشف له﴾ عنك كائنًا من كان وما كان ﴿إلا هو﴾ وحده فيثبت عدمُ كشفِ الأصنامِ بالطريق البرهاني وهو بيانٌ لعدم النفعِ برفع المكروهِ المستلزِمِ لعدم النفعِ بجلبِ المحبوبِ استلزامًا ظاهرًا فإن رفعَ المكروهِ أدنى مراتبِ النفعِ فإذا انتفىٰ انتفى النفعُ بالكلية.

﴿وإن يردك بخير﴾ تحقيقٌ لسلب الضررِ الواردِ في حيز الصلةِ، أي إن يُرِدْ أن يصيبَك بخير ﴿فلا راد لفضله﴾ الذي من جملته ما أرادك به من الخير فهو دليلٌ على جواب الشرطِ لا نفسُ الجواب، وفيه إيذانٌ بأن فيضانَ الخير منه تعالى بطريق التفضّل من غير استحقاقٍ عليه سبحانه أي لا أحدَ يقدِر على رده كائنًا ما كان فيدخل فيه الأصنامُ دخولًا أوليًا وهو بيانٌ لعدم ضُرِّها بدفع المحبوبِ قبلَ وقوعِه المستلزمِ لعدم ضُرِّها برفعه أو بإيقاع المكروهِ استلزامًا جليًا، ولعل ذكرَ الإرادةِ مع الخير والمسِّ مع الضر مع تلازم الأمرين للإيذان بأن الخيرَ مُراد بالذات وأن الضُرَّ إنما يَمسُّ من يَمَسّه لما يوجبه من الدواعي الخارجيةِ لا بالقصد الأوليّ أو أريد معنى الفعلين في كلٍّ من الضر والخير وأنه لا رادَّ لما يريد منهما ولا مزيلَ لما يصيب به منهما فأوجزَ الكلامَ بأن ذكرَ في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادةَ ليدل بما ذكر في كل جانبٍ على ما تُرك في الجانب الآخر على أنه قد صرّح بالإصابة حيث قيل: ﴿يصيب به﴾ إظهارًا لكمال العنايةِ بجانب الخير كما ينبئ عنه تركُ الاستثناءِ فيه أي يصيب بفضله الواسعِ المنتظمِ لما أرادك به من الخير، وجعلُ الفضلِ عبارةً عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضعِ المُظهرِ في موضع المُضمَرِ لما ذُكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل: ﴿من يشاء من عباده﴾ فإن ذلك ينادي بعموم الفضل، وقوله عز قائلًا: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ تذييلٌ لقوله تعالى: ﴿يصيب به﴾ إلخ، مقرِّرٌ لمضمونه، والكلُّ تذييلٌ للشرطية الأخيرةِ محققٌ لمضمونها.

﴿قل﴾ مخاطبًا لأولئك الكفرةِ بعد ما بلّغتهم ما أوحيَ إليك ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ وهو القرآنُ العظيمُ المشتمِلُ على محاسن الأحكامِ التي من جملتها ما مر آنفًا من أصول الدينِ واطلعتم على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبقَ لكم عذرٌ ﴿فمن اهتدى﴾ بالإيمان به والعملِ بما في مطاويه ﴿فإنما يهتدي

لنفسه﴾ أي منفعةُ اهتدائِه لها خاصة **﴿ومن ضل﴾** بالكفر به والإعراض عنه **﴿فإنما يضل عليها﴾** أي فوبالُ الضلالِ مقصورٌ عليها، والمرادُ تنزيهُ ساحةِ الرسالةِ عن شائبة غرضٍ عائد إليه عليه السلام من جلب نفعٍ أو دفع ضرٍّ كما يلوح به إسنادُ المجيء إلى الحق من غير إشعارٍ بكون ذلك بواسطته **﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾** بحفيظ موصولٍ إلى أمركم وإنما أنا بشيرٌ ونذير **﴿واتبع﴾** اعتقادًا وعملًا وتبليغًا **﴿ما يوحىٰ إليك﴾** على نهج التجددِ والاستمرارِ من الحق المذكورِ المتأكِّدِ يومًا فيومًا، وفي التعبير عن بلوغه إليهم بالمجيء وإليه عليه السلام بالوحي تنبيهٌ على ما بين المرتبتين من التنائي **﴿واصبر﴾** على ما يعتريك من مشاقِّ التبليغ **﴿حتى يحكم الله﴾** بالنصرة عليهم أو بالأمر بالقتال **﴿وهو خير الحاكيمن﴾** إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطّلاعَه على الظواهر.

عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورةَ يونُسَ أُعطيَ له من الأجر عشرَ حسناتٍ بعدد من صَدَّقَ بيونُسَ وكذّب به وبعدد مَنْ غرِق مع فرعونَ**»[1] والحمدُ لله وحده.

---

(١) تقدم تخريجه.

سورة هود عليه السلام

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

﴿آلر﴾ محلُّه الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، وقيل: على أنه مبتدأٌ والأولُ هو الأظهرُ كما أشير إليه في سورة يونُسَ عليه السلام، أو النصبُ بتقدير فعلٍ يناسب المقامَ نحو اذكُر أو اقرأ على تقدير كونِه اسمًا للسورة على ما عليه إطباقُ الأكثرِ، أو لا محلَّ له من الإعراب مسرودٌ على نمط التعديدِ حسبما فُصِّل في أخوَاته.

وقوله تعالى: ﴿كتاب﴾ خبرٌ له على الوجه الثاني، ولمبتدأ محذوفٍ على الوجوه الباقيةِ ﴿أحكمت آياتُه﴾ نُظمت نظمًا مُتْقنًا لا يعتريه خللٌ بوجه من الوجوه أو جُعلت حكيمةً لانطوائها على جلائل الحِكَم البالغةِ ودقائِقها أو مُنعت من النسخ بمعنى التغييرِ مطلقًا أو أُيِّدت بالحُجج القاطعةِ الدالةِ على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوتِ مدلولاتِها فالمرادُ بالآيات جميعُها أو على حقية ما تشتمل عليه من الأحكام الشرعيةِ فالمرادُ بها بعضُها المشتملُ عليها كما إذا فُسِّر الأحكامُ بالمنع من النسخ بمعنى تبديلِ الحُكم الشرعيِّ خاصةً، وأما تفسيرُه بالمنع من الفساد أخذًا من قولهم: أحكمتَ الدابة إذا وضعتَ عليها الحَكَمة[1] لتمنعَها من الجِماح ففيه إيهامُ ما لا يكاد يليقُ بشأن الآياتِ الكريمةِ من التداعي إلى الفساد لولا المانع، وفي إسناد الإحكامِ على الوجوه المذكورةِ إلى آيات الكتابِ دون نفسِه لا سيما على الوجوه

---

(١) حكمة اللجام: حديدته التي تكون في فم الفرس.

الشاملةِ لكل آية منه من حسن الموقعِ والدلالة على كونه في أقصى غاية منه ما لا يخفى ﴿ثم فصلت﴾ أي جُعلت فصولًا من الأحكام والدلائل والمواعظِ والقِصصِ أو فُصّل فيها مهمّاتُ العبادِ في المعاش والمعادِ على الإسناد المجازيِّ والتفسيرُ بجعلها آيةً آيةً لا يساعده [المقام][١]، لأن ذلك من الأوصاف الأوليةِ لها فلا يناسب عطفُه على أحكامها بكلمة التراخي، وأما المعنيان الأوّلانِ فهما وإن كانا مع الأحكام زمانًا حيث لم تزَل الآياتُ مُحكمةً مفصّلة لا أنها أُحكِمَتْ أو فُصِّلَت بعد أن لم تكن كذلك، إذ الفعلانِ من قَبيل قولِهم: سبحان من صغّر البَعوضَ وكبّر الفيلَ، إلا أنهما حيث كانا من صفات الآياتِ باعتبار نسبةِ بعضِها إلى بعض على وجه يستتبعُ أحكامًا مخصوصةً وآثارًا معتدًّا بها، وبملاحظة مصالحِ العبادِ ناسبَ أن يشار إلى تراخي رتبتِهما عن رتبة الإحكام، وإن حُمل جعلُها آية آيةً على معنى تفريقِ بعضِها عن بعض يكونُ من هذا القبيل إلا أنه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه من الأحكام والآثارِ، أو فُرّقت في التنزيل منجّمة بحسب المصالحِ فإن أريد تنزيلُها المنجَّمُ بالفعل فالتراخي زمانيٌّ وإن أريد جعلُها في نفسها بحيث يكون نزولُها منجّمًا حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ والمصلحةُ فهو رُتبيٌّ لأن ذلك وصفٌ لازمٌ لها حقيقٌ بأن يُرتَّبَ على وصف إحكامِها وقرئ، (أحكمتُ آياتِه ثم فصّلتُ)[٢] على صيغة التكلم، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي فرّقت بين الحق والباطل.

﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفةٌ للكتاب وُصف بها[٣] بعد ما وصُف بإحكام آياتِه وتفصيلِها الدالّين على علو رتبتِه من حيث الذاتُ إبانةً لجلالة شأنِه من حيث الإضافةُ، أو خبرٌ[٤] للمبتدأ المذكور أو المحذوفِ، أو صلةٌ للفعلين وفي بنائها للمفعول ثم إيرادِ الفاعلِ بعنوان الحِكمة البالغةِ والإحاطةِ بجلائلها ودقائِقها منكرًا بالتنكير التفخيميّ وربطِهما به لا على النهج المعهودِ في إسناد الأفاعيلِ إلى فواعلها مع رعاية حسنِ الطباقِ من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونِهما على أكمل[٥] ما يكون ما لا يُكتنه كُنهُه.

دعوة إلى التوحيد

﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ مفعولٌ له حُذف عنه اللامُ مع فقدان الشرطِ، أعني كونَه

---

(١) سقط في ط.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٠٠) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٨).
(٣) في خ: لها.
(٤) في خ: خبر بعد خبر.
(٥) في خ: أحمل.

فعلًا لفاعل الفعلِ المعللِ جريًا على سنن القياسِ المطّردِ في حذف حرفِ الجرِّ مع (أن) المصدريةِ، كأنه قيل: كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فُصّلت لئلا تعبدوا إلا الله، أي لتترُكوا عبادةَ غيرِ الله عز وجل وتتمحّضوا[1] في عبادته، فإن الإحكامَ والتفصيلَ على ما فُصّل من المعاني مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيدِ وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبةً. وقيل: أنْ مفسرةٌ لما في التفصيل من معنى القولِ أي قيل: لا تعبدوا إلا الله ﴿إنني لكم منه﴾ من جهة الله تعالى ﴿نذير﴾ أُنذركمَ عذابَه إن لم تتركو ما أنتم عليه من الكفر وعبادةِ غيرِ الله تعالى ﴿وبشير﴾ أبشركم بثوابه إن آمنتم به وتمحّضتم في عبادته، ولمّا ذُكر شؤون الكتابِ من إحكام آياتهِ وتفصيلِها وكونِ ذلك من قِبَل الله تعالى وأُورد معظمُ ما نُظم في سلك الغايةِ والأمرِ من التوحيد وتركِ الإشراك وُسِّط بينه وبين قرينيه ، أعني الاستغفارَ والتوبة ، ذِكرُ أن من نُزّل عليه ذلك الكتابُ مرسَلٌ من عند الله تعالى لتبليغ أحكامِه وترشيحِها بالمؤيدات من الوعد والوعيدِ للإيذان بأن التوحيدَ في أقصى مراتبِ الأهمية حتى أُفرد بالذكر وأُيِّد إيجابُه بالخطاب غِبَّ الكتابِ مع تلويح بأنه كما لا يتحقق في نفسه إلا مقارِنًا للحُكم برسالته عليه السلام كذلك في الذكر لا ينفكّ أحدُهما عن الآخر، وقد رُوعيَ في سَوق الخطابِ بتقديم الإنذار على التبشير ما رُوعيَ في الكتاب من تقديم النفي على الإثبات والتخليةِ على التحليةِ لتجاوب أطرافِ الكلامِ، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ كلامًا منقطعًا عما قبله واردًا على لسانه عليه السلام إغراءً لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال: «**تركَ عبادةِ غيرِ الله**» أي الزموه، على معنى اترُكوا عبادةَ غيرِ الله تركًا مستمرا إنني لكم من جهة الله تعالى نذيرٌ وبشير، أي[2] نذير أنذرُكم من عقابه على تقدير استمرارِكم على الكفر وبشيرٌ أبشرّكم بثوابه على تقدير تركِكم له وتوحيدِكم، ولما سيق إليهم حديثُ التوحيدِ وأُكد ذلك بخطاب الرسولِ ﷺ على وجه الإنذارِ والتبشيرِ شُرع في ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمّن تفصيلَ ما أجمل وصف البشير والنذير فقيل:

﴿وأن استغفروا ربكم﴾ وهو معطوفٌ على أن لا تعبدوا على ما ذكر من الوجهين فعلى الأول أنْ مصدريةٌ لجواز كون صلتِها أمرًا أو نهيًا كما في قوله تعالى: ﴿وأن أقِمْ وجهَك للدين حنيفًا﴾ [يونس: ١٠٥] لأن مدارَ جوازِ كونِها فعلًا إنما هو دلالتُه على المصدر وهو موجودٌ فيهما، ووجوبِ كونِها خبريةً في صلة الموصول الاسميِّ

---

(١) أي تخلصوا له العبادة. (٢) في خ: أو.

إنما هو للتوصل إلى وصف المعارفِ بالجمل وهي لا توصف بها إلا إذا كانت خبريةً، وأما الموصولُ الحرفيُّ فليس كذلك، ولما كان الخبرُ والإنشاءُ في الدلالة على المصدر سواءً ساغ وقوعُ الأمرِ والنهي صلةً حسبما ساغ وقوعُ الفعلِ فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرّدِ الصلةِ الفعليةِ عن معنى المضيِّ والاستقبال ﴿ثم توبوا إليه﴾ عطف على استغفروا والكلامُ فيه كالكلام فيه والمعنى فُعل ما فُعل من الإحكام والتفصيلِ لتخصّوا الله تعالى بالعبادة وتطلُبوا منه سَتر ما فرَط منكم من الشرك ثم ترجِعوا إليه بالطاعة أو تستمرّوا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفارِ أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصي.

وعلى الثاني أنْ مفسرةٌ أي قيل في أثناء تفصيلِ الآياتِ: لا تعبدوا إلا الله واستغفِروه ثم توبوا إليه، والتعرّضُ لوصف الربوبيةِ تلقينٌ للمخاطَبين وإرشادٌ لهم إلى طريق الابتهالِ في السؤال وترشيحٌ لما يعقُبه من التمتيع وإيتاءِ الفضلِ بقوله تعالى: ﴿يمتعكم متاعًا حسنًا﴾ أي تمتيعًا، وانتصابُه على أنه مصدرٌ حذف منه الزوائدُ كقوله تعالى: ﴿أنبتكم من الأرض نباتًا﴾ [نوح: ١٧] أو على أنه مفعولٌ به وهو اسمٌ لما يُتمتّع به من منافع الدنيا من الأموال والبنينَ وغيرِ ذلك، والمعنى يُعِيْشُكم عَيشًا مرضيا لا يفوتكم فيه شيءٌ مما تشتهون ولا ينغصُه شيءٌ من المكدرات ﴿إلى أجل مسمى﴾ مقدّرٍ عند الله عز وجل وهو آخرُ أعمارِكم، ولما كان ذلك غايةً لا يطمح وراءَها طامحٌ جرى التمتيعُ إليها مجرى التأبيدِ عادةً أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ في الطاعة والعملِ ﴿فضله﴾ جزاءَ فضلِه إما في الدنيا أو في الآخرة، وهذه تكملةٌ لما أُجمل من التمتيع إلى أجل مسمًّى وتبيينٌ لما عسى يعسُر فهمُ حكمتِه من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحالِ بين العاملين، فرب إنسانٍ له فضل طاعة وعمل لا يُمتّع في الدنيا أكثرَ مما مُتِّع آخرُ دونه في الفضل، وربما يكون المفضولُ أكثرَ تمتيعًا فقيل: ويُعطِ كلَّ فاضلٍ جزاءَ فضلِه، إما في الدنيا كما يتفق في بعض المواد وإما في الآخرة، وذلك مما لا مرد له وهذا ضربُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما سبق من البشارة، ثم شرع في الإنذار فقيل: ﴿وإن تولوا﴾ أي تتولوا عما أُلقي إليكم من التوحيد والاستغفار والتوبةِ، وإنما أُخّر عن البشارة جريًا على سنن تقدمِ الرحمةِ على الغضب أو لأن العذابَ قد علّق بالتولي عما ذكر من التوحيد والاستغفارِ والتوبةِ وذلك يستدعي سابقةَ ذكرِه، وقرئ (تُوَلّوا)[1] من ولّى ﴿فإني أخاف عليكم﴾ بموجب

---

(١) قرأ بها: عيسى بن عمر، واليماني.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٨).

الشفقة والرأفةِ أو أتوقع ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامةُ وُصف بالكِبَر كما وصف بالعِظَم في قوله تعالى: ﴿ألا يظُن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ [المطففين: ٤] إما لكونه كذلك في نفسه أو وُصف بوصف ما يكون فيه كمًا وُصفَ بالثقل في قوله تعالى: ﴿ثقُلت في السموات والأرضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقيل: يوُم الشدائد وقد ابتلُوا بقَحطٍ أكلوا فيه الجيَفَ، وأيا ما كان ففي إضافةِ العذابِ إليه تهويلٌ وتفظيعٌ له ﴿إلى الله مرجعكم﴾ رجوعُكم بالموت ثم البعثِ للجزاء في مثل ذلك اليومِ لا إلى غيره[1] ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فيندرج في تلك الكلية قدرتُه على إماتَتكم ثم بعثِكم وجزائِكم فيعذبكم بأفانينِ العذابِ وهو تقريرٌ لما سلف من كِبر اليوم وتعليلٌ للخوف، ولمّا أُلقيَ إليهم فحوى الكتابِ على لسان النبي ﷺ وسيق إليهم ما ينبغي أن يُساقَ من الترغيب والترهيبِ وقع في ذهن السامعِ أنهم بعدما سمِعوا مثلَ هذا المقالِ الذي تخِرُّ له صمُّ الجبالِ هل قابلوه بالإقبال أم تمادَوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلالِ، فقيل مصدّرًا بكلمة التنبيهِ إشعارًا بأن ما يعقُبها من هَناتهم أمرٌ يجب أن يُفهم ويتعجَّبَ منه:

﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ يزْورُّون عن الحق وينحرفون عنه أي يستمرون على ما كانوا عليه من التولّي والإعراضِ لأن مَنْ أعرض عن شيء ثنى عنه صدرَه وطوى عنه كشحَه، وهذا معنىً جزْلٌ مناسبٌ لما سبق، وقد نحا نحوَه العلامةُ الزَّمَخْشَريُّ ولكن حيث لم يصلُح التولي سبيلًا للاستخفاء في قوله عز وجل: ﴿ليستخفوا منه﴾ التَجأ إلى إضمار الإرادةِ حيث قال: ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يُطْلِعَ رسولَه والمؤمنين على إعراضهم، وجعلُه في قَوْد المعنى إليه من قبيل الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿اضربْ بعصاك البحرَ فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فضرب فانفلق، ولا يخفى أن انسياقَ الذهنِ إلى توسيط الإرادةِ بين ثنْيِ الصدورِ وبين الاستخفاءِ ليس كانسياقِه إلى توسيط الضربِ بين الأمرِ به وبين الانفلاقِ، ولعل الأظهرَ أن معناه يعطِفون صدورَهم على ما فيها من الكفر والإعراضِ عن الحق وعداوةِ النبيِّ ﷺ بحيث يكون ذلك مخفيا مستورًا فيها كما تُعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورةِ، وإنما لم يذكرْ ذلك استهجانًا بذكره أو إيماءً إلى أن ظهورَه مغنٍ عن ذكره أو ليذهبَ ذهنُ السامعِ إلى كل ما لا خيرَ فيه من الأمور المذكورةِ، فيدخلُ فيه ما ذكر من تولّيهم عن الحق الذي أُلقيَ إليهم دخولًا أوليًا، فحينئذ يظهر وجهُ كونِ ذلك سببًا

(١) زاد في خ: سميعا لا يتخلف منكم أحد.

للاستخفاء، ويؤيده ما رُوي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنها نزلت في الأخنس بنِ شُرَيقٍ وكان رجلًا حلوَ المنطِق حسنَ السياقِ للحديث يُظهر لرسول الله ﷺ المحبةَ ويُضمِرُ في قلبه ما يضادُّها، وقال ابن شداد إنها نزلتْ في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدرَه وظهرَه وطأطأ رأسَه وغطَّى وجهَه كيلا يراه النبيُّ ﷺ فكأنه إنما كان يصنع ما يصنع لأنه لو رآه النبيُّ ﷺ لم يمكِنْه التخلّفُ عن حضور مجلِسه والمصاحبةِ معه، وربما يؤدّي ذلك إلى ظهور ما في قلبه من الكفر والنفاقِ، وقرئ (يَثْنَوْني صدورُهم) بالياء[١] والتاء[٢] من (اثنَوْنىٰ) افعوعل من الثَّني كاحلولى من الحلاوة، وهو بناءُ مبالغةٍ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما (لَتثْنَوني)[٣]، وقرئ (تثنون)[٤] وأصله (تثنونُ) من (تفْعَوعِلُ) من الثِّنِّ وهو ما هشّ من الكلأ وضعُف يريد مطاوعةَ صدورِهم للثني كما يُثْنىٰ الهشُّ من النبات، أو أراد ضعفَ إيمانِهم ورَخاوةَ قلوبِهم، وقرئ (يَثْنَئِنُّ)[٥] من (اثنانّ) افعالَّ منه ثم همزٌ، كما قيل: ابياضّت وادهامّت وقرئ (تثْنوِي)[٦] بوزن ترعوي.

﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي يتغطَّوْن بها للاستخفاء على ما نقل عن ابن

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، وعبد الله، ابن أبي إسحاق وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٤٢).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وعلي بن الحسين، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ويحيى ابن يعمر، ونصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن أبزى، وعاصم الجحدري، وعبد الله بن أبي إسحاق، وأبو الأسود الدؤلي، وأبو رزين الضحاك، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٢)، وتفسير الطبري (١١/ ١٢٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٨)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٥٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٣)، وفي خ: والثاء.

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٩).

(٤) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٨٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٩).

(٥) قرأ بها: عروة، ومجاهد، والأعشى.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣١٨).

(٦) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: تفسير القرطبي (٩/ ٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٩).

شداد، أو حين يأوون إلى فُرُشِهم ويتدثّرون بثيابهم فإن ما يقع حينئذٍ حديثُ النفس عادةً، وقيل: كان الرجلُ من الكفار يدخُل بيته ويُرخي سِتره ويحْني ظهرَه ويتغشّى بثوبه ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ ﴿يعلم ما يسرون﴾ أي يُضمِرون في قلوبهم ﴿وما يعلنون﴾ أي يستوي بالنسبة إلى علمه المحيطِ سِرُّهم وعلنُهم فكيف يخفىٰ عليه ما عسى يُظهرونه! وإنما قدم السرُّ على العلن نعيًا عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذانًا بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذَرونه وتحقيقًا للمساواة بين العِلْمين على أبلغ وجهٍ فكأن علمَه بما يسّرونه أقدمُ منه بما يعلنونه، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿قل إن تُخفوا ما في صدوركم أو تُبْدوه يعلمْه الله﴾ [آل عمران: ٢٩] حيث قدّم فيه الإخفاءُ على الإبداء على عكس ما وقع في قوله تعالى: ﴿وإن تُبدوا ما في أنفكسم أو تخفوه يحاسبْكم به الله﴾ [البقرة: ٢٨٤] إذ لم يتعلق بإشعار أن المحاسبةَ بما يُخفونه أولى منها بما يُبْدونه غرضٌ، بل الأمرُ بالعكس، وأما هاهنا فقد تعلق بإشعار كونِ تعلقِ علمِه تعالى بما يُسرّونه أولى منه بما يعلنونه غرضٌ مُهِمٌّ مع كونهما على السوية، كيف لا وعلمُه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصولِ الصورةِ بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحالُ بين الأشياء البارزةِ والكامنةِ، وأما قوله تعالى: ﴿وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتُمون﴾ [البقرة: ٣٣] فحيث كان واردًا بصدد الخطابِ مع الملائكة عليهم السلام المنزهِ مقامُهم عن اقتضاء التأكيدِ والمبالغةِ في الإخبار بإحاطة علمِه تعالى بالظاهر والباطن لم يُسلَكْ فيه ذلك المسلكُ مع أنه وقع الغُنيةُ عنه بما قبله من قوله عز وجل: ﴿إني أعلم غيبَ السمواتِ والأرض﴾ [البقرة: ٣٣] ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبةَ السرِّ متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمرٌ في القلب، فتعلقُ علمِه سبحانه بحالته الأولى متقدمٌ على تعلقه بحالته الثانية ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ تعليلٌ لما سبق وتقريرٌ له واقع موقعَ الكبرى من القياس، وفي صيغة الفعيلِ وتحليةِ الصدورِ بلام الاستغراقِ والتعبيرِ عن الضمائر بعنوان صاحبيها من البراعة ما لا يصفه الواصفون كأنه قيل: إنه مبالغٌ في الإحاطة بمضمرات جميعِ الناسِ وأسرارِهم الخفيةِ المستكنّةِ في صدورهم بحيث لا تفارقها أصلًا، فكيف يخفىٰ عليه ما يُسرّون وما يعلنون، ويجوز أن يُراد بذات الصدورِ القلوبُ من قوله تعالى: ﴿ولكنْ تعمىٰ القلوبُ التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦] والمعنى أنه عليمٌ بالقلوب وأحوالِها فلا يخفىٰ عليه سرٌّ من أسرارها.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ غذاؤُها اللائقُ بها من حيث الخلقُ ومن حيث الإيصالُ إليها بطريق طبيعيٍّ أو إراديٍّ لتكفّله إياه تفضلًا ورحمةً، وإنما جيء به على طريق الوجوبِ اعتبارًا لسبق الوعدِ وتحقيقًا لوصوله إليها ألبتة، وحملًا للمكلّفين على الثقة به تعالى والإعراضِ عن إتعاب النفس في طلبه **﴿ويعلم مستقرها﴾** محلَّ قرارِها في الأصلاب **﴿ومستودعها﴾** موضعَها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوِها، وإنما خُصَّ كلٌّ من الاسمين بما خُصَّ به من المحلَّين لأن النطفةَ بالنسبة إلى الأصلاب في حيزها الطبيعيِّ ومنشئِها الخلقيِّ، وأما بالنسبة إلى الأرحام وما يجري مجراها فهي مُودعةٌ فيها إلى وقت معين، أو مسكنَها من الأرض حين وُجدت بالفعل ومُودَعها من الموادّ والمقارِّ حين كانت بعدُ بالقوة، ولعل تقديمَ محلِّها باعتبار حالتِها الأخيرةِ لرعاية المناسبةِ بينها وبين عنوانِ كونِها دابةً في الأرض والمعنى ما من دابة في الأرض إلا يرزُقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقُه إليها ويعلم موادَّها المتخالفةَ المتدرِّجة في مراتب الاستعداداتِ المتفاوتةِ المتطورةِ في الأطوارِ المتباينة ومقارَّها المتنوعةَ ويُفيض عليها في كل مرتبةٍ ما يليق بها من مبادي وجودِها وكمالاتِها المتفرِّعةِ عليه، وقد فُسر (المستودَعُ) بأماكنها في الممات، ولا يلائمه مقامُ التكفّل بأرزاقها.

﴿كل﴾ من الدواب ورزقِها ومستقرِّها ومستودعِها **﴿في كتاب مبين﴾** أي مُثْبتٍ في اللوح المحفوظِ البيِّن لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المُظهِرِ لما أُثبت فيه للناظرين، ولمّا انتهى الأمرُ إلى أنه سبحانه محيطٌ بجميع أحوالِ ما في الأرض من

المخلوقات التي لا تكاد تحصى من مبدأ فطرتِها إلى منتهاها اقتضى الحالُ التعرّضَ لمبدأ خلقِ السماواتِ والأرض والحكمةِ الداعية إلى ذلك فقال:

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ السماواتِ في يومين والأرضَ في يومين وما عليها من أنواع الحيواناتِ والنباتِ وغيرِ ذلك في يومين حسبما فُصِّل في سورة حم السجدةُ ولم يُذكر خلقُ ما في الأرض لكونه من تتمات خلقِها وهو السرُّ في جعل زمان خلقِه تتمةً لزمان خلقِها في قوله تعالى: ﴿في أربعة أيام﴾ [فصلت: ١٠] أي في تتمة أربعةِ أيام.

والمرادُ بالأيام الأوقاتُ كما في قوله تعالى: ﴿من يولهم يومئذ دبره﴾ [الأنفال: ١٦] أي في ستة أوقاتٍ أو مقدارِ ستةِ أيام فإن اليومَ في المتعارَف زمانُ كونِ الشمسِ فوق الأرضِ، ولا يُتصوَّر ذلك حين لا أرضَ ولا سماءَ، وفي خلقها مدرجًا مع القدرة التامةِ على خلقها دفعةً دليلٌ على أنه قادرٌ مختارٌ واعتبارٌ للنُظّار وحثٌّ على التأنّي في الأمور. وأما تخصيصُ ذلك بالعدد المعيَّنِ فأمرٌ استأثر بعلم ما يقتضيه علامُ الغيوب جلت حِكمتُه، وإيثارُ صيغةِ الجمعِ في السماوات لما هو المشهورُ من الإشارة إلى كونها أجرامًا مختلفةَ الطبائعِ ومتفاوتةَ الآثارِ والأحكام ﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقِهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شيءٌ غيرُه سواءٌ كان بينهما فُرجةٌ أو كان موضوعًا على متنه كما ورد في الأثر، فلا دلالةَ فيه على إمكان الخلاء، كيف لا ولو دلّ لدلّ على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماءِ أولَ ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدلّ على أن خلقَهما أقدمُ من خلق السماوات والأرضِ من غير تعرضٍ للنسبة بينهما.

﴿ليبلوكم﴾ متعلقٌ بخلق أي خلق السماواتِ والأرضَ وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادي وجودِكم وأسبابِ معايشِكم وأودع في تضاعيفهما من تعاجيب الصنائعِ والعبرِ ما تستدلون به على مطالبكم الدينيةِ ليعاملَكم معاملةَ من يبتليكم ﴿أيكم أحسن عملًا﴾ فيجازيَكم بالثواب والعقاب غِبَّ ما تبين المحسنُ من المسيء وامتازت درجاتُ أفرادِ كلٍّ من الفريقين حسب امتيازِ طبقاتِ علومِهم واعتقاداتِهم المترتبة على أنظارهم فيما نُصب من الحُجج والدلائل والأماراتِ والمخايلِ ومراتب أعمالِهم المتفرِّعة على ذلك فإن العملَ غيرُ مختصٍّ بعمل الجوارح، ولذلك فسره عليه السلام بقوله: «**أيكم أحسنُ عقلًا وأورعُ عن محارم الله وأسرعُ في طاعة الله؟**»[1] فإن لكل من القلب والقالَبِ عملًا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٧) رقم (١٨٠٠٣) قال: حُدثت عن داود بن المحبر عن عبد الواحد ابن زيد عن كليب بن وائل عن عبد الله بن عمر به وأخرجه الحارث بن أبي أسامة (٨١٣ - بغية الباحث) حدثنا داود به وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٤٥) وعزاه للثعلبي في تفسيره =

مخصوصًا به فكما أن الأولَ أشرفُ من الثاني فكذا الحالُ في عمله، كيف لا ولا عملَ بدون معرفةِ الله عز وجل الواجبةِ على العباد آثرَ ذي أثيرٍ وإنما طريقُها النظريُّ التفكرُ في بدائع صنائعِ الملِكِ الخلاقِ والتدبّرِ في آياتة البيناتِ المنصوبةِ في الأنفس والآفاق، ولا طاعة بدون فهم ما في مطاوي الكتابِ الحكيم من الأوامر والنواهي وغيرِ ذلك مما له مدخلٌ في الباب. وقد روي عن النبيﷺ أنه قال: «**لا تفضلوني على يونس بنِ متى فإنه كان يُرفع له كلَّ يومٍ مثلُ عملِ أهلِ الأرض**»[1] قالوا: وإنما كان ذلك التفكرَ في أمر الله عز وجل الذي هو عملُ القلبِ لأن أحدًا لا يقدر على أن يعملَ في اليوم بجوارحه مثلَ عملِ أهلِ الأرض، وتعليقُ فعلِ البلوى أي تعقيبُه بحرف الاستفهام لا التعليقُ المشهورُ الذي يقتضي عدمَ إيرادِ المفعولِ أصلًا مع اختصاصه بأفعال القلوبِ لما فيه من معنى العلمِ باعتبار عاقبتِه كالنظرِ ونظائرِه، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيلِ أو الاستعارةِ التبعية، وإيرادُ صيغةِ التفضيلِ مع أن الابتلاءَ شاملٌ للفريقين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيحِ أيضًا لا إلى الحسن والأحسنِ فقط للإيذان بأن المرادَ بالذات والمقصودَ الأصليَّ مما ذكر من إبداع تلك البدائعِ على ذلك النمطِ الرائعِ إنما هو ظهورُ كمالِ إحسانِ المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوهِ اللائقةِ وأكملِ الأساليب الرائقةِ يوجب العملَ بموجبه بحيث لا يَحيدُ أحدٌ عن سَننه المستبينِ بل يهتدي كلُّ فردٍ إلى ما يُرشد إليه من مطلق الإيمانِ والطاعةِ، وإنما التفاوتُ بينهم في مراتبهما بحسب القوةِ والضَّعفِ والكثرةِ والقلة، وأما الإعراضُ عن ذلك والوقوعُ في مهاوي الضلالِ فبمعزلٍ من الاندراج تحت الوقوع فضلًا عن أن ينتظِم ظهورُه في سلك العلةِ الغائيةِ لذلك الصنعِ البديعِ، وإنما هو عملٌ يصدُر عن عامله بسوء اختيارِه من غير مصحِّحٍ له ولا تقريب، ولا يخفى ما فيه من الترغيب في الترقي إلى معارج العلومِ ومدارجِ الطاعات والزجرِ عن مباشرة نقائضِها والله تعالى أعلم.

﴿**ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت**﴾ على ما يوجبه قضيةُ الابتلاءِ ليترتبَ عليه الجزاءُ المتفرِّعُ على ظهور مراتبِ الأعمال ﴿**ليقولَن الذين كفروا**﴾ إن وُجِّه الخطاب في قوله تعالى: ﴿إنكم﴾ إلى جميع المكلّفين بالموصول مع صلته للتخصيص

= وداود بن المحبر في كتابه «العقل».

وداود بن المحبر بن قحذم البصري نزيل بغداد وضاع هو الذي وضع كتاب العقل وسرقه منه آخرون.

(١) تقدم تخريجه.

أي ليقولَن الكافرون منهم، وإن وجِّه إلى الكافرين منهم فهو واردٌ على طريقة الذم.

﴿**إن هذا إلا سحر مبين**﴾ أي مثلُه في الخديعة أو البطلان، وهذا إشارةٌ إلى القول المذكورِ أو إلى القرآن فإن الإخبارَ عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونُه بطريق الوحي المتلوِّ إلا أنهم عند سماعِهم ذلك تخلّصوا إلى القرآن لإنبائه عنه في كل موضعٍ، وكونِه علَمًا عندهم في ذلك فعمَدوا إلى تكذيبه وتسميتِه سحرًا تماديًا منهم في العناد وتفاديًا عن سَنن الرشاد.

وقيل: هو إشارةٌ إلى نفس البعثِ ولا يلائمه التسميةُ بالسحر، فإنه إنما يُطلقُ على شيء موجودٍ ظاهرًا لا أصلَ له في الحقيقة، ونفسُ البعثِ عندهم معدومٌ بحتٌ، وتعلّقُ الآيةِ الكريمةِ بما قبلها إما من حيث إن البعثَ كما أشير إليه من تتمات الابتلاءِ المذكورِ فكأنه قيل: الأمرُ كما ذكر ومع ذلك إن أخبرتهم بمقدمة فذّةٍ من مقدماته وقضيةٍ فردةٍ من تتماته لا يتلعثمون في الرد ويعدّون ذلك من قبيل ما لا صِحةَ له أصلًا فضلًا عن تصديق ما هذه من تتماته، وإما من حيث إن البعثَ خلقٌ جديد فكأنه قيل: وهو الذي خلق جميعَ المخلوقاتِ ابتداءً لهذه الحكمة البالغةِ ومع ذلك إن أخبرتهم بأنه يعيدهم تارةً أخرى وهو أهونُ عليه يقولون ما يقولون فسبحان الله عما يصفون.

وقرأ حمزةُ والكسائيُ (إلا ساحرٌ)[1] على أن الإشارةَ إلى القائل أو إلى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح[2] على تضمين قلتَ معنى ذكرتَ أو على أن أنك بمعنى عنك في علّك، أي ولئن قلتَ: لعلكم مبعوثون على أن الرجاءَ والتوقعَ باعتبار حالِ المخاطبين أي توقّعوا ذلك ولا تبُتّوا القولَ بإنكاره أو على أنه مجاراةٌ معهم في الكلام على نهج المساعدةِ لئلا يسارعوا إلى اللَّجاج والعِنادِ ريثما قَرَعَ أسماعَهم بتُّ القولِ بخلاف ما ألِفوا وألفَوْا عليه آباءَهم من إنكار البعثِ ويكون ذلك أدعىٰ لهم إلى التأمل والتدبّر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون.

﴿**ولئن أخرنا عنهم العذاب**﴾ المترتِّبَ على بعثهم أو العذابَ الموعود في قوله

---

(١) قرأ بها أيضًا: خلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٥)، والتيسير للداني ص (١٠١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٢١)، والمعاني للفراء (٢/ ٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٢) قرأ بها: المطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٠).

تعالى: ﴿وإن تولّوا فإني أخاف عليكم عذابَ يومٍ كبير﴾ [هود: ٣] وقيل: عذابُ يومِ بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قتلُ جبريلَ عليه السلام للمستهزئين، والظاهرُ أن المرادَ به العذابُ الشاملُ للكفرة دون ما يُخَصّ ببعض منهم، على أنه لم يكن موعودًا يستعجل منه المجرمون ﴿إلى أمة معدودة﴾ إلى طائفة من الأيام قليلةٍ لأن ما يحصُره العدُّ قليلٌ ﴿ليقولن ما يحبسه﴾ أي أيُّ شيءٍ يمنعه من المجيء فكأنه يريده فيمنعه مانعٌ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستعجالِ استهزاءً لقوله تعالى: ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾.

ومرادُهم إنكارُ المجيءِ والحبْسِ رأسًا لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابسه ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ ذلك ﴿ليس مصروفًا﴾ محبوسًا ﴿عنهم﴾ على معنى أنه لا يرفعه رافعٌ أبدًا إن أريد به عذابُ الآخرة أو لا يدفعه عنكم دافعٌ بل هو واقعٌ بكم إن أريد به عذابُ الدنيا، ويومَ منصوبٌ بخبر ليس مقدمًا عليه، واستدل به البصريون على جواز تقديمِه على ليس إذ المعمولُ تابعٌ للعامل فلا يقع إلا حيث يقعُ متبوعُه.

ورُدَّ بأن الظرفَ يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسّعًا وبأنه قد يُقدّم المعمولُ حيث لا مجالَ لتقدم العامِلِ كما في قوله تعالى: ﴿فأما اليتيمَ فلا تقهَرْ وأما السائل فلا تنهرْ﴾ [الضحى: ٩ و١٠] فإن اليتيمَ والسائلَ مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهيةِ مع امتناع تقدمِ الفعلين عليهما.

قال أبو حيان: وقد تتبعتُ جملةً من دواوين العربِ فلم أظفَرْ بتقديم خبرِ ليس عليها ولا بتقديمِ معمولِه إلا ما دل عليه ظاهرُ هذه الآيةِ الكريمةِ وقولُ الشاعر: [الطويل]

فيأبىٰ فما يزدادُ إلا لجاجةً ... وكنتُ أبيًا في الخنا لست أُقدِمُ[1]

﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزءون﴾ أي العذابُ الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً، وفي التعبير عنه بالموصول تهويلٌ لمكانه وإشعارٌ بعليّة ما ورد في حيز الصلةِ من استهزائهم به لنزوله وإحاطتِه، والتعبيرُ عنها بالماضي واردٌ على عادة الله تعالى في أخباره لأنها في تحققها وتيقُّنها بمنزلة الكائنةِ الموجودةِ، وفي ذلك من الفخامة والدلالةِ على علو شأنِ المُخْبَرِ به ما لا يخفى. ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أي أعطيناه نعمةً من صحة وأمْنٍ وجِدَةٍ[2] وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد

---

(١) ينظر: البيت في البحر المحيط (٥/ ٢٠٦٩)، وروح المعاني (١٢/ ١٥)، والدر المصون (٤/ ٨٢).
(٢) وَجَدَ وُجْداً وجِدَةً: صار ذا مال.

لذّتها ﴿**ثم نزعناها منه**﴾ أي سلبناه إياها، وإيرادُ النزعِ للإشعار بشدة تعلُّقِه بها وحِرْصِه عليها ﴿**إنه ليؤوس**﴾ شديدُ القنوطِ من رَوْح الله قَطوعٌ رجاءَه من عَود أمثالِها عاجلًا أو آجلًا بفضل الله تعالى لقلة صبرِه وعدمِ توكلِه عليه وثقتِه به ﴿**كفور**﴾ عظيمُ الكُفرانِ لِما سلف من النعم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النزْعَ إنما كان بسبب كفرانِهم بما كانوا يتقلّبون فيه من نعم الله عز وجل، وتأخيره عن وصف يأسِهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصلِ على أن اليأسَ من فضل الله سبحانه وتعالى وقطعَ الرجاءِ عن إفاضة أمثالِه في العاجل وإيصالِ أجرِه في الآجل من باب الكُفران للنعمة السالفة أيضًا.

﴿**ولئن أذقناه نعماء بعد ضراءَ مستْه**﴾ كصِحّة بعد سَقَم وجِدَةٍ بعد عدم وفرجٍ بعد شدة، وفي التعبير عن ملابسة الرحمةِ والنعماءِ بالذوق المُؤْذِنِ بلذتهما وكونِهما مما يُرْغب فيه، وعن ملابسة الضراءِ بالمسِّ المُشْعِرِ بكونها في أدنى ما ينطلق عليه اسمُ الملاقاة من مراتبها، وإسنادُ الأولِ إلى الله عز وجل دون الثاني، ما لا يخفى من الجزالة والدِلالةِ على أن مرادَه تعالى إنما هو إيصالُ الخير المرغوبِ فيه على أحسن ما يكون، وأنه إنما يريد بعباده اليُسرَ دون العسرِ وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارِهم نيلًا يسيرًا كأنما يلاصقُ البشرَةَ من غير تأثيرٍ.

وأما نزعُ الرحمةِ فإنما صدَر عنه بقضية الحِكمةِ الداعية إلى ذلك وهي كفرانُهم بها كما سبق، وتنكيرُ الرحمة باعتبار لحُوقِ النزْعِ بها ﴿**ليقولن ذهب السيئات عني**﴾ أي المصائبُ التي تسوءني ولن يعترِيَني بعدُ أمثالُها كما هو شأنُ أولئك الأشرارِ، فإن الترقّبَ لورود أمثالِها مما يكدّر السرورَ وينغّص العيش ﴿**إنه لفرح**﴾ بطِرٌ وأشِرٌ بالنعم مغترٌّ بها ﴿**فخور**﴾ على الناس بما أوتيَ من النعم مشغولٌ بذلك عن القيام بحقها، واللامُ في لئن في الآيات الأربعِ موطّئةٌ للقسم، وجوابُه سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرط.

﴿**إلا الذين صبروا**﴾ على ما أصابهم من الضراء سابقًا أو لاحقًا إيمانًا بالله واستسلامًا [لقضائه][(1)] ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ شكرًا على آلائه السالفةِ والآنفةِ، واللامُ في الإنسان إما لاستغراق الجنسِ فالاستثناءُ متصلٌ أو للعهد فمُنقطعٌ ﴿**أولئك**﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتّصافِه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتِهم وبُعدِ منزلِتهم في الفضل أي أولئك الموصوفون بتلك الصفاتِ الحميدة ﴿**لهم مغفرة**﴾ عظيمةٌ لذنوبهم وإن جمّت ﴿**وأجر**﴾ ثوابٌ لأعمالهم الحسنة ﴿**كبير**﴾ ووجهُ تعلّقِ الآياتِ الثلاثِ بما قبلهن من حيث إن إذاقةَ النَّعماءِ ومِساسَ

(١) سقط في خ.

الضّراءِ فصلٌ من باب الابتلاءِ واقعٌ موقعَ التفصيلِ من الإجمال الواقعِ في قوله تعالى: ﴿ليبلوَكم أيّكم أحسنُ عملًا﴾ [هود: ٧. والملك: ٢] والمعنى أن كلاًّ من إذاقة النَّعماءِ ونزعِها مع كونه ابتلاءً للإنسان أيشكُر أم يكفُر لا يهتدي إلى سنن الصواب بل يحَيد في كلتا الحالتين عنه إلى مهاوي الضلالِ فلا يَظهرُ منه حسنُ عملٍ إلا من الصابرين الصالحين أو من حيث إن إنكارَهم بالبعث واستهزاءَهم بالعذاب بسبب بطرِهم وفخرِهم كأنه قيل: إنما فعلوا ما فعلوا لأن طبيعةَ الإنسانِ مجبولةٌ على ذلك.

القرآن حق من عند الله

﴿**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك**﴾ من البينات الدالةِ على حقية نبوَّتِك المناديةِ بكونها من عند الله عز وجل لمن له أُذنٌ واعية [﴿**وضائق به صدرك**﴾ أي عارضٌ لك ضِيقُ صَدرٍ بتلاوته عليهم وتبليغِه إليهم في أثناء الدعوةِ والمُحاجّة][(١)] ﴿**أن يقولوا**﴾ لأن يقولوا تعامِيًا عن تلك البراهينِ التي لا تكاد[(٢)] تخفىٰ صحّتُها على أحد ممن له أدنى بصيرةٍ، وتماديًا في العِناد على وجه الاقتراح ﴿**لولا أنزل عليه كنز**﴾ مالٌ خطيرٌ مخزونٌ يدل على صدقه ﴿**أو جاء معه ملك**﴾ يصدّقه.

قيل: قاله عبدُاللَّه بنُ أميةَ المخزوميُّ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساءَ مكةَ قالوا: يا محمد اجعل لنا جبالَ مكةَ ذهبًا إن كنت رسولًا.

وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال: «**لا أقدِر على ذلك**» فنزلت فكأنه [عليه الصلاة والسلام][(٣)] لما عاين اجتراءَهم على اقتراح مثلِ هذه العظائمِ، غيرَ قانعين بالبينات الباهرةِ التي كانت تَضْطرّهم إلى القَبول لو كانوا من أرباب العقولِ وشاهدَ ركوبَهم من المكابرة مَتنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ مسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاءِ وتسميتِها سحرًا، مُثّل حالُه عليه [الصلاة][(٤)] والسلام بحال من يُتوقّع منه أن يضيقَ صدرُه بتلاوة تلك الآيات الساطعةِ عليهم وتبليغِها إليهم فحُمل على الحذر منه بما في لعل من الإشفاق فقيل: ﴿**إنما أنت نذير**﴾ ليس عليك [إلا][(٥)] الإنذارُ بما أوحي إليك غيرَ مبالٍ بما صدر عنهم من الرد والقَبولِ.

﴿**والله على كل شيء وكيل**﴾ يحفَظ أحوالَك وأحوالَهم فتوكلْ عليه في جميع أمورِك فإنه فاعلٌ بهم ما يليق بحالهم، والاقتصار على النذير في أقصى غايةٍ من

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: يكاد.
(٣) في خ: صلى الله عليه وسلم.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.

إصابة المَحزّ[١] ﴿أم يقولون افتراه﴾ إضرابٌ بـ (أمْ) المنقطعةِ عن ذكر تركِ اعتدادِهم بما يوحىٰ وتهاونِهم به وعدمِ اقتناعِهم بما فيه من المعجزات الظاهرةِ الدالةِ على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوتِه [عليه الصلاة والسلام][٢] وشروعٌ في ذكر ارتكابِهم لما هو أشدُّ منه وأعظمُ، وما فيها من معنى الهمزةِ للتوبيخ والإنكارِ والتعجيب، والضميرُ المستكنُّ في افتراه للنبي ﷺ والبارزُ لما يوحىٰ أي بل أيقولون افتراه وليس من عند الله.

﴿قل﴾ إن كان الأمرُ كما تقولون ﴿فأتوا﴾ أنتم أيضًا ﴿بعشر سور مثله﴾ في البلاغة وحُسنِ النظم وهو نعتٌ لـ (سُوَر) أي أمثالِه، وتوحيدُه إما باعتبار مماثلةِ كلٍّ واحدةٍ منها أو لأن المطابقةَ ليست بشرط، حتى يوصَفُ المثنّىٰ بالمفرد كما في قوله تعالى: ﴿أنؤمِنُ لبشرَيْن مثلِنا﴾ [المؤمنون: ٤٧] أو للإيماء إلى أن وجهَ الشبهِ ومدارَ المماثلةِ في الجميع شيءٌ واحدٌ هو البلاغةُ المؤديةُ إلى مرتبة الإعجازِ فكأن الجميعَ واحدٌ ﴿مفتريات﴾ صفةٌ أخرى لـ (سُور) أُخِّرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحىٰ لأنها الصفةُ المقصودةُ بالتكليف إذ بها يظهر عجزُهم وقعودُهم عن المعارضة، وأما وصفُ الافتراء فلا يتعلق به غرضٌ يدور عليه شيءٌ في مقام التحدِّي وإنما ذُكر على نهج المساهلةِ وإرخاءِ العِنانِ، ولأنه لو عُكس الترتيبُ لربما تُوُهّم أن المرادَ هو المماثلةُ في الافتراء، والمعنى فأتوا بعشر سورٍ مماثلةٍ له في البلاغة مختلفاتٍ من عند أنفسِكم إن صحّ أني اختلقتُه من عندي، فإنكم أقدرُ على ذلك مني لأنكم عرَبٌ فصحاءُ بلغاءُ قد مارستم مبادئ ذلك من الخُطَب والأشعارِ وحفِظتم الوقائعَ والأيامَ وزاولتم أساليبَ النظْمِ والنثر.

﴿وادعوا﴾ للاستظهار في المعارضة ﴿من استطعتم﴾ دعاءَه والاستعانةَ به من آلهتكم التي تزعُمون أنها مُمِدّةٌ لكم في كل ما تأتون وما تذرون، والكهنةِ ومَدارِهِكم الذين تلجأون إلى آرائهم في المُلمّات ليُسعدوكم فيها ﴿من دون الله﴾ متعلق بـ (ادعوا) أي متجاوزين الله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أني افتريتُه فإن ذلك يستلزِمُ إمكانَ الإتيانِ بمثله وهو أيضًا يسلزِمُ قدرتَكم عليه، والجوابُ محذوفٌ يدل عليه المذكور ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي لم يفعلوا ما كُلِّفوه من الإتيان بمثله كقوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤ - ٢٧٩] وإنما عُبِّر عنه بالاستجابة إيماءً إلى أنه عليه [الصلاة][٣] والسلام على كمال أمنٍ من أمره، كأن أمرَه لهم بالإتيان بمثله دعاءٌ لهم

---

(١) أصاب المحزّ: أي أصاب الهدف، أو وقع كلامه في موضعه وغايته المرجوَّة.
(٢) في خ: صلى الله عليه وسلم. (٣) سقط في خ.

إلى أمر يريد وقوعَه، والضميرُ في لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمعُ للتعظيم كما في قول من قال: [الطويل]

وإن شئتِ حرَّمْتُ النساءَ سواكُمُ ....[١]

أوْ له وللمؤمنين لأنهم أتباعٌ له عليه [الصلاة و][٢] السلام في الأمر بالتحدّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أن حقَّهم ألا ينفكوا عنه عليه [الصلاة و][٣] السلام ويناصِبوا معه لمعارضة المعارِضين كما كانوا يفعلونه في الجهاد وإرشادٌ إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخَ في الإيمان والطُمأنينةَ في الإيقان، ولذلك رُتّب عليه قولُه عز وجل: ﴿**فاعلموا**﴾ أي اعلموا حين ظهر لكم عجزُهم عن المعارضة مع تهالُكهم عليها علمًا يقينًا متاخِمًا لعين اليقينِ بحيث لا مجالَ معه لشائبة ريبٍ بوجه من الوجوه، كأن ما عداه من مراتب العلمِ ليس بعلم لكن لا للإشعار بانحطاطِ تلك المراتبِ بل بارتفاع هذه المرتبةِ وبه يتّضح سرُّ إيرادِ كلمةِ الشكِّ مع القطعِ بعدم الاستجابةِ فإن تنزيلَ سائرِ المراتبِ منزلةَ العدمِ مستتبعٌ لتنزيل الجزْمِ بعدم الاستجابةِ منزلةَ الشكِّ فيه، أو اثبُتوا واستمِرّوا على ما كنتم عليه من العلم.

﴿**أنما أُنْزل**﴾ ملتبسًا ﴿**بعلم الله**﴾ المخصوصِ به بحيث لا تحوم حوله العقولُ والأفهامُ مستبدًا بخصائصِ الإعجازِ من جهتي النظم الرائقِ والإخبار بالغيب ﴿**وأن لا إلٰه إلا هو**﴾ أي واعلموا أيضًا ألا شريكَ له في الأُلوهية وأحكامِها ولا يقدِر على ما يقدر عليه أحدٌ ﴿**فهل أنتم مسلمون**﴾ أي مخلصون في الإسلام أو ثابتون عليه؟ وهذا من باب التثبيتِ والترقيةِ إلى معارج اليقينِ، ويجوز أن يكونَ الخطابُ في الكل للمشركين من جهة الرسولِ ﷺ داخلًا تحت الأمر بالتحدّي، والضميرُ في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن لم يستجبْ لكم آلهتُكم وسائرُ مَنْ إليهم تجأرون في مُهمّاتكم ومُلماتكم إلى المعاونة والمظاهَرَةِ فاعلموا أن ذلك خارجٌ عن دائرة قُدْرةِ البشر وأنه مُنزّلٌ من خالق القُوى والقدر، فإيرادُ كلمةِ الشكِّ حينئذ مع الجزم بعدمِ الاستجابة من جهة آلهتِهم تهكّمٌ بهم وتسجيلٌ عليهم بكمال سخافةِ العقلِ، وترتيبُ الأمرِ بالعلم على مجرد عدمِ الاستجابة من حيث إنه مسبوقٌ بالدعاء المسبوقِ بعجزهم واضطرارِهم فكأنه قيلَ: فإن لم يستجيبوا لكم عند التجائِكم إليهم بعد ما اضطُررتم إلى ذلك وضاقت عليكم الحيلُ وعيَّتْ بكم العللُ أو من حيث إن مَنْ يستمدّون بهم أقوى منهم

---

(١) تقدم.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.

في اعتقادهم، فإذا ظهر عجزُهم بعدم استجابتِهم وإن كان ذلك قبلَ ظهورِ عجزِ أنفِسهم يكون عجزُهم أظهرَ وأوضحَ، واعلموا أيضًا أن آلهتَكم بمعزل عن رتبة الشِرْكة في الألوهية وأحكامِها فهل أنتم داخلون في الإسلام إذْ لم يبْقَ بعدُ شائبةُ شبهةٍ في حقِّيته وفي بُطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخُلُ فيه الإذعانُ لكون القرآنِ من عند الله تعالى دخولًا أوليًا أو منقادون للحق الذي هو كونُ القرآنِ من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعِناد، وفي هذا الاستفهام إيجابٌ بليغٌ لما فيه من معنى الطلب والتنبيهِ على قيام الموجبِ وزوالِ العذر وإقناطٌ من أن يجيرهم آلهتُهم من بأس الله عز سلطانُه[1]، هذا والأول أنسبُ لما سلف من قوله تعالى: ﴿وضائقٌ به صدرُك﴾ [هود: ١٢] ولما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فلا تك في مريةٍ منه﴾ [هود: ١٧] وأشدُّ ارتباطًا بما يعقُبه كما ستحيط به خُبرًا.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي ما يزيِّنها ويحسِّنها من الصحة والأمنِ والسعةِ في الرزق وكثرةِ الأولادِ والرياسةِ وغيرِ ذلك، والمرادُ بالإرادة ما يحصُل عند مباشرةِ الأعمالِ لا مجردُ الإرادةِ القلبية لقوله تعالى: **﴿نوفِّ إليهم أعمالهم فيها﴾**

---

(١) زاد في خ: وجل.

وإدخالُ كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخِرةَ أصلًا، وليس المرادُ بأعمالهم أعمالَ كلِّهم فإنه لا يجد كلُّ متمنٍّ ما يتمناه ولا كلُّ أحدٍ ينال كلَّ ما تهواه[١]، فإن ذلك منوطٌ بالمشيئة الجاريةِ على قضية الحِكمة كما نطَق به قولُه تعالى: ﴿مَنْ كان يريد العاجلةَ عجَّلْنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ [الإسراء، الآية ١٨] ولا كلَّ أعمالِهم بل بعضَها الذي يترتب عليه الأمورُ المذكورةُ بطريق الأجرِ والجزاءِ من أعمال البرِّ وقد أُطلقت وأريد بها ثمراتُها، فالمعنى نوصِلُ إليهم ثمراتِ أعمالِهم في الحياة الدنيا كاملةً، وقرئ (يُوفِّ)[٢] على الإسناد إلى الله عز وجل (وتُوَفَّ)[٣] بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع (أعمالهم)[٤]، وقرئ (نُوْفي)[٥] بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيًا كقوله: [البسيط]

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسغَبةٍ ... يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حرِمُ[٦]

﴿وهم فيها﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿لا يبخسون﴾ أي لا يُنقَصون، وإنما عبّر عن ذلك بالبخْس الذي هو نقصُ الحقِّ مع أنه ليس لهم شائبةُ حقٍّ فيما أوتوه كما عبّر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاءُ الحقوقِ مع أن أعمالَهم بمعزل من كونها مستوجبةً لذلك بناءً للأمر على ظاهر الحالِ ومحافظةً على صور الأعمالِ ومبالغةً في نفي

---

(١) في خ: يهواه.

(٢) قرأ بها: طلحة بن ميمون.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٢).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٢).

(٤) قرأ بها: الحسن، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٢).

(٥) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢١٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٢).

(٦) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص(١٥٣)، والإنصاف (٢/ ٦٥٢)، وجمهرة اللغة ص (١٠٨)، وخزانة الأدب (٩/ ٤٨)، والدرر (٥/ ٨٢)، ورصف المباني ص (١٠٤)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٨٥)، وشرح التصريح (٢/ ٢٤٩)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٨٣٨)، والكتاب (٣/ ٦٦)، ولسان العرب (خلل)، (حرم)، والمحتسب (٢/ ٦٥)، ومغني اللبيب (٢/ ٤٢٢)، والمقاصد النحوية (٤/ ٤٢٩)، والمقتضب (٢/ ٧٠)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (٤/ ٢٠٧)، وجواهر الأدب ص (٢٠٣)، وشرح الأشموني (٣/ ٥٨٥)، وشرح شذور الذهب ص (٤٥١)، وشرح ابن عقيل ص (٥٨٦)، وشرح عمدة الحافظ ص(٣٥٣)، وشرح المفصل (٨/ ١٥٧)، وهمع الهوامع (٢/ ٦٠).

النقص، كأن ذلك نقصٌ لحقوقهم فلا يدخُل تحت الوقوعِ والصدورِ عن الكريم أصلًا، والمعنى أنهم فيها خاصةً لا يُنقصون ثمراتِ أعمالِهم وأجورَها نقصًا كليًا مطردًا ولا يُحرَمونها حِرمانًا كليا، وأما في الآخرة فهم في الحِرمان المطلقِ واليأسِ المحقق كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿أولئك﴾ فإنه إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار إرادتِهم الحياةَ الدنيا أو باعتبار توْفيتِهم أجورَهم من غير بخسٍ أو باعتبارهما معًا. وما فيه من معنى البُعدِ للإيذان ببُعد منزلتِهم في سوء الحالِ أي أولئك المُريدون للحياة الدنيا وزينتِها المُوَفَّوْن فيها ثمراتِ أعمالِهم من غير بخس.

﴿الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ لأن هِممَهم كانت مصروفةً إلى الدنيا وأعمالَهم مقصورةً على تحصيلها وقد اجتنَوْا ثمرتَها ولم يكونوا يريدون بها شيئًا آخرَ، فلا جرمَ لم يكن لهم في الآخرة إلا النارُ وعذابُها المخلّد ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي ظهر في الآخرة حُبوطُ ما صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدِّي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة أو حبط ما صنعوه في الدنيا من أعمال البرِّ إذ شرْطُ الاعتدادِ بها الإخلاصُ ﴿وباطلٌ﴾ أي في نفسه ﴿ما كانوا يعملون﴾ في أثناء تحصيلِ المطالبِ الدنيويةِ، ولأجل أن الأولَ من شأنه استتباعُ الثوابِ والأجرِ وأن عدمَه لعدم مقارنتِه للإيمان والنيةِ الصحيحةِ وأن الثانيَ ليس له جهةٌ صالحة قطُّ عُلّق بالأول الحُبوطُ المؤذِنُ بسقوط أجرِه بصيغة الفِعل المنبئ عن الحدوث وبالثاني البُطلانُ المُفصِحُ عن كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلًا بالاسمية الدالةِ على كون ذلك وصفًا لازمًا له ثابتًا فيه، وفي زيادة كان في الثاني دون الأول إيماءٌ إلى أن صدورَ أعمال البرِّ منهم وإن كان لغرض فاسدٍ ليس في الاستمرار والدوامِ كصدور الأعمالِ التي هي من مقدّمات مطالبِهم الدنية.

وقرئ (وبطَل)[١] على الفعل أي ظهر بطلانُه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوط الدنيويةِ مما لا طائلَ تحته أو انقطع أثرُه الدنيويُّ فبطَل مطلقًا، وقرئ (وباطلًا ما كانوا يعملون)[٢] على أن ما إبهاميةٌ أو في معنى المصدر كقوله: [الطويل]

.... ولا خارجًا مِنْ فِيَّ زورُ كلامِ[٣]

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢١٠).

(٢) قرأ بها: أبي، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٨٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢١٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٤٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٠).

(٣) عجز بيت وصدره:
على حَلْفةٍ لا أَشْتُم الدهرَ مسلما ....

=

وعن أنس رضي الله عنه أن المرادَ بقوله تعالى: ﴿من كان يريد﴾ إلخ اليهودُ والنصارى إن أعطَوا سائلًا أو وصَلوا رحِمًا عُجّل لهم جزاءُ ذلك بتوسعة في الرزق وصِحةٍ في البدن[١]، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسْهم لهم في الغنائم.

وأنت خبيرٌ بأن ذلك إنما كان بعد الهجرةِ، والسورةُ مكيةٌ، وقيل: هم أهلُ الرياءِ. يقال للقرّاء منهم: أردتَ أن يقال فلانٌ قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمالَ البرِّ لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله: ﴿ليس لهم إلا النارُ﴾ بأنْ ليس لهم بسبب أعمالِهم الريائيةِ إلا ذلك، والذي تقتضيه جزالةُ النظمِ الكريم أن المرادَ به مطلقُ الكفَرة بحيث يندرجُ فيهم القادحون في القرآن العظيمِ اندراجًا أوليًا فإنه عز وعلا لما أمر نبيَّه [عليه الصلاة والسلام][٢] والمؤمنين بأن يزدادوا علمًا ويقينًا بأن القرآنَ منزلٌ بعلم الله وبأن لا قُدرةَ لغيره على شيء أصلًا وهيّجهم على الثبات على الإسلام والرسوخِ فيه، عند ظهورِ عجزِ الكفرةِ وما يدْعون من دون الله عن المعارضة وتبيّن أنهم ليسوا على شيء أصلًا، اقتضى الحالُ أن يتعرّض لبعض شؤونِهم الموهمةِ لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحظوظَ العاجلةَ واستيلائهم على المطالب الدنيويةِ وبيانِ أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه، ولقد بُيِّن ذلك أيَّ بيانٍ ثم أعيد الترغيبُ فيما ذكر من الإيمان بالقرآن والتوحيدِ والإسلام فقيل:

﴿**أفمن كان على بينة من ربه**﴾ أي برهانٍ نيِّرٍ عظيم الشأنِ يدل على حقية ما رَغّب في الثبات عليه من الإسلام وهو القرآنُ، وباعتباره أو بتأويل البرهانِ ذُكر الضميرُ الراجعُ إليها في قوله تعالى: ﴿**ويتلوه**﴾ أي يتبعه ﴿**شاهد**﴾ يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الإعجازُ في نظمه المطّردِ في كل مقدارِ سورةٍ منه أو ما وقع في بعض آياتِه من الإخبار بالغيب، وكلاهما وصفٌ تابعٌ له شاهدٌ بكونه من عند الله عز وجل غيرَ أنه على التقدير الأولِ يكون في الكلامِ إشارةٌ إلى حال رسولِ الله ﷺ والمؤمنين في تمسّكهم بالقرآن[٣] عند تبيُّنِ كونِه منزلًا بعلم الله بشهادة الإعجاز ﴿**منه**﴾ أي من

= والبيت للفرزدق في ديوانه (٢/ ٢١٢)، وأمالي المرتضى (١/ ٦٣)، وتذكرة النحاة ص (٨٥)، وخزانة الأدب (١/ ٢٢٣)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ١٧٠)، وشرح المفصل (٢/ ٥٩)، والكتاب (١/ ٣٤٦)، ولسان العرب (خرج)، والمحتسب (١/ ٥٧)، والمقتضب (٤/ ٣١٣)، وبلا نسبة في: شرح شافية ابن الحاجب (١/ ١٧٧)، ومغني اللبيب (٢/ ٤٠٥)، والمقتضب (٣/ ٢٦٩).

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٦٤).

(٢) في خ: صلى الله عليه وسلم.

(٣) زاد في خ: العظيم.

القرآنِ غيرَ خارجٍ عنه أو من جهة الله تعالى فإن كلاً منهما واردٌ من جهته تعالى للشهادة.

ويجوز على هذا التقديرِ أن يراد بالشاهد المعجزاتُ الظاهرةُ على يدَيْ رسولِ الله ﷺ فإن ذلك أيضًا من الشواهد التابعةِ للقرآن الواردةِ من جهته تعالى، فالمرادُ بَ (منْ) في قوله [تعالى][(١)] : ﴿أفمن﴾ كلُّ من اتصف بهذه الصفةِ الحميدةِ فيدخُل فيه المخاطَبون بقوله تعالى ﴿فاعلموا﴾ ، ﴿فهل أنتم﴾ دخولًا أوليا.

وقيل: هو النبيُّ ﷺ، وقيل: مؤمنو أهلِ الكتاب كعبد اللّه بن سلام وأضرابِه، وقيل: المرادُ بالبينة دليلُ العقلِ وبالشاهد القرآنُ فالضمير في (منه) لله تعالى[(٢)]، أو البينةُ القرآنُ ويتلوه من التلاوة والشاهدُ جبريلُ[(٣)] أو لسانُ النبي ﷺ على أن الضميرَ له أو من التُّلُوّ والشاهدُ مَلَكٌ يحفظ، والأَوْلى هو الأولُ.

ولما كان المرادُ بتلوّ الشاهدِ للبرهان إقامةَ الشهادة بصحته وكونِه من عند الله تابعًا له بحيث لا يفارقه في مشهد من المشاهد فإن القرآنَ بيِّنةٌ باقيةٌ على وجه الدهرِ مع شاهدها[(٤)] الذي يشهد بأمرها إلى يوم القيامةِ عند كلِّ مؤمنٍ وجاحدٍ عُطف كتابُ موسى في قوله عز قائلًا: ﴿**ومن قبله كتابُ موسى**﴾ على فاعله مع كونه مقدَّمًا عليه في النزول فكأنه قيل: أفمن كان على بينةٍ من ربه ويشَهد به شاهدٌ منه وشاهدٌ آخرُ مِنْ قبله هو كتابُ موسى، وإنما قُدّم في الذكر المؤخَّرِ في النزول لكونه وصفًا لازمًا له غيرَ مفارقٍ عنه ولعراقته في وصف التلوِّ، والتنكيرُ في (بينةٍ) و(شاهدٌ) للتفخيم.

﴿**إمامًا**﴾ أي مؤتمًا به في الدين ومقتدًى، وفي التعرض لهذا الوصفِ بصدد بيانِ تلوِّ الكتابِ ما لا يخفى من تفخيم شأنِ المَتْلوِّ ﴿**ورحمة**﴾ أي نعمةً عظيمة على من أُنزل إليهم ومَنْ بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامِه الباقيةِ المؤيَّدةِ بالقرآن العظيمِ وهما حالان من الكتاب.

﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بتلك الصفةِ الحميدةِ وهو الكونُ على بينة من الله، ولِما أن ذلك عبارةٌ عن مطلق التمسكِ بها وقد يكون ذلك بطريق التقليدِ لمن سلف من عظماء الدين من غير عُثورٍ على دقائق الحقائقِ وصفهم بأنهم ﴿**يؤمنون به**﴾ أي يصدقونه حقَّ التصديقِ حسبما تشهد به الشواهدُ الحقّة المعربةُ عن حقيته ﴿**ومن يكفر به**﴾ أي بالقرآن ولم يصدِّق بتلك الشواهد الحقَّةِ ﴿**من الأحزاب**﴾ من أهل مكةَ ومن

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: عز وجل.
(٣) زاد في خ: عليه السلام.
(٤) في خ: شاهد ما.

تحزّب معهم على رسول الله ﷺ ﴿فالنار موعدُه﴾ يردّها لا محالة حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ﴾ [هود، الآية ١٦] وفي جعلها موعدًا إشعارٌ بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذابِ ﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي في شك من أمر القرآنِ وكونِه من عند الله (عز وجل) حسبما[1] شهِدت به الشواهدُ المذكورةُ وظهر فضلُ من تمسك به.

﴿إنه الحق من ربك﴾ الذي يربِّيك في دينك ودنياك ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك إما لقصور أنظارِهم واختلالِ أفكارِهم وإما لعنادهم واستكبارِهم، فـ(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ [هود، الآية ١٧] مبتدأٌ حُذف خبرُه لإغناء الحالِ عن ذكره وتقديرُه أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذُكرت أعمالهم وبُيِّن مصيرُهم ومآلُهم، يعني أن بينهما تفاوتا عظيمًا بحيث لا يكاد يتراءىٰ ناراهما، وإيرادُ الفاءِ بعد الهمزةِ لإنكار ترتّبِ توهّم المماثلةِ على ما ذكر من صفاتهم وعُدّد من هَناتهم كأنه قيل: أبعدَ ظهورِ حالِهم في الدنيا والآخرة كما وُصف يُتوهم المماثلةُ بينهم وبين مَنْ كان على أحسن ما يكون في العاجل والآجل كما في قوله تعالى: ﴿أفاتخذْتم من دونه أولياءَ﴾ [الرعد، الآية ١٦] أي أبعدَ أن علمتموه ربَّ السمواتِ والأرض اتخذتم من دونه أولياءَ!

وقولِه تعالى: ﴿أفمن يعلمُ أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى﴾ [الرعد، الآية ١٩].

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾ بأن نسَب إليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بناتُ الله تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا وقولِهم لآلهتهم: ﴿هؤلاء شفعاؤُنا عند الله﴾ [يونس، الآية:١٨] يعني أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبًا، وهذا التركيُب وإن كان سبكُه على إنكار أن يكون أحدٌ أظلمَ منهم من غير تعرضٍ لإنكار المساواةِ ونفيِها ولكنّ المقصودَ به قصدًا مطردًا إنكارُ المساواةِ ونفيُها وإفادةُ أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ما سيتلى من قوله عز وجل: ﴿لا جرمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرونَ﴾ [هود، الآية ٢٢].

فإذا قيل: مَنْ أكرمُ من فلان أو لا أفضلَ منه فالمرادُ منه حتمًا أنه أكرمُ من كل كريم وأفضلُ من كل فاضل ﴿أولئك﴾ الموصوفون بالظلم البالغِ الذي هو الافتراءُ على اللهِ تعالى، وبهذه الإشارة حصَلت الغُنيةُ عن إسناد العَرضِ إلى أعمالهم واكتُفي بإسناده

---

(١) في خ: فبما.

إليهم حيث قيل: ﴿يعرضون﴾ لأن عرضَهم من تلك الحيثيةِ وبذلك العنوانِ عرضٌ لأعمالهم على وجهٍ أبلغَ فإن عرضَ العاملِ بعمله أفظعُ من عرض عملِه مع غَيْبته ﴿على ربهم﴾ الحقِّ، وفيه إيماءٌ إلى بطلان رأيِهم في اتخاذهم أربابًا من دون الله عز وجل.

﴿ويقول الأشهاد﴾ عند العَرْض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمعُ شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ بالافتراء عليه كأن ذلك أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن الشهادة بوقوعه، وإنما المحتاجُ إلى الشهادة تعيينُ مَنْ صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون: هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المرادُ بالأشهاد الحضّارَ وهم جميعُ أهلِ الموقفِ على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولُهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذمًا لهم بذلك لا شهادةً عليهم كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿ويقول﴾ دون ﴿ويشهد﴾ إلخ، وتوطئةً لما يعقُبه من قوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ بالافتراء المذكورِ ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأولِ من كلام الله تعالى وفيه تهويلٌ عظيمٌ لما يحيق بهم من عاقبة ظلمِهم اللهم إنا نعوذُ بك من الخِزْي على رؤوس الأشهادِ.

﴿الذين يصدون﴾ أي كلَّ من يقدِرون على صدّه أو يفعلون الصد ﴿عن سبيل الله﴾ عن دينه القويم ﴿ويبغونها عوجًا﴾ انحرافًا أي يصفونها بذلك وهي أبعدُ شيءٍ منه أو يبغون أهلَها أن ينحرفوا عنها يقال: بغَيتك خيرًا أو شرًا أي طلبتُ لك، وهذا شاملٌ لتكذيبهم بالقرآن وقولِهم إنه ليس من عند الله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي يصِفونها بالعِوَج والحالُ أنهم كافرون بها لا أنهم يؤمنون بها ويزعُمون أن لها سبيلًا سويا يهدون الناسَ إليه، وتكريرُ الضمير لتأكيد كفرِهم واختصاصِهم به كأن كفرَ غيرِهم ليس بشيء عند كفرهم ﴿أولئك﴾ مع ما وُصف من أحوالهم الموجبةِ للتدمير ﴿لم يكونوا معجزين﴾ الله تعالى مُفْلِتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك ﴿في الأرض﴾ مع سَعتها وإن هربوا منها كل مَهْرب.

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ ينصُرونهم من بأسه ولكن أُخِّر ذلك لحكمة تقتضيه، والجمعُ إما باعتبار أفراد الكفَرة كأنه قيل: وما كان لأحد منهم من وليٍّ أو باعتبار تعدّدِ ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانًا لحال آلهتِهم من سقوطها عن رتبة الولاية ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ استئنافٌ يتضمن حكمةَ تأخيرِ المؤاخذة وقرأ ابنُ كثير، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ بالتشديد[1] ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ لفَرْط تصامِّهم عن الحق وبُغضِهم له كأنهم لا يقدرون على السمع، ولما كان

(١) قرأ بها أيضًا: أبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٨).

قبحُ حالِهم، في عدم إذعانِهم للقرآن الذي طريقُ تلقّيه السمعُ، أشدَّ منه في عدم قَبولِهم لسائر الآياتِ المنوطةِ بالإبصار، بالغَ في نفي الأولِ عنهم حيث نفىٰ عنهم الاستطاعةَ واكتفىٰ في الثاني بنفي الإبصارِ فقال تعالى: ﴿**وما كانوا يبصرون**﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطةِ في الأنفس والآفاقِ وهو استئنافٌ وقع تعليلًا لمضاعفة العذابِ وقيل: هو بيانٌ لما نُفي من ولاية الآلهةِ فإن ما لا يسمع ولا يُبصر بمعزل من الولاية، وقوله تعالى: ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ [هود، الآية ٢٠] اعتراضٌ وسِّط بينهما نعيًا عليهم من أول الأمرِ سوءَ العاقبة ﴿**أولئك**﴾ المنعوتون بما ذكر من القبائح ﴿**الذين خسروا أنفسهم**﴾ باشتراء عبادةِ الآلهةِ بعبادة الله عز[1] سلطانُه ﴿**وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ من الآلهة وشفاعتِها أو خسِروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصَلوا فلم يبقَ معهم سوى الحسرةِ والندامة ﴿**لا جرم**﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ: (الأولُ) أن لا نافيةٌ لما سبق وجَرَم فعلٌ بمعنى حقَّ وأن مع ما في حيزه فاعلُه والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعلُ حقَّ ﴿**أنهم في الآخرة هم الأخسرون**﴾ وهذا مذهبُ سيبويه، (والثاني) جرَمَ بمعنى كسب وما بعده مفعولُه، وفاعلُه ما دل عليه الكلامُ أي كسب ذلك خُسرانَهم فالمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهورُ خُسرانِهم (والثالثُ) أن لا جرم بمعنى لا بد أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

وأيًا ما كان فمعناه أنهم أخسرُ من كل خاسر فتبين أنهم أظلمُ من كل ظالم، وهذه الآياتُ الكريمة كما ترى مقرِّرةٌ لما سبق من إنكار المماثلةِ بين مَنْ كان على بينة من ربه وبين مَنْ كان يريد الحياةَ الدنيا أبلغَ تقريرٍ فإنهم حيث كانوا أظلمَ من كل ظالم وأخسَر من كل خاسرٍ لم يُتصوَّرْ مماثلةٌ بينهم وبين أحدٍ من الظَّلَمةِ الأخسرين فما ظنُّك بالمماثلة بينهم وبين مَنْ هو في أعلى مدارج الكمالِ! ولما ذُكر فريقُ الكفارِ وأعمالُهم وبيّن مصيرُهم ومآلُهم شُرع في بيان حالِ أضدادِهم أعني فريقَ المؤمنين وما يؤول إليه أمرُهم من العواقب الحميدةِ تكملةً لما سلف من محاسنهم المذكورة في قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ [هود، الآية ١٧]، ليتبينَ ما بينهما من التباين البيِّنِ حالًا ومآلًا فقيل: ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ أي بكل ما يجب أن يؤمَن به فيندرج تحتَه ما نحن بصدده من الإيمان بالقرآن الذي عبّر عنه بالكون على بينة من الله وإنما يحصُل ذلك باستماع الوحي والتدبرِ فيه ومشاهدةِ ما يؤدِّي إلى ذلك في الأنفس والآفاقِ، أو فعلوا الإيمان كما في يُعطي ويمنع ﴿**وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى**

(١) زاد في خ: وجلَّ.

ربهم﴾ أي اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع والتواضعِ من الخَبْت وهي الأرضُ المطمئنة ومعنى أخبت دخل في الخَبْت. وأنجدَ دخلَ في تِهامةَ ونجدٍ ﴿أولئك﴾ المنعوتون بتلك النعوتِ الجميلة ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ دائمون وبعد بيانِ تباينِ حاليهما عقلًا أريد بيانُ تبايُنِهما حِسًّا فقيل:

﴿مثل الفريقين﴾ المذكورين أي حالُهما العجيبُ لأن المثَلَ لا يُطلق إلا على ما فيه غرابةٌ من الأحوال والصفات ﴿كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ أي كحال هؤلاءِ فيكون ذواتُهم كذواتهم، والكلامُ وإن أمكن أن يُحمَلَ على تشبيه الفريقِ الأولِ بالأعمى وبالأصمِّ وتشبيهِ الفريقِ الثاني بالبصير وبالسميع لكن الأدخلَ في المبالغة والأقربَ إلى ما يشير إليه لفظُ المثل والأنسبَ بما سبق من وصف الكفرةِ بعدم استطاعةِ السمع وبعدم الإبصارِ، أن يُحمل على تشبيه الفريقِ الأولِ بمن جمع بين العَمى والصمَم، وتشبيهُ الفريقِ الثاني بمَن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواوُ في قوله تعالى: ﴿والأصم﴾ وفي قوله: ﴿والسميع﴾ لعطف الصفةِ على الصفة كما في قول من قال: [المتقارب]

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ[1]

وأيًا ما كان فالظاهرُ أن المرادَ بالحال المدلولِ عليها بلفظ المَثَل وهي التي يدور عليها أمرُ التشبيهِ ما يلائم الأحوالَ المذكورةَ المعتبرةَ في جانب المشبهِ به من تعامي الفريقِ الأولِ عن مشاهدة آياتِ الله المنصوبةِ في العالم والنظرِ إليها بعين الاعتبارِ وتصامِّهم عن استماع آياتِ القرآنِ الكريم وتلقّيها بالقبول حسبما ذكر في قوله تعالى: ﴿ما كانوا يستطيعون السمعَ وما كانوا يُبصرون﴾ [هود، الآية ٢٠] وإنما لم يُراعَ هذا الترتيبُ هنا لكون الأعمى أظهرَ وأشهرَ في سوء الحالِ من الأصم، ومن استعمال الفريقِ الثاني لكل من أبصارهم وأسماعِهم فيما ذكر كما ينبغي المدلولُ عليه بما سبق من الإيمان والعملِ الصالحِ والإخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيهُ تمثيليا لا جميع الأحوال المعدودةِ لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدي إليه من العذاب المضاعَف والخسران البالغِ في أحدهما ومن النعيم المقيم في الآخر، فإن اعتبارَ ذلك ينزعُ إلى كون التشبيهِ تمثيليًا بأن يُنتزَعَ من حال الفريقِ الأول، في تصامّهم وتعاميهم المذكورَيْن ووقوعِهم بسبب ذلك في العذاب المضاعفِ والخُسران الذي لا خسرانَ فوقه، هيئةٌ فتشبّه بهيئة منتزعةٍ ممن فقَد مَشْعَرَيْ البصر والسمعِ فتخبَّط في

---

(١) تقدم.

مسلَكه فوقع في مهاوي الردى ولم يجِدْ إلى مقصِده سبيلًا وينتزَعَ من حال الفريق الثاني، في استعمال مشاعرِهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزِهم بدار الخلودِ، هيئةٌ فتشبّه بهيئة منتزعة ممن له بصَرٌ وسمع[1] يستعملهما في مَهمّاته فيتهدي إلى سبيله وينال مَرامه.

﴿**هل يستويان**﴾ يعني الفريقين المذكورين والاستفهامُ إنكاريٌّ مذكّر لما سبق من إنكار المماثلةِ في قوله عز وجل: ﴿أفمن كان على بينة﴾ [هود، الآية ١٧] ﴿**مثلًا**﴾ أي حالًا وصفةً وهو تمييزٌ من فاعل يستويان ﴿**أفلا تذكرون**﴾ أي أتشكّون في عدم الاستواءِ وما بينهما من التباين أو أتغفُلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضُرب لكم من المثل فيكون الإنكارُ واردًا على المعطوفَيْن معًا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعًا إلى عدم التذكر بعد تحققِ ما يوجب وجودَه وهو المثل المضروبُ كما في قوله تعالى: ﴿أفإنْ مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم﴾ [آل عمران، الآية ١٤٤] فإن الفاءَ لإنكار الانقلابِ بعد تحقق ما يوجب عدمَه من علمهم بخلوّ الرسلِ قبل رسولِ الله ﷺ أو أفلا تفعلون التذكرَ أو أفلا تعقِلون ومعنى الهمزةِ إنكارُ عدمِ التذكرِ واستبعادُ صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الإنكارِ في قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ [هود، الآية ١٧].

وقولِه تعالى: ﴿هل يستويان﴾ [هود، الآية ٢٥] فإن ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء.

ولما بيَّن من فاتحة السورةِ الكريمةِ إلى هذا المقام أنها كتابٌ محكمُ الآياتِ مفصَّلُها نازلٌ في شأن التوحيدِ وتركِ عبادةِ غيرِ الله سبحانَه وأن الذي أنزل عليه نذيرٌ وبشيرٌ من جهته تعالى وقرر في تضاعيف ذلك ما له مدخَلٌ في تحقيق هذا المرامِ من الترغيب والترهيبِ وإلزامِ المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقةِ الدالةِ على كونه من عند الله تعالى وتسليةِ الرسولِ ﷺ مما عراه من ضيق الصدرِ العارضِ له من اقتراحاتهم الشنيعةِ وتكذيبِهم له وتسميتِهم للقرآن تارةً سحرًا وأخرى مفترًى وتثبيتِه عليه الصلاة

---

(١) أفاد الشيخ في الكلام على هذه الآية الكريمة، والصحيح من القضية أنه تشبيه متعدد بني على هيئة اللف والنشر المرتب، وقد جاء هذا التشبيه بعدما استوفت الصورة أوصاف الحزبين وجزاءهم كما قال البقاعي -رحمه الله-، واللف والنشر عند البلاغيين هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقةً بأن السامع يرده إليه، وإن جاء النشر على ترتيب اللف سمي باللف والنشر المرتب.

ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٩/ ٢٦٣)، وشروح التلخيص (٤/ ٣٢٩).

والسلام والمؤمنين على التمسك به والعملِ بموجبه على أبلغِ وجهٍ وأبدعِ أسلوبٍ شَرع في تحقيق ما ذُكر وتقريره بذكر قصصِ الأنبياءِ صلواتُ الله عليهم أجمعين المشتملةِ على ما اشتمل عليه فاتحةُ السورةِ الكريمةِ ليتأكد ذلك بطريقين (أحدُهما) أن ما أُمر به من التوحيد وفروعِه مما أطبق عليه الأنبياءُ قاطبةً، (والثاني) أن ذلك إنما علِمه رسولُ الله ﷺ بطريق الوحي فلا يبقىٰ في حقيته كلامٌ أصلًا وليتسلّى بما يشاهده من معاناة الرسلِ قبله من أممهم ومقاساتِهم الشدائدَ من جهتهم فقال:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ

ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

عبرة من قصص الأنبياء

﴿**ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه**﴾ الواوُ ابتدائيةٌ واللامُ جوابُ قسم محذوفٍ وحرفُه الباءُ لا الواو كما في سورة الأعراف لئلا يجتمعَ واوان، ولا يكاد تطلق هذه اللامُ إلا مع قد لأنها مظِنّةُ التوقعِ وأن المخاطبَ إذا سمِعها توقع وقوعَ ما صُدّر بها، ونوحٌ هو ابن لمك بن متوشلخ بن إدريسَ عليهما السلام وهو أولُ نبي بُعث بعده.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عُمره ولبث يدعو قومَه تسعمائة وخمسين سنةً وعاش بعد الطوفانِ ستين سنةً وكان عمرُه ألفًا وخمسين سنة، وقال مقاتل: بعث وهو ابنُ مائةِ سنةٍ، وقيل: وهو ابنُ خمسين سنة، وقيل: وهو ابنُ مائتين وخمسين سنةً [ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة][(١)].

﴿**إني لكم نذير**﴾ بالكسر على إرادة القولِ أي فقال أو قائلاً، وقرأ ابن كثير، وأبو عمْروٍ، والكسائيُّ، بالفتح[(٢)] على إضمار حرف الجرِّ أي أرسلناه ملتبسًا بذلك الكلام وهو إني لكم نذيرٌ بالكسر فلما اتصل به الجارُّ فُتح كما فُتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك: إن زيدًا كالأسد واقتُصر على ذكر كونِه عليه الصلاة والسلام نذيرًا لا لأن دعوتَه عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الإنذارِ فقط، ألا يُرى إلى قوله

---

(١) في خ: فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة.

(٢) قرأ بها أيضًا: خلف، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢١٤)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٦٨)، والتيسير للداني ص (١٢٤)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٢)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٤)، والكشف للقيسي (١/ ٥٢٥).

تعالى: ﴿فقلتُ استغفِروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماءَ عليكم مدرارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١] إلخ، بل لأنهم لم يغتنموا مغانمَ إبشارِه عليه الصلاة والسلام ﴿مبين﴾ أبيِّن لكم موجباتِ العذابِ ووجهَ الخلاصِ منه لأن الإنذارَ إعلامُ المحذورِ لا لمجرد التخويفِ والإزعاجِ بل للحذر منه فيتعلق صفتُه بكلا وصفَيه.

﴿ألاَّ تعبدوا إلا الله﴾ أي بألا تعبدوا على أنّ أنْ مصدريةٌ والباءُ متعلقةٌ بـ (أرسلنا) ولا ناهية أي أرسلناه ملتبسًا بنهيهم عن الشرك إلا أنه وُسّط بينهما بيانُ بعضِ أوصافِه وأحوالِه عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرًا مبينًا ليكون أدخلَ في القَبول ولم يُفعلْ ذلك في صدر السورة لئلا يُفرَّقَ بين الكتاب ومضمونِه بما ليس من أوصافه وأحوالِه، أو مفسرةٌ متعلقةٌ به أو بـ (نذير) أو مفعولٌ لـ (مبين).

وعلى قراءة الفتح بدلٌ من أني لكم نذيرٌ مبينٌ وتعيينٌ لما يوجب وقوعَ المحذورِ وتبيينٌ لوجه الخلاصِ وهو عبادةُ الله تعالى.

وقوله [تعالى](١): ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ تعليلٌ لموجب النهي وتصريحٌ بالمحذور وتحقيقٌ للإنذار، والمرادُ به يومُ القيامةِ أو يومُ الطوفان، ووصفُه بالأليم على الإسناد المجازي للمبالغةِ، كما في نحو: نهارُه صائمٌ، وهذه المقالةُ وما في معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام في أثناء الدعوةِ على ما عُزِي إليه في سائر السور لما لم تصدر عنه عليه [الصلاة و](٢) السلام مرةً واحدة بل كان يكرّرها [عليهم](٣) في تلك المدةِ المتطاولةِ على ما نطق به قولُه تعالى: ﴿ربِّ إني دعوتُ قومي ليلًا ونهارًا﴾ [نوح: ٥] ... الآيات عطفٌ على فعل الإرسالِ المقارِن لها أو القولِ المقدّرِ بعده جوابُهم المتعرِّضُ لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي(٤) بالفاء التعقيبيةِ فقيل:

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي الأشرافُ منهم من قولهم: فلانٌ مليءٌ بكذا أي مُطيقٌ له لأنهم مُلِئوا بكفايات الأمورِ أو لأنهم ملأوا القلوبَ هيبةً والمجالسَ أُبّهةً أو لأنهم مُلئوا بالأحلام والآراءِ الصائبةِ، ووصفُهم بالكفر لذمهم والتسجيلِ عليهم بذلك من أول الأمر لا لأن بعضَ أشرافِهم ليسوا بكفرة.

﴿ما نراك إلا بشرًا مثلنا﴾ مُرادُهم ما أنت إلا بشرٌ مثلُنا ليس فيك مزيةٌ تخصُّك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتملٌ ولكن لا نراه وكذا

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) زاد في خ: القول.

الحالُ في قولهم: ﴿**وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي**﴾ فالفعلان من رؤية العينِ وقوله تعالى: ﴿إلا بشرًا مثلنا﴾ حالٌ من المفعول وكذا قوله: ﴿**اتبعك**﴾ في موضع الحالِ منه إما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك.

ويجوز أن يكون من رؤية القلبِ وهو الظاهرُ فهما المفعولُ الثاني وتعلُّقُ الرأي في الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط، وإنما لم يبتّوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارِهم عليه إراءةً بأن ذلك لم يصدُر عنه جُزافًا بل بعد التأملِ في الأمر والتدبرِ فيه ولذلك اقتَصروا على ذكر الظن فيما سيأتي وتعريضًا من أول الأمرِ برأي المتبعين فكأن قولَهم: ﴿وما نراك﴾ جوابٌ عما يرِد عليهم من أنه عليه [الصلاة و][1] السلام ليس مثلَهم حيث عاين دلائلَ نبوته واغتنم اتباعه مَنْ له عينٌ تُبصر وقلبٌ يدرك فزعَموا أن هؤلاء أراذلُنا أي أخِسّاؤنا وأدانينا جمعُ أرذلٍ فإنه صار بالغلبة جاريًا مجرى الاسم كالأكبر والأكابر أو جمعُ أرذُلٍ جمعُ رَذْلٍ كأكالِب وأكلُب وكلْب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانةُ عقل ولا أصالةُ رأي وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي أي ظاهرِه من غير تعمّق، من مَبْدُوّ[2] أو في أوله من البدء والياء مبدلةٌ من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه أبو عمرو[3] بها وانتصابُه على الظرفية على حذف المضافِ أي وقتَ حدوثِ بادي الرأي والعاملُ فيه اتبعك، وإنما استرذلوهم مع كونهم أولي الألبابِ الراجحةِ لفقرهم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهرَ الحياةِ الدنيا كان الأشرفُ عندهم الأكثرَ منها حظا والأرذلُ من حُرِمها ولم يفقَهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناحَ بعوضةٍ وأن النعيم إنما هو نعيمُ الآخرة والأشرفُ من فاز به والأرذلُ من حُرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك.

﴿**وما نرى لكم**﴾ أي لك ولمتّبعيك فغلّب المخاطَب على الغائبين ﴿**علينا من فضل**﴾ يعنون أن اتباعَهم لك لا يدل على نبوتك ولا يُجديهم فضيلةً تَستتبع اتباعَنا لكم واقتصارَهم هاهنا على ذكر عدمِ رؤيةِ الفضلِ بعد تصريحِهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالِهم السابقِ واللاحقِ، ومرادُهم أنهم كانوا أراذلَ قبل اتباعهم لك ولا نرى

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: البدو.
(٣) قرأ بها أيضًا: الكسائي، ونصير، وعيسى الثقفي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٨٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢١٥)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٧٠)، والتيسير للداني ص (١٢٤)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٢).

فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلةً علينا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ جميعًا لكون كلامكم واحدًا ودَعْواكم واحدةً، أو إياك في دعوى النبوةِ وإياهم في تصديقِك واقتصارُهم على الظنّ احترازٌ منهم عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراةٌ معه عليه [الصلاة و][1] السلام بطريق الإرادة على نهج الإنصاف.

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أي أخبروني وفيه إيماءٌ إلى ركاكة رأيِهم المذكور ﴿إن كنت على بينة﴾ برهانٍ ظاهر ﴿من ربي﴾ وشاهدٍ يشهد بصِحّة دعواي ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ هي النبوةُ، ويجوز أن تكون هي البينةَ نفسَها جيء بها إيذانًا بأنها، مع كونها بينةً من الله تعالى، رحمةٌ ونعمةٌ عظيمة من عنده، فوجْهُ إفرادِ الضمير في قوله تعالى: ﴿فعمِّيت عليكم﴾ حينئذ ظاهرٌ وإن أريد بها النبوةُ وبالبينة البرهانُ الدالُّ على صحتها فالإفرادُ لإرادة كلٍّ واحدةٍ منهما أو لكون الضميرِ للبينة والاكتفاءِ بذلك لاستلزام خفائِها خفاءَ النبوةِ، أو لتقدير فعلٍ آخرَ بعد البينة، ومعنى عُمِّيت أُخفيت، وقرئ (عمِيَت)[2] ومعناه خَفِيت، وحقيقتُه أن الحجةَ كما تجعلُ مُبصِرة وبصيرةً تجعلُ عمياءَ، لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيرَه، وفي قراءة أُبيّ (فعمّاها عليكم)[3] على الإسناد إلى الله عز وجل.

﴿أنلزِمكموها﴾ أي أنُكرِهُكم على الاهتداء بها، وهو جوابُ أرأيتم وسادٌّ مسدَّ جوابِ الشرطِ، وقرأ أبو عمرو[4] بإخفاء حركةِ الميم، وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قُدِّم أعرفُهما جاز في الثاني الوصلُ والفَصلُ، فوصل كما في قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله﴾ [البقرة، الآية ١٧].

﴿وأنتم لها كارهون﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها، ومحصولُ الجوابِ أخبروني إن كنتُ على حجة ظاهرةِ الدِلالة على صِحّة دعواي إلا أنها خافيةٌ عليكم

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢١٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٧٢)، والتيسير للداني ص (١٢٤)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٢).

(٣) قرأ بها أيضًا: علي، والسلمي، والحسن، والأعمش، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢١٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٧٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٩).

(٤) ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٨٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٥/ ٢١٧)، وتفسير الرازي (١٧/ ٢١٤).

غيرُ مُسلَّمةٍ عندكم، أيمكنُنا أن نكرِهَكم على قَبولها وأنتم معرضون عنها غيرَ متدبِّرين فيها أي لا يكون ذلك.

وظاهرُه مُشعِرٌ بصدوره عنه عليه [الصلاة و][١] السلام بطريق إظهارِ اليأسِ عن إلزامهم القعودَ عن مُحاجَّتهم كقوله تعالى: ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ [هود، الآية ٣٤] إلخ، لكنه محمولٌ على أن مرادَه عليه [الصلاة و][٢] السلام ردُّهم عن الإعراض عنها وحثُّهم على التدبّر فيها بصرف الإنكارِ إلى الإلزام حالَ كراهتِهم لها لا إلى الإلزام مطلقًا، هذا ويجوز أن يكون المرادُ بالبينة دليلَ العقلِ الذي هو ملاكُ الفضل، وبحسبه يمتاز أفرادُ البشرِ بعضُها من بعض وبه يناط الكرامةُ عند الله عز وجل والاجتباءُ للرسالة، وبالكون عليها التسمكُ به والثباتُ عليه وبخفائها على الكفرة، على أن الضميرَ للبينة، عدمُ إدراكِهم لكونه عليه [الصلاة و][٣] السلام عليها وبالرحمة[٤] النبوةُ التي أنكروا اختصاصَه عليه السلام بها بين ظَهرانيهم، والمعنى أنكم زعمتم أن عهدَ النبوةِ لا يناله إلا من له فضيلةٌ على سائر الناسِ مستتبِعةٌ لاختصاصه به دونهم، أخبروني إن امتزتُ عنكم بزيادة مزيةٍ وحيازةِ فضيلةٍ من ربي وآتاني بحسبها[٥] نبوةً من عنده فخفِيَتْ عليكم تلك البينةُ ولم تُصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلُكم وهي متحققةٌ في نفسها أنلزمكم قبولَ نبوتي التابعةِ لها والحالُ أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهامُ للحمل على الإقرار، وهو الأنسبُ بمقام المُحاجّةِ وحينئذٍ يكون كلامُه عليه [الصلاة و][٦] السلام جوابًا عن شُبَهِهم التي أدرجوها في خلال مقالِهم من كونه عليه السلام بشرًا، قصارى أمره أن يكون مثلَهم من غير فضلٍ له عليهم وقطعًا لشأفة آرائِهم الركيكة.

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ أي على ما قلته في أثناء دعوتِكم ﴿مالًا﴾ تؤدّونه إليّ بعد إيمانِكم واتباعِكم لي فيكونَ ذلك أجرًا لي في مقابلة اهتدائِكم ﴿إن أجري إلا على الله﴾ الذي يُثيبني في الآخرة، وفي التعبير عنه حين نُسب إليهم بالمال ما لا يخفى من المزية ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ جوابٌ عما لوّحوا به بقولهم: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلُنا﴾ [هود، الآية ٢٧] من أنه لو اتبعه الأشرافُ

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) زاد في خ: و.
(٥) في خ: يحبها.
(٦) سقط في خ.

لوافقوهم وأن اتّباعَ الفقراءِ مانعٌ لهم عن ذلك كما صرّحوا به في قولهم: ﴿أنؤمنُ لك واتّبعك الأرذلون﴾ [الشعراء، الآية ١١١] فكان ذلك التماسًا منهم لطردهم وتعليقًا لإيمانهم به عليه [الصلاة و](١) السلام بذلك أنفَةً من الانتظام معهم في سلك واحد.

﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ تعليلٌ لامتناعه عليه السلام عن طردهم أي إنهم فائزون في الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل: لا أطرُدهم ولا أُبعِدُهم عن مجلسي لأنهم مقرَّبون في حضرة القدسِ، والتعرّضُ لوصف الربوبيةِ لتربية وجوبِ رعايتِهم وتحتّمِ الامتناعِ عن طردهم، أو مصدِّقون في الدنيا بلقاء ربِّهم موقنون به عالِمون أنهم ملاقوه لا محالَة فكيف أطرُدهم.

وحملُه على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيحٍ ثابتٍ كما ظهر لي أو على خلاف ذلك مما تعرِفونهم به، من بناء إيمانِهم على باديَ الرأي من غير نظرٍ وتفكّر، وما عليّ أن أشقَّ عن قلوبهم وأتعرَّفَ سرَّ ذلك منهم حتى أطرُدَهم إن كان الأمرُ كما تزعُمون، يأباه الجزمُ بترتّب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتي وأيضًا فهم إنما قالوا إن اتباعَهم لك إنما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمل وتفكرٍ، وهذا لا يكاد يصلُح مدارًا للطرد في الدنيا ولا للمؤاخذة في الآخرة، غايتُه ألا يكونوا في مرتبة الموقنين، وادعاءُ أن بناءَ الإيمانِ على ظاهر الرأي يؤدّي إلى الرجوع عنه عند التأملِ، فكأنهم قالوا إنهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبُتون على دينك بل يرتدون عنه، تعسفٌ لا يخفى.

﴿ولكني أراكم قومًا تجهلون﴾ بكل ما ينبغي أن يُعلم، ويدخُلُ فيه جهلُهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردِهم لغضب الله كما سيأتي وبركاكة رأيِهم في التماس ذلك وتوقيفِ إيمانهم عليه أنفةً عن الانتظام معهم في سلك واحدٍ وزعمًا منهم أن الرذالة بالفقر والشرفَ بالغنى. وإيثارُ صيغةِ الفعلِ للدلالة على التجدد والاستمرارِ، أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخَساسة.

﴿ويا قوم من ينصرني من الله﴾ بدفْع حلولِ سخطِه عني ﴿إن طردتهم﴾ فإن ذلك أمرٌ لا مردَّ له لكون الطرد ظلمًا موجبًا لحلول السّخط قطعًا، وإنما لم يُصرَّح به إشعارًا بأنه غنيٌّ عن البيان لا سيما غِبَّ ما قُدّم ما يلوحُ به من أحوالهم فكأنه قيل: مَنْ يدفعُ عني غضبَ الله تعالى إن طردتُهم وهم بتلك المثابةِ من الكرامة والزُلفى كما(٢) ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أتستمرّون على ما أنتم عليه من

---

(١) سقط في خ.

(٢) زاد في خ: سبق كما.

الجهل المذكورِ فلا تتذكرون ما ذُكر من حالهم حتى تعرِفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب، ولكون هذه العلةِ مستقلةً بوجه مخصوصٍ ظاهر الدلالةِ على وجوب الامتناعِ عن الطرد أُفردت عن التعليل السابقِ وصُدّرت بـ (يا قوم) ﴿**ولا أقول لكم**﴾ حين أدّعي النبوة ﴿**عندي خزائن الله**﴾ أي رزقُه وأموالُه حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ [هود، الآية ٢٧] فإن النبوةَ أعزُّ من أن تنال بأسباب دنيويةٍ ودعواها بمعزل عن ادعاء المالِ والجاه ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾ أي لا أدعي في قولي: ﴿إني لكم نذيرٌ مبين﴾ [هود، الآية ٢٥] ﴿إني أخاف عليكم عذابَ يوم أليم﴾ [هود، الآية ٢٦] علمَ الغيبِ حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد.

﴿**ولا أقول إني ملك**﴾ حتى تقولوا: ﴿ما نراك إلا بشرًا مثلنا﴾ [هود، الآية ٢٧] فإن البشريةَ ليست من موانع النبوةِ بل من مباديها يعني أنكم اتخذتم فُقدانَ هذه الأمورِ الثلاثة ذريعةً إلى تكذيبي والحال أني لا أدعي شيئًا من ذلك ولا الذي أدّعيه يتعلق بشيء منها وإنما يتعلق بالفضائل النفسانيةِ التي بها تتفاوت مقاديرُ البشرِ ﴿**ولا أقول**﴾ مساعدةً لكم كما تقولون ﴿**للذين تزدري أعينكم**﴾ أي تقتحِمهم وتحتقرِهم من زراه[1] إذا عابه، وإسنادُ الازدراءِ إلى أعينهم [إما] بالنظر إلى قولهم: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلُنا﴾ [هود، الآية ٢٧] وإما للإشعار بأن ذلك لقصور نظرِهم ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك أي لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين ﴿**لن يؤتيهم الله خيرًا**﴾ في الدنيا أو في الآخرة فعسى الله أن يُؤتيهَم خيري الدارين.

إن قلتَ: هذا القولُ ليس مما تستنكره الكفرةُ ولا مما يتوهمون صدورَه عنه عليه السلام أصالةً أو استتباعًا كادعاء المِلْكية وعلم الغيب وحيازة الخزائنِ مما نفاه عليه [الصلاة و][2] السلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمِنْ أيِّ وجه عطف نفيُه على نفيها؟.

قلتُ: من جهة أن كِلا النفيَيْن ردٌّ لقياسهم الباطلِ الذي تمسّكوا به فيما سلف فإنهم زعَموا أن النبوةَ تستتبع الأمورَ المذكورةَ وأنها لا تتسنى ممن ليس على تلك الصفات فإن العثورَ على مكانها واغتنامَ مغانمِها ليس من دأب الأراذلِ فأجاب عليه [الصلاة و][3] السلام بنفي ذلك جميعًا فكأنه قال: لا أقول وجودُ تلك الأشياءِ من

---

(١) في خ: الزراء.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.

مواجب النبوةِ ولا عدمُ المالِ والجاهِ من موانع الخير.

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ من الإيمان، وإنما اقتُصر على نفي القولِ المذكورِ من أنه عليه [الصلاة و][1] السلام جازمٌ بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرًا عظيمًا في الدارين وأنهم على يقين راسخ في الإيمان جريًا على سنن الإنصافِ من القوم واكتفاءً بمخالفة كلامِهم وإرشادًا لهم إلى مسلك الهدايةِ بأن اللائقَ لكل أحدٍ ألا يبُتَّ القولَ إلا فيما يعلمه يقينًا ويبني أمورَه على الشواهد الظاهرةِ ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة ﴿إني إذًا﴾ أي إذا قلتُ ذلك ﴿لمن الظالمين﴾ لهم بحطّ مرتبتِهم ونقصِ حقوقِهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فإن وبالَه راجعٌ إلى أنفسهم وفيه تعريضٌ بأنهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالِهم.

وقيل: إذا قلتُ شيئًا مما ذكر من ادّعاء المِلْكية وعلم الغيب وحيازةِ الخزائن، وهو بعيدٌ لأن تبعةَ تلك الأقوالِ مغنيةٌ عن التعليل بلزوم الانتظامِ في زمرة الظالمين.

﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا﴾ خاصمتنا ﴿فأكثرت جدالنا﴾ أي أطَلْته أو أتيتَه بأنواعه فإن إكثارَ الجدالِ يتحقق بعد وقوعِ أصلِه فلذلك عُطف عليه بالفاء أو أردتَ ذلك فأكثرتَه كما في قوله تعالى: ﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعِذْ بالله﴾ [النحل، الآية ٩٨] ولما حجّهم عليه [الصلاة و][2] السلام وأبرز لهم بيناتٍ واضحةَ المدلولِ وحُججًا تتلقاها العقولُ بالقَبول وألقمهم الحجرَ برد شُبهِهم الباطلةِ ضاقت عليهم الحيلُ وعيّت بهم العللُ وقالوا: ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجّلِ أو العذابِ الذي أشير إليه في قوله: ﴿إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ أليم﴾ [هود، الآية ٢٦] على تقدير ألا يكون المرادُ باليوم يومَ القيامة ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تقول ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ يعني أن ذلك ليس موكولًا إليّ ولا هو مما يدخُل تحت قدرتي وإنما يتولاه الله الذي كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلًا أو آجلًا إنْ تعلَّق به مشيئتُه التابعةُ للحكمة، وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعودِ فكأنه قيل: الإتيانُ به أمرٌ خارجٌ عن دائرة القُوى البشرية وإنما يفعله الله عز وجل.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعونني في الكلام ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ النُصحُ كلمةٌ جامعةٌ لكل ما يدور عليه الخيرُ من [قول أو فعل][3]، وحقيقتُه إمحاضُ إرادةِ الخيرِ والدِلالةِ عليه، ونقيضُه الغشُّ وقيل: هو إعلامُ موقع

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.
(٣) في خ: فعل أو قول.

الغَيِّ ليُتّقى وموضعِ الرشد ليُقْتَفىٰ ﴿إن أردت أن أنصح لكم﴾ شرطٌ حذف جوابُه لدلالة ما سبق عليه، والتقديرُ إن أردتُ أن أنصحَ لكم لا ينفعُكم نُصحي وهذه الجملةُ دليلٌ على ما حذف من جواب قولِه تعالى: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ والتقديرُ إن كان الله يريد أن يُغوِيَكم فإن أردتُ أن أنصحَ لكم لا ينفعكم نصحي، هذا على ما ذهب إليه البصريون من عدم تقديم الجزاءِ على الشرطِ، وأما على ما ذهب إليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا: ﴿ولا ينفعكم نُصحي﴾ [هود، الآية ٣٤] جزاءٌ للشرط الأولِ، والجملةُ جزاءٌ للشرط الثاني وعلى التقديرين فالجزاءُ متعلّقٌ بالشرط الأولِ وتعلّقه به معلّقٌ بالشرط الثاني، وهذا الكلامُ متعلِّقٌ بقولهم: ﴿قد جادلتَنا فأكثرتَ جِدالَنا﴾ صدر عنه عليه [الصلاة][1] والسلام إظهارًا للعجز عن إلزامهم بالحجج والبيناتِ لتماديهم في العناد، وإيذانًا بأن ما سبق منه ليس بطريق الجدالِ والخصامِ بل بطريق النصيحةِ لهم والشفقةِ عليهم وبأنه لم يألُ جهدًا في إرشادهم إلى الحق وهدايتِهم إلى سبيله المستبينِ وإمحاضِ النصحِ لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم، وتقييدُ عدمِ نفع النصحِ بإرادته [مع][2] أنه محققٌ لا محالة للإيذان بأن ذلك النصحَ منه مقارِنٌ للإرادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلةِ بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم، وإنما اقتُصر في ذلك على مجرد إرادةِ الإغواءِ دون نفسِه حيث لم يقل: إن كان الله يغويكم مبالغةً في بيان غلبةِ جنابِه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نُصحَه المقارِنَ للاهتمام به لا يُجديهم عند مجردِ إرادةِ الله سبحانه لإغوائهم، فكيف عند تحقيقِ ذلك وخلقِه فيهم. وزيادةُ كان للإشعار بتقدم إرادتِه تعالى زمانًا كتقدّمها رتبةً وللدلالة على تجدّدها واستمرارِها، وإنما قُدّم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم: ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من قوله [تعالى][3]: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاءَ﴾ [هود، الآية ٣٣] ردًا عليهم من أول الأمرِ وتسجيلًا عليهم بحلول العذابِ مع ما فيه من اتصال الجوابِ بالسؤال، وفيه دليلٌ على أن إرادتَه تعالى يصِحّ تعلقُها بالإغواء وأن خلافَ مرادِه غيرُ واقع.

وقيل: معنى أن يغويَكم يُهلكَكم، من غوَى الفصيلُ غوًى إذا بشِم وهلك ﴿هو ربكم﴾ خالقُكم ومالكُ أمركم ﴿وإليه ترجعون﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة.

﴿أم يقولون افتراه﴾ قال ابن عباس رضي الله [عنهما: يعني نوحًا عليه الصلاة

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.

و][1] السلام، ومعناه بل أيقولُ قومُ نوحٍ إن نوحًا افترى ما جاء به مسنِدًا [إياه][2] إلى الله عز وجل **﴿قل﴾** يا نوح **﴿إن افتريته﴾** بالفرض البحْت **﴿فعليّ إجرامي﴾** إثمي ووبالُ إجرامي وهو كسبُ الذنب وقرئ بلفظ الجمع[3]، وينصُره أن فسّره الأولون بآثامي **﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾** من إجرامكم في إسناد الافتراءِ إليّ، فلا وجهَ لإعراضكم عني ومعاداتِكم لي.

وقال مقاتلٌ: يعني محمدًا [عليه الصلاة والسلام][4] ومعناه بل أيقولُ مشركو مكةَ افترى رسولُ الله ﷺ خبرَ نوحٍ فكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصةِ عند سَوْق طرفٍ منها تحقيقًا لحقيتها وتأكيدًا لوقوعها وتشويقًا للسامعين إلى استماعها، لا سيما وقد قُصَّ منها طائفةٌ متعلقةٌ بما جرى بينه عليه السلام وبين قومِه من المُحاجَّة وبقِيَتْ طائفةٌ مستقلّةٌ متعلقةٌ بعذابهم.

﴿وأوحيَ إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك﴾ أي المُصِرِّين على الكفر وهو إقناطٌ له عليه السلام من إيمانهم وإعلامٌ لكونه كالمُحال الذي لا يصِحّ توقّعُه **﴿إلا من قد آمن﴾** إلا من قد وُجد منه ما كان يُتوقَّع من إيمانه، وهذا الاستثناءُ على طريقة قولِه تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ [النساء، الآية ٢٣] **﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾** أي لا تحزَنْ حزْنَ بائسٍ مستكينٍ ولا تغتمَّ بما كانوا يتعاطَوْنه من التكذيب والاستهزاء والإيذاءِ في هذه المدة الطويلةِ فقد انتهى أفعالُهم وحان وقتُ الانتقامِ منهم **﴿واصنع الفلك﴾** ملتبسًا **﴿بأعيننا﴾** أي بحفظنا وكلاءتِنا كأن معه من الله عز وجل حُفّاظًا وحرّاسًا يكلأونه بأعينهم من التعدّي من الكفرة ومن الزيغ في الصنعة **﴿ووحينا﴾** إليك كيف تصنعُها وتعليمِنا وإلهامِنا.

عن ابن عباس [رضي الله عنهما][5]: لم يعلمْ كيف صنعةُ الفُلك، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعَها مثلَ جُؤجُؤ[6] الطائر، والأمرُ للوجوب إذ لا سبيل إلى صيانة الروحِ من الغرق إلا به فيجب كوجوبها، واللامُ **إما للعهد** بأن يُحملَ على أن هذا مسبوقٌ بوحي الله تعالى إليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجّيه ومَنْ معه بشيء سيصنعه بأمره تعالى ووحيِه، مِنْ شأنه كيتَ وكيت واسمُه كذا، **وإما للجنس**.

---

(١) في خ: عنه عليه. (٢) سقط في خ.

(٣) ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٢٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٩).

(٤) في خ: صلى الله عليه وسلم. (٥) سقط في خ.

(٦) الجؤجؤ: مجتمع رؤوس عظام الصدر.

قيل: صنعها عليه الصلاة والسلام في سنتين، وقيل: في أربعمائة سنة، وكانت من خشب الساج وجُعلت ثلاثةَ بطونٍ حُمل في البطن الأول الوحوشُ والسباعُ والهوامُّ، وفي البطن الأوسطِ الدوابُّ والأنعام، وفي البطن الأعلى جنسُ البشر هو ومَنْ معه مع ما يحتاجون إليه من الزاد، وحَمل معه جسدَ آدمَ عليه [الصلاة][١] والسلام.

وقيل: جَعل في الأول الدوابَّ والوحوشَ وفي الثاني الإنسَ وفي الأعلى الطيرَ، قيل: كان طولُها ثلاثمائة ذراعٍ وعَرْضُها خمسين ذراعًا وسَمْكُها ثلاثين ذراعًا.

وقال الحسنُ: كان طولُها ألفًا ومائتي ذراعٍ وعَرضُها ستَّمائةِ ذراعٍ. وقيل: إن الحَواريين قالوا لعيسى عليه [الصلاة][٢] والسلام: لو بعثت لنا رجلًا شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من ذلك الترابِ فقال: أتدرون مَنْ هذا؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم، قال هذا كعبُ بنُ حام قال: فضرب بعصاه فقال: قم بإذن الله فإذا هو قائمٌ ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه [الصلاة و][٣] السلام: أهكذا هلكْتَ؟ قال: لا، متُّ وأنا شابٌّ ولكني ظننتُ أنها الساعة فمِنْ ثَمَّةَ شِبْتُ، فقال: حدثنا عن سفينة نوحٍ، قال: كان طولُها ألفًا ومائتي ذراعٍ وعَرضُها ستمائة ذراع، وكانت ثلاثَ طبقاتٍ طبقةٌ للدواب والوحش وطبقةٌ للإنسِ وطبقةٌ للطير، ثم قال: عُدْ بإذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابًا.

﴿**ولا تخاطبنى في الذين ظلموا**﴾ أي لا تراجِعْني فيهم ولا تدعُني ياستدفاع العذابِ عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعُني فيهم، وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية[٤] أُكّد التعليلُ فقيل: ﴿**إنهم مغرقون**﴾ أي محكومٌ عليهم بالإغراق قد مضى به القضاءُ وجفّ القلمُ فلا سبيل إلى كفه ولزِمتْهم الحُجةُ فلم يبقَ إلا أن يُجعلوا عِبرةً للمعتبرين ومثَلًا للآخرين.

﴿**ويصنع الفلك**﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ لاستحضار صورتِها العجيبةِ، وقيل: تقديرُه وأخذ يصنع الفلكَ أو أقبل بصنعها فاقتصر على يصنع، وأيًا ما كان ففيه ملاءمةٌ للاستمرار المفهومِ من الجملة الواقعةِ حالًا من ضميره، أعني قوله تعالى: ﴿**وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخِروا منه**﴾ استهزأوا به لعمله السفينةَ إما لأنهم ما كانوا يعرِفونها ولا كيفيةَ استعمالِها والانتفاعِ بها فتعجبوا من ذلك وسخِروا منه، وإما لأنه كان يصنعها في برّية بهماءَ في أبعد موضعٍ من الماء وفي وقت عزَّته عِزة شديدة وكانوا

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: بما يستتبعه.

يتضاحكون ويقولون: يا نوحُ صرتَ نجارًا بعد ما كنت نبيا.

وقيل: لأنه عليه [الصلاة و][١] السلام كان يُنذرهم الغرقَ فلما طال مكثُه فيهم ولم يشاهِدوا منه عينًا ولا أثرًا عدّوه من باب المُحال ثم لما رأوا اشتغالَه بأسباب الخلاصِ من ذلك فعلوا ما فعلوا، ومدارُ الجميعِ إنكارُ أن يكون لعمله عليه [الصلاة و][٢] السلام عاقبةٌ حميدةٌ مع ما فيه من تحمل المشاقِّ العظيمة التي لا تكاد تُطاق واستجهالِه عليه السلام في ذلك.

﴿قال إن تسخروا منا﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿فإنا نسخر منكم﴾ أي نستجهلكم فيما أنتم عليه، وإطلاقُ السخريةِ عليه للمشاكلة[٣]، وجمعُ الضمير في منا إما لأن سخريتَهم منه عليه الصلاة والسلام سخريةٌ من المؤمنين أيضًا أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضًا إلا أنه اكتُفيَ بذكر سُخريتِهم منه عليه [الصلاة و][٤] السلام، ولذلك تعرض الجميعُ للمجازاة في قوله تعالى: ﴿فإنا نسخر منكم﴾ إلخ، فتكافأ الكلامُ من الجانبين، وتعليقُ استجهالِه عليه [الصلاة و][٥] السلام إياهم بما فعلوا من السُّخرية باعتبار إظهارِه ومشافهتِه عليه [الصلاة و][٦] السلام إياهم بذلك وإلا فعَدُّه عليه [الصلاة و][٧] السلام إياهم جاهلين فيها يأتون ويذرون أمرٌ مطّردٌ لا تعلُّق له بسخريتهم منهم لكنه عليه [الصلاة و][٨] السلام لم يكن يتصدّىٰ لإظهاره جريًا على نهج الأخلاقِ الحميدةِ، وإنما أظهره جزاءً بما صنعوا بعد اللتيا والتي، فإن سخريتَهم كانت مستمرةً ومتجدّدةً حسب تجدُّدِ مرورِهم عليه، ولم يكن يُجيبهم في كل مرة، وإلا لقيل: ويقول إن تسخروا منّا إلخ، بل إنما أجابهم بعد بلوغِ أذاهم الغايةَ كما يؤذِن به الاستئنافُ، فكأن سائلًا سأل فقال: فما صنع نوحٌ عند بلوغِهم منه هذا المبلغ؟ فقيل: قال: إن تسخروا منا أي إن تنسُبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرةِ لأسباب الخلاصِ من العذاب إلى الجهل وتسخَروا منا لأجله فإنا ننسُبكم إليه فيما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة، ومن الاستمرار على

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) والمشاكلة هنا مشاكلة تحقيقية وقد مضى الحديث عنها بإفاضة عند الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠)، وأسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، والإتقان (٢/ ٣٦) وما بعدها.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.
(٦) سقط في خ.
(٧) سقط في خ.
(٨) سقط في خ.

الكفر والمعاصي والتعّرضِ لأسباب حلولِ سخطِ الله تعالى التي من جملتها استجهالُكم إيانا وسخريتُكم منا.

والتشبيهُ في قوله تعالى: ﴿كما تسخرون﴾ إما في مجرد التحققِ والوقوعِ أو في التجدد والتكررِ حسبما صدر عن ملإٍ غبَّ ملإٍ لا في الكيفيات والأحوالِ التي لا تليق بشأن النبيِّ عليه [الصلاة و][1] السلام فكلا الأمرَين واقعٌ في الحال.

وقيل: نسخر منكم في المستقبل سُخريةً مثلَ سُخريتِكم إذا وقع عليكم الغرقُ في الدنيا والحرقُ في الآخرة، ولعل مرادَه نعاملُكم معاملةَ مَنْ يفعل ذلك لأن نفسَ السُّخرية مما لا يكاد يليق بمنصِب النبوةِ، ومع ذلك لا سَدادَ له لأن حالَهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السُّخريةُ أو ما يجري مجراها فتأمّلْ.

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وهو عذابُ الغَرَقِ ﴿ويحِل عليه﴾ حلولَ الدَّيْن المؤجل ﴿عذاب مقيم﴾ هو عذابُ النارِ الدائمُ وهو تهديدٌ بليغٌ، و(مَنْ) عبارةٌ عنهم، وهي إما استفهاميةٌ في حيز الرفعِ أو موصولةٌ في محل النصبِ بـ (تعلمون) وما في حيِّزها سادٌّ مسدَّ مفعولين أو مفعولٍ واحدٍ إن جُعل العلمُ بمعنى المعرفةِ.

ولما كان مدارُ سخريتِهم استجهالَهم إياه عليه [الصلاة و][2] السلام في مكابدة المشاقِّ الفادحةِ لدفع ما لا يكاد يدخُل تحت الصِّحةِ على زعمهم من الطوفان ومقاساةِ الشدائِد في بناء السفينةِ وكانوا يعدّونه عذابًا قيل بعد استجهالِهم فسوف تعلمون مَنْ يأتيه العذابُ يعني أن أُباشرُه ليس فيه عذابٌ لاحقٌ بي فسوف تعلمون مَنِ المعذَّبُ، ولقد أصاب العلمُ بعد استجهالِهم محزّه.

ووصفُ العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخريةِ من لُحوق الخِزْي والعارِ عادة، والتعرُّضُ لحلول العذاب المقيمِ للمبالغة في التهديد، وتخصّصُه بالمؤجل وإيرادُ الأول بالإتيان في غاية الجزالة.

﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ حتى هي التي يُبتدأ بها الكلامُ دخلت على الجملة الشرطيةِ وهي مع ذلك غايةٌ لقوله: ﴿ويصنع﴾ وما بينهما حالٌ من الضمير فيه، وسخِروا منه جوابٌ لـ (كلما)، وقال استئنافٌ على تقدير سؤال سائلٍ كما ذكرناه.

وقيل: هو الجوابُ وسِخروا منه بدلٌ من مرّ أو صفةٌ لملأ، وقد عرفت أن الحقَّ هو الأولُ لأن المقصودَ بيانُ تناهيهم في إيذائه عليه [الصلاة و][3] السلام وتحمُّلِه

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.

لأذيَّتهم لا مسارعتُه عليه [الصلاة و][1] السلام إلى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام ﴿**وفار التنور**﴾ نبعَ منه الماءُ وارتفع بشدة كما تفور القِدْرُ بغَليانها، والتنّورُ تنّورُ الخبز، وهو قول الجمهور.

روي أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام: إذا رأيتَ الماءَ يفورُ من التنور فاركبْ ومن معك في السفينة فلما نبع الماءُ أخبرتْه امرأتُه فركب، وقيل: كان تنورَ آدمَ عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار إلى نوح، وإنما نبع منه وهو أبعدُ شيء من الماء على خرق العادةِ وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخلِ مما يلي باب كِنْدة، وكان عملُ السفينةِ في ذلك الموضع، أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له عين وردة، وعن ابن عباس [رضي الله عنهما][2] وعِكرمةَ والزُّهري أن التنورَ وجهُ الأرض، وعن قتادةَ أشرفُ موضع في الأرض أي أعلاه، وعن علي رضي الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجرُ.

﴿**قلنا احمل فيها**﴾ أي في السفينة وهو جوابُ إذا ﴿**من كل**﴾ أي من كل نوعٍ لا بد منه في الأرض ﴿**زوجين**﴾ الزوجُ ما له مشاكلٌ من نوعه فالذكرُ زوجٌ للأنثى كما هي زوجٌ له وقد يُطلق على مجموعهما فيقابل الفرد، ولإزالة ذلك الاحتمالِ قيل: ﴿**اثنين**﴾ كلٌّ منهما زوجٌ للآخر وقرئ[3] على الإضافة، وإنما قُدم ذلك على أهله وسائرِ المؤمنين لكونه عريقًا فيما أُمر به من الحمل لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمالِ منه عليه الصلاة والسلام في تمييز بعضِه من بعضٍ وتعيينِ الأزواج، فإنه رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال: يا رب كيف أحْمل من كلٍّ زوجين اثنين فحشر الله تعالى إليه السباعَ والطيرَ وغيرَهما فجعل يضرِب بيديه في كل جنس فيقع الذكرُ في يده اليمنى والأنثى في اليسرى فيجعلهما في السفينة، وأما البشرُ فإنما يدخلُ الفُلكَ باختياره فيخِفّ فيه معنى الحَمْل، أو لأنها إنما تحمِلُ بمباشرة البشر وهم إنما يدخُلونها بعد حَمْلهم إياها.

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٢٢)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٨٥)، والتيسير للداني ص (١٢٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٨)، والكشف للقيسي (١/ ٥٢٨)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٦٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٨).

﴿وأهلك﴾ عطفٌ على زوجين أو على اثنين والمرادُ امرأتُه وبنوه ونساؤهم **﴿إلا من سبق عليه القول﴾** بأنه من المغرَقين بسبب ظلمِهم في قوله تعالى: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ [هود: ٣٧] الآية، والمرادُ به ابنُه كنعان وأمُّه واعلةُ فإنهما كانا كافرين، والاستثناءُ منقطِعٌ إن أريد بالأهل الأهلُ إيمانًا، وهو الظاهرُ كما ستعرفه أو متصلٌ إن أريد به الأهلُ قرابة ويكفي في صحة الاستثناءِ المعلوميةُ عند المراجعةِ إلى أحوالهم والتفحّص عن أعمالهم، وجيء بـ (على) لكون السابقِ ضارًّا لهم كما جيء باللام فيما هو نافعٌ لهم من قوله عز وجل: ﴿ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين﴾ [الصافات، الآية ١٧١] وقوله: ﴿إن الذين سبقَتْ لهم منا الحُسنى﴾ [الأنبياء، الآية ١٠١].

﴿ومن آمن﴾ من غيرهم، وإفرادُ الأهلِ منهم للاستثناءِ المذكورِ، وإيثارُ صيغةِ الإفراد في (آمن) محافظةً على لفظ (مَنْ) للإيذان بقلتهم كما أعرب عنه قولُه عز قائلًا: **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** قيل: كانوا ثمانيةً، نوحٌ عليه الصلاة والسلام وأهلُه وبنوه الثلاثةُ ونساؤُهم. وعن ابن إسحاقَ كانوا عشرةً، خمسةَ رجالٍ وخمسَ نسوةٍ، وعنه أيضًا أنهم كانوا عشرةً سوى نسائِهم وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلًا وامرأةً، وأولادُ نوحٍ سامٌ وحامٌ ويافث ونساؤُهم فالجميع ثمانيةٌ وسبعون نصفُهم رجالٌ ونصفُهم نساء، واعتبارُ المعيةِ في إيمانهم للإيماء إلى المعية في مقرّ الأمانِ والنجاة.

﴿وقال﴾ أي نوحٌ عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إن ربي لغفورٌ رحيم﴾ [هود، الآية ٤١] ولو رجع الضميرُ إلى الله تعالى لناسب أن يقال: إن ربكم، ولعل ذلك بعد إدخالِ ما أُمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل: فحمَلَ الأزواجَ أو أدخلها في الفلك وقال للؤمنين: **﴿اركبوا فيها﴾** كما يأتي مثلُه في قوله تعالى: ﴿وهي تجري بهم﴾ [هود، الآية ٤٢] والركوبُ العلوُّ على شيء متحرّكٍ، ويتعدّى بنفسه، واستعمالُه هاهنا بكلمة (في) ليس لأن المأمورَ به كونُهم في جوفها لا فوقَها كما ظُن ، فإن أظهرَ الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوشَ ونظائرَها في البطن الأسفلِ والأنعامَ في الأوسطِ وركب هو ومن معه في الأعلى، بل لرعاية جانبِ المحلية والمكانيةِ في الفلك، والسرُّ فيه أن معنى الركوبِ العلوُّ على شيء له حركةٌ إما إراديةٌ كالحيوان أو قسريةٌ كالسفينة والعجَلة ونحوهما، فإذا استُعمل في الأول يوفر له حظُّ الأصل فيقال: ركبتُ الفرسَ.

وعليه قوله عز من قائل: ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها﴾ [النحل، الآية ٨] وإن استُعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة في فيقال: ركبت في السفينة، وعليه الآيةُ الكريمة وقولُه عز قائلًا: ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ [العنكبوت، الآية ٦٥]

وقوله تعالى: ﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خَرَقها﴾ [الكهف، الآية ٧١].

﴿بسم الله﴾ متعلقٌ باركبوا حالٌ من فاعله أي اركبوا مسمِّين الله تعالى، أو قائلين: بسم الله ﴿مجريها ومُرساها﴾ نصبٌ على الظرفية أي وقتَ إجرائِها وإرسائِها على أنهما اسما زمانٍ أو مصدران كالإجراء والإرساءِ بحذف الوقتِ كقولك: آتيك خفوقَ النجمِ أو اسما مكانٍ انتصبا بما في ﴿بسم الله﴾ من معنى الفعل أو إرادةِ القول، ويجوزَ أن يكون ﴿بسم الله مجريها ومُرساها﴾ مستقلةً من مبتدأ وخبر في موضع الحالِ من ضمير الفلك أي اركبوا فيها مُجراةً ومُرساةً باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى: ﴿ادخلوها خالدين﴾ [الزمر، الآية ٧٣] أو جملةٌ مقتضبةٌ على أن نوحًا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن إجراءَها وإرساءَها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام. قيل: كان عليه السلام إذا أراد أن يُجرِيَها يقول: بسم الله فتجري وإذا أراد أن يرسيَها يقول: بسم الله فترسو، ويجوز أن يكون الاسمُ مقْحمًا كما في قوله: [الطويل]

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ....[1]

ويراد بالله إجراؤُها وإرساؤُها أي بقدرته وأمرِه، وقرئ (مُجرِيها)[2] على صيغة الفاعل مجرورَي المحلِّ صفتين لله عز وجل و(مَجراها ومَرْساها)[3] بفتح الميم

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.... ومَنْ يَبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذر

والبيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ص (٢١٤)، والأشباه والنظائر (٧/ ٩٦)، والأغاني (١٣/ ٤٠)، وبغية الوعاة (١/ ٤٢٩)، وخزانة الأدب (٤/ ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤٢)، والخصائص (٣/ ٢٩)، والدرر (٥/ ١٥)، وشرح المفصل (٣/ ١٤)، والعقد الفريد (٢/ ٧٨)، (٣/ ٥٧)، ولسان العرب (عذر)، والمقاصد النحوية (٣/ ٣٧٥)، والمنصف (٣/ ١٣٥)، وبلا نسبة في أمالي الزجاجي ص (٦٣)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٠٧)، وشرح عمدة الحافظ ص (٥٠٧)، والمقرب (١/ ٢١٣)، وهمع الهوامع (٢/ ٤٩، ١٥٨).

(٢) قرأ بها: مجاهد، ومسلم بن جندب، وعاصم الجحدري، والضحاك النخعي، ويحيى بن وثاب، وأبو رجاء، والكلبي، والحسن.
ينظر: المعاني للفراء (٢/ ١٤)، وتفسير الرازي (١٧/ ٢٢٨).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود، وعيسى الثقفي، وزيد بن علي، والأعمش، ويحيى بن عيسى، ومسلم بن صبيح، ويحيى بن وثاب، والمطوعي، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٦)، الإعراب للنحاس (٢/ ٩١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٢٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٦٠)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٥٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١١).

مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا ﴿إن ربي لغفور﴾ للذنوب والخطايا ﴿رحيم﴾ بعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامّة والداهية العامّة، ولولا ذلك لما فعله وفيه دِلالةٌ على أن نجاتَهم ليست بسبب استحقاقِهم لها بل بمحض فضلِ الله سبحانه وغفرانِه ورحمتِه على ما عليه رأيُ أهل السنة.

﴿وهي تجري بهم﴾ متعلقٌ بمحذوف دلّ عليه الأمرُ بالركوب أي فركِبوا فيها مُسمّين وهي تجري ملتبسةً بهم ﴿في موج كالجبال﴾ وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابِه، كلُّ موجةٍ من ذلك كجبل في ارتفاعها وتراكُمِها[1]، وما قيل من أن الماءَ طبّق ما بين السماء والأرضِ وكانت السفينةُ تجري في جوفه كالحوت فغيرُ ثابتٍ، والمشهورُ أنه علا شوامخَ الجبالِ خمسة عشرَ ذراعًا أو أربعين ذراعًا، ولئن صح ذلك فهذا الجريانُ إنما هو قبل أن يتفاقم الخطبُ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ابنه﴾ فإن ذلك إنما يُتصوَّر قبل أن تنقطِعَ العلاقةُ بين السفينةِ والبرِّ، إذ حينئذ يمكن جرَيانُ ما جرى بين نوحٍ عليه الصلاة والسلام وبين ابنِه من المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجوابِ باعتصام بالجبل، وقرئ (ابنَها)[2] و(ابنَه)[3] بحذف الألفِ على أن الضميرَ لامرأتِه وكان رَبيبَه وما يقال من أنه كان لغير رِشدةٍ لقوله تعالى: ﴿فخانتاهما﴾ فارتكابُ عظيمةٍ لا يقادر قدرُها فإن جنابَ الأنبياءِ صلواتُ الله تعالى عليهم وسلامُه أرفعُ من أن يشارَ إليه بأصبَع الطعنِ وإنما المرادُ بالخيانة الخيانةُ في الدين، وقرئ (ابناهْ)[4] على الندبة ولكونها حكايةً سُوّغ حذفُ حرفها.

---

(١) وهو من التشبيه المرسل لذكر الأداة فيه، ووجه الشبه الضخامة والارتفاع وهو تشبيه مفرد بمفرد، والغرض منه بيان حال موج طوفان نوح - عليه السلام - في الضخامة والارتفاع، والفرق بين تشبيه الموج هنا بالجبال وتشبيهها في (لقمان) بالظلل، أن الهدف في هذه الآية يرمي إلى تصوير الموج عاليًا ضخمًا بما تستطيع كلمة الجبال أن توحي به إلى النفس، وليس المقام هنا مقام خوف ورهبة، ولكن المقام في لقمان مقام خوف ورهبة، ولما كان كذلك كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق.
ينظر: من بلاغة القرآن (٢٠١)، وشروح التلخيص (٣٠/ ٤٧٠)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٨٠).

(٢) قرأ بها: علي، وعروة بن الزبير، عكرمة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٢٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٦١)، وتفسير الرازي (١٧/ ٢٣١).

(٣) قرأ بها: علي، وعروة، وعلي بن الحسين، وأبو جعفر محمد بن علي، وجعفر بن محمد.
ينظر: التبيان للطوسي (٥/ ٤٩٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٦٠)، وتفسير الرازي (١٧/ ٢٣١).

(٤) قرأ بها: السدي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٢٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦١).

وأنت خبيرٌ بأنه لا يلائمه الاستدعاءُ إلى السفينة فإنه صريحٌ في أنه لم يقع في حياته يأسٌ بعْدُ ﴿وكان في معزل﴾ أي في مكان عزَل فيه نفسَه عن أبيه وإخوتِه وقومِه بحيث لم يتناولْه الخطابُ بـ (اركبوا)، واحتاج إلى النداء المذكورِ.

وقيل: في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوحٌ أنه يريد مفارقتَهم ولذلك دعاه إلى السفينة، وقيل: كان ينافق أباه فظن أنه مؤمنٌ، وقيل: كان يعلم أنه كافرٌ إلى ذلك الوقتِ لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدةِ تلك الأهوالِ ينزجرُ عما كان عليه ويقبل الإيمانَ.

وقيل: لم يكن الذي تقدّم من قوله تعالى: ﴿إلا من سبق عليه القولُ﴾ [هود، الآية ٤٠] نصًا في كون ابنِه داخلًا تحته بل كان كالمُجمل فحملتْه شفقةُ الأبوة على ذلك ﴿يا بنيَّ﴾ بفتح الياء اقتصارًا عليه من الألف المُبْدلةِ من ياء الإضافةِ في قولك: يا بنيا وقرئ[1] بكسر الياء اقتصارًا عليه من ياء الإضافة أو سقطت الياءُ والألفُ لالتقاء الساكنين لأن الراءَ بعدهما ساكنة.

﴿اركب معنا﴾ قرأ أبو عمْرو، والكسائيُّ، وحفص، بإدغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج، وإنما أطلق الركوبُ عن ذكر الفُلك لتعينها وللإيذان بضيق المقامِ حيث حال الجريضُ دون القريض[2] مع إغناء المعيةِ عن ذلك ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ أي في المكان وهو وجهُ الأرض خارجَ الفلك لا في الدين وإن كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبُه معه عليه الصلاة والسلام كونَه معه في الإيمان لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذيرِ عن الهَلَكة فلا يلائمه النهيُ عن الكفر.

﴿قال سآوي إلى جبل﴾ من الجبال ﴿يعصِمني﴾ بارتفاعه ﴿من الماء﴾ زعمًا منه أن ذلك كسائر المياهِ في أزمنة السيولِ المعتادةِ التي ربما يُتّقى منها بالصعود إلى

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب. ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢٢)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٦)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٨٩)، والتيسير للداني ص (١٢٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٠)، والكشف للقيسي (١/ ٥٢٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٦٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).

(٢) حال الجريضُ دون القريض: مثلٌ يضرب لأمر يحول دونه حائل.
والجريض: أن يجرض الإنسان وهو أن يغصّ بريقه عند الموت. والقريض هو الشعر. ويروى أن قائله جوشن بن قنفذ الكلاعي وذلك أن أباه منعه قول الشعر حسداً له لتبريزه عليه، فجاش الشعر في صدره فمرض منه، فرقَّ له والده وقال: يا بنيَّ انطق بما أحببت! فقال ذلك المثل.

الرُّبى، وأنّىٰ له ذلك وقد بلغ السيلُ الزُّبىٰ وجهلًا بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرةِ وألاّ محيصَ من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين، فلذلك أراد عليه السلام أن يبين له حقيقة الحال ويعرفه من ذلك الفكر المُحالِ، وكان مقتضى الظاهرِ أن يجيب بما ينطبقُ عليه كلامُه ويتعرّضَ لنفي ما أثبته للجبل من كونه عاصمًا له من الماء بأن يقولَ: لا يعصِمُك منه، مفيدًا لنفي وصفِ العصمةِ عنه فقط من غير تعرضٍ لنفيه عن غيره ولا لنفي الموصوف (بالعصمة) أصلًا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث ﴿**قال لا عاصمَ اليوم من أمر الله**﴾ سلك طريقةَ نفي الجنسِ المنتظِمِ لنفي جميعِ أفرادِ العاصمِ ذاتًا وصفةً كما في قولهم: ليس فيه داعٍ ولا مجيبٌ أي أحدٌ من الناس للمبالغة في نفي كونِ الجبلِ عاصمًا بالوجهين المذكورَين وزادَ اليومَ للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيامِ التي تقع فيها الوقائعُ وتُلِمُّ فيها المُلِماتُ المعتادةُ التي ربما يُتخلّص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسبابِ العادية، وعبّر عن الماء في محلّ إضمارِه بأمرِ الله أي عذابِه الذي أشير إليه حيث قيل: حتى إذا جاء أمرُنا تفخيمًا لشأنه وتهويلًا لأمره وتنبيهًا لابنه على خطئه في تسميته ماءً ويوهم أنه كسائر المياهِ التي يُتفصّى[1] منها بالهرب إلى بعض المهاربِ المعهودةِ وتعليلًا للنفي المذكورِ فإن أمرَ الله لا يغالَب وعذابَه لا يُرَدّ وتمهيدًا لحصر العِصمةِ في جناب الله عز جارُه بالاستثناء كأنه قيل: لا عاصمَ من أمر الله إلا هو إنما قيل: ﴿**إلا من رحم**﴾ تفخيمًا لشأنه الجليلِ بالإبهام ثم التفسيرِ وبالإجمال ثم التفصيل، وإشعارًا بعلّية رحمتِه في ذلك بموجب سبقِها على غضبه وكلُّ ذلك لكمال عنايتِه عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنِه ببيان شأنِ الداهيةِ وقطعِ أطماعِه الفارغةِ وصرفِه عن التعليل بما لا يغني عنه شيئًا وإرشادِه إلى العياذ بالمَعاذ الحقِّ عزَّ حِماهُ وقيل: لا مكانَ يعصِم من أمر الله إلا مكانُ من رحمه الله وهو الفُلك، وقيل: معنى لا عاصم لا ذا عصمةٍ إلا من رحمه الله تعالى ﴿**وحال بينهما الموج**﴾ أي بين نوحٍ وبين ابنِه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لا بين ابنِه وبين الجبل لقوله تعالى: ﴿**فكان من المغرقين**﴾ إذ هو إنما يتفرع على حيلولة الموجِ بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبلِ لأنه بمعزل من كونه عاصمًا وإن لم يحُلْ بينه وبين الملتجِىءِ إليه موجٌ، وفيه دِلالةٌ على هلاك سائرِ الكفرةِ على أبلغ وجهٍ فكان ذلك أمرًا مقرَّرَ الوقوعِ غيرَ مفتقِرٍ إلى البيان، وفي إيراد كان دون صار مبالغةٌ في كونه منهم ﴿**وقيل يا أرض ابلعي**﴾ أي انشَفي، استُعير له من ازدراد

(١) تفصَّى من الشيء وعنه: تخلَّص منه. يُقال: تفصّى من الديون.

الحيوان ما يأكلُه للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتادِ التدريجيّ ﴿ماءك﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفانِ دون المياهِ المعهودةِ فيها من العيون والأنهارِ، وعبّر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لأن المقامَ مقامُ النقص والتقليلِ لا مقامُ التفخيم والتهويلِ ﴿ويا سماء أقلعي﴾ أي أمسِكي عن إرسال المطرِ، يقال: أقلعت السماءُ إذا انقطع مطرُها وأقلعت الحُمّى أي كفّت ﴿وغيض الماء﴾ أي نقص ما بين السماءِ والأرضِ من الماء ﴿وقضي الأمر﴾ أي أُنجز ما وعد الله تعالى نوحًا من إهلاك قومِه وإنجائِه بأهله أو أُتِمَّ الأمر ﴿واستوت﴾ أي استقرّت الفلكُ ﴿على الجوديّ﴾ هو جبلٌ بالمَوْصِل أو بالشام أو بآمل[1]. روي أنه عليه الصلاة والسلام ركب في الفلك في عاشر رجبٍ ونزل عنها في عاشر المحرَّم فصام ذلك اليوم شكرًا فصار سُنّةً ﴿وقيل بعدًا للقوم الظالمين﴾ أي هلاكًا لهم، والتعرضُ لوصف الظلمِ للإشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ما سبق من قوله تعالى: ﴿ولا تخاطِبْني في الذين ظلموا إنهم مُغرَقون﴾ ولقد بلغت الآيةُ الكريمةُ من مراتب الإعجازِ قاصيتَها وملكت من غُرر المزايا ناصيتَها وقد تصدّى لتفصيلها المهرة المتقنون، ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحريٌّ بنا أن نوجزَ الكلامَ في هذا البابِ ونفوّضَ الأمر إلى تأمل أولي الألباب، والله عنده علم الكتاب.

﴿ونادى نوح ربه﴾ أي أراد ذلك بدليل الفاء في قوله تعالى: ﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾ وقد وعدتني إنجاءَهم في ضمن الأمرِ بحملهم في الفلك أو النداءُ على الحقيقة والفاءُ لتفصيل ما فيه من الإجمال، ﴿وإن وعدك الحق﴾ أي وعدَك ذلك، أو إنّ كلَّ وعدِه حقٌّ لا يتطرق إليه خُلْفٌ فيدخل فيه الوعدُ المعهُود دخولًا أوليًا ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ لأنك أعلمُهم وأعدلُهم أو أنت أكثرُ حكمةً من ذوي الحِكَم على أن الحاكمَ من الحِكمة كالدارع من الدِرْع، وهذا الدعاءُ منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاءِ أيوبَ عليه الصلاة والسلام: ﴿إذ نادى ربَّه أني مسَّنَي الضُّرُ وأنت أرحمُ الراحمين﴾ [الأنبياء، الآية ٨٣] ﴿قال يا نوح﴾ لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعدِه جل ذكرُه مبنيًا على كون كنعانَ من أهله نُفيَ أولًا كونُه منهم بقوله تعالى: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أي ليس منهم أصلًا لأن مدار الأهليةِ هو القرابةُ الدينية ولا علاقةَ بين المؤمن والكافرِ أو ليس من أهلك الذين أمرتُك بحملهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء، وعلى التقديرين ليس هو من الذين وُعد بإنجائهم ثم علل عدمُ كونِه منهم على طريقة الاستئنافِ التحقيقي بقوله تعالى: ﴿إنه عمل غيرُ صالح﴾ أصله إنه

(١) آمُل، بضم الميم: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل.

ذو عملٍ غيرِ صالح فجُعل نفسَ العملِ مبالغةً كما في قول الخنساء [البسيط]:

.... فـإنـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ[(١)]

وإيثارُ (غيرُ صالح) على فاسد **إما** لأن الفاسدَ ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاحُ فلا يكون نصًا فيما هو من قبيل الفاسدِ المحضِ كالقتل والمظالم، **وإما** للتلويح بأن نجاةَ من نجا إنما هي لصلاحه، وقرأ الكسائي، ويعقوب، (إنه عمِلَ غيرَ صالح)[(٢)] أي عملًا غيرَ صالح، ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيًا على ما ذكر من اعتقاد كونِ كنعانَ من أهله، وقد نُفيَ ذلك وحُقّق ببيان عِلّته، فُرّع على ذلك النهيُ عن سؤال إنجائه، إلا أنه جيء بالنهي على وجه عام يندرجُ فيه ذلك اندراجًا أوليًا فقيل: ﴿**فلا تسألني**﴾ أي إذا وقفتَ على جلية الحالِ فلا تطلُب مني ﴿**ما ليس لك به علم**﴾ أي مطلبًا لا تعلم يقينًا أن حصولَه صوابٌ وموافقٌ للحكمة على تقدير كونِ (ما) عبارةً عن المسؤول الذي هو مفعولٌ للسؤال أو طلبًا لا تعلم أنه صوابٌ على تقدير كونِه عبارةً عن المصدر الذي هو مفعولٌ مطلقٌ فيكون النهيُ واردًا بصريحه في كلٍّ من معلوم الفسادِ ومشتبِهِ الحالِ ويُفهم، ويجوز أن يكون المعنى ما ليس لك به علمٌ بأنه صوابٌ أو غيرُ صوابٍ فيكون النهيُ واردًا في مشتبِهِ الحالِ ويُفهمُ منه حالُ معلوم الفساد بالطريق الأولى، وعلى التقديرين فهو عامٌ يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه، وهذا كما ترى صريحٌ في أن نداءَه عليه الصلاة والسلام ربَّه عز وعلا ليس استفسارًا عن سبب عدمِ إنجاءِ ابنِه مع سبق وعدِه بإنجاء أهلِه وهو منهم كما قيل، فإن النهيَ عن استفسار ما لم يُعلم غيرُ موافقٍ للحكمة، إذا عدمُ العلمِ بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه بل هو دعاءٌ منه لإنجاء ابنِه حين حال الموجُ بينهما ولم يَعلم بهلاكه بعدُ، إما بتقريبه إلى الفُلك بتلاطم الأمواجِ أو بتقريبها إليه، وقيل: أو بإنجائه في قُلّة الجبل، ويأباه تذكيرُ الوعدِ في الدعاء فإنه مخصوصٌ بالإنجاء في الفلك وقوله تعالى: ﴿لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلا من رَحِم﴾ [هود: ٤٣] ومجرّدُ حيلولةِ الموجِ

---

(١) تقدم.

(٢) قرأ بها أيضًا: علي، وأنس، وابن عباس، وعائشة، وأم سلمة، وعروة، وعكرمة، وسهل.
ينظر: التبيان للطوسي (٥/ ٤٩٤)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٤٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٣)، والكشف للقيسي (١/ ٥٣٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٦٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٥٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٨)، وتفسير الرازي (١٨/ ٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).

بينهما لا يستوجب هلاكَه فضلًا عن العلم به لظهور إمكانِ عصمةِ الله تعالى إياه برحمته وقد وعد بإنجاء أهلِه ولـم يكن ابنُه مجاهرًا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه السلام أن يدعوَه إلى الفُلك أو يدعوَ ربّه لإنجائه، واعتزالُه عنه عليه الصلاة والسلام وقصدُه الالتجاء إلى الجبل ليس بنص في الإصرار على الكفر لظهور جوازِ أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفُلك وزعمِه أن الجبلَ أيضًا يجري مجراه أو لكراهة الاحتباسِ في الفلك بل قوله: ﴿سآوى إلى جبل يعصمني من الماء﴾ [هود، الآية ٤٣] بعد ما قال له نوحٌ عليه الصلاة والسلام: ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ [هود، الآية ٤٢] ربما يُطمعه عليه السلام في إيمانه حيث لم يقل: أكونُ معهم أو سنأوي أو يعصمنا، فإن إفرادَ نفسه بنسبة الفعلين المذكورَيْن ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزالِه عنهم وامتثالِه ببعض ما أمره به نوحٌ عليه الصلاة والسلام، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل في شأنه حقَّ التأملِ وتفحّص عن أحواله في كل ما يأتي ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله، ولذلك قيل: **﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾** فعبّر عن ترك الأولى بذلك، وقرئ فلا تسألنِ بغير ياءِ الإضافةِ وبالنون الثقيلة بياء[1] وبغير ياء[2].

﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك﴾ أي أطلب منك من بعدُ **﴿ما ليس لي به علم﴾** أي مطلوبًا لا أعلم أن حصولَه مقتضى الحِكمة أو طلبًا لا أعلم أنه صوابٌ سواءٌ كان معلومَ الفسادِ أو مشتبِهَ الحالِ أو لا أعلمُ أنه صوابٌ أو غيرُ صوابٍ على ما مر، وهذه توبةٌ منه عليه السلام مما وقع منه وإنما لم يقُلْ: أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغةً في التوبة وإظهارًا للرغبة والنشاطِ فيها وتبركًا بذكر ما لقّنه الله تعالى، وهو أبلغُ من أن يقول: أتوبُ إليك أن أسألَك لما فيه من الدِلالة على كون ذلك أمرًا هائلًا محذورًا لا محيصَ منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرتَه قاصرةٌ عن النجاة من المكاره

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، وشيبة، وزيد بن علي، وورش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٢٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤٣)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٣)، والمعاني للفراء (٢/ ١٨)، وتفسير الرازي (١٨/ ٤).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وقالون، وابن ذكوان، وهشام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٢)، والبحر المحيط (٥/ ٢٢٩)، والتبيان للطوسي (٥/ ٤٩٤)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٣)، والكشف للقيسي (١/ ٥٣٩)، وتفسير الرازي (١٨/ ٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).

إلا بذلك **﴿وإلا تغفِرْ لي﴾** ما صدر عني من السؤال المذكورِ **﴿وترحمْني﴾** بقَبول توبتي **﴿أكن من الخاسرين﴾** أعمالًا بسبب ذلك، فإن الذهولَ عن شكر الله تعالى، لا سيما عند وصولِ مثلِ هذه النعمةِ الجليلةِ التي هي النجاةُ وهلاكُ الأعداءِ، والاشتغالَ بما لا يعني خصوصًا بمبادي خلاصِ من قيلَ في شأنه إنه عملٌ غيرُ صالحٍ والتضرّعَ إلى الله تعالى في أمره معاملةٌ غيرُ رابحةٍ أو خسرانٌ مبينٌ.

وتأخيرُ ذكرِ هذا النداءِ عن حكاية الأمرِ الواردِ على الأرض والسماءِ وما يتلوه من زوال الطوفانِ وقضاءِ الأمر واستواءِ الفُلك على الجوديّ والدعاءِ بالهلاك على الظالمين، مع أن حقَّه أن يُذكر عَقيبَ قوله تعالى: ﴿فكان من المغرقين﴾ [هود، الآية ٤٣] حسبما وقع في الخارج إذ حينئذ يُتصوّر الدعاءُ بالإنجاء لا بعد العلم بالهلاكِ، ليس لما قيل من استقلاله بغرض مُهمٍّ هو جعلُ قرابةِ الدين غامرةً لقرابة النسبِ، وأن لا يقدّم في الأمور الدينيةِ الأصوليةِ إلا بعد اليقينِ قياسًا على ما وقع في قصة البقرةِ من تقديم ذكرِ الأمرِ بذبحها على ذكر القتيلِ الذي هو أولُ القصةِ وكان حقُّها أن يقالَ: وإذ قتلتم نفسًا فادّارأتم فيها فقلنا: اذبحوا بقرةً فاضرِبوه ببعضها كما قُرّر في موضعه فإن تغييرَ الترتيبِ هناك للدلالة على كمال سوءِ حالِ اليهودِ بتعديد جناياتِهم المتنوعةِ وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمرُكم أن تذبحوا بقرة﴾ [البقرة، الآية ٦٧] إلخ، لتقريعهم على الاستهزاء وتركِ المسارعةِ إلى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا﴾ [البقرة، الآية ٧٢] إلخ، للتقريع على قتل النفسِ المحرمةِ وما يتبعه من الأمور العظيمةِ، ولو قُصت القِصةُ على ترتيبها لفات الغرضُ الذي هو تثنيةُ التقريعِ ولظُن أن المجموعَ تقريعٌ واحدٌ وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعىٰ فيه مثلُ تلك النكتةِ[1] أصلًا، وما ذكر من جعل القرابةِ الدينيةِ غامرةً للقرابة النسبية إلخ، لا يفوت على تقدير سَوْقِ الكلام على ترتيب الوقوع أيضًا بل لأن ذكرَ هذا النداءِ كما ترى مستدعٍ لذكر ما مر من الجواب المستدعي لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدِّي ذكرُها إلى ذكر قَبولها في ضمن الأمرِ الواردِ بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركاتِ الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصلًا، ولا ريب في أن هذه المعانيَ آخذٌ بعضُها بحُجْزةِ[2] بعض بحيث لا يكاد يُفرَّق الآياتُ

(١) النكتة: المسألة العلمية الدقيقة يتوصَّل إليها بدقة وإنعام فكر.

(٢) الحجزة: موضع شدّ الإزار من الوسط. وهذا كلام آخذٌ بعضه بحجز بعض: أي متناسق متماسك.

الكريمة المنطويةُ عليها بعضُها من بعض وأن ذلك إنما يتم بتمام القِصّة، ولا ريب أن ذلك إنما يكون بتمام الطوفانِ فلا جرم اقتضى الحالُ ذكرَ تمامِها قبلَ هذا النداءِ وذلك إنما يكون عند ذكرِ كونِ كنعانَ من المغرَقين ولهذه النكتة ازداد حسنُ موقعِ الإيجاز البليغِ، وفيه فائدةٌ أخرى هي التصريحُ بهلاكه من أول الأمرِ ولو ذكر النداء الثاني عقيب قوله (فكان من المغرقين) لربما توهم من أول الأمر إلى أن يرد قولُه: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنُص على هلاكه من أول الأمرِ ثم ذُكر الأمرُ الواردُ على الأرض والسماءِ الذي هو عبارةٌ عن تعلق الإرادةِ الربانيةِ الأزليةِ بما ذُكر من الغيض والإقلاعِ وبين بلوغِ أمرِ الله محلَّه وجريانِ قضائِه ونفوذ حُكمِه عليهم بهلاك من هلك ونجاةِ من نجا بتمام [ذلك][1] الطوفانِ واستواءِ الفُلكِ على الجوديِّ فقُصّت القِصةُ إلى هذه المرتبةِ وبُيّن ذلك أيَّ بيانٍ ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوحٍ عليه السلام وبين ربِّ العزة جلت حكمتُه فذُكر بعد توبتِه عليه الصلاة والسلام قبولُها بقوله:

﴿**قيل يا نوح اهبط**﴾ أي انزل من الفُلك وقرئ بضم[2] الباء ﴿**بسلام**﴾ ملتبسًا بسلامة من المكاره كائنةٍ ﴿**منا**﴾ أو بسلام وتحيةٍ منا عليك كما قال: سلامٌ على نوح في العالمين ﴿**وبركات عليك**﴾ أي خيراتٍ ناميةٍ في نسلك وما يقوم به معاشُك ومعاشُهم من أنواع الأرزاق، وقرئ (بركةٍ)[3]، وهذا إعلامٌ وبشارةٌ من الله تعالى بقَبول توبتِه وخلاصِه من الخسران بفيضان أنواعِ الخيراتِ عليه في كل ما يأتي وما يذر ﴿**وعلى أمم**﴾ ناشئةٍ ﴿**ممن معك**﴾ إلى يوم القيامة متشبعةٍ منهم، فمن ابتدائيةٌ، والمرادُ الأممُ المؤمنةُ المتناسلةُ ممن معه إلى يوم القيامة ﴿**وأمم سنمتعهم**﴾ أي ومنهم على أنه خبرٌ حذف لِدلالة ما سبق عليه، فإن إيرادَ الأممِ المبارَكِ عليهم المتشعبةِ منهم نكرةٌ يدل على أن بعضَ مَنْ يتشعّب منهم ليسوا على صفتهم يعني ليس جميعُ من تشعّب منهم مسلمًا ومباركًا عليه بل منهم أممٌ ممتّعون في الدنيا معذّبون في الآخرة، وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلمًا ومبارَكًا عليهم صريحًا وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذريّاتِهم كذلك بدلالة النصِّ، ويجوز أن تكون (من) بيانيةً أي وعلى أمم هم الذين معك وإنما سُمّوا أممًا

(١) سقط في خ.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٣١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٤).
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٤).

لأنهم أممٌ متحزِّبةٌ وجماعاتٌ متفرِّقةٌ، أو لأن جميعَ الأمم إنما تشعّبت منهم فحينئذ يكون المرادُ بالأمم المشارِ إليهم في قوله تعالى: ﴿وأمم سنمتعهم﴾ بعضَ الأممِ المتشعبةِ منهم وهي الأممُ الكافرةُ المتناسلةُ منهم إلى يوم القيامة، ويبقى أمرُ الأممِ المؤمنةِ الناشئةِ منهم مبهمًا غيرَ متعرّضٍ له ولا مدلولٍ عليه، ومع ذلك ففي دِلالة المذكورِ على خبره المحذوفِ خفاءٌ لأن (من) المذكورةَ بيانيةٌ والمحذوفةَ تبعيضيةٌ أو ابتدائيةٌ فتأمل ﴿ثم يمسّهم﴾ إما في الأخرة أو في الدنيا أيضًا ﴿منا عذاب أليم﴾.

عن محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلامِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذابِ كلُّ كافر، وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راضٍ ثم أخرج منهم نسلًا منهم من رَحِم ومنهم من عذّب. وقيل: المرادُ بالأمم الممتَّعةِ قومُ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم.

﴿تلك﴾ إشارةٌ إلى ما قُصّ من قصة نوحٍ عليه الصلاة والسلام إما لكونها بتقضّيها في حكم البعيدِ أو للدلالة على بُعد منزلِتها، وهي مبتدأٌ خبرُه ﴿من أنباء الغيب﴾ أي من جنسها، أي ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ بل هي نسيجُ وحدِها منفردةٌ عما عداها أو بعضِها ﴿نوحيها إليك﴾ خبرٌ ثانٍ والضمير لها أي مُوحاةٌ إليك أو هو الخبرُ، ومن أنباء متعلّقٌ به، فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أي مُوحاةً إليك ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ خبرٌ آخرُ أي مجهولةٌ عندك وعند قومِك ﴿من قبل هذا﴾ أي من قبل إيحائِنا إليك وإخبارِك بها أو من قبل هذا العلمِ الذي كسبْتَه بالوحي أو من قبلِ هذا الوقتِ أو حالٌ من الهاء في نُوحيها، أو الكافِ في إليك، أي جاهلًا أنت وقومُك بها، وفي ذكر جهلِهم تنبيهٌ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلّمْه، إذا لم يخالِطْ غيرَهم وأنهم مع كثرتهم لم يعلموه [فكيف بواحد منهم][1] ﴿فاصبر﴾ متفرِّعٌ على الإيحاء أو العلمِ المستفادِ منه المدلولِ عليه بقوله: ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومُك من قبل هذا﴾ [هود، الآية ٤٩] أي وإذ قد أوحيناها إليك أو علمْتَها بذلك فاصبرْ على مشاقّ تبليغِ الرسالةِ وأذيَّةِ قومِك كما صبر نوحٌ على ما سمعته من أنواع البلايا في هذه المدة المتطاولةِ.

وهذا ناظرٌ إلى ما سبق من قوله تعالى: ﴿فلعلك تاركٌ بعضَ مايوحىٰ إليك﴾ [هود، الآية ١٢] إلخ ﴿إن العاقبة﴾ بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة ﴿للمتقين﴾ كما شاهدْتَه في نوحٍ عليه الصلاة والسلام وقومِه ولك فيه أسوةٌ حسنةٌ، وهي تسليةٌ

---

(١) في خ: فكيف يؤخذ منهم.

لرسول الله ﷺ وتعليلٌ للأمر بالصبر فإن كونَ العاقبةِ الحميدةِ للمتقين وهو في أقصى درجاتِ التقوى والمؤمنون كلُّهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهوِّن عليه الخطوبَ ويُذهب عنه ما عسى أن يعتريَه من ضيق صدرِه، وهذا على تقدير أن يرادَ بالتقوى الدرجةُ الأولى منه أعني التوقّي من العذاب المخلدِ بالتبرؤ من الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وألزمَهم كلمةَ التقوى﴾ [الفتح، الآية ٢٦] ويجوز أن يراد الدرجةُ الثالثةُ منه وهي أن يتنزّه عما يشغل سِرَّه عن الحق ويتبتَّلَ إليه بشراشِره(١) وهو التقوى الحقيقيُّ المطلوبُ بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حقَّ تقاتِه﴾ [آل عمران، الآية ١٠٢] فإن التقوى بهذا المعنى منطوٍ على الصبر المذكورِ فكأنه قيل: فاصبر فإن العاقبةَ للصابرين.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ

---

(١) الشراشر: أطراف الأجنحة، والجسم بجملته. والمراد أن يتبتَّل إليه بكل أعضائه وجوارحه.

مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

هود عليه السلام

﴿**وإلى عاد**﴾ متعلقٌ بمضمر معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿أرسلنا﴾ في قصة نوحٍ وهو الناصبُ لقوله تعالى: ﴿**أخاهم**﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحدًا منهم في النسَب كقولهم: يا أخا العرب، وتقديمُ المجرورِ على المنصوب هاهنا للحِذارِ عن الإضمار قبل الذكر، وقيل: متعلّقٌ بالفعل المذكورِ فيما سبق و(أخاهم) معطوفٌ على (نوحًا) وقد مر في سورة الأعراف وقوله تعالى: ﴿**هودًا**﴾ عطفُ بيانٍ لـ (أخاهم) وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فإنه هودُ بنُ عبدِ اللَّه بنِ رباحِ بن الخلود بن العوص بن إرمَ بنِ سامِ بنِ نوح عليه الصلاة والسلام، وقيل: هودُ بنُ شالح بنِ أرفخشذَ بنِ سام بن نوحٍ ابنِ عمّ أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهمُ لكلامه وأعرفُ بحاله وأرغبُ في اقتفائه ﴿**قال**﴾ لما كان ذكرُ إرسالِه عليه الصلاة والسلام إليهم مظنةً للسؤال عما قال لهم ودعاهم إليه أُجيب عنه بطريق الاستئنافِ فقيل: ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله**﴾ أي وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**ما لكم من إله غيره**﴾ فإنه استئنافٌ يجري مَجرى البيان للعبادة المأمورِ بها، والتعليلُ للأمر بها كأنه قيل: خُصّوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئًا، إذ ليس لكم من إله سواه، و(غيرُه) بالرفع صفةٌ لـ (إله) باعتبار محلِّه وقرئ بالجر[1] حملًا له على لفظه ﴿**إن أنتم**﴾ ما أنتم باتخاذكم الأصنامَ شركاءَ له أو بقولكم: إن الله أمرنا بعبادتها ﴿**إلا مفترون**﴾ عليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿**يا قوم لا أسألكم عليه أجرًا إن أجري إلا على الذي فطرني**﴾ خاطبَ به كلُّ نبيٍّ قومَه إزاحةً لما عساهم يتوهّمونه وإمحاضًا للنصيحة فإنها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمعزل عن التأثير، وإيرادُ الموصولِ للتفخيم، وجعلُ الصلةِ فعلَ الفطرةِ لكونه أقدم النعمِ الفائضةِ من جناب الله تعالى المستوجبةِ للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجرَيان على موجَب أمرِه الغالبِ مُعرِضًا عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجرُ ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي أتغفُلون عن هذه القضيةِ أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقِلونها أو أتجهلون كلَّ

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٧)، والبحر المحيط (٥/ ٢٣٢)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٤٩)، والكشاف للزمخشري ص (٢٧٥)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٠).

شيءٍ فلا تعقلون شيئًا أصلًا فإن هذا مما لا ينبغي أن يخفىٰ على أحد من العقلاء.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ اطلُبوا مغفرتَه لما سلف منكم من الذنوب بالإيمان والطاعة ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي توسّلوا إليه بالتوبة، وأيضًا التبرُّؤُ من[1] الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبةِ فيما عنده ﴿يرسلِ السماء﴾ أي المطرَ ﴿عليكم مدرارًا﴾ أي كثيرَ الدّرور ﴿ويزدْكم قوة﴾ مضافةً ومنضمّةً ﴿إلى قوتكم﴾ أي يضاعفْها لكم، وإنما رغّبهم بكثرة المطرِ لأنهم كانوا أصحابَ زروعٍ وعمارات، وقيل: حبس الله تعالى عنهم القطرَ وأعقم أرحامَ نسائِهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرةَ الأمطارِ وتضاعُفَ القوة بالتناسل، على الإيمان والتوبة ﴿ولا تتولوا﴾ أي لا تُعرضوا عما دعوتُكم إليه ﴿مجرمين﴾ مصِرِّين على ما كنتم عليه من الإجرام ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة تدل على صحة دعواك وإنما قالوه لفَرْط عنادِهم وعدمِ اعتدادِهم بما جاءهم من البينات الفائتةِ للحصر.

﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾ أي بتاركي عبادتِها ﴿عن قولك﴾ أي صادرين عنه أي صادرًا تركُنا عن ذلك بإسناد حالِ الوصفِ إلى الموصوف ومعناه التعليلُ على أبلغ وجهٍ لِدلالته على كونه علةً فاعليةً، ولا يفيده الباءُ واللام وهذا كقولهم المنقولِ عنهم في سورة الأعراف ﴿أجئتَنا لنعبُدَ الله وحدَه ونذرَ ما كان يعبُد آباؤُنا﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي بمصدقين في شيء مما تأتي وتذر فيندرج تحته ما دعاهم إليه من التوحيد وتركِ عبادةِ الآلهةِ، وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوزِ الحدِّ في العتو ما لا يخفى ﴿إن نقول إلا اعتراك﴾ أي ما نقول إلا قولَنا اعتراك أي أصابك ﴿بعضُ آلهتنا بسوء﴾ بجنون لِسبِّك إياها وصدِّك عن عبادتها وحطِّك لها عن رتبة الألوهيةِ والمعبوديةِ بما مر من قولِك: ﴿ما لكم من إلٰه غيرُه إن أنتم إلا مفترون﴾ [هود، الآية ٥٠]، والتنكيرُ في سوءٍ للتقليل كأنهم لم يبالغوا في السوء[2] كما ينبئ عنه نسبةُ ذلك إلى بعض آلهتِهم دون كلِّها، والجملةُ مقولُ القولِ وإلا لغوٌ لأن الاستثناءَ مفرَّغٌ، وهذا الكلامُ مقرِّرٌ لما مر من قولهم: ﴿وما نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾ [هود، الآية ٥٣] فإن اعتقادَهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدمَ الاعتدادِ بقوله وعدِّه من قبيل الخُرافاتِ فضلًا عن التصديق والعملِ بمقتضاه، يعنون إنا لا نعُدّ[3] كلاَمك إلا من

---

(١) في خ: عن.
(٢) في خ: العتو.
(٣) في خ: نعتقد.

قبيل ما لا يحتمل الصِّدقَ والكذِبَ من الهذَيانات الصادرةِ عن المجانين فكيف نصدِّقه ونؤمن به ونعمل بموجبه، ولقد سلكوا في طريقة المخالفةِ والعناد إلى سبيل الترقّي من الأدنى إلى الأعلى حيث أَخبَروا أولًا عن عدم مجيئِه بالبينة مع احتمال كونِ ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجةً في نفسه وإن لم تكن واضحةَ الدِلالة على المراد، وثانيًا عن ترك الامتثالِ بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم: ﴿وما نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك﴾ مع إمكان تحققِ ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام في كلامه ثم نفَوا تصديقَهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم: ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ [هود، الآية ٥٣] مع كون كلامِه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديقَ ثم نفَوْا عنه تلك المرتبةَ أيضًا حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون ﴿**قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه**﴾ أي من إشراككم من دون الله أي من غير أن ينزِّل به سلطانًا كما قال في سورة الأعراف: ﴿أتجادِلونني في أسماءٍ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان﴾ [الأعراف الآية: ٧١] أو مما تشركونه من آلهة غيرِ الله، أجاب به عن مقالتهم الحمقاءِ المبنيةِ على اعتقاد كونِ آلهتِهم مما يضُرُّ أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك، ولما كان ما وقع أولًا منه عليه الصلاة والسلام في حق آلهتِهم من كونها بمعزل عن الألوهية إنما وقع في ضمن الأمرِ بعبادة الله تعالى واختصاصِه بها وقد شق عليهم ذلك وعدّوه مما يورِث شيْئًا حتى زعَموا أنها تصيبُه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاةٍ لصنيعه معها صرّح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدَع به حيث أُخبر ببراءته القديمةِ عنها بالجملة الاسميةِ المصدّرةِ بإنّ وأَشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانةً بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشادِ مع آلهتهم جميعًا دون بعضٍ منها حسبما يُشعر به قولُهم: ﴿بعضُ آلهتنا﴾ [هود: ٥٤] والتعاونِ في إيصال الكيدِ إليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الإنظار والإمهالِ في ذلك فقال: ﴿**فكيدوني جميعًا ثم لا تُنظرون**﴾ أي إن صح ما لوحتم به من كون آلهتِكم مما يقدِر على إضرار مَنْ ينال منها ويصُدّ عن عبادتها ولو بطريق ضِمنيٍّ فإني بريءٌ منها فكونوا أنتم معها جميعًا وباشروا كيدي ثم لا تُمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، فالفاءُ لتفريع الأمرِ على زعمهم في قدرة آلهتِهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما، وهذا من أعظم المعجزاتِ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلًا مفْرَدًا بين الجمِّ الغفير والجمعِ الكثير من عُتاة عادٍ الغلاظِ الشِّدادِ، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقّرهم وآلهتَهم وهيَّجهم على مباشرة مبادئِ المُضارّة وحثّهم على التصدّي لأسباب المُعازّة والمعارّة[1] فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ مما كلفوه وظهر عجزُهم عن ذلك ظهورًا

(١) المعازَّة: المغالبة. والمعارَّة: المعايبة.

بينًا كيف لا وقد التجأ إلى ركن منيعٍ رفيعٍ واعتصم بحبل متينٍ حيث قال:

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ يعني أنكم وإن بذلتم في مُضارّتي مجهودَكم لا تقدرون على شيء مما تريدون بي فإني متوكلٌ على الله تعالى، وإنما جيء بلفظ الماضي لكونه أدلَّ على الإنشاء المناسبِ للمقام، وواثقٌ بكلاءتي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالكُكم لا يصدُر عنكم شيءٌ ولا يصيبني أمرٌ إلا بإرادته ومشيئتِه ثم برهن عليه بقوله: **﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾** أي إلا هو مالكٌ لها قادرٌ عليها يُصرِّفها كيف يشاء غيرَ مستعْصيةٍ عليه فإن الأخذَ بالناصية تمثيلٌ لذلك **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾** تعليلٌ لما يدل عليه التوكلُ من عدم قدرتِهم على إضراره أي هو على الحقّ والعدلِ فلا يكاد يسلِّطكم عليّ إذ لا يَضيعُ عنده معتصِمٌ ولا يفتاتُ عليه ظالمٌ. والاقتصارُ على إضافة الربِّ إلى نفسه إما بطريق الاكتفاءِ لظهور المرادِ وإما لأن فائدةَ كونِه تعالى مالكًا لهم أيضًا راجعةٌ إليه عليه الصلاة والسلام **﴿فإن تولوا﴾** أي تتولَّوا بحذف إحدى التاءين أي أن تستمرّوا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض **﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾** أي لم أعاتَبْ على تفريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن بلّغتكم الحقَّ فأبيتم إلا التكذيبَ والجحود **﴿ويستخلف ربي قومًا غيركم﴾** استئنافٌ بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف في ديارهم وأموالِهم قومًا آخرين، أو عطفٌ على الجواب بالفاء، ويؤيده قراءةُ ابنِ مسعود رضي الله عنه بالجزْم عطفًا على الموضع[١]، كأنه قيل: فإن تولّوا يعذُرْني ويُهلكْكم ويستخلفْ مكانكم آخرين، وفي اقتصار إضافةِ الربِّ عليه عليه السلام رمزٌ إلى اللطف به والتدميرِ للمخاطبين.

﴿ولا تضرونه﴾ بتولّيكم **﴿شيئًا﴾** من الضرر لاستحالة ذلك عليه، ومن جَزَمَ (ويستخلفْ) أسقطت منه النون[٢] **﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾** أي رقيبٌ مهيمنٌ فلا تخفى عليه أعمالُكم فيجازيكم بحسبها أو حافظٌ مستولٍ على كل شيء فكيف يضُرّه شيءٌ وهو الحافظُ للكل **﴿ولما جاء أمرنا﴾** أي نزل عذابُنا، وفي التعبير عنه بالأمر مضافًا إلى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويلِ أو ورد أمرُنا بالعذاب **﴿نجينا هودًا والذين آمنوا معه﴾** وكانوا أربعةَ آلافٍ

---

(١) قرأ بها أيضًا: حفص، وهبيرة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٣٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٥٣).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٣٤).

﴿برحمة﴾ عظيمةٍ كائنةٍ [لهم][1] **﴿منا﴾** وهي الإيمانُ الذي أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهدايةِ إليه **﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾** أي كانت تلك التنجيةُ تنجيةً من عذاب غليظ وهي السَّمومُ التي كانت تدخل أنوفَ الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم إرْبًا إرْبًا، وقيل: أريد بالثانية التنجيةُ من عذاب الآخرةِ ولا عذابَ أغلظُ وأشدُّ، وهذه التنجيةُ وإن لم تكن مقيدةً بمجيء الأمرِ لكن جيء بها تكملةً للنعمة عليهم وتعريضًا بأن المهلَكين كما عُذّبوا في الدنيا بالسَّموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ **﴿وتلك عاد﴾** أُنّث اسمُ الإشارةِ باعتبار القبيلةِ أو لأن الإشارةَ إلى قبورهم وآثارِهم **﴿جحدوا بآيات ربهم﴾** كفروا بها بعد ما استيقنوها **﴿وعصوا رسله﴾** جمعَ الرسلَ مع أنه لم يرسِلْ إليهم غيرَ هودٍ عليه الصلاة والسلام تفظيعًا لحالهم وإظهارًا لكمال كفرِهم وعنادِهم ببيان أن عصيانَهم له عليه الصلاة والسلام عصيانٌ لجميع الرسلِ السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتِهم على التوحيد ﴿لا نفرِّق بين أحد من رسله﴾ [البقرة، الآية ٢٨٥] فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هودٌ وغيرُه من الأنبياء عليهم السلام، وفيه زيادةُ ملاءمةٍ لما تقدم من جميع الآياتِ وما تأخر من قوله: **﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾** من كبرائهم ورؤسائِهم الدعاةِ إلى الضلال وإلى تكذيب الرسلِ فكأنه قيل: عصَوا كلَّ رسولٍ واتبعوا أمرَ كلِّ جبارٍ، وهذا الوصفُ ليس كما سبق من جحود الآياتِ وعصيانِ الرسلِ في الشمول لكل فردٍ فردٌ منهم فإن الاتباعَ للأمر من أوصاف الأسافلِ دون الرؤساءِ، وعنيدٌ فعيلٌ من عنَد عِنْدًا وعنَدًا إذا طغى والمعنى عصَوا مَنْ دعاهم إلى الهدى وأطاعوا من حداهم إلى الردى.

﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ إبعادًا عن الرحمة وعن كل خير، أي جُعلت اللعنةُ لازمةً لهم، وعبّر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهبٍ بل تدور معهم حيثما داروا، ولوقوعه في صحبة اتباعهم رؤساءهم يعني أنهم لما اتّبعوهم أُتبعوا ذلك جزاءً لصنيعهم جزاءً وفاقًا **﴿ويوم القيامة﴾** أي أُتبعوا يوم القيامة أيضًا لعنةً وهي عذابُ النارِ المخلد حُذفت لدِلالة الأولى عليها، وللإيذان بكون كلٍّ من اللعنتين نوعًا برأسه لم تُجمعا في قرن واحد بأن يقال: وأتبعوا في هذه الدنيا ويومَ القيامة لعنةً كما في قوله تعالى: ﴿واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة﴾ [الأعراف، الآية ١٥٦] إيذانًا باختلاف نوعي الحسنتين، فإن المرادَ بالحسنة الدنيويةِ نحوُ الصحةِ والكفافِ والتوفيقِ للخير وبالحسنة الأخروية الثوابُ والرحمةُ **﴿ألا إن عادًا كفروا**

---

(١) سقط في خ.

ربهم﴾ أي بربهم أو نعمةَ ربهم حملًا له على نقيضه الذي هو الشكرُ، أو جحدوه ﴿ألا بعدًا لعاد﴾ دعاءٌ عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أيَّ هلاك، تسجيلًا عليهم باستحقاق الهلاكِ واستيجابِ الدمار، وتكريرُ حرفِ التنبيهِ وإعادةُ عادٍ للمبالغة في تفظيع حالِهم والحثِّ على الاعتبار بقصتهم ﴿قوم هود﴾ عطفُ بيانٍ لعاد فائدتُه التمييزُ عن عادِ إرمَ، والإيماءُ إلى أن استحقاقَهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هودٍ عليه الصلاة والسلام وهم قومُه.

صالح عليه السلام

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا﴾ عطفٌ على ما سبق من قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودًا﴾ وثمودُ قبيلةٌ من العرب سُمّوا باسم أبيهم الأكبرِ ثمودَ بنِ عابر بن إرمَ ابنِ سام وقيل: إنما سُمّوا بذلك لقلة مائِهم من الثَّمْد وهو الماءُ القليل، وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابنُ عبيدِ بنِ آسف بنِ ماشج بن عبيدِ بن جادر بن ثمودَ، ولما كان الإخبارُ بإرساله إليهم مظِنّةً لأن يسأل ويقال: ماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئنافِ: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي وحدَه وعلل ذلك بقوله: ﴿ما لكم من إلٰه غيرُه﴾ ثم زيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيدِ ويحثّهم على زيادة الإخلاصِ فيه بقوله: ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي هو كوّنكم وخلقَكم منها لا غيرُه، قصرُ قلبٍ أو قصرُ إفرادٍ فإن خلق آدمَ عليه الصلاة والسلام منها خلقٌ لجميع أفرادِ البشر منها لما مر مرارًا من أن خِلقتَه عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورةً على نفسه بل كانت أُنموذجًا منطويًا على خلق جميعِ ذرياتِه التي ستوجد إلى يوم القيامة انطواءً إجماليا، وقيل: إن خلقَ آدمَ عليه الصلاة والسلام وإنشاءَ موادِّ النطَفِ التي منها خُلق نسلُه من التراب إنشاءٌ لجميع الخلقِ من الأرض فتدبر.

﴿واستعمركم﴾ من العمر أي عمّركم واستبقاكم ﴿فيها﴾ أو من العِمارة أي أقدركم على عِمارتها أو أمركم بها.

وقيل: هو من العُمرىٰ بمعنى أعمرَكم فيها ديارَكم ويرثها منكم بعد انصرامِ أعمارِكم أو جعلكم معمِّرين ديارَكم تسكُنونها مدةَ عمرِكم ثم تتركونها لمثلكم ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ فإن ما فُصل من فنون الإحسانِ داعٍ إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبةِ عما كانوا يباشرونه من القبائح، وقد زيد في بيان ما يوجب ذلك فقيل: ﴿إن ربي قريب﴾ أي قريبُ الرحمةِ كقوله تعالى: ﴿إن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿مجيب﴾ لمن دعاه وسأله، وقد روعيَ في النظمِ الكريمِ نكتةٌ حيث قُدّم ذكرُ العلةِ الباعثةِ المتقدمةِ على الأمر بالاستغفار والتوبةِ وأُخّر عنه ذكرُ الغائيةِ المتأخرةِ عنهما في الوجود أعني الإجابة ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا﴾ أي كنا نرجو منك لِما كنا نرى منك من دلائل السَّداد ومخايلِ الرشاد أن تكون لنا سيدًا ومستشارًا في الأمور.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فاضلًا خيّرًا نقدّمك على جميعنا. وقيل: كنا نرجو أن تدخُلَ في ديننا وتوافقَنا على ما نحن عليه[1]. ﴿قبل هذا﴾ الذي باشرتَه من الدعوة إلى التوحيد وتركِ عبادةِ الآلهة، أو قبل هذا الوقتِ فكأنهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوةِ إلى الحق فالآن قد انصرَم عنك رجاؤُنا. وقرأ طلحةُ (مرجُوءًا)[2] بالمد والهمزة ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ أي عبَدوه، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لحكاية الحالِ الماضية ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ من التوحيد وتركِ عبادةِ الأوثانِ وغيرِ ذلك من الاستغفار والتوبة ﴿مريب﴾ أي مُوقعٌ في الريبة، مِنْ أرابه أي أوقعه في الريبة، أي قلقِ النفسِ وانتفاءِ الطمأنينة أو من أراب إذا كان ذا رِيبةٍ، وأيَّهما كان فالإسنادُ مجازيٌّ والتنوينُ فيه وفي (شك) للتفخيم.

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أي أخبروني ﴿إن كنت﴾ في الحقيقة ﴿على بينة﴾ أي حجةٍ ظاهرةٍ وبرهانٍ وبصيرة ﴿من ربي﴾ مالكي ومتولّي أمري ﴿وآتاني منه﴾ من جهته ﴿رحمة﴾ نبوّةً، وهذه الأمورُ وإن كانت محقّقة الوقوعِ لكنها صُدّرت بكلمة الشك اعتبارًا لحال المخاطبين ورعايةً لحسن المحاوَرةِ لاستنزالهم عن المكابرة ﴿فمن ينصرني من الله﴾ أي ينجّيني من عذابه، والعدولُ إلى الإظهار لزيادة التهويلِ والفاءُ لترتيب إنكارِ النُّصرةِ على ما سبق من إيتاء النبوةِ وكونِه على بينة من ربه على تقدير العصيانِ حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إن عصيته﴾ أي بالمساهلة في تبليغ الرسالةِ والمجاراةِ معكم فيما تأتون وتذرون فإن العصيانَ ممنْ ذلك شأنُه أبعدُ والمؤاخذةَ عليه ألزمُ وإنكارَ نُصرتِه أدخل ﴿فما تزيدونني﴾ إذن باستتباعكم إيايَ كما ينبئ عنه قولُهم: ﴿قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا﴾ [هود، الآية ٦٢] أي لا تفيدونني إذ لم يكن فيه أصلُ الخُسران حتى يزيدوه ﴿غير تخسير﴾ أي غيرَ أن تجعلوني خاسرًا بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى أو فما تزيدونني بما تقولون غيرَ أن أنسُبَكم إلى الخسران

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٨٥).
(٢) ينظر: الألوسي (١٢/ ٨٩).

وأقولَ لكم: إنكم الخاسرون، فالزيادةُ على معناه، والفاءُ لترتيب عدمِ الزيادةِ على انتفاء الناصِرِ المفهومِ من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة السلام على بينة من ربه وإيتائِه النبوةَ.

﴿**ويا قوم هذه ناقة الله**﴾ الإضافةُ للتشريف والتنبيهِ على أنها مفارقةٌ لسائر ما يجانسها من حيث الخِلْقةُ ومن حيث الخلق ﴿**لكم آيةً**﴾ معجزةً دالّةً على صدق نبوّتي وهي حالٌ من ناقةُ الله والعاملُ ما في هذه من معنى الفعلِ ولكم حالٌ من آيةً متقدمةٌ عليها لكونها نكرةً، ولو تأخرت لكانت صفةً لها ويجوز أن يكون ناقةُ الله بدلًا من هذه أو عطفَ بيان ولكم خبرًا وعاملًا في آية ﴿**فذروها**﴾ خلّوها وشأنَها ﴿**تأكل في أرض الله**﴾ ترعىٰ نباتَها وتشرب ماءَها، وإضافةُ الأرضِ إلى الله تعالى لتربية استحقاقِها لذلك وتعليلِ الأمرِ بتركها وشأنَها ﴿**ولا تمسوها بسوء**﴾ بولغ في النهي عن التعرّض لها بما يضرها حيث نُهِيَ عن المس الذي هو من مبادئ الإصابةِ ونُكر السوءِ أي لا تضرِبوها ولا تطرُدوها ولا تقرَبوها بشيء من السوء فضلًا عن عَقرها وقتلِها ﴿**فيأخذكم عذاب قريب**﴾ أي قريبُ النزول.

ورُوي أنهم طلبوا منه أن يُخرج من صخرة تسمّى الكائبةَ ناقةً عُشَراءَ مخترِجةً جوفاءَ وبراءَ[1]، وقالوا: إن فعلتَ ذلك صدقناك فأخذ صالحٌ عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقَهم: لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُنّ[2]؟ فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربَّه فتمخَّضت الصخرةُ تمخّضَ النَّتوجِ بولدها فانصدعت عن ناقة عُشراءَ كما وصفوا وهم ينظُرون ثم أنتجت ولدًا مثلَها في العِظَم فآمن به جُندُعُ بنُ عمْروٍ في جماعة، ومَنَع الباقين من الإيمان دوأبُ بنُ عمرو والحُبابُ صاحبُ أوثانهم وربابُ كاهنُهم فمكثت الناقةُ مع ولدها ترعىٰ الشجرَ وتردُ الماءَ غِبًّا فما ترفع رأسَها من البئر حتى تشربَ كلَّ ما فيها ثم تتفحّج فيحلُبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدّخرون وكانت تصيِّف بظهر الوادي فتهرُب منها أنعامُهم إلى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك.

﴿**فعقروها**﴾ قيل: زَيَّنت عقرَها لهم عُنيزةُ أمُّ غَنَم وصدَقةُ بنتُ المختارِ فعقروها واقتسموا لحمها فرقِيَ سَقْبُها[3] جبلًا اسمه قارة فرَغا ثلاثًا، فقال صالح لهم: أدرِكوا

---

(١) العشراء من النوق: ما مضى على حملها عشرة أشهر. والمخترجة: ذات لونين. والجوفاء: عظيمة الجوف. والوبراء: كثيرة الوبر.

(٢) في خ: ليؤمنن.

(٣) سقبها: ولدها.

الفصيلَ عسى أن يرفعَ عنكم العذاب فلم يقدِروا عليه وانفجرت الصخرةُ بعد رغائِه فدخلها ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا﴾ أي عيشوا ﴿في داركم﴾ أي في منازلكم أو في الدنيا ﴿ثلاثة أيام﴾ قيل: قال لهم: تصبح وجوهُكم غدًا مصفرّةً وبعد غدٍ مُحمرَّةً واليومَ الثالثَ مُسودةً ثم يصبّحكم العذابُ ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما يدل عليه الأمرُ بالتمتع ثلاثةَ أيامٍ من نزول العذاب عَقيبَها، والمرادُ بما فيه من معنى البُعد تفخيمُه ﴿وعد غير مكذوب﴾ أي غيرُ مكذوبٍ فيه فحُذف الجارُّ للاتساع المشهور كقوله: [الطويل]

ويومٍ شهِدناه سُلَيْمًا وعامرًا ....[1]

أو غيرُ مكذوب، كأن الواعدَ قال له: أفي بك فإن وفىٰ به صدّقه وإلا كذّبه، أو وعدٌ غيرُ كذِبٍ على أنه مصدرٌ كالمجلود والمعقول ﴿فلما جَاءَ أمرنا﴾ أي عذابُنا أو أمرُنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل ﴿نجينا صالحًا والذين آمنوا معه﴾ متعلقٌ بـ(نجينا) أو بـ (آمنوا) ﴿برحمة﴾ بسبب رحمةٍ عظيمة ﴿منا﴾ وهي بالنسبة إلى صالح النبوةُ وإلى المؤمنين الإيمانُ كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفةٍ منا ﴿ومن خزي يومِئذ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومِئذٍ، وهو هلاكُهم بالصيحة كقوله تعالى: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود، الآية ٥٨] على معنى أنه كانت تلك التنجيةُ تنجيةً من خزي يومئذ، أي من ذِلته ومهانتِه أو ذلِّهم وفضيحتِهم يومَ القيامة كما فسر به العذابُ الغليظُ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يومِ القيامةِ بعد تنجيتِنا إياهم من عذاب الدنيا، وعن نافع بالفتح[2] على اكتساب المضافِ البناءَ من المضاف إليه هنا وفي

---

(١) صدر بيت وعجزه:

.... قليلٍ سوى الطعن النّهالِ نوافِلُهْ

والبيت لرجل من بني عامر في الدرر (٣/ ٩٦)، وشرح المفصل (٢/ ٤٦)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (١/ ٣٨)، وخزانة الأدب (٧/ ١٨١)، ولسان العرب (جزي)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (٨٨)، ومغني اللبيب (٢/ ٥٠٣)، والمقتضب (٣/ ١٠٥)، والمقرب (١/ ١٤٧)، وهمع الهوامع (١/ ٢٠٣).

(٢) قرأ بها أيضًا: الكسائي، وعاصم، والشنبوذي، وشعبة، وأبو جعفر، والأعشى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٩٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٣)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٠)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ٦١)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٩)، والكشف للقيسي (١/ ٥٣٢)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٧١)، والمعاني للأخفش (١٨/ ٢١).

المعارج في قوله تعالى: ﴿من عذاب يومِئذٍ﴾ [المعارج، الآية ١١] وقرئ بالتنوين ونصبِ يومئذ[١] ﴿إن ربك﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ﴿هو القوي العزيز﴾ القادر على كل شيء والغالبُ عليه لا غيرُه. ولكون الإخبارِ بتنجية الأولياءِ، لا سيما عند الإنباءِ بحلول العذابِ، أهمَّ ذكَرَها أولًا ثم أخبر بهلاك الأعداءِ فقال: ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ عدل عن المضمر إلى المظهر تسجيلًا عليهم بالظلم وإشعارًا بعلّيته لنزول العذابِ بهم ﴿الصيحة﴾ أي صيحةُ جبريلَ عليه الصلاة والسلام، وقيل: أتتهم من السماء صيحةٌ فيها صوتُ [كلِّ صاعقةٍ وصوتُ][٢] كلِّ شيء في الأرض فتقطعت قلوبُهم في صدورهم وفي سورة الأعراف: ﴿فأخذتهم الرجفةُ﴾ [الأعراف، الآية ٧٨ و٩١] ولعلها وقعت عَقيبَ الصيحةِ المستتبِعةِ لتموُّج الهواء ﴿فأصبحوا﴾ أي صاروا ﴿في ديارهم﴾ أي بلادهم أو مساكنِهم ﴿جاثمين﴾ هامدين موتىٰ لا يتحركون.

والمرادُ كونُهم كذلك عند ابتداءِ نزولِ العذابِ بهم من غير اضطرابٍ وحركةٍ كما يكون ذلك عند الموتِ المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذِ وسرعتِه، اللهم إنا نعوذ بك من حلول غضبِك.

قيل: لما رأوا العلاماتِ التي بيّنها صالحٌ من اصفرار وجوهِهم واحمرارِها واسودادِها عمَدوا إلى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوةُ اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنّطوا وتكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحةُ فتقطعت قلوبُهم فهلكوا ﴿كأن لم يغنَوا﴾ أي كأنهم لم يقيموا ﴿فيها﴾ في بلادهم أو في مساكنهم، وهو في موقع الحالِ أي أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجَدْ ولم يُقِمْ في مقام قطُّ ﴿ألا إن ثمود﴾ وُضع موضعَ الضمير لزيادة البيانِ، ونوّنه أبو بكرٍ[٣] هنا وفي النجم وقرأ حفصٌ هنا وفي الفرقان والعنكبوت بغير تنوين ﴿كفروا ربهم﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلومًا مما سبق من أحوالهم تقبيحًا لحالهم وتعليلًا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاكِ في قوله تعالى: ﴿ألا بعدًا لثمود﴾ وقرأ

---

(١) قرأ بها: طلحة، وأبان بن تغلب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٩٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٠).

(٢) سقط في خ.

(٣) نَوَّنَه أيضًا: ابن كثير، وابن عامر، أبو عمرو، ونافع، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٨)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٢)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٧١).

الكسائي بالتنوين[١].

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

إبراهيم ولوط عليهما السلام

﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم**﴾ وهم الملائكةُ. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم جبريلُ وملكانِ. وقيل: هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام. وقال الضحاك: كانوا تسعةً، وعن محمدبن كعب جبريلُ ومعه سبعةٌ. وعن السدي أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم. وعن مقاتل كانوا اثني عشر ملَكًا وإنما أسند إليهم مطلقُ المجيءِ بالبشرى دون الإرسالِ لأنهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوطٍ لقوله تعالى: ﴿إنا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾ [هود، الآية ٧٠]، وإنما جاؤوه لداعية البُشرى ولما كان المقصودُ في السورة الكريمةِ ذكرَ سوءِ صنيعِ

---

(١) قرأ به أيضًا: الأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٣)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٢)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٧٢).

الأممِ السالفةِ مع الرسل المرسلةِ إليهم ولحوقِ العذابِ بهم بسبب ذلك ولم يكن جميعُ قومِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذابُ بل إنما لحِق بقوم لوطٍ منهم خاصةً غيّر الأسلوبُ المطردُ فيما سبق من قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودًا﴾ [الأعراف، الآية ٦٥] ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا﴾ [الأعراف، الآية ٧٣] ثم رُجع إليه حيث قيل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا﴾ [الأعراف، الآية ٨٥] **﴿بالبشرى﴾** أي ملتبسين بها قيل: هي مطلقُ البشرى المنتظمةِ للبشارة بالولد من سارَةَ لقوله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحقَ﴾ [هود، الآية ٧١] الآية، وقولِه تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ [الصافات، الآية ١٠١] وقوله: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ [الذاريات:٢٨] وللبشارة بعدم لحوقِ الضررِ به لقوله تعالى: ﴿فلما ذهب عن إبراهيمَ الروْعُ وجاءتْه البشرى﴾ [الذرايات، الآية ٢٨] لظهور تفرّعِ المجادلةِ على مجيئها كما سيأتي وقيل: هي البشارةُ بهلاك قوم لوطٍ ويأباه مجادلتُه عليه الصلاة والسلام في شأنهم، والأظهرُ أنها البشارةُ بالولد وستعرِف سرَّ تفرُّعِ المجادلةِ على ذلك ولما كان الإخبارُ بمجيئهم بالبشرى مظِنةً لسؤال السامِع بأنهم ما قالوا أجيب بأنهم **﴿قالوا سلامًا﴾** أي سلّمنا أو نسلّم عليك سلامًا ويجوز أن يكون نصبُه بقالوا أي قالوا قولًا ذا سلامٍ أو ذكروا سلامًا **﴿قال سلام﴾** أي عليكم سلامٌ أو سلامٌ عليكم حياهم بأحسن من تحيّتهم وقرئ سِلْمٌ[(١)] كحرم في حرام، وقرأ ابن أبي عبلة (قال: سلامًا) وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما **﴿فما لبث﴾** أي إبراهيم **﴿أن جاء بعجلٍ﴾** أي في المجيء به أو ما لبث مجيئَه بعجل **﴿حنيذ﴾** أي مشويٌّ بالرَّضْف[(٢)] في الأُخدود وقيل: سمين يقطُر وَدَكُه لقوله: بعجل سمين من حنذت الفرس إذا عرقته بالجِلال.

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ لا يمدون إليه أيديَهم للأكل **﴿نكرهم﴾** أي أنكرهم يقال: نكِرَه [وأنكره][(٣)] واستنكره بمعنى، وإنما أنكرهم لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيفٌ ولم يأكُلْ من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير، وقد روي أنهم كانوا ينكُتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل إليه أيديهم وهذا الإنكارُ منه عليه الصلاة

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٨)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٤)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١).

(٢) الرَّضْف: الحجارة المحماة بالنار أو الشمس.

(٣) سقط في خ.

والسلام راجعٌ إلى فعلهم المذكور وأما إنكارُه المتعلقُ بأنفسهم فلا تعلقَ له برؤية عدمِ أكلِهم، وإنما وقع ذلك عند رؤيتِه لهم لعدم كونِهم من جنس ما كان يعهده من الناس، ألا يُرى إلى قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿سلامٌ قومٌ منْكَرون﴾ [الذاريات: ٢٦]. ﴿**وأوجس منهم**﴾ أي أحسّ أو أضمَر من جهتهم ﴿**خيفة**﴾ لما ظُنّ أن نزولَهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومِه، وإنما أُخّر المفعولُ الصريحُ على الظرف، لأن المرادَ الإخبارُ بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئًا هو الخيفةُ لا أنه أوجس الخِيفةَ من جهتهم لا من جهة غيرِهم، وتحقيقُه أن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ يوجب ترقّبَ النفسِ إليه فيتمكن عند ورودِه عليها فضل تمكن.

﴿**قالوا لا تخف**﴾ ما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايلَ الخوفِ إزالةً له منه بل بعد إظهارِه عليه الصلاة والسلام له قال تعالى في سورة الحِجر: ﴿قال إنا منكم وجلون﴾[الحجر: ٥٢] ولم يُذكر ذلك هاهنا اكتفاءً بذلك ﴿**إنا أرسلنا**﴾ ظاهرُه أنه استئنافٌ في معنى التعليلِ للنهيِ المذكورِ كما أن قولَه تعالى: ﴿إنا نبشرك﴾ [الحجر، الآية ٥٣] تعليلٌ لذلك فإن إرسالَهم إلى قوم آخرين يوجب أمنَهم من الخوف أي أرسلنا بالعذاب ﴿**إلى قوم لوط**﴾ خاصةً إلا أنه ليس كذلك فإن قوله تعالى: ﴿قال فما خطبُكم أيها المرسلون قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ [الحجر: ٥٧ و٥٨] صريحٌ في أنهم قالوه جوابًا عن سؤاله عليه الصلاة والسّلام، وقد أُوجز الكلامُ اكتفاء بذلك ﴿**وامرأته قائمة**﴾ وراءَ الستر بحيث تسمع محاورتَهم أو على رؤوسهم للخدمة حسبما هو المعتادُ، والجملةُ حالٌ من ضمير قالوا أي قالوه وهي قائمةٌ تسمع مقالتَهم ﴿**فضحكت**﴾ سرورًا بزوال الخوفِ أو بهلاك أهلِ الفساد أو بهما جميعًا، وقيل: بوقوع الأمرِ حسبما كانت تقولُ فيما سلف، فإنها كانت تقولُ لإبراهيمَ اضمُمْ إليك لوطًا فإني أرى أن العذابَ نازلٌ بهؤلاء القوم، وقيل: ضحكت حاضَتْ، ومنه ضحِكت الشجرةُ إذا سال صمغُها وهو بعيد، وقرئ بفتح الحاء[1] ﴿**فبشرناها بإسحقَ**﴾ أي عقّبنا سرورَها بسرور أتمَّ منه على ألسنة رسلِنا ﴿**ومن وراء إسحقَ يعقوب**﴾ بالنصب على أنه مفعولٌ لما دل عليه قولُه: (بشرناها) أي ووهبنا لها من وراء إسحاقَ يعقوبَ، وقرئ بالرفع[2] على

---

(١) قرأ بها: محمد بن زياد الأعرابي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٤٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٦٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٣).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٠١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٣) والحجة لابن خالويه ص (١٨٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥١)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٧٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٥٥).

الابتداء خبرُه الظرف أي من بعد إسحاقَ يعقوبُ مولودٌ أو موجودٌ، وكلا الاسمين داخلٌ في البشارة كيحيى أو واقعٌ في الحكاية بعد أن وُلدا فسمِّيا بذلك، وتوجيهُ البِشارة هاهنا إليها مع أن الأصلَ في ذلك إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام وقد وُجِّهت إليه حيث قيل: ﴿فبشرناه بغُلام حليم﴾ [الصافات: ١٠١] ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ [الذرايات: ٢٨] للإيذان بأن ما بُشّر به يكون منهما ولكونها عقيمةً حريصةً على الولد.

﴿قالت﴾ استئنافٌ وردَ جوابًا عن سؤال مَنْ سأل وقال: فما فعلت إذ بُشِّرت بذلك؟ فقيل: قالت: ﴿يا ويلتا﴾ أصلُ الويلِ الخزيُ ثم شاع في كل أمرٍ فظيع، والألفُ مُبْدلةٌ من ياء الإضافةِ كما في (يا لهفا) و(يا عجَبا)، وقرأ الحسن على الأصل[1]، وأمالها أبو عمرو[2]، وعاصمٌ، في رواية، ومعناه يا ويلتي احضُري فهذا أوانُ حضورِك وقيل: هي ألفُ النُّدبةِ ويوقف عليها بهاء السكْت.

﴿أألد وأنا عجوز﴾ بنتُ تسعين أو تسعٍ وتسعين سنةً ﴿وهذا﴾ الذي تشاهدونه ﴿بعلي﴾ أي زوجي، وأصلُ البعلِ القائمُ بالأمر ﴿شيخًا﴾ وكان ابنَ مائةٍ وعشرين سنةً، ونصبُه على الحال والعاملُ معنى الإشارةِ وقرئ بالرفع[3] على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هو شيخٌ أو خبرٌ بعد خبرٍ، أو هو الخبرُ و(بعلي) بدلٌ من اسمِ الإشارةِ أو بيانٌ له، وكلتا الجملتين وقعت حالًا من الضمير في (أألد) لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليلِه، أي أألد وكلانا على حالة منافيةٍ لذلك، وإنما قُدّمت بيانُ حالِها على بيان حالِه عليه الصلاة والسلام لأن مُباينةَ حالِها لما ذُكر من الولادة أكثرُ، إذ ربما يولد للشيوخ من الشوابِّ، أما العجائزُ داؤُهن عَقامٌ ولأن البشارةَ متوجهةٌ إليها صريحًا، ولأن العكسَ في البيان ربما يُوهم من أول الأمر نسبةَ المانِع من الولادة إلى جانب إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور، واقتصارُها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرضٍ لحال النافلةِ لأنها المستبعَد، وأما ولادةُ ولدِها فلا يتعلق

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٤٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨١).
(٢) أمالها أيضًا: الأزرق، والدوري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٨).
(٣) قرأ بها: المطوعي، وابن مسعود، والأعمش، وأبي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٠٢)، الإملاء للعكبري (٢/ ٢٣)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٤)، والتبيان للطوسي (٦/ ٣٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٧٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٧٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٤).

بها استبعادٌ ﴿إن هذا﴾ أي ما ذُكر من حصول الولد من هَرِمَين مثلِنا ﴿لشيء عجيب﴾ بالنسبة إلى سنة الله تعالى المسلوكةِ فيما بين عباده، وهذه الجملةُ لتعليل الاستبعادِ بالنسبة إلى قُدرته سبحانه وتعالى ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي قدرتِه وحكمتِه أو تكوينه أو شأنِه! أنكروا عليها تعجبيًا من ذلك لأنها كانت ناشئةً في بيت النبوة ومهبِطِ الوحي والآيات، ومظهَرِ المعجزة والأمورِ الخارقةِ للعادات فكان حقُّها أن تتوفرَ ولا يزدهِيَها ما يزدهي سائرَ النساء من أمثال هذه الخوارقِ من ألطاف الله تعالى الخفيةِ ولطائفِ صنعِه الفائضةِ على كل أحدٍ مما يتعلق بذلك مشيئتُه الأزليةُ لا سيما على أهل بيتِ النبوة الذين ليست مرتبتُهم عند الله سبحانه كمراتب سائرِ الناس وأن تسبحَ الله تعالى وتحمَدَه وتمجِّدَه وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿رحمة الله﴾ التي وسِعتْ كلَّ شيءٍ واستتبعت كلَّ خير، وإنما وُضع المظهرُ موضعَ المضمر لزيادة تشريفِها ﴿وبركاته﴾ أي خيراتُه الناميةُ المتكاثرةُ في كل بابٍ التي من جملتها هبةُ الأولادِ، وقيل: الرحمةُ النبوةُ والبركاتُ الأسباطُ من بني إسرائيلَ لأن الأنبياءَ منهم وكلُّهم من ولد إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام ﴿عليكم أهل البيت﴾ نصبَ على المدح أو الاختصاصِ لأنهم أهلُ بيتِ خليلِ الرحمٰنِ، وصرفُ الخطاب من صيغة الواحدة إلى جمع المذكر لتعميم حكمِه لإبراهيمَ عليه الصلاة والسلام أيضًا ليكون جوابُهم لها جوابًا له أيضًا إن خطر بباله مثلُ ما خطر ببالها، والجملة كلامٌ مستأنَفٌ عُلّل به إنكارُ تعجُّبها كأنه قيل: ليس المقامُ مقامَ التعجيبِ[1] فإن الله تعالى على كل شيء قديرٌ ولستم يا أهل بيتِ النبوةِ والكرامةِ والزُّلفىٰ كسائر الطوائفِ بل رحمتُه المستتبِعةُ لكل خيرٍ الواسعةُ لكل شيء، وبركاتُه أي خيراتُه الناميةُ الفائضةُ منه بواسطة تلك الرحمةِ الواسعةِ لازمةٌ لكم لا تفارقكم ﴿إنه حميد﴾ فاعلٌ ما يستوجب الحمدَ ﴿مجيد﴾ كثيرُ الخير والإحسان إلى عباده. والجملةُ لتعليل ما سبق من قوله: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم﴾ [هود، الآية ٧٣].

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروعُ﴾ أي ما أوجس منهم من الخِيفة واطمأن قلبُه بعِرفانهم وعرفانِ سببِ مجيئِهم، والفاءُ لربط بعض أحوالِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ببعضِ غِبَّ انفصالِها بما ليس بأجنبي من كل وجهٍ بل له مدخلٌ تامٌّ في السباق والسياق، وتأخيرُ الفاعلِ عن الظرف لأنه مصبُّ الفائدةِ، فإن بتأخير ما حقُّه التقديمُ تبقى النفسُ منتظرةً إلى وروده فيتمكن فيها عند ورودِه إليها فضل

(١) في خ: التعجب.

تمكّنٍ ﴿وجاءته البشرى﴾ إن فُسِّرت البُشرى بقولهم: (لا تخف) فسببهُ ذهاب الخوفِ ومجيء السرور للمجادلة المدلولِ عليها بقوله تعالى: ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ أي جادل رسلَنا في شأنهم. وعُدل إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار صورتِها أو طفِقَ يجادلنا ظاهرةٌ، وأما إن فُسّرت ببشارة الولدِ أو بما يعُمها فلعل سببيّتَها لها من حيث إنها تفيد زيادةَ اطمئنانِ قلبه بسلامته وسلامةِ أهلهِ كافةً، ومجادلتُه إياهم أنه قال لهم حين قالوا له: إنا مُهلكو أهلِ هذه القريةِ: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلًا من المؤمنين أتُهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرةَ قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجلٌ مسلمٌ أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: إن فيها لوطًا قالوا: (نحن أعلمُ بمن فيها لنُنجِّينه وأهلَه).

إن قيل: المتبادرُ من هذا الكلام أن يكون إبراهيمُ عليه السلام قد علِم أنهم مرسَلون لإهلاك قوم لوطٍ قبل ذهابِ الرَّوع عن نفسه ولكن لم يقدِر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأن نفسِه فلما ذهب عنه الروعُ فرَغ لها مع أن ذهابَ الروعِ إنما هو قبل العِلم بذلك لقوله تعالى: ﴿قالوا لا تخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾ [هود، الآية ٧٠] قلنا: كان لوطٌ عليه السلام على شريعة إبراهيمَ عليه السلام وقومُه مكلّفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمتِه التي من جملتهم قومُ لوط، ولا ريب في تقدم هذا الخوفِ على قولهم: لا تخف، وأما الذي علمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاصُ قومِ لوطٍ بالهلاك لا دخولُهم تحت العموم فتأملْ والله الموفق.

﴿إن إبراهيم لحليم﴾ غيرُ عَجولٍ على الانتقام ممن أساء إليه ﴿أواه﴾ كثيرُ التأوّه على الذنوب والتأسفِ على الناس ﴿منيب﴾ راجعٌ إلى الله تعالى والمقصودُ بتعداد صفاتِه الجميلةِ المذكورةِ بيانُ ما حَمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة.

﴿يا إبراهيم﴾ أي قالت الملائكةُ: يا إبراهيمُ ﴿أعرض عن هذا﴾ الجدالِ ﴿إنه﴾ أي الشأنَ ﴿قد جاء أمر ربك﴾ أي قَدَرُه الجاري على وفق قضائِه الأزليِّ الذي هو عبارةٌ عن الإرادة الأزليةِ والعنايةِ الإلٰهيةِ المقتضيةِ لنظام الموجوداتِ على ترتيب خاصٍّ حسب تعلُّقِها بالأشياء في أوقاتها، وهو المعبّر عنه بالقدر ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما.

﴿ولما جاءت رسلنا لوطًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: انطلَقوا من عند إبراهيمَ عليه السلام إلى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعةُ فراسخَ ودخلوا عليه في صور غِلمانٍ مُرْدٍ حسانِ الوجوه فلذلك ﴿سيء بهم﴾ أي ساءه مجيئُهم لظنه أنهم أناسٌ

فخاف أن يقصِدهم قومُه ويعجِزَ عن مدافعتهم، وقرأ نافعٌ وابن عامر، والكسائي وأبو عمرو: (سيء)[1] و(سيئت) بإشمام السينِ الضمَّ. روي أن الله تعالى قال للملائكة: «**لا تُهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ**[2] **أربعَ شهادات**» فلما مشى معهم منطلقًا بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمرُ هذه القريةِ؟ قالوا: وما أمرُها؟ قال: أشهد بالله إنها لشرُّ قريةٍ في الأرض عملًا، يقول ذلك أربعَ مراتٍ فدخلوا معه منزلَه ولم يعلم بذلك أحدٌ فخرجت امرأتُه فأخبرت به قومَها وقالت: إن في بيت لوطٍ رجالًا ما رأيتُ مثلَ وجوهِهم قط ﴿**وضاق بهم ذرعًا**﴾ أي ضاق بمكانهم صدرُه أو قلبُه أو وسعُه وطاقتُه وهو كنايةٌ عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروهِ والاحتيال فيه، وقيل: ضاقت نفسُه عن هذا الحادثِ، وذِكرُ الذرعِ مثلٌ وهو المساحة، وكأنه قدْرُ البدنِ مجازًا أي إن بدنَه ضاق قدرُه من احتمال ما وقع، وقيل: الذراعُ اسمٌ للجارحة من المِرْفق إلى الأنامل، والذرْعُ مدُّها، ومعنى ضيقِ الذرع في قوله تعالى: ﴿ضاق بهم ذرعًا﴾ قصرُها كما أن معنى سعتِها وبسطتها طولُها، ووجهُ التمثيلِ بذلك أن القصيرَ الذراعِ إذا مدها ليتناول ما يتناول الطويلُ الذراعِ تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه، فضُربَ مثلًا للذي قصُرت طاقتُه دون بلوغِ الأمر ﴿**وقال هذا يوم عصيب**﴾ شديدٌ، من عصَبه إذا شدّه.

﴿**وجاءه**﴾ أي لوطًا وهو في بيته مع أضيافه ﴿**قومه يهرعون إليه**﴾ أي يسرعون كأنما يُدفعون دفعًا لطلب الفاحشة من أضيافه، والجملةُ حالٌ من قومه وكذا قوله تعالى: ﴿**ومن قبلُ**﴾ أي من قبلِ هذا الوقت ﴿**كانوا يعملون السيئات**﴾ أي جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين في عمل السيئات فضَروا بها وتمرّنوا فيها حتى لم يبقَ عندهم قباحتُها ولذلك لم يستحيُوا مما فعلوا من مجيئهم مهرِعين مجاهرين ﴿**قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهرُ لكم**﴾ فتزوّجُوهن وكانوا يطلُبونهن من قبلُ ولا يُجيبهم لخبثهم وعدمِ كفاءتِهم لا لعدم مشروعيتِه فإن تزويجَ المسلماتِ من الكفار كان جائزًا وقد زوج النبيُّ عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عُتبةَ بنِ أبي لهبٍ، وأبي العاص بنِ الربيع قبل الوحي وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجَهما ابنتيه وأيا ما كان فقد أراد به وقايةَ ضيفِه وذلك غايةُ الكرم، وقيل: ما كان

---

(١) قرأ بالإشمام أيضًا: أبو جعفر، ورويس، وهشام، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٩)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥١)، والنشر لابن الجزري (٢/٢٠٨).

(٢) في ط: قوم لوط.

ذلك القولُ منه مُجرًى على الحقيقة من إرادة النكاحِ بل كان ذلك مبالغةً في التواضع لهم وإظهارًا لشدة امتعاضِه مما أرادوه عليه طمعًا في أن يستحيوا منه ويرِقّوا له إذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهورِ الأمر واستقرارِ العلم عنده وعندهم بأن لا مناكحةَ بينهم وهو الأنسبُ بقولهم: لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حق كما ستقف عليه ﴿فاتقوا الله﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم ﴿ولا تخزون في ضيفي﴾ أي لا تفضحوني في شأنهم فإن إخزاءَ ضيفِ الرجل وجارِه إخزاءٌ له أو لا تخجلوني من الخَزاية وهي الحياء ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ يهتدي إلى الحق الصريح ويرعوي عن الباطل القبيح.

﴿قالوا﴾ معرضين عما نصحهم به من الأمر بتقوى الله والنهي عن إخزائه مجيبين عن أول كلامه ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ مستشهدين بعلمه بذلك يعنون أنك قد علمتَ ألا سبيلَ إلى المناكحة بيننا وبينك وما عرْضُك إلا عرضٌ سابرِيّ[1] ولا مطمعَ لنا في ذلك ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ من إتيان الذُكرانِ، ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغي ﴿قال لو أن لي بكم قوةً﴾ أي لفعلتُ بكم ما فعلت وصنعتُ ما صنعت كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ أو قطعت به الأرضُ أو كُلِّم به الموتى﴾ [الرعد، الآية ٣١] ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ عطفٌ على (أن لي بكم) إلى آخره لما فيه من معنى الفعلِ أي لو قوِيتُ على دفعكم بنفسي أو أويت إلى ناصر عزيزٍ قويّ أتمنّع به عنكم، شَبّهه بركن الجبل في الشدة والمنعة. وروي عن النبي ﷺ: «رحِم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد»[2].

روي أنه عليه السلام أغلق بابَه دون أضيافِه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدارَ فلما رأت الملائكةُ ما على لوط من الكرب ﴿قالوا﴾ أي الرسل لمّا شاهدوا عجزَه عن مدافعة قومِه ﴿يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ بضرر ولا مكروهٍ فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريلُ عليه السلام ربَّه ربَّ العزة جل جلاله في عقوبتهم فأذِن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحَه وله جناحان وعليه وشاح من دُرّ منظوم وهو برّاقُ الثنايا فضرب بجناحه وجوهَهم

(١) عرضٌ سابريّ: ليس بمحقَّق. يقوله من يعرض عليه الشيء عرضاً لا يُبالغ فيه، أو لأنه يُرغَّب بحبه بأدنى عرض.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦٥) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿ركن شديد﴾، برقم (٣٣٧٢)، ومسلم (١/ ١٣٣) كتاب الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، برقم (٢٣٨/ ١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد».

فطمَس أعينَهم وأعماهم كما قال عز وعلا: ﴿فطمسنا أعينهم﴾ [القمر، الآية ٣٧] فصاروا لا يعرِفون الطريق فخرجوا وهم يقولون: النجاءَ فإن في بيت لوطٍ قومًا سحَرة ﴿فأسر بأهلك﴾ بالقطع، من الإسراء.

وقرأ ابن كثير، ونافع، بالوصل[(١)] حيث جاء في القرآن من السُّرى، والفاءُ لترتيب الأمر بالإسراءِ على الإخبار برسالتهم المؤذِنةِ بورود الأمرِ والنهي من جنابه عز وجل إليه عليه السلام ﴿بقِطْع من الليل﴾ في طائفة منه.

﴿ولا يلتفت منكم﴾ أي لا يتخلفْ أو لا ينظُرْ إلى ورائه ﴿أحد﴾ منك ومن أهلك، وإنما نُهوا عن ذلك ليجدّوا في السير فإن من يلتفتُ إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفةٍ أو لئلا يروا ما ينزل من العذاب فيرِقّوا لهم ﴿إلا امرأتك﴾ استثناءٌ من قوله تعالى: ﴿فأسر بأهلك﴾.

ويؤيده أنه قرئ (فأسرِ بأهلك بِقِطْع من الليل إلا امرأتَك)[(٢)]، وقرئ بالرفع[(٣)] على البدل من (أحدٌ)، فالالتفاتُ بمعنى التخلف، لا بمعنى النظر إلى الخَلف كي لا يلزمَ التناقضُ بين القراءتين المتواترتين فإن النصبَ يقتضي كونَه عليه السلام غيرَ مأمورٍ بالإسراء بها، والرفعَ كونَه مأمورًا بذلك، والاعتذارُ بأن مقتضى الرفع إنما هو مجردُ كونِها معهم وذلك لا يستدعي الأمرَ بالإسراء بها حتى يلزمَ المناقضةَ لجواز أن تسريَ هي بنفسها، كما يروى أنه عليه السلام لما أَسْرى بأهله تبِعَتْهم فلما سمعت هدّة العذابِ التفتت وقالت: يا قوماه فأدركها حجرٌ فقتلها وأن يسرِيَ بها عليه السلام من غير أمرٍ بذلك إذ موجبُ النصبِ إنما هو عدمُ الأمر بالإسراء بها لا النهيُ عن الإسراء بها حتى يكونَ عليه السلام بالإسراء بها مخالفًا للنهي، لا يجدي[(٤)] نفعًا لأن

---

(١) قرأ بها أيضًا: أبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٨)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٢)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٥٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٨٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤٧).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وأبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٤٨)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٤).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، وابن جماز.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٠٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٨) والتبيان للطوسي (٦/ ٤٢)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ٨٠).

(٤) جملة «لا يجدي» خبر «الاعتذار» الوارد قبل أسطر.

انصرافَ الاستثناءِ إلى الالتفات يستدعي بقاءَ الأهل على العموم فيكون الإسراءُ بها مأمورًا به قطعًا، وفي حمل الأهليةِ في إحدى القراءتين على الأهلية الدينية وفي الأخرى على النسَبية ، مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف ، كرٌّ على ما فُرّ منه من المناقضة، فالأولى حينئذ جعلُ الاستثناءِ على القراءتين من قوله: ﴿لا يلتفت﴾ مثلَ الذي في قوله تعالى: ﴿ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾ [النساء، الآية ٦٦] فإن ابنَ عامر قرأه بالنصب وإن كان الأفصحَ الرفعُ على البدل، ولا بُعد في كون أكثرِ القراءِ على غير الأفصح ولا يلزم من ذلك أمرُها بالالتفات بل عدمُ نهيِها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئنافِ بقوله: ﴿**إنه مصيبها ما أصابهم**﴾ من العذاب، وهو إمطارُ الأحجار وإن لم يصبْها الخسفُ، والضميرُ في إنه للشأن وقوله تعالى: ﴿مصيبها﴾ خبرٌ وقوله: ﴿ما أصابهم﴾ مبتدأٌ والجملةُ خبرٌ لإن الذي اسمُه ضميرُ الشأنِ، وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأنِ ما أصابهم، ولا يحسُن جعلُ الاستثناءِ منقطعًا على قراءة الرفع.

﴿**إن موعدهم الصبح**﴾ أي موعدَ عذابِهم وهلاكهم، تعليلٌ للأمر بالإسراء والنهيِ عن الالتفات المُشعرِ بالحث على الإسراع ﴿**أليس الصبح بقريب**﴾ تأكيد للتعليل فإن قربَ الصبح داعٍ إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن مواقع العذاب، وروي أنه قال للملائكة: متى موعدُ هلاكِهم؟ قالوا: الصبحُ، قال: أريد أسرعَ من ذلك فقالوا ذلك. وإنما جُعل ميقاتُ هلاكِهم الصبحَ لأنه وقتُ الدعةِ والراحةِ فيكون حلولُ العذاب حينئذ أفظعَ ولأنه أنسبُ بكون ذلك عبرةً للناظرين.

﴿**فلما جاء أمرنا**﴾ أي وقتُ عذابِنا وموعدُه وهو الصبح ﴿**جعلنا عاليها**﴾ أي عاليَ قُرى قوم لوطٍ وهي التي عبّر عنها بالمؤتفكات، وهي خمسُ مدائنَ فيها أربعُمائةِ ألفِ ألفٍ ﴿**سافلها**﴾ أي قلبناها على تلك الهيئةِ[1] وجُعل (عالِيها) مفعولًا أولَ للجعل و(سافلَها) مفعولًا ثانيًا له وإن تحقق القلبُ بالعكس أيضًا لتهويل الأمرِ وتفظيعِ الخطبِ لأن جعلَ عالِيها الذي هو مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها أشدُّ عليهم وأشقُّ من جعل سافِلها عاليَها وإن كان مستلزِمًا له.

روي أنه جعلَ جبريلُ عليه السلام جناحَه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهلُ السماء نُباحَ الكلاب وصياحَ الديَكةِ ثم قلبها عليهم، وإسنادُ الجعلِ والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبّبُ لتفخيم الأمرِ وتهويلِ الخطب

---

(١) في خ: الهيئات.

﴿**وأمطرنا عليها**﴾ على أهل المدائنِ أو شُذّاذهم ﴿**حجارة من سجيل**﴾ من طين متحجّر كقوله: ﴿حجارةً من طين﴾ [الذاريات: ٣٣] وأصله سنك كل فعُرّب وقيل: هو من أسْجله إذا أرسله أو أدرّ عطيتَه والمعنى: منْ مثْلِ الشيءِ المرسَل أو مثلَ العطيةِ في الإدرار أو من السِّجِلّ أي مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به، وقيل: أصله من سِجّينٍ أي من جهنم فأبدلت [نونه لامًا][(١)] ﴿**منضود**﴾ نُضِد في السماء نَضْدًا معدًّا للعذاب، وقيل: يُرسَل بعضُه إثرَ بعضٍ كقِطار الأمطار ﴿**مسومة**﴾ مُعْلمةً للعذاب. وقيل: معلمةً ببياض وحُمرة أو بسِيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم مَنْ ترمىٰ به ﴿**عند ربك**﴾ في خزائنه التي لا يتصرّف فيها غيرُه عز وجل ﴿**وما هي**﴾ أي الحجارةُ الموصوفة ﴿**من الظالمين**﴾ من كل ظالم ﴿**ببعيد**﴾ فإنهم بسبب ظلمِهم مستحقون لها وملابَسون بها، وفيه وعيدٌ شديد لأهلِ الظلمِ كافةً.

وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريلَ عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمتِك ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة[(٢)].

وقيل: الضميرُ للقُرى أي هي قريبةٌ من ظالمي مكةَ يمرّون بها في مسايرهم وأسفارِهم إلى الشام، وتذكيرُ البعيدِ على تأويل الحجارة بالحجر أو إجرائه على موصوف مذكّرٍ أي بشيء بعيد أو بمكان بعيد فإنها وإن كانت في السماء وهي في غاية البُعد من الأرض إلا أنها حين هَوَت منها فهي أسرعُ شيء لحُوقًا بهم فكأنها بمكان قريبٍ منهم. أو لأنه على زِنة المَصْدرِ كالزفير والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكرُ والمؤنث.

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ

---

(١) في خ: لامه نونا.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ١٨٤) عن أنس رضي الله عنه بغير إسناد.

قَوْمَ صَٰلِحٍۢ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍۢ مِّنكُم بِبَعِيدٍۢ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌۭ وَدُودٌۭ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًۭا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًۭا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍۢ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌۭ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۭ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌۭ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۭ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌۭ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًۭا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍۢ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًۭا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍۢ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍۢ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةًۭ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

شعيب عليه السلام

﴿**وإلى مدين**﴾ أي أولاد مدينَ بنِ إبراهيم عليه السلام أو جعل اسمًا للقبيلة بالغلبة أو أهلِ مدينَ وهو بلدٌ بناه مدينُ فسُمّي باسمه ﴿**أخاهم**﴾ أي نسيبَهم ﴿**شعيبًا**﴾ وهو ابن ميكيلَ بنِ يشجُرَ بنِ مدينَ وكان يقال له خطيبُ الأنبياءِ لحسن مراجعتِه قومَه، والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿إلى ثمودَ أخاهم صالحًا﴾ [هود، الآية ٦١] أي وأرسلنا إلى مدينَ [أخاهم][1] شعيبًا ﴿**قال**﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال كما قال مَنْ قبله من الرسل عليهم السلام: ﴿**يا قوم اعبدوا الله**﴾ وحدَه ولا تشركوا به شيئًا ﴿**ما لكم من إلٰه غيرُه**﴾ تحقيقٌ للتوحيد وتعليلٌ للأمر به وبعد ما أمرهم بما هو مَلاكُ أمر الدينِ وأولُ ما يجب على المكلّفين نهاهم عن ترتيب مبادئ ما اعتادوه من البَخْس والتطفيف عادةً مستمرةً فقال: ﴿**ولا تنقُصوا المكيال والميزان**﴾ كي تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوقِ الناس ﴿**إني أراكم بخير**﴾ أي ملتبسين بثروة واسعةٍ تُغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرًا عليها أو أراكم بخير فلا تُزيلوه بما أنتم عليه من الشر على كل حال، علةٌ للنهي عُقّبت بعلة أخرى أعني قولَه عز وجل: ﴿**وإني أخاف عليكم**﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿**عذابَ يوم محيط**﴾ لا يشِذّ منه شاذٌّ منكم، وقيل: عذابَ يومٍ مُهلك من قوله تعالى: ﴿وأُحيط

---

(١) سقط في خ.

بثمرِه﴾ [الكهف، الآية ٤٢] وأصلُه من إحاطة العدو، والمرادُ عذابُ يومِ القيامة أو عذابُ الاستئصالِ، ووصفُ اليومِ بالإحاطة وهي حالُ العذاب على الإسناد المجازيِّ وفيه من المبالغة ما لا يخفى، فإن اليومَ زمانٌ يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه، ويجوز أن يكون هذا تعليلًا للأمر والنهي جميعًا ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أي بالعدل من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ فإن الزيادةَ في الكيل والوزنِ وإن كان تفضّلًا مندوبًا إليه لكنها في الآلة محظورةٌ كالنقص، فلعل الزائدَ للاستعمال عند الاكتيالِ والناقصَ للاستعمال وقت الكيل، وإنما أُمر بتسويتهما وتعديلِهما صريحًا بعد النهي عن نقصهما مبالغةً في الحمل على الإيفاء والمنعِ من البخس وتنبيهًا على أنه لا يكفيهم مجردُ الكفِّ عن النقص والبخسِ بل يجب عليهم إصلاحُ ما أفسدوه وجعلوه معيارًا لظلمهم وقانونًا لعدوانهم ﴿ولا تبخسوا الناس﴾ بسبب نقصِهما وعدم اعتدالِهما ﴿أشياءهم﴾ التي يشترونها بهما، وقد صرّح بالنهي عن البخس بعد ما عُلم ذلك في ضمن النهي عن نقص المعيار والأمرِ بإيفائه اهتمامًا بشأنه وترغيبًا في إيفاء الحقوقِ بعد الترهيبِ والزجر عن نقصها، ويجوز أن يكون المرادُ بالأمر بإيفاء المكيالِ والميزان الأمرَ بإيفاء المَكيلاتِ والموزوناتِ، ويكونُ النهيُ عن البخس عاما للنقص في المقدار وغيره تعميمًا بعد التخصيص كما في قوله تعالى: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فإن العَثَى يعم نقصَ الحقوقِ وغيرَه من أنواع الفسادِ، وقيل: البخسُ المكسُ كأخذ العشورِ في المعاملات. قال زهير بن أبي سلمى: [الطويل]

أفــي كــل أســواقِ الــعــراقِ إتــاوةٌ وفي كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرهمِ[1]

والعثىٰ في الأرض السرقةُ وقطعُ الطريق والغارةُ، وفائدةُ الحال إخراجُ ما يُقصد به الإصلاحُ كما فعله الخضرُ عليه السلام من خرق السفينةِ وقتلِ الغلام، وقيل: معناه ولا تعثَوا في الأرض مفسدين أمْرَ آخرتِكم ومصالحَ دينكم ﴿بقية الله﴾ أي ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزّهِ عن تعاطي المحرمات ﴿خير لكم﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيفِ فإن ذلك هباءٌ منثور بل شرٌّ محض وإن زعمتم أن فيه خيرًا كقوله تعالى: ﴿يمحق الله الرِّبا ويُرْبي الصدقات﴾ [البقرة، الآية ٢٧٦] ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريّتَها باستتباع الثوابِ مع النجاة، وذلك مشروطٌ بالإيمان لا محالة أو إن كنتم مصدقين لي في مقالتي لكم، وقيل: الطاعاتُ كقوله عز وجل: ﴿والباقياتُ الصالحاتُ

(١) تقدم.

خيرٌ عند ربِّك﴾ [الكهف، الآية ٤٦] وقرئ (تقيةُ الله)[١] بالفوقانية وهي تقواه عن المعاصي ﴿**وما أنا عليكم بحفيظ**﴾ أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالَكم فأجازيَكم وإنما أنا ناصحٌ مبلِّغٌ وقد أعذرتُ إذ أنذرتُ ولم آلُ في ذلك جهدًا أو ما أنا بحافظ ومستبْقٍ عليكم نِعمَ الله تعالى إن لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع.

﴿**قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا**﴾ من الأوثان أجابوا بذلك أمرَه عليه السلام إياهم بعبادة الله وحدَه المتضمنَ لنهيهم عن عبادة الأصنام ولقد بالغوا في ذلك وبلغوا أقصى مراتبِ الخلاعة والمُجون والضلال حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمرِ بذلك حتى ادّعَوا أن لا أمرَ به من العقل واللُّب أصلًا وأنه من أحكام الوسوسةِ والجنون، وعلى ذلك بنوا استفهامَهم وقالوا بطريق الاستهزاءِ: أصلاتُك التي هي من نتائج الوسوسةِ وأفاعيلِ المجانين تأمُرك بأن نترك عبادةَ الأوثانِ التي توارَثْناها أبًا عن جد؟ وإنما جعلوه عليه السلام مأمورًا مع أن الصادرَ عنه إنما هو الأمرُ بعبادة الله وغيرُ ذلك من الشرائع، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحي وأنه كان يعلمهم بأنه مأمورٌ بتبليغه إليهم، وتخصيصُهم بإسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكامِ النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثيرَ الصلاةِ معروفًا بذلك، وكانوا إذا رأوه يصلِّي يتغامزون ويتضاحكون فكانت هي من بين سائر شعائرِ الدينِ ضِحْكةً لهم وقرئ (أصلواتُك)[٢] ﴿**أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء**﴾ جوابٌ عن أمره عليه السلام بإيفاء الحقوقِ ونهيِه عن البخس والنقصِ معطوفٌ على (ما)، أي أو أن نتركَ أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاءِ والزيادةِ والنقصِ، وقرئ بالتاء[٣] في الفعلين عطفًا على مفعول (تأمُرك) أي أصلاتك تأمرك أن تفعلَ أنت في أموالنا ما تشاء، وتجويزُ العطفِ على ما قيل

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٥٢).

(٢) قرأ بها: عاصم، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٥٩)، والتبيان للطوسي (٦/ ٤٩)، والتيسير للداني ص (١١٩)، وتفسير القرطبي (٩/ ٨٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٤٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٢)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٨١).

(٣) قرأ بها: الضحاك بن قيس، وابن أبي عبلة، وزيد بن علي، وأبو عبد الرحمن.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٠٧)، والبحر المحيط (٥/ ٢٥٣)، والتبيان للطوسي (٦/ ٥٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٦٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ٨٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨٧)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٥٨).

يستدعي أن يراد بالترك معنيان متخالفان، والمرادُ بفعله عليه السلام إيجابُ الإيفاءِ والعدلِ في معاملاتهم لا نفسُ الإيفاء، فإن ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم، وإنما لم نقُلْ عطفًا على أن نترُك لأن الترك ليس مأمورًا به على الحقيقة، بل المأمورُ به تكليفُه عليه السلام إياهم وأمرُه بذلك، والمعنى أصلاتُك تأمرُك أن تكلِّفَنا أن نترك ما يعبدُ آباؤُنا، وحملُه على معنى أصلاتُك تأمرك بما ليس في وُسعك وعُهدتك من أفاعيل غيرِك ليكون ذلك تعريضًا منهم بركاكة رأيِه عليه السلام واستهزاءً به من تلك الجهةِ يأباه دخولُ الهمزةِ على الصلاة دون الأمرِ ويستدعي أن يصدُر عنه عليه السلام في أثناء الدعوةِ ما يدل على ذلك أو يوهمه وأبى ذلك فتأمل. وقرئ بالنون في الأول(١) والتاء في الثاني عطفًا على أن نترك أي أو أن نفعل نحن في أموالنا عند المعاملةِ ما تشاء أنت من التسوية والإيفاء!

﴿**إنك لأنت الحليم الرشيد**﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم، وإنما أرادوا بذلك وصفَه بضدّيهما كقول الخزَنة: ﴿ذقْ إنك أنت العزيزُ الكريم﴾ [الدخان، الآية ٤٩] ويجوز أن يكون تعليلًا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى إنك لأنت الحليمُ الرشيد على زعمك، وأما وصفُه بهما على الحقيقة فيأباه مقامُ الاستهزاء، اللهم إلا أن يُراد بالصلاة الدينُ كما قيل ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة**﴾ أي حجة واضحةٍ وبرهانٍ نيِّر، عبّر عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردًا على مقالتهم الشنعاءِ في جعلهم أمرَه ونهيَه غيرَ مستندٍ إلى سند ﴿**من ربي**﴾ ومالكِ أموري، وإيرادُ حرفِ الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحججِ لاعتبار حال المخاطَبين ومراعاةِ حُسنِ المحاورةِ معهم كما ذكرناه في نظائره ﴿**ورزقني منه**﴾ أي من لديه ﴿**رزقًا حسنًا**﴾ هو النبوةُ والحِكمةُ أيضًا عبّر عنهما بذلك تنبيهًا على أنهما ، مع كونهما بينةً ، رزقٌ حسنٌ، كيف لا وذلك مناطُ الحياةِ الأبديةِ له ولأمته، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدل عليه فحوى الكلامِ أي أتقولون والمعنى إنكم نظمتموني في سلك السفهاءِ [و](٢) الغُواةِ وعددتم ما صدر عني من الأوامر والنواهي من قبيل ما لا يصِح أن يتفوّه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسةِ والجنون واستهزأتم بي وبأفعالي حتى قلتم: إن ما أمرتُكم به من التوحيد وتركِ عبادة الأصنامِ

---

(١) قرأ بها: أبو عبد الرحمن، وطلحة، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٥٣).

(٢) سقط في خ.

والاجتنابِ عن البخس والتطفيفِ ليس مما يأمر به آمرُ العقلِ ويقضي به قاضي الفِطنة، وإنما تأمُر به صلاتُك التي هي من أحكام الوسوسةِ والجنون فأخبروني إن كنت من جهة ربي ومالكِ أمورِي ثابتًا على النبوة والحِكمةِ التي ليس وراءَها غايةٌ للكمال ولا مطمَحٌ لطامح ورزقني بذلك رزقًا حسنًا أتقولون في شأني وشأنِ أفعالي ما تقولون مما لا خيرَ فيه ولا شرَّ وراءه! هذا هو الجوابُ الذي يستدعيه [السباقُ و][1] السياقُ ويساعده النظمُ الكريمُ.

وأما ما قيل من أن المحذوفَ أيصِحّ لي ألا آمرَكم بترك عبادةِ الأوثانِ والكفِّ عن المعاصي، أو هل يسع لي مع هذا الإنعام الجامعِ للسعادات الروحانيةِ والجُسمانية أن أخونَ في وحيه وأخالفَه في أمره ونهيِه، فبمعزلٍ من ذلك. وإنما يناسب تقديرُه، إن حمل كلامُهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدينُ على معنى: أدينُك يأمرُك أن تكلفنا بترك عبادةِ آلهتِنا القديمة وتركِ التصرّفِ المطلق في أموالنا وتخالفنا في ذلك وتشُقَّ عصانا، وهذا مما لا ينبغي أن يصدُر عنك فإنك أنت المشهورُ بالحلم الفاضلِ والرشدِ الكاملِ فيما بيننا كما كان قولُ قومِ صالح ﴿قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا﴾ [هود، الآية ٦٢] مسرودًا على ذلك النمطِ فأُجيبوا بما أجيبوا به، وعلى هذا الوجهِ يكون المرادُ بالرزق الحسنِ الحلالَ الذي آتاه الله تعالى، والمعنى حينئذ أخبروني إن كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقني مالًا حلالًا أستغني به عن العالمين أيصِحّ أن أخالف أمرَه وأوافقَكم فيما تأتون وما تذرون.

﴿وما أريد﴾ بنهيي إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف ﴿أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي أقصِدَه بعد ما ولَّيتم عنه وأستبِدَّ به دونكم. يقال: خالفت زيدًا إلى كذا إذا قصدتُه وهو مولٍّ عنه وخالفتُه عن كذا إذا كان الأمرُ على العكس ﴿إن أريد﴾ بما أباشره من الأمر والنهي ﴿إلا الإصلاحَ﴾ إلا أن أُصلِحَكم بالنصيحة والموعظة ﴿ما استطعت﴾ أي مقدارَ ما استطعتُه من الإصلاح، والتقييدُ به للاحتراز عن الاكتفاء بالإصلاح في الجملة لا عن إرادة ما ليس في وُسعه منه ﴿وما توفيقي﴾ أي كوني موفقًا لتحقيق ما أنتحيه من إصلاحكم ﴿إلا بالله﴾ أي بتأييده ومعونتِه بل الإصلاحُ من حيث الخلقُ مستندٌ إليه سبحانه وإنما أنا من مباديه الظاهرةِ قاله عليه السلام تحقيقًا للحق وإزاحةً لما عسى يوهمه إسنادُ الاستطاعةِ إليه بإرادته من استبداده بذلك ﴿عليه توكلت﴾ في ذلك مُعرِضًا عما عداه فإنه القادرُ على كل مقدورٍ وما عداه

(١) سقط في خ.

عاجزٌ محْضٌ في حد ذاتِه بل معدومٌ ساقطٌ عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمدادِ به والاستظهار ﴿وإليه أنيب﴾ أي أرجِعُ فيما أنا بصدده، ويجوز أن يكون المرادُ وما كوني موفقًا لإصابة الحقِّ والصوابِ في كل ما آتي وأذر إلا بهدايته ومعونتِه عليه توكلتُ، وهو إشارةٌ إلى محض التوحيدِ الذاتي والفعليِّ وإليه أنيب، أي عليه أقبل بشراشِر نفسي[1] في مجامع أموري. وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ على الماضي الأنسبِ للتقرر والتحقّقِ كما في التوكل لاستحضار الصورةِ والدلالةِ على الاستمرار، ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطفِ المراجعةِ ورِفق الاستنزالِ والمحافظةِ على قواعد حسنِ المجاراة والمحاورَة وتمهيدِ معاقدِ الحقِّ بطلب التوفيقِ من جناب الله تعالى والاستعانةِ في أموره، وحسمِ أطماعِ الكفار وإظهار الفراغِ عنهم وعدمِ المبالاة بمعاداتهم، وأما تهديدُهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلأن الإنابَةَ إنما هي الرجوعُ الاختياريُّ بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوعُ الاضطراريُّ للجزاء أو ما يعمه ﴿ويا قوم لا يجرمنكم﴾ أي لا يَكسِبنّكم، من جرَمتُه ذنبًا مثلُ كسبته مالًا ﴿شقاقي﴾ معاداتي وأصلُهما أن أحد المتعادِيَين يكون في عُدوةٍ وشقٍّ والآخرُ في آخرَ ﴿أن يصيبكم﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ (يجرمنكم) أي لا تكسِبْكم معاداتُكم لي أن يصيبكم ﴿مثلُ ما أصاب قوم نوح﴾ من الغرق ﴿أو قوم هود﴾ من الريح ﴿أو قوم صالح﴾ من الصيحة والرجفةِ، وقرأ ابن كثير بضم الياء[2] من أجرمتُه ذنبًا إذا جعلته جارِمًا له أي كاسبًا وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد كما نقل أكسبه المالَ من كسب المالَ فكما لا فرق بين كسبته مالًا وأكسبته إياه لا فرق بين: جرَمته ذنبًا وأجرمتُه إياه في المعنى، إلا أن الأولَ أصحُ وأدور على ألسنة الفصحاءِ وقرأ أبو حيوة (مثلَ ما أصاب)[3] بالفتح لإضافته إلى غير متمكن[4] كقوله: [البسيط]

لم يمنع الشربَ منها غير أن نَطَقت   حمامةٌ في غصون ذات أوقالِ[5]

---

(١) أي بكليتي.
(٢) قرأ بها أيضًا: يحيى بن وثاب، والأعمش، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، الإعراب للنحاس (٢/ ١٠٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٧)، وتفسير الرازي (١٨/ ٤٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٦).
(٣) قرأ بها أيضًا: نافع، ومجاهد، وعاصم الجحدري، وعبد الله بن أبي إسحق.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨٨).
(٤) الاسم غير المتمكن: هو الذي أشبه الحرف فكان مثله مبنياً، نحو كيف وأين.
(٥) البيت لأبي قيس بن الأسلت في ديوانه ص(٨٥)، وجمهرة اللغة ص (١٣١٦)، وخزانة الأدب (٣/ =

وهذا وإن كان بحسب الظاهرِ نهيًا للشقاق عن كسب إصابةِ العذابِ لكنه في الحقيقة نهيٌ للكفرة عن مشاقّته عليه السلام على ألطف أسلوبٍ وأبدعِه كما مر في سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿ولا يجرِمنّكم شنآنُ قوم﴾ [الآية ٢] **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾** زمانًا أو مكانًا، فإن لم تعتبروا بمن قبلَهم من الأمم المعدودةِ فاعتبروا بهم، فكأنه إنما غير أسلوبَ التحذيرِ بهم ولم يصرِّح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربِهم إيذانًا بأن ذلك مغنٍ عن ذكره لشهرة كونِه منظومًا في سِمْطِ ما ذُكر من دواهي الأممِ المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمعاصي فلا يبعُد أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم، وإفرادُ البعيدِ مع تذكيره لأن المراد وما إهلاكُهم على نية المضافِ أو وما هم بشيء بعيد، لأن المقصودَ إفادةُ عدم بعدِهم على الإطلاق لا من حيث خصوصيةُ كونِهم قومًا أو ما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد، ولا يبعُد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق، ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعِهم عقّبه طمعًا في ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم، بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال:

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ مر تفسيرُ مثله في أول السورة **﴿إن ربي رحيم﴾** عظيمُ الرحمة للتائبين **﴿ودود﴾** مبالِغٌ في فعل ما يفعل البليغُ المودةَ بمن يودّه من اللطف والإحسانِ، وهذا تعليلٌ للأمر بالاستغفار والتوبةِ وحثٌّ عليهما **﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول﴾** الفِقهُ معرفة غرض المتكلّم من كلامه أي ما نفهم مرادَك، وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائلَ الحقِّ المبينِ على أحسن وجهٍ وأبلغِه وضاقت عليهم الحيلُ وعيّتْ بهم العلل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلًا سوى الصدودِ عن منهاج الحقِّ والسلوكِ إلى سبيل الشقاءِ كما هو ديدَنُ المُفحَم المحجوجِ يقابل البيناتِ بالسبِّ والإبراق والإرعاد، فجعلوا كلامَه المشتملَ على فنون الحِكَم والمواعظِ وأنواعِ العلوم والمعارفِ من قبيل ما لا يُفقه[1] معناه ولا يُدرك فحواه وأدمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة

= ٤٠٦)، (٤٠٧)، والدرر (٣/ ١٥٠)، ولأبي قيس بن رفاعة في شرح أبيات سيبويه (٢/ ١٨٠)، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٥٨)، وشرح المفصل (٣/ ٨٠)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٤/ ٦٥، ٢١٤، ٥/ ٢٩٦)، والإنصاف (١/ ٢٨٧)، وخزانة الأدب (٦/ ٥٣٢، ٥٥٢، ٥٥٣)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ٥٠٧)، وشرح التصريح (١/ ١٥)، وشرح المفصل (٣/ ٨١، ٨/ ١٣٥)، والكتاب (٢/ ٣٢٩)، ولسان العرب (نطق)، (وقل)، ومغني اللبيب (١/ ١٥٩)، وهمع الهوامع (١/ ٢١٩).

(١) في خ: يفهم.

والعقاب، ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ولذلك قالوا: ﴿وإنا لنراك فينا﴾ فيما بيننا ﴿ضعيفًا﴾ لا قوة لك ولا قدرةَ على شيء من الضر والنفعِ والإيقاعِ والدفع ﴿ولولا رهطك﴾ لولا مراعاةُ جانبِهم لا لولاهم يمانعوننا ويدافعوننا ﴿لرجمناك﴾ فإن ممانعةَ الرهطِ ، وهو اسمٌ للثلاثة إلى السبعة أو إلى العشرة ، لهم وهم ألوفٌ مؤلفةٌ مما لا يكاد يُتوّهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ مُكْرمٌ محْترمٌ حتى نمتنع من رجمك، وإنما نكفُ عنه للمحافظة على حرمة رهطِك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وإيلاءُ الضميرِ حرفَ النفي وإن لم يكن الخبرُ فعليا غيرَ خالٍ عن الدلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعلِ لا سيما قرينة قولِه: ولولا رهطُك كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطُك هم الأعزةُ علينا وحيث كان غرضُهم من عظيمتهم هذه عائدًا إلى نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزةِ الربّانيّتين حسبما يوجبه كونُه على بينة من ربه مؤيَّدًا من عنده ويقتضيه قضيةُ طلبِ التوفيقِ منه والتوكلِ عليه والإنابةِ إليه وإلى إسقاط ذلك كلِّه عن درجة الاعتدادِ به والاعتبار ﴿قال﴾ عليه السلام في جوابهم ﴿يا قوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله﴾ فإن الاستهانةَ بمن لا يَتعزّز إلا به عز وجل استهانةٌ بجنابه العزيز وإنما أنكر عليهم أعزِّيّةَ رهطِه منه تعالى مع أن ما أثبتوه هو مطلقُ عزةِ رهطِه لا أعزّيتُهم منه عز وجل مع الاشتراك في أصل العزةِ لتثنية التقريعِ وتكريرِ التوبيخِ حيث أنكر عليهم أولًا ترجيح جنب الرهطِ على جنبة الله تعالى وثانيا تبقي العزة بالمرة، والمعنى: أرهطي أعز عليكم من الله؟ فإنه مما لا يكاد يصح، والحال أنكم لم تجعلوا له حظا من العزة أصلًا ﴿واتخذتموه﴾ بسبب عدم اعتدادِكم بمن لا يردُ ولا يصدُر إلا بأمره ﴿وراءكم ظهريًا﴾ أي شيئًا منبوذًا وراء الظهر منسيًا لا يبالىٰ به، منسوبٌ إلى الظهر، والكسر لتغيير النسب كالأمسيّ في النسبة إلى الأمس ﴿إن ربي بما تعملون﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدمُ مراعاتِكم لجانبه ﴿محيط﴾ لا يخفى عليه منها خافيةٌ وإن جعلتموه منسيًّا فيجازيكم عليها. ويحتمل أن يكون الإنكارُ للرد والتكذيب فإنهم لما ادَّعوا أنهم لا يكفّون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزّته بل لمراعاة جانب رهطِه ردّ عليهم ذلك بأنكم ما قدَّرتم الله حقَّ قدرِه العزيزِ ولم تراعوا جنابَه القويَّ فكيف تراعون جانبَ رهطي الأذلة!

﴿ويا قوم اعملوا﴾ لما رأى عليه السلام إصرارَهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصي حتى اجترأوا على العظيمة التي هي الاستهانةُ به والعزيمةُ على رجمه لولا حُرمةُ رهطِه، قال لهم على طريقة التهديد: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾

أي على غاية تمكّنِكم واستطاعتِكم يقال: مكُن مكانةً إذا تمكّن أبلغَ التمكّن وإنما قاله عليه السلام ردا لما ادَّعَوا أنهم أقوياءُ قادرون على رجمه وأنه ضعيفٌ فيما بينهم لا عزةَ له، أو على ناحيتكم وجِهَتكم التي أنتم عليها من قولهم: مكانٌ ومكانة كمقام ومقامة، والمعنى اثبُتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقّةِ لي وسائرِ ما أنتم عليه مما لا خيرَ فيه وابذُلوا جهدكم في مضارّتي وإيقافي ما في نيتكم وإخراج ما في أمنيتكم من القوة إلى الفعل ﴿**إني عامل**﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييدِ والتوفيق ﴿**سوف تعلمون**﴾ لما هدّدهم عليه السلام بقوله: اعمَلوا على مكانتكم إني عاملٌ كان مظِنّةَ أن يسألَ منهم سائلٌ فيقولَ: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقيل: ﴿**سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه**﴾ وصَف العذابَ بالإخزاء تعريضًا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فإنه مع كونه عذابًا فيه خِزيٌ ظاهرٌ حيث لا يكون إلا بجناية عظيمةٍ توجبه ﴿**ومن هو كاذب**﴾ عطفٌ على (مَنْ يأتيه) لا على أنه قسيمُه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل: سوف تعلمون مَن المعذَّبُ ومن الكاذب، وفيه تعريضٌ بكذبهم في ادعائهم القوةَ والقُدرةَ على رجمه عليه السلام وفي نسبته إلى الضعف والهوانِ وفي ادعائهم الإبقاءَ عليه لرعاية جانبِ الرهطِ، والاختلافُ بين المعطوفَين بالفعلية والاسميةِ لأن كذبَ الكاذبِ بمرتقَبٍ كإتيان العذاب بل إنما المرتقَبُ ظهورُ الكذبِ السابق المستمرّ.

و(من) إما استفهاميةٌ معلِّقةٌ للعلم عن العمل كأنه قيل: سوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يُخزيه وأيُّنا كاذبٌ، وإما موصولةٌ أي سوف تعرِفون الذي يأتيه عذابٌ والذي هو كاذب ﴿**وارتقبوا**﴾ وانتظروا مآلَ ما أقول. ﴿**إني معكم رقيب**﴾ منتظرٌ، فعيل بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالشعير أو المرتقب كالرفيع وفي زيادة معكم إظهارٌ منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

﴿**ولما جاء أمرنا**﴾ أي عذابُنا كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخزيه﴾ [هود، الآية ٩٣] أو وقتُه فإن الارتقابَ مؤذِنٌ بذلك ﴿**نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمة منا**﴾ وهي الإيمانُ الذي وفقناهم له أو بمرحمة كائنةٍ منّا لهم، وإنما ذكر بالواو كما في قصة عاد لِما أنه لم يسبِقْه فيها ذكرُ وعدٍ يجري مجرىٰ السببِ المقتضي لدخول الفاءِ في معلوله كما في قصتي صالحٍ ولوط. فإنه قد سبق هنالك سابقةُ الوعد بقوله: ﴿ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب﴾ [هود، الآية ٦٥] وقوله: ﴿إن موعدَهم الصبحُ﴾ [هود، الآية ٨١]. ﴿**وأخذت الذين ظلموا**﴾ عدل إليه عن الضمير تسجيلًا عليهم بالظلم وإشعارًا بأن ما أخذهم إنما أخذهم بسبب ظلمِهم الذي فُصّل

فيما سبق فنونُه ﴿الصيحة﴾ قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام فهلكوا، وفي سورة الأعراف ﴿فأخذتهم الرجفةُ﴾، وفي سورة العنكبوت ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ [الأعراف:٧٨ و٩١] أي الزلزلة، ولعلها من روادف الصيحةِ المستتبِعة لتموّج الهواء المفضي إليها كما مر فيما قبل ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين لازمين لأماكنهم لا بَراحَ لهم منها، ولمّا لم يُجعل متعلَّقُ العلمِ في قوله تعالى: ﴿فسوف تعلمون منْ يأتيه عذابٌ﴾ [هود، الآية ٣٩] إلخ، نفسَ مجيءِ العذابِ بل من يجيئه ذلك جُعل مجيئُه بعد ذلك أمرًا مسلَّمَ الوقوعِ غنيا عن الإخبار به حيث جعل شرطًا وجُعل تنجيةُ شعيبٍ عليه السلام وإهلاكُ الكفرة جوابًا له ومقصودَ الإفادة، وإنما قدّم تنجيتُه اهتمامًا بشأنها وإيذانًا بسبق الرحمةِ التي هي مقتضى الربوبيةِ على الغضب الذي يظهر أثرُه بموجب جرائِرهم وجرائمهم ﴿كأن لم يغنَوا﴾ أي لم يقيموا ﴿فيها﴾ متصرفين في أطرافها متقلبين في أكنافها ﴿ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدلَّ على طغيانهم الذي أدّاهم إلى هذه المرتبةِ وليكون أنسبَ بمن شُبّه هلاكُهم بهلاكهم أعني ثمود، وإنما شُبّه هلاكُهم بهلاكهم لأنهما أُهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة، غير أن هؤلاءِ صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم. وقرئ (بعُدت)[1] بالضم على الأصل فإن الكسرَ تغييرٌ لتخصيص معنى البُعد بما يكون سببَ الهلاك والبعدُ مصدرٌ لهما والبُعدُ مصدرٌ للمكسور.

موسى عليه السلام

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ وهي الآياتُ التسعُ المفصّلاتُ التي هي العصا واليدُ البيضاءُ والطوفانُ والجرادُ والقُمّلُ والضفادعُ والدمُ ونقصُ الثمراتِ والأنفسِ ومن جعلهما آيةً واحدةً وعدّ منها إظلالَ الجبل وليس كذلك فإنه لقبول أحكامِ التوراةِ حين أباه بنو إسرائيلَ، والباءُ متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا من مفعول (أرسلنا) أو نعتًا لمصدره المؤكّد أي أرسلناه حال كونِه ملتبسًا بآياتنا أو أرسلناه إرسالًا ملتبسًا بها ﴿وسلطان مبين﴾ هو المعجزاتُ الباهرةُ منها أو هو العصا، والإفرادُ بالذكر لإظهار شرفِها لكونها أبهرَها أو المرادُ بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شيء واحد، أي

---

(١) قرأ بها: أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو حيوة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٠٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٥٧)، والتبيان للطوسي (٦/ ٥٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩١)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٨٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٧).

أرسلناه بالجامع بين كونِه آياتِنا وبين كونِه سلطانًا له على نبوّته واضحًا في نفسه أو موضّحًا إياها، من أبان لازمًا ومتعدّيًا، أو هو الغلبةُ والاستيلاءُ كقوله تعالى: ﴿ونجعلُ لكما سلطانًا﴾ [القصص، الآية ٣٥] ويجوز أن يكون المرادُ ما بيّنه عليه السلام في تضاعيف دعوتِه حين قال له فرعونُ: ﴿من ربُّكما﴾ [طه، الآية ٤٩]، ﴿فما بالُ القرون الأولى﴾ [طه، الآية ٥١] من الحقائق الرائقةِ والدقائقِ اللائقةِ وجعلُه عبارةً عن التوراة وإدراجُها في جملة الآيات يردّه قولُه عز وجل: **﴿إلى فرعون وملئه﴾** فإن نزولَها إنما كان بعد مهلِك فرعونَ وقومِه قاطبةً ليعمل بها بنو إسرائيلَ فيما يأتون وما يذرون، وأما فرعونُ وقومُه فإنما كانوا مأمورين بعبادة ربِّ العالمين عزَّ سلطانُه وتركِ العظيمةِ الشنعاءِ التي كان يدعيها الطاغيةُ وتقبلها منه فئتُه الباغية، وبإرسال بني إسرائيلَ من الأسر والقسْرِ، وتخصيصُ ملئه بالذكر مع عموم رسالتِه عليه السلام لقومه كافة لأصالتهم في الرأي وتدبيرِ الأمور واتباعِ غيرِهم لهم في الورود والصدور. وإنما لم يصرَّح بكفر فرعونَ بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والإضلال، بل اقتصر على ذكر شأن ملئِه فقال: **﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾** أي أمرَه بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، للإيذان بوضوح حالِه فكأن كفرَه وأمْرَ ملئِه بذلك أمرٌ محققُ الوجودِ غيرُ محتاجٍ إلى الذكر صريحًا، وإنما المحتاجُ إلى ذلك شأن ملئِه المترددين بين هادٍ إلى الحق وداعٍ إلى الضلال فنعىٰ عليهم سوءَ اختيارِهم، وإيرادُ الفاء في اتّباعهم المترتبِ على أمر فرعونَ المبنيِّ على كفره المسبوقِ بتبليغ الرسالةِ للإشعار بمفاجأتهم في الاتباع ومسارعةِ فرعونَ إلى الكفر وأمرِهم به، فكأن ذلك كلّه لم يتراخَ عن الإرسال والتبليغِ بل وقع جميعُ ذلك في وقت واحد فوقع إثرَ ذلك اتباعُهم. ويجوز أن يرادَ بأمر فرعونَ شأنُه المشهورُ وطريقتُه الزائغةُ فيكون معنى فاتبعوا فاستمرّوا على الاتّباع، والفاءُ مثلُ ما في قولك: وعظتُه فلم يتعظْ وصِحْتُ به فلم ينزجِرْ، فإن الإتيانَ بالشيء بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه وإن كان استمرارًا عليه لكنه بحسب العُنوانِ فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ فتأمل. وتركُ الإضمارِ لدفع توهُّمِ الرجوعِ إلى موسى عليه السلام من أول الأمرِ ولزيادة تقبيحِ حال المتبعين، فإن فرعونَ علَمٌ في الفساد والإفساد والضلالِ والإضلال فاتباعُه لفَرْط الجهالِة وعدمِ الاستبصار، وكذا الحالُ في قوله تعالى: **﴿وما أمر فرعون برشيد﴾** الرُّشدُ ضدُّ الغِيّ وقد يراد به محموديّةُ العاقبةِ فهو على الأول بمعنى المُرشد[1] حقيقةٌ

(١) زاد في خ: أو ذي الرشد.

لغويةٌ والإسنادُ مجازيٌّ وعلى الثاني مجازٌ والإسناد حقيقيٌّ.

﴿يقدُم قومه﴾ جميعًا من الأشراف وغيرِهم ﴿يوم القيامة﴾ أي يتقدّمهم، من قدَمه بمعنى تقدّمه وهو استئنافٌ لبيان حالِه في الآخرة أي كما كان قدوةً لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، أو لتوضيح عدمِ صلاحِ مآلِ أمرِه وسوءِ عاقبتِه ﴿فأوردهم النار﴾ أي يوردهم، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة، شُبّه فرعونُ بالفارط الذي يتقدم الواردةَ إلى الماء، وأتباعُه بالواردة، والنارُ بالماء الذي يرِدُونه ثم قيل: ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي بئس الوردُ الذي يرِدونه النارُ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطشِ وتبريدِ الأكباد والنارُ على ضد ذلك.

﴿وأتبعوا﴾ أي الملأُ الذين اتّبعوا أمرَ فرعون ﴿في هذه﴾ أي في الدنيا ﴿لعنة﴾ عظيمةً حيث يلعنهم مَنْ بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة ﴿ويوم القيامة﴾ أيضًا حيث يلعنهم أهلُ الموقفِ قاطبةً فهي تابعةٌ لهم حيثما[1] ساروا دائرةٌ معهم أينما داروا في الموقف، فكما اتّبعوا فرعونَ اتّبعتْهم اللعنةُ في الدارين جزاء وفاقًا، واكتُفي ببيان حالِهم الفظيعِ وشأنِهم الشنيعِ عن بيان حالِ فرعونَ إذ حين كان حالُهم هكذا فما ظنُّك بحال مَن أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد! وحيث كان شأنُ الأتباع أن يكونوا أعوانًا للمتبوع جُعلت اللعنةُ رِفدًا لهم على طريقة التهكّم فقيل: ﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي بئس العونُ المُعانُ، وقد فُسر الرفدُ بالعطاء ولا يلائمه المقام، وأصلُه ما يضاف إلى غيره ليُعمِّده والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي رفدُهم وهي اللعنةُ في الدارين، وكونُه مرفودًا من حيث إن كلَّ لعنة منها مُعِيْنةٌ ومُمِدّةٌ لصاحبتها ومؤيدةٌ لها.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ

(١) في ط: حينما.

هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١١﴾ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما قُص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضّيه في الذكر والخطابُ لرسول الله ﷺ وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿**من أنباء القرى**﴾ المهلَكة بما جنتْه أيدي أهلِها ﴿**نقصه عليك**﴾ خبرٌ بعد خبرٍ أي ذلك النبأُ بعضُ أنباءِ القرى مقصوصٌ عليك ﴿**منها**﴾ أي من تلك القرى ﴿**قائم وحصيد**﴾ أي ومنها حصيد، حُذف لدلالة الأولِ عليه، شُبّه ما بقيَ منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطَل بالحصيد[1]، والجملةُ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب ﴿**وما ظلمناهم**﴾ بأن أهلكناهم ﴿**ولكن ظلموا أنفسهم**﴾ بأن جعلوها عُرضةً للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿**فما أغنت عنهم**﴾ فما نفعتهم ولا دفعتْ بأسَ الله تعالى عنهم ﴿**آلهتهم التي يدعون**﴾ أي يعبدونها ﴿**من دون الله**﴾ أُوثر صيغةُ المضارعِ حكايةً للحال الماضيةِ أو دِلالةً على استمرار عبادتِهم لها ﴿**من شيء**﴾ في موضع المصدرِ أي شيئًا من الإغناء ﴿**لما جاء أمر ربك**﴾ أي حين مجيءِ عذابِه وهو منصوبٌ بـ (أغنت)، وقرئ (آلهتُهم اللاتي) و(يُدْعون)[2] على البناء

(١) والمراد بالقائم ما كان من القرى التي قصها الله في القرآن، والآية من التشبيه البليغ وقد سبق الكلام عليه وعلى الفرق بينه وبين الاستعارة.
ينظر: التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٨)، وشروح التلخيص (٣/ ٤٧٠)، والإيضاح (٣/ ٨٠) وما بعدها.
(٢) ينظر: الألوسي (١٢/ ١٣٦).

للمجهول ﴿وما زادوهم غيرَ تتبيب﴾ أي إهلاك وتخسير فإنهم إنما هلكوا وخسِروا بسبب عبادتِهم لها.

﴿وكذلك﴾ أي ومثلَ ذلك الأخذِ الذي مر بيانُه، وهو رفعٌ على الابتداء وخبرُه قوله: ﴿أخذ ربك﴾ وقرئ (أخذَ ربُّك)[1] فمحلُّ الكافِ النصبُ على أنه مصدرٌ مؤكد ﴿إذا أخذ القرى﴾ أي أهلَها وإنما أُسند إليها للإشعار بَسَريان أثرِه إليها حسبما ذُكر، وقرئ (إذْ أخذ)[2].

﴿وهي ظالمة﴾ حالٌ من القرى وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أُقيمت مُقامَهم في الأخذ أُجريت الحالُ عليها، وفائدتُها الإشعارُ بأنهم إنما أُخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرةً لكل ظالم ﴿إن أخذه أليم شديد﴾ وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير ﴿إن في ذلك﴾ أي في أخذه تعالى للأمم الغابرةِ أو في قصصهم ﴿لآية﴾ لعبرةً ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ فإنه المعتبرُ به حيث يُستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذابِ الآخرة، وأما من أنكر الآخرةَ وأحال فناءَ العالم وزعم أن ليس هو ولا شيءٌ من أحواله مستندًا إلى الفاعلِ المختارِ وأن ما يقع فيه من الحوادث فإنما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلكيةٍ تتفق في بعض الأوقاتِ لا لما ذُكر من المعاصي التي يقترفها الأممُ الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبارِ، تبًا لهم ولما لهم من الأفكار.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامةِ المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يوم مجموعٌ له الناس﴾ أي: يجمع له الناس للمحاسبة والجزاءِ، والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجمعِ وتحقق وقوعِه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿يوم يَجْمعُكم ليوم الجمع﴾ [التغابن، الآية ٩] ﴿وذلك﴾ أي يومُ القيامة مع ملاحظة عنوانِ جمعِ الناس له ﴿يوم مشهود﴾ أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهلُ السماوات والأرضين فاتُسع فيه بإجراء الظرفِ مُجرى المفعولِ به كما في قوله: [البسيط]

---

(١) قرأ بها: عاصم الجحدري، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١١٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٥).

(٢) قرأ بها: عاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف، أبو رجاء.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١١٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦١)، وتفسير الطبري (١٢/ ٦٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٢)، إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٣).

.... في محفل من نواصي الناس مشهود[(١)]

أي كثيرٌ شاهدوه ولو جُعل نفسُ اليوم مشهودًا لفات ما هو الغرضُ من تعظيم اليومِ وتهويلِه وتمييزِه عن غيره فإن سائرَ الأيام أيضًا كذلك ﴿**وما نؤخره**﴾ أي ذلك اليومَ الملحوظَ بعُنوانيْ الجمعِ والشهود ﴿**إلا لأجل معدود**﴾ إلا لانقضاء مدةٍ قليلةٍ مضروبةٍ حسبما تقتضيهِ الحكمة ﴿**يوم يأت**﴾ أي حين يأتي ذلك اليومُ المؤخَّرُ بانقضاء أجلِه كقوله تعالى: ﴿أو تأتيَهم الساعةُ﴾ [يوسف، الآية ١٠٧] وقيل: يومَ يأتي الجزاءُ الواقعُ فيه، وقيل: أي الله عز وجل فإن المقام مقامُ تفخيم شأنِ اليوم وقرئ بإثبات الياء[(٢)] على الأصل ﴿**لا تكلم نفس**﴾ أي لا تتكلم بما ينفع وينجّي من جواب أو شفاعةٍ، وهو العاملُ في الظرف أو الانتهاء المحذوفِ في قوله تعالى: ﴿إلا لأجل معدود﴾ أي ينتهي الأجل يوم يأتي أو المضمر المعهود أعني أذكر ﴿**إلا بإذنه**﴾ عز سلطانه في التكلم كقوله تعالى: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن﴾ [النبأ، الآية ٣٨] وهذا في موطن من مواطنِ ذلك اليومِ وقولُه عز وجل: ﴿هذا يومُ لا ينطِقون ولا يُؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات، الآية ٣٥] في موقف آخرَ من مواقفه كما أن قولَه سبحانه: ﴿يوم تأتي كلُّ نفس تجادل عن نفسها﴾ [النحل، الآية ١١١] في آخرَ منها أو المأذونُ فيه الجواباتُ الحقةُ والممنوعُ عنه الأعذار الباطلةُ، نعم قد يُؤذن فيها أيضًا لإظهار بطلانِها كما في قول الكفرة: ﴿والله رّبنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام، الآية ٢٣] ونظائرِه ﴿**فمنهم شقي**﴾ وجبت له النارُ بموجب الوعيد ﴿**وسعيد**﴾ أي ومنهم سعيدٌ، حُذف الخبرُ لِدلالة الأولِ عليه وهو من وجبت له الجنةُ بمقتضى

---

(١) عجز بيت وصدره:
ومشهدٍ قد كفَيْتُ الغائبين به ....
والبيت لأم قبيس الضبّيَّة في لسان العرب (نص)، وتاج العروس (نصا)، وبلا نسبة في أساس البلاغة، ص (٤٦٠) (نصو).

(٢) أثبتها وصلا: أبو عمرو، والكسائي، ونافع،وابن كثير، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦١)، والتبيان للطوسي (٦/ ٦٣، ٦٤)، والتيسير للداني ص (١٢٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٣).
وأثبتها وصلًا ووقفًا: ابن كثير، وأبي، وابن مسعود، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦١)، والتبيان للطوسي (٦/ ٦٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٣).

الوعد، والضميرُ لأهل الموقفِ المدلولِ عليهم بقوله: ﴿لا تَكلَّم نفسٌ﴾ [البقرة، الآية ٢٣٣] أو للناس، وتقديمُ الشقيِّ على السعيد لأن المقامَ مقامُ التحذير والإنذار.

﴿فأما الذين شقُوا﴾ أي سبَقَت لهم الشقاوةُ **﴿ففي النار﴾** أي مستقرّون فيها **﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾** الزفيرُ إخراجُ النفَسِ والشهيقُ ردُّه وجاء استعمالُهما في أول النهيق وآخرِه قال الشماخ يصف حمارَ الوحش: [الطويل]

بعيدُ مدى التطريب، أولُ صوتِه زفيرٌ ويتلوه شهيقٌ مُحشرَجُ[(١)]

والمرادُ بهما وصفُ شدةِ كربِهم وتشبيهُ حالِهم[(٢)] بحال من استولت على قلبه الحرارةُ وانحصر فيه روحُه، أو تشبيهُ صراخِهم بأصواتِ الحميرِ، وقرئ (شقوا)[(٣)] بالضم، والجملةُ مستأنفةٌ كأن سائلًا قال: ما شأنُهم فيها؟ فقيل: لهم فيها كذا وكذا، أو منصوبةُ المحلِّ على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور كقوله عز اسمُه: **﴿خالدين فيها﴾** خلا أنه إن أريد حدوثُ كونِهم في النار فالحالُ مقدرةٌ **﴿ما دامت السموات والأرض﴾** أي مدةَ دوامِها وهذا التوقيتُ عبارةٌ عن التأبيد ونفيِ الانقطاع بناءً على منهاج قولِ العرب: ما دام تعار وما أقام ثَبيرٌ[(٤)] وما لاح كوكب وما اختلف الليلُ والنهار وما طما البحرُ وغيرُ ذلك من كلمات التأبيد لا تعليقِ قرارِهم فيها بدوام هذه السماواتِ والأرض فإن النصوصَ القاطعةَ دالةٌ على تأبيد قرارِهم فيها وانقطاعِ دوامِهما، وإن أريد التعليقُ فالمراد سماواتُ الآخرة وأرضُها كما يدل على ذلك النصوصُ كقوله تعالى: ﴿يوم تُبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ﴾ [إبراهيم، الآية ٤٨] وقولِه تعالى: ﴿وأورَثَنَا الأرضَ نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾

---

(١) البيت في ديوانه برواية:
بعيد مدى التطريب أول نهاقه سحيل وأخراه حي المحشرج
ينظر: ديوانه، ص (٨٨)، وروح المعاني (١٢/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٥٢)، والكشاف (٢/ ٤٣٠)، والدر المصون (٤/ ١٣٢).

(٢) وإنما خص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيرًا من أسباب المصير إلى النار لما في ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهم وذلك أخوف لهم من الألم، وذلك مبني على أن الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدة بسبب ضغط التنفس والشهيق عكسه.
ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٢/ ١٩٥).

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٢٦٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٣).

(٤) تعار (بكسر أوله) وثبير: جبلان.

[الزمر، الآية ٧٤] وجزم كلُّ أحدٍ بأن أهلَ الآخرةِ لا بد لهم من مِظلّة ومِقلّة دائمتين يكفي في تعليق دوامِ قرارِهم فيها بدوامهما، ولا حاجة إلى الوقوف على تفاصيل أحوالِهما وكيفياتهما ﴿إلا ما شاء ربك﴾ استثناءٌ من الخلود على طريقة قوله تعالى: ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولى﴾ [الدخان الآية: ٥٦] وقوله: ﴿ولا تنكِحوا ما نكح آباؤُكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ [النساء، الآية ٢٢] وقولِه تعالى: ﴿حتى يلجَ الجملُ في سمِّ الخياط﴾ [الأعراف، الآية ٤٠] غير أن استحالة الأمورِ المذكورةِ معلومةٌ بحكم العقلِ، واستحالةَ تعلّق المشيئةِ بعدم الخلودِ معلومةٌ بحكم النقل يعني أنهم مستقرّون في النار في جميع الأزمنةِ إلا في زمان مشيئةِ الله تعالى لعدم قرارِهم فيها، وإذ لا إمكان لتلك المشيئةِ ولا لزمانها بحكم النصوصِ القاطعة الموجبةِ للخلود فلا إمكانَ لانتهاء مدةِ قرارِهم فيها ولدفع ما عسى يُتوّهم من كون استحالةِ تعلق مشيئةِ الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوبِ على الله تعالى قال: ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ يعني أنه في تخليد الأشقياءِ في النار بحيث يستحيل وقوعُ خلافهِ فعالٌ بموجب إرادته قاضٍ بمقتضى مشيئتِه الجارية على سنن حكمته الداعيةِ إلى ترتيب الأجزيةِ على أفعال العبادِ، والعدولُ من الإضمار إلى الإظهار لتربية المهابةِ وزيادةِ التقريرِ، وقيل: هو استثناءُ من الخلود في عذاب النار فإنهم لا يخلّدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أُخَرَ من العذاب وبما هو أغلظُ منها كلِّها وهو سَخَطُ الله تعالى عليهم وخَسْؤه لهم وإهانتُه إياهم، وأنت تدري أنا وإن سلّمنا أن المرادَ بالنار ليس مطلقَ دارِ العذاب المشتملةِ على أنواع العذابِ بل نفسَ النار فما خلا عذابَ الزمهريرِ من تلك الأنواعِ مقارِنٌ لعذاب [النار][1] فلا مِصداقَ في ذلك للاستثناء، ولك أن تقول إنهم ليسوا بمخلدين في العذاب الجُسماني الذي هو عذابُ النار بل لهم من أفانين العذاب ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وهي العقوباتُ والآلامُ الروحانية التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمِسون في أحكام الطبيعةِ المقصورُ إدراكُهم على ما أَلِفوا من الأحوال الجُسمانية، وليس لهم استعدادٌ لتلقّي ما وراء ذلك من الأحوال الروحانيةِ إذا أُلقيَ إليهم، ولذلك لم يتعرّض لبيانه واكتُفي بهذه المرتبةِ الإجماليةِ المنبئةِ عن التهويل، وهذه العقوباتُ وإن كانت تعتريهم وهم في النار لكنهم ينسَوْن بها عذابَ النارِ ولا يُحِسّون به، وهذه المرتبةُ كافيةٌ في تحقيق معنى الاستثناءِ هذا، وقد قيل: إلا بمعنى سوى، وهو أوفقُ بما ذكر وقيل: ما بمعنى مَنْ على إرادة

---

(١) سقط في خ.

معنى الوصفيةِ، فالمعنى إن الذين شقُوا في النار مقدرين الخلود فيها إلا الذين شاء الله عدم خلودِهم فيها وهم عصاةُ المؤمنين.

﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ الكلامُ فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يُذكر هاهنا أن لهم فيها بهجةً وسرورًا كما ذكر في أهل النارِ من أنه لهم فيها زفيرٌ وشهيق لأن المقام مقامُ التحذيرِ والإنذار ﴿إلا ما شاء ربك﴾ إنْ حمل على طريقة التعليقِ بالمُحال فقوله سبحانه: ﴿عطاءً غيرَ مجذوذ﴾ نُصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى: ﴿ففي الجنة خالدين فيها﴾ يقتضي إعطاءً وإنعامًا فكأنه قيل: يعطيهم عطاءً وهو إما اسمُ مصدرٍ هو الإعطاءُ أو مصدرٌ بحذف الزوائدِ كقوله تعالى: ﴿أنبتكم من الأرض نباتًا﴾ [الأعراف، الآية ٤٠] وإن حُمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحاني الذي عبّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمِعت ولا خطَر على قلب بشر فهو نصبٌ على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة، أو تمييزٌ فإن نسبةَ مشيئةِ الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاءٍ مجذوذ وعلى جهة عطاءٍ غيرِ مجذوذ فهو رافعٌ للإبهام عن النسبة. قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنةِ فقال: ﴿عطاءً غيرَ مجذوذ﴾ ولم يُخبرنا بالذي يشاء لأهل النارِ ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالأول دفعًا لما يتوهم من ظاهر الاستثناءِ من انقطاعه ﴿فلا تك في مرية﴾ أي في شك، والفاءُ لترتيب النهي على ما قُصّ من القصص وبُيّن في تضاعيفها من العواقب الدنيوية والأخروية ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ أي من جهة عبادةِ هؤلاء المشركين وسوءِ عاقبتها أو من حال ما يعبُدونه من الأوثان في عدم نفعِه لهم. ولمّا كان مَساقُ النظمِ الكريم[1] قبيل الشروعِ في القصص لبيان غايةِ سوءِ حال الكفرةِ وكمالِ حسنِ حالِ المؤمنين، وقد ضُرب لهم مثل فقيل: ﴿مثلُ الفريقين كالأعمى والأصمِّ والبصيرِ والسميعِ هل يستويان مثلًا أفلا تذكرون﴾ [نوح، الآية ١٧] وقد قُص عَقيبَ ذلك من أنباء الأممِ السالفة مع رسلهم المبعوثةِ إليهم ما يتذكر به المتذكِّرُ، نُهي رسولُ الله ﷺ عن كونه في شك من مصير أمرِ هؤلاءِ المشركين في العاجلِ والآجلِ ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ الذين قُصّت عليك قصصُهم ﴿من قبل﴾ أي هم وآباؤُهم سواءٌ في الشرك، ما يعبدون عبادةً إلا كعبادتهم أو ما يعبدون شيئًا إلا مثلَ ما عبدوه من الأوثان، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لحكاية الحالِ

(١) في خ: الشريف.

الماضيةِ لاستحضار صورتِها، أو مثلَ ما كانوا يعبدونه فحُذف كان لِدلالة قولِهِ: (من قبل) عليه، ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثلُ ذلك فإن تماثلَ الأسبابِ يقتضي تماثل المسبَّبات ﴿**وإنا لموفّوهم**﴾ أي هؤلاء الكفرة ﴿**نصيبهم**﴾ أي حظَّهم المعيَّنَ لهم حسب جرائمِهم وجرائرِهم من العذاب عاجلًا وآجلًا كما وفّينا آباءَهم أنصباءَهم المقدّرة لهم، أو من الرزق المقسومِ لهم فيكون بيانًا لوجه تأخُّرِ العذاب عنهم مع تحقق ما يوجبه ﴿**غير منقوص**﴾ حالٌ مؤكدة من النصيب كقوله تعالى: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ [التوبة، الآية ٢٥] وفائدتُه دفعُ توهّم التجوّزِ وجعلُها مقيدةً له لدفع احتمالِ كونِه منقوصًا في حد نفسه مبنيٌّ على الذهول عن كون العاملِ هو التوفيةَ فتأمل.

﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب**﴾ أي التوراةَ ﴿**فاختلف فيه**﴾ أي في شأنه وكونِه من عند الله تعالى فآمن به قومٌ وكفر به آخرون فلا تبالِ باختلاف قومِك فيما آتيناك من القرآن وقولِهم: ﴿لولا أُنزل عليه كنزٌ أو جاء معه مَلكٌ﴾ [هود الآية: ١٢] وزعمِهم أنك افتريتَه ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك**﴾ وهي كلمةُ القضاءِ بإنظارهم إلى يوم القيامةِ على حسب الحِكمةِ الداعيةِ إلى ذلك ﴿**لقضي بينهم**﴾ أي لأوقع القضاءَ بين المختلفين من قومك بإنزال العذابِ الذي يستحقه المبطِلون ليتميّزوا به عن المُحِقّين، وقيل: بين قوم موسى وليس بذاك ﴿**وإنهم**﴾ أي وإن كفارَ قومِك أريد به بعضُ من رجع إليهم ضميرُ بينهم للأمن من الإلباس ﴿**لفي شك**﴾ عظيم ﴿**منه**﴾ أي من القرآن وإن لم يجْرِ له ذكر، فإن ذكرَ إيتاءِ كتابِ موسى ووقوعِ الاختلافِ فيه لا سيما بصدد التسليةِ ينادي به نداءً غيرَ خفي ﴿**مريب**﴾ مُوقِع في الريبة.

﴿**وإن كلاًّ**﴾ التنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه أي وإن كلَّ المختلِفين فيه المؤمنين منهم والكافرين، وقرأ ابنُ كثير، ونافعٌ، وأبو بكر، بالتخفيف[1] مع الإعمال اعتبارًا للأصل ﴿**لما ليوفينهم ربك أعمالهم**﴾ أي أجزيةَ أعمالِهم، واللامُ الأولى موطئةٌ للقسم والثانيةُ جوابٌ للقسم المحذوف، ولما مركبةٌ من مِنْ الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمِن فقلبت النون ميمًا للإدغام فاجتمع ثلاث ميماتٍ فحُذفت

---

(١) خففها أيضًا: عاصم، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٦)، والتيسير للداني ص (١٢٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٩٦).

أولاهن، والمعنى لَمِن الذي أو لِمنْ خلْقٍ أو لمن فريقٍ والله ليوفينهم ربك، وقرئ (لما)[١] بالتخفيف على أن ما مزيدةٌ للفصل بين اللامين، والمعنى: وإن جميعَهم والله ليوفينهم الآية، وقرئ (لمًّا) بالتنوين أي جميعًا كقوله سبحانه: ﴿أكلًا لمًّا﴾ [الفجر، الآية ١٩] وقرأ أبي (وإنْ كلٌّ لمّا ليوفينهم)[٢] على أن (إن) نافية ولما بمعنى إلا وقد قرئ به[٣] ﴿إنه بما يعملون﴾ أي بما يعمله كلُّ فردٍ من المختلفين من الخير والشر ﴿خبير﴾ بحيث لا يخفى عليه شيءٌ من جلائله ودقائقه، وهو تعليلٌ لما سبق من توفية أجزيةِ أعمالِهم فإن الإحاطةَ بتفاصيل أعمالِ الفريقين وما يستوجبه كلُّ عمل بمقتضى الحكمةِ من الجزاء المخصوصِ توجب توفيةَ كلِّ ذي حقٍ حقَّه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشر.

توجيهات للنبي ﷺ

﴿فاستقم كما أمرت﴾ لما بيّن في تضاعيف القصص المَحْكية عن الأمم الماضيةِ سوءُ عاقبة الكفرِ وعصيانِ الرسل وأُشير إلى أن حالَ هؤلاء الكفرةِ في الكفر والضلالِ واستحقاق العذابِ مثلُ أولئك المعذبين وأن نصيبَهم من العذاب واصلٌ إليهم من غير نقص وأن تكذيبَهم للقرآن مثلُ تكذيبِ قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لو لم تسبِقْ كلمةُ القضاءِ بتأخير عقوبتِهم العامةِ ومؤاخذتِهم التامّةِ إلى يوم القيامة لفُعل بهم ما فُعل بآبائهم من قبلُ وأنهم يُوفَّوْن نصيبَهم غيرَ منقوص وأن كل واحدٍ من المؤمنين والكافرين يوفىٰ جزاءَ عملِه.

أُمر رسولُ الله ﷺ بالاستقامة كما أمر به في العقائد والأعمالِ المشتركة[٤] بينه وبين سائِر المؤمنين ولا سيما الأعمالُ الخاصةُ به عليه السلام من تبليغ الأحكامِ

---

(١) قرأ بها: نافع ، وابن كثير، وعاصم، وشعبة، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٦)، والتيسير للداني ص (١٢٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٩٦).

(٢) قرأ بها أيضًا: المطوعي، والحسن، وأبان بن تغلب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٥).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود، والأعمش، وأبي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ١٩٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٨).

(٤) في خ: المشترك.

الشرعية والقيامِ بوظائف النبوةِ وتحمّل أعباءِ الرسالةِ بحيث يدخُل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى: ﴿فلعلك تاركٌ بعضَ ما يوحىٰ إليك وضائقٌ به صدرُك﴾ [هود: ١٢]، وبالجملة فهذا الأمرُ منتظمٌ لجميع محاسنِ الأحكامِ الأصليةِ والفرعية والكمالاتِ النظريةِ والعملية والخروجُ من عُهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**شيبتْني سورةُ هود**»[1] ﴿ومن تاب معك﴾ أي تاب من الشرك والكفرِ وشاركك في الإيمان وهو المعنيُّ بالمعية وهو معطوفٌ على المستكنّ في قوله: (فاستقم)، وحسُن من غير تأكيدٍ لمكان الفاصل القائمِ مَقامَه، وفي الحقيقة هو مِن عطف الجملةِ على الجملة إذ المعنى وليستقم مَنْ تاب معك، وقيل: هو منصوبٌ على أنه مفعولٌ معه كما قاله أبو البقاء، والمعنى استقم مصاحبًا لمن تاب معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تنحرفوا عما حُدّ لكم بإفراط أو تفريط، فإن كِلا طرفي قصدِ الأمور ذميمٌ، وإنما سُمّي ذلك طغيانًا وهو تجاوزُ الحدِّ تغليظًا أو تغليبًا لحال سائرِ المؤمنين على حاله عليه السلام ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم على ذلك وهو تعليلٌ للأمر والنهي، وفي الآية دِلالةٌ على وجوب اتباعِ المنصوص عليه من غير انحرافٍ بمجرد الرأي فإنه طغيانٌ وضلالٌ، وأما العملُ بمقتضى الاجتهادِ التابعِ لعلل النصوصِ فذلك من باب الاستقامةِ كما أمر على موجب النصوصِ الآمرةِ بالاجتهاد ﴿ولا تركَنوا﴾ أي لا تميلوا أدنى ميلٍ ﴿إلى الذين ظلموا﴾ أي إلى الذين وُجد منهم الظلمُ في الجملة، ومدارُ النهي هو الظلمُ، والجمعُ باعتبار جمعيةِ المخاطَبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة في النهي من حيث إن كونهم جماعةً مظِنةُ الرخصةِ في مداهنتهم إنما يتم لو كان المرادُ النهيَ عن الركون إليهم من حيث إنهم جماعةٌ وليس كذلك ﴿فتمسكم﴾ بسبب ذلك ﴿النار﴾ وإذا كان حالُ الميل في الجملة إلى مَنْ وُجد منه ظلمٌ ما في الإفضاء إلى مِساس النارِ هكذا فما ظنُّك بميل من يميل إلى الراسخين في الظلم والعُدوان ميلًا عظيمًا، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتِهم ويُلقي شراشِرَه على مؤانستهم ومعاشرتهم، ويبتهج بالتزيّي بزِيّهم ويمُدّ عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبِطُهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٠٢) كتاب تفسير القرآن، باب: سورة الواقعة، برقم (٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٧٤) كتاب التفسير، باب: سورة هود، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعُف الطالبُ والمطلوب، والآيةُ أبلغُ ما يتصور في النهْي عن الظلم والتهديدِ عليه. وخطابُ الرسولِ ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدلُ فإن الميلَ إلى أحد طرفي الإفراطِ والتفريطِ ظلمٌ على نفسه أو على غيره. وقرئ (تركنوا)[١] على لغة تميم و(تُركَنوا)[٢] على صيغة البناء للمفعول من أركنه.

﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ أي من أنصار يُنقِذونكم من النار، والجملةُ نصبٌ على الحاليه من قوله: (فتمسكم النار)، ونفيُ الأولياءِ ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحدٍ منهم أولياءُ حتى يصدُقَ أن يكون له وليٌّ بل لمكان (لكم) بطريق انقسامِ الآحادِ على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلالِ كلٍّ منهم بنصير، بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصيرٌ بقرينة المقام ﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذبَكم بركونكم إليهم ولا يُبقيَ عليكم، وثم لتراخي رتبةِ كونِهم غيرَ منصورين من جهة الله بعدما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم، ويجوز أن يكون منزلًا منزلة الفاءِ بمعنى الاستبعادِ فإنه لما بيّن أن الله تعالى معذبُهم وأن غيرَه لا ينقذهم أنتج أنهم لا يُنصرون أصلًا.

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ أي غدوةً وعشيةً، وانتصابُه على الظرفيه لكونه مضافًا إلى الوقت ﴿وزلفًا من الليل﴾ أي ساعاتٍ منه قريبةً من النهار، فإنه مِنْ أزلفه إذا قرّبه جمع زُلفة، عطفٌ على طرفي النهار والمرادُ بصلاتهما صلاةُ الغداة والعصرِ، وقيل: الظُهر موضعَ العصر لأن ما بعد الزوال عشيٌّ، وبصلاة الزُلَف المغربُ والعشاء، وقرئ (زُلُفًا) بضمتين[٣] وضمة[٤] وسكون كبُسْر وبُسُر وزُلفى بمعنى زُلفة

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وقتادة، وطلحة، والأشهب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١١٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٩)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٢٩).

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٦).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، والشنبوذي، وطلحة، وعيسى البصري، وعبدالله بن أبي إسحاق، وشيبة، ونصر ابن علي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦١)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٧٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ٧٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٠).

(٤) قرأ بها: الحسن، وابن محيصن، ومجاهد. =

كقربى بمعنى قربة ﴿**إن الحسنات**﴾ التي من جملتها بل عُمدتُها ما أمِرْت به من الصلوات ﴿**يذهبن السيئات**﴾ التي قلما يخلو منها البشر، أي يكفرنها وفي الحديث «**إن الصلاة إلى الصلاة كفارةٌ لما بينهما ما اجتُنبت الكبائر**»[١] وقيل: نزلت في أبي اليَسَر الأنصاريِّ إذ قبّل امرأةً ثم ندِم فأتىٰ رسولَ الله ﷺ فأخبره بما فعل فقال عليه الصلاة والسلام: «**أنتظرُ أمرَ ربي**» فلما صلى صلاةَ العصر نزلت قال عليه السلام: «**نعم اذهب فإنها كفارةٌ لما عمِلْت**»[٢] أو يمنعْن من اقترافها كقوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت، الآية ٤٥].

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فاستقم﴾ فما بعده وقيل: إلى القرآن ﴿**ذكرى للذاكرين**﴾ أي عظةٌ للمتعظين ﴿**واصبر**﴾ على مشاقّ ما أُمِرْت به في تضاعيف الأوامرِ السابقةِ، وأما ما نُهيَ عنه من الطغيان والركون إلى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقةٌ فلا وجهَ لتعميم الصبرِ له، اللهم إلا أن يُراد به ما لا يمكن عادة خلوُّ البشرِ عنه من أدنى ميلٍ بحكم الطبيعةِ عن الاستقامة المأمورِ بها، ومن يسير ميلٍ بحكم البشرية إلى من وُجدَ منه ظلمٌ ما فإن في الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى ﴿**فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ أي يوفيهم أجورَ أعمالهم من غير بخسٍ أصلًا، وإنما عبِّر عن ذلك بنفي الإضاعةِ مع أن عدمَ إعطاءِ الأجرِ ليس بإضاعةٍ حقيقةً، كيف لا والأعمالُ غيرُ موجبةٍ للثواب حتى يلزَم من تخلفه عنها ضياعُها، لبيان كمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدورُه عنه سبحانه من القبائح وإبرازِ الإثابةِ في معرض الأمورِ الواجبة عليه، وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدةٍ عامةٍ لكل من يتصف به، وهو تعليلٌ للأمر بالصبر، وفيه إيماءٌ إلى أن الصبرَ على ما ذكر من باب الإحسان.

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦١)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٧٧) وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٠).

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٩) كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة: برقم (١٦/ ٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
بلفظ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٢٦٠) كتاب التفسير، باب: حديث (٤٦٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١١٥) كتاب التوبة، باب الحسنات يذهبن السيئات، حديث (٣٩)، وأحمد (١/ ٣٨٥، ٤٣٠)، وابن ماجه (١٣٩٨، ٤٢٥٤)، والترمذي (٣١١٤)، والنسائي في التفسير (٢٦٧)، وابن خزيمة (٢١٢)، وابن حبان (١٧٢٩)، والطبراني في الكبير (١٠٥٦٠)، والبيهقي (٨/ ٢٣١) كلهم من طريق أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿**فلولا كان**﴾ فهلا كان ﴿**من القرون**﴾ الكائنةِ ﴿**من قبلكم**﴾ على رأي من جوّز حذفَ الموصولِ مع بعض صلتِه أو كائنةً من قبلكم ﴿**أولو بقية**﴾ من الرأي والعقلِ أو أولو فضلٍ وخير، وسُمّيا بها لأن الرجلَ إنما يستبقي مما يخرجه عادة أجودَه وأفضلَه، فصار مثلًا في الجودة والفضلِ ويقال: فلان من بقيةِ القومِ أي من خيارِهم، ومنه ما قيل: «في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا»، ويجوز أن تكون البقيةُ بمعنى البقوىٰ كالتقية من التقوى، أي فهلا كان منهم ذوو إبقاءٍ على أنفسهم وصيانةٍ لها من سخط الله تعالى وعقابه، ويؤيده أنه قرئ (أولو بقْيةٍ)[1] وهي المرّةُ من مصدر بقاه يَبقيه إذا راقبه وانتظره أي أولو مراقبةٍ وخشيةٍ من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزولَه لإشفاقهم ﴿**ينهون عن الفساد في الأرض**﴾ الواقع منهم حسبَ ما حُكي عنهم ﴿**إلا قليلًا ممن أنجينا منهم**﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي لكن قليلًا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفةِ على أن (مِنْ) للبيان لا للتبعيض لأن جميعَ الناجين ناهون، ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلامِ لأنه يكون تحضيضًا لأولي البقية على النهي المذكورِ إلا للقليل من الناجين منهم كما إذا قلت هلاّ قرأ قومُك القرآن إلا الصلحاءَ منهم مريدًا لاستثناء الصلحاءِ من المُحضَّضين على القراءة، نعم يصح ذلك إن جعل استثناءً من النفي اللازمِ للتحضيض، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقيةٍ إلا قليلًا منهم، لكنَّ الرفعَ هو الأفصحُ حينئذ على البدلية ﴿**واتبع الذين ظلموا**﴾ بمباشرة الفسادِ وتركِ النهي عنه ﴿**ما أترفوا فيه**﴾ أي أُنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها، وأما المباشرون فظاهرٌ وأما المساهلون فلِما لهم في ذلك من نيل حظوظِهم الفاسدة. وقيل: المرادُ بهم تاركو النهي، وأنت خبيرٌ بأنه يلزم منه عدمُ دخولِ مباشري الفسادِ في الظلم والإجرام عادة ﴿**وكانوا مجرمين**﴾ أي كافرين فهو بيانٌ لسبب استئصالِ الأمم المُهلَكة وهو فشوُّ الظلمِ واتباعُ الهوى فيهم وشيوعُ ترك النهي عن المنكرات مع الكفر، وقوله: واتّبع عطفٌ على مضمر دل عليه الكلامُ، أي لم ينهَوا واتبع إلخ فيكون العدولُ إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيلِ عليهم بالظلم، وللإشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب، أو على استئنافٍ يترتب على قوله: إلا قليلًا أي إلا قليلًا ممن أنجينا منهم نهَوا عن الفساد وتاركي النهي عنه، فيكون الإظهارُ مقتضى الظاهِرِ، وقوله: وكانوا مجرمين عطفٌ على أترفوا أي اتبعوا الإتراف، وكونُهم مجرمين لأن تابعَ الشهواتِ مغمورٌ بالآثام، أو أريد بالإجرام

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٧١).

إغفالُهم للشكر، أو على اتبع أي اتبعوا شهواتِهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين، ويجوز أن يكون اعتراضًا وتسجيلًا عليهم بأنهم قومٌ مجرمون، وقرئ (وأُتْبع)(١) أي أُتبعوا جزاءَ ما أُترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يُفسَّر به المشهورةُ، ويعضُده تقدم الإنجاء.

﴿وما كان ربك ليهلك القرى﴾ أي ما صح وما استقام بل استحال في الحكمةِ أن يُهلك القرى التي أهلكها حسب ما بلغك أنباؤها ويُعلم من ذلك حالُ باقيها من القرى الظالمةِ واللام لتأكيد النفي وقوله: ﴿بظلم﴾ أي ملتبسًا به، قيل: هو حالٌ من الفاعل أي ظالمًا لها، والتنكيرُ للتفخيم والإيذانِ بأن إهلاكَ المصلحين ظلمٌ عظيم، والمرادُ تنزيهُ الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى وإلا فلا ظلمَ فيما فعله الله تعالى بعباده كائنًا ما كان لِما تقرّر من قاعدة أهلِ السنة وقد مر تفصيلُه في سورة آل عمرانَ عند قولِه تعالى: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [آل عمران، الآية ١٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وأهلها مصلحون﴾ حالٌ من المفعول والعاملُ عامله ولكن لا باعتبار تقيّدِه بما وقع حالًا من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقيد نفي الإهلاكِ ظلمًا بحال كونِ أهلِها مصلحين، ولا ريب في فساده بل مطلقًا عن ذلك، وقيل: المرادُ بالظلم الشركُ والباء للسببية أي لا يُهلك القرى بسبب إشراك أهلِها وهم مُصلِحون يتعاطَوْن الحقَّ فيما بينهم ولا يضمُّون إلى شركهم فسادًا آخرَ، وذلك لفرط رحمتِه ومسامحتِه في حقوقه تعالى، ومن ذلك قدَّم الفقهاءُ عند تزاحم الحقوقِ حقوقَ العبادِ الفقراءِ على حقوق الله تعالى الغنيِّ الحميد، وقيل: المُلكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم، وأنت تدري أن مقامَ النهي عن المنكرات التي أقبحُها الإشراكُ بالله لا يلائمه، فإن الشركَ داخلٌ في الفساد في الأرض دخولًا أوليًا، ولذلك كان ينهي كلٌّ من الرسل ، الذين قُصّت أنباؤهم ، أمتَه أولًا عن الإشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطَونها، فالوجهُ حملُ الظلمِ على مطلق الفسادِ الشاملِ للشرك وغيرِه من أصناف المعاصي، وحملُ الإصلاحِ على إصلاحه والإقلاعِ عنه بكون بعضهم متصدّين للنهي عنه وبعضِهم متوجّهين إلى الاتعاظ غيرَ مُصرِّين على ما هم عليه من الشرك وغيرِه من أنواع الفساد.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وجعفر بن محمد، والعلاء بن سيابة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٩٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣١).

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ مجتمعةً على الحق ودين الإسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحدٌ ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في الحق أي مخالفين له كقوله تعالى: ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البيناتُ بغيًا بينهم﴾ [البقرة، الآية ٢١٣].

﴿إلا من رحم ربك﴾ إلا قومًا قد هداهم الله تعالى بفضله إلى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أي لم يخالفوه، وحملُه على مطلق الاختلاف الشاملِ لِما يصدر من المُحق والمُبطل يأباه الاستثناءُ المذكور ﴿ولذلك﴾ أي ولما ذكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أي الذين بقُوا بعد الثنيا وهو المختلِفون، فاللامُ للعاقبة أو للترحم فالضميرُ لمن واللام في معناها أو لهما معًا فالضميرُ للناس كافةً واللام بمعنى مجازيٍّ عامّ لكلا المعنيين ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أي وعيدُه أو قولُه للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي [من][1] عُصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما، ﴿وكلاًّ﴾ أي وكلَّ نبأ فالتنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه ﴿نقص عليك﴾ نخبرك به.

وقوله تعالى: ﴿من أنباء الرسل﴾ بيانٌ لـ (كُلاًّ) وقوله تعالى: ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدلٌ منه والأظهر أن يكون المضافُ إليه المحذوفُ في (كلاًّ) المفعولَ المطلق لـ (نقصُّ) أي كلَّ أسلوبٍ من أساليبه نقصُّ عليك من أنباء الرسل.

وقوله تعالى: ﴿ما نثبت به فؤادَك﴾ مفعولُ نقصّ وفائدتُه التنبيهُ على أن المقصودَ بالاقتصاص زيادةُ يقينه عليه السلام وطُمأنينةُ قلبه وثباتُ نفسه على أداء الرسالة واحتمالِ أذية الكفارِ بالوقوف على تفاصيل أحوالِ الأممِ السالفة في تماديهم في الضلال وما لقيَ الرسلُ من جهتهم من مكابدة المشاقّ ﴿وجاءك في هذه﴾ السورة أو الأنباءِ المقصوصة عليك ﴿الحقُّ﴾ الذي لا محيد عنه ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي الجامعُ بين كونه حقا في نفسه وكونهِ موعظةً وذكرى للمؤمنين، ولكون الوصفِ الأولِ حالًا له في نفسه حُلّي باللام دون ما هو وصفٌ له بالقياسِ إلى غيره، وتقديمُ الظرفِ أعني (في هذه) على الفاعل لأن المقصودَ بيانُ منافعِ السورةِ أو الأنباءِ المقصوصةِ فيها واشتمالِها على ما ذكر من المنافع المفصلةِ لا بيانُ كونِ ذلك فيها لا في غيرها ولأن عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ تبقى النفسُ مترقبةً إليه فيتمكن فيها عند الورودِ فضل تمكّنٍ ولأن في المؤخَّر نوعَ طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم.

﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحقِّ ولا يتعظون به ولا يتذكرون ﴿اعملوا على

---

(١) سقط في خ.

مكانتكم﴾ على حالكم وجِهتِكم التي هي عدمُ الإيمان **﴿إنا عاملون﴾** على حالنا وهو الإيمانُ به والاتعاظُ والتذكرُ به **﴿وانتظروا﴾** بنا الدوائرَ **﴿إنا منتظرون﴾** أن ينزل بكم نحوُ ما نزل بأمثالكم من الكفرة **﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾** فيرجع لا محالة أمرُك وأمرُهم إليه وقرئ على البناء[١] للفاعلِ من رجع رجوعًا **﴿فاعبده وتوكلِ عليه﴾** فإنه كافيك، والفاءُ لترتيب الأمرِ بالعبادة والتوكلِ على كون مرجعِ الأمور كلِّها إلى الله تعالى[٢]، وفي تأخير الأمرِ بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنه لا ينفع دونها **﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾** فيجازيهم بموجبه وقرئ (تعملون)[٣] على تغليب المخاطَب أي أنت وهم فيجازي كلاًّ منك ومنهم بموجب الاستحقاق.

عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورةَ هودٍ أُعطيَ [من الأجر]**[٤] **عشر حسناتٍ بعدد مَنْ صدّق كلَّ واحدٍ من الأنبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد مَنْ كذّبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى**»[٥].

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٧٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٨٩)، والتيسير للداني ص (١٢٦)، والحجة لابن خالويه ص (١٩١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٣)، والكشف للقيسي (١/ ٥٣٨).

(٢) في خ: عز وجل.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وعيسى بن عمر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦١)، والإعراب للنحاس (٢/ ١١٨)، والتبيان للطوسي (٦/ ٨٩)، والتيسير للداني ص (١٢٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ١١٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٩١)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٣)، والمعاني للأخفش (٢/ ٣٦٠).

(٤) سقط في خ.

(٥) تقدم تخريجه.

سورة يوسف عليه السلام

مكيَّة وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿آلر﴾ الكلامُ فيه وفي محله وفيما أريد بالإشارة والآياتِ والكتابِ في قوله

تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ عيْنُ ما سلف في مطلع سورةِ يونسَ ﴿المبين﴾ من أبان بمعنى بان أي الظاهرِ أمرُه في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبارُ عن الغيب، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقُه ولا يلتبس لديهم دقائقُه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بيّن أي: المبين لِما فيه من الأحكام والشرائعِ وخفايا المُلكِ والملكوتِ وأسرارِ النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص، وعلى تقدير كونِ الكتاب عبارةً عن السورة فإبانتُه إنباؤُه عن قصة يوسفَ عليه السلام، فإنه قد رُوي أن أحبارَ اليهودِ قالوا لرؤساء المشركين: سلوا محمدًا ﷺ لماذا انتقل آلُ يعقوبَ من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسفَ عليه السلام ففعلوا ذلك. فيكون وصفُ الكتابِ بالإبانة من [قبيل][1] براعةِ الاستهلالِ[2] لما سيأتي، ولمّا وُصف الكتابُ بما يدل على الشرف الذاتي عُقِّب ذلك بما يدل على الشرف الإضافي فقيل: ﴿إنا أنزلناه﴾ أي الكتابَ المنعوتَ بما ذكر من النعوت الجليلةِ، فإن كان عبارةً عن الكل وهو الأظهرُ الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿قرآنا عربيا﴾ إذ هو المشهورُ بهذا الاسم المعروفِ بهذا النعت المتسارعِ إلى الفهم عند إطلاقِهما فالأمرُ ظاهرٌ، وإنْ جُعل عبارةً عن السورة فتسميتُها قرآنًا لَما عَرفته فيما سلف، والسرُّ في ذلك أنه اسمُ جنسٍ في الأصل يقع على الكل والبعضِ كالكتاب، أو لأنه مصدرٌ بمعنى المفعول أي أنزلناه حالَ كونِه مقروءًا بلغتكم ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تفهموا معانيَه طرًّا وتحيطوا بما فيه من البدائع خُبْرًا وتطّلعوا على أنه خارجٌ عن طوق البشر

---

(١) سقط في خ.

(٢) براعة الاستهلال فن رفيع، قال الخطيب: وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى براعة الاستهلال، وهو نوع من حسن الابتداء وقد خصه المتأخرون بما تضمن معنى سيق الكلام لأجله، وجعلوه نوعًا أخص من حسن الابتداء، وقال عنه العلوي: هو ركن من أركان البلاغة، وحقيقة آيلة إلى أنه ينبغي لكل من تصدى لمقصد من المقاصد، وأراد شرحه بكلام، أن يكون مفتتح كلامه ملائمًا لذلك المقصد دالا عليه، وقد توسع الناس في الحديث عن هذا الفن.
ينظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٦٢)، والوساطة بين المتنبي وخصومه (٤٨)، والبديع لابن المعتز (٧٥)، والصناعتين (٤٨٩)، والبديع لأسامة بن منقذ (٢٨٥)، وشروح التلخيص (٤/ ٥٤٥)، وعيار الشعر لابن طباطبا (١٢٢، ١٢٣)، والعمدة (١/ ٢١٥)، وشرح عقود الجمان (١٧٢) وما بعدها، وحلية اللب المصون (١٧٤)، وسر الفصاحة (٢٧٠)، والمثل السائر (١/ ٩٦)، وتحرير التحبير (٦٨)، وبديع القرآن (٦٤)، والمصباح لابن مالك (١٢٤)، والتبيان للطيبي (٢٦٨)، والإيضاح مع البغية (٤/ ١٥١)، وأنوار الربيع وحسن الصنيع (٢١٥)، والإشارات والتنبيهات (٣٢١، ٣٢٢)، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، (٣٠١، ٣٠٩)، والطراز للعلوي (٢/ ٢٦٦)، والفوائد (١٣٧)، والمطول (٤٧٨).

منزَّلٌ من عند خلاق القُوى والقدر. ﴿نحن نقص عليك﴾ أي نخبرك ونحدّثك، واشتقاقُه من قصَّ أثرَه إذا اتّبعه لأن مَنْ يقُصّ الحديثَ يتّبع ما حفِظ منه شيئًا فشيئًا كما يقال: تلا القرآن لأنه يتّبع ما حفِظ منه آيةً بعد آية ﴿أحسن القصص﴾ أي أحسن الاقتصاص فنصبُه على المصدرية وفيه مع بيان الواقعِ إيهامٌ لما في اقتصاص أهلِ الكتاب من القُبح والخلل، وتركُ المفعولِ إما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل: ﴿بما أوحينا﴾ أي بإيحائنا ﴿إليك هذا القرآن﴾ أي هذه السورةَ فإن كونَها مُوحاةً منبئ عن كون ما في ضمنها مقصوصًا، والتعرضُ لعنوان قرآنيتِها لتحقيق أن الاقتصاصَ ليس بطريق الإلهامِ أو الوحي غيرَ المتلوِّ، وإما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماءِ اليهودِ، وأحسنيّتُه لأنه قد اقتُصّ على أبدع الطرائق الرائعةِ الرائقةِ وأعجبِ الأساليب الفائقةِ اللائقةِ كما لا يكاد يخفى على من طالع القصةَ من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغثّ من السمين، ولا يفرّق بين الشمال واليمين، وفي كلمة هذا إيماءٌ إلى مغايرة هذا القرآنِ لما في قوله تعالى: ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ بأن يكون المرادُ بذلك المجموعَ فتأمل. أو نقص عليك أحسنَ ما نقص من الأنباء وهو قصةُ آلِ يعقوبَ عليه السلام على أن القَصصَ فَعَلٌ بمعنى المفعول كالنبأ والخبر، أو مصدرٌ سُمّي به المفعولُ كالخلْق والصيد، ونصبُ أحسنَ على المفعولية وأحسنيّتُها لتضمنها من الحِكم والعِبر ما لا يخفى كمالُ حسنه ﴿وإن كنت﴾ إن مخففةٌ من الثقيلة، وضميرُ الشأنِ الواقعُ اسمًا لها محذوفٌ واللامُ فارقةٌ والجملةُ خبرٌ والمعنى وإنّ الشأن كنت ﴿من قبله﴾ من قبل إيحائِنا إليك هذه السورةَ ﴿لمن الغافلين﴾ عن هذه القصة لم تخطُر ببالك ولم تقرَعْ سمعَك قطُّ، وهو تعليلٌ لكونه مُوحى، والتعبيرُ عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأنِ النبيِّ عليه السلام وإن غفَل عنه بعضُ الغافلين.

﴿إذ قال يوسف﴾ نُصب بإضمار اذكرْ وشروعٌ في القصة إنجازًا للوعد بأحسنِ الاقتصاصِ، أو بدلٌ من أحسنَ القصصِ على تقدير كونِه مفعولًا بدلَ اشتمالٍ، فإن اقتصاصَ الوقتِ المشتملِ على المقصوص من حيث اشتمالُه عليه اقتصاصٌ للمقصوص، ويوسُفُ اسمٌ عبريٌّ لا عربيٌّ لخلوّه عن سبب آخرَ غيرِ التعريف، وفتح[1] السين وكسرها[2] على بعض القراءات بناءً على التلعّب به لا على أنه مضارعٌ

(١) ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠١)، وتفسير الرازي (١٨/ ٨٦).

(٢) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠١)، وتفسير الرازي (١٨/ ٨٦).

بُني للمفعول أو الفاعلِ من آسَف لشهادة المشهورة بعجمته ﴿لأبيه﴾ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام، وقد روي عنه عليه السلام: «**إن الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**»[١] ﴿يا أبت﴾ أصله يا أبي فعوِّض عن الياء تاءُ التأنيثِ لتناسُبهما في الزيادة فلذلك قُلبت هاءً في الوقف على قراءة[٢] ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوبَ، وكسرتُها لأنها عوضٌ عن حرف يناسبها وفتحها ابنُ عامر[٣] في كل القرآن لأنها حركةُ أصلها، أو لأن الأصلَ يا أبتا فحُذف الألفُ وبقيت الفتحة، وإنما لم يُجز يا أبتي لأنه جمعٌ بين العِوض والمعوَّض، وقرئ[٤] بالضم إجراءً لها مُجرى الألفاظِ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويضِ وعدم تسكينها كأصلها لأنها حرفٌ صحيحٌ منزلٌ منزلةَ الاسمِ فيجب تحريكها ككاف الخطاب.

﴿إني رأيت﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله: ﴿لا تقصصْ رؤياك﴾ [يوسف، الآية ٥] و﴿هذا تأويلُ رؤياي﴾ [يوسف، الآية ١٠٠] ولأن الظاهرَ أن وقوعَ مثلِ هذه الأمور البديعةِ في عالم الشهادةِ لا يختص برؤية راءٍ دون راءٍ فيكون طامّةً كبرى لا يخفى على أحد من الناس ﴿أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر﴾ روي عن جابر رضي الله عنه: (أن يهوديا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسُف عليه السلام، فسكت النبيُّ عليه السلام فنزل جبريلُ عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام: «**إذا أخبرتك بذاك هل تسلم؟**» فقال: نعم، قال عليه السلام: «**جريانُ والطارقُ والذيال وقابسُ وعمودان والفليقُ والمصبحُ والضّروحُ والفرعُ ووثّابُ وذو الكتفين، رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر ونزلن من السماء وسجَدْن له**» فقال اليهوديُّ: إي والله إنها لأسماؤها)[٥] وقيل: الشمس والقمرُ أبواه، وقيل: أبوه

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، برقم (٣٣٩٠)، من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

(٢) قرأ بها أيضًا: ابن عامر، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والبحر المحيط (٥/ ٢٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٢)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٤).

(٣) قرأ بها: أبو جعفر، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٧)، والتبيان للطوسي (٦/ ٩٤)، والتيسير للداني ص (١٢٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٢١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٠٧).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠١)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٢).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣٨) كتاب تعبير الرؤيا، من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا.

وخالتُه والكواكبُ إخوتُه، وإنما أُخِّر الشمسُ والقمر عن الكواكب لإظهار مزيتِهما وشرفِهما على سائر الطوالعِ بعطفهما عليهما كما في عطف جبريلَ وميكائيلَ على الملائكة عليهم السلام، وقد جُوِّز أن تكون الواو بمعنى مع أي رأيت الكواكبَ مع الشمس والقمر، ولا يبعُد أن يكون ذلك إشارةً إلى تأخر ملاقاتِه عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته. وعن وهب أن يوسفَ عليه السلام رأى وهو ابنُ سبعِ سنين أن إحدى عشرةَ عصًا طِوالًا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الداوة وإذا عصًا صغيرةٌ تثب عليها حتى اقتلعتْها وغلبتْها فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكرَ هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرةَ سنةً الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تسجُد له فقصّها على أبيه، فقال: لا تقصَّها عليهم فيبغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسفَ ومصير إخوتِه إليه أربعون سنةً، وقيل: ثمانون ﴿**رأيتهم لي ساجدين**﴾ استئنافٌ ببيان حالِهم التي رآهم عليها كأن سائلًا سأل فقال: كيف رأيتهم؟ فأجاب بذلك، وإنما أُجريت مُجرى العقلاءِ في الضمير لوصفها بوصف العقلاءِ السجود، وتقديمُ الجار والمجرور لإظهار العنايةِ والاهتمام بما هو الأهمُّ مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة.

﴿**قال يا بني**﴾ صغّره للشفقة، أو لها ولصِغَر السن، وهو أيضًا استئنافٌ مبنيٌ على سؤال من قال: فماذا قال يعقوبُ بعد سماعِ هذه الرؤيا العجيبةِ؟ ولمّا عرَف يعقوبُ عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسفَ يبلّغه الله تعالى مبلغًا جليلًا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرامِ خاف عليه حسَدَ الإخوة وبغيَهم فقال صيانةً لهم من ذلك وله من معاناة المشاقِّ ومقاساةِ الأحزان، وإن كان واثقًا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لا محالة وطمعًا في حصوله بلا مشقة: ﴿**لا تقصص رؤياك**﴾ هي ما في المنام كما أن الرؤيةَ ما في اليقظة، فُرّق بينهما بحرفي التأنيث كما في القربى والقربة، وحقيقتُها ارتسامُ الصورةِ المنحدرة من أفق المُتخيّلة إلى الحس المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتصال النفسِ بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغِها من تدبير البدنِ أدنى فراغٍ فتتصور بما فيها مما يليق من المعاني الحاصلةِ هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشتركِ فتصير مشاهِدةً ثم إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوتُ إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه ﴿**على إخوتك فيكيدوا**﴾ نصب بإضمار (أن) أي فيفعلوا ﴿**لك**﴾ أي لأجلك ولإهلاكك ﴿**كيدًا**﴾ متينًا راسخًا لا تقدر على التفصّي عنه، أو خفيًا عن فهمك لا تتصدى لمدافعته، وهذا أوفقُ بمقام التحذير وإن كان يعقوبُ عليه السلام يعلم أنهم ليسوا

بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه، وهذا الأسلوبُ آكدُ من أن يقال: فيكيدوك كيدًا، إذ ليس فيه دِلالةٌ على كون نفس الفعلِ مقصودَ الإيقاع، وقد قيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيالِ المتعدِّي باللام ليفيد معنى المضمَّنِ والمضمّن فيه للتأكيد أي فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلةً وكيدًا، والمرادُ بـ (إخوته) هاهنا الذين يَخشى غوائلَهم ومكايدَهم بنو عَلاّته الأحدَ عشرَ، وهم يهوذا وروبيلُ وشمعونُ ولاوي وربالون ويشجُرُ ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالي وجاد وآشر بنوه من سريّتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشارُ إليهم بالكواكب الأحدَ عشر.

وأما بنيامين الذي هو شقيقُ يوسفَ عليه السلام وأمُّهما راحيل التي تزوجها يعقوبُ عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أو في حياتها إذ لم يكن جمعُ الأختين إذ ذاك محرمًا فليس بداخل تحت هذا النهي إذ لا يتوهم مضرّتُه ولا يُخشى معرّتُه ولم يكن معدودًا معهم في الرؤيا إذ لم يكن معهم في السجود ليوسف والمرادُ نهيُه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلاً أو بعضًا.

﴿**إن الشيطان للإنسان عدو مبين**﴾ ظاهرُ العداوة فلا يألو جهدًا في إغواء إخوتِك وإضلالِهم وحملهم على ما لا خير فيه، وهو استئنافٌ كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة؟ فقيل: إن الشيطان يحمِلهم على ذلك، ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنًا عظيمًا يستتبع منافعَ، وحذّره إشاعتَها المؤديةَ إلى أن يحول إخوتُه بينها وبين ظهورِ آثارِها وحصولِها أو يُوعروا سبيلَ وصولِها، شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال: ﴿**وكذلك**﴾ أي ومثلَ ذلك الاجتباءِ البديعِ الذي شاهدتَ آثارَه في عالم المثالِ من سجود تلك الأجرامِ العلوية النيِّرةِ لك، وبحسَبه وعلى وَفْقه ﴿**يجتبيك ربك**﴾ يختارك لجناب كبريائِه ويستنبئك افتعال من جباه إذا جمعه، ويصطفيك على أشراف الخلائقِ وسَراةِ الناس قاطبةً ويُبرز مصداق تلك الرؤيا في عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور، والمرادُ بالتشبيه بيانُ المضاهاةِ المتحققةِ بين الصور المرئيةِ في عالم المثالِ وبين ما وقعت هي صورًا وأشباحًا له من الكائنات الظاهرةِ بحسبها في عالم الشهادة، أي كما سُخّرت لك تلك الأجرامُ العظامُ يسخِّر لك وجوهَ الناس ونواصيَهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة، ومرادُه بيانُ إطاعةِ أبويه وإخوتِه له لكنه إنما لم يصرّح به حذرًا من إذاعته ﴿**ويعلمك**﴾ كلامٌ مبتدأٌ غيرُ داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيدَ مقالته وتحقيقَها وتوطينَ نفسِ يوسفَ عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبيرِ والتأويل، كأنه قال وهو يعلمك ﴿**من تأويل الأحاديث**﴾ أي ذلك

الجنسِ من العلوم أو طرفًا صالحًا منه فتطّلع على حقيّة ما أقول، ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعثِ على تلقي ما سيأتي بالقبول، والمرادُ بتأويل الأحاديث تعبيرُ الرؤيا إذ هي أحاديثُ الملَكِ إن كانت صادقةً أو أحاديثُ النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك، والأحاديثُ اسم جمعٍ للحديث كالأباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أُحدوثة، وقيل: كأنهم جمعوا حديثًا على أحْدِثة ثم جمعوا الجمعَ على أحاديث كقطيع وأقطِعة وأقاطيع، [وقيل: هو تأويلُ غوامضِ كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام، والأولُ هو الأظهرُ][1]، وتسميةُ التعبير تأويلًا لأنه جُعل المرئيُّ آيلًا إلى ما يذكره المعبِّرُ بصدد التعبير ورجْعِه إليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبَيْ السجنِ ورؤيا الملِك وكون ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة، وإنما عرَف يعقوبُ عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي، أو أراد كونَ هذه الخَصلةِ سببًا لظهور أمرِه عليه السلام على الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفتُه عليه السلام لذلك بطريق الفِراسةِ والاستدلال من الشواهد والدلائل والأَمارات والمخايل بأن مَن وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالِها وتمييز ما هو آفاقيٌّ منها مما هو أنفُسيٌّ. كيف لا وهي تدل على كمال تمكّن نفسِه عليه السلام في عالم المثال وقوةِ تصرفاتِها فيه فيكون أقبلَ لفيضان المعارفِ المتعلّقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعةِ بحسبها في عالم الشهادةِ وأقوى وقوفًا على النِّسب الواقعة بين الصور المعاينةِ في أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرةِ على وفقها في العالم الآخر، وأن هذا الشأنَ البديلَ لا بد أن يكون أنموذجًا لظهور أمرِ من اتصف به ومدارًا لجريان أحكامِه فإن لكل نبيٍّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزةً بها تظهر آثارُه وتجري أحكامُه ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾ بأن يضم إلى النبوة المستفادةِ من الاجتباء المُلكَ ويجعله تتمة لها، وتوسيطُ ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوةِ والاجتباءِ ولرعاية ترتيبِ الوجود الخارجي ولِما أشرنا إليه من كون أثرِه وسيلةً إلى تمام النعمةِ، ويجوز أن يعدّ نفسُ الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميعُ النعم الواصلة إليه من كون أثره وسيلة إلى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقًا لها تمامًا لتلك النعمة.

---

(١) سقط في خ.

﴿**وعلى آل يعقوب**﴾ وهم أهلُه من بنيه وغيرهم فإن رؤيةَ يوسفَ عليه السلام إخوتَه كواكبَ يُهتدىٰ بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدِلالتها على مصير أمرِهم إلى النبوة فيقع كلُّ ما يخرج من القوة إلى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تمامًا لتلك النعمةِ لا محالة، وأما إذا أريد بتمام تلك النعمةِ المُلكُ فكونُه كذلك بالنسبة إليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثارَه من العزِ والجاهِ والمال، ﴿**كما أتمها على أبويك**﴾ نصبٌ على المصدرية أي ويتم نعمتَه عليك إتمامًا كائنًا كإتمام نعمتِه على أبويك وهي نعمةُ الرسالةِ والنبوةِ وإتمامُها على إبراهيمَ عليه السلام باتخاذه خليلًا وإنجائه من النار ومن ذبح الولدِ، وعلى إسحاقَ بإنجائه من الذبح وفدائِه بذِبْحٍ عظيم وبإخراج يعقوبَ والأسباطِ من صُلبه وكلٌّ ذلك نعمٌ جليلة وقعت تتمةً لنعمة النبوة. ولا يجب في تحقيق التشبيهِ كونُ ذلك في جانب المشبّه به[(١)] مثلَ ما وقع في جانب المشبه من كل وجه ﴿**من قبل**﴾ أي من قبل هذا الوقت أو من قبلك ﴿**إبراهيم وإسحق**﴾ عطفُ بيانٍ لأبويك، والتعبيرُ عنهما بالأب من كونهما أبا جدِّه وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطِه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكيرِ معنى: الولدُ سرُّ أبيه ليطمئن قلبُه بما أخبر به في ضمن التعبيرِ الإجمالي لرؤياه، والاقتصارُ في المشبه به على ذكر إتمام النعمةِ من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فإن إتمامَ النعمةِ يقتضي سابقةَ النعمة المستدعيةِ للاجتباء لا محالة ﴿**إن ربك**﴾ استئنافٌ لتحقيق مضمونِ الجُمل المذكورةِ أي يفعل ما ذكر لأنه ﴿**عليم**﴾ بكل شيءٍ فيعلم من يستحق الاجتباءَ وما يتفرَّع عليه من التعليم المذكورِ وإتمامِ النعمةِ العامة على الوجه المذكور ﴿**حكيم**﴾ فاعلٌ لكل شيءٍ حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جريًا على سنن علمِه وحكمتِه، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ في الموضعين لتربية تحققِ وقوعِ ما ذكر من الأفاعيل. هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمةِ: أي وكما اجتباك لمثلِ هذه الرؤيا الدالةِ على شرف وعزٍّ وكمالِ نفس يجتبيك ربُّك للنبوة والمُلك أو لأمور عِظام ويُتمُّ نعمتَه عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمةَ الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياءَ وملوكًا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة، فتأمل والله الهادي.

---

(١) والتشبيه في قوله: ﴿كما أتمها على أبويك من قبل﴾ تذكير لهم بنعم سابقة، وليس مما دلت عليه الرؤيا، ثم إن كان المراد من إتمام النعمة النبوة فالتشبيه تام، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك، فالتشبيه في إتمام النعمة على الإطلاق.
ينظر: التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٧)، والإيضاح (١٤٥)، وأسرار البلاغة (٩٦).

﴿لقد كان في يوسف وإخوته﴾ أي في قصتهم والمرادُ بهم هاهنا إما جميعُهم، فإن لبنيامينَ أيضًا حصةً من القصة، أو بنو عَلاّته[١] المعدودون فيما سلف إذ عليهم يدور رحاها ﴿آيات﴾ علاماتٌ عظيمةُ الشأنِ دالةٌ على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة ﴿للسائلين﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فإنهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون مَنْ عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿وكأيْن من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها مُعرضون﴾ [يوسف، الآية ١٠٥] فالمرادُ بالقصة نفسُ المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ما هي عليه من غير سماعٍ من أحد ولا ممارسةِ شيء من الكتب فالمرادُ بها اقتصاصُها، وجمعُ الآيات حينئذٍ للإشعار بأن اقتصاصَ كلِّ طائفةٍ من القصة آيةٌ بينةٌ كافيةٌ في الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر في قوله تعالى: ﴿مقامُ إبراهيم﴾ [البقرة: ١٢٥] على تقدير كونِه عطفَ بيان لقوله تعالى: ﴿آياتٌ بيناتٌ﴾ [البقرة: ٩٩] لا لما قيل من أنه لتعدد جهةِ الإعجاز لفظًا ومعنى، وقرأ ابن كثير (آيةٌ)[٢] وفي بعض المصاحف (عبرةٌ)[٣] وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي ﷺ خبرَ يوسفَ وبغْيَ إخوتِه عليه لِما رأى من بغْي قومه عليه ليتأسّى به ﴿إذ قالوا لَيوسف وأخوه﴾ أي شقيقُه بنيامينُ وإنما لم يذكَرْ باسمه تلويحًا بأن مدار المحبةِ أُخوّتُه ليوسف من الطرفين، ألا يُرى إلى أنهم كيف اكتفَوا بإخراج يوسفَ من البين من غير تعرُّضٍ له حيث قالوا: اقتلوا يوسف ﴿أحب إلى أبينا منا﴾ وحّد الخبر مع تعدد المبتدأ لأن أفعل من كذا لا يفرّق فيه بين الواحدِ وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث، نعم إذا عُرِّف وجب الفرقُ وإذا أضيف جاز الأمران، وفائدةُ لام الابتداءِ في يوسف تحقيقُ مضمونِ الجملة وتأكيدُه ﴿ونحن عصبة﴾ أي والحالُ أنا جماعةٌ قادرون على الحل والعقد أحقاءُ بالمحبة، والعُصبة والعِصابة العشَرةُ من الرجال فصاعدًا سُمّوا بذلك لأن الأمورَ تُعصَب بهم ﴿إن أبانا﴾

---

(١) بنو العلاَّت: بنو رجل واحد من أمهات شتَّى.
وفي الحديث: «الأنبياء أولاد علاَّت» أي إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

(٢) قرأ بها أيضًا: ابن محيصن، ومجاهد، وشبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٧)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ٩٩)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٢٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٣٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٤).

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٤).

في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمورِ بالصِّغر والقلة ﴿لفي ضلال﴾ أي ذهاب عن طريق التعديلِ اللائقِ وتنزيلِ كلٍّ منا منزلتَه ﴿مبين﴾ ظاهرِ الحال. روي أنه كان أحبَّ إليه لما يرى فيه من مخايل الخيرِ وكان إخوتُه يحسُدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبِر عنه فتضاعف حسدُهم حتى حملهم على مباشرة ما قُص عنهم ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا﴾ من جملة ما حُكي بعد قوله (إذ قالوا)، وقد قاله بعضٌ منهم مخاطبًا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضُوا بذلك، كما يروى أن القائلَ شمعونُ أو دان، والباقون كانوا راضين إلا من قال: لا تقتلوا إلخ، فجعلوا كأنهم القائلون وأُدرجوا تحت القولِ المسندِ إلى الجميع أو قاله كلُّ واحدٍ منهم مخاطبًا للبقية وهو أدلُّ على مسارعتهم إلى ذلك القولِ. وتنكيرُ أرضًا وإخلاؤها من الوصف للإبهام أي أرضًا منكورةً مجهولة بعيدةً من العُمران ولذلك نصبت نصبَ الظروفِ المُبهمة ﴿يخْلُ﴾ بالجزم جوابٌ للأمر أي يخلُصْ ﴿لكم وجه أبيكم﴾ فيُقبل عليكم بكلّيته ولا يلتفتْ عنكم إلى غيركم ولا يساهمكم في محبته أحدٌ، فذكرُ الوجه لتصوير معنى إقبالِه عليهم ﴿وتكونوا﴾ بالجزم عطفًا على يخْلُ أو بالنصب على إضمار أنْ أو الواو بمعنى مع مثل قوله: ﴿وتكتُموا الحقَّ﴾ [البقرة، الآية ٤٢] وإيثارُ الخطابِ في لكم وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول فإن اعتناءَ المرءِ بشأن نفسِه واهتمامَه بتحصيل منافعِه أتمُّ وأكمل ﴿من بعده﴾ من بعد يوسفَ أي من بعد الفراغِ من أمره أو طرحه ﴿قومًا صالحين﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم بإصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهّدونه أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلُوّ وجه أبيكم ﴿قال قائل منهم﴾ هو يهوذا وكان أحسنَهم فيه رأيًا وهو الذي قال: ﴿فلن أبرحَ الأرضَ﴾ [يوسف، الآية ٨٠] إلخ، وقيل: روبيل وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال من سأل وقال: اتفقوا على ما عُرض عليهم من خصلتي الضَّيْع أم خالفهم في ذلك أحدٌ، فقيل: قال قائل منهم: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ أظهره في مقام الإضمار استجلابًا لشفقتهم عليه أو استعظامًا لقتله وهو هو، فإنه يروى أنه قال لهم: القتلُ عظيمٌ، ولم يصرّح بنهيهم عن الخَصلة الأخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله: ﴿وألقوه في غيابة الجب﴾ أي في قعره وغوره. سُمِّي بها لغَيبته عن عين الناظرِ، والجبّ البئرُ التي لم تُطْوَ بعدُ لأنها أرضٌ جُبّت جبًا من غير أن يُزاد على ذلك شيءٌ، وقرأ نافعٌ في غيابات الجب في الموضعين كأن لتلك الجبّ غياباتٍ أو أراد بالجب الجنسَ أي في بعض غيابات

الجبِّ وقرئ[1] غيابات وغيبة[2] ﴿يلتقطْه﴾ يأخذْه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فإن الالتقاطَ أخذُ شيءٍ مشرف على الضياع ﴿بعض السيارة﴾ أي بعض طائفةٍ تسير في الأرض، واللام في السيارة كما في الجب وما فيهما وفي البعض من الإبهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامِه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائي يوسفَ عنهم بحيث لا يُدرىٰ أثرُه ولا يروىٰ خبرُه، وقرئ تلتقطْه[3] على التأنيث لأن بعضَ السيارة سيارةٌ كقوله: [الطويل]

.... كما شرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدمِ[4]

ومنه قُطعت بعضُ أصابعه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ بمشورتي، لم يبُتَّ القول عليهم بل إنما عرض عليهم ذلك تألفًا لقلبهم وتوجيهًا لهم إلى رأيه وحذرًا من نسبتهم له إلى التحكم والافتيات، أو إن كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من إزالته من عند أبيه لا محالة. ولما كان هذا مظنةً لسؤال سائلٍ يقول: فما فعلوا بعد ذلك قبِلوا ذلك منه أو لا؟ أجيب بطريق الاستئناف على وجه أُدرج في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيء من قوله: ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ﴾ [يوسف، الآية ١٥] فقيل: ﴿قالوا يا أبانا﴾ خاطبوه بذلك تحريكًا لسلسلة النسبِ بينه وبينهم وتذكيرًا لرابطة الأخوّة بينهم

---

(١) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٧)، والتيسير للداني ص (١٢٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٣٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٤).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢١٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٣).

(٣) قرأ بها: مجاهد، وأبو رجاء، والحسن، وقتادة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٧)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٠٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٣٣)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٦)، وتفسير الرازي (١٨/ ٩٦).

(٤) عجز بيت وصدره:
وتَشْرَقُ بالقولِ الذي قد أذَعْتَهُ ....
والبيت للأعشى في ديوانه ص (١٧٣)، والأزهية ص (٢٣٨)، والأشباه والنظائر (٥/ ٢٥٥)، وخزانة الأدب (٥/ ١٠٦)، والدرر (٥/ ١٩)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٥٤)، والكتاب (١/ ٥٢)، ولسان العرب (صدر)، (شرق)، والمقاصد النحوية (٣/ ٣٧٨)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٢/ ١٠٥)، والخصائص (٢/ ٤١٧)، ومغني اللبيب (٢/ ٥١٣)، والمقتضب (٤/ ١٩٧، ١٩٩)، وهمع الهوامع (٢/ ٤٩).

وبين يوسفَ عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحس منه بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا: ﴿**ما لك**﴾ أي أيُّ شيء لك ﴿**لا تأمنا**﴾ أي لا تجعلنا أمناءَ ﴿**على يوسف**﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿**وإنا له لناصحون**﴾ مريدون له الخيرَ ومشفقون عليه ليس فينا ما يُخلُّ بالنصيحة والمِقة[1] قطُّ، والقراءة[2] المشهورةُ بالإدغام والإشمام. وعن نافع رضي الله عنه تركُ الإشمام[3] ومن الشواذ ترك الإدغام[4] ﴿**أرسله معنا غدًا**﴾ إلى الصحراء ﴿**يرتع**﴾ أي يتسعْ في أكل الفواكه ونحوها فإن الرتع هو الاتساعُ في الملاذ ﴿**ويلعب**﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرِهما مما يُعد من باب التأهّب للغزو، وإنما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقًا لما راموه من استصحاب يوسفَ عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام، وقرئ نرتعْ[5] ونلعبْ بالنون، وقرأ ابن كثير[6] نرتع من ارتعى ونافع[7] بالكسر والياء فيه وفي يلعب وقرئ يُرتِعْ[8]

---

(١) المقة: المحبَّة. من فعل ومق.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٣٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٥).

(٣) قرأ بها أيضًا: ورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٤)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٠٤).

(٤) قرأ بها: طلحة بن مصرف، وأبي، والحسن، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٢٧)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٥)، وتفسير الرازي (١٨/ ٩٦).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، ابن كثير، ابن عامر، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٧)، والتيسير للداني، ص (١٢٨).

(٦) قرأ بها أيضًا: البزي، وقنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٢٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٥).

(٧) قرأ بها أيضًا: ابن كثير، وأبو جعفر، وجعفر بن محمد.
ينظر: التبيان للطوسي (٦/ ١٠٥)، والتيسير للداني ص (١٢٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢١٣)، وتفسير الرازي (١٨/ ٩٦، ٩٧).

(٨) قرأ بها: ابن محيصن، وأبو رجاء، ومجاهد، وقتادة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٦٢)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٥).

من أرتع ماشيتَه ويرتعِ[١] بكسر العين ويلعبُ بالرفع على الابتداء ﴿وإنا له لحافظون﴾ من أن يناله مكروهٌ أكدوا مقالتَهم بأصناف التأكيدِ من إيراد الجملة اسميةً وتحليتها بإنّ واللام وإسنادُ الحفظ إلى كلهم وتقديمُ له على الخبر احتيالًا في تحصيل مقصدهم.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال من يقول: فماذا قال يعقوبُ عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿إني ليحزنني﴾ اللامُ للابتداء كما في قوله عز وجل: ﴿وإن ربك ليحكم بينهم﴾ [النحل: ١٦] ﴿أن تذهبوا به﴾ لشدة مفارقتِه عليّ وقلة صبري عنه ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ لأن الأرض كانت مَذأبة والحزنُ ألمُ القلب بفوت المحبوبِ والخوفُ انزعاجُ النفسِ لنزول المكروهِ ولذلك أُسند الأولُ إلى الذهاب به المفوِّتِ لاستمرار مصاحبتِه ومواصلتِه ليوسف والثاني إلى ما يُتوقع نزولُه من أكل الذئبِ، وقيل: رأى في المنام أنه قد شد عليه، عليه السلام، ذئبٌ وكان يحذَره فقال ذلك، وقد لقنهم للعلة: [الكامل]

.... إن البلاء موكل بالمنطق[٢]

وقرأ ابن كثير، ونافع، في رواية البزي بالهمزة على الأصل، وأبو عمرو به وقفًا. وعاصم، وابنُ عامر، وحمزةُ درجًا وقيل: اشتقاقه من تذاءبت الريحُ إذا هاجت من كل جانب، وقال الأصمعي: الأمرُ بالعكس وهو أظهر لفظًا ومعنى ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللِّعْب أو لقلة اهتمامِكم بحفظه ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي والحالُ أنا جماعةٌ كثيرةٌ جديرةٌ بأن تُعصَّب بنا الأمورُ العظام وتُكفى الخطوبُ بآرائنا وتدبيراتِنا، واللام الداخلةُ على الشرط موطئةٌ للقسم وقوله: ﴿إنا إذًا لخاسرون﴾ جوابٌ مُجزئ عن الجزاء أي لهالكون ضعفًا وخورًا وعجزًا أو مستحقون للهلاك إذ لا غَناء عندنا ولا جدوى في حياتنا أو مستحقون لأن يُدعىٰ علينا بالخَسار والدمار ويقال: خسّرهم الله تعالى ودمّرهم حيث أكل

---

(١) قرأ بها: العلاء بن سيابة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢١٣)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٣).

(٢) عجز بيت وصدره:
احفظ لسانك أن تقول فتبتلى ....
ينظر: جمهرة الأمثال (١/ ٢٠٧)، ومجمع الأمثال (١/ ١٧)، وتفسير الرازي (١٨/ ٧٨).

الذئبُ بعضهم وهم حضور، وقيل: إن لم نقدِر على حفظه وهو أعزُّ شيء عندنا فقد هلكت مواشينا إذن وخسِرناها، وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوبَ عليه السلام من أكل الذئب لأنه السببُ القوي في المنع دون الحزن لِقصر مدّته بناء على أنهم يأتون به عن قريب ﴿**فلما ذهبوا به وأجمعوا**﴾ أي أزمعوا ﴿**أن يجعلوه**﴾ مفعولٌ لأجمعوا يقال: أجمع الأمرَ ومنه ﴿فأجمعوا أمرَكم﴾ [يونس، الآية ٧١] ولا يستعمل ذلك إلا في الأفعال التي قويت الدواعي إلى فعلها ﴿**في غيابة الجب**﴾ قيل: هي بئرٌ بأرض الأردنّ، وقيل: بين مصرَ ومدينَ، وقيل: على ثلاثة فراسخَ من منزل يعقوبَ عليه السلام بكنعانَ التي هي من نواحي الأردنّ كما أن مدينَ كذلك، وأما ما يقال من أنها بئرُ بيتِ المقدس فيردّه التعليلُ بالتقاط السيارةِ ومجيئهم أباهم عشاءَ ذلك اليوم فإن بين منزل يعقوبَ عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل. وجوابُ لما محذَوفٌ إيذانًا بظهوره وإشعارًا بأن تفصيلَه مما لا يحويه فلكُ العبارة، ومجملُه فعلوا به من الأذية ما فعلوا. يروى أنهم لما برزوا إلى الصحراء أخذوا يُؤْذونه ويضرِبونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتموني ألا تقتلوه، فأتَوا به إلى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلّوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه، ونزعوا قميصَه لِما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالًا لأبيه، فقال: يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى به فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والأحدَ عشر كوكبًا تؤنسك، فدلوه فيها، فلما بلغ نصفها ألقَوْه ليموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادَوه وظن أنها رحمةٌ أدركتهم. فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام كلَّ يوم. ويروى أن إبراهيمَ عليه السلام حين ألقي في النار وجُرِّد عن ثيابه أتاه جبريلُ عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاقَ وإسحاقُ إلى يعقوبَ فجعله يعقوبُ في تميمة وعلقها في عنق يوسفَ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه إياه.

﴿**وأوحينا إليه**﴾ عند ذلك تبشيرًا له بما يؤول إليه أمره وإزالةً لوحشته وإيناسًا له، قيل: كان ذلك قبل إدراكِه كما أوحي إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ ذاك مدركًا، قال الحسن رضي الله عنه: كان له سبعَ عشرةَ سنة ﴿**لتنبئنهم بأمرهم هذا**﴾ أي لتتخلّصن مما أنت فيه من سوء الحالِ وضيقِ المجال ولتُحدِّثن إخوتَك بما فعلوا بك ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ بأنك يوسفُ لتبايُن حالَيك: حالِك هذا وحالِك يومئذ لعلو شأنِك وكبرياءِ سلطانِك وبُعد حالِك عن أوهامهم، وقيل: لبعد العهد المبدِّلِ

للهيئات المغيِّرِ للأشكال، والأولُ أدخلُ في التسلية، روي أنهم حين دخلوا عليه ممارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصُّواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ، فقال: إنه ليُخبرني هذا الجامُ[١] أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له يوسفُ وكان يُدْنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقَيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم أكله الذئبُ وبعتموه بثمن بخس، ويجوز أن يتعلق (وهم لا يشعرون) بالإيحاء على معنى أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشةَ التي أورثوه إياها وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهَقٌ مستوحِشٌ لا أنيس له. وقرئ لننبئنّهم[٢] بالنون على أنه وعيدٌ لهم فقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ متعلق بـ (أوحينا) لا غيرُ.

﴿وجاءوا أباهم عشاء﴾ آخر النهار وقرئ عُشَيًّا[٣] وهو تصغير عشىٰ وعُشىً[٤] بالضم والقصر جمع أعشى أي عَشْوًا من البكاء ﴿يبكون﴾ متباكين. روي أنه لما سمع يعقوبُ عليه السلام بكاءهم فزع وقال: ما لكم يا بَنيّ وأين يوسف؟ ﴿قالوا يا أبانا ذهبنا نستبق﴾ أي متسابقين في العدْو والرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ما نتمتع به من الثياب والأزواد وغيرِهما ﴿فأكله الذئب﴾ عَقيبَ ذلك من غير مُضيٍّ زمانٍ يعتاد فيه التفقدُ والتعهدُ. وحيث لا يكاد يُطرح المتاعُ عادة إلا في مقام يُؤْمن فيه الغوائلُ لم يعُدْ تركُه عليه السلام عنده من باب الغفلة وتركِ الحظ الملتزَم لا سيما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه، فكأنهم قالوا: إنا لم نقصِّر في محافظته ولم نغفُلْ عن مراقبته بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأىً منا لأن ميدانَ السباق لا يكون عادة إلا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه إلا ساعةً يسيرةً بيننا وبينه مسافةٌ قصيرة فكان ما كان ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ بمصدّق لنا في هذه المقالة الدالةِ على عدم تقصيرِنا في

---

(١) إناء للشراب و الطعام من فضة أو نحوها وهي مؤنثة و قد غلب استعمالها في قدح الشراب ويقال صب عليه جامه أي: غضبه عليه واستفزه.

(٢) قرأ بها: سلام.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٧).

(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٥).

أمره ﴿ولو كنا﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿صادقين﴾ موصوفين بالصدق والثقةِ لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيئ الظن بنا غيرُ واثقٍ بقولنا، وكلمة لو في أمثال هذه المواقعِ لبيان تحقق ما يفيده الكلامُ السابق من الحكم الموجَبِ أو المنفيِّ على كل حال مفروض من الأحوال المقارنةِ له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له ليظهر بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الأولوية، لِما أن الشيءَ متى تحقق مع المنافي القويِّ فلأَنْ يتحققَ مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكر معه شيٌ من سائر الأحوال ويُكتفىٰ عنه بذكر الواوِ العاطفةِ للجملة على نظيرتها المقابلةِ لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدِها، وقد مرَّ تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أولو كان آباؤُهم لا يعقِلون شيئًا ولا يهتدون﴾ [البقرة، الآية ١٧٠] وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿أوَلو كنا كارهين﴾ [الأعراف، الآية ٨٨].

﴿وجاءوا على قميصه﴾ محلُّه النصبُ على الظرفية من قوله: ﴿بدم﴾ أي جاءوا فوق قميصِه بدم كما تقول: جاء على جِماله بأحمال، أو على الحالية منه والخلاف في تقدم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحالُ ظرفًا ﴿كذب﴾ مصدرٌ وصف به الدمُ مبالغةً، أو مصدرٌ بمعنى المفعول أي مكذوبٍ فيه أو بمعنى ذي كذب أي ملابِسٍ لكذب، وقرئ[1] كذبًا على أنه حالٌ من الضمير، أي جاءوا كاذبين أو مفعولٌ له، وقرأت عائشة[2] رضي الله تعالى عنها بغير المعجمة أي كدر، وقيل: طريّ، قال ابن جني: أصلُه من الكدب وهو الفُوف أي البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر في قميصه. روي أنهم ذبحوا سَخْلةً ولطّخوه بدمها وزلّ عنهم أن يمزقوه، فلما سمع يعقوبُ بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال: أين القميصُ؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضَب وجهَه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلمَ من هذا، أكل ابني ولم يمزِّقْ عليه

(١) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها أيضًا: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٨)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٩)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٥).

قميصه. وقيل: كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاثُ آياتٍ كانت دليلًا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرًا ودليلًا على براءة يوسف عليه السلام حين قُدّ مِنْ دُبر ﴿**قال**﴾ استئنافٌ مبني على سؤال فكأنه قيل: ما قال يعقوبُ هل صدقهم فيما قالوا أو لا؟ فقيل: لم يكن ذلك ﴿**بل سولت لكم أنفسكم**﴾ أي زينت وسهّلت، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والتسويلُ تقديرُ شيءٍ في النفس مع الطمع في إتمامه. قال الأزهري: كأنّ التسويلَ تفعيلٌ من سُؤل الإنسان وهو أمنيتُه التي يطلبها فتزين لطالبها الباطلَ وغيرَه، وأصله مهموز، وقيل: من السَّوَل وهو الاسترخاء ﴿**أمرًا**﴾ من الأمور منْكرًا لا يوصف ولا يعرف ﴿**فصبر جميل**﴾ أي فأمري صبرٌ جميلٌ أو فصبرٌ أجملُ أو أمثلُ. وفي الحديث: «الصبرُ الجميلُ الذي لا شكوى فيه» أي إلى الخلق وإلا فقد قال يعقوبُ عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وقيل: سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: ما هذا؟ قال: طولُ الزمان وكثرةُ الأحزان فأوحى الله عز وجل إليه: «**يا يعقوبُ أتشكوني؟**» قال: يا رب خطيئةٌ فاغفِرها لي، وقرأ أُبيّ[1] فصبرًا جميلًا ﴿**والله المستعان**﴾ أي المطلوبُ منه العونُ وهو إنشاءٌ منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ﴿**على ما تصفون**﴾ على إظهار حال ما تصفون وبيانِ كونِه كذبًا، وإظهارِ سلامتِه فإنه عَلَم في الكذب قال سبحانه: ﴿سبحان ربك ربِّ العزةِ عما يصفون﴾ [الصافات، الآية ١٨٠] وهو الأليقُ بما سيجيء من قوله تعالى: ﴿فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيَني بهم جميعًا﴾ [يوسف، الآية ٨٣] وتفسيرُ المستعانِ عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسفَ والصبرِ على الرزء فيه يأباه تكذيبُه عليه السلام لهم في ذلك، ولا تساعدُه الصيغةُ فإنها قد غلَبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشير إليه.

﴿**وجاءت**﴾ شروعٌ في بيان ما جرى على يوسف في الجب بعد الفراغِ من ذكر ما وقع بين إخوتِه وبين أبيه، والتعبيرُ بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم فإن كنعانَ ليس بالجانب المصريِّ من مدينَ بل إلى مكان يوسف، وفي إيثاره على المرور أو الإتيانِ أو نحوهما إيماءٌ إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليكٍ

---

(١) قرأ بها أيضًا: الكسائي، وعيسى بن عمر، والأشهب، وأنس بن مالك.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٩)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٥١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٦).

مقتدرٍ، والظاهر أن الجب كان في الأمم المئتاء[١] فإن المتبادر من إسناد المجيء إلى السيارة مطلقًا في قوله عز وجل: ﴿سيارة﴾ أي رفقةٌ تسير من جهة مدينَ إلى مصرَ وقوعُه باعتبار سيرِهم المعتادِ وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف: ﴿يلتقطْه بعضُ السيارة﴾ [يوسف، الآية ١٠] وقد قيل إنه كان في قفرة بعيدةٍ من العُمران لم يكن إلا للرعاة فأخطأوا الطريقَ فنزلوا قريبًا منه، وقيل: كان ماؤه مِلْحًا فعذُبَ حين ألقي فيه عليه السلام ﴿فأرسلوا واردهم﴾ الذي يرد الماءَ ويستقي لهم وكان ذلك مالك بنُ ذعر الخزاعيّ، وإنما لم يُذكر منتهى الإرسالِ كما لم يذكر منتهى المجيءِ أعني الجب للإيذان بأن ذلك معهودٌ لا يُضرب عنه الذكرُ صفحًا ﴿فأدلى دلوه﴾ أي أرسلها إلى الجب، والحذفُ لما عرفتَه فتدلى بها يوسف فخرج.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال يقتضيه الحال ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ كأنه نادى البُشرى وقال: تعالَيْ، فهذا أوانُك حيث فاز بنعمة باردةٍ وأيِّ نعمةٍ مكانَ ما يوجد مباحًا من الماء. وقيل: هو اسمُ صاحبٍ له ناداه ليُعينَه على إخراجه، وقرأ[٢] غيرُ الكوفيين يا بشرايَ وأمال فتحةَ الراءِ حمزةُ والكِسائيُّ[٣] وقرأ[٤] ورشٌ بين اللفظين يا بُشْرَيَّ بالإدغام وهي لغة، وبشرايْ[٥] على قصد الوقف.

---

(١) الميتاء: الطريق المسلوك، وهو مفعال من الإتيان. والميم زائدة، وبابه الهمزة.
ينظر: النهاية (٤/ ٣٧٨).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ونافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف، وقالون.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٣٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٨)، والتبيان للطوسي (٦/ ١١٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٥٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٧).

(٣) قرأ بها أيضًا: خلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والتيسير للداني ص (١٢٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٦)، والكشف للقيسي (٢/ ٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢١٨)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٠٥).

(٤) قرأ بها أيضًا: الأزرق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والتيسير للداني ص (١٢٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٦)، والكشف للقيسي (١/ ١٧٩).

(٥) قرأ بها ايضًا: نافع.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٩٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٠٨).

﴿وأسروه﴾ أي أخفاه الواردُ وأصحابُه عن بقية الرفقة، وقيل: أخفَوا أمرَه ووجدانَهم له في الجب وقالوا لهم: دفعَه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصرَ، وقيل: الضميرُ لإخوة يوسفَ وذلك أن يهوذا كان يأتيه كلَّ يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجدْه فيها فأخبر إخوتَه فأتَوا الرفقةَ وقالوا: هذا غلامُنا أبَقَ[1] منا فاشتَرَوه منهم وسكت يوسفُ مخافةَ أن يقتُلوه ولا يخفى ما فيه من البعد ﴿بضاعة﴾ نُصب على الحالية أي أخفَوه حالَ كونِه بضاعةً أي متاعًا للتجارة فإنها قطعةٌ من المال بُضعت عنه أي قطعت للتجارة ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وعيدٌ لهم على ما صنعوا من جعلهم مثلَ يوسفَ وهو هو عرضةً للابتذال بالبيع والشراءِ وما دبروا في ذلك من الحيل ﴿وشروه﴾ أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه ﴿بثمن بخس﴾ زيْفٍ ناقصِ العيار ﴿دراهم﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿معدودة﴾ أي غيرِ موزونة فهو بيانٌ لقلته ونقصانِه مقدارًا بعد بيان نقصانِه في نفسه إذ المعتادُ فيما لا يبلغ أربعين: العدُّ دون الوزن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت عشرين درهمًا وعن السدي رضي الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهمًا ﴿وكانوا﴾ أي البائعون ﴿فيه﴾ في يوسف ﴿من الزاهدين﴾ من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخْسِ، وسببُ ذلك أنهم التقطوه، والملتقطُ للشيء متهاونٌ به، أو غيرُ واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحِقٌّ فينتزعه منه فيبيعه من أول مُساومٍ بأوكسِ ثمن، ويجوز أن يكون معنى شرَوه اشتروه من إخوته على ما حُكي وهم غير راغبين في شِراه خشية ذهابِ مالِهم لِما ظنّ في آذانهم من الإباق، والعدولُ على صيغة الافتعال المنبئةِ عن الاتخاذ لما مر من أن أخذَهم إنما كان بطريق البضاعةِ دون الاجتباء والاقتناءِ، وفيه متعلِّق بالزاهدين إن جُعل اللامُ للتعريف وبيانٌ لما زهدوا فيه إن جُعلت موصولة، كأنه قيل: في أي شيء زهِدوا؟ فقيل: زهدوا فيه، لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ

---

(١) أبق: هرب، فهو آبق.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (٢٩) ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤)﴾

﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ وهو العزيز الذي كان على خزانته واسمُه قطفيرُ أو إطفير، وبيانُ كونِه من مصرَ لتربية ما تفرع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس، وكان الملكَ يومئذ الريانُ بنُ الوليد العمليقي ومات في حياة يوسفَ عليه السلام بعد أن آمن به فملَك بعده قابوسُ بنُ مصعب فدعاه إلى الإسلام فأبى، وقيل: كان الملكُ في أيامه فرعونَ موسى عليه السلام عاش أربعَمائة سنةٍ لقوله عز وجل: ﴿ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبينات﴾ [غافر: ٣٤] وقيل: فرعونُ موسى من أولاد فرعونِ يوسف، والآية من قبيل خطاب الأولادِ بأحوال الآباء، واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل: بعشرين دينارًا وزوجَيْ نعل وثوبين أبيضين. وقيل: أدخلوه في السوق يعرِضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنُه وزنَه مِسْكًا ووزنَه[١] حريرًا فاشتراه قطفيرُ بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبعَ عشرةَ سنة وأقام في منزله مع ما مر عليه من

(١) في خ: ورِقًا ووزنه.

مدة لبثه في السجن ثلاثَ عشرةَ سنةً واستوزره الريانُ وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة.

﴿**لامرأته**﴾ راعيل أو زليخا، وقيل: اسمُها هو الأول والثاني لقبُها واللامُ متعلقةٌ بـ (قال) لا بـ (اشتراه) ﴿**أكرمي مثواه**﴾ اجعلي محلَّ إقامتِه كريمًا مرضيًا والمعنى أحسني تعهّده ﴿**عسى أن ينفعنا**﴾ في ضِياعنا وأموالِنا ونستظهر به في مصالحنا ﴿**أو نتخذه ولدًا**﴾ أي نتبنّاه وكان ذلك لِما تفرّس فيه من مخايل الرشد والنجابة، ولذلك قيل: (أفرسُ الناسِ ثلاثةٌ عزيزُ مصرَ وابنةُ شعيبِ التي قالت: ﴿يا أبت استأجِرْه﴾ [القصص، الآية ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمرَ رضي الله عنهما).

﴿**وكذلك**﴾ نُصب على المصدرية وذلك إشارةٌ إلى ما يفهم من كلام العزيزِ، وما فيه من معنى البُعد لتفخيمه أي مثلَ ذلك التمكينِ البديع ﴿**مكنا ليوسف في الأرض**﴾ أي جعلنا له فيها مكانًا، يقال: مكّنه فيه أي أثبته فيه ومكّن له فيه، أي جعل له فيه مكانًا، ولتقاربهما وتلازُمهما يُستعمل كلٌّ منهما في محل الآخر، قال عز وجل: ﴿كم أهلكنا مِنْ قبلهم من قرنٍ مكناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم﴾ [الأنعام، الآية ٦] أي ما لم نمكنْكم فيها أو مكنّا لهم في الأرض إلخ، والمعنى كما جعلنا له مثوى كريمًا في منزل العزيزِ أو مكانًا عليًا في قلبه حتى أمرَ امرأتَه دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانةً رفيعة في أرض مصر، ولعله عبارةٌ عن جعله وجيهًا بين أهلها ومحببًا في قلوبهم كافة كما في قلب العزيزِ لأنه الذي يؤدّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى: ﴿**ولنعلمه من تأويل الأحاديث**﴾ أي نوفقه لتعبير بعضِ المنامات التي عُمدتُها رؤيا الملِك وصاحبَي السجنِ لقوله تعالى: ﴿ذلكما مما علّمني ربي﴾ [يوسف، الآية ٣٧] سواءٌ جعلناه معطوفًا على غاية مقدرة ينساق إليها الكلامُ ويستدعيها النظامُ كأنه قيل: ومثلَ ذلك التمكينِ مكنّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوبَ أهلِها كافة مجالَ محبتِه ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأةِ العزيز ولنعلمه بعضَ تأويل الأحاديثِ وهو تأويلُ الرؤيا المذكورة فيؤدّي ذلك إلى الرياسة العُظمى، ولعل ترك المعطوفِ عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذات أو جعلناه علةً لمعلل محذوفٍ كأنه قيل: ولهذه الحكمةِ البالغةِ فعلنا ذلك التمكينَ دون غيرها مما ليس له عاقبةٌ حميدة. هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الأمورُ إنما هو التمكينُ في جانب العزيز.

وأما التمكينُ في جانب الناسِ كافةً فتأديتُه إلى ذلك إنما هي باعتبار اشتمالِه على ذلك التمكينِ فإن الحق أن يكون ذلك التمكين فإن الحق أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدر قوله تعالى: ﴿مكنّا ليوسف﴾ على أن يكون هو عبارةً عن التمكين في قلب العزيزِ أو في منزله، وكونُ ذلك تمكينًا في الإرض بملابسة أنه عزيزٌ فيها لا عن تمكين آخرَ يُشبه به كما مر في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا﴾ [البقرة، الآية ١٤٣] من أن ذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعل المذكورِ بعده لا إلى جعل آخرَ يُقصد تشبيهُ هذا الجعْل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحامًا لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها.

ومن ذلك قولُهم: مثلُك لا يبخل، وهكذا ينبغي أن يُحقق المقامُ، وأما التمكينُ بمعنى جعلِه مالكًا يتصرف في أرض مصرَ بالأمر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجِه المتفرِّعةِ عليه كما عرفته لا من مباديه المؤديةِ إليه، فلا سبيل إلى جعله غايةً له ولم يُعهد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العملُ بموجب المناماتِ المنبّهة على الحوادث قبل وقوعِها عهدًا مصححًا لجعله غايةً لولايته، وما وقع من التدارك في أمر السنين فإنما هو عملٌ بموجب الرؤيا السابقةِ المعهودة اللهم إلا أن يراد بتعليم تأويلِ الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامضِ أسرارِ الكتبِ الإلٰهية ودقائقِ سننِ الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له أرضَ مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها ودقائقَ سنن الأنبياء عليهم السلام فيقضي بها فيما بين أهلها، والتعليمُ الإجماليُّ لتلك المعاني والأحكام وإن كان غيرَ متأخرٍ عن تمكنه بذلك المعنىٰ إلا أن تعليمَ كلِّ معنى شخصيٍّ يتفق في ضمن الحوادثِ والإرشادِ إلى الحق في كل نازلةٍ من النوازل متأخرٍ عن ذلك صالحٍ لأن يكون غاية له ﴿والله غالب على أمره﴾ لا يستعصى عليه أمرٌ ولا يمانعه شيءٌ بل إنما أمرُه لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكونُ فيدخل في ذلك شؤونُه المتعلقةُ بيوسف دخولًا أوليًا، أو متولٍّ على أمر يوسفَ لا يكِله إلى غيره، وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غِبَّ مرة فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمرَ كذلك فيأتون ويذرون زعمًا منهم أن لهم من الأمر شيئًا وأنّىٰ لهم ذلك، وإن الأمرَ كلَّه لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائفَ صنعِه وخفايا فضله.

﴿ولما بلغ أشده﴾ أي منتهى اشتدادِ جسمه وقوتِه وهو سنُّ الوقوف ما بين

الثلاثين إلى الأربعين، وقيل: سنُّ الشباب ومبدأ بلوغِ الحُلُم، والأولُ هو الأظهرُ لقوله تعالى: ﴿آتيناه حكمًا﴾ حِكمةً وهو العلم المؤيَّدُ بالعمل أو حكمًا بين الناس وفقهًا أو نبوة ﴿وعلمًا﴾ أي تفقهًا في الدين، وتنكيرُهما للتفخيم أي حكمًا وعلمًا لا يُكتنه كُنهُهما ولا يقادَرُ قدرُهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكاملِ قُواه سواءٌ كانا عبارةً عن النبوة والحُكم بين الناس أو غيرِهما، كيف لا وقد جُعل إيتاؤهما جزاءً لعمله عليه السلام حيث قيل: ﴿وكذلك﴾ أي مثلَ الجزاءِ العجيب ﴿نجزي المحسنين﴾ أي كلَّ من يُحسِن في عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاءِ أعمالِه الحسنةِ التي من جملتها معاناةُ الأحزان والشدائدِ، وقد فُسّر العلمُ بعلم تأويلِ الأحاديث، ولا صحةَ له إلا أن يُخَصَّ بعلم تأويلِ رؤيا الملِك فإن ذلك حيث كان عند تناهي أيامِ البلاءِ صحّ أن يُعدَّ إيتاؤُه من جملة الجزاء، وأما رؤيا صاحبَي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرِها في السجن بضعَ سنين. وفي تعليق الجزاءِ المذكورِ بالمحسنين إشعارٌ بعلّية الإحسان له وتنبيهٌ على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله متّقيًا في عنفوان أمرِه ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ﴾ [الرحمٰن، الآية ٦٠].

﴿وراودته التي هو في بيتها﴾ رجوعٌ إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيزِ بعد ما أمر امرأتَه بإكرام مثواه. وقوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف﴾ إلى هنا اعتراضٌ جيء به أُنموذجًا للقصة ليعلم السامعُ من أول الأمر أن ما لقِيه عليه السلام من الفتن التي ستحكىٰ بتفاصيلها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدةٌ وأنه عليه السلام محسِنٌ في جميع أعمالِه لم يصدُر عنه في حالتي السراءِ والضراءِ ما يُخِلُّ بنزاهته، ولا يخفى أن مدارَ حسنِ التخلصِ إلى هذا الاعتراضِ قبل تمام الآيةِ الكريمةِ إنما هو التمكينُ البالغُ المفهومُ من كلام العزيز، فإدراجُ الإنجاءِ السابق تحت الإشارةِ بذلك في قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا﴾ كما فعله الجمهورُ ناءٍ من التقريب فتأملْ. والمراودةُ المطالبة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيءٍ ومنه الرائدُ لطالب الماءِ والكلأ، وهي مفاعلةٌ من واحد نحو مطالبةِ الدائنِ ومماطلةِ المديونِ ومداواةِ الطبيب ونظائرِها مما يكون من أحد الجانبين الفعلُ ومن الآخر سببُه فإن هذه الأفعالَ وإن كانت صادرةً عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابُها صادرةً عن الجانب الآخر جُعلت كأنها صادرةٌ عنهما وهذا بابٌ لطيفُ المسلك مبنيٌّ على اعتبار دقيقٍ، تحقيقُه

أن سببَ الشيء يقام مُقامَه ويطلق عليه اسمُه كما في قولهم: كما تدين تدان أي كما تجزي تُجزىٰ، فإن فعل البادي وإن لم يكن جزاءً لكنه لكونه سببًا للجزاء أُطلق عليه اسمُه وكذلك إرادةُ القيامِ إلى الصلاة وإرادةُ قراءةِ القرآنِ حيث كانتا سببًا للقيام والقراءة عُبّر عنهما بهما فقيل: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ [المائدة، الآية ٦] ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ [النحل، الآية ٩٨] وهذه قاعدةٌ مطردةٌ مستمرة، ولمّا كانت أسبابُ الأفعالِ المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابلِ لجانب فاعلِها فإن مطالبةَ الدائنِ للمماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي هي من جانب الدائنِ وكذا مداواةُ الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض وكذلك مراودتُها فيما نحن فيه لجمال يوسفَ عليه السلام، نُزّل صدورُها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتِها التي هي تلك الأفعالُ فبنى الصيغة على ذلك وروعيَ جانبُ الحقيقةِ بأن أُسند الفعلُ إلى الفاعل وأُوقع على صاحب السبب فتأمل، ويجوز أن يراد بصيغة المغالبةِ مجردُ المبالغة، وقيل: الصيغةُ على بابها بمعنى أنها طَلبت منه الفعلَ وهو منها التركَ، ويجوز أن يكون من الرُوَيد وهو الرفقُ والتحمّلُ، وتعديتُها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته.

﴿عن نفسه﴾ أي فعلت ما يفعل المخادِع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجَه من[١] يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارةٌ عن التمحّل في مواقعته إياها، والعدولُ عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره، وإيرادُ الموصول لتقرير المراودةِ فإن كونَه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحدةٍ: ما حملك على ما أنت عليه مما لا خيرَ فيه؟ قالت: قربُ الوساد وطولُ السواد، ولإظهار كمالِ نزاهته عليه السلام فإن عدمَ ميلِه إليها مع دوام مشاهدتِه لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملَكتِها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل: كانت سبعةً ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال، وقيل: للمبالغة في الإيثاق والإحكام ﴿وقالت هَيْتَ لك﴾ قرئ بفتح الهاء وكسرها[٢] مع فتح التاء وبناؤه كبناء أينَ وعيط،

---

(١) في خ: عن.
(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وابن ذكوان، وأبو جعفر، وابن محيصن، وشيبة، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٤)، والتبيان للطوسي (٦/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٦٣)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٤)، =

و(هيتِ)[١] كجَيرِ و(هَيتُ)[٢] كحيث اسم فعل معناه أَقبلْ وبادر، واللام للبيان أي لك أقول هذا كما في هلم لك، وقرئ[٣] هِئتُ لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأتُ، يقال: هاء يهيءُ كجاء يجيء إذا تهيأ وهُيِّئْتُ لك، واللام صلة للفعل ﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله مَعاذًا مما تدعنني[٤] إليه وهذا اجتنابٌ منه على أتم الوجوه وإشارةٌ إلى التعليل بأنه منكَرٌ هائلٌ يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه في حد ذاتِه من غاية القُبح ونهايةِ السوء، وقولُه عز وجل: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ تعليلٌ للامتناع ببعض الأسباب الخارجيةِ مما عسى يكون مؤثرًا عندها وداعيًا لها إلى اعتباره بعد التنبيهِ على سببه الذاتي الذي لا تكاد تقبله لما سوّلتْه لها نفسُها، والضميرُ للشأن ومدارُ وضعه موضعَه ادعاءُ شهرتِه المُغْنيةِ عن ذكره، وفائدةُ تصدير الجملةِ به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريرِه في الذهن، فإن الضميرَ لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأنٌ مبهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهنُ مترقبًا لما يعقُبه فيتمكن عند ورودِه له فضلُ تمكّنٍ، فكأنه قيل: إن الشأنَ[٥] الخطير هذا وهو ربي أي سيدي العزيزُ أحسنَ

= والغيث للصفاقسي ص (٢٥٦).

(١) قرأ بها: ابن محيصن، وعبد الله بن أبي إسحاق،وابن عباس، وأبو الأسود، وعيسى الثقفي، والحسن. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٣٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٦٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٧).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عبد الرحمن السلمي. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٣٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٢).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، وعلي، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو وائل، وأبو رجاء، ويحيى، وقتادة، وطلحة، والمقري، وهشام، والداجوني. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٣٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٨)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٦).

(٤) في خ: تدعونني.

(٥) زاد في خ: الأمر.

مثواي أي أحسن تعهّدي حيث أمرك بإكرامي فكيف يمكن أن أسُيء إليه بالخيانة في حَرَمه! وفيه إرشادٌ لها إلى رعاية حقِّ العزيزِ بألطف وجهٍ، وقيل: الضميرُ لله عز وجل و﴿ربي﴾ خبرُ إن و﴿أحسن مثواي﴾ خبرٌ ثانٍ أو هو الخبرُ والأولُ بدلٌ من الضمير، والمعنى أن الحالَ هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشةِ الكبيرةِ! وفيه تحذيرٌ لها من عقاب الله عز وجل، وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالةِ، من غير تعرّضٍ لاقتضائها الامتناعَ عما دعته إليه، إيذانٌ بأن هذه المرتبةَ من البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ تعليلٌ للامتناع المذكورِ غِبَّ تعليل، والفلاحُ الظفرُ وقيل: البقاءُ في الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواتِه، والمرادُ بالظالم كلُّ من ظلم كائنًا من كان فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاةُ لأمر الله تعالى دخولًا أوليًا، وقيل: الزناةُ لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمزني بأهله.

﴿ولقد همت به﴾ بمخالطته إذِ الهمُّ لا يتعلق بالأعيان أي قصدتْها وعزمت عليها عزمًا جازمًا لا يَلويها عنه صارفٌ بعد ما باشرت من مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليقِ الأبواب ودعوتِه عليه السلام إلى نفسها بقولها: هيتَ لك، ولعلها تصدّت هنالك لأفعال أُخَرَ من بسط يدِها إليه وقصدِ المعانقة وغير ذلك مما يَضْطره عليه السلام إلى الهرب نحوَ الباب، والتأكيدُ لدفع ما عسى يُتوهم من احتمال إقلاعِها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر ﴿وهم بها﴾ بمخالطتها أي مال إليها بمقتضى الطبيعةِ البشرية وشهوةِ الشباب وكونه ميلًا جبليًا لا يكاد يدخل تحت التكليفِ لا أنه قصدها قصدًا اختياريًّا، ألا يُرى إلى ما سبق من استعصامه المُنْبىءِ عن كمال كراهيتِه له ونفرتِه عنه وحُكمه بعدم إفلاح الظالمين وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمِّ منه عليه السلام تسجيلًا محكمًا وأنه عبر عنه بالهمّ لمجرد وقوعِه في صحبة همِّها في الذكرِ بطريق المشاكلة[1] لا لشَبَهه به

---

(١) وهذا من المشاكلة التحقيقية التي يذكر اللفظ فيها بغيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا وهي لون بديعي سبق الحديث عنه.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ٣١) وما بعدها، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٩٠)، وأسرار البلاغة (٣١٩)، والإتقان للسيوطي (٢/ ٣٦).

كما قيل، ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يلزا[1] في قَرن واحد من التعبير بأن قيل: ولقد همّا بالمخالطة أو همّ كلٌّ منهما بالآخر، وصُدّر الأولُ بما يقرر وجودَه من التوكيد القسمي وعقّب الثاني بما يعفو أثرَه من قوله عز وجل: ﴿**لولا أن رأى برهان ربه**﴾ أي حجتَه الباهرةَ الدالة على كمال قبحِ الزنا وسوءِ سبيله، والمرادُ برؤيته لها كمالُ إيقانِه بها ومشاهدتِه لها مشاهدةً واصلة إلى مرتبة عينِ اليقين الذي تتجلى هناك حقائقُ الأشياء بصورها الحقيقيةِ وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قولُه عليه السلام: «**حُفّت الجنةُ بالمكاره وحفت النار بالشهوات**»[2] وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهانِ النيّر على ما هو عليه في حد ذاتِه أقبحَ ما يكون وأوجبَ ما يجب أن يُحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحُكمِ بعدم إفلاحِ من يرتكبه، وجوابُ لولا محذوفٌ يدل عليه الكلام أي لولا مشاهدتُه برهانَ ربه في شأن الزنا لجَرى على موجب ميلِه الجِبليِّ ولكنه حيث كان مشاهدًا له من قبلُ استمر على ما هو عليه من قضية البرهان، وفائدةُ هذه الشرطيةِ بيانُ أن امتناعَه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدةٍ من جهة الطبيعة بل لمحض العفةِ والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتبِ المقدّمات الخارجيةِ الموجبةِ لظهور الأحكام الطبيعية.

هذا وقد نص أئمةُ الصناعة على أن ﴿لولا﴾ في أمثال هذه المواقعِ جارٍ من حيث المعنى لا من حيث الصيغةُ مَجرى التقييدِ للحُكم المطلقِ كما في مثل قوله تعالى: ﴿إن كاد لَيُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أن صَبَرْنا عليها﴾ [الفرقان، الآية ٤٢] فلا يتحقق هناك همٌّ أصلًا. وقد جوز أنِ يكون ﴿وهم بها﴾ جوابَ ﴿لولا﴾ جريًا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهمُّ حينئذ على معناه الحقيقي، فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهانَ ربه لهمَّ بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامِه وما يتفرع عليه انتفى الهمُّ رأسًا، هذا وقد فُسّر همُّه عليه السلام بأنه عليه

(١) لزَّه لزا. شدّه وألصقه.
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤) أول كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (١/ ٢٨٢٢) من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه.

السلام حلّ الهميان[1] وجلس مجلسَ الخِتان وبأنه حل تِكّة سراويلِه وقعد بين شُعَبها، ورؤيتُه للبرهان بأنه سمع صوتًا: إياك وإياها فلم يكترثْ ثم وثم إلى أن تمثّل له يعقوبُ عليه السلام عاضًّا على أنملته وقيل: ضرب على صدره فخرجت شهوتُه من أنامله، وقيل: بدت كفٌّ فيما بينهما ليس فيها عضُدٌ ولا مِعصمٌ مكتوبٌ فيها: ﴿وإن عليكم لحافظين كِرامًا كاتبين﴾ [الانفطار، الآية ١٠] فلم ينصرف، ثم رأى فيها: ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة وساء سبيلًا﴾ [الإسراء، الآية ٣٢] فلم ينتهِ ثم رأى فيها: ﴿واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة، الآية ٢٨١] فلم يَنْجَع، فقال الله عز وجل لجبريل: «**أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة**» فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول: يا يوسفُ أتعملُ عملَ السفهاء وأنت مكتوبٌ في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيزِ، وقيل: إنْ كلَّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقول والأذهانُ ويلٌ لمن لاكها ولفّقها أو سمعها وصدّقها.

﴿**كذلك**﴾ الكافُ منصوبُ المحلِّ وذلك إشارةٌ إلى الإراءة المدلولِ عليها بقوله تعالى: ﴿لولا أن رأى برهانَ ربه﴾ أي مثلَ ذلك التبصيرِ والتعريفِ عرفناه برهاننا فيما قبل، أو إلى التثبيت اللازم له أي مثلَ ذلك التثبيتِ ثبتناه ﴿**لنصرف عنه السوء**﴾ على الإطلاق فيدخل فيه خيانةُ السيِّد دخولًا أوليًا ﴿**والفحشاء**﴾ والزنىٰ لأنه مفْرِطٌ في القبح وفيه آيةٌ بينةٌ وحجةٌ قاطعةٌ على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية ولا توجَّه إليها قط، وإلا لقيل: لنصرِفَه عن السوء والفحشاء، وإنما توجه إليه ذلك من خارجٍ فصرَفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفةِ والعصمةِ فتأمل! وقرئ (ليَصرِف)[2] على إسناد الصرْف إلى ضمير الرب ﴿**إنه من عبادنا المخلَصين**﴾ تعليلٌ لما سبق من مضمون الجملةِ بطريق التحقيقِ، والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادحٌ فيها، وقرئ على[3] صيغة الفاعل وهم الذين

---

(١) الهميان (بكسر الهاء وسكون الميم): شداد السراويل.

(٢) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٩٦).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، ابن عامر، ابن كثير، خلف، يعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٦)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٢٠)، والتيسير للداني ص (١٢٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٠).

أخلصوا دينهم لله سبحانه، وعلى كلا المعنيين فهو منتظَمٌ في سلكهم داخلٌ في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملةِ الاسميةِ لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادةُ احتمالِ صدورِ الهمِّ بالسوء منه عليه السلام بالكلية.

﴿**واستبقا الباب**﴾ متصلٌ بقوله: ﴿ولقد همتْ به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ وقولُه: كذلك إلى آخره، اعتراضٌ جيء به بين المعطوفَيْن تقريرًا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى: ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرض﴾ [الأنعام، الآية ٧٥] والمعنى لقد همت به وأبىٰ هو واستبقا الباب أي تسابقا إلى الباب البراني الذي هو المخلص، ولذلك وُحّد بعد الجمعِ فيما سلف وحُذف حرفُ الجر وأوصل الفعلُ إلى المجرور نحو وإذا كالوهم، أو ضُمِّن الاستباقُ معنى الابتدارِ، وإسناد السبق في ضمن الاستباق إليها مع أن مرادَها مجردُ منعِ يوسف وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنها لما رأته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرعت هي أيضًا لتسبِقَه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج، أو عبر عن إسراعها إثْرَه بذلك مبالغة.

﴿**وقدت قميصه من دبر**﴾ اجتذبتْه من ورائه فانشق طولًا وهو القَدُّ كما أن الشقّ عرضًا هو القَطُّ، وقد قيل في وصف عليّ رضي الله عنه: «إنه كان إذا اعتلى قدّ وإذا اعترض قطّ» وإسنادُ القدِّ إليها خاصة مع أن لقوة يوسفَ أيضًا دخلًا فيه إما لأنها الجزءُ الأخيرُ للعلة التامةِ وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذلِ مجهودِها في ذلك لفَوْت المحبوب أو لخوف الافتضاح ﴿**وألفيا سيدها**﴾ أي صادفا زوجَها، وإذْ لم يكن مُلكُه ليوسف عليه السلام صحيحًا لم يقل سيدهما. قيل: ألفياه مقبلًا وقيل: كان جالسًا مع ابن عمٍّ للمرأة ﴿**لدى الباب**﴾ أي البراني كما مر. روى كعب رضي الله عنه أنه لما هرب يوسفُ عليه السلام جعل فَراشُ القُفلِ يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿**قالت**﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال سائل يقول: فماذا كان حين ألفَيا العزيزَ عند الباب؟ فقيل: قالت: ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا**﴾ من الزنا ونحوه ﴿**إلا أن يسجن أو عذاب أليم**﴾ ما نافية أي ليس جزاؤُه إلا السجن أو العذاب الأليم، قيل: المرادُ به الضربُ بالسياط، أو استفهاميةٌ أي أيُّ شيءٍ جزاؤُه غيرُ ذاك أو ذلك، ولقد أتت في تلك الحالةِ التي تُدهش فيها الفَطِنَ حيث شاهدها العزيزُ على تلك الهيئة المُريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئةُ ساحتِها مما يلوح من ظاهر الحالِ واستنزالُ يوسف عن رأيه في استعصائه

عليها وعدمِ مواتاتِه على مرادها بإلقاء الرعبِ في قلبه من مكرها طمعًا في مواقعته لها كرهًا عند يأسِها عن ذلك اختيارًا كما قالت: ﴿ولئن لم يفعلْ ما آمُره ليُسجننَّ وليكوننَّ من الصاغرين﴾ [يوسف، الآية ٣٢] ثم إنها جعلت صدورَ الإرادة المذكورةِ عن يوسف عليه السلام أمرًا محققًا مفروغًا عنه غنيًّا عن الإخبار بوقوعه وأن ما هي عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائِها فهي تريد إيقاعَه حسبما يقتضيه قانونُ الإيالة، وفي إبهام المُريد تهويلٌ لشأن الجزاء المذكورِ بكونه قانونًا مطردًا في حق كل أحدٍ كائنًا من كان، وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيزِ إعظامٌ للخطب وإغراءٌ له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية.

﴿**قال**﴾ استئنافٌ وجوابٌ عما يقال: فماذا قال يوسفُ حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿**هي راودتني عن نفسي**﴾ أي طالبتني للمواتاة لا أني أردتُ بها سوءًا كما قالت، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسِه عما أُسند إليه من الخيانة وعدم معرفة حقِّ السيد ودفعِ ما عرضَتْه له من الأمرين، وفي التعبير عنها بضمير الغَيبة دون الخطاب أو اسم الإشارةِ مراعاةٌ لحسن الأدبِ مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿**وشهد شاهد من أهلها**﴾ قيل: هو ابنُ عمها، وقيل: هو الذي كان جالسًا مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيمًا يرجِعُ إليه الملكُ ويستشيره، وقد جُوّز أن يكون بعضُ أهلها قد بصُر بها من حيث لا تشعُر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيامِ بالحق، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادةَ إلى من هو من أهلها ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنفىٰ للتُّهمة، وقيل: كان الشاهدُ ابنَ خالٍ لها صبيًا في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الأظهر، فإنه رُوي أن النبيﷺ قال: «**تكلم أربعةٌ وهم صغار، ابنُ ماشطة بنتِ فرعون، وشاهدُ يوسف، وصاحبُ جريج، وعيسى عليه السلام**»[1] رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال: صحيح على شرط الشيخين، وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحالُ في هذه الصورة بين كون الشاهدِ من أهلها أو من غيرهم.

﴿**إن كان قميصه قد من قبل**﴾ أي إن عُلم أنه قدّ من قبُلُ، ونظيره إن أحسنتَ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٠) كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب: ذكر نبي الله وروحه عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليهما.

إلى فقد أحسنتُ إليك فيما قبلُ، فإن معناه: إن تعتدَّ بإحسانك إلي فأعتدُّ بإحساني السابقِ إليك ﴿فصدقت﴾ بتقدير قد، لأنها تقرب الماضي إلى الحال أي فقد صدقت، وكذا الحال في قوله: ﴿فكذبت﴾ وهي وإن لم تصرِّح بأنه عليه السلام أراد بها سوءًا إلا أن كلامَها حيث كان واضحَ الدِلالة عليه، أُسند إليها الصدقُ والكذبُ بذلك الاعتبار، فإنهما كما يعرِضان الكلامَ باعتبار منطوقِه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه، وبذلك الاعتبار يعرضان[1] للإنشاءات ﴿وهو من الكاذبين﴾ وهذه الشرطية ، حيث لا ملازمةَ عقليةً ولا عاديةً بين مقدِّمها وتاليها ، ليست من الشهادة في شيء وإنما ذُكرت توسيعًا للدائرة وإرخاءً للعِنان إلى جانب المرأة بإجراء ما عسى يحتمله الحالُ في الجملة ، بأن يقع القدُّ من قُبُل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادتِه المخالطةَ والتكشفَ ، مُجرى الظاهرِ الغالبِ الوقوعِ تقريبًا لما هو المقصودُ بإقامة الشهادة، أعني مضمونَ الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل: ﴿وإن كان قميصه قد من دبُر فكذبت وهو من الصادقين﴾ إلى التسليم والقَبول عند السامع؛ لكونه أقربَ إلى الوقوع وأدلَّ على المطلوب وإن لم يكن بين طرفيها أيضًا ملازمةٌ، وحكايةُ الشرطيةِ بعد فعل الشهادةِ لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول. أي شهد قائلًا إلخ وتسميتُها شهادةً مع أنه لا حكمَ فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها، بل لأنها شهادةٌ على الحقيقة، وحُكمٌ بصدقه وكذبها؛ **أما** على تقدير كونِ الشاهدِ هو الصبيُّ فظاهرٌ؛ إذ هو إخبارٌ بهما من قِبَل علامِ الغيوب، والتصويرُ بصورة الشرطية للإيذان بأن ذلك ظاهرٌ من العلائم أيضًا؛ **وأما** على تقدير كونِه غيرَه فلأن الظاهرَ أن صورةَ الحالِ معلومةٌ له على ما هي عليه إما مشاهدةً أو إخبارًا فهو متيقّنٌ بعدم مقدَّم الشرطيةِ الأولى، وبوجود مقدمِ الشرطيةِ الثانية ومن ضرورته الجزمُ بانتفاء تالي الأولى وبوقوع تالي الثانية، فإذن هو إخبارٌ بكذبها وصدقِه عليه السلام ولكنه ساق شهادتَه مساقًا مأمونًا من الجَرْح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددةِ ظاهرًا بين نفعها ونفعِه، **وأما** حقيقةً فلا تردد فيها قطعًا. لأن الشرطية الأولى تعليقٌ لصدقها بما يستحيل وجودُه من قدّ القميص من قُبُل فيكون مُحالًا لا محالة، ومن ضرورته تقررُ كذبها، والثانية تعليقٌ لصدقه عليه

---

(١) في خ: يعتريان.

السلام بأمر محققِ الوجود وهو القدُّ من دبر فيكون محققًا ألبتةَ، وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة: زوجيني نفسك، فقالت: لي زوجٌ فكذبها في ذلك فقالت: إن لم يكن لي زوجٌ فقد زوجتُك نفسي، فقبل الرجلُ فإذا لا زوج لها فهو نكاحٌ، إذ تعليقُ الشيء بأمر مقرَّرٍ تنجيزٌ له. وقرئ[1] (مِنْ قُبلُ) (ومن دُبرُ)[2] بالضم لأنهما قطعا عن الإضافة كقبلُ وبعدُ وبالفتح[3] كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرفَ للتأنيث والعلمية وقرئ[4] بسكون العين.

﴿**فلما رأى قميصه قد من دبر**﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك بعدُ أو لم يتدبَّرْه فلما تنبه له وعلم حقيقةَ الحال ﴿**قال إنه**﴾ أي الأمرَ الذي وقع فيه التشاجرُ وهو عبارةٌ عن إرادة السوءِ التي أُسندت إلى يوسف وتدبيرِ عقوبته بقولها: (ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءًا. . .) إلى آخره لكن لا من حيث صدورُ تلك الإرادةِ والإسنادُ عنها بل مع قطع النظرِ عن ذلك لئلا يخلُوَ قوله تعالى ﴿**من كيدكن**﴾ ، أي من جنس حيلتِكن ومكرِكن أيتها النساءُ لا من غيركن ، عن الإفادة وتدبيرِ العقوبة، وإن لم يمكن تجريدُه عن الإضافة إليها إلا أنها لما صوّرته بصورة الحق أفاد الحكمَ بكونه من كيدهن إفادةً ظاهرةً فتأمل! وتعميمُ الخطاب للتنبيه على أن ذلك خُلُق لهن عريق: [الطويل]

---

(١) قرأ بها: ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، والعطاردي، وأبو الزناد، ونوح القارئ، والجارود وابن أبي سبرة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها: ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، والعطاردي، وأبو الزناد، ونوح القارئ، والجارود، وابن أبي سبرة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٣٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٦).

(٣) قرأ (قُبُلَ): ابن أبي إسحاق.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٩٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٤).
قرأ (دُبُرَ): ابن أبي إسحاق.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٩٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٤).

(٤) قرأ (قُبْلٍ): أبو عمرو، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٤).
قرأ (دُبْرٍ): أبو عمرو، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٤).

ولا تحسَبا هندًا لها الغدرُ وحدها   سجيةُ نفسٍ، كلُّ غانيةٍ هندُ[١]

ورجْعُ الضميرِ إلى قولها: ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءًا فقط عدولٌ عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاعُ من أن إرادةَ السوءِ ممن هي إلى البحث عن شُعبة من شُعَبه، وجعلُه للسوء أو للأمر المعبّر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يأباه الخبرُ فإن الكيدَ يستدعي أن يعتبر مع ذلك هَناتٌ أُخرُ من قِبلها كما أشرنا إليه ﴿**إن كيدكن عظيم**﴾ فإنه ألطفُ وأعلقُ بالقلب وأشدُّ تأثيرًا في النفس. وعن بعض العلماء: إني[٢] أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول: ﴿إن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفًا﴾ [النساء، الآية ٧٦] وقال للنساء: ﴿**إن كيدكَن عظيم**﴾ ولأن الشيطان يوسوس مُسارقةً وهن يواجِهْن به الرجال.

﴿**يوسف**﴾ حُذف منه حرفُ النداء لقربه وكمالِ تفطُّنه للحديث وفيه تقريبٌ له وتلطيفٌ لمحله ﴿**أعرض عن هذا**﴾ أي عن هذا الأمرِ وعن التحديث به واكتُمْه فقد ظهر صدقُك ونزاهتُك ﴿**واستغفري**﴾ أنت يا هذه ﴿**لذنبك**﴾ الذي صدر عنك وثبَتَ عليك ﴿**إنك كنت**﴾ بسبب ذلك ﴿**من الخاطئين**﴾ من جملة القوم المتعمّدين للذنب أو من جنسهم، يقال: خطئ إذا أذنب عمدًا، وهو تعليلٌ للأمر بالاستغفار، والتذكيرُ لتغليب الذكورِ على الإناث، وكان العزيزُ رجلًا حليمًا فاكتفى بهذا القدرِ من مؤاخذتها، وقيل: كان قليلَ الغَيرة.

﴿**وقال نسوة**﴾ أي جماعةٌ من النساء وكنّ خمسًا: امرأةُ الساقي وامرأةُ الخبّاز وامرأةُ صاحب الدوابِّ وامرأةُ صاحبِ السجنِ وامرأةُ الحاجب، والنسوةُ اسمٌ مفردٌ لجمع المرأةِ وتأنيثُه غير حقيقي كتأنيث اللُّمَة وهي اسمٌ لجماعة النساء، والثُبَة وهي اسم لجماعة الرجال، ولذلك لم يلحَق فعلَه تاءُ التأنيث ﴿**في المدينة**﴾ ظرفٌ لقال أي أشعْن الأمرَ في مصر أو صفةٌ لنسوة ﴿**امرأة العزيز**﴾ أي الملك، يُرِدْن قطفير، وإضافتُهن لها إليه بذلك العنوانِ دون أن يصرِّحن باسمها أو اسمِه ليست لقصد المبالغةِ في إشاعة الخبر بحكم أن النفوسَ إلى سماع أخبارِ ذوي الأخطارِ أميلُ كما قيل، إذ ليس مرادُهن تفضيحَ العزيز بل هي لقصد الإشباعِ في لومها بقولهن:

---

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه (١/ ٣٥١) والخصائص (٣/ ٢٧١)، وروح المعاني (١٢/ ٢٢٤).

(٢) في خ: أنا.

﴿**تراود فتاها**﴾ أي تطالبه بمواقعته لها وتتحمل[١] في ذلك وتخادعه ﴿**عن نفسه**﴾ وقيل: تطلب منه الفاحشة، وإيثارُهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودةِ، والفتى من الناس الشابُّ وأصله فتيٌ لقولهم: فتيان، والفتوة شاذة، وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد هاهنا وفي الحديث: «**لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي**»[٢]، وتعبيرُهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافًا إليها لا إلى العزيز الذي لا تستلزم[٣] الإضافةُ إليه الهوان؛ بل ربما يشعر بنوع عزةٍ لإبانة ما بينهما من التبايُن البيِّن الناشئ عن المالكية والمملوكية، وكلُّ ذلك لتربية ما مر من المبالغة والإشباعِ في اللوم فإن من لا زوج لها من النساء أو لها زوجٌ دنيءٌ قد تُعذر في مراودة الأخدان لا سيما إذ كان فيهم علوُّ الجناب، وأما التي لها زوجٌ وأيُّ زوج، عزيزُ مصرَ فمراودتُها لغيره ، لا سيما لعبدها الذي لا كفاءةَ بينها وبينه أصلًا وتماديها في ذلك ، غايةُ الغي ونهايةُ الضلال.

﴿**قد شغفها حبًّا**﴾ أي شق حبُّه شَغافَ قلبها وهو حجابُه أو جلدةٌ رقيقةٌ يقال لها لسانُ القلبِ حتى وصل إلى فؤادها، وقرئ (شعَفها)[٤] بالعين من شعف البعيرَ إذا هنَأه فأحرقه بالقِطِران. وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغَفُ الحبُّ القاتل والشعف حبٌّ دون ذلك[٥]، وكان الشعبي يقول: الشغفُ حبٌّ والشعفُ جنون[٦]؛ والجملةُ خبرٌ ثانٍ أو حال من فاعل تُراود أو من مفعوله، وأيًا ما كان

---

(١) في خ: تتمحل.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٤٨٥) كتاب العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق، برقم (٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٤) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، برقم (١٣/ ٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في خ: يلتزم.

(٤) قرأ بها: الحسن، وابن محيصن، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر ابن محمد، والشعبي، وعوف، والأعرابي، وأبو رجاء، والأعرج، وأبو جعفر، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وثابت البناني، والزهري، ومحمد بن السميفع، وابن أبي مريم، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠١)، وتفسير الطبري (١٢/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٤٢).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١٣١) برقم (١١٥٢٣).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١٣١) برقم (١١٥٢٥).

فهو تكريرٌ لِلّوم وتأكيدٌ للعذْل ببيان اختلالِ أحوالِها القلبية كأحوالها القالَبية، وجعلُها تعليلًا لدوام المراودةِ من حيث الإنية مصيرٌ إلى الاستدلال على الأجلى بالأخفى، ومن حيث اللمية ميلٌ إلى تمهيد العذر من قِبلها ولسْن بذلك المقام، وانتصابُ حبًا على التمييز لنقله عن الفاعلية إذ الأصل قد شغفها حبُّه كما أشير إليه ﴿إنا لنراها﴾ أي نعلمها علمًا متاخمًا للمشاهدة والعِيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفْرِطة مستقرةً ﴿في ضلال﴾ عن طريق الرشد والصوابِ أو عن سنن العقل ﴿مبين﴾ واضح لا يخفى كونُه ضلالًا على أحد أو مُظهرٍ لأمرها بين الناس، فالجملةُ مقرِّرةٌ لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيلٌ عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم، وإنما لم يقُلن إنها لفي ضلال مبين إشعارًا بأن ذلك الحكمَ غيرُ صادر عنهن مجازفةً بل عن علم ورأي مع التلويح بأنهن متنزّهاتٌ عن أمثال ما هي عليه.

﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ باغتيابهن وسوءِ قالتِهن وقولِهن: امرأةُ العزيز عشِقت عبدَها الكنعاني وهو مَقَتها، وتسميتُه مكرًا لكونه خفيةً منها كمكر الماكر، وإن كان ظاهرًا لغيرها. وقيل: استكْتَمَتْهن سِرَّها فأفشَيْنه عليها، وقيل: إنما قلن ذلك لتُرِيَهُنّ يوسف عليه السلام ﴿أرسلت إليهن﴾ تدعوهن، قيل: دعت أربعين امرأةً منهن الخمسُ المذكورات ﴿وأعتدت﴾ أي أحضرت وهيأت ﴿لهن متكأ﴾ أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، أو رتّبت لهن مجلسًا وشرابًا لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترَفين، ولذلك نُهي الرجلُ أن يأكل متّكِئًا. وقيل: متّكأ طعامًا من قولهم: تكأنا عند فلان أي طعِمنا، قال جميل: [الخفيف]

فظَلِلْنا بنعمةٍ واتكأنا ... وشرِبْنا الحلالَ من قُلَلِهْ[1]

وعن مجاهد: متّكأ طعامًا يُحزّ حزًا، كأن المعنى يُعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطعَ يتكىء على المقطوع بالسكين، وقرئ بغير[2] همز وقرئ[3] بالمد بإشباع

---

(١) البيت لجميل بن معمر في ديوانه ص (١٨٩)، ولسان العرب (قلل)، وأساس البلاغة (قلل، وكأ)، والأغاني (٨/ ٩٤)، وخزانة الأدب (٢/ ٢٤)، وشرح شواهد المغني (١/ ٣٦٦)، والمعاني الكبير ص (٤٥٧)، وتاج العروس (قلل).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر، والزهري، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٩).

(٣) قرأ بها: الحسن، وابن هرمز.

=

حركة الكاف كمُنتزاح في مُنتزح ويَنْباع في ينبَع وقرئ مُتْكًا[1] وهو الأُترُجّ وأنشدوا: [الوافر]

وأهـدت مُـتْـكـةً لـبـنـي أبـيـهـا تـخُـب بـهـا الـعَـثَـمْـثـمَـةُ الـوَقـاحُ[2]

أو ما يقطع، من متَك الشيءَ إذا بتكه إذا تكى ﴿**وآتت كل واحدة منهن سكينًا**﴾ لتستعمله في قطع ما يُعهد قطعُه مما قدّم بين أيديهن وقرّب إليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متّكئات وغرضُها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿**وقالت**﴾ ليوسف وهن مشغولاتٌ بمعالجة السكاكين وإعمالِها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها، والعطفُ بالواو ربما يشير إلى أن قولها: ﴿**اخرج عليهن**﴾ أي ابرُزْ لهن لم يكن عَقيب ترتيب أمورِهن ليتم غرضُها من استغفالهن ﴿**فلما رأينه**﴾ عطفٌ على مقدر يستدعيه الأمرُ بالخروج وينسحب عليه الكلام أي فخرج عليهن فرأينه، وإنما حذف تحقيقًا لمفاجأة رؤيتِهن كأنها تفوت عند ذكرِ خروجِه عليهن كما حُذف لتحقيق السُّرعةِ في قوله عز وجل: ﴿فلما رآه مستقرًا عنده﴾ [النمل، الآية ٤٠] بعد قوله: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك﴾ وفيه إيذانٌ بسرعة امتثالِه عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرَّتَه من الأفاعيل ﴿**أكبرنه**﴾ عظّمنه وهِبْن حسنَه الفائقَ وجماله الرائعَ الرائقَ فإن فضلَ جمالِه على جمال كلِّ جميلٍ كان كفضل القمرِ ليلة البدرِ على سائر الكواكب. عن النبي ﷺ أنه قال: «**رأيتُ يوسفَ ليلةَ المعراج كالقمر ليلةَ البدر**»[3] وقيل: كان يُرى تلألُؤُ وجهِه على الجُدران كما يُرى

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٩).

(١) قرأ بها: ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والجحدري، والكلبي، وأبان بن تغلب، وابن هرمز، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٧٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: البيت في: روح المعاني (١٢/ ٢٨٨)، والكشاف (٢/ ٣١٦)، والدر المصون (٤/ ١٧٤)، والعثمثة: القوية الشديدة. وقاح: صبورة على الركوب.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٣٦٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ١٤٦)، من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ:
رأيت يوسف ليلة أسري بي في السماء الثالثة، وإذا برجل راعني حسنه، شاب فضل على الناس بالحسن، قيل هذا أخوك يوسف.

نورُ الشمس على الماء، وقيل: معنى أكبرْنَ حِضِن، والهاء للسكت، أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام أي حضْن له من شدة الشبَق كما قال المتنبي: [الطويل]

خفِ الله واستُر ذا الجمالَ ببرقعٍ فإن لُحْتَ حاضتْ في الخدور العواتقُ[١]

﴿وقطعن أيديهن﴾ أي جرَحْنها بما في أيديهن من السكاكين لفرْط دهشتِهن وخروجِ حركات جوارِحِهن عن منهاج الاختيار والاعتياد، حتى لم يعلمن ما فعلن وفي التَعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن، ومع ذلك لم يباليْن بذلك ولم يشعُرْن به ﴿وقلن حاش لله﴾ تنزيهًا له سبحانه عن صفات النقص والعجزِ وتعجبًا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع، وأصلُه حاشا كما قرأه[٢] أبو عمرو في الدرج فحُذفت ألفُه الأخيرةُ تخفيفًا وهو حرفُ جر يفيد معنى التنزيهِ في باب الاستثناء فلا يُستثنى به إلا ما يكون موجبًا للتنزيه فوضع موضعَه، فمعنى حاشا الله تنزيهُ الله وبراءةُ الله وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، واللام لبيان المنزَّه والمبرَّأ عز وجل كما في سُقيًا لك، والدليلُ على وضعه موضعَ المصدر قراءةُ أبي السمال[٣] حاشًا بالتنوين وقراءةُ أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة وقراءة[٤] الأعمش بحذف الأولى فإن التصرّفَ من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلتَه، وعدمُ التنوين لمراعاة أصلِه كما في قولك: جلست مِنْ عَن يمينه. وقولُه: غدت مِنْ عليه منقلبُ الألف إلى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين[٥] إتباعًا للفتحة الألفَ في الإسقاط وحاش الإلٰهِ، وقيل: حاشا فاعلٌ من الحشا الذي هو الناحية وفاعلُه ضميرُ يوسف أي صار في ناحية من أن يقارف ما رمتْه به لله أي

---

(١) ينظر: البيت في ديوانه (٢/ ٣٤٩)، روح المعاني ١٢/ ٢٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، والدر المصون ٤/ ١٧٥)، والكشاف (٢/ ٣١٧)، والعواتق: جمع عاتق، وهو فرخ الطائر حين يسقط ريشه الأول وينبت له ريش قوي. ويقال للشابة أول ما أدركت، وهو المراد.

(٢) قرأ بها أيضًا: نافع، واليزيدي، وابن محيصن، والمطوعي، وأبي، وعبد الله.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٣٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٣٠)، والتيسير للداني ص (١٢٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٨١)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٤٢).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٧).

(٤) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٧).

(٥) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٨١)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٨)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤١).

لطاعته أو لمكانه أو جانبَ المعصية لأجل الله ﴿ما هذا بشرًا﴾ على إعمال ما بمعنى ليس وهي لغةُ أهلِ الحجازِ لمشاركتهما في نفي الحالِ، وقرئ (بشرٌ)[1] على لغة تميم و(بِشِرًى)[2] أي بعبد مشترىً لئيم، نفَين عنه البَشَرية لما شاهدْن فيه من الجمال العبقري الذي لم يُعهدْ مثالُه في البشر وقصَرْنه على الملَكية بقولهن: ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ بناءً على ما ركَز في العقول مِنْ أن لا حيَّ أحسنُ من الملك كما ركب فيها أن لا أقبحُ من الشيطان ولذلك لا يزال يُشبَّه بهما كلُّ متناهٍ في الحسن والقبح وغرضُهن وصفُه بأقصى مراتبِ الحسن والجمال.

﴿قالت فذلكن﴾ الفاء فصيحةٌ والخطابُ للنسوة والإشارةُ إلى يوسف بالعنوان الذي وصفْنه به الآن من الخروج في الحسن والجمالِ عن المراتب البشريةِ والاقتصار على الملَكية، فاسمُ الإشارة مبتدأٌ والموصولُ خبرُه والمعنى إن كان الأمرُ كما قلتنّ فذلكنّ الملكُ الكريمُ النائي عن المراتب البشريةِ هو ﴿الذي لمتنّني فيه﴾ أي عيَّرْتُنّني في الافتتان به حيث رَبَأْتُن[3] بمحلِّي بنسبتي إلى العزيز ووضعتُنَّ قدرَه بكونه من المماليك أو بالعنوان الذي وصفْنه به فيما سبق بقولهن: امرأةُ العزيز عشِقت عبدَها الكَنعاني، فهو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي فهو ذلك العبدُ الكنعانيُّ الذي صورتُنّ في أنفسكن وقلتنّ فيه وفيَّ ما[4] قلتن فالآن قد علمتُنّ من هو وما قولُكن فينا. وأما ما يقال، تعني أنكن لم تصوِّرْنه بحقِّ صورتِه ولو صوّرتُنّه بما عاينتُنّ لعذرتُنّني في الافتتان به، فلا يلائمُ المقام فإن مرادَها بدعوتهن وتمهيدِ ما مهَّدَتْه لهن تبكيتُهن وتنديمُهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيدَ عليه، وما ذكر من المقال فحقُّ المعتذر قبل ظهور معذرتِه وقد قيل في تعليل الملَكية: إن الجمعَ بين الجمال الرائقِ والكمال الفائق والعصمةِ البالغةِ من الخواصِّ الملكية وهو أيضًا لا يلائم قولها: ﴿فذلكن الذي لمُتنّني فيه﴾ فإن عنوانَ

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٧)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٢٩).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وعبد الوارث، والحسن، وأبو الحويرث الحنفي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٤)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٣٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٨٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٢).

(٣) ربأ بفلان عن كذا: رفعه ونزَّهه.

(٤) في خ: وما في.

العصمةِ مما ينافي تمشيةَ مرامِها ثم بعدما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرَها وقد أصابهن من قِبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرِّها فقالت:

﴿ولقد راودته عن نفسه﴾ حسبما قلتنّ وسمعتن ﴿فاستعصم﴾ امتنع طالبًا للعصمة وهو بناءُ مبالغةٍ يدل على الامتناع البليغِ والتحفّظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها كما في استمسك واستجمع الرأيَ وفيه برهانٌ نيِّر على أنه لم يصدُر عنه عليه السلام شيء مُخِلٌّ باستعصامه بقوله: معاذ الله من الهمّ وغيرِه. اعترفت لهن أولًا بما كن يسمعنه من مراودتها له وأكدتْه إظهارًا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يَمِلْ إليها قط ثم زادت عليه أيضًا أنها مستمرةٌ على ما كانت عليه غير مرغوبة عنه لا بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب فقالت:

﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ أي آمرُ به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضىٰ فحُذف الجارُّ وأوصل الفعلُ إلى الضمير كما في أمرتك الخيرَ فالضميرُ للموصول أو أمري إياه أي موجبَ أمري ومقتضاه، فما مصدرية والضميرُ ليوسف وعبّرت عن مراودتها بالأمر إظهارًا لجريان حكومتِها عليه واقتضاءً للامتثال بأمرها ﴿ليسجنن﴾ بالنون المثقلة آثرت بناءَ الفعل للمفعول جريًا على رسم الملوكِ أو إيهامًا لسرعة ترتبِ ذلك على عدم امتثالِه لأمرها كأنه لا يدخُل بينهما فعلُ فاعل ﴿وليكونًا﴾ بالمخففة ﴿من الصاغرين﴾ أي الأذلاء في السجن، وقد قرئ[1] الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورةَ أولى لأن النونَ كُتبت في المصحف ألفًا على حكم الوقف، واللامُ الداخلة على حرف الشرطِ موطئةٌ للقسم وجوابُه سادٌّ مسدَّ الجوابين. ولقد أتتْ بهذا الوعيدِ المنطوي على فنون التأكيدِ بمحضر منهن ليعلم يوسفُ عليه السلام أنها ليست في أمرها على خُفية ولا خيفة من أحد فتضيقَ عليه الحيلُ وتعيا به العللُ وينصحن له ويُرشِدْنه إلى موافقتها. ولما كان هذا الإبراقُ والإرعادُ منها مظِنةً لسؤال سائل يقول: فما صنع يوسفُ حينئذ؟ قيل: ﴿قال﴾ مناجيًا لربه عزَّ سلطانُه ﴿ربِّ السجن﴾ الذي أوعَدَتْني بالإلقاء فيه وقرأ يعقوبُ[2] بالفتح على المصدر ﴿أحبُّ إلي﴾ أي آثَرُ

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/٣٠٦)، والكشاف للزمخشري (٢/٣١٨).

(٢) قرأ بها أيضًا: عثمان، وطارق مولى عثمان، وزيد بن علي، والزهري، وابن هرمز(عبد الرحمن الأعرج)، وابن أبي إسحاق.

=

عندي لأنه مشقةٌ قليلةٌ نافذةٌ إثرَها راحاتٌ جليلةٌ أبديةٌ ﴿**مما يدعونني إليه**﴾ من مؤاتاتها التي تؤدي إلى الشقاء والعذابِ الأليم، وهذا الكلامُ منه عليه السلام مبنيٌّ على ما مر من انكشاف الحقائقِ لديه وبروزِ كلٍّ منها بصورتها اللائقةِ بها، فصيغةُ التفضيلِ ليست على بابها إذ ليس له شائبةُ محبةٍ لما دعتْه إليه، وإنما هو والسجنُ شران أهونُهما وأقربُهما إلى الإيثار السجنُ. والتعبيرُ عن الإيثار بالمحبة لحسم مادةِ طمعِها عن المساعدة خوفًا من الحبس والاقتصار على ذكر السجنِ من حيث إن الصَّغارَ من فروعه ومستتبعاتِه، وإسنادُ الدعوةِ إليهن جميعًا لأن النسوة رغّبْنه في مطاوعتها وخوَّفْنه من مخالفتها، وقيل: دعَوْنه إلى أنفسهن، وقيل: إنما ابتُلي عليه السلام بالسجن لقوله هذا، وكان الأولى به أن يسألَ الله تعالى العافية، ولذلك ردّ رسولُ الله ﷺ على من كان يسأل الصبرَ ﴿**وإلا تصرف**﴾ أي إن لم تصرف ﴿**عني كيدهن**﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ بأن تُثبّتَني على ما أنا عليه من العِصمة والعِفة ﴿**أصبُ إليهن**﴾ أي أمِلْ إلى إجابتهن أو إلى أنفسهن على قضية الطبيعةِ وحكم القوةِ الشهوية، وهذا فزعٌ منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جريًا على سُنن الأنبياءِ والصالحين في قصر نيلِ الخيراتِ والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلبِ القوى والقدر عن أنفسهم، ومبالغةٌ في استدعاء لطفِه في صرف كيدِهن بإظهار أن لا طاقةَ له بالمدافعة كقول المستغيثِ: أدركْني وإلا هلكتُ لا أنه يطلب الإجبارَ والإلجاءَ إلى العصمة والعفةِ وفي نفسه داعيةٌ تدعوه إلى هواهن، والصبْوةُ الميلُ إلى الهوى ومنه الصَّبا لأن النفوسَ تصبو إليها لطيب نسيمِها ورَوْحِها. وقرئ[1] أصبّ إليهن من الصبابة وهي رقةُ الشوق ﴿**وأكن من الجاهلين**﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواءٌ أو من السفهاء بارتكابِ ما يدعونني إليه من القبائح لأن الحكيمَ لا يفعل القبيح.

﴿**فاستجاب له ربه**﴾ دعاءَه الذين تضمنه قولُه: وإلا تصرف عني كيدهن... إلخ، فإن فيه استدعاءً لصرف كيدِهن على أبلغ وجهٍ وألطفِه كما مر، وفي إسناد

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٤٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٢٩)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٣٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٢٨).

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٩).

الاستجابة إلى الرب مضافًا إليه عليه السلام ما لا يخفى من إظهار اللطف ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ حسب دعائه وثبّته على العصمة والعفة ﴿إنه هو السميع﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿ثم بدا لهم﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه المتصدّين للحل والعقد ريثما اكتفوا

بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ الصارفةَ لهم عن ذلك البداءِ وهي الشواهدُ الدالة على براءته عليه السلام، وفاعل بدا إما مصدرُه أو الرأي المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله: ﴿ليسجننه﴾ والمعنى بدا لهم بداءٌ أو رأيٌ أو سَجنُه المحتومُ قائلين: والله ليسجُنُنّه، فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالًا من ضميرهم، وما كان ذلك البداءُ إلا باستنزال المرأةِ لزوجها وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعةً لها تقوده حيث شاءت، قال السدي إنها قالت للعزيز: إن هذا العبدَ العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم بأني راودتُه عن نفسه فإما أن تأذن لي فأخرجَ فأعتذرَ إلى الناس وإما أن تحبِسه فحبسه، ولقد أرادت بذلك تحقيقَ وعيدِها لتُلين به عريكتَه وتنقادَ لها قرونته[1] لمّا انصرمت حبالُ رجائها عن استتباعه بعرض الجمالِ والترغيبِ بنفسها وبأعوانها. وقرئ[2] لتسجُنُنه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضُهم العزيزَ ومن يليه أو العزيزَ وحده على وجه التعظيم أو خاطب العزيزَ ومَن عنده مِن أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس ﴿حتى حين﴾ إلى حين انقطاعِ قالةِ الناسِ وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه، وأما عندها فحتى يذلِّلَه السجنُ ويسخره لها ويحسبَ الناسُ أنه المجرمُ وقرئ[3] (عتى حين)، بلغة هذيل.

﴿ودخل معه﴾ أي في صحبته ﴿السجن فتيان﴾ من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيُّه والآخر خبازُه. روي أن جماعة من أهل مصر ضمِنوا لهما مالًا ليُسمّا الملكَ في طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك ثم إن الساقيَ نكل عن ذلك ومضى عليه الخبازُ فسمّ الخبزَ، فلما حضر الطعام قال الساقي: لا تأكلْ أيها الملك فإن الخبزَ مسمومٌ، وقال الخباز: لا تشرَبْ أيها الملكُ فإن الشرابَ مسمومٌ، فقال الملك للساقي: اشرَبه فشرِبه فلم يضُرّه وقال للخباز: كُلْه فأبى فجُرِّب بدابة فهلكت

---

(١) القرونة: النفس.

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٤)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٧)، والكشف للقيسي (٢/ ٣١٩).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٣).

فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه. وتأخيرُ الفاعل عن المفعول لما مر غيرَ [مرة] من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس حين ورودِه عليها فضلُ تمكّن، ونظيرُه تقديمُ الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفةً﴾ [طه، الآية ٦٧] وتأخيرُ السجن عن الظرف لإيهام العكس أن يكون الظرفُ خبرًا مقدمًا على المبتدأ وتكون الجملةُ حالًا من فاعل دخل فتأمل.

﴿قال أحدهما﴾ استئنافٌ مبني على سؤال من يقول: ما صنعا بعدما دخلا معه السجنَ؟ فأجيب بأنه قال أحدهما وهو الشرابيُّ: ﴿إني أراني﴾ أي رأيتني، والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورةِ الماضية ﴿أعصر خمرًا﴾ أي عنبًا سماه بما يؤول إليه لكونه المقصودَ من العصر[1]، وقيل: الخمر بلغة عُمان اسمٌ للعنب وفي قراءة

---

(١) وهو ما يسمى عند البلاغيين بالمجاز المرسل، وهذه العلاقة في اصطلاحهم علاقة اعتبار ما سيكون، والمجاز المرسل من طرائق التعبير التي تكتنز البلاغة اكتنازًا، فهو يوسع اللغة وإمكاناتها، ويساعد على التفنن في التعبير، كما يعد لونًا من ألوان الإيجاز والمبالغة في أداء المعنى، ويمكن إجمال ذلك في فوائد ثلاثة:

١- تأكيد المعنى المجازي المراد وتقريره في النفوس لما فيه من دعوى الشيء بالبينة والبرهان.

٢- تصويره للمعنى المجازي المراد خير تصوير وأدقه.

٣- تأدية المعنى المجازي المراد بألفاظ أقل مما تؤديه الحقيقة، وذلك في الغالب، وهذه العلاقة مقابلة لعلاقة أخرى هي اعتبار ما كان، والعرب كما لحظوا الماضي أو الحال الماضية، وعبروا عن الشيء بها لأغراض تختلف باختلاف مقاصده، تراهم ينظرون إلى الحال المترقبة، والتي يتوقع أن يؤول إليها الشيء، فيعبرون بها عنه، يشيرون بذلك إلى أنه بل إليها لا محالة، وقد جاء هذا في الكتاب العزيز في معانٍ كثيرة مثل قوله: ﴿ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ وهم إنما يلدون ولائد طاهرة لا كفر فيها ولا فجور، لأن الكفر والفجور يقتضيان تهيؤًا ذهنيا وروحيا لم يتوفر فيه شيء للوليد، ولكنه أشار إلى أن الولد منهم سينحو قطعًا منحى أبيه، وأن هذه الصفات كائنة لمن يصل منهم عمر الاتصاف بها شرعًا، ومثل هذا كثير.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن الآية من المجاز المرسل باعتبار ما سيكون، قيل: الخمر بلغة غسان اسم للعنب.

وقال المعتمر: لقيت أعرابيًا يحمل عنبًا في وعاء، فقلت ما تحمل؟ قال: خمرًا، أراد العنب، وقرأ أبي وعبد الله: (أعصر عنبًا)، وينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لمخالفته سواد المصحف، وللثابت عنهما بالتواتر قراءتهما ﴿أعصر خمرًا﴾.

قال ابن عطية: ويجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة إذ العصر لها ومن أجلها. قلت: وفي حملها على المجاز مبالغة، وإيجاز.

ينظر: فتح القدير للشوكاني (٣/٢٦)، والكشاف (٢/٣١٨)، والبحر المحيط (٥/٣٠٨)، =

ابن[1] مسعود رضي الله عنه أعصِر عنبًا ﴿وقال الآخر﴾ وهو الخباز ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا﴾ تأخيرُ المفعول عن الظرف لما مر آنفًا وقوله: ﴿تأكل الطير منه﴾ أي تنهش منه، صفةٌ للخبز أو استئنافٌ مبني على السؤال ﴿نبئنا بتأويله﴾ بتأويل ما ذكر من الرؤيَيَيْن أو ما رُئي بإجراء الضمير مُجرى ذلك بطريق الاستعارة فإن اسمَ الإشارةِ يشار به إلى متعدد كما في قوله: [الرجز]

فيها خطوطٌ من سواد وبَلَقْ كأنه في الجلد توليعُ البهَقْ[2]

أي كأن ذلك، والسرُّ في المصير إلى إجراء الضميرِ مُجرى اسمِ الإشارة، مع أنه لا حاجةَ إليه بعد تأويل المرجعِ بما ذكر أو بما رئي، أن الضميرَ إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرضٍ لحال من أحواله فلا يتسنى تأويلُه بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مُجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه في الكلام فتأمل، هذا إذا قالاه معًا أو قاله أحدهما من جهتهما معًا، وأما إذا قاله كلٌّ منهما إثر ما قَصّ ما رآه فالخطابُ المذكور ليس عبارتَهما ولا عبارةَ أحدِهما من جهتهما ليتعدد المرجعُ بل عبارة كل منهما نبئني بتأويله مستفسرًا لما رآه، وصيغةُ المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكيِّ على طريقة قوله عز وجل: ﴿يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات﴾ [المؤمنون: ٥١] فإنهم لم يخاطَبوا بذلك دفعةً بل خوطب كلٌّ منهم في زمانه بصيغة مفردةٍ خاصة به ﴿إنا نراك﴾ تعليلٌ لعرض رؤياهما عليه واستفسارِها منه عليه السلام ﴿من المحسنين﴾ من الذين يجيدون عبارةَ الرؤيا لما رأياه يقصّ عليه بعضُ أهلِ السجن رؤياه فيؤوّلها له تأويلًا حسنًا، أو من العلماء لِما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله، أو من المحسنين إلى أهل السجن أي فأحِسنْ إلينا بكشف غمتِنا إن كنت قادرًا على ذلك. روي أنه عليه السلام كان إذا مرِض منهم رجلٌ قام عليه وإذا ضاق مكانُه

= والفتوحات الإلهية للشيخ سليمان الجمل (٢/ ٤٥٢)، والبلاغة التطبيقية أ.د/ أحمد موسى رحمه الله، ص (٢٦٦)، والتصوير البياني أ. د/ محمد حسن موسى أبو موسى، ص (٣٥٧، ٣٥٨)، والبيان في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين، ص (١٥٧) وما بعدها.

(١) قرأ بها أيضًا: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ١٢٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٣).

(٢) تقدم.

أوسع له وإذا احتاج جمع له. وعن قتادة رضي الله عنه كان في السجن ناسٌ قد انقطع رجاؤُهم وطال حزنُهم فجعل يقول: أبشروا واصبِروا تؤجروا، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسنَ وجهَك وما أحسنَ خُلُقَك لقد بورك لنا في جِوارك فمن أنت يا فتى؟ فقال: أنا يوسفُ ابنُ صفيِّ الله يعقوبَ ابنِ ذبيح الله إسحاقَ ابنِ خليلِ الله إبراهيمَ، فقال له عاملُ السجن: لو استطعتُ خليتُ سبيلك ولكني أُحسِنُ جوارَك فكن في أي بيوت السجن شئت.

وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابيُّ: أراني في بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثةُ عناقيدَ من عنب فقطعتُها وعصرتها في كأس الملك وسقيتُه، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاثُ سِلالٍ فيها أنواع الأطعمة وإذا سباعُ الطيرِ تنهس منها. ﴿**قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه**﴾ في مقامكما هذا حسب عادتِكما المطردةِ ﴿**إلا نبأتكما بتأويله**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأحوال أي لا يأتيكما طعامٌ في حال من الأحوال إلا حالَ ما نبأتكما به بأن بينتُ لكما ماهيّتَه وكيفيته وسائرَ أحواله ﴿**قبل أن يأتيكما**﴾ وإطلاقُ التأويل عليه إما بطريق الاستعارةِ فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعامِ المُبهمِ بمنزلة التأويلِ بالنظر إلى ما رُئيَ في المنام وشبيهٌ له، وإما بطريق المشاكلة حسبما وقع في عبارتهما من قولهما: ﴿نبئنا بتأويله﴾ ولا يبعُد أن يراد بالتأويل الشيءُ الآئلُ لا المآل فإنه في الأصل جعلُ شيءٍ آئلًا إلى شيء آخرَ فكما يجوز أن يراد به الأولُ فالمعنى إلا نبأتُكما بما يؤول إليه من الكلام والخبرِ المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما: اليوم يأتيكما طعامٌ[1] صفتُه كيتَ وكيت فيجدانه كذلك، ومرادُه عليه السلام بذلك بيانُ كلِّ ما يُهِمّهما من الأمور المترقَّبة قبل وقوعِها، وإنما تخصيصُ الطعام بالذكر لكونه عريقًا في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسنِ التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام، وقد جعل الضميرُ لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعامٌ ترزقانِه حسب عادتِكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما عليَّ قبل أن يأتيكما ذلك الطعامُ الموقت مرادًا به الإخبارُ بالاستعجال في التنبئة. وأنت خبيرٌ بأن النظم الكريمَ ظاهرٌ في تعدد إتيانِ الطعام والإخبار بالتأويل وتجدُّدِهما وأن

---

(١) زاد في خ: من.

المقام مقامُ إظهارِ فضلِه في فنون العلومِ بحيث يدخل في ذلك تأويلُ رؤياهما دخولًا أوليًا، وإنما لم يكتفِ عليه السلام بمجرد تأويلِ رؤياهما مع أن فيه دِلالةً على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سِمْط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا: إنا نراك من المحسنين توسّم عليه السلام فيهما خيرًا وتوجّهًا إلى قَبول الحق فأريد أن يخرُجَ آثرَ ذي أثيرٍ عما في عُهدته من دعوة الخلقِ إلى الحق فمهّد قبل الخوضِ في ذلك مقدمةً تزيدهما علمًا بعظم شأنِه وثقةً بأمره ووقوفًا على طبقته في بدائع العلومِ توسلًا بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه، وقد تخلّص إليها من كلامهما فكأنه قال: تأويلُ ما قصصتماه عليّ في طرف التمام حيث رأيتما مثاله في المنام وإني أبيّن لكما كلَّ جليل ودقيق من الأمور المستقبلة وإن لم يكن هناك مقدمةُ إلمام حتى إن الطعام الموظفَ الذي يأتيكما كلَّ يوم أبيّنه قبل إتيانه، ثم أخبرهما بأنّ علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنةِ والعرّافين، بل هو فضلٌ إلهيٌّ يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال:

﴿**ذلكما**﴾ أي ذلك التأويلُ والإخبارُ بالمغيّبات، ومعنى البُعد في ذلك للإشارة إلى علو درجتِه وبُعد منزلتِه، ﴿**مما علمني ربي**﴾ بالوحي والإلهامِ أي بعضٌ منه أو من ذلك الجنسِ الذي لا يحوم حولَ إدراكِه العقولُ، ولقد دلهما بذلك على أن له علومًا جمةً، ما سمعاه قطعةٌ من جملتها وشُعبةٌ من دوحتها، ثم بين أن نيل تلك الكرامةِ بسبب اتباعِه ملةَ آبائِه الأنبياءِ العظامِ وامتناعِه عن الشرك فقال: ﴿**إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله**﴾ وهو استئنافٌ وقعَ جوابًا عن سؤال نشأ من قوله: ذلكما مما علمني ربي وتعليلًا له لا للتعليم الواقع صلةً للموصول لتأديته إلى معنى أنه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيرِه، ولا لمضمون الجملةِ الخبرية لأن ما ذُكر بصدد التعليلِ ليس بعلةٍ لكون التأويلِ المذكورِ بعضًا مما علمه ربُّه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل: لماذا علمك ربُّك تلك العلومَ البديعة؟ فقيل: لأني تركت ملة الكفرةِ أي دينَهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادةِ الأوثان، والمراد بتركها الامتناعُ عنها رأسًا كما يفصح عنه قوله: ﴿**ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء**﴾ لا تركُها بعد ملابستها، وإنما عبّر عنه بذلك لكونه أدخلَ بحسب الظاهرِ في اقتدائهما به عليه السلام، والتعبيرُ عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أن عبادتَهم له تعالى مع عبادة الأوثانِ ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمُهم الباطلُ على ما مر في قوله تعالى: ﴿إنه عملٌ غيرُ صالح﴾ [هود، الآية ٤٦] ﴿وهم

بالآخرة﴾ وما فيها من الجزاء ﴿هم كافرون﴾ على الخصوص دون غيرِهم لإفراطهم في الكفر.

﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ يعني أنه إنما حاز هذه الكمالاتِ وفاز بتلك الكراماتِ بسبب أنه اتبع ملةَ آبائِه الكرامِ ولم يتبع ملةَ قومٍ كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيبًا لصاحبيه في الإيمان والتوحيدِ وتنفيرًا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلالِ، وقُدّم ذكرُ تركِه لملّتهم على ذكر اتباعِه لملة آبائِه لأن التخليةَ متقدمةٌ على التحلية ﴿ما كان﴾ أي ما صح وما استقام فضلًا عن الوقوع ﴿لنا﴾ معاشرَ الأنبياءِ لقوة نفوسِنا ونور علومِنا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ أيَّ شيءٍ كان من ملك أو جنّي أو إنسي فضلًا عن الجماد البحت ﴿ذلك﴾ أي التوحيدُ المدلولُ عليه بقوله: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴿من فضل الله علينا﴾ أي ناشئٌ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحِه إيانا لقيادة الأمةِ وهدايتِهم إلى الحق وذلك مع كونه من التوحيد ودواعيه نعمةٌ جليلةٌ وفضلٌ عظيم علينا بالذات ﴿وعلى الناس﴾ كافةً بواسطتنا وحيث عبّر عن ذلك بذلك العنوان عبّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يوحّدون فإن التوحيدَ، مع كونه من آثار ما ذُكر من التأييد، شكرٌ لله عز وجل على تلك النعمةِ وإنما وُضع الظاهرُ موضع الضمير [الراجع][1] إلى الناس لزيادة توضيحٍ وبيانٍ ولقطع توهمِ رجوعِه إلى المجموع المُوهمِ لعدم اختصاصِ غير الشاكرِ بالناس، وقيل: ذلك التوحيدُ من فضل الله علينا حيث نصَب لنا أدلةً ننظر فيها ونستدلّ بها على الحق. وقد نصَب مثلَ تلك الأدلةِ لسائر الناس أيضًا ولكن أكثرَهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتّباعًا لأهوائهم فيبقَوْن كافرين غيرَ شاكرين ولك أن تقول: ذلك التوحيدُ من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولًا ومشاعرَ نستعملها في دلائلِ التوحيد التي مهدها في الأنفس والآفاقِ وقد أعطىٰ سائرَ الناس أيضًا مثلها ولكن أكثرَهم لا يشكرون أي لا يصرِفون تلك القُوى والمشاعرَ إلى ما خُلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيدِ الآفاقيةِ والأنفُسية والعقليةِ والنقلية.

﴿يا صاحبي السجن﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن كما تقول: يا سارق الليلةِ، ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجانِ ودارِ الأحزان التي تصفو فيها المودةُ وتخلُص النصيحةُ ليُقبِلا عليه ويَقبَلا مقالتَه وقد ضرب لهما مثلًا يتضح به الحقُّ

---

(١) سقط في خ.

عندهما حقَّ اتضاحٍ فقال: ﴿أأربابٌ متفرقون﴾ لا ارتباطَ بينهم ولا اتفاقَ يستعبدُكما كلٌّ منهم حسبما أراد غيرَ مراقب للآخَرين مع عدم استقلاله ﴿خير﴾ لكما ﴿أم الله﴾ المعبودُ بالحق ﴿الواحد﴾ المتفرد بالألوهية ﴿القهار﴾ الغالبُ الذي لا يغالبه أحدٌ.
وبعد ما نبههما على فساد تعددِ الأرباب بين لهما سقوطَ آلهتِهما عن درجة الاعتبار رأسًا فضلًا عن الألوهية فقال معمّمًا للخطاب لهما ولمن على دينهما: ﴿ما تعبدون من دونه﴾ أي من دون الله شيئًا ﴿إلا أسماء﴾ فارغةً لا مطابقَ لها في الخارج لأن ما ليس فيه مصداقُ إطلاقِ الاسم عليه لا وجودَ له أصلًا فكانت عبادتُهم لتلك الأسماء فقط ﴿سميتموها﴾ جعلتموها أسماءً وإنما لم يَذكُر المسمَّياتِ تربيةً لما يقتضيه المقامُ من إسقاطها عن مرتبة الوجودِ وإيذانًا بأن تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمّى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود ﴿أنتم وآباؤكم﴾ بمحض جهلِكم وضلالتِكم ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي بتلك التسميةِ المستتبِعة للعبادة ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿إن الحكمُ﴾ في أمر العبادة المتفرعةِ على تلك التسمية ﴿إلا لله﴾ عز سلطانُه لأنه المستحقُّ لها بالذات إذ هو الواجبُ بالذات الموجدُ للكل والمالكُ لأمره ﴿أمر﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ناشئٍ من قوله: إن الحكم إلا لله فكأنه قيل: فماذا حكم الله في هذا الشأن؟ فقيل: أمر على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام ﴿ألا تعبدوا﴾ أي بألا تعبُدوا ﴿إلا إياه﴾ حسبما تقضي به قضيةُ العقل أيضًا ﴿ذلك﴾ أي تخصيصُه تعالى بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ الثابتُ المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهينُ عقلًا ونقلًا ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ذلك هو الدينُ القيم لجهلهم بتلك البراهينِ أو لا يعلمون شيئًا أصلًا فيعبدون أسماءً سمَّوها من تلقاء أنفسِهم معْرِضين عن البرهان العقليِّ والسلطانِ النقليِّ.

وبعد تحقيقِ الحقِّ ودعوتِهما إليه وبيانِه لهما مقدارَه الرفيعَ ومرتبةَ علمِه الواسِع شرع في تفسير ما استعبراه ولكونه بحثًا مغايرًا لما سبق فصلُه عنه بتكرير الخطاب فقال: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾ وهو الشرابيُّ وإنما لم يعيّنه ثقةً بدلالة التعبير وتوسلًا بذلك إلى إبهام أمرِ صاحبِه حِذارَ مشافهتِه بما يسوءه ﴿فيسقي ربه﴾ أي سيدَه ﴿خمرًا﴾ روي أنه عليه السلام قال له: ما رأيت من الكرمة وحسنها فالملكُ وحسنُ حالك عنده، وأما القضبان الثلاثة فثلاثةُ أيام تمضي في السجن ثم

تخرج وتعود إلى ما كنت عليه. وقرأ عكرمة (فيُسقىٰ ربُّه)[1] على البناء للمفعول أي يُسقى ما يَروىٰ به ﴿**وأما الآخر**﴾ وهو الخباز ﴿**فيصلب فتأكل الطير من رأسه**﴾ روي أنه عليه السلام قال له: ما رأيت من السلال ثلاثةُ أيام تمرّ ثم تخرج فتقتل ﴿**قضي**﴾ أي تم وأحكم ﴿**الأمر الذي فيه تستفتيان**﴾ وهو ما رأياه من الرؤييين قطعًا لا مآلُه الذي هو عبارة عن نجاة أحدِهما وهلاكِ الآخر كما يوهمه إسنادُ القضاء إليه إذ الاستفتاءُ إنما يكون في الحادثة لا في حكمِها يقال: استفتى الفقيهَ في الحادثة أي طلب منه بيانَ حكمِها ولا يقال استفتاه في حكمها، وكذا الإفتاءُ فإنه يقال: أفتى فلانٌ في الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى في حكمها أو جوابها بكذا، ومما هو علَمٌ في ذلك قولُه تعالى: ﴿يا أيها الملأُ أفتوني في رؤيايَ﴾ [يوسف، الآية ٤٣] ومعنى استفتائهما فيه طلبُهما لتأويله بقولهما: نبئنا بتأويله وإنما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويلِه بالاستفتاء تهويلًا لأمره وتفخيمًا لشأنه إذ الاستفتاءُ إنما يكون في النوازل المشكِلة والحكم المبهمة الجواب، وإيثارُ صيغة الاستقبالِ مع سبق استفتائِهما في ذلك لما أنهما بصدده إلى أن يقضيَ عليه السلام من الجواب وطرَه، وإسنادُ القضاءِ إليه مع أنه من أحوال مآلِه لأنه في الحقيقة عينُ ذلك المآلِ وقد ظهر في عالم المثالِ بتلك الصورةِ، وأما توحيدُه مع تعدد رؤياهما فواردٌ على حسب ما وحّداه في قولهما: نبئنا بتأويله لا لأن الأمرَ ما اتُّهما به وسُجنا لأجله من سَمِّ الملكِ فإنهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورتُه بل فيما هو صورةٌ لمآله وعاقبتِه فتأمل. وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقًا لتعبيره وتأكيدًا له، وقيل: لما عبّر رؤياهما جحَدا وقالا: ما رأينا شيئًا فأخبرهما إن ذلك كائنٌ أصدقتما أو كذبتما، ولعل الجحودَ من الخبّاز إذ لا داعيَ إلى جحود الشرابيِّ إلا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه.

﴿**وقال**﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿**للذي ظن أنه ناج**﴾ أُوثر على صيغة المضارعِ مبالغةً في الدلالة على تحقق النجاةِ حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو السرُّ في إيثار ما عليه النظمُ الكريم على أن يقال للذي ظنه

---

(١) قرأ بها أيضًا: الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣١١)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٤).

ناجيًا ﴿منهما﴾ من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاةِ تمهيدًا لمناط التوصيةِ بالذكر عند الملكِ وعنوانِ التقربِ المفهوم من التعبير المذكورِ وإن كان أدخلَ في ذلك وأدعى إلى تحقيق ما وصّاه به لكنه ليس بوصف فارقٍ يدور عليه الامتيازُ بينه وبين صاحبه المذكورِ بوصف الهلاكِ، والظانُّ هو يوسفُ عليه السلام لا صاحبه لأن التوصيةَ المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسفَ وهو بمعنى اليقينِ كما في قوله تعالى: ﴿ظننتُ أني ملاقٍ حسابيه﴾ [الحاقة، الآية ٢٠] فالتعبيرُ بالوحي كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿قضي الأمر﴾ [إبراهيم، الآية ٢٢] . . . إلخ، وقيل: هو بمعناه والتعبيرُ بالاجتهاد والحكمُ بقضاء الأمر أيضًا اجتهاديٌّ ﴿اذكرني﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عند ربك﴾ سيّدِك وصِفْني له بصفتي التي شاهدتَها ﴿فأنساه الشيطان﴾ أي أنسى الشرابيَّ بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالًا تعوقه عن الذكر وإلا فالإنساءُ في الحقيقة لله عز وجل والفاءُ للسببية فإن توصيتَه عليه السلام المتضمنةَ للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثةً لما ذكر من الإنساء ﴿ذكر ربه﴾ أي ذكرَ الشرابيِّ له عليه السلام عند الملِك، والإضافة لأدنى ملابسةٍ، أو ذكرَ إخبارِ ربِّه ﴿فلبث﴾ أي يوسف عليه السلام بسبب ذلك الإنساءِ أو القول ﴿في السجن بضع سنين﴾ البِضْعُ ما بين الثلاث إلى التسع من البَضْع وهو القطعُ، وأكثرُ الأقاويل أنه لبث فيه سبعَ سنين، وروي عن النبي عليه السلام: «**رحم الله أخي يوسفَ لو لم يقُل اذكُرْني عند ربِّك لما لبث في السجن سبعًا بعد الخمس**»[1] والاستعانةُ بالعباد وإن كانت مرخصةً لكن اللائقَ بمناصب الأنبياءِ عليهم السلام الأخذُ بالعزائم.

﴿وقال الملك﴾ أي الريّانُ ﴿إني أرى﴾ أي رأيت وإيثارُ صيغة المضارعِ لحكاية الحالِ الماضية ﴿سبع بقرات سمان﴾ جمعُ سمينٍ وسمينة ككرام في جمع كريم وكريمة، يقال: رجالٌ كرام ونسوةٌ كِرامٌ ﴿يأكلهن﴾ أي أكلهن والعدولُ إلى المضارع لاستحضار الصورةِ تعجيبًا والجملةُ حالٌ من البقرات أو صفةٌ لها ﴿سبع عجاف﴾

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص (٨٠)، والطبري، (١٢/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٨) برقم (١١٦٣٥) من حديث الحسن البصري مرسلًا بلفظ:
«رحم الله يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث»
وأخرجه ابن حبان (١٤/ ٨٦) برقم (٦٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ:
«رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها (اذكرني عند ربك) ما لبث في السجن ما لبث».

أي سبعُ بقراتٍ عجافٍ وهي جمعُ عجفاءَ والقياس عُجْفٌ لأن فعلاء وأفعل لا يجمع على فِعال ولكن عُدل به عن القياس حملًا لأحد النقيضين على الآخر وإنما لم يقل سبعُ عجافٍ بالإضافة لأن التمييزَ موضوعٌ لبيان الجنس والصفةُ ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثةُ ضخامٍ وأربعةُ غلاظٍ، وأما قولُك: ثلاثةُ فرسانٍ وخمسةُ ركبانٍ فلجرَيان الفارسِ والراكبِ مَجرى الأسماءِ. روي أنه رأى سبعَ بقراتٍ سمان خرجن من نهر يابسٍ وخرج عَقيبَهن سبعُ بقراتٍ عجافٍ في غاية الهُزال فابتلعت العجافُ السمانَ ﴿**وسبعَ سنبلات خضر**﴾ قد انعقد حبُّها ﴿**وأخر يابسات**﴾ أي وسبعًا أُخَرَ يابساتٍ قد أدركت والْتَوَتْ على الخضر حتى غلبتها على ما روي، ولعل عدمَ التعرضِ لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ﴿**يا أيها الملأ**﴾ خطابٌ للأشراف من العلماء والحكماء ﴿**أفتوني في رؤياي**﴾ هذه أي عبِّروها وبيِّنوا حكمَها وما تؤول إليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيمِ أمر رؤياه ﴿**إن كنتم للرؤيا تعبرون**﴾ أي تعلمون عبارةَ جنسِ الرؤيا علمًا مستمرًّا وهي الانتقالُ من الصور الخيالية المشاهدةِ في المنام إلى ما هي صورٌ وأمثلةٌ لها من الأمور الآفاقيةِ أو الأنفسيةِ الواقعةِ في الخارج من العبور وهو المجاوزةُ، تقول: عبَرْتُ النهرَ إذا قطعته وجاوزته ونحوه أوّلتها أي ذكرتُ مآلَها وعَبرتُ الرؤيا عبارةً أثبت من عبرتها تعبيرًا، والجمعُ بين الماضي والمستقبلِ للدلالة على الاستمرار كما أشير إليه، واللامُ للبيان أو لتقوية العاملِ المؤخَّرِ لرعاية الفواصِلِ أو لتضمين تعبُرون معنى فعلٍ متعدٍّ باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدِبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال: فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلًا به متمكنًا منه وتعبرون خبرٌ آخر.

﴿**قالوا**﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل: فماذا قال الملأُ للملك؟ فقيل: قالوا: هي ﴿**أضغاث أحلام**﴾ أي تخاليطُها جمع ضِغْث وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم ثم استعير(١) لما تجمعه القوةُ المتخيلة من أحاديث النفس ووساوسِ الشيطان وتريها في المنام، والأحلامُ جمع حلُم وهي الرؤيا الكاذبةُ التي

---

(١) وذلك جار على تشبيه أخلاط بأعواد النبات، وهو من الاستعارة التصريحية، وذلك للتصريح بالمستعار.

ينظر في الاستعارة: مواهب الفتاح (٤/ ٧٦، ٧٧)، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤).

لا حقيقةَ لها والإضافةُ بمعنى مِنْ أي هي التي أضغاثٌ من أحلام، أخرَجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبةٌ تؤول إليها ويُعتنىٰ بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدةٌ مبالغةً في وصفها بالبطلان كما في قولهم: فلانٌ يركبُ الخيلَ ويلبَس العمائم لمن لا يملِك إلا فرسًا واحدًا وعمامة فردةً، أو لتضمّنها أشياءَ مختلفةً من البقرات السبعِ السمانِ والسبع العجاف والسنابل السبعِ الخُضر والأُخَرِ اليابسات فتأمل حسنَ موقعِ الأضغاثِ مع السنابل فللّه درُّ شأنِ التنزيل ﴿**وما نحن بتأويل الأحلام**﴾ أي المنامات الباطلةِ التي لا أصل لها ﴿**بعالمين**﴾ لا لأن لها تأويلًا ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويلَ لها وإنما التأويلُ للمنامات [الصادقةِ][1] ويجوز أن يكون ذلك اعترافًا منهم بقصور علمِهم وأنهم ليسوا بنحاريرَ في تأويل الأحلامِ مع أن لها تأويلًا كما يُشعر به عدولُهم عما وقع في كلام الملك من العبارة المُعْرِبة عن مجرد الانتقالِ من الدالّ إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها إلى التأويل المنبئ عن التصرُّف والتكلّف في ذلك لما بين الآئلِ والمآلِ من البُعد، ويؤيده قولُه عز وجل: ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾.

﴿**وقال الذي نجا منهما**﴾ أي من صاحبَيْ يوسف وهو الشرابيّ ﴿**وادَّكر**﴾ بغير المعجمة وهو الفصيحُ، وعن الحسن[2] بالمعجمة أي تذكر يوسفَ عليه السلام وشؤونَه التي شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك وإشكال تأويلِها على الملأ ﴿**بعد أمة**﴾ أي مدة طويلةٍ وقرئ (إمةٍ)[3] بالكسر وهي النعمةُ أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمة أي نسيان والجملةُ حالٌ من الموصول أو من ضميره في الصلة، وقيل: معطوفةٌ على نجا وليس ذلك لأن حق كلٍّ من الصفة والصلةِ أن تكون معلومة الانتسابِ إلى الموصوف والموصولِ عند المخاطبِ كما عند المتكلم، ولذلك قيل: إن الصفاتِ قبل العلم بها أخبارٌ والأخبار بعد العلم بها صفاتٌ، وأنت تدري أن

---

(١) سقط في خ.

(٢) ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣١٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢٤).

(٣) قرأ بها: الأشهب العقيلي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣١٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢٤)، والمحتسب لابن جني (٥/ ٢٣٦)، (١/ ٣٤٤)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٤٨).

تذكّره بعد أمةٍ إنما عُلم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومةِ قبلُ في سلك الصلة ﴿**أنا أنبئكم بتأويله**﴾ أي أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمُه لا من تلقاء نفسي ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله: ﴿**فأرسلون**﴾ أي إلى يوسفَ وإنما لم يذكُرْه ثقةً بما سبق من التذكر وما لحِق من قوله: ﴿**يوسف أيها الصديق**﴾ أي أُرسل إليه فأتاه فقال: يا يوسف ووصفَه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحوالَه وجرّبها لكونه بصدد اغتنامِ آثارِه واقتباس أنوارِه فهو من باب براعة الاستهلال[1] ﴿**أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات**﴾ أي في رؤيا ذلك وإنما لم يصرّح به لوضوح مرامِه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدَلالة مضمونِ الحادثة عليه حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادةِ، أي بيِّنْ لنا مآلَها وحكمَها، وحيث عاين علوَّ رتبتِه عليه السلام في الفضل عبّر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبُه أولًا: نبّئنا بتأويله وفي قوله: أفتنا مع أنه المستفتي وحده وإشعارٌ بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسةٌ بأمور العامة وأنه في ذلك مَعْبرٌ وسفيرٌ كما آذن بذلك حيث قال: ﴿**لعلّي أرجع إلى الناس**﴾ أي إلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إن كان السجنُ في الخارج كما قيل فأُنبّئهم بذلك ﴿**لعلهم يعلمون**﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلَك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلّصَ منه، وإنما لم يبُتَّ القولَ في ذلك مجاراةً معه على نهج الأدب واحترازًا عن المجازفة إذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اختُرم دونه، أو لعل المنايا دون ما تعداني، ولا مِنْ علمهم بذلك فربما لم يعلموه.

﴿**وقال**﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل: فماذا قال يوسفُ عليه السلام في

---

(١) وذلك من اللطف وحسن الطلب وقد مضى الحديث عن براعة الاستهلال، الذي يسميه كثير من البلاغيين بحسن الابتداء.
ينظر: الشعر لابن طباطبا (١٢٢، ١٢٣)، والعمدة (١/ ٢١٠)، والوساطة (٤٨)، والبديع لأسامة بن منقذ (٢٨٥)، وشروح التلخيص (٤/ ٥٤٥)، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباس (٤/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وشرح عقود الجمان للسيوطي (١٧٢) وما بعدها، والتبيان للطيبي (٢٦٨)، والإيضاح مع البغية (٤/ ١٥١)، وأنوار الربيع وحسن الصنيع (٢١٥)، والإشارات والتنبيهات (٣٢١، ٣٢٢)، والطراز للعلوي (٢/ ٢٦٦)، والمطول (٢٧٨).

التأويل؟ فقيل: قال: ﴿تزرعون سبع سنين دأبًا﴾ قرئ بفتح الهمزة وسكونِها[١] وكلاهما مصدرُ دأب في العمل إذ جدّ فيه وتعِب، وانتصابُه على الحالية من فاعل تزرعون أي دائبين أو تدأبون دأبًا على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل هو الحال.

أوّلَ عليه السلام البقراتِ السمانَ والسنبلاتِ الخضْرَ بسنينَ مخاصيبَ والعجافَ واليابساتِ بسنينَ مُجدبةٍ فأخبرهم بأنهم يواظبون سبعَ سنين على الزراعة ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخِصْبُ الذي هو مصداقُ البقراتِ السمان وتأويلُها، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فما حصدتم﴾ أي في كل سنة ﴿فذروه في سنبله﴾ ولا تَذْروه كي لا يأكلَه السوسُ كما هو شأنُ غلالِ مصرَ ونواحيها، ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخُضرِ وإنما أمرهم بذلك إذ لم يكن معتادًا فيما بينهم، وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلَها أمرًا محققَ الوقوع وتأويلًا للرؤيا مصداقًا لما فيها من البقرات السمان ﴿إلا قليلًا مما تأكلون﴾ في تلك السنين وفيه إرشادٌ منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل والاقتصارِ على استثناء المأكولِ دون البَذْر لكون ذلك معلومًا من قوله: تزرعون سبعَ سنين، وبعد إتمام ما أمرهم به شرَع في بيان بقيةِ التأويلِ التي يظهر منها حكمةُ الأمر المذكور فقال: ﴿ثم يأتي﴾ وهو عطفٌ على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثًا لهم على الجد والمبالغة في الزراعة، على أنه يحصل بالإخبار بذلك أيضًا ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد السنين السبعِ المذكوراتِ وإنما لم يقل من بعدهن قصدًا إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكتٌ عن أوصاف المرجعِ بالكلية ﴿سبع شداد﴾ أي سبعُ سنينَ صعابٌ على الناس ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ من الحبوب المتروكةِ في سنابلها، وفيه تنبيهٌ على أن أمرَه عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة وإسنادُ الأكل إليهن، مع أنه حالُ الناس فيهن ، مجازيٌّ كما في نهارُه صائمٌ، وفيه تلويحٌ بأنه تأويلٌ لأكل العجافِ السمانَ واللام في لهن ترشيحٌ لذلك فكأن ما ادُّخر في السنابل من الحبوب شيءٌ قد هُيِّئ وقُدِّم لهن كالذي يقدَّم للنازل وإلا فهو في

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣١٥)، والتيسير للداني ص (١٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٥)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٨).

الحقيقة مقدَّمٌ للناس فيهن ﴿إلا قليلًا مما تحصنون﴾ تُحرِزون مبذورًا الزراعة.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي من بعد السنين الموصوفةِ بما ذكر من الشدة وأكلِ الغلال المدَّخرة ﴿عام﴾ لم يعبّر عنه بالسنة تحاشيًا عن المدلول الأصليِّ لها من عام القحط وتنبيهًا من أول الأمرِ على اختلاف الحالِ بينه وبين السوابق ﴿فيه يغاث الناس﴾ من الغيث أي يُمطَرون يقال: غِيثت البلادُ إذا مُطرت في وقت الحاجة أو من الغوث، يقال: أغاثنا الله تعالى أي أمدنا برفع المكاره حين أظلّتنا ﴿وفيه يعصرون﴾ أي ما مِن شأنه أن يُعصر من العنب والقصَب والزيتون والسمسم ونحوِها من الفواكه لكثرتها. والتعرضُ لذكر العصر مع جواز الاكتفاءِ عنه بذكر الغيث المستلزمِ له عادة كما اكتُفي به عن ذكر تصرفِهم في الحبوب إما لأن استلزامَ الغيثِ له ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكوراتُ يتوقف صلاحُها على مبادٍ أخرى غيرِ المطر، وإما لمراعاة جانبِ المستفتي باعتبار حالتِه الخاصة به بشارةً له وهي التي يدور عليها حسنُ موقع تغليبِه على الناس في القراءة[1] بالفوقانية، وقيل: معنى يعصرون يحلبون الضروعَ، وتكريرُ فيه إما للإشعار باختلاف أوقاتِ ما يقع فيه من الغيث والعصر زمانًا ، وهو ظاهرٌ ، وعنوانًا فإن الغيثَ والغوثَ من فضل الله تعالى والعصرُ من فعل الناس، وإما لأن المقام مقامُ تعداد منافعِ ذلك العام ولأجله قُدّم في الموضعين على الفعلين فإن المقصودَ الأصليَّ بيان أنه يقع في ذلك العام هذا النفعُ وذاك النفعُ لا بيانُ أنهما يقعان في ذلك العام يفيده التأخير، ويجوز أن يكون التقديمُ للقصر على معنى أن غيثهم وعصرَهم في سائر السنين بمنزلة العدمِ بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصلِ وفي الأول لرعاية حالِه، وقرئ (يُعصَرون)[2] على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو المناسبُ

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣١٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٥٠)، والتيسير للداني ص (١٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٥٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٩).

(٢) قرأ بها: جعفر بن محمد، والأعرج، وعيسى البصري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣١٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٣٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٤)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٥١).

للإغاثة ويجوز أن يكون المبنيُّ للفاعل أيضًا منه كأنه قيل: فيه يغاث الناسُ وفيه يُغيثون أي يغيثهم الله ويغيثُ بعضُهم بعضًا، وقيل: معنى يُعصَرون يمطَرون من أعصرت السحابةُ إما بتضمين أعصرت معنى مطرَت وتعديته وإما بحذف الجارِّ وإيصالِ الفعل، على أن الأصلَ أعصرت عليهم، وأحكامُ هذا العام المبارك ليست مستنبَطةً من رؤيا الملكِ وإنما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشَّرهم بها بعد ما أوّل الرؤيا بما أول وأمرَهم بالتدبير اللائقِ في شأنه إبانةً لعلو كعبِه ورسوخِ قدمِه في الفضل وأنه محيطٌ بما لم يخطُر ببال أحدٍ فضلًا عما يُرى صورتُه في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائِهما في منامهما: ﴿لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتُكما بتأويله﴾ [يوسف: ٣٧] وإتمامًا للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحدٌ ولو برؤية ما يدل عليها في المنام.

﴿وقال الملك﴾ بعد ما جاءه السفيرُ بالتعبير وسمع منه ما سمع من نقير وقِطمير **﴿ائتوني به﴾** لِما علم من علمه وفضله **﴿فلما جاءه﴾** أي يوسفَ **﴿الرسول﴾** واستدعاه إلى الملك **﴿قال ارجع إلى ربك﴾** أي سيدك **﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾** أي ففتشه عن شأنهن وإنما لم يقل: فاسأله أن يفتش عن ذلك حثًا للملك على الجد في التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته إذ السؤالُ مما يهيج الإنسانَ على الاهتمام في البحث للتقصّي عما توجه إليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويُتساهل فيه ولا يبالىٰ به وإنما لم يتعرض لامرأة العزيزِ مع ما لقِيَ من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجانِ محافظةً على مواجب الحقوق واحترازًا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمةً في عُدوة العداوة، وأما النسوةُ فقد كان يطمع في صَدْعهن بالحق وشهادتِهن بإقرارها بأنها راودتْه عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرّح بمراودتهن له وقولِهن: أطع مولاتك واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: **﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾** مجاملةً معهن واحترازًا عن سوء قالتِهن عند الملكِ وانتصابِهن للخصومة مدافعةً عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد **﴿قال﴾** استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملكُ إثَر ما بلّغه الرسولُ الخبر وأحضرهن: **﴿ما خطبكن﴾** أي شأنكن وهو الأمرُ الذي يحِق لعُظْمه أن يخاطِبَ المرءُ فيه صاحبه **﴿إذ راودتن يوسف﴾** وخادعتُنّه **﴿عن نفسه﴾** ورغبتُنّه في إطاعة مولاته هل وجدتُن فيه شيئًا من سوء وريبة؟ **﴿قلن حاش لله﴾**

تنزيهًا له وتعجبًا من نزاهته وعفته ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ بالغْن في نفي جنس السوءِ عنه بالتنكير وزيادة من ﴿قالت امرأة العزيز﴾ وكانت حاضرةً في المجلس وقيل: أقبلت النسوةُ عليها يقرِّرنها.

وقيل: خافت أن يشهَدْن عليها بما قالت لهن: ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمُره ليُسجنن وليكونًا من الصاغرين﴾ [يوسف، الآية ٣٢] فأقرت قائلة: ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي ثبت واستقرَّ أو تبيّن وظهر بعد خفاء، قاله الخليل.

وقيل: هو مأخوذ من الحِصة وهي القطعة من الجملة أي تبين حصةُ الحقِّ من حصة الباطل كما تتبين حِصصُ الأراضي وغيرها، وقيل: بان وظهر من حصّ شعرَه إذا استأصله بحيث ظهرت بشرةُ رأسه، وقرئ[1] على البناء للمفعول من حَصحَص البعيرُ مباركَه أي ألقاها في الأرض للإناخة قال: [الطويل]

فحصحَص في صُمّ الصفا ثفَناتِه ... وناء بسلمىٰ نوأةً ثم صمّما[2]

والمعنى أُقرَّ الحقُّ في مقرّه ووُضع في موضعه ولم ترِدْ بذلك مجردَ ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهتِه عليه السلام فيما أحاط به علمُهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطنِ خصوصًا فيما وقع فيه التشاجرُ بمحضر العزيز، ولا بحثٍ عن حال نفسها وما صنعت في ذلك بل أرادت ظهورَ ما هو متحققٌ في نفس الأمر وثبوتِه من نزاهته عليه السلام في محل النزاعِ وخيانتِها فقالت: ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ لا أنه راودني عن نفسي ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ أي في قوله، حين افتريت عليه، هي راودتني عن نفسي وأرادت بـ (الآن) زمانَ تكلّمها بهذا الكلام لا زمانَ شهادتِهن فتأمل أيها المنصفُ هل ترى فوق هذه المرتبةِ نزاهةً حيث لم تتمالك الخُصماء من الشهادة بها، والفضلُ ما شهدت بهِ الخصماءُ وإنما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليُظهر براءةَ ساحتِه مما قُذف به لا سيما عند العزيزِ

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٥)، والبحر المحيط (٥/ ٣١٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢٦).

(٢) البيت لحميد بن ثور في ديوانه ص (١٩)، ولسان العرب (حصص، نضض، صمم)، وديوان الأدب (٣/ ١٧٣)، وتاج العروس (حصص، نضض، صمم)، وبلا نسبة في المخصص (١٢/ ١٠٩).

قبل أن يُحلّ ما عقَده كما يُعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع إليه الرسولُ وأخبره بكلامهن.

﴿ذلك﴾ أي ذلك التثبيتُ المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿ليعلم﴾ أي العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ في حرمته كما زعمه لا علمًا مطلقًا فإن ذلك لا يستدعي تقديمَ التفتيشِ على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوقِ السيادةِ لأن المباشرَة للخروج من حبسه قبل ظهورِ بُطلانِ ما جعله سببًا له، وإن كان ذلك بأمر الملك، مما يوهم الافتياتَ على رأيه، وأما أن يكون ذلك لئلا يُتمكن من تقبيح أمرِه عند الملك تمحلًا لإمضاء ما قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله ﴿بالغيب﴾ أي بظهر الغيبِ، وهو حالٌ من الفاعل أو المفعول، أي لم أخُنه وأنا غائبٌ عنه أو وهو غائبٌ عني، أو ظرف أي بمكان الغيب وراءَ الأستار والأبوابِ المغلقة، وأيًا ما كان فالمقصودُ بيانُ كمالِ نزاهتِه عن الخيانة وغايةِ اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابِها ﴿وأن الله﴾ أي وليعلم أنه تعالى ﴿لا يهدي كيد الخائنين﴾ أي لا يُنفِذه ولا يسدّده بل يُبطله ويُزهِقه أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعًا للفعل على الكيد مبالغة كما في قوله تعالى: ﴿يضاهئون قولَ الذين كفروا﴾ [التوبة، الآية ٣٠] أي يضاهئونهم في قولهم، وفيه تعريضٌ بامرأته في خيانتها أمانتَه وبه في خيانته أمانةَ الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آياتِ نزاهتِه عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنًا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبتَه.

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ

لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿وما أبرئ نفسي﴾ أي لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضمًا لنفسه الكريمة البريئةِ عن كل سوء وربأً بمكانها عن التزكية والإعجاب بحالها عند ظهورِ كمالِ نزاهتِها على أسلوب قوله عليه السلام: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1] أو تحديثًا بنعمة الله عز وجل عليه وإبرازًا لسره المكنونِ في شأن أفعال العبادِ أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أُسند هذه الفضيلةَ إليها بمقتضى طبعِها من غير توفيقٍ من الله عز وعلا **﴿إن النفس﴾** البشرية التي من جملتها نفسي في حد

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٨٢) كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، برقم (٣/ ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذاتِها ﴿**لأمارة بالسوء**﴾ مائلةٌ إلى الشهوات مستعمِلةٌ للقوى والآلاتِ في تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله وعصمته ورحمتِه كما يفيده قوله: ﴿**إلا ما رحم ربي**﴾ من النفوس التي يعصمها عن الوقوع في المهالك ومن جملتها نفسي أو هي أمارةٌ بالسوء في كل وقت إلا وقتَ رحمةِ ربي وعصمتِه لها، وقيل: الاستثناءُ منقطعٌ أي لكنْ رحمة ربي هي التي تصرِف عنها السوء كما في قوله تعالى: ﴿ولا هم يُنقَذون إلا رحمةً﴾ [يس، الآية ٤٣، ٤٤] ﴿**إن ربي غفور رحيم**﴾ عظيمُ المغفرة لما يعتري النفوسَ بموجب طباعِها ومبالِغٌ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك، وإيثارُ الإظهار في مقام الإضمارِ مع التعرض لعنوان الربوبيةِ لتربية مبادئ المغفرةِ والرحمة، وقيل: إلى هنا من كلام امرأةِ العزيز، والمعنى ذلك الذي قلتُ ليعلم يوسفُ عليه السلام أني لم أخُنه ولم أكذِب عليه في حال الغَيبة وجئت بما هو الحقُّ الواقعُ وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلتُ به ما فعلت، إن كل نفس لأمارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي أي إلا نفسًا رحِمها الله بالعصمة كنفس يوسفَ إن ربي غفورٌ لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيمٌ له، فعلى هذا يكون تأنّيه عليه السلام في الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملكِ وأمرُه بَيْنَ بينَ ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهتُه وأنه إنما سجن بظلم عظيم مع ما له من الفضل ونباهةِ الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الإعظام والإجلال وقد وقع.

﴿**وقال الملك ائتوني به أستخلصه**﴾ أجعله خالصًا ﴿**لنفسي**﴾ وخاصًا بي ﴿**فلما كلمه**﴾ أي فأتَوا به، فحُذف للإيذان بسرعة الإتيانِ به فكأنه لم يكن بين الأمرِ بإحضاره والخطابِ معه زمانٌ أصلًا، والضميرُ المستكنُّ في (كلّمه) ليوسف، والبارزُ للملك أي فلما كلّمه يوسفُ إثرَ ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد ﴿**قال إنك اليوم لدينا مكين**﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة ﴿**أمين**﴾ مؤتمنٌ على كل شيء، (واليومَ) ليس بمعيار لمدة المكانةِ والأمانةِ بل هو آنُ التكلم والمرادُ تحديد مبدئهما احترازًا عن احتمال كونِهما بعد حين. روي أنه عليه السلام لما جاءه الرسولُ خرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبِس ثيابًا جُدُدًا فلما دخل على الملك قال: «اللهم

إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتِك من شرّه [وشرِّ غيره][(١)]» ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسانُ؟ قال: لسانُ آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لسانًا فكلّمه بها فأجابه بجميعها فتعجّب منه فقال: أحب أن أسمعَ منك رؤياي فحكاها ونعت له البقراتِ والسنابلَ وأماكنَها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوّض إليه أمرَه، وقيل: توفي قطفيرُ في تلك الليالي فنصّبه منصِبه وزوجه راعيل فوجدها عذراءَ وولدت له إفراييم وميشا ولعل ذلك إنما كان بعد تعيينِه عليه السلام لِما عُيّن له من أمر الخزائنِ كما يعرب عنه قوله عز وجل: ﴿**قال اجعلني على خزائن الأرض**﴾ أي أرض مصرَ أي ولِّني أمرَها من الإيراد والصرف ﴿**إني حفيظ**﴾ لها ممن لا يستحقها ﴿**عليم**﴾ بوجوه التصرّفِ فيها، وفيه دليل على جواز طلبِ الولايةِ إذا كان الطالبُ ممن يقدر على إقامة العدلِ وإجراءِ أحكامِ الشريعة وإن كان من يد الجائرِ أو الكافر.

وعن مجاهد أنه أسلم الملكُ على يده عليه السلام، ولعل إيثارَه عليه السلام لتلك الولايةِ خاصة إنما كان للقيام بما هو أهمُّ أمورِ السلطنة إذ ذاك من تدبير أمرِ السنين حسبما فُصل في التأويل لكونه من فروع تلك الولايةِ لا لمجرد عمومِ الفائدة كما قيل، وإنما لم يُذكر إجابةُ الملكِ إلى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرضِ إيذانًا بأن ذلك أمرٌ لا مردَّ له غنيٌّ عن التصريح به لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنةِ بحذافيرها من قوله: إنك اليوم لدينا مكين أمين للتنبيه على أن كلَّ ذلك من الله عز وجل وإنما الملكُ آلة في ذلك كما قيل.

﴿**وكذلك**﴾ أي مثلَ ذلك التمكينِ البليغ[(٢)] ﴿**مكنا ليوسف**﴾ أي جعلنا له مكانًا ﴿**في الأرض**﴾ أي أرض مصرَ. روي أنها كانت أربعين فرسخًا في أربعين وفي التعبير عن الجعل المذكورِ بالتمكين في الأرض مسندًا إلى ضميره عزّ سلطانُه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايتِه، والإشارةِ إلى حصول ذلك من أول الأمرِ لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى ﴿**يتبوأ منها**﴾ ينزل من بلادها ﴿**حيث يشاء**﴾ ويتخذه مباءةً وهو عبارةٌ عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكتِه وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله. وقرأ ابن

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: البديع.

كثير[١] بالنون. روي أن الملك توّجهُ وختمه بخاتمه وردّاه بسيفه ووضع له سريرًا من ذهب مكللًا بالدر والياقوت فقال عليه السلام: أما السريرُ فأشدُّ به مُلكك، وأما الخاتمُ فأدبّر به أمرك، وأما التاجُ فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعتُه إجلالًا لك وإقرارًا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوكُ وفوّض إليه الملكُ أمرَه وأقام العدلَ بمصر وأحبه الرجالُ والنساء وباع من أهل مصر في سِني القحطِ الطعامَ في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحِليّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابِّ ثم بالضِّياع والعَقار ثم برقابهم حتى استرقّهم جميعًا فقالوا: ما رأينا كاليوم ملكًا أجلَّ وأعظمَ منه ثم أعتقهم وردّ إليهم أموالهم وكان لا يبيع من أحد من الممتارين[٢] أكثرَ من حمل بعير تقسيطًا بين الناس ﴿**نصيب برحمتنا**﴾ بعطائنا في الدنيا من المُلك والغِنى وغيرهما من النعم ﴿**من نشاء**﴾ بمقتضى الحكمةِ الداعية إلى المشيئة ﴿**ولا نضيع أجر المحسنين**﴾ بل نوفّيه بكماله، وفيه إشعارٌ بأن مدارَ المشيئةِ المذكورةِ إحسانُ مَنْ تصيبه الرحمة المرموقةُ وأنها أجرٌ له ولدفع توهم انحصارِ ثمرات الإحسانِ فيما ذكر من الأجر، قيل على سبيل التوكيد: ﴿**ولأجر الآخرة**﴾ أي أجرهم في الآخرة فالإضافة للملابسة وهو النعيمُ المقيم الذي لا نفاد له ﴿**خير**﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين وإنما وضع موضعَه الموصولُ فقيل: ﴿**للذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ تنبيهًا على أن المراد بالإحسان إنما هو الإيمانُ والثباتُ على التقوى المستفادُ من جمع صيغتي الماضي والمستقبل.

﴿**وجاء إخوة يوسف**﴾ ممتارين لما أصاب أرضَ كنعانَ وبلادَ الشام ما أصاب أرضَ مصر وقد كان أرسلهم يعقوبُ عليه السلام جميعًا غيرَ بنيامين ﴿**فدخلوا عليه**﴾ أي على يوسف وهو في مجلس ولايته ﴿**فعرفهم**﴾ لقوة فهمِه وعدم مباينةِ أحوالِهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم وهم رجالٌ وتشابُه هيئاتهم وزِيِّهم في الحالين ولكون هِمَّته معقودةً بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما في زمن القحط، وعن الحسن ما

---

(١) قرأ بها أيضًا: نافع، والحسن، والشنبوذي، وأبو جعفر، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٢٠)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٥٧)، والتيسير للداني ص (١٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٩).

(٢) امتار لأهله أو لنفسه: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

عرفهم حتى تعرّفوا له ﴿وهم له منكرون﴾ أي والحالُ أنهم منكرون له لطول العهدِ وتبايُنِ ما بين حاليه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزِيِّه ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان إنكارُهم له أمرًا مستمرًا في حالتي المحضَر والمَغيب أُخبر عنه بالجملة الاسميةِ بخلاف عرفانِه عليه السلام إياهم.

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أصلحهم بعدّتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوْقَر ركائبَهم بما جاءوا له من المِيرة وقرئ[1] بكسر الجيم ﴿قال ائتوني بأَخٍ لكم من أبيكم﴾ لم يقل بأخيكم مبالغةً في إظهار عدم معرفتِه لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لِما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملًا زائدًا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأَوْه وكلموه بالعبرية قال لهم: من أنتم فإني أنكركم؟ فقالوا له: نحن قومٌ من أهل الشام رعاةٌ أصابنا الجَهدُ فجئنا نمتار، فقال لهم: لعلكم جئتم عُيونًا[2]؟ فقالوا: معاذ الله نحن إخوةٌ بنو أبٍ واحد وهو شيخٌ كبيرٌ صدّيق نبيٌّ من الأنبياء اسمُه يعقوبُ، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحدٌ، فقال: كم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلّى به عن الهالك، قال: فمن يشهدُ لكم أنكم لستم عيونًا وأن ما تقولون حقٌّ؟ قالوا: نحن ببلاد لا يعرِفنا فيها أحد فيشهدَ لنا، قال: فدعُوا بعضَكم عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالةً من أبيكم حتى أصدِّقَكم، فاقترعوا فأصاب القرعةُ شمعونَ فخلّفوه عنده، إذ لا يساعده ورودُ الأمر بالإتيان به عند التجهيزِ ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسانُ في الإنزال ولا الاقتصارُ على منع الكيل على تقدير عدمِ الإتيان به ولا جعلُ بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعِهم ولا عِدَتُهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلُهم عند أبيهم إرسالَ أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالةِ على أن استبقاء شمعونَ لو وقع لكان ذلك طامةً يُنسِئ عندها كل قيل وقال.

﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ أُتمُّه لكم، وإيثارُ صيغة الاستقبالِ مع كون هذا الكلامِ بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادةٌ له مستمرَّة ﴿وأنا خير المنزلين﴾

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٢١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٣٠).

(٢) أي لعلكم جئتم بغرض التجسُّس.

جملة حالية أي ألا ترون أني أوفي الكيلَ لكم إيفاءً مستمرًا والحالُ أني في غاية الإحسانِ في إنزالكم وضيافتِكم وقد كان الأمرَ كذلك، وتخصيصُ الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطابِ في أثنائه، وأما الإحسانُ في الإنزال فقد كان مستمرًا فيما سبق ولحِق ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميةِ ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنانِ بل لحثّهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاءِ لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجبِ العدل، وأما الضيافةُ فليس للناس فيها حقٌّ فخصهم في ذلك بما شاء ﴿**فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي**﴾ (من بعدُ) فضلًا عن إيفائه ﴿**ولا تقربون**﴾ بدخول بلادي فضلًا عن الإحسان في الإنزال والضيافةِ وهو إما نهيٌ أو نفيٌ معطوفٌ على محل الجزاءِ، وفيه دليلٌ على أنهم كانوا على نية الامتيازِ مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلومًا له عليه السلام ﴿**قالوا سنراود عنه أباه**﴾ أي سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك، وفيه تنبيهٌ على عزة المطلبِ وصعوبةِ مناله ﴿**وإنا لفاعلون**﴾ ذلك غيرَ مفرِّطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به.

﴿**وقال**﴾ يوسف ﴿**لفتيانه**﴾ غلمانه الكيالين جمع فتى وقرئ[1] لِفتيته وهي جمعُ قلةٍ له ﴿**اجعلوا بضاعتهم في رحالهم**﴾ فإنه وكّل بكل رحل رجلًا يعبِّئ فيه بضاعتَهم التي شرَوا بها الطعامَ وكانت نعالًا وأدَمًا وإنما فعله عليه السلام تفضّلًا عليهم وخوفًا من ألا يكون عند أبيه ما يرجِعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يُؤذن به قوله: ﴿**لعلهم يعرفونها**﴾ أي يعرِفون حقَّ ردِّها والتكرم في ذلك أو لكي يعرِفوها وهو ظاهرُ التعلق بقوله: ﴿**إذا انقلبوا إلى أهلهم**﴾ فإن معرفتَهم لها مقيّدةٌ بالرجوع وتفريغِ الأوعية قطعًا، وأما معرفةُ حقِّ التكرم في ردها فهي وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيدةٍ بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قُيّدت به ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ حسبما أمرتهم به فإن التفضلَ عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعوازِ البِضاعةِ من أقوى الدواعي إلى الرجوع، وما قيل إنما فعله عليه السلام

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وجعفر، ويعقوب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٤٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٢٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٤٩)، والغيث للصفاقسي، ص (٢٥٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٤٥).

لما لم يرَ من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا فكلامٌ حقٌّ في نفسه ولكن يأباه التعليلُ المذكور، وأما أن عِلّية الجعل المذكورِ للرجوع من حيث إن ديانتَهم تحمِلُهم على رد البضاعةِ لأنهم لا يستحِلّون إمساكها فمدارُه حُسبانُهم أنها بقِيت في رحالهم نسيانًا وظاهرٌ أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلًا فإن هيئة التعبيةِ تنادي بأن ذلك بطريق التفضّل، ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلًا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرًا!

﴿**فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا**﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿**يا أبانا منع منا الكيل**﴾ أي فيما بعد، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرةً بعد مرة معهودًا فيما بينهم وبينه عليه السلام ﴿**فأرسل معنا أخانا**﴾ بنيامين إلى مصر وفيه إيذانٌ بأن مدارَ المنع عدمُ كونِه معهم ﴿**نكتل**﴾ بسببه من الطعام ما نشاء. وقرأ[1] حمزةُ والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ لكونه سببًا للاكتيال أو يكتلْ لنفسه مع اكتيالنا ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ من أن يصيبَه مكروهٌ ﴿**قال هل آمنكم عليه إلا كما أَمنتكم على أخيه**﴾ يوسف ﴿**من قبل**﴾ وقد قلتم في حقه أيضًا ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوّض الأمر إلى الله ﴿**فالله خير حافظًا**﴾ وقرئ[2] حِفظًا، وانتصابُهما على التمييز، والحالية على القراءة الأولى توهم تقيّد الخيريةِ بتلك الحالة ﴿**وهو أرحم الراحمين**﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمعَ عليّ مصيبتين، وهذا كما ترى ميلٌ منه عليه السلام إلى الإذن والإرسالِ لما رأى فيه من المصلحة.

﴿**ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم**﴾ أي تفضّلًا وقد علموا ذلك

---

(١) قرأ بها أيضًا: خلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٤٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٢٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٦٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٢٤)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥٠).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وابن كثير، وعاصم، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٤٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٢٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٦٤)، والتيسير للداني ص (١٢٩)، وتفسير الطبري (١٣/ ٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥٠).

بما مر من دَلالة الحال وقرئ[1] بنقل حركةِ الدالِ المدغمة إلى الراء كما قيل في (قيل) و(كيل) ﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبني على السؤال كأنه قيل: ماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا لأبيهم ولعله كان حاضرًا عند الفتح: ﴿يا أبانا ما نبغي﴾ إذا فُسّر البغيُ بالطلب فما إما استفهاميةٌ منصوبةٌ به فالمعنى ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك من إحسان الملِك إلينا وكرمِه الداعي إلى امتثال أمرِه والمراجعةِ إليه في الحوايج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له: إنا قدِمنا على خير رجلٍ أنزلنا وأكرَمنا كرامةً لو كان رجلًا من آل يعقوبَ ما أكرمنا كرامتَه، وقوله تعالى: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ موضِّحةٌ لما دل عليه الإنكارُ من بلوغ اللطفِ غايتَه كأنهم قالوا: كيف لا وهذه بضاعتُنا ردّها إلينا تفضلًا من حيث لا ندري بعد ما منّ علينا من المنن العظامِ هل من مزيد على هذا فنطلبَه؟ ولم يريدوا به الاكتفاءَ بذلك مطلقًا أو التقاعدَ عن طلب نظائرِه بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمره والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ كما أشرنا إليه وقوله تعالى: ﴿رُدت إلينا﴾ حالٌ من (بضاعتُنا) والعامل معنى الإشارةِ وإيثار صيغةِ البناءِ للمفعول للإيذان بكمال الإحسانِ الناشئ عن كمال الإخفاءِ المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعُروا به ولا بفاعله، وقوله عز وجل: ﴿ونمير أهلنا﴾ أي نجلُب إليهم الطعامَ من عند الملكِ، معطوفٌ على مقدَّر ينسحب عليه ردُّ البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا ﴿ونحفظ أخانا﴾ من المكاره حسبما وعدْنا فما يصيبه من مكروه ﴿ونزداد﴾ أي بواسطته، ولذلك وُسّط الإخبارُ بحفظه بين الأصلِ والمزيد ﴿كيل بعير﴾ أي وُسْقَ بعيرٍ زائدًا على أوساق أباعِرِنا على قضية التقسيط.

﴿ذلك﴾ أي ما يحمِله أباعرُنا ﴿كيل يسير﴾ أي مكيلٌ قليلٌ لا يقوم بأوْدنا فهو استئنافٌ، وقيل: تعليل لما سبق، كأنه قيل: أيُّ حاجة إلى الازدياد؟ فقيل ما قيل، أو ذلك الكيلُ الزائد شيءٌ قليلٌ لا يضايقنا فيه الملِكُ أو سهلٌ عليه لا يتعاظمه أو أيُّ مطلب نطلُب من مهماتنا، والجملةُ الواقعة بعده توضيحٌ وبيانٌ لما يُشعِرُ به

---

(١) قرأ بها: الحسن، وعلقمة، ويحيى بن وثاب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٤٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٢٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٢٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٤٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٥).

الإنكارُ من كونهم فائزين ببعض المطالبِ أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا: بضاعتُنا حاضرةٌ فنستظهر بها ونمير أهلَنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيءٌ من المكاره ونزداد بسببه ، غيرَ ما نكتاله لأنفسنا ، كيلَ بعير فأيَّ شيء نبتغي وراءَ هذه المباغي، وقرئ[١] ما تبغي على خطاب يعقوبَ عليه السلام أي أيَّ شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملةِ على سلامة أخينا وسَعة ذاتِ أيدينا أو وراءَ ما فعل بنا الملكُ من الإحسان داعيًا إلى التوجّه إليه، والجملةُ الاستئنافيةُ موضحةٌ لذلك أو أيَّ شيء تبغي شاهدًا على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه، والجملةُ المذكورةُ عبارةٌ عن الشاهد المدلولِ عليه بفحوى الإنكارِ.

وإما[٢] نافية فالمعنى ما نبغي شيئًا غيرَ ما رأينا من إحسان الملِك في وجوب المراجعةِ إليه، أو ما نبغي غيرَ هذه المباغي، وقيل: ما نطلب منك بضاعةً أخرى والجملة المستأنفةُ تعليلٌ له. **وأما** إذا فُسِّر البغيُ بمجاوزة الحدِّ فما نافيةٌ فقط والمعنى ما نبغي في القول وما نتزيّد فيما وصفْنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمِه الموجبِ لما ذكر، والجملةُ المستأنفةُ لبيان ما ادّعَوْا من عدم البغي، وقوله: ونمير أهلَنا عطفٌ على ما نبغي أي ما نبغي فيما ذكرنا من إحسانه وتحصيلِ أمثالِه من مَيْر أهلِنا وحفظِ أخينا فإن ذلك أهونُ شيء بواسطة إحسانِه، وقد جوز أن يكون كلامًا مبتدأً أي جملةً اعتراضيةً تذييليةً على معنى وينبغي أن نميرَ أهلَنا، وشبّه ذلك بقولك: سعَيْتُ في حاجة فلان ويجب أن أسعىٰ. وأنت خبيرٌ بأن شأن الجملِ التذييلية أن تكون مؤكّدةً لمضمون مصدرٍ ومقرِّرةً له كما في المثال المذكورِ، وقولِك: فلانٌ ينطِق بالحق فالحقُّ أبلجُ، وأن قوله: ونمير . . . إلخ، وإن ساعدَنا في حمله على معنى ينبغي أن نمير أهلَنا بمعزل من ذلك أو ما نبغي في الرأي وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا، والجملُ إلى آخرها تفصيلٌ وبيانٌ لعدم بغيهم وإصابةِ رأيهم، أي بضاعتُنا حاضرةٌ نستظهر بها ونمير

---

(١) قرأ بها: عائشة، وعبد الله بن مسعود ، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣١).

(٢) وهذا هو الاحتمال الآخر في معنى «ما» في قوله السابق: «يا أبانا ما نبغي».

أهلنا ونصنع كيت وكيت[١] فتأمل.

﴿**قال لن أرسله معكم**﴾ بعد ما عاينْتُ منكم ما عاينت ﴿**حتى تؤتونِ موثقًا من الله**﴾ أي ما أتوثق به من جهة الله عز وجل، وإنما جعله مَوثِقًا منه تعالى لأن تأكيدَ العهود به مأذونٌ فيه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وجل ﴿**لتأتُنّني به**﴾ جوابُ القسم إذ المعنى حتى تحلِفوا بالله لتأتنني به ﴿**إلا أن يحاط بكم**﴾ أي إلا أن تُغلبوا فلا تطيقوا به أو إلا أن تهلِكوا وأصلُه من إحاطة العدوّ فإن مَنْ أحاط به العدوُّ فقد هلك غالبًا وهو استثناءٌ من أعم الأحوال أو أعمِّ العلل على تأويل الكلامِ بالنفي الذي ينساق إليه أي لتأتُنني به ولا تمتنِعُنَّ منه في حال من الأحوال أو لعلة من العلل إلا حالَ الإحاطة بكم، ونظيرُه قولُهم: أقسمت عليك لَما فعلْتَ وإلا فعلتَ أي ما أريد منك إلا فعلَك، وقد جُوز الأولُ بلا تأويل أيضًا أي لتأتُنني به على كل حالٍ إلا حال الإحاطةِ بكم. وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيانُ به من الأفعال الممتدة الشاملةِ للأحوال على سبيل المعيةِ كما في قولك: لألزَمنّك إلا أن تُعطِيني حقي، ولم يكن عليه السلام يريد مقارنته على سبيل البدلِ لما عدا الحالِ المستثناة كما إذا قلت: صَلِّ إلا أن تكون محدِثًا بل مجرد تحققِه ووقوعِه من غير إخلال به كما في قولك: لأحُجنَّ العامَ إلا أن أُحصر فإن مرادَك إنما هو الإخبار بعدم منعِ ما سوى حالِ الإحصار عن الحج لا الإخبارُ بمقارنته لتلك الأحوالِ على سبيل البدلِ كما هو مرادُك في مثال الصلاة كان اعتبار الأحوالِ معه من حيث عدمُ منعها منه، فآل المعنى إلى التأويل المذكور ﴿**فلما آتوه موثقهم**﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوبُ عليه السلام ﴿**قال الله على ما نقول**﴾ أي على ما قلنا في أثناء طلب الموْثِق وإيتائه من الجانبين. وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ لاستحضار صورتِه المؤدّي إلى تثبتهم ومحافظتِهم على تذكّره ومراقبتِه ﴿**وكيل**﴾ مطلعٌ رقيبٌ يريد به عرضَ ثقتِه بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم.

﴿**وقال**﴾ ناصحًا لهم لمّا أزمع على إرسالهم جميعًا ﴿**يا بَني لا تدخلوا**﴾ مصر ﴿**من باب واحد**﴾ نهاهم عن ذلك حِذارًا[٢] من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي

---

(١) يقال: كان من أمره كيف وكيت، وكيت وذيت، وذيت وذيت، بمعنى واحد.
(٢) في خ: حذرًا.

جمالٍ وشارةٍ حسنة وقد كانوا تجمّلوا في هذه الكرّة أكثرَ مما في المرة الأولى وقد اشتهروا في مصر بالكرامة والزلفى لدى الملِك بخلاف النَّوْبة الأولى فكانوا مَئِنّةً[(١)] لدنوّ كل ناظر وطُموح كل طامح، وإصابةُ العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما يُنكر وقد ورد عنه عليه السلام: «**إن العينَ حق**»[(٢)] وعنه عليه السلام: «**إنَّ العينَ لتُدخِلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ**»[(٣)] وقد كان عليه السلام يعوّذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامّة ومن كل عين لامّة**» وكان عليه السلام يقول: «**كان أبوكما يعوّذ بها إسماعيلَ وإسحاقَ عليهما السلام**»[(٤)] رواه البخاري في صحيحه وقد شهدت بذلك التجارِبُ.

ولمّا لم يكن عدمُ الدخول من باب واحد مستلزمًا للدخول من أبواب متفرّقة وكان في دخولهم من بابين أو ثلاثةٍ بعضُ ما في الدخول من باب واحد من نوع اجتماعٍ مصحِّحٍ لوقوع المحذورِ قال: ﴿**وادخلوا من أبواب متفرقة**﴾ بيانًا لِما[(٥)] المرادُ بالنهي وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزمًا له إظهارًا لكمال العنايةِ وإيذانًا بأنه المرادُ بالأمر المذكور لا تحقيقًا لشيء[(٦)] آخر ﴿**وما أغني عنكم**﴾ أي لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿**من الله من شيء**﴾ أي شيئًا مما قضى عليكم فإن الحذرَ لا يمنع القدَر ولم يرد به عليه السلام إلغاءَ الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلًا: ﴿ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة، الآية ١٩٥] وقال: ﴿خذوا حْذرَكم﴾ [النساء، الآية ٧١] بل أراد بيانَ أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المرادَ لا محالة بل هو تدبيرٌ في الجملة وإنما التأثيرُ وترتُّبُ المنفعةِ عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانةٌ بالله تعالى وهربٌ منه إليه.

---

(١) المئنة: علامة الشيء. وكل شيء دل على شيء فهو مئنَّة له.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٣٦١) كتاب الطب، باب: العين حق، برقم (٥٧٤٠)، ومسلم (٤/ ١٧١٩) كتاب السلام، باب: السحر، برقم (٤١/ ٢١٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ٤٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٩٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٤٠) برقم (١٠٥٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ٦١) كتاب أحاديث الأنبياء، برقم (٣٣٧١) من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما.

(٥) زاد في خ: هو.

(٦) في خ: شيء.

﴿إن الحكم﴾ مطلقًا ﴿إلا لله﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه[1] شيء ﴿عليه﴾ لا على أحد سواه ﴿توكلت﴾ في كل ما آتي وأذر، وفيه دَلالةٌ على أن ترتيبَ الأسباب غيرُ مُخلٍّ بالتوكل ﴿وعليه﴾ دون غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ جُمع بين الحرْفين في عطف الجملةِ على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيَّدًا بالواو عطف فعلٍ غيرِه، من تخصيص التوكل بالله عز وجل، على فعل نفسه وبإلقاء سببية فعلِه لكونه نبيًا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولًا أوليًا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتِهم وإرشادِهم إلى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غيرَ مغترّين بما وصاهم من التدبير.

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد، قيل: كانت له أربعةُ أبوابٍ فدخلوا منها وإنما اكتُفي بذكره لاستلزامه الانتهاءَ عما نُهوا عنه ﴿ما كان﴾ ذلك الدخولُ ﴿يغني﴾ فيما سيأتي عند وقوعِ ما وقع ﴿عنهم﴾ عن الداخلين لأن المقصودَ به استدفاعُ الضرر عنهم، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنةِ الواجبةِ بين جوابِ لمّا ومدخولِه فإن عدمَ الإغناءِ بالفعل إنما يتحقق عند نزولِ المحذورِ لا وقت الدخول، وإنما المتحققُ حينئذ ما أفاده الجمعُ المذكور من عدم كونِ الدخولِ المذكورِ مغْنيًا فيما سيأتي فتأمل ﴿من الله﴾ من جهته ﴿من شيء﴾ أي شيئًا مما قضاه مع كونه مَظِنةً لذلك في بادي الرأي حيث وصّاهم به يعقوبُ عليه السلام وعمِلوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى، فليس المرادُ بيانَ سببية الدخولِ المذكور لعدم الإغناءِ كما في قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفورًا﴾ [فاطر، الآية ٤٢] فإن مجيءَ النذير هناك سببٌ لزيادة نفورِهم بل بيانُ عدم سببيته للإغناء مع كونها متوقعةً في بادي الرأي كما في قولك: حلف أن يُعطيَني حقي عند حلولِ الأجلِ فلما حل لم يُعطني شيئًا، فإن المرادَ بيانُ عدمِ سببية حلولِ الأجلِ للإعطاء مع كونها مرجُوّةً بموجب الحلِف لا بيانُ سببيته لعدم الإعطاءِ فالمآلُ بيانُ عدمِ ترتبِ الغرضِ المقصود على التدبير المعهودِ مع كونه مرجوَّ الوجود لا بيانُ ترتبِ عدمِه عليه، ويجوز أن يراد ذلك أيضًا بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيّتِه من أنه لا يُغني عنهم من الله شيئًا

(١) في خ: يخالفه.

فكأنه قيل: ولمّا فعلوا ما وصاهم به لم يُفِدْ ذلك شيئًا ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام فلقُوا ما لقُوا فيكون من باب وقوعِ المتوقع فتأمل.

﴿إلا حاجة﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ولكنْ حاجةً وحرازةً كائنة ﴿في نفس يعقوب قضاها﴾ أي أظهرها ووصّاهم بها دفعًا للخاطرة غيرَ معتقدٍ أن للتدبير تأثيرًا في تغيير التقديرِ، وقد جعل ضميرُ الفاعل في قضاها للدخول على معنى أن ذلك الدخولَ قضى حاجةً في نفس يعقوبَ وهي إرادتُه أن يكون دخولُهم من أبواب متفرقةٍ، فالمعنى ما كان ذلك الدخولُ يغني عنهم من جهة الله تعالى شيئًا ولكن قضى حاجةً حاصلةً في نفس يعقوبَ بوقوعه حسب إرادتِه فالاستثناءُ منقطعٌ أيضًا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدةٌ سوى دفعِ الخاطرة، وأما إصابةُ العين فإنما لم تقع لكونها غيرَ مقدّرةٍ عليهم لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقضيّةً عليهم ﴿وإنه لذو علم﴾ جليلٍ ﴿لما علمناه﴾ لتعليمنا إياه بالوحي ونصْبِ الأدلةِ لم يعتقِدْ أن الحذرَ يدفع القَدر وأن التدبيرَ له حظٌّ من التأثير حتى يتبينَ الخللُ في رأيه عند تخلفِ الأثر أو حيث بتّ القولَ بأنه لا يغني عنهم من الله شيئًا فكان الحالُ كما قال. وفي تأكيد الجملةِ بإن واللامِ وتنكيرِ العلْم وتعليلِه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأنِ يعقوبَ عليه السلام وعلوِّ مرتبة علمِه وفخامته ما لا يخفى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أسرارَ القدر ويزعمُون أنه يغني عنه الحذرُ، وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون إيجابَ الحذر مع أنه لا يغني شيئًا من القدر فيأباه مقام بيان تخلّفِ المطلوب عن المبادئ.

﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ بنيامينَ أي ضمه إليه في الطعام أو في المنزل أو فيهما. روي أنهم لما دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وستجدون ذلك عندي فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيدًا فبكى وقال: لو كان أخي يوسفُ حيا لأجلسني معه، فقال يوسف: بقيَ أخوكم فريدًا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كلَّ اثنين منهم بيتًا فقال: هذا لا ثانيَ معه فيكون معي فبات يوسف يضمه إليه ويَشمُّ رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال: لي عشرةُ بنينَ اشتققْتُ أسماءهم من اسم أخٍ لي هلك، فقال له: أتُحِب أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالِك؟ قال: من يجدُ أخًا مثلك ولكن لم يلدْك يعقوبُ ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وتعرف إليه

وعند ذلك ﴿قال إني أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ أي فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ولا تُعلِمْهم بما أعلمتك، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن وهْبٍ أنه لم يتعرّف إليه بل قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقودِ[١] ومعنى (فلا تبتئس) لا تحزنْ بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمِنْتَهم. وروي أنه قال له: فأنا لا أفارقك، قال: قد علمتُ باغتمام والدي بي فإذا حبستُك يزاد غمُّه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسُبَك إلى ما لا يجمُل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: أدُسّ صاعي في رَحْلك ثم أنادي عليك بأنك سرقتَه ليتهيّأ لي ردُّك بعد تسريحِك معهم، قال: افعلْ.

﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية﴾ أي المشرَبةَ، قيل: كانت مشربة جعلت صاعًا يكال به، وقيل: كانت تسقى بها الدوابُّ ويكال بها الحبوب وكانت من فضة، وقيل: من ذهب، وقيل: من فضة مموّهة بالذهب، وقيل: كانت إناءً مستطيلًا[٢] تشبه المكّوك الفارسيَّ الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم، وقيل: كانت مرصّعة بالجواهر ﴿في رحل أخيه﴾ بنيامين وقرئ[٣] وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثم أذن مؤذن﴾ نادى منادٍ ﴿أيتها العير﴾ وهي الإبلُ التي عليها الأحمالُ لأنها تعير أي تذهب وتجيءُ، وقيل: [هي][٤] قافلة الحمير ثم كثُر حتى قيل لكل قافلة عِيرٌ كأنها جمع عَيْر وأصلها فعل مثل سَقْف وسُقُف ففعل به ما فعل ببِيض وغِيد، والمراد أصحابُها كما في قوله عليه السلام: «يا خيلَ الله اركبي»[٥]، روي أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسفُ حتى انطلقوا منزلًا، وقيل: خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأُدرِكوا ونودوا ﴿إنكم لسارقون﴾ هذا الخطابُ إن كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذُهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب[٦] وإلا فهو من قبل المؤذّن بناء على زعمه والأولُ هو الأظهرُ

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٣/ ٦٠). (٢) في خ: مستطيلة.
(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٢٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٥٠)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٧٩).
(٤) سقط في ط.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٤٥، ٢٤٦) برقم (١١٨١٠).
(٦) في خ: التغلب.

الأوفق للسياق، وقرأ اليماني[١] (سارقون) بلا لام ﴿قالوا﴾ أي الإخوة ﴿وأقبلوا عليهم﴾ جملةٌ حالية من ضمير (قالوا) جيء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم ﴿ماذا تفقدون﴾ أي تعدَمون، تقول: فقَدت الشيء إذا عدِمته بأن ضل عنك لا بفعلك، والمآل ماذا ضاع عنكم، وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرئ[٢] (تُفقِدون) من أفقدته إذا وجدته فقيدًا، وعلى التقديرين فالعدولُ عما يقتضيه الظاهرُ من قولهم: ماذا سُرق منكم لبيان كمال نزاهتِهم بإظهار أنه لم يُسْرق منهم شيء فضلًا أن يكونوا هم السارقين له وإنما الممكنُ أن يضيع منهم شيء فيسألونهم أنه ماذا، وفيه إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسنِ الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة[٣] البُرَآء إلى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث ﴿قالوا﴾ في جوابهم ﴿نفقد صواع الملك﴾ ولم يقولوا سرَقتموه أو سُرق، وقرئ صاعَ[٤] وصَوعَ وصُوغ بفتح الصاد وضمها بإهمال العين وإعجامها[٥] من الصياغة

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي (١٣/ ٢٥).

(٢) قرأ بها: أبو عبد الرحمن السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٤)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٧٩).

(٣) في خ: نسبته.

(٤) قرأ بها: مجاهد، وأبو هريرة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٤٩)، الإملاء للعكبري (٢/ ٣١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٣٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٦)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٧٩).

(٥) قرأ (صَوعَ): أبو رجاء.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٠)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٣٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٤)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٦)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٧٩).
قرأ (صُوع): عبد الله بن عون، وابن أبي أرطبان، وأبي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣١)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٣٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٦)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٧٩).
قرأ (صَوغ): أبو الأشعث، وأبو رجاء، ويحيى بن يعمر، وزيد بن علي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٤٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣١)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٠)،وكشاف (٢/ ٣٣٤)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٦)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٧٩).
قرأ (صُوغ): يحيى بن يعمر.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٠)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٣)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٣٠).

ثم قالوا تربيةً لما تلقَّوْه من قِبلهم وإراءةً لاعتقاد أنه إنما بقيَ في رحلهم اتفاقًا ﴿ولمن جاء به﴾ من عند نفسه مظهرًا له قبل التفتيش ﴿حمل بعير﴾ من الطعام جُعلا له لا على نية تحقيقِ الوعدِ لجزمهم بامتناع وجودِ الشرط وعزمِهم على ما لا يخفى من أخذ مَنْ وُجد في رحله ﴿وأنا به زعيم﴾ كفيلٌ أؤديه إليه وهو قولُ المؤذن.

﴿قالوا تالله﴾ الجمهورُ على التاء بدلَ الواو ولذلك لا تدخُل إلا على الجلالة المعظمّة أو الرب المضاف إلى الكعبة أو الرحمٰنِ في قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز.

وقيل: من الباء.

وقيل: أصلٌ بنفسها وأيًا ما كان ففيه تعجب ﴿لقد علمتم﴾ علمًا جازمًا مطابقًا للواقع ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ أي لنسرِق فإنه من أعظم أنواع الإفساد أو لنُفسِدَ فيها أيَّ إفسادٍ كان مما عز أو هان فضلًا عما نسبتمونا إليه من السرِقة، ونفيُ المجيءِ للإفساد، وإن لم يكن مستلزِمًا لما هو مقتضىٰ المقام من نفي الإفساد مطلقًا، لكنهم جعلوا المجيءَ الذي يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاقِ مجيئًا لغرض الإفساد مفعولًا لأجله ادعاء إظهارًا لكمال قبحِه عندهم وتربيةً لاستحالة صدورِه عنهم كما قيل في قوله تعالى: ﴿ما يُبدَّلُ القولُ لديَّ وما أنا بظلاّم للعبيد﴾ [ق، الآية ٢٩] الدالِّ بظاهره على نفي المبالغةِ في الظلم دون نفي الظلم في الجملة الذي هو مقتضى المقام أن المعنى إذا عذّبتُ من لا يستحق التعذيبَ كنت ظلامًا مفْرِطًا في الظلم.

فكأنهم قالوا: إن صدر عنا إفسادٌ كان مجيئُنا لذلك مريدين به تقبيحَ حالِه وإظهارَ كمالِ نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم في كرَّتيْ مجيئِنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون.

حتى روي أنهم دخلوا مصرَ وأفواهُ رواحلِهم مكمومةٌ لئلا تتناولَ زرعًا أو طعامًا لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعاتِ وعلّتُهم بذلك أنه لا يصدر عنا إفساد ﴿وما كنا سارقين﴾ أي ما كنا نوصف بالسرقة قط وإنما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدةِ يستلزم العلمَ بأحوالهم الغائبةِ وإنما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزامًا للحجة عليهم وتحقيقًا للتعجب المفهوم من تاء القسم.

﴿قالوا﴾ أي أصحاب يوسف عليه السلام ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصُّواع على حذف المضاف أي فما جزاء سرقتِه عندكم وفي شريعتكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ لا في دعوى البراءةِ عن السرقة فإنهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفي كون

الصواعِ فيهم كما يؤذِن به قوله عز وجل: ﴿قالوا جزاؤه من وجد﴾ أي أخْذُ مَنْ وُجد الصواعَ ﴿في رحله﴾ حيث ذكر بعنوان الوُجدان في الرحل دون عنوان السرقةِ وإن كان مستلزِمًا لها في اعتقادهم المبنيِّ على قواعد العادة، ولذلك أجابوا بما أجابوا فإن الأخذَ والاسترقاقَ سنةً إنما هو جزاءُ السارقِ دون من وُجد في يده مالُ غيره كيفما كان فتأمل واحمِلْ كلام كل فريقٍ على ما [لا][1] يزاحِم رأيَه فإنه أقربُ إلى معنى الكيد وأبعدُ من الافتراء، وقوله تعالى: ﴿فهو جزاؤه﴾ تقريرٌ لذلك الحكمِ أي فأخذُه جزاؤه كقولك: حقُّ الضيف أن يكرم فهو حقه، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأً والجملة الشرطية كما هي خبرُه على إقامة الظاهر مُقامَ المضمر، والأصل جزاؤُه من وجد في رحله، فهو على أن الأول لمن والثاني للظاهر الذي وضع موضعه ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاءِ الأوفى ﴿نجزي الظالمين﴾ بالسرقة، تأكيدٌ للحكم المذكور غِبَّ تأكيدٍ وبيانٌ لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتِهم عنها وهم عما فُعل بهم غافلون.

﴿فبدأ﴾ يوسف بعد ما رجَعوا إليه للتفتيش ﴿بأوعيتهم﴾ بأوعية الإخوةِ العشرةِ أي بتفتيشها ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء أخيه﴾ بنيامين لنفي التهمة. روي أنه لما بلغت النوبةُ إلى وعائه قال: ما أظن هذا أخذ شيئًا، فقالوا: والله لا نترُكه حتى تنظرَ في رحله فإنه أطيبُ لنفسك وأنفسنا ﴿ثم استخرجها﴾ أي السقاية أو الصُّواعَ فإنه يذكر ويؤنث ﴿من وعاء أخيه﴾ لم يقل منه على رجع الضميرِ إلى الوعاء أو من وعائه على رجعه إلى أخيه قصدًا إلى زيادة كشفٍ وبيان، وقرئ[2] بضم الواو بقلبها همزة كما في أشاح في وشاح ﴿كذلك﴾ نُصب على المصدرية والكافُ مقحمةٌ للدَلالة على فخامة المشارِ إليه وكذا ما في ذلك من معنى البُعد أي مثلَ ذلك الكيدِ العجيبِ وهو عبارةٌ عن إرشاد الإخوةِ إلى الإفتاء المذكورِ بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل: ﴿كدنا ليوسف﴾ صنعنا له ودبّرنا لأجل تحصيل غرضِه من المقدمات التي رتبها من دس الصُواعِ وما

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: ابن جبير.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣١)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٨)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٨١).

يتلوه، فاللام ليست كما في قوله: ﴿فيكيدوا لك كيدًا﴾ [يوسف: ٥] فإنها داخلة على المتضرِّر على ما هو الاستعمالُ الشائع وقوله تعالى: **﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾** استئنافٌ وتعليلٌ لذلك الكيدِ وصُنعه لا تفسيرٌ وبيانٌ له كما قيل، كأنه قيل: لماذا فعل ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله في دين المَلِكِ في أمر السارق أي في سلطانه، قاله ابن عباس، أو في حكمه وقضائِه، قاله قتادة، إلا به لأن جزاءَ السارقِ في دينه إنما كان ضربَه وتغريمَه ضعفَ ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعةُ يعقوبَ عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال **﴿إلا أن يشاء الله﴾** أي إلا حالَ مشيئتِه التي هي عبارةٌ عن إرادته لذلك الكيدِ أو إلا حالَ مشيئتِه للأخذ بذلك الوجهِ، ويجوز أن يكون الكيدُ عبارةً عنه وعن مباديه المؤدِّية إليه جميعًا من إرشاد يوسفَ وقومِه إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوالِ حسبما شرح مرتبًا لكن لا على أن يكون القصرُ المستفادُ من تقديم المجرورِ مأخوذًا بالنسبة إلى غيره مطلقًا على معنى مثلَ ذلك الكيدِ كدنا لا كيدًا آخرَ إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسفَ عن أخذ أخيه في دين الملكِ في شأن السارقِ قطعًا إذ لا علاقة بين مطلقِ الكيد ودينِ الملك في أمر السارق أصلًا بالنسبة إلى بعضه على معنى مثلَ ذلك الكيدِ البالغ إلى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملك به إلا حالَ مشيئتِنا له بإيجاد ما يجري مجرىٰ الجزءِ الصّوري من العلة التامة وهو إرشادُ إخوتِه إلى الإفتاء المذكور، وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصرُ في تفسير من فسر قوله تعالى: ﴿كدنا ليوسف﴾ بقوله: علّمناه إياه وأوحينا به إليه أي مثلَ ذلك التعليم المستتبعِ لما شرح مرتبًا علّمناه دون بعض من ذلك فقط إلخ، وعلى كل حال فالاستثناءُ من أعم الأحوال كما أشير إليه، ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسبابِ أي لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب إلا لعلة مشيئتِه تعالى أو إلا بسبب مشيئتِه تعالى، وأيًا ما كان فهو متصلٌ لأن أخذَ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينًا لا سيما عند رضاه وإفتائِه به ليس مخالفًا لدين المَلِك، وقد قيل: معنى الاستثناءِ إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكمَ حكمَ الملكِ. وأنت تدري أن المرادَ بدينه ما عليه حينئذ فتغييرُه مُخِلٌّ بالاتصال وإرادةُ مطلقِ ما يتدين به أعمّ منه ومما يحدث تفضي إلى كون الاستثناءِ من قبيل التطبيقِ

بالمحال إذ المقصودُ بيانُ عجزِ يوسفَ عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئةُ بالجعل المذكورِ إذ ذاك وإرادةُ عجزِه مطلقًا تؤدي إلى خلاف المراد فإن استثناءَ حال المشيئةِ المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يُشعر بعدم الحاجةِ إلى الكيد المذكور فتدبر. وقد جُوّز الانقطَاعُ أي لكنْ أخذُه بمشيئة الله تعالى وإذنِه في دين غيرِ دينِ الملك.

﴿نرفع درجات﴾ أي رتبًا كثيرةً عاليةً من العلم، وانتصابُها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافضِ أي إلى درجات والمفعول قوله تعالى: ﴿من نشاء﴾ أي نشاء رفعَه حسبما تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المصلحةُ كما رفعنا يوسف، وإيثارُ صيغة الاستقبالِ للإشعار بأن ذلك سنةٌ مستمرةٌ غيرُ مختصةٍ بهذه المادة والجملةُ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب ﴿وفوق كل ذي علم﴾ من أولئك المرفوعين ﴿عليم﴾ لا ينالون شأوَه. واعلم أنه **إن جعل** الكيدُ عبارةً عن المعنيَيْن الأولين فالمرادُ برفع يوسفَ عليه السلام ما اعتُبر فيه بالشرطية أو الشطرية من إرشاده عليه السلام إلى دس الصّواع في رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قِبَله، والمعنى أرشدنا إخوته إلى الإفتاء المذكور لأنه لم يكن متمكنًا من أخذ أخيه بدونه، أو أرشدنا كلاً منهم ومِنْ يوسف وأصحابه إلى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قِبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكنًا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى: ﴿نرفع درجات﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عليم﴾ توضيحٌ لذلك على معنى أن الرفع المذكورَ لا يوجب تمامَ مرامِه إذ ليس ذلك بحيث لا يعزُب عن علمه شيءٌ بل إنما نرفع كلَّ من نرفع حسب استعدادِه، وفوق كلِّ واحدٍ منهم عليمٌ لا يقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهُه يَرفع كلاً منهم إلى ما يليق به من معارج العلمِ ومدارجِه وقد رَفع يوسفَ إلى ما يليق به من الدرجات العاليةِ وعلم أن ما حواه دائرةُ علمِه لا يفي بمرامه فأرشد إخوتَه إلى الإفتاء المذكورِ فكان ما كان، وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدوره الإفتاء المذكورِ عن إخوته وإن كان على طمع منه فإن ذلك إلى الله عز وجل وجودًا وعلمًا، والتعرضُ لوصف العلم لتعيين جهةِ الفوقية، وفي صيغة المبالغةِ مع التنكير والالتفاتِ إلى الغَيبة من الدلالة على فخامة شأنِه عز وعلا وجلالةِ مقدارِ علمِه المحيطِ ما لا يخفى. **وأما إن جعل** عبارةً عن التعليم المستتبعِ للإفتاء المذكور فالرفعُ عبارةٌ عن ذلك التعليم والإفتاءِ وإن لم

يكن داخلًا تحت قدرتِه عليه السلام لكنه كان داخلًا تحت علمِه بواسطة الوحي والتعليم، والمعنى مثلَ ذلك التعليم البالغِ إلى هذا الحد علّمناه ولم نقتصر على تعليمِ ما عدا الإفتاءَ الذي سيصدر عن إخوته إذ لم يكن متمكنًا من أخذ أخيه إلا بذلك فقوله: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ توضيحٌ لقوله: كدنا وبيانٌ لأن ذلك من باب الرفعِ إلى الدرجات العاليةِ من العلم ومدحٌ ليوسف برفعه إليها، وقوله وفوق كل ذي علم عليمٌ تذييلٌ له أي نرفع درجاتٍ عاليةً من العلم من نشاء رفعَه وفوق كلٍّ منهم عليمٌ هو أعلى درجةً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوق كلِّ عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهيَ العلم إلى الله تعالى[1]، والمعنى إن إخوة يوسف عليه السلامُ كانوا علماءَ إلا أن يوسفَ عليه السلام أفضلُ منهم، وقرئ (درجاتِ مَنْ نشاء)[2] بالإضافة، والأولُ أنسبُ بالتذييل حيث نُسب فيه الرفعُ إلى من نسب إليه الفوقية لا إلى درجتِه ويجوز أن يكون العليمُ في هذا التفسير أيضًا عبارةً عن الله عز وجل أي وفوق كلٍّ من أولئك المرفوعين عليمٌ يرفع كلاً منهم إلى درجته اللائقةِ به والله تعالى أعلم.

﴿قالوا إن يسرق﴾ يعنون بنيامين ﴿فقد سَرَق أخٌ له من قبل﴾ يريدون به يوسفَ عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمّتِه على ما قيل من أنه كانت تحضِنه فلما شب أراد يعقوبُ عليه السلام انتزاعَه منها وكانت لا تصبِر عنه ساعةً وكانت لها منطقةٌ ورثتها من أبيها إسحاقَ عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسفَ عليه السلام فعمَدت إلى المنطقة فحزمَتْها عليه من تحت ثيابه ثم قالت: فقدتُ منطقة إسحاقَ عليه السلام فانظروا مَنْ أخذها فوجدوها محزومةً على يوسف فقالت: إنه لي سَلَم[3] أفعل به ما أشاء فخلاّه يعقوبُ عليه السلام عندها حتى ماتت، وقيل: كان أخذ في صِباه صنمًا لأبي أمِّه فكسره وألقاه في الجيف، وقيل: دخل كنيسة فأخذ

(١) أخرجه الطبري (١٦/ ١٩٣) برقم (١٩٥٩٤).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، ويعقوب، وخلف، وأبو جعفر.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٢)، التبيان للطوسي (٦/ ١٧٤)، والتيسير للداني ص (١٠٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٣٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٥٢).

(٣) السَّلَم: الأمير من غير حرب.

تمثالًا صغيرًا من ذهب كانوا يعبُدونه فدفنه ﴿فأسرها يوسف﴾ أي أكنّ الحزازةَ الحاصلة مما قالوا ﴿في نفسه﴾ لا أنه أسرّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وأسرَرْتُ لهم إسرارًا﴾ [نوح: ٩] ﴿ولم يبدها لهم﴾ لا قولًا ولا فعلًا صفحًا عنهم وحِلمًا وهو تأكيد لما سبق.

﴿قال﴾ أي في نفسه وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور كأنه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرارِ؟ فقيل: قال: ﴿أنتم شر مكانًا﴾ أي منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفِقتم تفترون على البريء، وقيل: بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله: ﴿أنتم شرٌّ مكانًا﴾ ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ أي عالمٌ علمًا بالغًا إلى أقصى المراتب بأن الأمرَ ليس كما تصفون من صدور السرقةِ [منا][1] بل إنما هو افتراءٌ علينا فالصيغةُ لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمِه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم ﴿قالوا﴾ عندما شاهدوا مخايلَ أخْذِ بنيامين مستعطِفين ﴿يا أيها العزيز إن له أبًا﴾ لم يريدوا بذلك الإخبارَ بأن له أبًا فإن ذلك معلومٌ مما سبق وإنما أرادوا الإخبار بأن له أبًا ﴿شيخًا كبيرًا﴾ في السن لا يكاد يستطيع فراقَه وهو عَلالةٌ به يتعلل عن شقيقه الهالك ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ إلينا فأتمم إحسانَك بهذه التتمة أو المتعوّدين بالإحسان فلا تغيّر عادتك.

﴿قال معاذ الله﴾ أي نعوذ بالله معاذًا من ﴿أن نأخذ﴾ فحُذف الفعلُ وأُقيم مقامه المصدرُ مضافًا إلى المفعول به بعد حذفِ الجارِّ ﴿إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ لأن أخْذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الإخلالُ بموجبها، وإيثارُ صيغة التكلم مع الغير كون الخطابِ من جانب إخوتِه على التوحيد من باب السلوكِ إلى سنن الملوك، أو للإشعار بأن الأخذَ والإعطاءَ ليس مما يُستبدّ به بل هو منوطٌ بآراء أولي الحلِّ والعقد، وإيثارُ (مَنْ وجدنا متاعنا عنده) دون مَنْ سرق متاعنا لتحقيق الحقِّ والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فإنهم لا يحمِلون وُجدان الصُّواعِ في الرحل على محمل غيرِ السرقة ﴿إنا إذًا﴾ أي إذا أخذنا غيرَ من وجدنا متاعنا

(١) سقط في خ.

عنده ولو برضاه ﴿لظالمون﴾ في مذهبكم وما لنا ذلك.

وهذا المعنى هو الذي أريد بالكلام في أثناء الحوارِ، وله معنى باطنٌ هو أن الله عز وجل إنما أمرني بالوحي أن آخذَ بنيامينَ لمصالحَ علمها الله في ذلك فلو أخذتُ غيرَه كنت ظالمًا وعاملًا بخلاف الوحي.

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ

ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

﴿فلما استيأسوا منه﴾ أي يئسوا من يوسف وإجابتِه لهم أشدَّ يأس بدِلالة صيغة الاستفعال، وإنما حصَلت لهم هذه المرتبةُ من اليأس لِما شاهدوه من عَوْذه بالله مما طلبوه الدالِّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهةِ وأنه مما يجب أن يُحترز عنه ويُعاذَ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلمًا بقوله: ﴿إنا إذًا لظالمون﴾ **﴿خلصوا﴾** اعتزلوا وانفردوا عن الناس **﴿نجيا﴾** أي ذوي نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي أو فوجًا نجيًا على أن يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى: ﴿وقرّبناه نجيا﴾ [مريم: ٥٢] ويجوز أن يقال: هم نَجيٌّ، كما يقال: هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير **﴿قال كبيرهم﴾** في السن وهو روبيلُ أو في العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون **﴿ألم تعلموا﴾** كأنهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به فقال منكِرًا عليهم: ألم تعلموا **﴿أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله﴾** عهدًا يوثق به وهو حِلفُهم بالله تعالى، وكونُه من الله لإذنه فيه وكونِ الحلف باسمه الكريم **﴿ومن قبل﴾** أي ومن قبل هذا **﴿ما فرطتم في يوسف﴾** قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهدَ أبيكم وقد قلتم: وإنا له لناصحون، وإنا له لحافظون، وما مزيدةٌ أو مصدرية، ومحلُّ المصدر النصبُ عطفًا على مفعول تعلموا أي ألم تعلموا أخذَ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطَكم السابقَ في شأن يوسف عليه السلام، ولا ضير في الفصل بين العاطفِ والمعطوفِ بالظرف وقد جوّز النصبُ عطفًا على اسم أن والخبر في يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطَكم السابق وقع في شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطَكم الكائنَ أو كائنًا في شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل، وفيه أن مقتضى المقام إنما هو الإخبارُ بوقوع ذلك التفريطِ لا بكون تفريطِهم السابقِ واقعًا في شأن يوسف كما هو مفادُ الأول، ولا بكون تفريطِهم الكائنِ في شأنه واقعًا من قبل كما هو مفادُ الثاني على أن الظرفَ المقطوعَ عن الإضافة لا يقع خبرًا ولا صفة ولا صلة ولا حالًا عند البعض كما تقرر في موضعه، وقيل: محلُّه الرفعُ على الابتداء والخبرُ من قبلُ وفيه ما فيه.

وقيل: ما موصولةٌ أو موصوفة ومحلها النصبُ أو الرفعُ والحقُّ هو النصبُ عطفًا

على مفعول تعلموا أي ما فرطتموه بمعنى قدمتموه في حقه من الخيانة، وأما النصبُ عطفًا على اسم أن أو الرفعُ على الابتداء فقد عرفتَ حاله ﴿فلن أبرح الأرض﴾ متفرِّعٌ على ما ذكَره وذكره إياهم من ميثاق أبيه وقوله: ﴿لتأتُنَّني به إلا أن يُحاطَ بكم﴾ [يوسف: ٦٦] أي فلن أفارق أرضَ مصرَ جاريًا[١] على قضية الميثاق ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في البَراح بالانصراف إليه وكأن أيمانَهم كانت معقودةً على عدم الرجوعِ بغير إذن يعقوبَ عليه السلام ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدّي إلى نقض الميثاقِ أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب. روي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه فقال روبيلُ: أيها الملك لتردَّن إلينا أخانا أو لأصِيحن صَيْحةً لا تَبقىٰ بمصرَ حاملٌ إلا ألقت ولدها ووقعت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضِبوا لا يطاقون خلا أنه إذا مس منْ غضب واحد منهم سكن غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فَمسه فَمَسَّه فقال روبيل: مَنْ هذا؟ إن في هذا البلد بَذْرًا من بَذر يعقوب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ إذ لا يحكم إلا بالحق والعدل.

﴿ارجعوا﴾ أنتم ﴿إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ على ظاهر الحالِ وقرئ (سُرِّق)[٢] أي نسب إلى السرقة ﴿وما شهدنا﴾ عليه ﴿إلا بما علمنا﴾ وشاهدنا أن الصُواعَ استُخرجت من وعائه ﴿وما كنا للغيب﴾ أي باطن الحال ﴿حافظين﴾ فما ندري أن حقيقةَ الأمرِ كما شاهدنا أم بخلافه، أو وما كنا عالمين حين أعطيناك المَوْثِقَ أنه سيسرِق أو أن نلاقيَ هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أُصبت بيوسف ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي مصرَ أو قريةً بقربها لحِقهم المنادي عندها أي أرسلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي أصحابَها فإن القصة معروفةٌ فيما بينهم وكانوا قومًا من كنعان من جيران يعقوبَ عليه السلام، وقيل: من صنعاء ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيدٌ في محل القسم ﴿قال﴾ أي يعقوبُ عليه السلام وهو استئنافٌ مبني على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل: فماذا كان عند قولِ المتوقّف لإخوته ما قال؟ فقيل: قال يعقوبُ عندما رجَعوا إليه فقالوا له ما قالوا وإنما حُذف للإيذان بأن مسارعتَهم إلى قبوله ورجوعَهم به إلى أبيهم أمرٌ مسلَّم غنيٌّ

---

(١) في خ: جريًا.

(٢) قرأ بها: الكسائي، ويعقوب، وابن أبي شريح، وأحمد بن جبير، والأنطاكي، والوليد بن حسان. ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٣).

عن البيان، وإنما المحتاجُ إليه جوابُ أبيهم ﴿بل سولت﴾ أي زيّنت وسهّلت وهو إضرابٌ لا عن صريح كلامهم فإنهم صادقون في ذلك عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدرُ عنهم[1] ما يؤدي إلى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل: لم يكن الأمرُ كذلك بل زينت ﴿لكم أنفسكم أمرًا﴾ من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فُتياهم بأخذ السارق بسرقته ﴿فصبر جميل﴾ أي فأمري صبرٌ جميل أو فصبرٌ جميل أجملُ ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا﴾ بيوسف وأخيه والمتوقِّف بمصر ﴿إنه هو العليم﴾ بحالي وحالهم ﴿الحكيم﴾ الذي لم يبتلِني إلا لحكمة بالغة.

﴿وتولى﴾ أي أعرض ﴿عنهم﴾ كراهةً لما سمع منهم ﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾ الأسفُ أشدُّ الحزن والحسرةُ، أضافه إلى نفسه والألفُ بدلٌ من الياء فناداه أي يا أسفي تعالي فهذا أوانُك وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادثَ مصيبة أخويه لأن رُزْأَه كان قاعدةَ الأرزاء غضًّا عنده وإن تقادم عهده آخذًا بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقًا بحياتهما عالمًا بمكانهما طامعًا في إيابهما، وأما يوسفُ فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلةَ رجائِه سوى رحمةِ الله وفضلِه.

وفي الخبر: (لم تُعطَ أمةٌ من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ألا يُرى إلى يعقوبَ حين أصابه ما أصابه لم يسترجِعْ بل قال ما قال!) والتجانسُ بين لفظي الأسَف ويوسف مما يزيد النظمَ الكريم بهجةً كما في قوله عز وجل: ﴿وهم ينهَوْن عنه وينأَون عنه﴾ [الأنعام، الآية ٢٦] وقوله: ﴿اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم﴾ [التوبة، الآية ٣٨] وقوله: ﴿ثم كُلي من كل الثمرات﴾ [النحل، الآية ٦٩] ﴿وجئتُك من سبإٍ بنبأ يَقين﴾ [النمل، الآية ٢٢] ونظائرها ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ الموجبِ للبكاء فإن العَبْرة إذا كثُرت محقَت سوادَ العين وقلبتْه إلى بياض كدِر. قيل: قد عميَ بصرُه، وقيل: كان يدرك إدراكًا ضعيفًا. روي أنه ما جفّت عينا يعقوبَ من يوم فراقِ يوسفَ إلى حين لقائه ثمانين عامًا وما على وجه الأرض أكرمُ على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام، وعن رسول الله ﷺ: [أنه سأل جبريلَ عليه السلام: «**ما بلغ من وجد يعقوبَ عليه السلام**

---

(١) في خ: منهم.

على يوسف؟» قال: وجْدَ سبعين ثكلىٰ، قال: **«فما كان له من الأجر؟»** قال: أجرُ مائةِ شهيد وما ساء ظنُّه بالله ساعةً قط][1] وفيه دليل على جواز التأسف والبكاءِ عند النوائبِ فإن الكفَّ عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسولُ الله ﷺ على ولده إبراهيمَ وقال: **«القلبُ يحزن والعين تدمَع ولا نقول ما يُسخِط الربَّ وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون»**[2] وإنما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلةُ من الصياح والنياحة ولطْمِ الخدودِ والصدور وشقِّ الجيوبِ وتمزيقِ الثياب، وعن النبي عليه السلام أنه بكى على ولد بعضِ بناتِه وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نَهَيتنا عن البكاء؟ فقال: **«ما نهيتُكم عن البكاء وإنما نهيتُكم عن صوتين أحمقين صوتٍ عند الفرَح وصوت عند الترَح»**[3] **﴿فهو كظيم﴾** مملوءٌ من الغيظ على أولاده مُمسِكٌ له في قلبه لا يُظهره، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى: ﴿وهو مكظومٌ﴾ [القلم: ٤٨] من كظمَ السِّقاءَ إذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [آل عمران: ١٣٤] من كظم الغيظَ إذا اجترعه وأصله كظم البعيرُ جِرَّتَه[4] إذا ردها في جوفه.

﴿قالوا تالله تفتأ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال **﴿تذكر يوسف﴾** تفجّعًا عليه فحُذف النفي كما في قوله: [الطويل]

فَـقُـلْـتُ يَـمِـيـنُ الله أَبْـرَحُ قَـاعِـدًا ....[5]

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٢٧) برقم (١٩٧١٩) من حديث الحسن البصري مرسلًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٢٤) كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ إنا بك لمحزونون، برقم (١٣٠٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٧) كتاب الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال، برقم (٦٢/ ٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٢٨) كتاب الجنائز، باب: الرخصة في البكاء على الميت، برقم (١٠٠٥)، والحاكم (٤/ ٤٣) كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر سراري رسول الله ﷺ، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٩) كتاب الجنائز، باب: الرخصة في البكاء بلا ندب ولا نياحة، من حديث جابر رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) الجرَّة: ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه.

(٥) صدر بيت وعجزه:

.... ولـو قطعـوا رأسـي لـديكِ وأوصـالـي

والبيت لامرئ القيس في ديوانه ص(٣٢)، وخزانة الأدب (٩/ ٢٣٨، ٢٣٩)، (١٠/ ٤٣، ٤٤، ٤٥)، =

لعدم الالتباس بالإثبات فإن القسمَ إذا لم يكن معه علامةُ الإثبات يكون على النفي ألبتةَ **﴿حتى تكون حرضًا﴾** مريضًا مُشْفيًا على الهلاك، وقيل: الحَرضُ مَنْ أذابه هم أو مرض، وهو في الأصل مصدرٌ ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنِف وقد قرئ[1] به وبضمتين[2] كجُنُب وغَرِب **﴿أو تكون من الهالكين﴾** أي الميتين **﴿قال إنما أشكو بثي﴾** البثّ أصعبُ الهم الذي لا يصبر عليه صاحبُه فيبثّه إلى الناس أي ينشره فكأنهم قالوا له (ما قالوا)[3] بطريق التسلية والإشكاءِ، فقال لهم: إني لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدّوا لتسليتي وإنما أشكو همي **﴿وحُزْني إلى الله﴾** تعالى ملتجئًا إلى جنابه متضرِّعًا لدى بابه في دفعه وقرئ بفتحتين[4] وضمتين[5] **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمني ويلطُفَ بي ولا يُخيِّب رجائي أو أعلمَ ، وحيًا أو إلهامًا من جهته ، ما لا تعلمون من حياة يوسف. قيل: رأى ملكَ الموتِ في المنام فسأله عنه فقال: هو حي، وقيل: علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه سيخرّ له أبواه وإخوتُه سجّدًا.

﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا﴾ أي تعرّفوا وهو تفعُّلٌ من الحَسّ وقرئ[6] بالجيم من الجسّ وهو الطلب أي تطلبوا **﴿من يوسف وأخيه﴾** أي من خبرهما ولم يذكر الثالثِ

= والخصائص (٢/ ٢٨٤)، والدرر (٤/ ٢١٢)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٢٠)، وشرح التصريح (١/ ١٨٥)، وشرح شواهد المغني (١/ ٣٤١)، وشرح المفصل (٧/ ١١٠)، (٨/ ٣٧)، (٩/ ١٠٤)، والكتاب (٣/ ٥٠٤)، ولسان العرب (١٣/ ٤٦٣) (يمن)، واللمع ص (٢٥٩)، والمقاصد النحوية (٢/ ١٣)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (١/ ٢٣٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٩٣، ٩٤)، وشرح الأشموني (١/ ١١٠)، ومغني اللبيب (٢/ ٦٣٧)، والمقتضب (٢/ ٣٦٢)، وهمع الهوامع (٢/ ٣٨).

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٩).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٩).

(٣) سقط في خ.

(٤) قرأ بها: الحسن، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٧)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٠).

(٥) قرأ بها: قتادة، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٠)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٩٨).

(٦) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٠)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٩٩).

لأن غَيبته اختياريةٌ لا يعسُر إزالتها ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ لا تقنَطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ[١] بضم الراء أي من رحمته التي يُحيي بها العبادَ وهذا إرشادٌ لهم إلى بعض ما أُبهم في قوله: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ لعدم علمِهم بالله تعالى وصفاتِه فإن العارفَ لا يقنط في حال من الأحوال. ﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمرِ أبيهم وإنما لم يُذكر ذلك إيذانًا بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعارًا بأن ذلك أمرٌ محققٌ لا يفتقر إلى الذكر والبيان ﴿قالوا يا أيها العزيز﴾ أي الملكُ القادرُ المتمنع ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ الهُزالُ من شدة الجوع ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ مدفوعةٍ يدفعها كلُّ تاجر رغبةً عنها واحتقارًا لها من أزجَيتُه إذا دفعتُه وطردتُه والريحُ تزجي السحابَ. قيل: كانت بضاعتُهم من متاع الأعراب صوفًا وسمنًا، وقيل: الصنوبرَ وحبةَ الخضراء، وقيل: سُويق المُقْل والأقِط، وقيل: دراهمَ زيوفًا لا تؤخذ إلا بوضيعة وإنما قدّموا ذلك ليكون ذريعةً إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقةِ وهو العطفُ والرأفة وتحريكُ سلسلة المرحمة.

ثم قالوا ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أتممْه لنا ﴿وتصدق علينا﴾ بردّ أخينا إلينا، قاله الضحاك وابن جريج وهو الأنسبُ بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم، أو بالإيفاء أو بالمسامحة وقَبول المُزجاة أو بالزيادة على ما يساويها تفضلًا وإنما سمَّوه تصدقًا تواضعًا أو أرادوا التصدقَ فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حُرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وإنما لم يبدأوا بما أُمروا به استجلابًا للرأفة وللشفقة ليبعثوا بما قدّموا من رقة الحالِ رقةَ القلب والحنُوَّ على أن ما ساقوه كلامٌ ذو وجهين، فإن قولهم: وتصدّق علينا ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ يحتمل الحملَ على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الأول ولذلك ﴿قال﴾ مجيبًا عما عرّضوا به وضمّنوه كلامَهم من طلب ردِّ أخيهم ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف

---

(١) قرأ بها: الحسن، وعمر بن عبد العزيز، وقتادة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٢)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٠)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٨)، وتفسير الرازي (١٨/ ١٩٩).

وأخيه﴾ وكان الظاهرُ أن يتعرضَ لما فعلوا بأخيه فقط، وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعلِ عليهما، فإن المراد بذلك إفرادُهم له عن يوسف وإذلالُه بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذِلةٍ أي هل تُبتم عن ذلك بعد علمِكم بقبحه؟ فهو سؤالٌ عن الملزوم والمرادُ لازمُه ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبتَه وإنما قاله نصحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفقةً عليهم لمّا رأى عجزَهم وتمسكنَهم لا معاتبةً وتثريبًا، ويجوز أن يكون هذا الكلامُ منه عليه السلام منقطعًا عن كلامهم وتنبيهًا لهم على ما هو حقُّهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحضِ في طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصية أبيه وإرسالِه إياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال، وقيل: أعطَوه كتابَ يعقوبَ عليه السلام وقد كتب فيه: «كتابٌ من يعقوبَ إسرائيلِ الله ابن إسحاقَ ذبيحِ الله ابن إبراهيمَ خليل الله إلى عزيز مصرَ أما بعد فإنا أهلُ بيتٍ موكلٍ بنا البلاءُ أما جدّي فشُدت يداه ورجلاه فرُمي به في النار فنجّاه الله تعالى وجُعلت النار له بردًا وسلامًا وأما أبي فوُضع السكينُ على قفاه ليُقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لي ابنٌ وكان أحبَّ أولادي إليّ فذهب به إخوتُه إلى البرية ثم أتَوْني بقميصه ملطخًا بالدم فقالوا: قد أكله الذئبُ فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابنٌ وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرَق وأنك حبستَه وإنا أهلُ بيت لا نسرِق ولا نلد سارقًا فإن رددتَه عليَّ وإلا دعوتُ عليك دعوةً تُدرك السابعَ من ولدَك والسلام». فلما قرأه لم يتمالكْ وعيل صبرُه فقال لهم ما قال، وقيل: لما قرأه بكى وكتب الجواب: اصبِر كما صبروا تظفرْ كما ظفِروا.

﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ استفهامُ تقريرٍ ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغرابًا وتعجبًا، وقرئ[1] إنك بالإيجاب، قيل: عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو جعفر، وقتادة، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٧)، والبحر المحيط (٥/ ٣٤٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ١٨٨)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٥٩)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٩).

به، وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه، وقيل: رفع التاجَ عن رأسه فرأوا علامةً بقَرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارةَ ويعقوبَ مثلُها وقرئ (أإنك أو أنت يوسف)[1] على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأولُ لدلالة الثاني عليه وفيه زيادةُ استغراب ﴿**قال أنا يوسف**﴾ جوابًا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله: ﴿**وهذا أخي**﴾ أي من أبويّ مبالغةً في تعريف نفسه وتفخيمًا لشأن أخيه وتكملةً لما أفاده قوله: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ حسبما يفيده قولُه: ﴿**قد منّ الله علينا**﴾ فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلالِ؟ فأنا يوسفُ وهذا أخي قد منّ الله علينا بالخلاص عما ابتُلينا به، والاجتماعِ بعد الفُرقةِ، والعزة بعد الذِلة، والأُنس بعد الوحشة، ولا يبعد أن يكون فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم فلا وجهَ لطلبكم، ثم علل ذلك بطريق الاستئنافِ التعليلي بقوله: ﴿**إنه من يتق**﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحوالِه أو يقِ نفسه عما يوجب سخطَ الله تعالى وعذابه ﴿**ويصبر**﴾ على المحن أو على مشقة الطاعاتِ أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ﴿**فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ أي أجرهم، وإنما وُضع المظهرُ موضع المضمرِ تنبيهًا على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

﴿**قالوا تالله لقد آثرك الله علينا**﴾ اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة ﴿**وإن كنا**﴾ وإن الشأن كنا ﴿**لخاطئين**﴾ لمتعمّدين للذنب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا، وفيه إشعارٌ بالتوبة والاستغفار ولذلك ﴿**قال لا تثريب**﴾ أي لا عتْبَ ولا تأنيب ﴿**عليكم**﴾ وهو تفعيل من الثرب وهو الشحمُ الغاشي للكرِش ومعناه إزالته كما أن التجليد إزالةُ الجلد والتقريعُ إزالة القرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غايةَ الهُزال فضرب مثلًا للتقريع الذي يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا: ﴿**اليوم**﴾ منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرًا لِلا أي لا أثربكم أو لا تثريبَ مستقرٌ عليكم اليوم الذي هو مظنةٌ له فما ظنُّكم بسائر الأيام أو بقوله: ﴿**يغفر الله لكم**﴾ لأنه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة ﴿**وهو أرحم**

---

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٤٢)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٥٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٩)، وتفسير الرازي (١٨/ ٢٠٣).

الراحمين﴾ يغفر الصغائرَ والكبائرَ ويتفضل على التائب بالقَبول، ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن إخوتَه أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرةً وعشيًا ونحن نستحيي منك بما فرَط منا فيك، فقال عليه الصلاة والسلام: إن أهلَ مصرَ وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلّغ عبدًا بيع بعشرين درهمًا ما بلّغ، ولقد شرُفت بكم الآن وعظُمتُ في العيون حيث علم الناسُ أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام.

﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ قيل: هو الذي كان عليه حينئذ، وقيل: هو القميصُ المتوارَث الذي كان في التعويذ أمره جبريلُ بإرساله إليه وأوحى إليه أن فيحَ ريحِ الجنةِ لا يقع على[1] مبتلىً إلا عُوفي **﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيرًا﴾** يكن بصيرًا أو يأت إليَّ بصيرًا، وينصره قوله: **﴿وائتوني بأهلكم أجمعين﴾** أي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظُ الأهل جميعًا من النساء والذراري. قيل: إنما حمل القميصَ يهوذا وقال: أنا أحزنتُه بحمل القميصِ ملطخًا بالدم إليه فأُفرِحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حافٍ حاسرٌ من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرةُ ثمانين فرسخًا.

﴿ولما فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر، يقال: فصَل من البلد فصولًا إذا انفصل منه وجاوز حيطانَه، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (انفصل العير)[2] **﴿قال أبوهم﴾** يعقوبُ عليه الصلاة والسلام لمن عنده **﴿إني لأجد ريح يوسف﴾** أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخًا حين أقبل به يهوذا **﴿لولا أن تفندون﴾** أي تنسُبوني إلى الفند وهو الخرفُ وإنكارُ العقل وفسادُ الرأي مِن هرمٍ، يقال: شيخٌ مفنّد ولا يقال عجوزٌ مفنّدة إذ لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي فتُفَنّد في كِبَرها، وجواب لولا محذوف أي لصدقتموني **﴿قالوا﴾** أي الحاضرون عنده **﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾** لفي ذهابك عن الصواب قدُمًا في إفراط محبتِك ليوسف ولَهجِك بذكره ورجائِك للقائه وكان عندهم أنه قد مات.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو يهوذا **﴿ألقاه﴾** أي ألقى البشيرُ القميصَ **﴿على وجهه﴾** أي وجه يعقوب أو ألقاه يعقوبُ على وجه نفسه **﴿فارتد﴾** عاد **﴿بصيرًا﴾**

---

(١) في خ: في.
(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٤٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٣).

لما انتعش فيه من القوة ﴿قال ألم أقل لكم﴾ يعني قولَه: إني لأجد ريحَ يوسف، فالخطابُ لمن كان عنده بكنعان أو قولَه: ولا تيأسوا من رَوْح الله فالخطابُ لبنيه وهو الأنسب بقوله: ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فإن مدارَ النهي المذكورِ إنما هو العلمُ الذي أوتي يعقوبُ من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقولَ القولِ أي ألم أقل لكم، حين أرسلتكم إلى مصرَ وأمرتُكم بالتحسس ونهيتُكم عن اليأس من رَوْح الله تعالى، وأعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام. روي أنه سأل البشيرَ: كيف يوسف؟ فقال: هو ملِكُ مصرَ، قال: ما أصنع بالمُلك، على أي دينٍ تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النِّعمة ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ ومن حق من اعترف بذنبه أن يُصفح عنه ويُستغفرَ له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة السلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار.

﴿قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ وهذا مُشعرٌ بعفوه، قيل: أخّر الاستغفارَ إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتحرّى به وقت الإجابة، وقيل: أخّره إلى أن يستحِلَّ لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فإن عفوَ المظلوم شرطُ المغفرة، ويعضُده أنه روي عنه أنه استقبل القِبلة قائمًا يدعو وقام يوسفُ خلفه يؤمّن وقاموا خلفَهما أذلةً خاشعين عشرين سنة حتى إذا بلغ جهدَهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: إن الله قد أجاب دعوتَك في ولدك وعقدوا مواثيقهم بعدك على النبوة فإن صح ثبتت نبوتُهم وإن ما صدر عنهم إنما صدر قبل الاستنباء. وقيل: المرادُ الاستمرارُ على الدعاء فقد روي أنه كان يستغفر كلَّ ليلةِ جمعةٍ في نيّف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرَغ رفع يديه فقال: اللهم اغفِرْ لي جزَعي على يوسف وقلةَ صبري عنه واغفِر لولدي ما أتوا إلى أخيهم فأوحى الله إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين.

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ روي أنه وجّه يوسفُ إلى أبيه جَهازًا ومائتي راحلةٍ ليتجهز إليه بمن معه فاستقبله يوسفُ والملكُ في أربعة آلاف من الجند والعُظماء وأهلِ مصرَ بأجمعهم فتلقّوا يعقوبَ عليه الصلاة والسلام وهو يمشي متوكئًا على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، أهذا فرعونُ مصرَ؟ قال: لا بل

ولدُك، فلما لِقيه قال عليه الصلاة والسلام: السلامُ عليك يا مذهبَ الأحزان، وقيل: قال له يوسف: يا أبت بكَيتَ عليّ حتى ذهب بصرُك ألم تعلم أن القيامةَ تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكني خشِيتُ أن يسلَبَ دينُك فيُحالَ بيني وبينك، وقيل إن يعقوبَ وولدَه دخلوا مصرَ وهم اثنان وسبعون ما بين رجلٍ وامرأةٍ وكانوا حين خرجوا مع موسى ستَّمائةِ ألفٍ وخمسَمائةٍ وبضعةً وسبعين رجلًا سوى الذرية والهَرْمىٰ وكانت الذريةُ ألفَ ألفٍ ومائتي ألف.

﴿**آوى إليه أبويه**﴾ أي أباه وخالتَه وتنزيلُها منزلةَ الأمِّ كتنزيل العمِّ منزلةَ الأب في قوله عز وجل: ﴿وإلٰهَ آبائِك إبراهيمَ وإسمعيلَ وإسحقَ﴾ [البقرة، الآية ١٣٣] أو لأن يعقوبَ عليه الصلاة والسلام تزوّجها بعد أمّه، وقال الحسن وابنُ إسحاق: كانت أمُّه في الحياة فلا حاجة إلى التأويل، ومعنى آوى إليه ضمّهما إليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضَرب في المُلتقىٰ مضربًا فنزل فيه فدخلوا عليه فآواهما إليه ﴿**وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾ من الشدائد والمكاره قاطبةً والمشيئةُ متعلقةٌ بالدخول على الأمن ﴿**ورفع أبويه**﴾ عند نزولِهم بمصر ﴿**على العرش**﴾ على السرير تكرِمةً لهما فوق ما فعله لإخوته ﴿**وخرّوا له**﴾ أي أبواه وإخوتُه ﴿**سجدًا**﴾ تحية له فإنه كان السجودُ عندهم جاريًا مجرى التحيةِ والتكرمةِ كالقيام والمصافحةِ وتقبيلِ اليد ونحوِها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كان ذلك إلا انحناءً دون تعفيرِ الجباه، ويأباه الخرُورُ، وقيل: خروا لأجله سجدًا لله شكرًا ويرده قوله تعالى: ﴿**وقال يا أبت هذا تأويلُ رؤياي**﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿**من قبل**﴾ في زمن الصِّبا ﴿**قد جعلها ربي حقًا**﴾ صدقًا واقعًا بعينه، والاعتذارُ بجعل يوسفَ بمنزلة القِبلة وجعلِ اللام كما في قوله: (أليس أولَ من صلَّى لِقبلتكم) تعسفٌ لا يخفى، وتأخيرُه عن الرفع على العرش ليس بنص في ذلك لأن الترتيبَ الذكريَّ لا يجب كونُه على وفق الترتيب الوقوعيِّ فلعل تأخيرَه عنه ليصل به ذكرُ كونِه تعبيرًا لرؤياه وما يتصل به من قوله: ﴿**وقد أحسن بي**﴾ المشهورُ استعمالُ الإحسان بإلى، وقد يستعمل بالباء أيضًا كما في قوله عز اسمُه: ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ [البقرة، الآية ٨٣] وقيل: هذا بتضمين لطف وهو الإحسانُ الخفيُّ كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿**إن ربي لطيف لما يشاء**﴾ وفيه فائدة لا تخفى أي لطَف بي محسنًا إليّ غيرَ هذا الإحسان ﴿**إذ أخرجني من السجن**﴾ بعدما ابتُليت به

ولم يصرِّح بقصة الجُبّ حِذارًا من تثريب إخوتِه لأن الظاهرَ حضورُهم لوقوع الكلام عَقيب خرورهم سجّدًا واكتفاءً بما يتضمنه قوله تعالى: ﴿**وجاء بكم من البدو**﴾ أي البادية ﴿**من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي**﴾ أي أفسد بيننا بالإغواء وأصلُه من نخْس الرائضِ الدابةَ وحملِها على الجري، يقال: نزَغه ونسَغه إذا نخسَه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام في الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿**إن ربي لطيف لما يشاء**﴾ أي لطيفُ التدبير لأجله رفيقٌ حتى يجيء على وجه الحِكمة والصواب، ما من صعبٍ إلا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهلٌ ﴿**إنه هو العليم**﴾ بوجود المصالح ﴿**الحكيم**﴾ الذي يفعل كلّ شيء على قضية الحكمة.

روي أن يوسف أخذ بيد يعقوبَ عليهما الصلاة والسلام فطاف به في خزائنه فأدخله في خزائن الورِقِ والذهب وخزائن الحليّ وخزائن الثياب وخزائنِ السلاح وغيرِ ذلك، فلما أدخله خزائنَ القراطيس قال: يا بني ما أعقّك، عندك هذه القراطيسُ وما كتبت إلي على ثماني مراحلَ؟ قال: أمرني جبريلُ، قال: أو ما تسأله، قال: أنت أبسطُ إليه مني فسأله قال جبريلُ: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: أخاف أن يأكلَه الذئب، قال: فهلا خِفْتني.

ورُوي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعًا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفِنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاقَ فمضى بنفسه ودفنه ثمةَ ثم عاد إلى مصرَ وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة فلما تم أمرُه وعلِم أنه لا يدوم له تاقت نفسُه إلى المُلك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال: ﴿**رب قد آتيتني من الملك**﴾ أي بعضًا منه عظيمًا وهو ملكُ مصرَ ﴿**وعلمتني من تأويل الأحاديث**﴾ أي بعضًا من ذلك، كذلك إن أريد بتعليم تأويلِ الأحاديث تفهيمُ غوامضِ أسرارِ الكتب الإلٰهيةِ ودقائقِ سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيبُ ظاهر، وأما إن أريد به تعليمُ تعبيرِ الرؤيا كما هو الظاهرُ فلعل تقديمَ إيتاءِ الملك عليه في الذكر لأنه بمقام تعدادِ النعم الفائضةِ عليه من الله سبحانه والمُلك أعرقُ، في كونه نعمةً، من التعليم المذكور وإن كان ذلك أيضًا نعمةً جليلةً في نفسه، ولا يمكن تمشيةُ هذا الاعتذارِ فيما سبق لأن التعليمَ هناك واردٌ على نهج العلة الغائيةِ للتمكين فإن حُمل على معنى التمليك لزم تأخرُه عنه.

وأما الواقعُ هاهنا فمجردُ التأخيرِ في الذكر والعطفُ بحرف الواو، ولا يستدعي ذلك الترتيبَ في الوجود ﴿فاطر السموات والأض﴾ مُبدعهما وخالقهما، نُصب على أنه صفةٌ للمنادىٰ، أو منادى آخرُ وصفه تعالى به بعد وصفِه بالربوبية مبالغةً في ترتيب مبادئ ما يعقُبه من قوله: ﴿أنت وليي﴾ مالكُ أموري ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما وإذ قد أتممتَ عليّ نعمة الدنيا ﴿توفني﴾ اقبِضْني ﴿مسلمًا وألحقني بالصالحين﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامةِ فإنما تتم النعمةُ بذلك.

قيل: لما دعا توفاه الله عز وجل طيبًا طاهرًا فتخاصم أهلُ مصرَ في دفنه وتشاحّوا في ذلك حتى همّوا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتًا من مَرمر فجعلوه فيه ودفنوه في النيل ليمُرَّ عليه ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعًا واحدًا في التبرك به، ووُلد له أفرايِيم وميشا، ولأفرايِيم نونٌ، ولنونٍ يوشعُ فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو إسرائيلَ تحت أيديهم على [بقايا][1] دين يوسفَ وآبائِه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى ما سبق من نبأ يوسفَ، وما فيه من معنى البُعد لما مر مرارًا

(١) سقط في خ.

من الدِلالة على بُعد منزلتِه أو كونه بالانقضاء في حكم البعيدِ والخطابُ للرسول ﷺ وهو مبتدأ خبرُه ﴿من أنباء الغيب﴾ الذي لا يحوم حوله أحدٌ وقوله: ﴿نوحيه إليك﴾ خبرٌ بعد خبر أو حال من الضمير في الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسمًا موصولًا و(من أنباء الغيب) صلتَه ويكون الخبرُ نوحيه إليك ﴿وما كنت لديهم﴾ يريد إخوةَ يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ وهو جعلهم إياه في غيابة الجب ﴿وهم يمكرون﴾ به ويبغون له الغوائلَ حتى تقف على ظواهر أسرارِهم وبواطنها وتطّلع على سرائرهم طُرًّا وتحيط بما لديهم خُبرًا، وليس المرادُ مجردَ نفي حضورِه عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعِهم ومكرِهم فقط، بل في سائر المشاهِدِ أيضًا، وإنما تخصيصُه بالذكر لكونه مطْلعَ القصة وأخفى أحوالِها كما ينبئ عنه قوله: وهم يمكرون، والخطابُ وإن كان لرسول الله ﷺ لكنِ المرادُ إلزامُ المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدمُ سماعِك ذلك من الغير وعدمُ مطالعتِك للكتب أمرٌ لا يشك فيه المكذِّبون أيضًا ولم تكن بين ظَهرانِيهم عند وقوعِ الأمر حتى تعرِفه كما هو فتبلّغَه إليهم، وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم، وفيه أيضًا إيذانٌ بأن ما ذكر من النبأ هو الحقُّ المطابق للواقع، وما ينقُله أهلُ الكتاب ليس على ما هو عليه يعني أن مثلَ هذا التحقيقِ بلا وحي لا يُتصوّر إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي، ومثلُه قوله تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامَهم أيُّهم يكفُل مريم﴾ [آل عمران، الآية ٤٤] وقولُه: ﴿وما كنت بجانب الغَربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمرَ﴾ [القصص، الآية ٤٤].

العبرة من قصة يوسف

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد به العمومَ أو أهلَ مكة ﴿ولو حرصت﴾ أي على إيمانهم وبالغت في إظهار الآياتِ القاطعةِ الدالةِ على صدقك ﴿بمؤمنين﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارِهم على العناد، روي أن اليهود وقريشًا لما سألوا عن قصة يوسفَ وعدوا أن يُسْلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراةِ فلم يسلموا حزِن النبيُّ ﷺ فقيل له ذلك ﴿وما تسألهم عليه﴾ أي على الإنباء أو على القرآن ﴿من أجر﴾ من جُعْل كما يفعله حَمَلةُ الأخبار ﴿إن هو إلا ذكر﴾ عظةٌ من الله تعالى

﴿للعالمين﴾ كافة لا أن ذلك مختصٌّ بهم.

﴿وكأين من آية﴾ أي كأي عددٍ شئت من الآيات والعلاماتِ الدالةِ على وجود الصانِع ووحدتِه وكمال علمِه وقدرتِه وحكمته غيرِ هذه الآيةِ التي جئتَ بها ﴿في السموات والأرض﴾ أي كائنةٍ فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغيّر أحوالها ومن الجبال والبحار وسائرِ ما في الأرض من العجائب الفائتةِ للحصر ﴿يمرون عليها﴾ أي يشاهدونها ولا يعبأون بها، وقرئ[1] برفع (الأرضِ) على الابتداء ويمرّون خبره وقرئ[2] بنصبها على معنى ويطؤون الأرضَ يمرون عليها وفي مصحف عبدالله ﴿والأرضَ يمشون عليها﴾[3] والمراد ما يرَون فيها من آثار الأمم الهالكةِ وغيرُ ذلك من الآيات والعبر ﴿وهم عنها معرضون﴾ غيرُ ناظرين إليها ولا متفكّرين فيها ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿إلا وهم مشركون﴾ بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأحبارَ والرهبانَ أربابًا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدًا سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، أو بالنور والظلمة، وهي جملةٌ حالية أي لا يؤمن أكثرُهم إلا في حال شركِهم، قيل: نزلت الآيةُ في أهل مكة، وقيل: في المنافقين، وقيل: في أهل الكتاب.

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أي عقوبةٌ تغشاهم وتشمَلُهم ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ فجأةً من غير سابقةِ علامة ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها غير مستعدّين لها ﴿قل هذه سبيلي﴾ وهي الدعوةُ إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص وفسّرها بقوله: ﴿أدعُو إلى الله على بصيرة﴾ بيانٍ وحجةٍ واضحةٍ غيرِ عمياءَ أو هي حالٌ من الضمير في سبيلي والعاملُ فيها معنى الإشارة ﴿أنا﴾ تأكيدٌ للمستكن في أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه، أو مبتدأ خبرُه على بصيرة ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه ﴿وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله ﴿وما

---

(١) قرأ بها: عكرمة، وعمرو بن فائد، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥١)، المجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٩)، وتفسير الرازي (١٨/ ٢٢٤).

(٢) قرأ بها: السدي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٧٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٦)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٧)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٤٩).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٥١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٧٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٦).

أرسلنا من قبلك إلا رجالًا﴾ رد لقولهم ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكةً﴾ [المؤمنون، الآية ٢٤] ﴿نوحي إليهم﴾ كما أوحينا إليك وقرئ[1] بالياء ﴿من أهل القرى﴾ لأنهم أعلمُ وأحلم، وأهلُ البوادي فيهم الجهلُ والجفاءُ والقسوة.

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من المكذبين بالرسل والآياتِ فيحذَروا تكذيبك ﴿ولدار الآخرة﴾ أي الساعةُ أو الحياة الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ الشركَ والمعاصيَ ﴿أفلا تعقلون﴾ فتستعملوا عقولَكم لتعرِفوا خيريةَ دارِ الآخرة، وقرئ[2] بالياء على أنه غيرُ داخل تحت قل. ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ غايةٌ لمحذوف دل عليه السياقُ أي لا يغُرّنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فإن مَنْ قبلهم قد أُمهلوا حتى أيِسَ الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ كذَّبتْهم أنفسُهم حين حدثتْهم بأنهم يُنْصرون عليهم أو كذّبهم رجاؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب والمعنى أن مدة التكذيبِ والعداوة من الكفار وانتظارَ النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القُنوطَ وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدنيا ﴿جاءهم نصرنا﴾ فجأة، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أُخلِفوا ما وعدهم الله من النصر فإن صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطُر بالبال من شبه الوسوسة وحديثِ النفس، وإنما عبر عنه بالظن تهويلًا للخطب، وأما الظنُّ الذي هو ترجّحُ أحدِ الجانبين على الآخر فلا يُتصوّر ذلك من آحاد الأمة فما ظنُّك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتُهم في معرفة شؤونِ الله سبحانه منزلتهم، وقيل: الضميران للمُرسل إليهم.

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ونافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٨)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٣)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٠٦)، والتيسير للداني ص (١٣٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥١)، الغيث للصفاقسي ص (٢٦٠).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٨)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٣، ٣٥٤)، والتيسير للداني ص (١٣٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٧٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

وقيل: الأول لهم، والثاني للرسل، وقرئ[١] بالتشديد أي ظن الرسلُ أن القوم كذّبوهم فيما وعدوهم وقرئ[٢] بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أي ظنوا أنهم كذَبوا عند قومهم [فيما][٣] حدّثوا به لِما تراخىٰ ولم يرَوا له أثرًا أو على أن الأول لقومهم ﴿**فنجي من نشاء**﴾ هم الرسلُ والمؤمنون بهم وقرئ (فننجي) على لفظ المستقبل بالتخفيف[٤] والتشديد[٥] وقرئ فنجا[٦] ﴿**ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾إذا نزل بهم وفيه بيانٌ لمن تعلق بهم المشيئة.

﴿**لقد كان في قصصهم**﴾أي قَصص الأنبياء وأممِهم، وينصره قراءةُ[٧] من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسفَ وإخوتِه ﴿**عبرة لأولي الألباب**﴾لذوي العقول المبرّأةِ عن شوائب أحكام الحِس ﴿**ما كان**﴾أي القرآنُ المدلولُ عليه بما سبق دَلالة واضحة ﴿**حديثًا يفترى**

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وعائشة، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وأبو رجاء، وابن أبي مليكة، والأعرج، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، والزهري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٦١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٤)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٠٧)، والتيسير للداني ص (١٣٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٧٥)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥١)، والمعاني للفراء (٢/ ٥٦).

(٢) قرأ بها: أبي، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والأعمش، والضحاك، وحميد.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٦١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٠٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٤٧)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٣).

(٣) سقط في خ.

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٠٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٧٧)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٦٨)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٩).

(٥) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٥٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٧).

(٦) قرأ بها: الحسن، وابن محيصن، ونصر بن عاصم، وأبو حيوة، وابن السميفع، ومجاهد، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر،ص (٢٦٨)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٥)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٩).

(٧) قرأ بها: الكسائي، وأبو عمرو، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وعبد الوارث.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٥٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٨).

ولكن﴾ كان﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب السماوية، وقرئ بالرفع[١] على أنه خبرُ مبتدأ محذوف أي ولكن هو تصديقُ الذي بين يديه﴿وتفصيل كل شيء﴾ مما يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر دينيّ إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط﴿وهدى﴾ من الضلالة﴿ورحمة﴾ ينال بها خيرُ الدارين﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدّقونه لأنهم المنتفعون به، وأما مَنْ عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه.

عن رسول الله ﷺ: «**علّموا أرقاءَكم سورةَ يوسف فإنه أيُّما مسلمٍ تلاها وعلّمها أهلَه وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكراتِ الموتِ وأعطاه القوّة ألا يحسُد مسلمًا**»[٢].

---

(١) قرأ بها: عيسى الكوفي، وعيسى الثقفي، وحمران بن أعين.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٥٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٨)، والمجمع للطبرسي (٥/ ٢٦٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٠).

(٢) تقدم.

سورة الرعد

مدنية وقيل مكية إلا قوله: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ [الرعد: ٧و٢٧و٤٣] الآية

وآيها ثلاث وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا

دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

﴿المر﴾ اسمٌ للسورة ومحلُّه **إما** الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هذه السورةُ بهذا الاسمِ، وهو أظهرُ من الرفع على الابتداء إذ لم يسبِق العلَم بالتسمية كما مر مرارًا، وقوله تعالى: **﴿تلك﴾** على الوجه الأول مبتدأ مستقلٌ وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثانٍ أو بدل من الأول أشير به إليه إيذانًا بفخامته. **وإما** النصبُ بتقدير فعلٍ يناسب المقامَ نحوُ اقرأ أو اذكر، فتلك مبتدأٌ كما إذا جعل (المر) مسرودًا على نمط التعديدِ أو بمعنى أنا الله أعلمُ وأرى على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والخبر على التقادير قوله تعالى: **﴿آياتُ الكتاب﴾** أي الكتابِ العجيب الكامل الغنيِّ عن الوصف به المعروفِ بذلك من بين الكتب الحقيقِ باختصاص اسم الكتابِ فهو عبارةٌ عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزّل حينئذ حسبما مر في مطلع سورةِ يونُسَ إذ هو المتبادرُ من مطلق الكتابِ المستغني عن النعت، وبه يظهر ما أريد من وصف الآياتِ بوصف ما أضيفت إليه من نعوت الكمالِ بخلاف ما إذا جُعل عبارةً عن السورة فإنها ليست بتلك المثابة من الشهرة في الاتصاف بذلك، المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارةٌ عن جميع آياتِها فلا بد من جعل (تلك) إشارةً إلى كل واحدةٍ منها، وفيه ما لا يخفى من التعسف الذي مر تفصيلُه في سورة يونس.

﴿والذي أنزل إليك من ربك﴾ أي الكتابَ المذكور بكماله لا هذه السورةُ وحدها **﴿الحق﴾** الثابتُ المطابق للواقع في كل ما نطق به، الحقيقُ بأن يُخَصّ به الحقّيةُ لعراقته فيها، وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلًا على أن حقّيتَه مستتبِعةٌ لحقية سائرِ الكتبِ السماوية لكونه مصدّقًا لما بين يديه ومهيمِنًا عليه،

وفي التعبير عنه بالموصول وإسنادِ الإنزال إليه بصيغة المبنيِّ للمفعول والتعرّضِ لوصف[١] الربوبية مضافًا إلى ضميره عليه السلام، من الدلالة على فخامة المنزَّل التابعةِ لجلالة شأنِ المنزَّل وتشريفِ المنزَّل إليه والإيماءِ إلى وجه بناءِ الخبر ، ما لا يخفى ﴿**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ بذلك الحقِّ المبين، لإخلالهم بالنظر والتأملِ فيه، فعدمُ إيمانهم متعلقٌ بعنوان حقّيتِه لأنه المرجِعُ للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونِه منزلًا كما قيل ولأنه واردٌ على طريقة الوصفِ دون الإخبار.

من دلائل التوحيد

﴿**الله الذي رفع السموات**﴾ أي خلقهن مرتفعاتٍ على طريقة قولِهم: سبحان من كبّر الفيل وصغّر البعوض، لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك، والجملةُ مبتدأ وخبرٌ كقوله: ﴿وهو الذي مد الأرضَ﴾ [الرعد، الآية ٣] ﴿**بغير عمد**﴾ أي بغير دعائمَ جمع عِماد كإهاب وأَهَب وهو ما يُعمَد به أي يُسند، يقال: عمَدتُ الحائطَ أي أدعمته، وقرئ (عُمُد)[٢] على جمع عَمود بمعنى عماد كرُسُل ورسول، وإيرادُ صيغةِ الجمع لجمع السموات، لا لأن المنفيَّ عن كل واحدة منها عَمدٌ لا عماد ﴿**ترونها**﴾ استئنافٌ استُشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد، وقيل: صفة لعَمَدٍ جيء بها إيهامًا لأن لها عمدًا غيرَ مرئيةٍ هي قدرة الله تعالى.

[﴿**ثم استوى**﴾][٣] أي استولى[٤] ﴿**على العرش**﴾ بالحفظ والتدبير أو استوى

---

(١) في خ: بوصف.

(٢) قرأ بها: أبو حيوة، ويحيى بن وثاب.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٣)، والبحر المحيط (٥/ ٣٥٩)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٩).

(٣) سقط في خ.

(٤) الاستواء على العرش صفة لله تبارك وتعالى، لكننا لا نعرف كيفية هذه الصفة كما لا نعرف حقيقة ذاته، ولا حقيقة صفاته، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، ولذلك كان المتقدمون من السلف الأولين إذا سئلوا عن هذه الصفة أجابوا بقولهم:
الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.
وهذا قول مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل رحمه الله، وسفيان الثوري، وداود بن علي الأصفهاني، ومن تابعهم........ .
وجمهور أهل السنة، منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها. =

أمرُه وعن أصحابنا أن الاستواءَ على العرش صفةٌ لله عز وجل بلا كيف، [وأيًا][١] ما كان فليس المرادُ به القصدَ إلى إيجاد العرش وخلقِه فلا حاجة إلى جعل كلمة ثم للتراخي في الرتبة[٢] ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾ ذللهما وجعلهما طائعَين لما أريد منهما من الحركات وغيرها ﴿**كل**﴾ من الشمس والقمر ﴿**يجري**﴾ حسبما أريد منها[٣] ﴿**لأجل مسمى**﴾ لمدة معينةٍ[٤] فيها تتم دورتُه كالسنة للشمس والشهر للقمر، فإن كلاً منهما يجري كلَّ يوم على مدار معينٍ من المدارات اليوميةِ أو لمدة ينتهي فيها حركاتُهما ويخرج جميعُ ما أريد منهما من القوة إلى الفعل، أو لغاية يتم عندها ذلك والجملةُ بيانٌ لحكم تسخيرهما.

﴿**يدبر**﴾ بما صنع من الرَّفْع والاستواء والتسخير أي يقضي ويقدّر حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة ﴿**الأمر**﴾ أمرَ الخلق كلِّه وأمرَ ملكوته وربوبيتِه ﴿**يفصل الآيات**﴾ الدالةَ على كمال قدرتِه وبالغِ حكمتِه أي يأتي بها مفصلةً وهي ما ذكر من الأفعال العجيبةِ وما يتلوها من الأوضاع الفلكيةِ الحادثةِ شيئًا فشيئًا المستتبعةِ للآثار الغريبة

= وأخرج أبو القاسم اللالكائي في السنن عن طريق قرة بن خالد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قالت الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وهكذا يقال في سائر الصفات إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة. وثبت عن محمد بن الحسن - صاحب أبي حنيفة - أنه قال: اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب: على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة. فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا. فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة.

أما الجهمية، والمعتزلة فعلى طريقتهم في إنكار صفات الله، ينكرون صفة الاستواء، وأما الأشاعرة: فإنهم يتأولون هذه الصفة، ويقولون: استوى على العرش، يعنى استولى على العرش أو استولى عليه، والحق: هو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٠٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبى القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور اللالكائى (٣/ ٣٩٨).

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: في المرتبة.
(٣) في خ: منصوبًا منهما.
(٤) في خ: معلومة.

في السُّفليات على موجب التدبيرِ والتقديرِ، فالجملتان إما حالان من ضمير استوى وقوله: ﴿وسخر الشمسَ والقمرَ﴾ من تتمة الاستواءِ وإما مفسّرتان له أو الأولى[١] حالٌ منه والثانية من الضمير فيه أو كلاهما من ضمائر الأفعالِ المذكورة وقوله: [﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ من تتمة التسخيرِ أو خبران عن قوله][٢]: الله تعالى خبرًا بعد خبر، والموصولُ[٣] صفةٌ للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبرِ وتعظيمِ شأنِه كما في قول الفرزدق: [الكامل]

إن الذي سمك السماءَ بنى لنا ... بيتًا دعائمُه أعزُّ وأطول[٤]

﴿لعلكم﴾ عند معاينتِكم لها وعثورِكم على تفاصيلها ﴿بلقاء ربكم﴾ بملاقاته للجزاء ﴿توقنون﴾ فإن من تدبّرها[٥] حقَّ التدبر[٦] أيقن أن من قدَر على إبداع هذه الصنائعِ البديعةِ على كل شيء قديرٌ وأن لهذه التدبيراتِ المتينة عواقبَ وغاياتٍ لا بد من وصولها وقد بُيّنتْ على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام أن ذلك ابتلاءٌ للمكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالِهم فإذن لا بد من الإيقان بالجزاء، ولمّا قرر الشواهدَ العلوية أردفها بذكر الدلائلِ السفلية فقال: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي بسطها طولًا وعَرضًا، قال الأصم: المد هو البسطُ إلى ما لا يدرك منتهاه ففيه دَلالةٌ على بعد مداها وسَعةِ أقطارها ﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي جبالًا ثوابتَ في أحيازها من الرُّسوّ وهو ثباتُ الأجسام الثقيلة، ولم يُذكر الموصوفُ لإغناء غلبة الوصفِ بها عن ذلك، وانحصارُ مجيءِ فواعل [جمعًا لفاعل][٧] في فوارسَ وهوالكَ ونواكسَ إنما هو في صفات العقلاءِ وأما في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلًا كما في قوله تعالى:

---

(١) في خ: الأول.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: الموصوف.
(٤) ينظر: البيت في: ديوانه (٢/ ١٥٥)، والأشباه والنظائر (٦/ ٥٠)، وخزانة الأدب (٦/ ٥٣٩)، (٨/ ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٧٦، ٢٧٨)، وشرح المفصل (٦/ ٩٧، ٩٩)، والصاحبي في فقه اللغة ص (٢٥٧)، ولسان العرب (كبر)، (عزز)، وتاج العروس (عزز)، والمقاصد النحوية (٤/ ٤٢)، وبلا نسبة في شرح الأشموني (٢/ ٣٨٨)، وشرح ابن عقيل ص (٤٦٧)، وتاج العروس (بني).
(٥) في خ: دبرها.
(٦) في خ: التدبير.
(٧) في خ: فهو الفاعل.

﴿أيامًا معدودات﴾ [البقرة، الآية ١٨٤] وقوله: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ [البقرة، الآية ١٩٧] إلى غير ذلك، فلا حاجة إلى أن يُجعل مفردُها صفةً لجمع القلة أعني أجبُلًا ويعتبر في جمع الكثرة، أعني جبالًا، انتظامُها لطائفة من جموع القلة وتنزيلُ كلٍّ منها منزلة مفردِها كما قيل على أنه لا مجال لذلك فإن جمعيةَ كلٍّ من صيغتي الجمعَين إنما هي باعتبار الأفرادِ التي تحتها لا باعتبار انتظام جمعِ القلةِ للأفراد وجمعِ الكثرة لجموع القِلة فكلٌّ منهما جمعُ جبلٍ لا أن جبالًا جمعُ أَجبل، كما أن طوائفَ جمعُ طائفة ولا إلى أن يُلتجأَ إلى جعل الوصفِ المذكور بالغلبة في عداد الأسماءِ التي تُجمع على فواعل كما ظن، على أنه لا وجه له لما أن الغلبةَ إنما هي في الجمع دون المفردِ، والتعبيرُ عن الجبال بهذا العنوانِ لبيان تفرّعِ قرارِ الأرض على ثباتها ﴿وأنهارًا﴾ مجاريَ واسعةً.

والمرادُ ما يجري فيها من المياه، وفي نظمها مع الجبال في مفعولية[1] فعلٍ واحد إشارةٌ إلى أن الجبالَ منشأٌ للأنهار وبيانٌ لفائدة أخرى للجبال غيرِ كونها حافظةً للأرض عن الاضطراب المُخِلّ بثبات الأقدام وتقلّب الحيوان متفرّعةً على تمكنه وتقلّبه وهي تعيشه بالماء والكلأ.

﴿ومن كل الثمرات﴾ متعلقٌ بجعل في قوله تعالى: ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي اثنيْنيّةً حقيقيةً وهما الفردان اللذان كلٌّ منهما زوجُ الآخر وأكّد به الزوجين لئلا يُفهم أن المرادَ بذلك الشفْعان إذ يطلق الزوجُ على المجموع ولكنْ اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية، أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصِنفين إما في اللون كالأبيض والأسود أو في الطعم كالحُلو والحامض، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك، ويجوز أن يتعلق[2] بجعَلَ الأولِ، ويكونَ الثاني استئنافًا لبيان كيفيةِ ذلك الجعْل ﴿يغشي الليل النهار﴾ استعارةٌ تبعيةٌ تمثيليةٌ مبنيَّةٌ على تشبيه إزالةِ نورِ الجو بالظلمة[3] بتغطية

---

(١) في خ: معمولية. (٢) في خ: تتعلق.

(٣) إنما سميت الاستعارة بالتبعية لأن اللفظ المستعار مشتق (يغشي)، وسميت تمثيلية لأنها من هيئة مركبة كما فسرها الشيخ أبو السعود.
ينظر: عروس الأفراح (٤/ ١١١)، والإيضاح (٣/ ١٣٥) وما بعدها، والمصباح لبدر الدين بن مالك (٢٨) وما بعدها، وشرح عقود الجمان (٣٠).

الأشياءِ الظاهرةِ بالأغطية، أي يستر النهارَ بالليل. والتركيب وإن احتمل العكسَ أيضًا بالحمل على تقديم المفعولِ الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضًا ساترٌ لظلمة الليلِ إلا أن الأنسبَ بالليل أن يكون هو الغاشي، وعدُّ هذا في تضاعيف[(١)] الآيات السفلية، وإن كان تعلقُه بالآيات العلوية ظاهرًا، باعتبار أن ظهورَه في الأرض فإن الليل إنما هو ظلُّها وفيما فوق موقعِ ظلها لا ليلَ أصلًا ولأن الليل والنهار لهما تعلقٌ بالثمرات من حيث العقدُ والإنضاج على أنهما أيضًا زوجان[(٢)] متقابلان مثلها وقرئ (يُغشّي)[(٣)] من التغشية ﴿إن في ذلك﴾ أي فيما ذكر من مد الأرضِ وإيتادِها[(٤)] بالرواسي وإجراءِ[(٥)] الأنهار وخلق الثمرات وإغشاءِ الليل النهارَ، وفي الإشارة بذلك تنبيهٌ على عظم شأنِ المشار إليه في بابه ﴿لآيات﴾ باهرةً[(٦)] وهي آثارُ[(٧)] تلك الأفاعيل البديعةِ جلت حكمةُ صانعِها، (ففي) على معناها فإن تلك الآثارَ مستقرةٌ في تلك الأفاعيل منوطةٌ بها، ويجوز أن يُشار بذلك إلى تلك الآثار المدلولِ عليها بتلك الأفاعيل (ففي) تجريدية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فإن التفكر فيها يؤدّي إلى الحكم بأن تكوين كلٍّ من ذلك على هذا النمط الرائِق والأسلوب اللائق لا بد له من مكوّن قادرٍ حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقِّبَ لحكمه وهو الحميد المجيد.

﴿وفي الأرض قطع﴾ جملةٌ مستأنفة مشتملةٌ على طائفة أخرى من الآيات أي بقاعٌ كثيرةٌ مختلفة في الأوصاف فمن طيِّبة إلى سَبْخة وكريمة إلى زهيدة وصُلبة إلى رِخْوة إلى غير ذلك ﴿متجاورات﴾ أي متلاصقاتٌ وفي بعض المصاحف (قطعًا متجاوراتٍ)[(٨)] أي: جعل في الأرض قطعًا ﴿وجنات من أعناب﴾ أي بساتين كثيرة منها ﴿وزرع﴾ من كل نوع من أنواع الحبوبِ، وإفرادُه لمراعاة أصله، ولعل تقديمَ

---

(١) في خ: تضاعف. (٢) في خ: الزوجان.

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، ويعقوب، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٩)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والحجة لابن خالويه ص (١٩٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٦٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٧٥).

(٤) في خ: وإتقانها. (٥) في خ: أجرى.

(٦) في خ: ظاهرة. (٧) في خ: إشارة.

(٨) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٩).

ذكرِ الجنات عليه مع كونه عمودَ المعاشِ لظهور حالها في اختلافها ومبايَنتِها لسائرها ورسوخ ذلك فيها، وتأخيرُ قوله تعالى: ﴿ونخيل﴾ لئلا يقعَ بينها وبين صفتها وهي قوله تعالى: ﴿صنوان وغير صنوان﴾ فاصلة، والصنوان جمع صِنْو كقِنوان وقِنْو وهي النخلةُ التي لها رأسان وأصلُها واحدٌ وقرئ[١] بضم الصاد على لغة بني تميم وقيس، وقرئ (جناتٍ)[٢] بالنصب عطفًا على (زوجين) وبالجر على كل الثمرات، فلعل عدمَ نظم قوله تعالى: ﴿وفي الأرضِ قطع متجاورات﴾ في هذا السلكِ، مع أن اختصاصَ كلَ من تلك القِطع بما لها من الأحوال والصفات بمحض جعْل الخالقِ الحكيم جلت قدرتُه حين مد الأرضَ ودحاها، للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفاتٍ راسخةً لتلك القطع، وقرئ وزرعٍ ونخيلٍ[٣] بالجر عطفًا على أعناب أو جناتٍ ﴿يسقى﴾[٤] أي: ما ذكر من القِطع والجنات والزرع والنخيل، وقرئ بالتأنيث[٥] مراعاةً للّفظ والأول أوفقُ بمقام بيان اتحادِ الكل في حالة السقْي ﴿بماء واحد﴾ لا اختلاف في طبعه سواء كان السقيُ بماء الأمطار أو بماء الأنهار.

﴿ونفضل﴾ [مع][٦] تأخر أسبابِ التشابه بمحض قدرتِنا واختيارنا ﴿بعضها على بعض﴾ آخرَ منها ﴿في الأكُل﴾ فيما يحصُل فيها من الثمر والطعْمِ، وقرئ[٧] بالياء

---

(١) قرأ بها: عاصم، والسلمي، وزيد بن علي، وحفص، ومجاهد، وابن مصرف.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٣٦٣)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢١٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٨٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٧٥)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها: الحسن، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٤٩).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٦٤).

(٤) في خ: تسقى.

(٥) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ١٦٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٣٦٣)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢١٦)، والتيسير للداني ص (١٣١)، وتفسير الطبري (١٣/ ٦٧).

(٦) سقط في خ.

(٧) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وابن محيصن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٦٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ١٦٥)، والتيسير للداني ص (١٣١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٨٣)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٧٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٧).

على بناء الفاعل ردًا على يدبّر ويفصّلُ ويغشي، وعلى بناء المفعول وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدمَ احتمال استنادِ الفعل إلى فاعل آخرَ مغنٍ عن بناء الفعل[1] للفاعل ﴿إن في ذلك﴾ الذي فُصّل من أحوال القِطع والجنات ﴿لآيات﴾ كثيرةً عظيمةً ظاهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يعلمون على قضية عقولِهم، فإن من عقَل هذه الأحوالَ العجيبةَ لا يتلعثم في الجزم بأن من قدَر على إبداع هذه البدائعِ وخلقَ تلك الثمارَ المختلفة في الأشكال والألوان والطعومِ والروائحِ في تلك القِطعِ المتباينةِ المتجاورةِ وجعَلَها حدائقَ ذاتَ بهجةٍ قادرٌ على إعادة ما أبداه بل هي أهونُ في القياس وهذه الأحوالُ وإن كانت هي الآياتِ أنفسَها لا أنها فيها إلا أنه قد جُرّدت عنها أمثالُها مبالغةً في كونها آيةً (ففي) تجريديةٌ مثلها في قوله تعالى: ﴿لهم فيها دارُ الخلدِ﴾ [فصلت، الآية ٢٨] والمشارُ إليه الأحوالُ الكلية والآياتُ أفرادُها الحادثةُ شيئًا فشيئًا في الأزمنة وآحادُها الواقعةُ في الأقطار والأمكنةِ المشاهدة لأهلها (ففي) على معناها وحيث كانت دلالةُ هذه الأحوالِ على مدلولاتها أظهرَ مما سبق علق كونُها آياتٍ بمحض التعقّل[2] ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأكل الظاهرِ لكل عاقلٍ مع تحقق ذلك في الخواصّ والكيفيات مما يتوقف العثورُ عليه على نوع تأملٍ وتفكر كأنه لا حاجة في ذلك إلى التفكر أيضًا وفيه تعريضٌ بأن المشركين غيرُ عاقلين.

﴿وإن تعجب﴾ يا محمد من شيء ﴿فعجَبٌ﴾ أي: لا أعجبُ منه حقيقٌ بأن يُقصَرَ[3] عليه التعجب ﴿قولهم﴾ بعد مشاهدةِ ما عدد لك من الآيات الشاهدةِ بأنه تعالى على كل شيء قدير ﴿أئذا كنا ترابًا﴾ على طريقة الاستفهامِ الإنكاريِّ المفيدِ لكمال الاستبعادِ والاستنكارِ، [وهو في محل الرفعِ على البدلية من (قولهم) على أنه بمعنى المقول][4] أو في محل النصبِ على المفعولية منه على أنه مصدرٌ فالعجبُ على الأول كلامُهم وعلى الثاني تكلّمُهم بذلك والعاملُ[5] في (إذا) ما دل عليه قوله: ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾ وهو نُبعث أو نعاد، وتقديمُ الظرف لتقوية الإنكارِ بالبعث بتوجيهه إليه في حالة

---

(١) زاد في خ: إلى.
(٢) في خ: التعلق.
(٣) في خ: تقصر.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: القائد.

منافيةٍ له، وتكريرُ الهمزة في قولهم: أئنا لتأكيد الإنكارِ، وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونِهم ترابًا بل كونهم بعريضة[١] ذلك واستعدادهم له، وفيه من الدَلالة على عتوّهم وتماديهم في النكير ما لا يخفى، وقيل: وإن تعجب من قولهم في إنكار البعثِ فعجبٌ قولُهم، والمآلُ وإن تعجبْ فقد تعجّبت في موضع التعجّبِ، وقيل: وإن تعجب من إنكارِهم البعثَ فعجبٌ قولُهم الدالُّ عليه فتأمل.

وقد جُوّز كونُ الخطاب لكل من يصلُح له أي إن تعجبْ يا من ينظُر في هذه الآياتِ من قدرة مَنْ هذه أفعالُه فازددْ[٢] تعجبًا ممن ينكر مع هذه الدلائلِ قدرتَه تعالى على البعث وهو أهونُ من هذه، والأنسبُ بقوله: ويستعجلونك بالسيئة هو الأولُ وقوله تعالى: ﴿فعجبٌ﴾ خبرٌ قُدّم على المبتدأ للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمرًا عجيبًا، ويجوز أن يكون مبتدأً لكونه موصوفًا بالوصف المقدر كما أشير إليه فالمعنى وإن تعجب فالعجب الذي لا عجب وراءه قولُهم هذا فاعجب منه، وعلى الأول وإن تعجب فقولُهم هذا عجبٌ لا عجبَ فوقه.

﴿أولئك﴾ مبتدأٌ والموصولُ خبرُه أي أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما[٣] عاينوا [ما فُصّل][٤] من الآيات الباهرةِ المُلْجئة لهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿الذين كفروا بربهم﴾ وتمادَوْا في ذلك فإن إنكارَهم لقدرته عز وجل كفرٌ به وأيُّ كفر ﴿وأولئك﴾ مبتدأ خبرُه قوله: ﴿الأغلال في أعناقهم﴾ أي مقيّدون بقيود[٥] الضلال لا يُرجىٰ خلاصُهم أو مغلولون يوم القيامة ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا ينفكوّن عنها، وتوسيطُ ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلودِ بمنكري[٦] البعثِ خاصةً بل بالجمع المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾.

استعجال الكفار للعذاب

﴿ويستعجلونك بالسيئة﴾ بالعقوبة التي أُنذِروها وذلك حين سألوا رسولَ الله ﷺ أن يأتيَهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره ﴿قبل الحسنة﴾ أي العافيةِ والإحسانِ إليهم بالإمهال ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أي عقوباتُ أمثالِهم [من المكذبين فما

---

(١) في خ: بعرضية.
(٢) في خ: فازداد.
(٣) في خ: وأنكروا ما.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: بقتد.
(٦) في خ: منكر.

لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون حلولَ مثلها بهم! والجملة الحاليةُ لبيان ركاكةِ رأيِهم في الاستعجال بطريق الاستهزاءِ أي يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك منكِرين لوقوع ما أنذرتَهم إياه، والحالُ أنه قد مضت العقوباتُ النازلةُ على أمثالهم][1] من المكذبين والمستهزئين، والمُثْلة بوزن السُّمْرة العقوبةُ، سميت بها لما بينها وبين المعاقَب عليه من المماثلة ومنه المِثال[2] للقِصاص، وقرئ المُثُلات[3] بضمتين بإتباع الفاء العين، والمَثْلات[4] بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال: السَّمْرة، والمُثْلات[5] بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المُثُلات جمع مُثْلة كرُكبة ورُكْبات ﴿**وإن ربك لذو مغفرة**﴾ عظيمةٍ ﴿**للناس على ظلمهم**﴾ أنفسهم بالذنوب والمعاصي ومحلُّه النصبُ على الحالية أي ظالمين والعاملُ فيه المغفرة والمعنى إن ربك لغفورٌ للناس لا يعجّل لهم العقوبةَ وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿**وإن ربك لشديد العقاب**﴾ يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخيرُ ما استعجلوه ليس للإهمال. وعنه عليه الصلاة والسلام: «**لولا عفوُ الله وتجاوزُه ما هنأ لأحد العيشُ ولولا وعيدُه وعقابه لاتَّكل[6] كُلُّ أحد**»[7].

﴿**ويقول الذين كفروا**﴾ وهم المستعجلون أيضًا، وإنما عدَل عن الإضمار إلى الموصول ذمًا لهم ونعيًا عليهم[8] كفرَهم بآيات الله تعالى التي تخِرُّ لها صُمُّ الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسًا ولم يعُدّوها من جنس الآيات وقالوا: ﴿**لولا أنزل عليه آية من**

---

(١) سقط في خ.
(٢) زاد في خ: من.
(٣) قرأ بها: عيسى بن عمير، والأعمش، وشعبة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٣٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ١١).
(٤) قرأ بها: طلحة بن مصرف، والأعمش، وعيسى الثقفي، وطلحة بن سليمان.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٣٦٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٨٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٣).
(٥) قرأ بها: يحيى بن وثاب، والأعمش.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٤)، والبحر المحيط (٥/ ٣٦٦)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٨٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٠)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٣).
(٦) اتكل المرء: تقاعس ولم يعمل.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٢٤) برقم (١٢١٤٥)، والثعلبي في تفسيره (٥/ ٢٧١)، من حديث سعيد بن المسيب مرسلاً.
(٨) في خ: على.

ربه﴾ مثلَ آياتِ موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادًا ومكابرةً، وإلا ففي أدنىٰ آيةٍ أُنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غُنيةٌ وعِبرةٌ لأولي الألباب ﴿إنما أنت منذر﴾ مرسَلٌ للإنذار من سوء عاقبةِ ما يأتون ويذرون كدأب مَنْ قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيانُ بما يُعلم به نُبوَّتُك، وقد حصل ذلك بما لا مزيدَ عليه ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامِهم الحجرَ بالإتيان بما اقترحوا من الآيات ﴿ولكل قوم هاد﴾ معينٌ لا بالذات بل بعنوان الهدايةِ يعني لكل قوم نبيٌّ مخصوصٌ له هدايةٌ مخصوصةٌ يقتضي اختصاصُ كلٍّ منهم بما يختص به حكمًا لا يعلمها إلا الله، أو لكل قوم هادٍ عظيمُ الشأنِ قادرٌ على ذلك هو الله سبحانه، وما عليك إلا إنذارُهم فلا يُهِمَّنك عنادُهم وإنكارُهم للآيات المنزّلةِ عليك وازدراؤهم بها، ثم عقّبه بما يدل على كمال علمِه وقدرتِه وشمولِ قضائِه وقدَره المبنيَّين على الحِكَم والمصالحِ تنبيهًا على أن تخصيصَ كلٍّ قومٍ بنبي ولكل نبي بجنس معين من الآيات إنما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك إظهارًا لكمال قدرتِه على هدايتهم لكن لا يهدي إلا من تعلّق بهدايته مشيئتُه التابعةُ لِحكَم استأثر بعلمها.

كمال العلم الإلهي

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ أي تحمِله فما موصولةٌ أريد بها ما في بطنها من حين العُلوقِ إلى زمن الولادةِ [لا][١] بعد تكاملِ الخلقِ فقط، والعلمُ متعدٍّ إلى واحد، أو أيَّ شيءٍ تحملُ وعلى أي حال هو من الأحوال المتواردةِ عليه طورًا فطورًا فهي استفهاميةٌ معلقةٌ[٢] للعلم أو حملَها فهي مصدرية ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ أي تنقُصه وتزداده في **الجُثة** كالخَديج التام وفي **المدة** كالمولود في أقلِّ مدة الحملِ والمولود في أكثرها وفيما بينهما. قيل: إن الضحاك ولد في سنتين، وهرِمَ بن حيان في أربع ومن ذلك سُمِّي هرِمًا[٣]، وفي **العدد** كالواحد فما فوقه. يروى أن شريكًا كان رابعَ أربعةٍ، أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعدّيان كما في قوله تعالى: ﴿وغيض الماءُ﴾ [هود: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وازدادوا

---

(١) سقط في خ. (٢) في خ: متعلقة.

(٣) هو هرم بن حيّان العبدي الأزدي من بني عبد القيس. قائد فاتح، من كبار النسّاك، من التابعين توفي في إحدى غزواته سنة (٢٦هـ).
ينظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).

تسعًا﴾ [الكهف، الآية ٢٥] وقوله: ﴿ونزدادُ كيلَ بعيرٍ﴾ [يوسف، الآية ٦٥] أو لازمان قد أسندا إلى الأرحام مجازًا وهما لما فيها ﴿وكل شيء﴾ من الأشياء ﴿عنده بمقدار﴾ بقدر لا يمكن تجاوزُه عنه كقوله: ﴿إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر﴾ [القمر، الآية ٤٩] فإن كل حادثٍ من الأعيان والأعراضِ له في كل مرتبةٍ من مراتب التكوينِ ومباديها وقتٌ معينٌ وحالٌ مخصوص لا يكاد يجاوزه، والمرادُ بالعندية الحضورُ العلميُّ بل العلمُ الحضوريُّ فإن تحقيقَ[1] الأشياءِ في أنفسها في أي مرتبةٍ كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علمٌ له بالنسبة إلى الله عز وجل.

﴿عالم الغيب﴾ أي الغائبِ عن الحس ﴿والشهادة﴾ أي الحاضرِ له عبر عنهما بهما مبالغةً، وقيل: أريد بالغيب المعدومُ[2] وبالشهادة الموجودُ وهو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أو خبرٌ بعد خبر، وقرئ[3] بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى: ﴿الله يعلم﴾ ... إلخ ﴿الكبير﴾ العظيمُ الشأنِ الذي كلُّ شيء دونه ﴿المتعال﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته أو المنزَّهُ عن نعوت المخلوقات.

وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوالِ الإنسان في مراتبِ فطرتِه ومحيطٌ بعالَمي[4] الغيب والشهادة بيّن أنه تعالى عالمٌ بجميع ما يأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لا فرق بالنسبة إليه بين السرِّ والعلن فقال: ﴿سواء منكم من أسر القول﴾ في نفسه ﴿ومن جهر به﴾ أظهره لغيره ﴿ومن هو مستخف﴾ مبالغٌ في الاختفاء كأنه مختفٍ ﴿بالليل﴾ وطالبٌ للزيادة ﴿وسارب﴾ بارزٌ يراه كلُّ أحد ﴿بالنهار﴾ من سرَب سروبًا أي برَز وهو عطفٌ على مَنْ هو مستخفٍ أو على مستخف و(من) عبارةٌ عن الاثنين كما في قوله: [الطويل]

[تعالَ][5] فإنْ عاهدتَني لا تخونني نكنْ مثل [مَنْ][6] يا ذئبُ يصطحبانِ[7]

---

(١) في خ: تحقق.
(٢) في خ: العدوم.
(٣) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٠).
(٤) في خ: بعالم.
(٥) سقط في خ.
(٦) سقط في خ.
(٧) البيت للفرزدق في ديوانه (٢/ ٣٢٩)، وتخليص الشواهد ص (١٤٢)، والدرر (١/ ٢٨٤)، وشرح =

كأنه قيل: سواءٌ منكم اثنان مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار، والاستواءُ وإن أسند إلى من أسرّ ومن جهَر وإلى المستخفي والساربِ لكنه في الحقيقة مسنَدٌ إلى ما أسّره وما جهرَ به أو إلى[١] الفاعل من حيث هو فاعلٌ كما في الأخيرين، وتقديمُ الإسرارِ والاستخفاءِ لإظهار كمالِ علمِه تعالى فكأنه في التعلق بالخفيات أقدمُ منه بالظواهر وإلا فنِسبتُه إلى الكل سواءٌ لما عرَفته آنفًا.

﴿له﴾ أي لكلٍّ ممن أسرّ أو جهر والمستخفي أو السارب ﴿معقبات﴾ ملائكةٌ تعتقِبُ[٢] في حفظه جمعُ معقّبة من عقّبه مبالغةُ عقَبه إذا جاء على عقِبه كأن بعضَهم يعقُب بعضًا أو لأنهم يعقُبون أقوالَه وأفعاله فيكتُبونه أو اعتقب فأُدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة، أو المرادُ بالمعقّبات الجماعاتُ، وقرئ[٣] معاقيبُ جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من إحدى القافين ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ من جميع جوانبِه أو من الأعمال ما قدَّم وأخَّر ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفارِ له أو يحفظونه من المضارّ أو يراقبون أحوالَه من أجل أمر الله تعالى، وقد قرئ[٤] به وقيل: (من) بمعنى الباء، وقيل: من أمر الله صفةٌ ثانيةٌ لمعقّبات، وقيل: المعقّبات الحرّاسُ والجلاوِزةُ[٥] حولَ السلطان يحفَظونه في توهّمه من قضاء الله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من النعمة والعافية ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الأعمال الصالحةِ أو ملَكاتها التي هي فطرةُ الله التي فطرَ

= أبيات سيبويه (٢/ ٨٤)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٥٣٦)، والكتاب (٢/ ٤١٦)، ومغني اللبيب (٢/ ٤٠٤)، والمقاصد النحوية (١/ ٤٦١)، وبلا نسبة في الخصائص (٢/ ٤٢٢)، وشرح الأشموني (١/ ٦٩)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٨٢٩)، وشرح المفصل (٢/ ١٣٢، ٤/ ١٣)، والصاحبي في فقه اللغة ص(١٧٣)، ولسان العرب (منن)، والمحتسب (١/ ٢١٩)، والمقتضب (٢/ ٢٩٥)، (٣/ ٢٥٣).

(١) في خ: من.

(٢) في خ: تعتب.

(٣) قرأ بها: عبيد الله بن زياد.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٩١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٢).

(٤) «بأمر الله» قرأ بها: علي، وابن عباس، وعكرمة، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وأبو عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٢)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٧٩)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٥).

(٥) الجلواز بالكسر الشرطي.
ينظر: تاج العروس (١٥/ ٦٦).

الناس عليها إلى أضدادها ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءًا﴾ لسوء اختيارِهم واستحقاقِهم لذلك ﴿فلا مرد له﴾ فلا ردَّ[١] له، والعاملُ في (إذا) ما دل عليه الجوابُ ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ يلي أمرَهم ويدفع عنهم السوءَ الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم، وفيه دِلالةٌ على أن تخلّف مرادِه تعالى مُحالٌ، وإيذانٌ بأنهم بما باشروه من إنكار البعثِ واستعجال السيئة واقتراحِ الآية قد غيَّروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلولَ غضبِ الله تعالى وعذابِه.

﴿هو الذي يريكم البرق خوفًا﴾ من الصاعقة ﴿وطمعًا﴾ في المطر، فوجهُ تقديم الخوفِ على الطمع ظاهر لما أن المَخوفَ عليه النفسُ أو الرزق العتيدُ والمطموعُ فيه الرزقُ المترقَّبُ، وقيل: الخوف أيضًا من المطر لكنْ الخائفُ منه غيرُ الطامع فيه كالخزّاف والحرّاث، ويأباه الترتيبُ اللهم إلا أن يتكلف ما أشير إليه من أن المَخوفَ عتيدٌ والمطموعَ فيه مترقَّبٌ، وانتصابُهما [إما على المصدرية أي فتخافون خوفًا وتطمعون طمعًا أو على الحالية][٢] من البرق أو المخاطبين بإضمار ذوي أو بجعل المصدرِ بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغةً أو على العِلّية بتقدير المضاف أي إرادةَ خوفٍ وطمعٍ، أو بتأويل الإخافة والإطماع ليتّحد فاعلُ العِلة والفعل المعلّل. وأما جعلُ المعللِ هي[٣] الرؤية التي تتضمنها[٤] الإرادةُ، على طريقة قول النابغة: [الطويل]

وحلّت بيوتي في يَفاعٍ ممنَّعٍ ... تَخال به راعي الحَمولةِ طائرا

حِذارًا على ألا يُنال معاوني[٥] ... ولا نِسوتي حتى يمُتْن حرائرا[٦]

---

(١) في خ: مرد.

(٢) سقط في خ.

(٣) في خ: في.

(٤) في خ: يتضمنها.

(٥) في خ: معاد في.

(٦) ينظر البيتان في: ديوانه، ص (٧٩)، وتخليص الشواهد، ص (٤٣٧)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٢٣٠)، وشرح المفصل (٢/ ٥٦)، والكتاب (١/ ٣٦٨)، وبلا نسبة في شرح قطر الندى، ص (١٧٢) (البيت الأول فقط)، ولسان العرب (حمل) (البيت الأول فقط). ويروى صدر البيت الثاني: حذاراً على أن لا تُصاب مقادتي.

أي أحللت بيوتي حِذارًا، فلا سبيل إليه لأن ما وقع في معرِض العلةِ الغائية لا سيما الخوفُ لا يصلح علةً لرؤيتهم [﴿وينشئ السحاب﴾][١] الغمامَ المنسحبَ في الجو[٢] ﴿الثقال﴾ بالماء وهي جمعُ ثقيلةٍ وُصف بها السحابُ لكونها اسمَ جنسٍ في معنى الجمع والواحدةُ سحابة، يقال: سحابةٌ ثقيلة وسحاب ثِقال، كما يقال: امرأة كريمة ونسوة كرام ﴿ويسبح الرعد﴾ أي سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿بحمده﴾ أي يضِجّون بسبحان الله والحمد لله وإسنادُه إلى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعدُ نفسه على أن تسبيحه عبارةٌ عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضلِه المستوجبِ لحمده. وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**سُبحانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحمدِهِ**» وإذا اشتد يقول: «**اللهم لا تقتُلْنا بغضبك ولا تُهلِكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك**»[٣]. وعن علي رضي الله عنه: «سبحان من سبَّحْتَ له»[٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود سألت النبيَّ عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال: «**ملَكٌ من الملائكة موكلٌ بالسحاب معه مخاريقُ من نار يسوق بها السحابَ**»[٥] وعن الحسن: «خلقٌ من خلق الله تعالى ليس بملك» ﴿والملائكة﴾ أي تسبح الملائكة ﴿من خيفته﴾ من هيبته وإجلالِه جل جلاله، وقيل: الضمير للرعد.

﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ فيُهلكه بذلك ﴿وهم﴾ أي الكفرةُ

---

(١) سقط في خ.

(٢) زاد في خ: وينشئ السحاب.

(٣) قلت هما حديثان: الأول: رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٣٨٩) برقم (٢٠٢٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: أنه ﷺ كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده».

والثاني: أخرجه أحمد (٢/ ١٠٠)، والترمذي (٥/ ٥٠٣) كتاب الدعوات، باب: ما يقول إذا سمع الرعد، برقم (٣٤٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٢١) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- مرفوعًا بلفظ: كان النبي ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: اللهم لا تقتلنا بصعقك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك.

قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٣٨٩) برقم (٢٠٢٦١) من قول علي رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٤) كتاب تفسير القرآن، باب: سورة الرعد، برقم (٣١١٧) والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٣٣٦) برقم (٩٠٧٢) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

قال الترمذي: حديث حسن غريب.

المخاطبون في قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرقَ﴾ وقد التُفت إلى الغَيبة إيذانًا بإسقاطهم عن[١] درجة الخِطاب وإعراضًا عنهم وتعديدًا لجناياتهم لدى كلِّ من يستحق الخطابَ كأنه قيل: هو الذي يفعل أمثالَ هذه الأفاعيلِ العجيبةِ من إراءة البرقِ وإنشاء السحابِ الثقالِ وإرسالِ الصواعقِ الدالةِ على كمال علمِه وقدرتِه ويعقِلُها مَنْ يعقِلها من المؤمنين، أو الرعدُ نفسه أو الملكُ الموكلُ به والملائكةُ ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوفِ من هيبته تعالى وهم أي الكفرة الذين حُكيت هَناتُهم مع ذلهم وهوانهم وحقارةِ شأنهم **﴿يجادلون في الله﴾** أي في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من إنكار البعثِ واستعجالِ العذاب استهزاءً واقتراحِ الآيات، فالواو لعطف الجملةِ على ما قبلها من قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق﴾ [الرعد: ١٢] إلخ، أو على قوله: ﴿الله يعلم ما تحمل﴾ [الرعد، الآية ٨] إلخ، وأما العطفُ على قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ [الرعد، الآية ٧] كما قيل فلا مجال له لأن قوله تعالى: ﴿الله يعلم﴾ إلخ، استئنافٌ لبيان بطلانِ قولِهم ذلك ونظائرِه من استعجال العذابِ وإنكار البعثِ قاطعٌ لعطف ما بعده على ما قبله، وقيل: للحال أي فيصيب بالصواعق من يشاء وهم في الجدال.

(وقد أريد به ما أصاب «أربدَ بنَ ربيعةَ» أخا لبيد فإنه أقبل مع «عامر بن الطفيل» إلى رسول الله ﷺ يبغيانه الغوائلَ فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالسٌ في نفر من الأصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر، وكان من أجمل الناسِ، وقد كان أوصى إلى أربد أنه إذا رأيتَني أكلم محمدًا عليه الصلاة والسلام[٢] [فدُرْ من خلفه واضرِبْه بالسيف، فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام][٣] فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرًا فحبسه[٤] الله تعالى فلم يقدِر على سلّه وجعل[٥] عامرٌ يومئ إليه فرأى النبيُّ عليه الصلاة والسلام الحالَ، فقال:

---

(١) في خ: من.
(٢) زاد في خ: فاخترط سيفك واضربه به.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: فحسبه.
(٥) في خ: وحبل.

«اللهم اكفِنيهما بما شئت» فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقةً في يوم صحْوٍ صائفٍ فأحرقتْه وولى عامرٌ هاربًا فنزل في بيت امرأة سَلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحَه وتغيّر لونُه وركب فرسه فجعل يركُض في الصحراء ويقول: ابرُزْ يا ملكَ الموت، ويقول الشعر، ويقول: واللاتِ لئن أصْحر لي محمد وصاحبُه، يعني ملك الموت، لأنفذتهما برمحي، فأرسل الله تعالى ملكًا فلطَمه بجناحه فأرداه في التراب فخرجت على ركبته في الوقت غُدةٌ عظيمة فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول: غُدة كغدة البعير وموتٌ في بيت [سَلولية][1]، ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره). وقيل: أريد به[2] ما روي عن الحسن (أنه كان رجلٌ من طواغيت العرب فبعث النبيُّ عليه الصلاة والسلام نفرًا من أصحابه يدعونه إلى الله عز وجل، فقال لهم: أخبروني عما تدعونني إليه ما هو ومم هو؟ من ذهب، أم من فضة، أم من نحاس، أم من حديد، أم من دُرّ؟ فاستعظموا مقالتَه[3] فرجعوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ما رأينا رجلًا أكفرَ قلبًا ولا أعتى على الله منه، فقال عليه الصلاة والسلام: **«ارجُعوا إليه»** فما زاد إلا مقالتَه الأولى وأخبثَ، فرجعوا إليه عليه الصلاة والسلام وأخبَروه بما صنع، فقال عليه الصلاة والسلام: **«ارجِعوا إليه»** فبينما هم عنده ينازعونه[4] إذ ارتفعت سحابةٌ ورعَدت وبرِقت ورمَتْ بصاعقة [فاحترق الكافرُ][5] فجاءوا يسعَوْن ليخبروه[6] عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الأصحاب فقالوا: احترق صاحبُكم، قالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أُوحيَ إلى النبي ﷺ)[7]. **﴿وهو شديد المحال﴾** أي والحالُ أنه شديدُ المماحلة والمماكرةِ لأعدائه، من مَحَله إذا كاده وعرّضه للهلاك، ومنه تمحّل إذا تكلّف استعمال الحِيل، وقيل: هو مُحالٌ من المَحْل بمعنى القوة، وقيل: مُحوّل من الحول أو الحيلة أُعلَّ على غير قياس، ويعضُده

---

(١) سقط في خ.
(٢) وقد ذهب قوله مثلاً بين الناس، وهو يقال لمن اجتمع عليه شرَّان.
(٣) زاد في خ: الأولى وأخبث.
(٤) في خ: ينازعه.
(٥) سقط في خ.
(٦) في خ: يخبروه.
(٧) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٢٨٠).

أنه قرئ[١] بفتح الميم على أنه مَفعَل من حال يحول إذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلًا في القوة والقدرة كقولهم: فساعدُ الله أشدُّ وموساه أحدّ.

الحق لله

﴿**له دعوة الحق**﴾ أي الدعوةُ الثابتة الواقعة في محلها المجابةُ عند وقوعِها، والإضافةُ للإيذان بملابستها للحق واختصاصِها به وكونِه بمعزل من شائبة البطلانِ والضَّياع والضلال كما يقال كلمةُ الحق، وقيل: له دعوةُ الله سبحانه أي الدعوةُ اللائقة بحضرته كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «**فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله**»[٢] والتعرضُ لوصف الحقّية لتربية معنى الاستجابةِ، والأولى هو الأولُ[٣] لقوله تعالى: ﴿وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلال﴾ [الرعد: ١٤] وتعلقُ الجملتين بما قبلهما من حيث إن إهلاكَ أربد وعامرٍ مِحالٌ من الله تعالى وإجابةٌ لدعوة رسول الله ﷺ عليهما إن كانت الآية نزلت في شأنهما أو من حيث إنه وعيدٌ للكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحالِه بهم وتحذيرٌ لهم بإجابة دعوتِه عليهم ﴿**والذين يدعون**﴾ أي الأصنامَ الذين يدعوهم المشركون فحُذف العائد ﴿**من دونه**﴾ من دون الله عز وجل ﴿**لا يستجيبون لهم بشيء**﴾ من طلباتهم ﴿**إلا كباسط كفيه إلى الماء**﴾ أي [إلا استجابةً][٤] كائنة كاستجابة الماء لمن بسَط كفيه إليه من بعيد، فالاستجابةُ مصدرٌ من المبني للفاعل على ما يقتضيه الفعلُ الظاهر أعني [لا يستجيبون، ويجوز أن يكون من المبنيِّ للمفعول ويُضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدرِ من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجودًا وعدمًا،

---

(١) قرأ بها: الضحاك، والأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٥٣)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٨٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٩) كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي، برقم (١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥) كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية، برقم (١٥٥/ ١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) في خ: الأولى.

(٤) في خ: الاستجابة.

فكأنه قيل][(١)]: لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم إلا استجابةً كائنة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء كما في قوله: [الطويل]

وعضةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم تدَعْ ... من المال (إلا مُسْحتٌ)[(٢)] أو مجلِّفُ[(٣)]

أي لم تدع فلم يبق إلا مسحتٌ أو مجلِّف ﴿ليبلغ﴾ أي الماءُ بنفسه من غير أن يؤخذ بشيء من إناء[(٤)] ونحوه ﴿فاه وما هو﴾ أي الماء ﴿ببالغه﴾ ببالغ فيه أبدًا لكونه جمادًا لا يشعُر بعطشه ولا ببسط يدِه إليه فضلًا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه، شبّه حالُ المشركين في عدم حصولهم[(٥)] في دعاء آلهتِهم على شيء أصلًا وركاكةِ رأيهم في ذلك بحال عطشانَ هائمٍ لا يدري ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصولَه إلى فيه من غير ملاحظةِ التشبيه في جميع مفرداتِ الأطراف، فإن الماءَ في نفسه شيءٌ نافع بخلاف آلهتِهم، والمرادُ نفيُ الاستجابةِ [رأسًا][(٦)] إلا أنه قد أُخرج الكلامُ مُخرج التهكم بهم فقيل: لا يستجيبون لهم شيئًا

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: الأمسحة.
(٣) تقدم.
(٤) في خ: الإناء.
(٥) وهذا التشبيه من التشبيه التمثيلي عند جميع البلاغيين، وذلك لتركيب الوجه وعقليته، والناس في التفريق بين التشبيه والتمثيل على ثلاث مذاهب فالإمام عبد القاهر يرجع التمثيل إلى ما كان وجه الشبه فيه يحتاج إلى ضرب من التأول دون نظر إلى تركيب الوجه أو عدمه، والإمام السكاكي يرجع التمثيل إلى تركيب الوجه مع كونه عقليًا محضًا، والخطيب يرجع التمثيل إلى ما كان وجه الشبه فيه مركبًا، ووجه مركب وعقلي فهو من التمثيل على جميع المذاهب، وهو تمثيل مع ما فيه من كناية وتلميح، وقد ذكر الشهاب الخفاجي وجه هذا التلميح فذكر أن وجه الشبه عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة، والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل أبرز في معرض التهكم، حيث أثبت للماء استجابة زيادة في التسخير والتحسير، ويذكر الرماني وجهًا آخر يختلف فيه عن كل البلاغيين، وينفرد به فيقول وقد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة بما يفوت درك الطلب، والغرض من هذا التشبيه بيان عجز الأصنام عن النفع.
ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٨٢)، وحاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي (٥/ ٢٢٩)، وروح المعاني للألوسي (١٣/ ١٢٤)، التحرير والتنوير (١٣/ ١٠٧).
(٦) سقط في خ.

من الاستجابة إلا استجابةً كائنة في هذه الصورةِ التي ليست فيها شائبةُ الاستجابة قطعًا فهو في الحقيقة من باب التعليقِ بالمحال، وقرئ تدعون[(١)] بالتاء وكباسطٍ[(٢)] بالتنوين ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي ذهاب وضَياعٍ وخَسار.

﴿ولله﴾ وحده ﴿يسجد﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيرِه [لا][(٣)] استقلالًا ولا اشتراكًا فالقصرُ ينتظم القلبَ والإفراد ﴿من في السموات والأرض﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طوعًا وكرها﴾ أي طائعين وكارهين وانقيادَ طوعٍ وكُرهٍ، أو حالَ طوعٍ وكره، فإن خضوعَ الكلّ لعظمة الله عز وجل وانقيادَهم لإحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والإعدام شاءوا أو أبَوا، وعدمُ مداخلةِ حكمِ غيره بل غيرِ حكمِه تعالى في تلك الشؤون مما لا يخفى على أحد ﴿وظلالهم﴾ أي وتنقاد له تعالى ظلالُ مَنْ له ظلٌّ منهم أعني الإنسَ حيث تتصرف على مشيئته وتتأتّى لإرادته في الامتداد والتقلّص والفيء والزوال ﴿بالغدو والآصال﴾ ظرفٌ للسجود المقدّر أو حالٌ من الظلال، وتخصيصُ الوقتين بالذكر[(٤)] مع أن انقيادها متحققٌ في جميع أوقات وجودِها لظهور ذلك فيهما، والغدو جمع غَداة كفتيّ في جمع فتاة والآصالُ جمع أصيل، [وقيل: جمع أُصُل وهو جمعُ أصيل][(٥)]، وهو ما بين العصر والمغربِ، وقيل: الغدوّ مصدرٌ ويؤيده أنه قرئ[(٦)] والإيصالِ أي الدخول في الأصيل. هذا وقد قيل إن المرادَ حقيقةُ السجود فإن الكفرة، حال الاضطرارِ وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وكَرهًا﴾، يخُصّون السجودَ به سبحانه، قال تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفُلك دعُوا الله مخلصين له الدين﴾ [العنكبوت، الآية ٦٥] ولا يبعُد أن

---

(١) قرأ بها: اليزيدي، وأبو عمر، والدوري.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ٢٩).
(٢) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٧)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ٢٩).
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: ما يذكر.
(٥) سقط في خ.
(٦) قرأ بها: أبو مجلز.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٥)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٨٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٦).

يخلُق الله تعالى في الظلال أفهامًا وعقولًا بها تسجُد لله سبحانه كما خلقها (للجبال حتى)[١] اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها [آثارُ التجلّي كما قاله ابن الأنباري، ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهَد فيها][٢] من هيئة[٣] السجود تبعًا لأصحابها، وأنت خبير بأن اختصاصَ سجودِ الكافر حالة الضرورةِ والشدة [بالله][٤] سبحانه لا يُجدي فإن سجودَهم لأصنامهم حالةَ الرخاء مُخِل بالقصر المستفادِ من تقديم الجار والمجرور فالوجهُ حملُ السجودِ على الانقياد، ولأن تحقيقَ انقيادِ الكل في الإبداع والإعدامِ له تعالى أدخلُ في التوبيخ على اتخاذ أولياءَ من دونه من تحقيق سجودِهم له تعالى، وتخصيصُ انقيادِ العقلاءِ بالذكر مع كون غيرِهم أيضًا كذلك لأنهم العُمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل:

الحجة على المشركين

﴿**قل من رب السموات والأرض**﴾ فإنه لتحقيق أن خالقَهما ومتولّيَ أمرهما[٥] مع ما فيهما على الإطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى: ﴿**قل الله**﴾ أمرٌ بالجواب من قِبله عليه الصلاة والسلام إشعارًا بأنه متعيِّن للجوابية فهو والخصمُ في تقريره سواءٌ، أو أمرٌ بحكاية اعترافِهم إيذانًا بأنه أمرٌ لا بد لهم من ذلك كأنه قيل: احْكِ اعترافَهم فبكِّتْهم بما يلزمهم من الحجة وألقِمْهم الحجَر، أو أمرٌ بتلقينهم ذلك إن تلعثموا في الجواب حذرًا من الإلزام فإنهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرون على إنكاره ﴿**قل**﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا ﴿**أفاتخذتم**﴾ لأنفسكم والهمزةُ لإنكار الواقع كما في قولك: أضربت أباك؟ لا لإنكار الوقوع كما في قولك: أضربت[٦] أبي؟ والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزةِ أي أعلمتم أن ربهما هو الله الذي ينقاد لأمره مَنْ فيهما كافةً فاتخذتم عَقيبَه ﴿**من دونه أولياء**﴾ عاجزين ﴿**لا يملكون لأنفسهم نفعًا**﴾ يستجلبونه ﴿**ولا ضرًا**﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلًا عن القدرة على جلب

---

(١) في خ: للحيال.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: هيبة.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: أمورهما.
(٦) في خ: أضرب.

النفعِ لغيره ودفع الضررِ عنه لا على أن يكون الإنكارُ متوجِّهًا إلى المعطوفَين معًا كما في قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ [البقرة: ٤٤] إذا قُدّر المعطوف عليه ألا تسمعون، بل إلى ترتب الثاني على الأول مع وجوب أن يترتبَ عليه نقيضُه [كما إذا قدّر أتسمعون][١]، والمعنى أبعد أن علِمتم أن ربَّهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياءَ عجَزَةً؟ والحال أن قضيةَ العلم بذلك إنما هو الاقتصارُ على تولّيه فعكستم الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربِّه أفتتخذونه وذرّيتَه أولياءَ من دوني﴾ [الكهف: ٥٠] ووصفُ الأولياء هاهنا بعدم المالكية للنفع والضر في ترشيح الإنكارِ وتأكيدِه كتقييد الاتخاذِ هناك بالجملة الحالية أعني قولَه تعالى: ﴿وهم لكم عدوّ﴾ فإن كلاًّ منهما مما ينفي الاتخاذَ المذكور ويؤكد إنكاره.

﴿**قل**﴾ تصويرًا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿**هل يستوي الأعمى**﴾ الذي هو المشركُ الجاهل بالعبادة ومستحقِها ﴿**والبصير**﴾ الذي هو الموحِّد العالم بذلك[٢] أو الأولُ عبارةٌ عن المعبود الغافل والثاني إشارةٌ إلى المعبود العالِم بكل شيء ﴿**أم هل تستوي الظلمات**﴾ التي هي عبارةٌ عن الكفر والضلال ﴿**والنور**﴾ الذي هو عبارةٌ عن التوحيد والإيمان، وقرئ[٣] بالياء.

---

(١) سقط في خ.

(٢) يشير الشيخ إلى أن في الآية أربع استعارات تصريحية، فقد استعار الأعمى للكافر، والظلمات للكفر واستعار البصير للمؤمن والنور للإيمان، في مقابل بديع معجز، وإيجاز قاطع للأطماع وقاهر للقوى، فقد اختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر والظلمة والنور لتمام المناسبة، لأن حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات وحال المؤمنين كحال البصر في العلم، وكحال النور في الإفاضة والإرشاد، وقد جمع الظلمات وأفرد النور لأن الكفر أنواع متعددة، والإيمان شيء واحد، فلذلك أفرد النور، ومن جلال هذه الاستعارات أنها جاءت في أسلوب الطباق وهو في عرف البلاغيين الجمع بين متضادين أي معنيين متقابلين في الجملة.
ينظر: الشهاب على البيضاوي (١/ ٣٣٨)، وشرح عقود الجمان، (٧٩١)، وشروح التلخيص (٤/ ٦٠)، والمطول (٤١٧)، والطراز في علوم البلاغة للعلوي (٣/ ٣٣٤)، وتلخيص المفتاح (٢٩٥)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٤٩٨)، والتحرير والتنوير (١٣/ ١١٤).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، والأعمش، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٥)، والبحر المحيط (٥/ ٣٧٩)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٣٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٣٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٦٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٨٤).

ولمّا دل النظمُ الكريم على أن الكفرةَ فيما[١] فعلوا من اتخاذ الأصنامِ أولياءَ من دون الله سبحانه في الضلال المحضِ والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانُه على أحد وأنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلًا وليس لهم في ذلك شبهةٌ تصلح أن تكون منشأً لغلطهم وخطئهم[٢] فضلًا عن[٣] الحجة أُكّد ذلك فقيل: ﴿أم جعلوا لله﴾ أي بل أجعلوا[٤] له ﴿شركاء خلقوا كخلقه﴾ سبحانه، والهمزةُ لإنكار الوقوعِ مع وقوعه وقوله: ﴿خلقوا كخلقه﴾ هو الذي يتوجه إليه الإنكار وأما نفسُ الجعل فهو واقعٌ لا يتعلق به الإنكارُ بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاءَ خلقوا كخلقه ﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ بسبب ذلك وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادةَ كما استحقها ليكونَ ذلك منشأً لخطئهم بل إنما جعلوا له شركاءَ ما هو بمعزل من ذلك بالمرة، وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيِهم والتهكم بهم ﴿قل﴾ تحقيقًا للحق وإرشادًا لهم إليه ﴿الله خالق كل شيء﴾ كافةً لا خالقَ سواه فيشاركَه في استحقاق العبادة ﴿وهو الواحد﴾ المتوحّدُ بالألوهية المتفرّدُ بالربوبية ﴿القهار﴾ لكل ما سواه فكيف يُتوهّم أن يكون له شريكٌ؟ وبعد ما مُثّل المشركُ والشركُ بالأعمى والظلماتِ، والموحدُ والتوحيدُ بالبصير والنور مُثّل الحقُّ الذي هو القرآنُ العظيم، في فيضانه من جناب القدسِ على قلوب خاليةٍ عنه متفاوتةِ الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظةً وحفظًا وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً وفي ثباته فيهما مع كونه مُمِدًّا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمالِ المرضيّة، بالماء النازلِ من السماء السائلِ في أودية يابسةٍ لم تجرِ عادتُها [بذلك][٥] سيلانًا مقدرًا بمقدار اقتضتْه الحكمةُ في إحياء الأرضِ وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافعُ الناس، وفي كونه حليةً تتحلّى به النفوسُ وتصل[٦] إلى البهجة الأبدية ومتاعًا يُتمتّع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة

(١) في خ: بما.
(٢) في خ: وخطابهم.
(٣) في خ: من.
(٤) في خ: جعلوا.
(٥) سقط في خ.
(٦) في خ: يصل.

وسائر الفلزّات التي يُتخذ منها أنواعُ الآلات والأدواتِ وتبقى منتَفعًا بها مدةً طويلةً، ومُثّل الباطلُ الذي ابتُليَ به الكفرةُ لقصور نظرِهم بما يظهر فيهما من غير مداخلةٍ له فيهما وإخلالٍ بصفائهما[١] من الزبد الرابي فوقهما المضمحلّ سريعًا فقيل:

﴿أنزل من السماء﴾ أي من جهتها[٢] ﴿ماء﴾ أي كثيرًا أو نوعًا منه وهو ماءُ المطر ﴿فسالت﴾ بذلك ﴿أودية﴾ واقعةٌ في مواقعه لا جميعُ الأودية إذ الأمطارُ (لا تستوعبُ)[٣] الأقطارَ وهو جمعُ وادٍ وهو [مفرَجٌ][٤] بين جبال (أو تلالٍ)[٥] أو آكام على الشذوذ كنادٍ وأندية وناج وأنجية، قالوا: وجهُه أن فاعلًا يجيء بمعنى فعيل، كناصر ونصير، وشاهد وشهيد، وعالم وعليم، وحيث جُمع فعيل على أفعلة كجريب وأجرِبة جُمع فاعلٌ أيضًا على أفعلة، فإن أريد بها ما يسيل فيها مجازًا فإسنادُ السيلانِ إليها حقيقيٌّ وإن أريد معناها الحقيقيُّ فالإسنادُ مجازيٌّ كما في جرى النهرُ، وإيثارُ التمثيل بها على الأنهار المستمرةِ الجريانِ لوضوح المماثلةِ بين شأنها وشأنِ ما مُثّل بها كما أشير إليه ﴿بقدرها﴾ أي سالت ملتبسةً بمقدارها الذي عينه الله تعالى واقتضتْه حكمتُه في نفع الناس أو بمقدارها المتفاوتِ قلةً وكثرةً بحسب تفاوتِ محالّها صِغَرًا وكِبَرًا لا بكونها مالئةً لها منطبقةً عليها بل بمجرد قلّتها بِصغرها المستلزِم لقلة مواردِ الماء وكثرتها بكِبَرها المستدعي لكثرة الموارد، فإن موردَ السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ من مورد السيل الجاري في الوادي الكبير، هذا إن أريد بالأودية ما يسيل فيها، أما إن أريد بها معناها الحقيقيُّ فالمعنى سالت مياهُها بقدر تلك الأوديةِ على نحو ما عرفته آنفًا، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام ويراد بقدَرها ما ذكر أولًا من المعنيين ﴿فاحتمل السيل﴾ الجاري في تلك الأودية أي حملَ معه ﴿زبدًا﴾ أي غُثاء ورَغوةً، وإنما وُصف ذلك بقوله تعالى ﴿رابيًا﴾ أي عاليًا منتفخًا فوقه بيانًا لما أريد بالاحتمال المحتمَلِ [لكون الحميلِ غيرَ

(١) في خ: بصفاتهما.
(٢) في خ: جهتهما.
(٣) في خ: تسترتب.
(٤) سقط في خ.
(٥) في خ: أخر أو تلال.

طافٍ كالأشجار الثقيلة وإنما لم يُدفع ذلك الاحتمالُ][1] بأن يقال: فاحتمل السيلُ فوقه للإيذان بأن تلك الفوقيةَ مقتضى شأنِ الزبدِ [لا][2] من جهة المحتمَل تحقيقًا للمماثلة بينه وبين ما مُثّل به من الباطل الذي شأنُه الظهورُ في بادي الرأي من غير مداخلةٍ في الحق ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ أي: يفعلون الإيقادَ عليه كائنًا في النار، والضميرُ للناس أُضمر مع عدم سبق الذكرِ لظهوره وقرئ[3] بالخطاب ﴿ابتغاء حلية أو متاع﴾ أي لطلب اتخاذِ حليةٍ وهي ما يُتزيّن ويُتجمّل به كالحِليِّ المتخَذَة من (الذهب والفضة)[4] أو اتخاذِ متاعٍ وهو ما يتمتع به من الأواني والآلات المتخَذةِ من الرصاص والحديد وغيرِ ذلك من الفِلزّات ﴿زبد﴾ خبث ﴿مثله﴾ مثلُ ما ذكر من زبد الماء في كونه رابيًا فوقه، فقوله: زبدٌ مبتدأٌ خبرُه الظرفُ المقدم، و(من) ابتدائية دالةٌ على مجرد كونِه مبتدأ وناشئًا منه لا تبعيضيةٌ معرِبة عن كونه بعضًا منه كما قيل، لإخلال ذلك بالتمثيل، وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرضِ لما في حيّز الصلةِ من إيقاد النار عليه جرْيٌ على سنن الكِبرياء بإظهار التهاونِ به كما في قوله تعالى: ﴿فأوقِدْ لي يا هامانُ على الطين﴾ [القصص، الآية ٣٨] وإشارةٌ إلى كيفية حصولِ الزبدِ منه بذوبانه، وفي زيادة (في النار) إشعارٌ بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصولِ الزبد كما أشير إليه، وعدمُ التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخلِ ذلك العنوانِ في التمثيل كما أن لعنوان إنزالِ الماءِ من السماء دخلًا فيه حسبما فصّل فيما سلف بل له إخلالٌ بذلك.

﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك الضربِ البديعِ المشتملِ على نُكت رائقةٍ ﴿يضرب الله الحق والباطل﴾ أي مثَلَ الحق ومثل الباطل، والحذفُ[5] للإنباء عن كمال التماثل

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، والحسن، ويعقوب، وأبو جعفر، والأعرج، والمطوعي، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٨١)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٠٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥٨)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٨٢)، وتفسير الرازي (١٩/ ٣٦).
(٤) في خ: الرصاص والحديد.
(٥) أراد الشيخ أن الآية من التشبيه التمثيلي، وأكثر أهل العلم على أن التمثيلين تصوير للحق والباطل =

بين الممثَّل والممثلِ به كأنه المثَلَ المضروبَ عينُ[1] الحقِّ والباطلِ، وبعد تحقيق التمثيلِ مع الإيماء في تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوهٍ وآنقِها، حسبما أشير إليه في مواقعها ، بين عاقبةُ كل من الممثّلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاءِ تتمةً للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحقِّ الثابتِ والردْعِ عن الباطل الزائد فقيل: ﴿**فأما الزبد**﴾ من كلٍّ منهما ﴿**فيذهب جفاء**﴾ أي مرميًا به، وقرئ[2] جُفالًا والمعنى واحد ﴿**وأما ما ينفع الناس**﴾ منهما كالماء الصافي والفِلزِّ الخالص ﴿**فيمكث في الأرض**﴾ أما الماء فيثبت بعضُه في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرضِ إلى العيون والقنا والآبار وأما الفلزُّ فيصاغ من بعضه أنواعُ الحِليِّ ويتخذ من بعضه أصنافُ الآلات والأدوات فيُنتفع بكل من ذلك أنواعَ الانتفاعات مدةً طويلة، فالمرادُ بالمكث في الأرض ما هو أعمُّ من المكث في نفسها ومن البقاء في أيدي المتقلّبين فيها وتغييرُ ترتيبِ اللفِّ الواقعِ في الفذْلكة الموافقِ للترتيب الواقع في التمثيلِ لمراعاة الملاءمةِ بين حالتي الذهاب والبقاءِ وبين ذكرَيهما فإن المعتبَر إنما هو بقاءُ الباقي بعد ذهاب الذاهبِ لا قبله.

= لقوله: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، والأولى يسلك بيان السورة هو ما عزي إلى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾، قال: قرآنًا، وفي قوله: ﴿فسالت أودية﴾، قال: الأودية قلوب العباد، وقد فصل الفخر - رحمه الله - هذا التمثيل فقال: أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان. (ماء)، وهو القرآن والأودية قلوب العباد، وشبه القلوب بالأودية لأن القلوب تستقر فيها أنوار العلوم القرآنية.. كذا هاهنا بيان القرآن تختلط به شكوك وشبهات، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع، ويبقى العلم والدين والحكمة، فهذا هو تقدير هذا المثل، ووجه انطباق المثل على الممثل به، وما قال به الفخر هو ما يغري به السياق ويساعد عليه، وقد بين ابن عاشور ارتباط هذا التمثيل بأول السورة.

تكلم العلماء على فضل التمثيل وعلى الفرق بين التشبيه والتمثيل بما فصلنا في مواضع شتى.

ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٩/ ٢٢٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/ ١٢٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٣٦٤١)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر (١٠٨) وما بعدها.

(١) في خ: بين.

(٢) قرأ بها: رؤبة بن العجاج.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٨٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٦)، وتفسير الرازي (١٩/ ٣٧).

﴿كذلك يضرب الله﴾ أي مثلَ ذلك الضرب العجيبِ يضرب ﴿الأمثال﴾ في كل باب إظهارًا لكمال اللطفِ والعنايةِ في الإرشاد والهداية، وفيه تفخيمٌ لشأن هذا التمثيلِ وتأكيدٌ لقوله: ﴿كذلك يضرِب الله الحقَّ والباطل﴾ [الرعد: ١٣] إما باعتبار ابتناءِ هذا التمثيلِ الأول أو بجعل ذلك إشارةً إليهما جميعًا، وبعد ما بُيِّن شأنُ كل من الحق والباطلِ حالًا ومآلًا أكملَ بيانٍ شُرع في بيان حالِ أهلِ كل منهما مآلًا تكميلًا للدعوة ترغيبًا وترهيبًا فقيل:

جزاء المؤمنين والكافرين

﴿للذين استجابوا لربهم﴾ إذ دعاهم إلى الحق بفنون الدعوةِ التي من جملتها ضربُ الأمثال فإنه ألطفُ ذريعةٍ إلى تفهيم القلوب الغبيةِ وأقوى وسيلةٍ إلى تسخير النفوسِ الأبية، كيف لا وهو تصويرٌ للمعقول بصورة المحسوسِ وإبرازٌ لأوابد المعاني في هيئة المأنوس فأيُّ دعوةٍ أولى منه بالاستجابة والقَبول! ﴿الحسنى﴾ أي المثوبةُ الحسنى وهي الجنة ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ وعاندوا الحقَّ الجليَّ ﴿لو أن لهم ما في الأرض﴾ من أصناف الأموال ﴿جميعًا﴾ بحيث لم يشِذَّ منه شاذٌّ في أقطارها أو مجموعًا غيرَ متفرقٍ بحسب الأزمان ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ أي بما في الأرض ومثلَه معه جميعًا ليتخلّصوا عما بهم، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيانُ، فالموصولُ مبتدأٌ والشرطيةُ كما هي خبرُه لكن لا على أنها وُضعت موضِعَ السوأى فوقعت في مقابلة الحُسنى الواقعةِ في القرينة الأولى لمراعاة حسنِ المقابلة فصار كأنه قيل: وللذين لم يستجيبوا له السوأى كما يوهم، فإن الشرطيةَ وإن دلت على كمال سوءِ حالِهم لكنها بمعزل من القيام مقامَ لفظ السوأى مصحوبًا باللام الداخلةِ على الموصول أو ضميرِه، وعليه يدور حصولُ المرام، وإنما الواقعُ في تلك المقابلة سوءُ الحساب في قوله تعالى: ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وحيث كان اسمُ الإشارة الواقعُ مبتدأً في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقعِ مبتدأً في الجملة السابقة كان خبرُها أعني الجملةَ الظرفية خبرًا عن الموصول في الحقيقة ومبيِّنًا لإبهام مضمونِ الشرطيةِ الواقعةِ خبرًا عنه أولًا، ولذلك تُرك العطفُ فصار كأنه قيل: والذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحساب، وذلك في قوة أن يقال:

وللذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحساب مع زيادة تأكيدٍ فتم حسنُ المقابلة على[1] أبلغ وجهٍ وآكدِه، ثم بيِّن مؤدّىٰ ذلك فقيل: ﴿ومأواهم﴾ أي مرجعهم ﴿جهنم﴾ وفيه نوعُ تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة ﴿وبئس المهاد﴾ أي المستقرُّ، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ، وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ [الرعد، الآية ١٨] متعلقةٌ بقوله: ﴿يضرب الله الأمثال﴾ [الرعد، الآية ١٧] أي الأمثالَ السالفةَ وقوله: ﴿الحسنى﴾ صفةٌ للمصدر أي استجابوا الاستجابةَ الحسنى وقوله: ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ معطوفٌ على الموصول الأولِ، وقوله: لو أن لهم إلخ، كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان ما أُعدّ لغير المستجيبين من العذاب، والمعنى كذلك يضرب الله الأمثالَ للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي هما مثلا الفريقين. وأنت خبير بأن عنوانَ الاستجابة وعدمَها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمرُ التمثيل وأن الاستعمالَ المستفيضَ دخولُ اللامِ على من يُقصد تذكيره بالمثَل، نعم قد يُستعمل في هذا المعنى أيضًا كما في قوله سبحانه: ﴿ضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأةَ فرعون﴾ [التحريم، الآية ١١] ونظائرِه، على أن بعضَ الأمثالِ المضروبة لا سيما المثلُ الأخيرُ الموصول بالكلام ليس مثلَ الفريقين بل مثلٌ للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبًا لهم أيضًا بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضربُ الله الأمثالَ للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغيرِ المستجيبين فتأمل.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

(١) في خ: مع.

سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا
بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ
مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ
﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ
ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ
فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ
قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ
مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ
ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن
يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ
مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ
وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ
ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا
مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ
قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿أفمن يعلم أنّما أنزل إليك من ربك﴾ من القرآن الذي مُثّل بالماء المنزل من

السماء والإبريز الخالصِ في[1] المنفعة والجدوى ﴿**الحقُّ**﴾ الذي لا حق وراءه أو الحقُّ الذي أشير إليه بالأمثال المضروبة فيستجيبَ له ﴿**كمن هو أعمى**﴾ عمَى القلبِ لا يشاهده وهو نارٌ على علَمٍ ولا يقدر قدرَه وهو في أقصى مراتب العلوِّ والعِظَم فيبقى حائرًا في ظلمات الجهلِ وغياهبِ الضلال أو[2] لا يتذكر بما ضرب من الأمثال أي كمن لا يعلم ذلك! إلا أنه أريد زيادةُ تقبيحِ حالِه فعبر عنه بالأعمى، وإيرادُ الفاء بعد الهمزةِ لتوجيه الإنكار إلى ترتيب توهم المماثلةِ على ظهور حال كلٍّ منهما بما ضُرب من الأمثال وبين المصيرِ والمآل، كأنه قيل: أبعد ما بُين حالُ كل من الفريقين ومآلُهما يُتوهّم المماثلةُ بينهما ثم استؤنف فقيل: ﴿**إنما يتذكر**﴾ بما ذكر من المذكّرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائي ﴿**أولو الألباب**﴾ أي العقولِ الخالصةِ المبرّأة من مشايعة الإلْفِ ومعارضةِ الوهم.

صفات المؤمنين والكافرين

﴿**الذين يوفون بعهد الله**﴾ بما عقَدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا: بلى، أو ما عهِد الله عليهم في كتبه ﴿**ولا ينقضون الميثاق**﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقبِلوه من الإيمان بالله وغيرِه من المواثيق بينهم وبين الله وبين العبادِ وهو تعميمٌ بعد تخصيصٍ، وفيه تأكيدٌ للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ من الرحِم وموالاةِ المؤمنين والإيمانِ بجميع الأنبياء المجمعين على الحق من غير تفريقٍ بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاةُ جميعِ حقوقِ الناس في حقوق كل ما يتعلق بهم من الهرّ والدَّجاج ﴿**ويخشون ربهم**﴾ خشيةَ جلالٍ وهَيْبةٍ فلا يعصونه فيما أمر به ﴿**ويخافون سوءالحساب**﴾ فيحاسبون أنفسَهم قبل أن يحاسَبوا، وفيه دَلالةٌ على كمال فظاعتِه حسبما ذكر فيما قبل ﴿**والذين صبروا**﴾ على كل ما تكره النفسُ من الأفعال والتروك ﴿**ابتغاء وجه ربهم**﴾ طلبًا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا إلى جانب الخلقِ رياءً وسُمعةً ولا إلى جانب النفس زينةً وعُجْبًا، وحيث كان الصبرُ على الوجه المذكور مَلاكَ الأمرِ في كل ما ذكر من الصلاة السابقة واللاحقةِ أُورد على صيغة الماضي اعتناءً بشأنه

---

(١) في خ: و.
(٢) في خ: و.

ودِلالةً على وجوب تحققِه فإن ذلك مما لا بد منه إما في أنفس الصلات كما فيما عدا الأولى والرابعةِ والخامسةِ أو في إظهار أحكامِها كما في الصلات الثلاثِ المذكورات فإنها وإن استغنت عن الصبر في أنفسها حيث لا مشقةَ على النفس في الاعتراف بالربوبية والخشيةِ والخوف لكن إظهارَ أحكامِها والجريَ على موجبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه ﴿وأقاموا الصَّلاة﴾ المفروضة ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أي بعضَه الذي يجب عليهم إنفاقُه [﴿سرا﴾ لمن لم يُعرفْ بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاةِ أو عند إنفاقِه][1] وإعطائه مَنْ تمنعه المروءةُ من أخذه ظاهرًا ﴿وعلانية﴾ لمن لم يكن كما ذكر أو الأول في التطوع والثاني في الفرض.

﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي يُجازون الإساءةَ بالإحسان أو يُتْبعون الحسنةَ السيئة فتمحوها. عن ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرِهم[2]. وعن الحسن: إذا حُرموا أعطَوا وإذا ظُلموا عفَوا وإذا قُطعوا وصلوا[3]. وعن ابن كيسان: إذا أذنبوا تابوا. وقيل: إذا رأوا منكرًا أمروا بتغييره. وتقديمُ المجرور على المنصوب لإظهار كمالِ العنايةِ بالحسنة ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلةِ والملكات الجميلةِ وهو مبتدأٌ خبرُه الجملةُ الظرفية أعني قوله تعالى: ﴿لهم عقبى الدار﴾ أي عاقبةُ الدنيا وما ينبغي أن يكون مآلُ أمرِ أهلها وهي الجنة، وقيل: الجارُ والمجرور خبرٌ لأولئك و(عقبى الدار) فاعل الاستقرار وأيًا ما كان فليس فيه قصرٌ حتى يرِد أن بعضَ ما في حيز الصلةِ ليس من العزائم التي يُخلّ إخلالُها بالموصول إلى حسن العاقبة، والجملةُ خبرٌ للموصولات المتعاطفةِ[4]، صفاتٌ لأولي الألباب على طريقة المدحِ من غير أن يُقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخلٌ في التذكر ﴿جنات عدن﴾ بدلٌ من (عُقبى الدار) أو مبتدأٌ خبرُه ﴿يدخلونها﴾ والعدْنُ الإقامةُ ثم صار علمًا لجنة من الجنات أي جناتٌ يقيمون فيها، وقيل: هو بُطنانُ الجنة ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ جمعُ أبوَيْ كل واحد منهم فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وأزواجهم وذرياتهم﴾ وهو عطفٌ

---

(١) سقط في خ.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٤٩٥).
(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٢٨٦).
(٤) زاد في خ: واستئناف لبيان ما يستوجبوه من تلك الصفات وإن جعلت الموصولات.

على المرفوع في يدخلون، وإنما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر، أو مفعولٌ معه، والمعنى إنه يُلحق بهم مَنْ صلح من أهلهم وإن لم يبلُغْ مبلغَ فضلِهم تبعًا لهم تعظيمًا لشأنهم، وهو دليلٌ على أن الدرجةَ تعلو بالشفاعة وأن الموصوفَ بتلك الصفات يُقرن بعضُهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنةِ زيادةً في أُنسهم، وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوحِ والتحف قائلين: ﴿سلام عليكم﴾ بشارةٌ لهم بدوام السلامة ﴿بما صبرتم﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامةُ العظمى بما صبرتم أي بسبب صبركم أو بدلُ ما احتملتم من مشاقّ الصبرِ ومتاعبِه، والمعنى لئن تعِبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعةَ، وتخصيصُ الصبر بما ذكر من بين الصلاتِ السابقةِ لما قدّمناه من أن له دخلًا في كل منها ومزيةً زائدةً من حيث إنه ملاكُ الأمر في كل منها وأن شيئًا منها لا يعتد به إلا بأن يكون لابتغاء (وجهِ الربّ)[1] تعالى وتقدس ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي: فنعم عقبى الدارِ الجنةُ، وقرئ[2] بفتح النون والأصل نَعِم فسُكّن العين بنقل حركتها إلى النون تارة وبدونه أخرى. وعن النبي عليه السلام أنه كان يأتي قبورَ الشهداء على رأس كلّ حولٍ فيقول: «**سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عُقبى الدَّارِ**»[3] وكذا عن الخلفاء الأربعةِ رضوانُ الله عليهم أجمعين.

ناقضو العهد

﴿والذين ينقضون عهد الله﴾ أريد بهم مَنْ يقابل الأولين ويعاندهم في الاتصاف بنقائض صفاتِهم ﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعدما أوثقوه من الاعتراف والقَبول ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الإيمان بجميع الأنبياءِ المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم، ومن حقوق الأرحام وموالاةِ المؤمنين وغيرِ ذلك مما لا يراعون حقوقَه من الأمور المعدودةِ فيما سلف، وإنما لم

---

(١) في خ: لله.

(٢) قرأ بها: ابن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٧٨)، والدر المصون (٤/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٣) برقم (٦٧١٦)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٤٢٦) برقم (٢٠٣٤٥).

يتعرّض لنفي الخشيةِ والخوفِ عنهم صريحًا لِدلالة النقضِ والقطع على ذلك، وأما عدمُ التعرض لنفي الصبرِ المذكور فلأنه إنما اعتبر تحققُه في ضمن الحسناتِ المعدودةِ ليقَعْنَ معتدًّا بهن فلا وجه لنفيه عمّن بينه وبين الحسناتِ بعدُ المشرِقين، كما لا وجه لنفي الصلاةِ والزكاة ممن لا يحوم حول أصلِ الإيمان بالله تعالى فضلًا عن فروع الشرائعِ، وإن أريد بالإنفاق التطوعُ فنفيُه مندرجٌ تحت قطعِ ما أمر الله تعالى بوصله، وأما درءُ السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهرٌ مما سبق ولحِق فإن مَنْ يجازي إحسانَه عز وجل بنقض العهد ومخالفةِ الأمر ويباشر الفسادَ بدءًا حسبما يحكيه قوله عز وعلا: ﴿**ويفسدون في الأرض**﴾ أي بالظلم وتهييج الفتنِ كيف يتصور منه مجازاةُ الإساءة بالإحسان، على أن ذلك يُشعر بأن له دخلًا في الإفضاء إلى العقوبة التي ينبئ عنها قوله تعالى: ﴿**أولئك**﴾ ... إلخ، أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿**لهم**﴾ بسبب ذلك ﴿**اللعنة**﴾ أي الإبعادُ من رحمة الله تعالى ﴿**ولهم**﴾ مع ذلك ﴿**سوء الدار**﴾ أي سوءُ عاقبة الدنيا أو عذابُ جهنم فإنها دارُهم، لأن ترتيبَ الحكمِ على الموصول مُشعرٌ بعلّية الصلةِ له، ولا يخفى أنه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير، فإن مجازاةَ السيئةِ بمثلها مأذونٌ فيها. ودفعُ الكلام السيئ بالحسن وكذا الإعطاءُ عند الظلم والوصلُ عند القطع ليس مما يورِثُ ترْكُه تبعةً، وأما ما اعتبر اندراجُه تحت الصلةِ الثانيةِ من الإخلال ببعض الحقوقِ المندوبة فلا ضير في ذلك لأن اعتبارَه من حيث إنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم بالكفر ببعض الأنبياءِ وعقوقِ الوالدين وتركِ سائر الحقوق الواجبةِ، وتكريرُ لهم للتأكيد والإيذانِ باختلافهما واستقلالِ كل منهما في الثبوت.

﴿**الله يبسط الرزق**﴾ أي يوسّعه ﴿**لمن يشاء**﴾ من عباده ﴿**ويقدر**﴾ أي يضيّقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمةُ من غير أن يكون لأحد مدخلٌ في ذلك ولا شعورٌ بحكمته فربما يبسُطه للكافر إملاءً واستدراجًا وربما يضيّقه على المؤمن زيادةً لأجره فلا يغترُّ ببسطه الكافر كما لا يَقنط بقدره المؤمنُ ﴿**وفرحوا**﴾ أي أهلُ مكة فرَحَ أشر وبطر، لا فرحَ سرورٍ بفضل الله تعالى ﴿**بالحياة الدنيا**﴾ وما بُسط لهم فيها من نعيمها ﴿**وما الحياة الدنيا**﴾ وما يتبعها من النعيم ﴿**في الآخرة**﴾ أي في جنب نعيمِ الآخرة ﴿**إلا متاع**﴾ إلا شيءٌ نزْرٌ يُتمتع به كعُجالة الراكب وزادِ الراعي، والمعنى

أنهم رضُوا بحظ الدنيا معرِضين عن نعيم الآخرةِ، والحالُ أن ما أشِروا به في جنب ما أعرضوا عنه شيءٌ قليل النفع سريعُ النفاد.

دحض حجة الكفار

﴿ويقول الذين كفروا﴾ أي أهلُ مكة، وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتِهم عقيبَ ذكرِ فرحِهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيلِ عليهم بالكفر فيما حُكي عنهم من قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ فإن ذلك في أقصى مراتبِ المكابرةِ والعِناد كأن ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات العظامِ الباهرةِ ليس بآية حتى اقترحوا ما تقتضيه الحِكمةُ من الآيات المحسوسةِ التي لا يبقىٰ لأحد بعد ذلك طاقةٌ بعدم القَبول ولذلك أُمر في الجواب بقوله تعالى: ﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ إضلالَه مشيئةً تابعة للحكمة الداعيةِ إليها أي يخلُق فيه الضلال لصرفه اختيارَه إلى تحصيله ويدعُه منهمكًا فيه لعلمه بأنه لا ينجَع فيه اللطفُ ولا ينفعه الإرشاد، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعِناد وشدةِ الشكيمةِ والغلوِّ في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءتْه كلُّ آية ﴿ويهدي إليه﴾ أي إلى جنابه العليِّ الكبير هدايةً موصِلةً إليه لا دَلالةً مطلقة على ما يوصِل إليه فإن ذلك غيرُ مختصٍ بالمهتدين، وفيه من تشريفهم ما لا يوصف ﴿من أناب﴾ أقبل إلى الحق وتأملَ في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحةِ، وحقيقةُ الإنابة الدخولُ في نوبة الخير، وإيثارُ إيرادِها في الصلة على إيراد المشيئةِ كما في الصلة الأولى، لا للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة، وفيه حث للكفرة على الأقلاع عما هم عليه من العتو والعِناد، وإيثارُ صيغةِ الماضي للإيماء إلى استدعاء الهدايةِ لسابقة الإنابة كما أن إيثارَ صيغةِ المضارعِ في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئةِ حسب استمرار مكابرتهم.

﴿الذي آمنوا﴾ بدل مِن (مَن أناب فإن أريد بالهداية الهدايةُ المستمرةُ فالأمر ظاهر لظهور كونِ الإيمانِ مؤديًا إليها، وإن أريد إحداثُها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرُهم إلى الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة، الآية ٢] أي

الصائرين[١] إلى التقوى وإلا فالإيمانُ لا يؤدّي إلى الهداية نفسها، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿**وتطمئن قلوبهم**﴾ أي تستقر وتسكُن ﴿**بذكر الله**﴾ بكلامه المعجزِ الذي لا ريب فيه كقوله تعالى: ﴿وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه﴾ [الأنبياء، الآية ٥٠] وقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكرَ وإنا له لحافظون﴾ [الحجر، الآية ٩] ويعلمون أن لا آيةَ أعظمُ منه فيقترحوها، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لإفادة دوامِ الاطمئنان وتجدّده حسبَ تجدّدِ الآيات وتعددها ﴿**ألا بذكر الله**﴾ وحده ﴿**تطمئنَ القلوب**﴾ دون غيرِه من الأمور التي تميل إليها النفوسُ من الدنيويات، وهذا ظاهر، وأما سائرُ المعجزات فالقصرُ من حيث إنها ليست في إفادة الطُّمأنينة بالنسبة إلى من لم يشاهدْها بمثابة القرآنِ المجيدِ فإنه معجزةٌ باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كلُّ أحد وتطمئن به القلوبُ كافة، وفيه إشعارٌ بأن الكفرةَ ليست لهم قلوبٌ تفقه وأفئدتُهم هواءٌ حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدّوه آيةً وهو أظهرُ الآياتِ وأبهرُها، وقيل: تطمئن قلوبُهم بذكر رحمتِه ومغفرتِه بعد القلق والاضطرابِ من خشية الله كقوله تعالى: ﴿ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر، الآية ٢٣] أو بذكر دلائلِه الدالةِ على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أُنسًا به وتبتلًا إليه فالمرادُ بالهداية دوامُها واستمرارُها. ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ بدلٌ من القلوب على حذف المضافِ بدلَ الكلِّ حسبما رُمز إليه أي قلوبُ الذين آمنوا، وفيه إيماءٌ إلى أن الإنسان إنما هو القلبُ، أو مبتدأٌ خبرُه الجملة الدعائيةُ على التأويل أعني قوله: ﴿**طوبى لهم**﴾ أو خبرُ مبتدإٍ مضمر، أو نُصب على المدح فطوبى لهم حالٌ عاملُها الفعلان، وطوبى مصدرٌ من طاب كبُشرى وزُلفى، والواوُ منقلبةٌ من الياء كموقنٍ وموسر، وقرأ[٢] مكوزة الأعرابي طِيبىٰ لتسلم الياء، والمعنى أصابوا خيرًا ومحلُّها النصبُ كـ (سلامًا لك) أو الرفعُ على الابتداء وإن كانت نكرةً لكونها في معنى الدعاء كـ (سلامٌ عليك)، يدل على ذلك القراءة في قوله تعالى: ﴿**وحسن مآب**﴾ بالنصب[٣] والرفع[٤] واللامُ في (لهم) للبيان مثلها في (سُقيًا لك).

---

(١) في خ: الصابرين.

(٢) قرأ بها أيضًا: بكرة الأعرابي.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٩)، وتفسير الرازي (١٩/ ٥١).

(٣) قرأ بها: ابن محيصن، وعيسى الثقفي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٩)، وتفسير الرازي (١٩/ ٥١).

(٤) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩٠).

تسلية النبي ﷺ

﴿كذلك﴾ مثلَ ذلك الإرسالِ العظيمِ الشأن المصحوبِ بهذه المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك في أمة قد خلت﴾ أي مضت ﴿من قبلها أمم﴾ كثيرة قد أُرسل إليهم رسل ﴿لتتلوَ﴾ لتقرأ ﴿عليهم الذي أوحينا إليك﴾ من الكتاب العظيمِ الشأن وتهديَهم إلى الحق رحمةً لهم، وتقديمُ المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما في قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرَك﴾ [الشرح، الآية ٢] وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرِدُ وحسنِ قولها عند ورودِه عليها ﴿وهم﴾ أي والحالة أنهم ﴿يكفرون بالرحمٰن﴾ بالبليغ الرحمةِ الذي وسعت كلَّ شيء رحمتُه وأحاطت به نعمتُه. والعدول إلى المُظهر المتعرِّض لوصف الرحمةِ من حيث إن الإرسالَ ناشئ منها كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٧] فلم يقدِروا قدرَه ولم يشكروا نِعمَه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسال مثلِك إليهم وأنزل القرآنَ الذي هو مدارُ المنافع الدينية والدنيويةِ عليهم، وقيل: نزلت في مشركي مكةَ حين أُمروا بالسجود فقالوا: وما الرحمٰن؟

﴿قل هو﴾ أي الرحمٰن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ربي﴾ الربُّ في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغُ الشيء إلى كمالِه شيئًا فشيئًا ثم وُصف به مبالغةً كالصوم والعدْل، وقيل: هو نعت، أي خالقي ومبلّغي إلى مراتب الكمالِ، وإيرادُه قبل قوله: ﴿لا إلٰه إلا هو﴾ أي لا مستحقَّ للعبادة سواه تنبيهٌ على أن استحقاقَ العباد منوطٌ بالربوبية، وقيل: إن أبا جهل سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**يا الله يا رحمٰنُ**» فرجع إلى المشركين فقال: إن محمدًا يدعو إلٰهيْن فنزلت[1]، ونزل قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰنَ﴾ [الإسراء، الآية ١١٠] الآية ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري لا سيما في النصرة عليكم لا على أحد سواه ﴿وإليه﴾ خاصة ﴿متاب﴾ أي توبتي كقوله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ [محمد، الآية ١٩. وسورة غافر، الآية ٥٥] أُمر عليه السلام بذلك إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفةُ الأنبياء وبعثًا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجهٍ وألطفه

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ١٩).

فإنه عليه السلام حيث أُمر بها وهو منزّهٌ عن شائبة اقترافِ ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي مما لا بد منه أصلًا وقد فُسّر المتابُ بمطلق الرجوعِ، فقيل: مرجعي ومرجعُكم [وزِيد](١): فيحكُم بيني وبينكم، وقد قيل: فيثيبُني على مصابرتكم فتأمل.

﴿**ولو أن قرآنًا**﴾ أي قرآنًا ما وهو اسمُ أن والخبر قوله تعالى: ﴿**سيرت به الجبال**﴾ وجوابُ لو محذوفٌ لانسياق الكلام إليه بحيث يتلقّفه السامعُ من التالي والمقصودُ **إما** بيانُ عِظم شأنِ القرآنِ العظيم وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدروا قدرَه العليَّ ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام **وإما** بيانُ غلوهم في المكابرة والعِنادِ وتماديهم في الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآنًا سُيّرت به الجبالُ أي بإنزاله أو بتلاوته عليها وزُعزعت عن مقارّها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿**أو قطعت به الأرض**﴾ أي شُقّقت وجُعلت أنهارًا وعيونًا كما فُعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعًا متصدّعة ﴿**أو كلم به الموتى**﴾ أي بعد أن أحييَ بقراءته عليها كما أحييتْ لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآنَ لكونه الغايةَ القصوى في الانطواء على عجائبِ [آثارِ](٢) قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبل لرأيتَه خاشعًا متصدّعًا من خشية الله﴾ [الحشر، الآية ٢١] لا في الإعجاز إذ لا مدخل له في هذه الآثار ولا في التذكير والإنذار والتخويفِ لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقةَ لها بتكليم الموتى، واعتبارُ فيض العقول إليها مُخلٌّ بالمبالغة المقصودة، وتقديمُ المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غيرَ مرة من قصد الإبهام ثم التفسيرِ لزيادة التقريرِ، لأن بتقديم ما حقُّه التأخيرُ تبقى النفسُ مستشرفةً ومترقّبةً إلى المؤخر أنه ماذا؟ فيتمكّن عند ورودِه عليها فضلُ تمكن، وكلمةُ أو في الموضعين لمنع الخلوّ لا لمنع الجمع، واقتراحُهم وإن كان متعلقًا بمجرد ظهورِ مثل هذه الأفاعيلِ العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآنِ لكن ذلك حيث كان مبنيًا على عدم اشتمالِه في

---

(١) سقط في خ.

(٢) سقط في خ.

زعمهم على الخوارق نيط ظهورُها به مبالغةً في بيان اشتمالِه عليها وأنه حقيقٌ بأن يكون مصدرًا لكل خارقٍ، وإبانةً لركاكة رأيهم في شأنه الرفيعِ كأنه قيل: لو أن ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتَضيات الحِكمة لكان مظهرُها هذا القرآنَ الذي لم يعدّوه آية، وفيه من تفخيم شأنه العزيزِ ووصفِهم بركاكة العقلِ ما لا يخفى ﴿**بل لله الأمر جميعًا**﴾ أي له الأمرُ الذي عليه يدور فلكُ الأكوان وجودًا وعدمًا يفعل ما يشاء ويحكمُ ما يريد لما يدعو إليه من الحِكَم البالغةِ، وهو إضرابٌ[1] عما تضمنته الشرطيةُ من معنى النفي لا بحسب منطوقِه بل باعتبار موجِبه ومؤدّاه أي لو أن قرآنًا فُعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآنَ، ولكن لم يُفعل بل فُعل ما عليه الشأنُ الآن لأن الأمرَ كلَّه له وحده فالإضرابُ ليس بمتوجِّهٍ إلى كون الأمرِ لله سبحانه بل إلى ما يؤدِّي إليه ذلك من كون الشأنِ على ما كان لما تقتضيه الحِكمة من بناء التكليف على الاختبار.

﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا**﴾ أي أفلم يعلموا على لغة هوازنَ أو قومٍ من النَّخْع أو على استعمال اليأس في معنى العِلم لتضمّنه له، ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعةٍ من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم (أفلم يتبينْ)[2] بطريق التفسير. والفاءُ للعطف على مقدر أي أغفَلوا عن كون الأمرِ جميعًا لله تعالى فلم يعلموا ﴿**أن لو يشاء الله**﴾ على حذف ضميرِ الشأنِ وتخفيفِ أن ﴿**لهدى الناس جميعًا**﴾ بإظهار أمثالِ تلك الآثارِ العظيمةِ فالإنكارُ متوجهٌ إلى المعطوفين جميعًا، أو أعلموا كونَ الأمر جميعًا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلمُ مما ذكر فهو متوجِّهٌ إلى ترتب المعطوفِ على المعطوف عليه، أي تخلف العلم الثاني عن العلم الأول وعلى التقديرين فالإنكارُ [إنكارُ الوقوعِ كما في قوله تعالى: ﴿ألم يعدْكم ربكم وعدًا حسنًا﴾ [طه، الآية ٨٦] لا إنكارِ][3] الواقع كما في قولك ألم تخفِ الله حتى

---

(١) في خ: اضطراب.

(٢) قرأ بها أيضًا: عكرمة، وابن أبي مليكة، والجحدري، وعلي بن الحسين، وزيد بن علي، وأبو زيد المزني، وعلي بن بذيمة، وعبد الله بن يزيد، جعفر بن محمد.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٩٣)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٥٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٢٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٠)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٩٢)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٧).

(٣) سقط في خ.

عصيتَه، ثم إن مناطَ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمِهم بعدم تحققِ مقدَّمها، كأنه قيل: ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتَهم لهداهم وأنه لم يشأْها وذلك لأنهم كانوا يودُّون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الإيمان، وعلى الثاني لو أن قرآنًا فُعل به ما فُصِّل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى: ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكةَ وكلمهم الموتى﴾ الآية [الأنعام، الآية ١١١]، فالإضرابُ حينئذٍ متوجّهٌ إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شُرح أي فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعًا إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعيةُ الحكمةِ من غير أن يكون لأحد عليه تحكّم أو اقتراحٌ، واليأسُ بمعنى القنوط، أي ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه فلم يقنَطوا من إيمانهم حتى أحبّوا ظهورَ مقترحاتِهم؟ فالإنكارُ متوجهٌ إلى [المعطوفين أو أعلِموا ذلك فلم يقنَطوا من إيمانهم؟ فهو متوجهٌ إلى وقوع][1] المعطوفِ بعد المعطوفِ عليه أي إلى تخلف القنوط عن العلم المذكور، والإنكارُ على التقديرين إنكارُ الواقع كما في قوله تعالى: ﴿أفلا تتقون﴾ [الأعراف، الآية ٦٥] ونظائرِه، لا إنكارُ الوقوع فإن عدم قنوطِهم منه مما لا مردّ له، وقوله تعالى: ﴿أن لو يشاء الله﴾ [الرعد، الآية ٣١] إلخ، متعلّقٌ بمحذوف أي أفلم ييأسوا من إيمانهم علمًا منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعًا وأنه لم يشأ ذلك أو لآمنوا أي أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا؟ على معنى أفلم ييأس من إيمانهم المؤمنون؟ بمضمون الشرطية وبعدم تحققِ مقدّمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمةُ لو فالوصفُ المذكورُ من دواعي إنكارِ يأسِهم، وقيل: إن أبا جهل وأضرابه قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبيًا سيّر بقرآنك الجبالَ عن مكة حتى تتسعَ لنا ونتخذ فيها البساتين والقطائع، وقد سُخِّرت لداود عليه السلام فلست بأهونَ على الله منه إن كنت نبيًا كما زعمت، أو سخّر لنا به الريحَ كما سُخّرت لسليمان عليه السلام لنتّجر عليها إلى الشام فقد شق علينا قطعُ الشُقةِ البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت[2]. فمعنى تقطيعِ الأرض

(١) سقط في خ.
(٢) غريب بهذا اللفظ وأخرجه بنحوه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٢/ ٤٠) برقم (٦٧٩).

حينئذ قطعُها بالسير ولا حاجة حينئذ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيلِ المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه في الوجهين الأولين، وعن الفراء أنه متعلقٌ بما قبله من قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمٰن﴾ [الرعد، الآية ٣٠] وما بينهما اعتراضٌ وهو بالحقيقة دالٌّ على الجواب والتقدير ولو أن قرآنًا سُيّرت به الجبالُ أو قطعت به الأرض أو كُلم به الموتى لكفروا بالرحمٰن، والتذكير في كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره.

﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ من أهل مكةَ ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ أي بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه، وعدمُ بيانه إما للقصد إلى تهويله أو استهجانه وهو تصريحٌ بما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول من علّية الصلةِ له مع منافي صيغة الصنعِ من الإيذان برسوخهم في ذلك ﴿قارعة﴾ داهيةٌ تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائبِ من القتل والأسر والنهب والسلبِ، وتقديم المجرورِ على الفاعل لما مر مرارًا من إرادة التفسير إثرَ الإبهام لزيادة التقرير والإحكامِ مع ما فيه من بيانِ أن مدارَ الإصابة من جهتهم آثرَ ذي أثير ﴿أو تحل﴾ تلك القارعةُ ﴿قريبًا﴾ أي مكانًا قريبًا ﴿من دارهم﴾ فيفزَعون منها ويتطاير إليهم شَرارُها، شبِّهت القارعةُ بالعدو المتوجّه إليهم فأُسند إليها الإصابةُ تارة والحلولُ أخرى ففيه استعارةٌ بالكناية وتخييلٌ وترشيحٌ[1] ﴿حتى يأتي وعد الله﴾

---

(١) الاستعارة بالكناية محل خلاف بين العلماء، والمشهور عند علماء البيان أن الاستعارة بالكناية هي لفظ المشبه المحذوف المستعار في النفس للمشبه المرموز إليه بإثبات لازمه، وقد كتب السكاكي أن الاستعارة بالكناية هي لفظ المشبه المستعمل في المشبه الادعائي لأنه يعرف الاستعارة بقوله: أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر. مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به دالًا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به، ومذهب الخطيب أن الاستعارة بالكناية: هي التشبيه المضمر في النفس المتروك أركانه سوى المشبه المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه، وقرينة الاستعارة المكنية عند الخطيب هي الاستعارة التخييلية، ومذهب العصام في الاستعارة أنها هي لفظ المشبه به المقلوب المستعمل في المشبه المقلوب، وقرينتها هي ذكر ملائم المشبه المقلوب والقرينة حالية، والمذهب الراجح هو مذهب الخطيب القزويني وهو مأخوذ من رأي الإمام عبد القاهر في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.
ينظر: المطول للتفتازاني (٣٨٢)، وأسرار البلاغة (٣٤، ٣٥)، ودلائل الإعجاز (٣٩٤)، ومفتاح العلوم للسكاكي (٥٦)، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي (٩١)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٥٥).

أي موتُهم أو القيامةُ فإن كلاً منهما وعدٌ محتوم لا مرد له، وفيه دِلالةٌ على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدةِ وأن ما ذكر سابقًا نفحة[١] يسيرة بالنسبة إليه ثم حُقق ذلك بقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ أي الوعدَ كالميلاد والميثاق بمعنى الولادةِ والتوثِقةِ لاستحالة ذلك على الله سبحانه. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسولُ الله ﷺ يبعثها[٢] وكانوا بين إغارةٍ واختطاف وتخويفٍ بالهجوم عليهم في ديارهم فالإصابة والحلولُ حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى: ﴿أو تحل قريبًا من دارهم﴾ خطابًا للرسول ﷺ مرادًا به حلولُه الحديبيةَ، والمرادُ بوعد الله ما وعد به من فتح مكة.

﴿**ولقد استهزئ برسل**﴾ كثيرة خلَت ﴿**من قبلك فأمليت للذين كفروا**﴾ أي تركتهم ملاوةً من الزمان في أمن ودعةٍ كما يملىٰ للبهيمة في المرعى. وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما لقيَ من المشركين من التكذيب والاقتراحِ على طريقة الاستهزاءِ به ووعيدٌ لهم، والمعنى أن ذلك ليس مختصًا بك بل هو أمرٌ مطردٌ قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنةٍ من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم، والعدولُ في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المُملىٰ لهم غيرُ المستهزئين بل لإرادة الجمعِ بين الوصفين أي فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط ﴿**ثم أخذتهم فكيف كان عقاب**﴾ أي عقابي إياهم، وفيه من الدلالة على تناهي كيفيته في الشدة والفظاعة ما لا يخفى.

﴿**أفمن هو قائم**﴾ أي رقيبٌ مهيمنٌ ﴿**على كل نفس**﴾ كائنة من كانت ﴿**بما كسبت**﴾ من خير أو شر لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك بل يجازي كلاً بعمله وهو الله تعالى، والخبرُ محذوفٌ أي كمن ليس كذلك إنكارًا لذلك، وإدخالُ الفاء لتوجيه الإنكارِ إلى توهم المماثلة غبَّ ما عُلم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الإملاء المديدِ والأخذ الشديد ومن كون الأمرِ كله لله تعالى وكونِ هداية الناس جميعًا منوطةً بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارعِ على الكفرة إلى أن يأتيَ وعدُ الله كأنه قيل:

---

(١) في خ: المنحة.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٢٩٤).

الأمرُ كذلك، فمن هذا شأنُه كما ليس في عداد الأشياء حتى تُشركوه به؟ فالإنكار متوجهٌ إلى ترتب المعطوفِ أعني توهّمَ المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعني كونَ الأمر كما ذُكر كما في قولك: أتعلم الحقَّ فلا تعملُ به؟ لا إلى المعطوفين جميعًا كما إذا قلت ألا تعلمه فلا تعملُ به، وقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ جملةٌ مستقلة جيء بها للدلالة على الخبر أو حالية، أي أفمن هذه صفاتُه كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاءَ لا شريكًا واحدًا، أو معطوفةٌ على الخبر إن قدّر ما يصلح لذلك أي أفمن هذا شأنُه لم يوحّدوه وجعلوا له شركاءَ؟ ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتًا واسمًا وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادةِ مع ما فيه من البيان بعد الإبهام بإيراده موصولًا للدلالة على التفخيم، وقوله تعالى: ﴿قل سموهم﴾ تبكيتٌ لهم إثرَ تبكيتٍ أي سمُّوهم من هم وماذا أسماؤهم أو صِفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشِرْكة ﴿أم تنبئونه﴾ أي بل أتنبئون الله ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾ أي بشركاءَ مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرة في السموات والأرض وقرئ[1] بالتخفيف ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجيّ كافورًا كقوله تعالى: ﴿ذلك قولُهم بأفواههم﴾ [التوبة، الآية ٣٠] وهاتيك الأساليبُ البديعة التي ورد عليها الآيةُ الكريمةُ مناديةٌ على أنها خارجةٌ عن قدرة البشر من كلام خلاقِ القُوى والقدَر فتبارك الله رب العالمين.

﴿بل زين للذين كفروا﴾ وضع الموصولُ موضع المضمر ذما لهم وتسجيلًا عليهم بالكفر ﴿مكرهم﴾ تمويهُهم الأباطيلَ أو كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي سبيلِ الحق، من صدّه صدًا، وقرئ[2] بكسر الصاد على نقل حركة

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٩٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٢).

(٢) قرأ بها: الأعمش، ويحيى بن وثاب، ويحيى بن يعمر، وعلقمة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٢٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٢).

الدالِ إليها وقرئ[1] بفتحها أي صدوا الناس أو من صد صدودًا ﴿ومن يضلل الله﴾ أي يخلق فيه الظلالَ بسوء اختياره أو يخذلْه ﴿فما له من هاد﴾ يوفقه للهدىٰ ﴿لهم عذاب﴾ شاق ﴿في الحياة الدنيا﴾ بالقتل والأسر وسائرِ ما يصيبهم من المصائب فإنها[2] إنما تصيبهم عقوبةً على كفرهم ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿وما لهم من الله﴾ من عذابه المذكور ﴿من واق﴾ من حافظ يعصِمهم من ذلك، فمِن الأولى صلةٌ للوقاية والثانية مزيدةٌ للتأكيد.

نعيم الجنة

﴿مثل الجنة﴾ أي صفتُها العجيبة الشأنِ التي في الغرابة كالمثل ﴿التي وعد المتقون﴾ عن الكفر والمعاصي وهو مبتدأ خبرُه محذوفٌ عند سيبويه أي فيما قصصنا عليك مثلُ الجنة وقوله تعالى: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ تفسير لذلك المثَل على أنه حالٌ من الضمير المحذوف من الصلة العائدِ إلى الجنة أي وعدها وهو الخبرُ عند غيره، كقولك: شأن زيد يأتيه الناسُ ويعظمونه أو على حذف موصوفٍ أي مثلُ الجنة جنةٌ تجري . . . إلخ ﴿أكلها﴾ ثمرُها ﴿دائم﴾ لا ينقطع ﴿وظلها﴾ أيضًا كذلك لا تنسخه الشمسُ كما تنسخ ظلالَ الدنيا ﴿تلك﴾ الجنة المنعوتةُ بما ذكر ﴿عقبى الذين اتقوا﴾ الكفرَ والمعاصيَ أي مآلهم ومنتهى أمرِهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ لا غيرُ، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين وإقناطِ الكافرين ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب كعبدالله بنِ سلام وكعبٍ وأضرابِهما ومَنْ آمن من النصارى وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجرانَ، وثمانيةٌ باليمن، واثنانَ وثلاثون بالحبشة ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ إذ هو الكتابُ الموعودُ في التوراة والإنجيل ﴿ومن الأحزاب﴾ أي من أحزابهم وهم كفرتُهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة نحو كعب بن الأشرفِ والسيدِ والعاقبِ أسقُفيْ نجرانَ وأتباعِهما ﴿من ينكر بعضه﴾

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩٥)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٥٧)، والتيسير للداني ص (١٣٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠١)، والمجمع للطبرسي (٦/ ٢٩٤).

(٢) في خ: فإنهم.

وهو الشرائعُ الحادثة إنشاءً أو نسخًا لا ما يوافق ما حرفوه وإلا لنُعيَ عليهم من أول الأمر أن مدارَ ذلك إنما هو جناياتُ أيديهم، وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به، وقيل: يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتُهم فإنهم أيضًا يفرحون به لكونه مصداقًا لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى: ﴿ومن الأحزاب﴾ . . . إلخ، تتمةً بمنزلة أن يقال: ومنهم من ينكر بعضه.

﴿قل﴾ إلزامًا لهم وردا لإنكارهم ﴿إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أي شيئًا من الأشياء أو لا أفعل الإشراكَ به، والمراد قصرُ الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصرُ الأمرِ مطلقًا على عبادته تعالى خاصة، أي قل لهم: إنما أمرتُ فيما أُنزل إلي بعبادة الله وتوحيده، وظاهرٌ ألا سبيلَ لكم إلى إنكاره لإطباق جميعِ الأنبياءِ والكتبِ على ذلك كقوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبُدَ إلا الله ولا نشرِك به شيئًا﴾ [آل عمران، الآية ٦٤] فما لكم تشركون به عُزيرًا والمسيحَ؟ وقرئ[١] ولا أشركُ به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشركُ به ﴿إليه﴾ إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكورِ من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد ﴿أدعو﴾ الناسَ لا إلى غيره أو لا إلى شيء آخرَ مما يُطبق عليه الكتبُ الإلٰهيةُ والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فما وجهُ إنكارِكم ﴿وإليه﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿مآب﴾ مرجعي للجزاء، وحيث كانت هذه الحجةُ الباهرة لازمةً لهم لا يجدون عنها محيصًا أُمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبَهم بذلك إلزامًا وتبكيتًا لهم، ثم شرُع في رد إنكارِهم لفروع الشرائع الواردةِ ابتداءً أو بدلًا من الشرائع المنسوخةِ ببيان الحكمةِ في ذلك فقيل:

من حكمة الله تعالى

﴿وكذلك أنزلناه﴾ أي ما أنزل إليك، وذلك إشارةٌ إلى مصدر أنزلناه أو أنزل

---

(١) قرأ بها: نافع.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٣٩٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٢٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٢).

إليك، ومحلُّه النصبُ على المصدرية أي مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ المنتظم لأصول مجمَعٍ عليها وفروعٍ متشعبة إلى موافِقة ومخالِفة حسبما تقتضيه قضيةُ الحكمةِ والمصلحة أنزلناه ﴿**حكمًا**﴾ حاكمًا يحكم في القضايا والواقعات بالحق أو يُحكم به كذلك، والتعرضُ لذلك العنوان مع أن بعضَه ليس بحكم لتربية وجوبِ مراعاتِه وتحتم المحافظةِ عليه ﴿**عربيا**﴾ مترجمًا بلسان العربِ، والتعرضُ لذلك للإشارة إلى أن ذلك إحدى موادِّ المخالفة للكتب السابقةِ مع أن ذلك مقتضى الحكمةِ إذ بذلك يسهُل فهمه وإدراكُ إعجازه، والاقتصارُ على اشتمال الإنزالِ على أصول الديانات المجمعِ عليها حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ [الرعد، الآية ٣٦] إلخ، يأباه التعرّض لاتباع أهوائِهم وحديثِ المحو والإثبات، وأنْ لكل أجلٍ كتابٌ فإن المجمعَ عليه لا يتصور فيه الاستتباعُ والاتباع ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم**﴾ التي يدعونك إليها من تقرير الأمور المخالفةِ لما أنزل إليك من الحق كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل ﴿**بعد ما جاءك من العلم**﴾ العظيمِ الشأن الفائضِ من ذلك الحُكم العربيِّ أو العلم بمضمونه ﴿**ما لك من الله**﴾ من جنابه العزيز، والالتفاتُ من التكلم إلى الغَيبة وإيرادُ الاسم الجليلِ لتربية المهابة، قال الأزهري: لا يكون إلٰهًا حتى يكون معبودًا وحتى يكون خالقًا ورازقًا ومدبرًا. ﴿**من ولي**﴾ يلي أمرَك وينصرك على من يبغيك الغوائلَ ﴿**ولا واق**﴾ يقيك من مصارع السوءِ وحيث لم يستلزم نفيُ الناصرِ على العدو نفيَ الواقي من نكايته أُدخل على المعطوف حرفُ النفي للتأكيد، كقولك: ما لي دينارٌ ولا درهم، أو ما لك من بأس الله من ناصر وواقٍ لاتباعك أهواءَهم. وأمثالُ هاتيك القوارعِ إنما هي لقطع أطماعِ الكفرة وتهييجِ المؤمنين على الثبات في الدين، واللام في لئن موطئةٌ وما لك سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم.

﴿**ولقد أرسلنا رسلًا**﴾ كثيرةً كائنة ﴿**من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية**﴾ نساء وأولادًا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يَعيبونهﷺ بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿ما لهذا الرسولِ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: ٧]؟ إلخ ﴿**وما كان لرسول**﴾ منهم أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسعه ﴿**أن يأتي**

بآية﴾ مما اقتُرح عليه وحكم مما التُمس منه **﴿إلا بإذن الله﴾** ومشيئتِه المبنية على الحِكم والمصالحِ التي عليها يدور أمرُ الكائنات لا سيما مثلُ هذه الأمورِ العظام، والالتفاتُ لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملةِ بالإيماء إلى العلة **﴿لكل أجل﴾** أي لكل مدةٍ ووقت من المُدد والأوقات **﴿كتاب﴾** حكمٌ معين يُكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمةُ فإن الشرائعَ كلها لإصلاح أحوالِهم في المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلافِ أحوالِهم المتغيّرةِ حسب تغيّرِ الأوقات كاختلاف العِلاج حسب اختلافِ أحوالِ المرضى بحسب الأوقات.

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ أي ينسخ ما يشاء نسخَه من الأحكام لما تقتضيه الحكمةُ بحسب الوقت **﴿ويثبت﴾** بدلَه ما فيه المصلحةُ أو يبقيه على حاله غيرَ منسوخ أو يثبتُ ما شاء إثباتَه مطلقًا أعمَّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو من ديوان الحفَظةِ الذين ديدنُهم كَتْبُ كلِّ قولٍ وعملٍ ما لا يتعلق به الجزاءُ ويثبت الباقيَ، أو يمحو سيئاتِ التائبِ ويثبت مكانها الحسنةَ أو يمحو قَرْنًا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسداتِ من العالم الجُسماني ويثبت الكائناتِ، أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة، وبه قال ابن مسعود وابنُ عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداءَ وهذا رواه جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام[١]، والأنسبُ تعميمُ كل من المحو والإثبات ليشمل الكل، ويدخلُ في ذلك موادُّ الإنكار دخولًا أوليًا وقرئ[٢] بالتشديد **﴿وعنده أم الكتاب﴾** أي أصلُه وهو اللوحُ المحفوظُ إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوبٌ فيه كما هو **﴿وإما نرينك﴾** أصلُه إنْ نُرِكَ وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ومن ثمةَ أُلحقت النون بالفعل **﴿بعض الذي نعدهم﴾** أو وعدناهم من إنزال العذابِ عليهم، والعدولُ إلى صيغة المضارع لحكاية الحالِ الماضيةِ أو نعدهم وعدًا متجددًا حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذار، وفي إيراد البعض

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨٤) برقم (٢٠٤٨٧).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩٩)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٦٤)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٥٩).

رمزٌ إلى إراءة بعض الموعودِ ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي تبليغُ أحكام الرسالةِ بتمامها لا تحقيقُ مضمون ما بلّغته من الوعيد الذي هو من جملتها ﴿وعلينا﴾ لا عليك ﴿الحساب﴾ محاسبةُ أعمالهم السيئةِ والمؤاخذةُ بها أي كيفما دارت الحالُ أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نُرِكَه فعلينا ذلك وما عليك إلا تبليغُ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتمّ ما وعدناك من الظفر ولا يُضجِرْك[1] تأخرُه فإن ذلك لما نعلم من المصالح الخفيةِ ثم طيَّب نفسَه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال: ﴿أولم يروا﴾ استفهامٌ إنكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأنكروا نزولَ ما وعدناهم أو أشكّوا أو ألم ينظرُوا في ذلك ولم يرَوا؟ ﴿أنا نأتي الأرض﴾ أي أرضَ الكفر ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا ونُلحقَها بدار الإسلام ونُذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاءِ أليس هذا من ذلك؟ ومثلُه قوله عز سلطانه: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرضَ ننقصُها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ [الأنبياء، الآية ٤٤] وقوله: (ننقُصها) حالٌ من فاعل نأتي أو من مفعوله، وقرئ[2] نُنَقِصها بالتشديد وفي لفظ الإتيان المؤذِن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل: ﴿وقدِمْنا إلى ما عمِلوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا﴾ [الفرقان، الآية ٢٣].

﴿والله يحكم﴾ ما يشاء وقد حكم للإسلام بالعزة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار حسبما يشاهَد من المخايل والآثار، وفي الالتفات من التكلم إلى الغَيبة وبناءِ الحُكم على الاسم الجليل من الدِلالة [على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى، وهي جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى][3] ما تقدمها وقوله تعالى: ﴿لا معقب لحكمه﴾ اعتراضٌ في اعتراض لبيان

---

(١) في خ: يضرك.

(٢) قرأ بها: الضحاك.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠٠)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٤).

(٣) سقط في ط.

علوّ شأن حكمِه جل جلاله، وقيل: نصبٌ على الحالية، كأنه قيل: والله يحكمُ نافذًا حكمُه، كما تقول: جاء زيد لا عمامةٌ على رأسه أي حاسرًا، والمعقّب من يكُرّ على الشيء فيبطله وحقيقتُه مِن يعقّبه ويقفّيه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقّب لأنه يقفّي غريمَه بالاقتضاء والطلب ﴿وهو سريع الحساب﴾ فعما قليلٍ يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانينِ العذاب غِبّ ما عذبهم بالقتل والأسر والإجلاءِ حسبما يُرى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سريعُ الانتقام[١].

﴿وقد مكر﴾ الكفار ﴿الذين﴾ خلَوا ﴿من قبلهم﴾ من قبل كفار مكةَ بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاءِ، وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرةَ بمكرهم ولا تأثير، بل لا وجود له في الحقيقة، ولم يصرّح بذلك اكتفاءً بدلالة القصرِ المستفادِ من تعليله أعني قوله تعالى: ﴿فللّه المكرُ﴾ أي جنسُ المكر ﴿جميعًا﴾ لا وجودَ لمكرهم أصلًا، إذ هو عبارةٌ عن إيصال المكروهِ إلى الغير من حيث لا يشعُر به، وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرتِه، وإنما لهم مجردُ الكسب من غير فعلٍ ولا تأثير حسبما يبيّنه قوله عز وجل: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ ومن قضيته عصمةُ أوليائِه وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكل نفس جزاءَ ما تكسِبه، ظهر[٢] أنْ ليس لمكرهم بالنسبة إلى مَن مكروا بهم عينٌ ولا أثرٌ وأن المكرَ كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرُهم من حيث لا يحتسبون، أو لله المكرُ الذي باشروه جميعًا لا لهم على معنى أن ذلك ليس مكرًا منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكرٌ من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكرُ السيِّئ إلا بأهله ﴿وسيعلم الكفار﴾ حين يقضي بمقتضىٰ علمه فيوفِّي كلَّ نفس جزاءَ ما تكسبه ﴿لمن عقبى الدار﴾ أي العاقبةُ الحميدةُ من الفريقين وإن جهِلوا ذلك يومئذ، وقيل: السينُ لتأكيد وقوعِ ذلك وعلمِهم به حينئذ، وقرئ[٣]

(١) ذكره الفخر الرازي في تفسيره (١٩/ ٥٤).
(٢) جملة «ظهر أن..» هي جواب «وحيث كان جميع ما يأتون...».
(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

=

(سيعلم الكافرُ) على إرادة الجنسِ و(الكافرون)[١] و(الكفرُ)[٢] أي أهله و(الذين كفروا)[٣] و(سيُعلم)[٤] على صيغة المجهول من الإعلام أي سيُخبر ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلًا**﴾ قيل: قاله رؤساءُ اليهود، وصيغةُ الاستقبال لاستحضار صورةِ كلمتهم الشنعاءِ تعجيبًا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمرارِه منهم ﴿**قل كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم**﴾ فإنه قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعةِ والبينات الساطعةِ ما فيه مندوحةٌ عن شهادة شاهد آخرَ ﴿**ومن عنده علم الكتاب**﴾ أي علمُ القرآنِ وما عليه من النظمِ المعجز أو مَن هو مِن علماء أهلِ الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتبهم، والآية مدنيةٌ بالاتفاق أو مَنْ عنده علم اللوحِ المحفوظ وهو الله سبحانه أي كفى به شاهدًا بيننا بالذي يستحق العبادةَ فإنه قد شحَن كتابه بالدعوة إلى عبادته وأيدني بأنواع التأييدِ، وبالذي يختص بعلم ما في اللوح من الأشياء الكائنةِ الثابتةِ التي من جملتها رسالتي، وقرئ[٥] (من عندِه) بالكسر و(علمُ الكتاب) على الأول مرتفِع بالظرف المعتمد على الموصول،

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٤٠١)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٦٦)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، وتفسير الطبري (١٣/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٣٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٢).

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠١)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٦٦)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٤)، والكشف للقيسي (٢/ ٢٣)، وتفسير الرازي (١٩/ ٦٩).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ٦٩).

(٣) قرأ بها: أبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٤)، والكشف للقيسي (٢/ ٢٣)، وتفسير الرازي (١٩/ ٦٩).

(٤) قرأ بها: جناح بن حبيش.
ينظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٦٤)، وتفسير الرازي (١٩/ ٦٩).

(٥) قرأ بها: الحسن، والمطوعي، وعلي، وأبي، وابن عباس، وعكرمة، وابن جبير، وعبد الرحمن بن أبي بكرة، الضحاك، وسالم بن عبدالله، وابن عمر، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، والحكم بن عتيبة، والأعمش.

=

أو مبتدأٌ خبرُه الظرف وهو متعين على الثاني، (ومِن عنده عُلِمَ الكتابُ)[١] بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب.

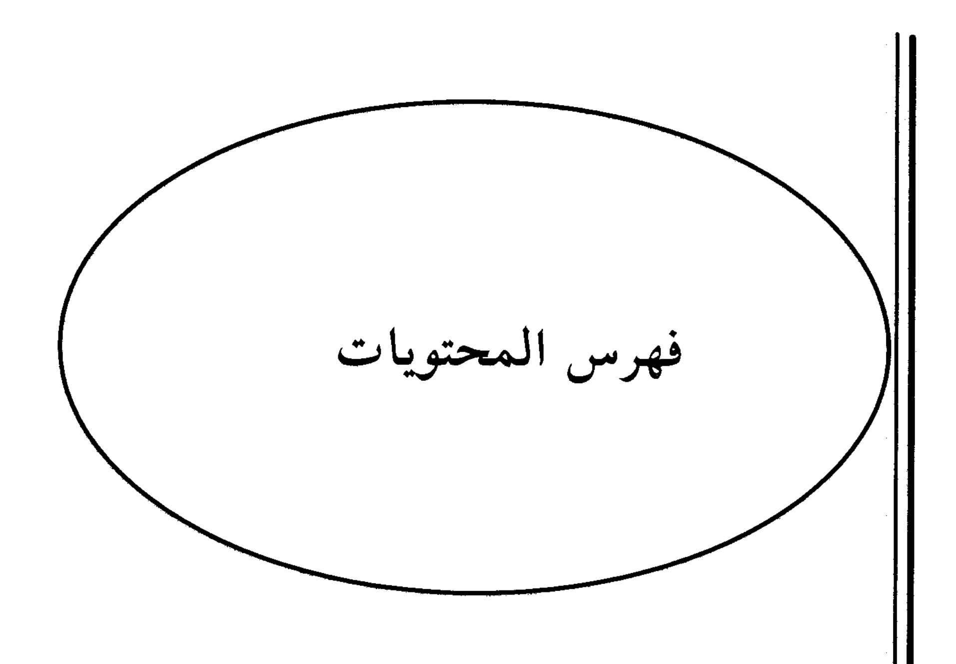
عن رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الرعد أعطيَ من الأجر عشرَ حسناتٍ بوزن كل سحابٍ مضى وكلٍّ سحابٍ يكون إلى يوم القيامة وبُعث يوم القيامة من المُوفين بعهد الله عز وجل»**[٢] والله أعلم بالصواب.

تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخاسم وأوله تفسير سورة إبراهيم

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٤٠٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٣٦)، والمحتسب لابن جني (١/ ٣٥٨).

(١) قرأ بها: علي، وابن السميفع، والحسن، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٢٧٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٣٦)، والبحر المحيط (٥/ ٤٠٢)، والتبيان للطوسي (٦/ ٢٦٨)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٣٦).

(٢) تقدم تخريجه.


فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة (براءة)

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود

تفسير سورة يوسف عليه السلام

تفسير سورة الرعد

THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN

by

Al-qāḍi Abu al-Su^c^ūd al-^c^Imādi

Edited by

Ḫālid Abdul-Ǧani Maḥfūẓ

Volume IV

